الأدب الأندلسي

التطور والتجديد

تأليف

د. محمد عبد المنعم خفاجي

الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

دار الجيل

بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

الأدب الأندلسي

التطور والتجديد

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام عليك يا أندلس

سلام عليك يا أندلس حقا

لا أقولها عن نزعات قومية، ولا عن تمجيد لتاريخ مضى فحسب، وإنما أقولها مع ذلك تمجيداً للحضارة، وللانسانية، وللبناء والتقدم من أجل سعادة الانسان

ولا أقولها هُدُورا عن بواعث روحية فقط، وإنما أقولها مع هذا إعجابا بروح العربي الطامح إلى أعلى درجات العزة والسؤدد، والذي لم يقْصِرْ عمله وكده على مكان دون مكان في الأرض، ولا على قوم دون قوم من الناس؛ لان الأرض كلها، والناس جميعا ملك للانسانية، للبشرية المجددة، للتقدم والنهضة والعمل الشريف المثمر

وحين كتبت هذا الكتاب في دراسة الأدب الأندلسي، ومواقفه ومذاهبه وتياراته ومدارسه بين التطور والتجديد، كنت أعمل على استكمال حلقة من حلقات تاريخنا الأدبي تتميما لموسوعتي عن الأدب العربي التي تناهز المائة كتاب؛ وكنت أحاول الكشف عن تاريخ أسلافنا الذين صعدوا بكفاحهم إلى ذروة المجد والخلود؛ وكنت أحرص على أن أستشفَّ روح

آبائنا الذين سعوا إلى كل مجال شريف من الحياة، ودفعتهم هذه الروح إلى كل عمل عظيم خلد ذكرهم من تاريخ الفكر الانساني.

وإني لسعيد حقا أن أقدم هذا الكتاب الى قراء العربية وأدبائها ... من أجل التاريخ .. والحضارة .. والانسان

عبد المنعم خفاجي

الحضارة العربية في الأندلس

حضارة شامخة، خالدة على مر الزمان، هي حضارة العرب والأندلس، حضارة هزت الدنيا، وخلدت على صفحات التاريخ، ولا تزال حديثا عذبا في الأفواه. إن قصة الحضارة العربية في الأندلس لا يمكن أن يستوعبها باحث،فقد ضاع الكثير من وثائقها في مأساة مصرع الأندلس وطرد العرب عنها، حين هب الأسبانيون يحرقون الكتب العربية، ويهدمون المكتبات والجامعات ويذبحون العلماء والمفكرين والأدباء، ويقضون على آثار العرب في الأندلس القضاء الأخير، ولسوء الحظ أتلفت مكتبة العرب في أسبانيا. وكانت تحوي كثيراً من آثار مفكري وشعراء الأندلس وأدبائها الذين صقلوا أدبهم بالبيئة الأندلسية الجديدة؛ التي أضافت إلى بلاغتهم في التعبير مقدرة فائقة في الخيال والتصور مما جعل الأدب العربي في الأندلس — كما يستدل من البقية التي تخلفت لنا — من أجود آداب اللغة العربية منذ قدمها. وبعد طرد العرب من الأندلس، احتفظ بعض القساوسة بشيء من الآثار الأدبية العربية التي كانت في مكتبات العرب هناك، ولا يزال هذا البعض موجوداً لهذا الوقت في مكتبة الاسكوريال بمدريد، وهي المكتبة الوحيدة التي تعد من أهم مكتبات العالم التي تحوي كمية من المخطوطات العربية في عصر العرب بالأندلس. كذلك احتفظت مكتبة روما وكذا مكتبة برلين بشيء من تلك الآثار الأدبية، هي للآن المرجع الوحيد الذي يعتمد عليه جماعة المستشرقين والباحثين في دراساتهم

وبحوثهم عن قصة الأدب والحضارة في الأندلس. وعلى الرغم أن كتب العرب في الأندلس، لم تفقد كلها، فان مما لا شك فيه أنه يحتمل أن يكون ضمن الجزء المفقود منها شيء غير قليل من الآثار الفكرية والأدبية التي ربما كان يحق للغة العربية أن تفخر بها. ومع ذلك فإن كثيراً من شعر شعراء الأندلس المعروفين غير كامل، وكثيراً من القصائد ناقصة ومبتورة، بل إن ثمة شعراء يعرفون بالاسم وأشعارهم بالوصف، وأما أين أشعارهم وآثارهم، فهذا مما لم نطلع عليه، لأنها من الآثار الأدبية المفقودة.

ومكتبة « الاسكوريال » بمدريد لا تحتوي اليوم على الكثير من التراث الأندلسي الفكري والعلمي والأدبي، ولما أنشئت أودع فيها عدة آلاف من المخطوطات العربية الأندلسية، وذلك منذ أواسط القرن السابع عشر، ومع ذلك فقد كانت هذه المخطوطات القليلة أنفس مجموعة من نوعها؛ ولكن حدث بها عام ١٦٧١ حريق التهم ثلاثة أرباع هذا الكنز الفريد، وبقي منها نحو ١٨٥٠ مخطوطاً عربياً. وإن الكردينال كمنيس مطران طليطلة الذي أمر بإحراق الكتب والآثار العربية في ساحات غرناطة عام ١٤٩٩ قد ارتكب عملاً يخالف الإنسانية، إذ لم يستثن من الكتب العربية سوى ثلاثمائة من كتب الطب العربية وهبت لجامعة « الكالا ».

ويضاف إلى هذا السبب ـــ قلة المصادر العربية التي نجت من معركة الإفناء المسيحي لآثار العرب في الأندلس ـــ سبب آخر هو تعصب المسيحيين في اسبانيا من قديم ومحاولتهم طمس الحقائق الساطعة عن تاريخ العرب الحضاري والفكري في الأندلس.

ومع ذلك فقد بقيت لنا وسط هذه الحيرة والضلال مجموعة من الوثائق التاريخية تثبت لنا الكثير من روائع العرب في الأندلس وحضارتهم، وأصول مدنيتهم في الفكر والاجتماع والسياسة والعلوم الآداب والفنون،

مما يعد شهادة ناطقة بذكاء الشعب العربي وموهبته الخارقة، والمعجزات الكثيرة التي قام بها.

إن قصة الحضارة في الأندلس تنطق بها شهادات المستشرقين المنصفين، وقد جاء في صحيفة مدرسة أدنبرج الكلية : « إنا لمدينون للعرب كثيراً، ولو قال غيرنا بخلاف ذلك، فإنهم الحلقة التي وصلت مدنية أوربـا قديماً بمدنيتها حديثاً، وبنجاحهم وسمو هممهم تحرك أهل أوربـا إلى إحراز المعارف، واستفاقوا من نومهم العميق في العصور المظلمة، ونحن مدينون لهم أيضاً بترقية العلوم والفنون النافعة وكثير من المصنوعات والمخترعات التي نفعت أوربـا علماً ومدنية.

ويقول المسيو لاجيردو مستيم : « أما العرب فقد تركوا في البلاد التي احتلوها أثراً لا يزالون يذكرون به للآن، لأنهم لم يقتصروا على إدارة شئون البلاد بل قاموا بعمارتها على أساس من الحضارة والمدنية، ولقد كان شانسوا يذهب إلى بلادهم لاستشارة أطبائهم بالذات، كما ان الراهب (جربيرا) تعلم في مدارسهم قبل أن ينتخب لكرسي البابوية، وإلى القرن الخامس عشر ما كانت فرنسا تعرف أسماء المؤلفين اليونانيين إلا من طريق ترجمة كتبهم في إسبانيا الإسلامية، وأخذت فرنسا عنهم العلوم المختلفة[1]. ويقول استانلي بول في نكبة العرب بإسبانيا وتنكيل الأسبان بهم في نهاية عهدهم : « ولكنْ الإسبان لم يدركوا أنهم قتلوا الأوزة التي تبيض بيضة من ذهب في كل يوم، فقد بقيت إسبانيا قروناً في حكم العرب وهي مركز المدنية، ومنبع العلوم والفنون، ومثابة العلماء والطلاب، ومصباح الهداية والنور، ولم تصل أي مملكة في أوربـا إلى ما يقرب منها في ثقافتها وحضارتها، ولم يبلغ عصر فرديناند وإيزابيلا القصير المتلالئ، ولا امبراطورية شارل الخامس الأوج الذي بلغه المسلمون

---

(١) « رحلة الأندلس » لمحمد البتنوني.

في الأندلس، وقد بقيت حضارة العرب إلى حين بعد خروجهم من إسبانيا وضاءة لامعة[1]... ». ونحن نعلم أن حضارة العرب الزاهية في الأندلس كانت مثار إعجاب كل أوربي، سواء في أثناء حياة العرب هناك أو بعد ذلك، بل لقد ترجمت بعض الآثار العربية إلى اللغات الأوربيــة من قدم، ويروى أن أحد القساوسة أنشأ عام ١١٣٠ م معهداً في طليطلة لترجمة الكتب العربية في شتى فروع الثقافة إلى اللاتينية.

وقد ذاع في الأندلس فن البناء والهندسة والموسيقى والنحت والتصوير والغناء.

ومن مثل فن العمارة : مدينة الزهراء التي أنشأها الناصر، ومدينة الحمراء التي شادها بنو الأحمر، ومسجد قرطبة الذي شاده الداخل وأتمّه ابنه هشام.

وكثرت القصور والمساجد وسواها من الأبنية العامة، وكان في قصر قرطبة نحو خمسمائة دار، وعدد دور العامة بها ثلاثة آلاف ومائة ألف دار، وعدد دور الخاصة نحو خمسمائة وستة آلاف، وعدد المساجد فيها ٣٨٣٧ مسجداً، وعدد الحمامات ٧٠٠[2].

واتخذ عبد الرحمن الثاني القصور والمتنزهات، وجلب إليها الماء من الجبال، وأقام الجسور، وبنيت في أيامه المساجد الكثيرة والدور.

وذاعت الموسيقى ذيوعاً كبيراً، وكان لزرياب تلميذ إسحاق الموصلي أثر في ذلك كبير .. ويقول مؤرخ : إن للعرب اليد الطولى فيما تركوه من فنون الموسيقى التي ساعدت أهل أوربـا على الوصول إلى الدرجة التي وصل إليها هذا الفن الجميل الآن، فإن بمكتبة طليطلة آثاراً عظيمة

---

(١) قصة العرب في أسبانيا لاستانلي بول ص ٢٢٢.

(٢) ١ : ٣٥٥ نفح الطيب طبع أوربا.

تدل على ما كان للعرب من التقدم في ذلك الفن، وهناك جزء من المخطوطات في الموسيقى عليه بعض ملاحظات بخط ألفونس العاشر الذي كانت كل معلوماته وتربيته العقلية مكتسبة من الثقافة العربية[1].

وقد انتشر الغناء في الأندلس انتشارا لا مثيل له حتى لقد كان الطرب يغشى كل دار، وكان لقدوم زرياب تلميذ إسحق الموصلي يد مشكورة في رقي الغناء وتنسيق ضروبه وسرعة ذيوعه، فقد غنى الخلفاء والأمراء فهز أعطافهم وحرك أوتارهم، وأصاخ لمعازفه الخاصة والعامة على السواء.

وكان المغنون يروون الكثير من الأشياء الرائقة ويتغنون بها، ويقال إن زرياب كان يستظهر زهاء عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بألحانها، وكثر المغنون والمغنيات في ربوع الأندلس كثرة تستلفت النظر، وفي طليعتهم : حمدونة بنت زرياب، وهندية، وغزالان، وعبد الوهاب الحاجب فريد عصره، ونسيج وحده في براعة الغناء وعذوبة الألحان ورواية الأشعار، ثم ابن الصائغ السرقسطي الأديب المطرب. ثم فضل وعلم من مطربات القصور، ثم قمر جارية ابن حجاج اللخمي صاحب إشبيلية، وكانت تقول الشعر وتلحنه وتتغنى به، فمن ذلك قولها في مولاها :

ما في المغارب من كريم يرتجى إلا حليف الجود ابراهيم
إني حللت لديه منزل نعمة كل المنازل ما عداه ذميم

وكان الأمير أو السري إذا سمع بمغن أو مغنية بعث في طلبها، كتب أبو عامر بن ينق إلى هند جارية محمد بن عبد الله الشاطي يدعوها إلى مجلسه لتونق الاسماع، وكانت أديبة شاعرة :

يا هند هل لك في زيارة فتية نبذوا المحارم غير شرب السلسل
سمعوا البلابل قد شدت فتذكروا نغمات عودك في الثقيل الأول

(١) كتاب فياردو جـ ٢

فأجابته :

يا سيداً حاز العلا من سادة   شم الأنوف من الطراز الاول
حسبي من الإسراع نحوك أنني   كنت الجواب مع الرسول المقبل

وكان الأندلسيون جميعا يهيمون بالغناء الرقيق، لا يتورع عن سماعه عالم أو فقيه. ذكر المقري في نفح الطيب أن محمد بن سعيد القاضي خرج إلى جنازة فعرج على منزل صديق له، وبعد أن طعم، غنت جارية رب المنزل :

طابت بطيب لثاتك الأقداح   وزها بحمرة خدك التفاح
وإذا الربيع تنسمت أرواحه   نمت بعرف نسيمك الأرواح
وإذا الحنادس ألبست ظلماؤها   فضياء وجهك في الدجى مصباح

فطرب القاضي طربا عظيما، وبلغ من إعجابه بتلك الأبيات أن كتبها على ظهر يده.

ودخل ابن حوقل عام ٣٧١ هـ الاندلس، ووصفها بأنها « تغلب عليها المياه الجارية، والشجر، والثمر، والرخص، والسعة في الأحوال، من الرقيق الفاخر، والخصب الظاهر، إلى أسباب التملك الفاشية فيها؛ ولما هي به من أسباب رغد العيش، وسعته وكثرته، يملك ذلك منهم مهينهم، وأرباب صناعتهم؛ لقلة مؤونتهم وصلاح معاشهم ».

وذكر ابن بشكوال، أن جباية الأندلس بلغت، في مدة عبد الرحمن الناصر، خمسة آلاف ألف دينار، وأربعمائة ألف وثمانين ألفاً.

أما عوامل تأسيس الحضارة فقد كانت كلها ممكنة للعرب في الأندلس، فمن امتزاج العناصر وتوحد الأجناس واختلاط الدماء، مما نشأ عنه جيل عربي جديد يجمع خصائص العرب والآريين الفكرية والاجتماعية

والنفسية[1] إلى جمال البيئة[2] وخصبها واعتدال الجو فيها، وروىنق الطبيعة وتبرجها وسحرها، وهذا مما بعث على أن لانت من أجله طباعهم، ورقت عواطفهم، فنشأ جيل جديد يجري في عروقه الدم العربي، ويتصف بصفات العرب : من غيرة وكرامة، وصفاء في القريحة، واكتسب صفات الجنس الآري، من دقة الإدراك، وسعة الخيال، وقوة الفكر والتمحيص، فكان هذا الشعب الجديد لا شرقيا صرفا ولا غربيا بحتا، وامتاز في كثير من

---

(١) وقد سكن هذه البلاد أمم مختلفة قبل دخول العرب : فنزلها أول فجر التاريخ قبائل من جبال البرانس، ونزلها من الشمال الشرقي من بلاد الغال قبائل السلت والبسك والجلالقة؛ سكن بعضهم الشواطئ واستقر بعضهم وسط البلاد ونزل بها كثير من البربر سكان إفريقية الشمالية. ثم نزلها الفينيقيون وأهل قرطاجنة قبل الميلاد بقرون. ثم استولى الرومان عليها أوائل القرن الثالث الميلادي (٢٠١م) وسموها هسبانيا أو إسبانيا. ثم أغار على الرومان قبائل الفندال، فأخرجوهم من هناك، وأسسوا على نهر الوادي الكبير مملكة سموها باسمهم « الفندال »، ومنها جاءت كلمة « فندلس » التي نطق بها العرب « أندلس »، وأطلقوها على هذه البلاد. وبعد هؤلاء ملكها القوط، ثم دخلها العرب وملكوها في أواخر القرن الأول الهجري. فسكان هذه البلاد خليط من أمم مختلفة وقبائل متعددة. وقد نشأ من هذا كله جيل عربي جديد، له شتى الخصائص الحضارية.

(٢) الأندلس كانت ولا تزال من أجمل بقاع الأرض وأنضرها، مما يأخذ بالألباب، ويسبح في روعته الخيال، ويبعث على تذوق الجمال، ومجاراة الطبيعة في بهائها ونضرتها، وقد امتازت هذه البلاد بين الأقطار التي فتحها العرب بجمال طبيعتها : من أشجار باسقة، وثمار يانعة، وأنهار جارية، وجبال خضر، وطيور مغردة، وأبنية شاهقة، وقصور جميلة، ووجوه نضرة، ونسيم عليل. فملك كل ذلك من نفس العربي، ورقق من شعوره، وهذب من خياله، وصقل من ذوقه، وزاد في جمال شعره وفنون الكتابة لديه. وميزه ذلك عن أهل المشرق، وجعل للأندلسيين صبغة خاصة في الأدب العربي، وفتح أمامهم باباً واسعاً من الخيال.

ولما استقرت قدم المسلمين هناك، نزح إليها العرب من كل قبيلة، وهاجر إليها كثير من أهل المدن الإسلامية التي فتحها العرب، واتصل كل هؤلاء بسكان البلاد الأصليين : من قوط وغيرهم وتصادقوا وتحابوا وتزاوجوا، وأسلم كثير من المسيحيين واليهود، واندمج بعضهم في بعض بالمصاهرة وغيرها، وكونوا شعباً واحداً، وتشاركوا في إدارة البلاد، فقد وكل العرب إلى هؤلاء السكان كثيراً من الأعمال.

صفاته وأخلاقه عن أهل الشرق من المسلمين. ويضاف الى ذلك أن الإسلام دين الثقافة والمعرفة، ومع ما حمله العرب من روح دينهم، فقد أتيحت لهم ثقافات أخرى، هي ثقافات الأصليين التي هضموها وتأثروا بها، وزادت من معارفهم واستعدادهم.

لذلك لم يلبث العرب بعد قليل من مقامهم في الأندلس أن بنوا القصور[1] وأنشأوا الجامعات، وأقاموا المكتبات، وبنوا المدن والمباني

---

(١) بنى عبد الرحمن الداخل جامع قرطبة الأعظم، فأنفق عليه ثمانين ألف دينار، وقد ذكروا أنه قد كان فذاً في نوعه، وأن من بدائعه احتواءه نحو ٣٦٠ طاقاً على عدد أيام السنة، يدخل الشمس كل يوم من طاق، وكان به ثلاث وتسعون ومائتان وألف سارية، وفيه المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب المطعم، وكان باب المقصورة من الفضة وكان بها تفاحات من الذهب والفضة محيط كل تفاحة ثلاث أشبار ونصف، واثنان منها من الذهب الإبريز. وكان عدد بواكيه تسع عشرة من الشرق إلى الغرب، وإحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب، وبه واحد وعشرون باباً طليت بالنحاس الأصفر اللماع؛ أما المنبر فقد صنع من العاج ونفيس الخشب، وهو مؤلف من ستة وثلاثين ألف قطعة منفصلة رصع أكثرها بالأحجار الكريمة، وسمر بمسامير من الذهب، وقد بقي من جمال هذا المسجد ما هو ماثل إلى الآن، فإن السائحين يقفون اليوم دهشين أمام هذه الغاية من السواري، يروعهم فيها منظر لا يكاد ينتهي من كل جانب، ولا يزال الزجاج الفاخر يلمع لمعان الجواهر، ولا يزال المحراب بقبابه المتلاقية يملأ العيون والقلوب، ولا تزال أشجار البرتقال مورقة بصحن الجامع تساير امتداد السواري، فإذا وقف المرء أمام عظمة هذا المسجد وجماله عادت به الذكرى إلى أيام مجد قرطبة وازدهارها أيام الخليفة العظيم الناصر لدين الله التي لن تعود، ويروي المؤرخون كثيراً من أعاجيب قصور الأمير عبد الرحمن وما كان بها من الأبواب الفاخرة التي تفتح على الحدائق حولها أو على النهر، وكان بعض هذه القصور يسمى بالزاهر وبعضها بالمعشوق وبعضها بالمؤنس، ثم الكامل والمجدد والتاج وغيرها مما خلدته ألسنة الشعراء، وبعض هذه القصور يحتفظ باسم حاضرة الأمويين بالشرق « دمشق » وكان يقوم على أعمدة من الرخام، وقد رصفت أرضه أحسن رصف، وبلغ غاية الروعة والجمال. وكان حوله مائة ألف بيت للعامة، ونحو سبعمائة مسجد، وتسعمائة حمام، هذا عدا المتنزهات والبساتين، وقد بنى الناصر كذلك مدينة الزهراء التي كانت من عجائب الدنيا وقد بناها الناصر في سفح جبل العروس على بضعة =

الجليلة[1]، وشجعوا العلوم والثقافات والفنون والآداب، ونبغ في هذه البيئة العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة والمفكرون، وحسبك ابن رشد وابن باجة وابن طفيل وابن زهر، وسواهم من أعلام الفكر الأندلسي الذي أثروا في « تطور » الفكر الإنساني، وفي تعجيل بدء النهضة في أوربا.

وقد بدأ سير الحضارة في الأندلس حينما استقر الأمر لبني أمية في الأندلس أواسط القرن الثاني الهجري سنة ١٤١ هـ، وكان العباسيون قد اتصلوا بالسريان وغيرهم من العلماء الذين نشروا علم الإغريق في بلاد الجزيرة فيما بين النهرين، وأسسوا هناك مدارس للعلم منذ القرن الخامس الميلادي، فاستعان بهم الخلفاء في نقل هذه العلوم إلى اللغة العربية، كما استعانوا بالفرس أيضا. وكانت مدينتا البصرة والكوفة مقراً لعلماء اللغة والأدب، ومكة والمدينة مهبط علماء الدين ومأوى علوم الشريعة الإسلامية، وصارت بغداد مركزاً للعلوم الكونية. فكان الشرق منذ أوائل

= أميال من قرطبة، استجابة لرغبة جاريته « الزهراء » التي كان يهيم بها حباً، وقد أنفق في بنائها ٤٦٠ قنطاراً من الفضة، وطولها من الشرق ٢٧٠٠ ذراع، وعدد السواري بها أربعة آلاف وثلثمائة « وكان بها خمسة عشر ألف باب ملبس بالحديد أو النحاس المموه، وكان سقف بهو الخليفة وحيطانه من الرخام والذهب وفي وسط البهو حوض مليء بالزئبق الرجراج، إلى جانب كل منه ثمانية أبواب من العاج والأبنوس وقد رصعت بالجواهر، فإذا دخلت أشعة الشمس من هذه الأبواب ولاقت اهتزاز الزئبق، ملأت البهو ببريق يشبه لمعان البروق، حتى لقد يحجب رجال الدولة عيونهم بأيديهم لشدته، وقد أجمع كل من رأى قصر الزهراء على أنه لم ين مثله في الإسلام ألبتة، وما دخل إليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة إلا وقطع أنه لم ير له شبيهاً، بل لم يسمع، بل لم يكن يتوهم كون مثله ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرد، والقبة وعجيب ما تضمنته من إتقان الصنعة، وفخامة الهمة، وبراعة الأثاث والفرش والسجف، ما بين مرمر مسنون، وذهب مصون، وعمد كأنها أفرغت في القوالب، ونقوش كالرياض، لكفاه بعض ذلك شرفاً ونبلاً.

(١) في أيام عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ــ٢٣٨هـ) كثرت الأموال، فاتخذت القصور والمتنزهات، وجلب إليها الماء من الجبال وأقيمت الجسور، وبنيت في أيامه الجوامع، وزاد في جامع قرطبة رواقين.

القرن الثاني الهجري مورد العلوم ومنبع الثقافة، ومن ثم لم ير الأمويون بدأ من الأخذ عن أهل الشرق والرجوع إليهم عندما أرادوا نشر العلم في الأندلس؛ فاقتفوا آثار المشرقيين وأخذوا عن أئمتهم كل شيء؛ فساد مذهب الإمام مالك هناك، وكان من زعمائه يحيى الليثي الذي رحل إلى الشرق وأخذ عن الإمام مالك، وتوفي بقرطبة سنة ٢٣٤ هـ.

وكان أبو علي القالي البغدادي إمام الأدب هناك؛ وفد إلى الأندلس سنة ٣٢٨ هـ، وأخذ عنه جلة العلماء ... ومنهم أبو بكر محمد الزبيدي صاحب « مختصر العين ».

ورحل كثير من علماء الأندلس إلى بغداد وغيرها من بلاد المشرق، وأعجبوا بما كان هناك من علم وأدب. وقد ولع الخلفاء والأمراء بمجاراة أهل المشرق في علومهم ومدنيتهم، فنقل عبد الرحمن الناصر ما كان منها عند العباسيين، وأفسح صدره للعلماء والأدباء، فكانوا يفدون من المشرق حاملين علومهم وجهود عقولهم، وكان الحكم مشغوفا بالعلوم، وهو الذي بعث إلى أبي الفرج الأصفهاني بألف دينار من الذهب ليرسل إليه بكتابه « الأغاني » قبل أن يخرجه ببغداد. وقد ذاعت ثقافة العرب ببلاد الأندلس، وانتشرت لغتهم وأصبح بين اليهود والنصارى من سكان تلك البلاد كثير من الشعراء المجيدين والكتاب البلغاء، الذين يحسبون في مقدمة شعراء العرب وكتابهم. وبعد أن كانت الثقافة اللاتينية تسيطر على عقول الخاصة من السكان، أصبحت اللغة العربية أو الثقافة العربية هي لغة البلاد وثقافة الخاصة من السكان، حتى تسربت إلى الكنائس. وكانت الحياة الأدبية أكثر ذيوعا من الحياة الفلسفية إذ لم يعن أحد بالاشتغال بالفلسفة إلا قليلا.

ثم تطور سير الحضارة وازدهارها في الأندلس العربية، حينما أخذت قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس الشهيرة تنافس بغداد في العلوم والفنون، واقتناء الكتب واستهواء العلماء للمكث بها، جاء إليها كثير من العلماء،

ولا سيما عند ما أخذ بنو أمية في مجاراة خلفاء بني العباس في الإفاضة على العلماء والأدباء بالعطايا، وقلدهم في ذلك ملوك الطوائف بعدهم، وكان يفد إليها جلة علماء المشرق، وكان لزرياب المغني الذي قدم من بغداد أثر عظيم في إصلاح صناعة الغناء وبث بعض العادات التي كانت ذائعة في مجتمعات بغداد. وغير هؤلاء كثير يعدون بالمئات من الوافدين إلى بلاد الأندلس. فكانت الصلة العلمية لا تنقطع بين البلدين، وكان الطريق من بغداد إلى قرطبة آهلا بالراحلين من العلماء والأدباء؛ فقد كانت قرطبة مركز العلوم في بلاد المغرب يفد إليها الطلاب من كل مكان، ويرحل إليها الأدباء والشعراء.

كما رحل إليها من جزيرة صقلية عبد الجبار بن حمد يس الشاعر المعروف، والتحق بحاشية المعتمد بن عباد أحد ملوك الطوائف. وكذلك كان يرحل إلى بلاد المشرق كثير من العلماء والأدباء للأخذ عن أئمة الأدب والدين هناك، كما رحل إلى مكة وبغداد الإمام الفقيه يحيى بن يحيى الليثي والتقى بالإمام مالك بن أنس، وأخذ عنه مذهبه ونشره في بلاد الأندلس، وكانوا قبل ذلك يتبعون مذهب الأوزاعي.

وكانت الرحلة بين المشرق والمغرب من أعظم الوسائل التي وطدت الصلات العلمية، ونشرت هنا وهناك من آثار علماء المسلمين وجهودهم ما يعد مفخرة لجيل هذه الأيام. وقد نقل العرب إلى بلاد الأندلس كثيرا من معالم الحضارة الشرقية الإسلامية، وأنشئوا معاهد العلم في قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية، وغيرها من البلدان، فانبعث من هذه العواصم ضوء العلوم في سماء أوربـا، وانتشرت اللغة العربية بين الخاصة والعامة، ودخل كثير من ألفاظها في اللغة الإسبانية، وهجر الإسبانيون اللغة اللاتينية، واشتغلوا باللغة العربية وآدابها، حتى أصبحوا لا يكتبون بغيرها، وصار شبانها لا يعرفون غير لغة العرب، حتى اضطر أحد القساوسة من أهل إشبيلية إلى أن يترجم التوراة إلى اللغة العربية ليقرأها تلاميذه،

كما ترجم غيره من القسيسين كتب الكنيسة إلى لغة العرب. وقد قال بعض المؤرخين الإسبانيين : « إن من آدب أهل إسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به. وإنه لا شك في أن الإسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم ومعرفتهم الفلسفة اليونانية ». وظهرت آثار اللغة العربية والشعر العربي في لغة أهل الشمال من سكان إسبانيا، ومن هناك انتقلت إلى جنوب فرنسا، وأثرت في الشعر الغنائي وفي المقطوعات الشعرية المقفاة، التي هي أشبه بالشعر العربي ومعانيه. ومن العرب اقتبس أهل أوربا بعض أنواع الشعر ونقلوا عنهم حكم الفرس وأمثالهم. وظهرت حضارة العرب في العلوم والآداب حين كانت أوربا أواخر القرن الحادي عشر في جهالة، فلم تتنسم ريح العلوم والحضارة إلا بعد أن أخذت ذلك من عرب إسبانيا وعلماء المسلمين، الذين بثوا بذور الحضارة هناك. ففي نحو سنة ١١٣٠ م أنشأ احد القساوسة في طليطلة معهدا لترجمة كتب العرب الشهيرة إلى اللغة اللاتينية. فكان لهذه الكتب التي ترجمت أثر عظيم في إيجاد حياة علمية جديدة، وقد بقيت حركة هذه الترجمة من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ولم تكن هذه الترجمة مقصورة على مؤلفات العرب الشهيرة، كمؤلفات الرازي وابن رشد وابن سينا، بل اشتملت على ترجمة كتب حكماء اليونان من العربية إلى اللاتينية. فترجمت كتب آرشميدس وأفلاطون وأرسططاليس وغيرهم ممن نقل العرب كتبهم إلى لغتهم. وقد ذكر أحد العلماء الفرنسيين في تاريخ الطب أكثر من ثلثمائة كتاب عربي ترجم إلى اللغة اللاتينية، وقال : « ولم يعرف أهل القرون الوسطى من سكان أوربا كتب اليونان إلا بعد نقلها عن كتب العرب. فبفضل هذه الترجمة العربية أمكن الوقوف على الكتب اليونانية التي ضاع أصلها اليوناني، فأوربا مدينة للعرب وحدهم بحفظ هذه المؤلفات الجليلة القدر ». وقد بقي أهل أوربا لا يعرفون غير كتب العرب إلى القرن الثاني عشر، فكان العلماء هناك تلاميذ العرب او ناقلين كتبهم. وكان فلاسفتهم تلاميذ ابن رشد وابن سينا، كما شهد بذلك

الفيلسوف رينان. وعلى هذه الترجمة العربية سارت جامعات أوربـا. واتخذتها أساساً للدراسة والتعليم مدة ستة قرون. بل بقيت بعض كتب العرب الطبية تدرس إلى زمن قريب في بعض جامعات أوربـا. وكانت كتب ابن سينا تدرس في جامعة مونبلييه جنوب فرنسا إلى أواخر القرن الثامن عشر. وبقيت كتب الفلسفة العربية تدرس في جامعات فرنسا، لاسيما كتب ابن رشد إلى أوائل القرن الثالث عشر. كذلك كانت كتب العرب وعلومهم منتشرة في بلاد إيطاليا. فوجود العرب في أوربـا نشر فيها كثيرا من العلوم والآداب التي كانت مهملة في كل بلد آخر من هذه القارة حتى في القسطنطينية نفسها فإنه لم يكن إذ ذاك معهد علمي إلا في بلدان الشرق الإسلامية وفي إسبانيا العربية من بلاد المغرب. ففي هذه المعاهد كانت تدرس العلوم والآداب، وإليها كان يفد طلاب العلوم من كل مكان. وفي هذه المعاهد تعلم « جوبرت » الذي كان بابا للديانة المسيحية سنة ٩٩٩ ميلادية وعرف باسم سلفستر الثاني وأعجب بعلوم العرب حتى اتهم بالمروق من الدين عندما أراد أن ينشر في أوربـا ما أخذه عن العرب. وبمجهود العرب قامت أوربـا من سباتها وبدأت نهضتها العلمية. فإنه حينما اتسعت الفتوح العربية حتى شملت بلاد الأندلس، أصبح للثقافة العربية وطن جديد في القارة الأوربيـة، أزهرت فيه وأينعت، وأصبح ميسوراً لطلاب العلم والفلسفة من أبناء الشعوب الأوربيـة أن يردوا هذا المنهل القريب من ديارهم وأوطانهم، في أثناء ذلك العهد الطويل، الذي يسمى أحياناً العصور الوسطى، وأحياناً العصور المظلمة، أي الزمن الذي لم يكن للعلم والفلسفة فيه شأن خطير في القارة الأوربيـة. وأثر الحضارة العربية واضح في مختلف نواحي الثقافة التي اقتبستها شعوب أوربـا، سواء في ذلك الطب والفلسفة والكيمياء والفلك والرياضيات، والموسيقى وفن العمارة، وكثير من الصناعات. ولا يتسع المجال هنا لشرح هذه النواحي جميعاً، ولكن حسبنا أن نذكر أن الفلسفة اليونانية نفسها قد وصلت إلى أوربـا في ذلك العصر بواسطة التراجم والمؤلفات العربية،

وأن كثيراً من المؤلفات العلمية العربية قد نقلت إلى اللاتينية، حتى إن بعضها فقد أصله العربي، ولم يبق منه اليوم سوى الترجمة اللاتينية، وأن أسماء الفلاسفة العرب لكثرة تداولها على ألسنة الإفرنج قد اتخذت صورة إفرنجية، مثال هذا ابن سينا وابن رشد والرازي. وكان طلاب العلم والمعرفة يفدون إلى الأندلس من أقطار أوربا المختلفة لا من الجهات المجاورة لأسبانيا وحدها، فكثير منهم جاء من انجلترا مثل آديلارد الباثي وكثير جاء من إيطاليا. وكانت صقلية تشارك الأندلس، وذلك لقربها منها، فلم تكن الأندلس هي السبيل الوحيد الذي نفذت منه الحضارة العربية إلى أوربا، بل لقد استطاع العرب في أثناء المائة والثلاثين عاما التي حكموا فيها صقلية أن يغرسوا فيها دوحة العلم قوية وارفة الظلال، حتى لقد بقي أثرهم وعلمهم فيها بعد أن استولى عليها النورمانديون في سنة ١٠٩١ م، وقد قام ملوكها أمثال روجر الأول ومن جاء بعده بتشجيع العلماء من العرب، وبمساعدة المترجمين الذين تولوا نقل الآثار العربية إلى اللاتينية. وحسبنا أن نشير هنا إلى أن الجغرافي العربي الشهير أبا عبد الله بن محمد الإدريسي، كان يضع مؤلفاته العربية ويعضده في عمله روجر الثاني (١١٠١ — ١١٥٤)، فإن هذا الملك قد كلف الإدريسي أن يضع بالعربية مؤلفاً يشتمل على الوصف الجغرافي لجميع أقطار المعمورة، وفي هذا اعتراف صريح بما للعلماء العرب من المنزلة الرفيعة والمكانة الملحوظة.

ومع هذه النهضة الثقافية التي وصلت إلى أوربا من طريق الاندلس وصقلية، فقد تأثر الأوربيون من غير شك في أثناء الحروب الصليبية بالحضارة العربية في سوريا وفلسطين ومصر. وليس من السهل اليوم أن نقدر تقديراً صحيحاً ذلك الأثر العظيم الذي تركته الحضارة العربية في بلاد أوربا المختلفة، وذلك لأسباب كثيرة أهمها ما يأتي :

أولا : أن تاريخ أوربا في العصور الوسطى تخيم عليه سحب كثيرة

من الغموض والإبهام، تجعل من المتعذر تتبع هذه المؤثرات — في دقة — من منابعها إلى الجهات التي انتشرت فيها.

وثانيا : أن الحروب الطويلة التي دارت بين المسلمين والنصارى في الأندلس وانتهت بزوال الحكم الإسلامي عن هذا القطر، وما أعقبها من انتشار روح التعصب والجهل، قد أضاعت كثيراً من الآثار العربية.

وثالثاً : أن العلماء الأوربـيين — حتى الأسبان منهم — قد انتشرت بينهم في الأزمنة الحديثة نعرة شعبية خاطئة دفعتهم إلى إنكار المؤثرات العربية في الحضارة الأوربيـة الحديثة أو التقليل من شأنها، كما شهد بذلك الكتاب الذين اشتركوا في تأليف كتاب « تراث الإسلام » وهذه النزعة ستزول في الغالب على مدى الزمن، ويتخذ البحث العلمي سبيلا قوامها الإنصاف والبعد عن الهوى. وقد شهدنا هذا الاتجاه الجديد في مؤلفات الكاتب الأسباني الكبير دون جوليان ربيرا. وإذا كان من العسير اليوم رسم صورة كاملة لأثر الحضارة العربية في الثقافة الأوربيـة الحديثة في العلم والفلسفة والفنون، فإن إيضاح أثر الأدب العربي الأندلسي منظومه ومنثوره في الآداب الإفرنجية أشق واعسر. ويرجع هذا إلى أن العلوم والمعارف كانت تنتقل بالتأليف والترجمة، وكثير من المؤلفات العربية قد وصلت إلينا ترجمتها اللاتينية، وكذلك لا يستطيع أحد أن ينكر أثر الفنون والصناعات العربية التي تظهر بوضوح في الموازنة مثلا بين آثار العمارة العربية، ونظائرها في الأقطار الغربية، ولئن جاز لإنسان أن ينكر أثر العرب في الموسيقى الأوربيـة، فلا بد من الاعتراف بأن بعض الآلات الموسيقية التي شاع استعمالها في أوربـا قد أخذت عن العرب، وبعضها مثل العود لا يزال يسمى باسمه العربي في جميع اللغات الأوربيـة. أما في الأدب فتعوزنا هذه الآثار إذا أردنا أن نبحث عن آثار الأدب العربي في الآداب الأوربيـة، لأن ترجمة الآثار العلمية في العلم والفلسفة قد لقيت إقبالا شديدا، وتعضيداً كبيرا، هيهات أن تظفر بمثله الآثار الأدبية،

فإن عامل المنفعة، والفائدة العملية، كان قوياً في الأولى، ضعيفا في الثانية. وبعض الباحثين قد اضطر لأن يفترض أن بعض الآثار الأدبية لا بد أن يكون قد ترجم أيضاً إلى اللاتينية، أو إلى بعض اللغات الشعبية، ولكن ليس في أيدينا اليوم دليل مادي على هذا. ولذلك فإن الباحث عن أثر الأدب العربي في الأدب الإفرنجي يتبع في بحثه طريقة أخرى، وهي طريقة المقابلة والمضاهاة بين الأدبين، وملاحظة وجوه التشابه التي لا يجوز أن تجيء عفواً. فالباحث الذي يرى تشابهاً دقيقاً بين أشعار « دانتي » وبعض مؤلفات المعري مضطر لأن يفترض أن بعض آثار المعري قد ترجم إلى اللاتينية أو الإيطالية، وإن لم نعثر على مثل هذه الترجمة بعد. وكذلك الباحث الذي يرى أن استخدام القافية في الشعر قد انتقل إلى أوربـا بواسطة العرب، قد تعوزه الأدلة المادية على تأييد هذه النظرية. ولكنه مضطر لأن يرجح أن للأدب العربي شأناً كبيراً في مثل هذا التطوّر، لأن الآداب الأوربيـة القديمة، وعلى الأخص الأدب اليوناني والأدب اللاتيني الواسع الانتشار كانا خاليين من القافية. ونحن نلحظ أن القافية تأتي سهلة طيعة في الشعر العربي. ولا تأتي بمثل هذه السهولة في اللغات الإفرنجية. فمن المعقول أن يكون ظهورها في العصور الوسطى الأوربيـة، نتيجة المؤثرات الأدبية العربية. ومما يجعل المؤثرات العربية في الأشعار الغربية غامضة صعبة التحقيق، أن أكثرها قد انتقل بواسطة الأغاني والأناشيد والقصص الشعبية التي يتداولها الناس ويتناقلونها شفاها، ولا يكاد أحد يعنى بتدوينها، ولكن من البدهي أن انتقال الآلات الموسيقية نفسها من الأندلس إلى أوربـا، مع ما يصحب هذا من وسائل الإرشاد إلى كيفية استخدامها والعزف عليها، يستدعي من غير شك أن تنتقل معها الأغاني والأشعار، وكثير من محترفي الغناء الأندلسيين كانوا ينتقلون من بلد إلى بلد، ويزورون بلادا غير إسلامية، فينشدون ويوقعون، وكان الإقبال على غنائهم وعزفهم عظيما في بلاط الأمراء المسيحيين في أسبانيا وفي بروفانس وإيطاليا. ومن البدهي أن كثيراً من سكان الأندلس الذين

اعتنقوا الإسلام كانوا يجيدون اللغتين العربية والأسبانية، وكان الأدباء منهم قد اطلعوا على الأدب العربي وتذوقوه، وكانوا واسطة لنقله إلى الأطراف الشمالية في أسبانيا، ومن ثم إلى جنوب فرنسا.

وفي القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلادي ظهرت في أوربـا طائفة جديدة من الشعراء المنشدين، الذين يجمعون بين التغني بشعرهم والتوقيع على العود، يبدو في أشعارهم الطابع العربي الذي لا يحتمل الشك، وقد أطلق على هؤلاء الشعراء اسم الطروبادور، وهي كلمة يرى ربيرا أنها مشتقة من لفظ الطرب. وقد امتاز هؤلاء الشعراء بنظم أناشيد تدور كلها حول النسيب، وتبدو فيها الصفات المألوفة في النسيب العربي : من هوى عذري مبرّح، ومن حنين وشوق إلى محبوبة ممنعة، عزيزة المنال، ومن وفاء ونبل عاطفة. وقد ظهرت في هذا العصر قصص كثيرة لا يشك الباحثون في أنها مقتبسة من القصص العربية. وخاصة أخبار العشاق، أمثال عروة بن حزام وعفراء، أو قيس بن ذريح ولبنى. وكذلك كانت أشعار الطروبادور مشابهة للأناشيد الأندلسية في نظام وزنها وقوافيها، وقد انتشرت في أول الأمر في بلاد أسبانيا، ثم في جنوب فرنسا وإيطاليا، ولم تزل تنتشر حتى عمت أوربـا الغربية والوسطى. وهذه الأشعار قد أثرت تأثيراً كبيراً في أشعار الأمم الأوربيـة، فهي أساس من أسس الشعر في الآداب الأوروبية الحديثة.

وليست الأناشيد والأشعار العربية وحدها التي أثرت في آداب العصور الوسطى الأوربيـة، بل لقد كان للقصص والخرافات والأمثال والنوادر العربية المنثورة أثر كبير أيضاً، بل لعل أثر النثر في ذلك العصر أوضح، فقد ظهرت قصص في الأدب الفرنسي مثلا تحمل طابعاً عربياً لا شك فيه، وحسبك أن قصة من أشهرها، وهي قصة « أوقاسين ونيقوليت » ذات صبغة عربية واضحة، واسم البطل فيها ما هو إلا تحريف للاسم العربي : القاسم. وقد ترجمت في هذا العهد مجموعات من القصص منقولة

عن اللغة العربية، أهمها من غير شك كتاب كليلة ودمنة الذي ترجم إلى الأسبانية واللاتينية في القرن الثالث عشر، وانتقل إلى البلاد الأوربية المختلفة، وكان النواة التي نشأ من حولها أدب قصصي عن الحيوان والطير، وكان له أثره حتى في أشعار لافونتين ناظم الخرافات الشهير. وإذا كانت القصص التي ترجمت واضحة الأثر في الآداب الغربية الناشئة فإن هناك قصصاً شعبياً كبيراً كان ينقل بالرواية، وليس من السهل ان ندرك مدى تأثيره. ومع هذا فإن من الواضح أن قصص « ديكاميرون » للكاتب الإيطالي بوكاكسيو تشتمل على قصص عربي مما كان متداولا في عصره.
وأما تأثر الشاعر الإيطالي الأكبر دانتي بالأدب العربي فله أنصار غير قليلين. والذي يبعث على رجحان هذا الرأي أن الأدب العربي والعلوم العربية كانت تدرس دراسة واسعة في إيطاليا في عصره. وليس بمعقول أن يكون هذا الشاعر بمعزل عن هذه التيارات الثقافية القوية التي كانت منتشرة في زمنه. ولم تكن رسالة الغفران وحدها هي المورد العربي الوحيد الذي استقى منه الشاعر، بل هنالك مثلاً أحاديث المعراج، التي وصلت من غير شك مع الفتح الإسلامي إلى صقلية، على أننا لو نظرنا إلى رسالة الغفران وحدها لرأينا أن وجوه الشبه بينها وبين الكوميديا المقدسة ليس تشابهاً سطحياً، بل إن هنالك اتفاقاً في التفاصيل ليس من السهل أن نفترض أنه جاء عفواً. مثال ذلك أن الشاعر الإيطالي يلتقي في أثناء طوافه في الجحيم بالشعراء اللاتينيين الذين ماتوا قبل المسيحية، كما قابل صاحب المعري امرأ القيس والنابغة وغيرهما من شعراء الجاهلية ورآهم في النار. وهنالك غير هذا صور للنار وسكانها لم يستطع الباحثون أن يجدوا لها نظيرا في الأدب المسيحي، ولها مشابه في المؤلفات الإسلامية.
وليس في هذا الاقتباس ما يقلل من شأن الشاعر الإيطالي، فإن كبار الأدباء كثيراً ما التمسوا موضوعاتهم في المؤلفات المتداولة في عصرهم.
وبعد، فإن الأدب العربي كان ذا أثر كبير في الآداب الأوربيـة في

القسم الأخير من العصور الوسطى، أي في الزمن الذي كانت فيه اللغات الأوربيــة في دور النشوء والتكوّن.

ويبدو تأثر أدباء الأسبان بالعرب الذين غزوا بلادهم واضحاً جليا أمام العقل، هؤلاء قد اتخذوا الأندلس موطنا لهم وظلوا ثمانية قرون يتنقلون في أنحاء البلاد. وكانت لهم حضارة هي التي وصلت الحضارات القديمة بالحضارة الحديثة.

ولقد أثبت مؤرخو الأدب أن قصة « المعتمد بن عباد » آخر الحكام المستقلين في اشبيلية (١٠٧٨ — ١٠٩١ م) كانت من بين القصص التي تناولها شعراء الإسبان في القرون التالية. بل الثابت أن « دون جوان مانول » وهو أحد قصاصي القرن الرابع عشر الميلادي، كتب هذه القصة وأضفى عليها خيالا حببها إلى القراء في إسبانيا. بل لقد أثبت مؤرخو الأدب كذلك أن كثيراً من القصص قد نقلها العرب من الهند وفارس فلقيت جوا صالحا في إسبانيا. وانتشرت بعد ذلك حتى بلغت جنوب فرنسا، وما زالت تتقلب في غرب أوربــا حتى اتشحت بثياب مسيحية أوربية لا يستطيع القارئ العربي أن يتعرفها إلا بجهد. ومن تلك القصص خرافات وحكايات غناها شعراء متنقلون سماهم التاريخ الأدبي « تروبادور »، بل لقد ذهب كثير من دارسي الأدب إلى أن أوزان الشعر العربي نفسها قد أثرت في هذا الضرب من الأدب المتنقل، لأنهم استطاعوا أن يوازنوا بين أساليب الوزن والتقفية في الشعر العربي وبين الأوزان والقوافي في شعر هؤلاء.

ولكن هل نستطيع أن نكتشف قصة واحدة في الأدب العربي هي التي نسجت على منوالها « دون كيشوت »؟ وهل في الأدب العربي جاهليا كان او إسلاميا قصة تشبه هذه في موضوعها أو أسلوبها؟

فهل تأثر سرڤنتس مؤلف « دون كيشوت » بالأدب العربي وبخاصة حين أقام بالجزائر؟ وهل كان للتصعلك كما يعرفه العرب أثر في صوغ

القصة؟. وهل تأثرت القصة بجنون الحب الذي ورثته القصة العربية، من مثل حديث مجنون ليلى. أسئلة قد تجيب عنها حياة سرفنتس نفسه.

ولد ميجل سرفنتس في سنة ١٥٤٧ ونشأ محباً للكتابة. وأتيح له أن يزور إيطاليا ولما يبلغ العشرين. ولبث فيها أربع سنين حتى سنة ١٥٧٠ حينما دعته الحاجة إلى أن يلتحق بالجيش الإسباني ويحارب الأتراك في موقعة ليبنتو، وفي ليبنتو فقد ذراعه وانتصرت الحليفات الثلاث : إسبانيا والنمسا والبندقية على القوة البحرية التركية لأول مرة في تاريخ الإمبراطورية التركية. فكان ذلك إيذانا بعهد جديد لأوربا، وكان ذلك أيضاً مبدأ لشقاء الكاتب الجندي صاحب الذراع المفقودة، وحاول سرفنتس الجندي أن يتبع « دون جون » قائد الأساطيل المتحالفة ضد الأتراك. وقضى خمس سنين بعد ليبنتو يتقلب من جزيرة في البحر الأبيض المتوسط إلى جزيرة أخرى. فقد اشترك في حملة « دون جون » على تونس، وتنقل بين سردينيا ولمباردي، وبين مسينا ونابلي، ثم استأذن القائد أن يزور إسبانيا فسمح له، لكنه أسر في طريقه إلى وطنه. أسره « الجزائريون »!، ولبث في الأسر خمس سنين مثقلة بالأشجان.

نعم قضى في الأسر خمس سنين أحس فيها ثقل القيود والأغلال، لكنه خرج وقد سلمت نفسه، لأن روحه فوق أنها كانت روح فارس، فقد كانت روح أديب.

ولا نظن أن رجلا يقضي هذه السنوات السود في سرداب من السراديب، وقد تقطعت الصلة بينه وبين العالم الخارجي، وعاش عبداً يرسف في السلاسل والأغلال، لا نظن أن رجلا هذا شأنه كان يستطيع أن يتأثر بالأدب العربي، لا في قليل ولا في كثير. فلم يثبت أنه اضطرب في بيئة العرب في الجزائر، بل لم يثبت أنه خرج من الأسر إلا في اليوم الذي أشفق عليه فيه بعض التجار المسيحيين في الجزائر، فافتدوه

بألف من الدوقات، ولبث وقتاً قصيراً في الجزائر، وسافر بعد ذلك إلى إسبانيا.

تلك السنين الخمس التي عاشها في الأسر قد انقضت من غير أن تخلف آثاراً عميقة في نفس سرفنتس. لكنها لم تكن آثار الأدب العربي، ولم تكن آثار البيئة العربية. وإنما كانت آثار الأسر الذي عاناه خلال سنوات السجن، لقد رأى الموت يطل بقرنيه من خلال القيود والأصفاد، لكنه كان صبوراً جلداً، علمته الحوادث كيف يغالب البؤس ويصارع الألم، ثم خرج من جحيم السجن وقد تطهرت روحه. فخرجت قصة « دون كيشوت » من هذه المحنة النفسية الطويلة، فهي قصة الفشل الذي لقيه سرفنتس، وهي قصة عصر الانتقال من حياة الفروسية كما عرفها أهل الشمال والجنوب، إلى عصر الحروب القومية كما عرفتها انجلترا وإسبانيا وفرنسا.

لم يتأثر سرفنتس بشيء من الأدب العربي في مقامه بالجزائر، بل لعله قد تأثر بمقامه في إيطاليا أكثر ما تأثر. وقد ذكرنا أنه استقر فيها خمس سنين، وأنه تردد بين بلدانها خمس سنين أخرى. أي أنه قضى شبابه الأول بين العشرين والثلاثين في جو إيطالي. وكانت إيطاليا أسبق بلاد أوربا إلى النهضة. كانت صاحبة اللسان اللاتيني ومقر الكثلكة، ومهبط الفن والأدب، وقد تأثر سرفنتس بالآثار الإيطالية التي شهدها. وحينما عاد إلى إسبانيا بعد أسره ألف مسرحيات كتلك التي رآها في إيطاليا.

كان الكاتب المسرحي الأول في إسبانيا خلال تلك السنين لوب دي فيجا، وكان يستأثر بحسن السمعة وذيوع الصيت. فخرج سرفنتس إلى هذا الميدان ينافس بطله الأول، لكنه لم يبلغ من النجاح ما توقعه، وكانت حياته المسرحية هي الأخرى قصة من قصص الإخفاق. ومهما كان فلا بد أنه تأثر بحضارة العرب وثقافتهم.

ولقد بقيت الآثار العربية في الأندلس شاهدة على هذه الحضارة الخالدة

التي أظلت تلك البلاد ثمانية قرون (٩٢ ــ ٨٩٧ هـ)، وعلى فضل العرب على أوربـا، ويصف لنا محمد عبد الله عنان الآثار العربية الباقية في الأندلس اليوم، فيقول : سقطت الأندلس في يد الإسبان منذ سنة ١٤٩٢ بعد صراع طويل الأمد بين إسبانيا المسلمة وإسبانيا النصرانية، وبذهابها ذهبت دولة الإسلام في الأندلس إلى الأبد، واختتم تاريخ ثمانية قرون، تعاقبت خلالها في شبه الجزيرة الإسبانية دول إسلامية عـدة، وازدهرت حضارة من أعظم حضارات التاريخ. ومـا زال اسـم الأنـدلس يطلق في إسبانيا على الولاية الأندلسية القديمة، الواقعة في جنوبي إسبانيا، بما تحتويه من قواعد أندلسية ذاهبة، أهمها إشبيلية وقرطبة وغرناطة. بيد أنه بينما أصبحت إشبيلية وقرطبة مدينتين أوربيتيــن بكل معاني الكلمة، إذا بغرناطة ما زالت تحتفظ بكثير من طابعها الأندلسي القديم. ولم يبق في إشبيلية اليوم ما يذكرنا بعهدها الإسلامي العظيم، سوى « القصر » والمرصد (الجيرالد) وهما من أيام الموحدين، كما أنه ليس في قرطبة عاصمة الخلفاء القديمة من الآثار الإسلامية سوى المسجد الجامع وقد حول اليوم إلى كنيسة، وسوى بعض أطلال من مدينة الزهراء، ضاحية قرطبة الملكية كشفت عنها الحفائر الحديثة، ولكن غرناطة فضلا عن احتفاظها بمعظم خططها ومواقعها القديمة، واحتفاظها بأعظم الآثار الأندلسية الباقية، ونعني قصور الحمراء العظيمة؛ فإنها ما زالت من النواحي الاجتماعية والأدبية أكثر القواعد الأندلسية احتفاظا بطابعها وروحها الأندلسي القديم. ويبدو هذا الطابع وهذه الروح في كثير من خواص الشعب الغرناطي وعاداته وتقاليده .. وتنقسم غرناطة اليوم إلى قسمين، هما غرناطة القديمة وغرناطة الحديثة. وتكاد تشغل المدينة القديمة نفس المواقع والخطط التي كانت تشغلها المدينة الإسلامية، بل تكاد بدروبها الضيقة ومنازلها التي ما زالت تحتفظ بطرازها الأندلسي، تشعرك بأنك تخترق مدينة شرقية لا مدينة اوربيــة وما زال ثمة حي من أحيائها الأندلسية القديمة هو حي البيارين قائماً في مواقعه القديمة، وما يزال كما كان في الماضي حي غرناطة الشعبي،

وإلى جانبه توجد مواقع « القصبة القديمة ». ويصل بين القسمين القديم والحديث شارع « الملكين الكاثوليكيين » وهو شارع غرناطة الرئيسي ويحتل مكان شارع القصبة القديم. وقد سمي كذلك باسم فاتحي غرناطة، الملك فرديناند الخامس وزوجه الملكة إيزابيلا .. وقد حرص الإسبان على تخليد كل ما يذكر بحوادث هذا الفتح التاريخي الحاسم، ففي أعلى مكان في برج المراقبة أحد أبراج الحمراء يوجد النصب الذي رفع عليه الصليب عند دخول الإسبان المدينة في سنة ١٤٩٢. وتحتل كنيسة سانت ماري التي بنيت فوق موقع مسجد الحمراء، أرفع بقعة في الحمراء كلها، وتبدو بناقوسها العالي مشرقة على سائر مبانيها، ويقع قصر شارلكان في قلب الحمراء بجوار القصر الإسلامي القديم، وما زالت مدينة « سانتافي » الصغيرة قائمة قبالة غرناطة في نفس المكان الذي عسكر فيه الإسبان وقت حصار غرناطة، وأنشأ فيه الملك فرديناند مبانيها الأولى، وأقسم ألا يبرحها حتى يفوز بافتتاح المدينة الإسلامية .. وما زال قيام « الحمراء » أعظم الآثار الأندلسية الباقية في غرناطة يسبغ على العاصمة الأندلسية القديمة شهرة خالدة، وتكاد الحمراء تغدو كعبة ثانية للأندلس يقصدها آلاف الرواد من سائر أنحاء الأرض. والحقيقة أن هذا الأثر الإسلامي العظيم يكاد يفوق في جماله وروعته أي أثر إسلامي آخر. ثم هو فوق ذلك يكاد ينبل طلعته، ووحشة أبهائه، يلقي في روع زائره أنه يعرب عن نوع من الحزن الصامت، والأسى المؤثر، بل إنه ليبث في الواقع في نفس المشاهد شعورا غامضاً بالحزن والأسى. وقد ترجع هذه الظاهرة النفسية إلى ما اقترن بقصر الحمراء، وسادتها السابقين من المآسي التاريخية المشجية. وهذا الاسم « الحمراء » اختلف في تعليله، فيرى البعض أنه يرجع إلى لون جدرانها الذي يضرب إلى الحمرة الفاتحة. ويرى البعض الآخر أنه يرجع إلى لقب الأسرة الملكية التي أنشأت الحمراء، وهم بنو الأحمر ملوك غرناطة، ولكن الرواية المرجحة في ذلك هي أن الاسم يرجع إلى عصور قبل ذلك، وأنه أطلق على قصور بني الأحمر، لأنها انشئت فوق أنقاض

قلعة قديمة تسمى القلعة الحمراء؛ وعلى فحص غرناطة (المرج) ومن تحتها يجري نهر شنيل، وتشرف من الجنوب والشرق على آكام جبال سييرا نفادا (جبل شلير) ولم يبق اليوم من قلعة الحمراء القديمة سوى بضعة أبراج متفرقة. وأما القصر الملكي فقد بقيت معظم أجزائه، ومدخله الرئيسي من باب « الشريعة »، وهو من إنشاء السلطان يوسف ابي الحجاج، وما زال يحمل تاريخ إنشائه في سنة ٧٩٤ هـ (١٣٤٨ م). ويعتبر قصر الحمراء من أبدع الآثار الإسلامية التي أبقت عليها حوادث الزمن، وليس له مثيل في الحسن والروعة من حيث موقعه، وتناسق أبهائه وجمال أعمدته الرخامية، وحناياه، وسقوفه ذات الزخرف الملون البديع، ويغمره الضوء والهواء بكثرة، ويبدو في مجموعه في منتهى الظرف والأناقة. ويتكون اليوم من عدة أبهاء متصلة تقع على الترتيب الآتي: بهو قمارش أو قاعة السفراء، وبهو البركة أو بهو الريحان، ثم فناء السباع، وعلى أحد جانبيه قاعة الأختين، وفي الجانب الآخر بهو بني سراج. ويعتبر بهو قمارش أعظم أبهاء الحمراء، وكان به مجلس العرش وعليه قبة عظيمة زينت بنقوش بديعة، ومن فوقها برج قمارش الشهير، بيد أن أجمل ما في الحمراء جميعا، هو بلا ريب فناء السباع، وهو من أحدث أبنية الحمراء إذ يرجع بناؤه إلى أواخر القرن الرابع عشر، وهو عبارة عن ساحة مستطيلة طولها ٣٥ متراً وعرضها عشرون، وفي وسطها نافورة السباع المشهورة، وهي عبارة عن حوض كبير من المرمر القاتم، يحمله اثنا عشر أسداً، تنفث الماء من أفواهها وتحيط به من سائر جوانبه مشرفيات متصلة، وقباب صغيرة، تحملها عمد نحيلة من الرخام الأبيض تمتاز بدقتها وجمالها .. ويقع بهو بني سراج في الجانب الجنوبي من فناء السباع، وهو عبارة عن مربع عليه قبة عالية زينت بزخارف بديعة ملونة، وقد سمي هذا البهو باسم إحدى الأسر الغرناطية الشهيرة. وتقع الحمراء فوق هضبة عالية في شمال شرقي غرناطة، وتصل إليها بطريق منحدر معبد وتجوز إلى حدائقها الشاسعة من باب يسمى « باب الرمان » وهو باب أنشأه الاسبان، وجعلوا

فوقه ثلاث رمانات كبيرة من الحجر، وهو شعار غرناطة التي يعني اسمها الروماني القديم « جراناتا » أي الرمانة. وموقع الحمراء ذو جمال طبيعي نادر، فهي تشرف من الشمال والغرب على المدينة القديمة. وقد زينت جميع جدران الحمراء بالنقوش العربية البديعة، وسطرت عليها آيات قرآنية وأشعار وحكم مختلفة تتخللها جميعاً في كل مكان وفي كل ركن عبارة « لا غالب إلا الله »، وهي شعار ملوك غرناطة المفضل، وربما كان في ترديده والإكثار منه على هذا النحو ما يدلي بما كان يستشعره سادة الحمراء من قدر محتوم لا سبيل إلى اتقائه أو مغالبته. وقد بقيت بعض أبواب الحمراء القديمة، منها باب الشريعة التي سبقت الإشارة إليه، وهو مدخل القصر الرئيسي، وباب « الغدور » أو الطباق السبع، وهو الباب الذي قيل إن أبا عبد الله محمداً، آخر ملوك غرناطة، قد خرج منه بعد أن سلم مفاتيح الحمراء إلى الملك فرديناند الخامس، ورجاه أن يأمر ببناء مكان هذا الباب حتى لا يجوز منه إنسان من بعده، ويقال إن ملك الاسبان حقق رجاء الملك المغلوب، وأمر ببناء الباب، ومكان الباب اليوم مغلق بالبناء، ويقع على مسافة قليلة من قصر الحمراء، على ربوة عالية، قصر جنة العريف، وهو قصر صغير ومستقل، أنيق الطراز، أنشئ في أواخر القرن الثالث عشر، وكان مصيفا لملوك غرناطة .. وتبدو الحمراء على العموم، في حالة جيدة من الحفظ والصيانة، ولكن كثيرا من زخارفها ونقوشها الأولى قد محيت بفعل الزمن. وقد أصلحت الزخارف وجددت في بعض المواضع على يد الإخصائيين الاسبان. ولكن التجديد لا يخلو من العيوب، وتوجد به أحياناً أخطاء مادية في النقوش والكلمات المجددة، وهذا يرجع بلا ريب إلى عدم تمكن هؤلاء الاخصائيين من فن الزخارف الإسلامية، ومن معرفة اللغة العربية.

ويقول كوندي المستشرق الاسباني المعروف، منوهاً بفضل الحضارة الأندلسية : إن العرب استعملوا البارود سنة ٩٠٦ م، وهم الذين نقلوه

إلى الأندلس، ومنها أخذه الافرنج، وقد استعمله العرب في محاصرتهم صقلية سنة ٦٧٢ هـ، وفي محاربة الاسبان سنة ١٢٤٩ م، واستخدمه صاحب غرناطة في حصار باجة، ثم نقله عن العرب في القرن الثالث عشر « روجر باكون » الإنجليزي وغيره، وأول ما استخدمه الافرنج في واقعة كريسي سنة ١٣٤٦ م، وإنه منحة عظيمة منحها العرب للأوربـيين.

وبعد، فآثار الحضارة العربية في الأندلس أجل من أن تحصى، هذه الحضارة التي عافت ركوب الجمل، فحاولت تذليل الهواء، وأنفت من هذا النبراس الضئيل، فاتخذت الثريات المشرقة في القصور والمساجد وعلى حفافي الشوارع والميادين. وأبت أن تعيش في نصب البداوة، فأدخلت الماء العذب في أنابيب الرصاص إلى القصور والحمامات والرياض، وفجرته من ثغور التماثيل الفنية الرائعة المصنوعة من « الذهب الإبريز، والفضة الخالصة والنحاس المموه، « وأجرته إلى البحيرات الهائلة، والبرك البديعة، والصهاريج الجميلة، في أحواض الرخام المرمرية المنقوشة العجيبة. والفن الاسلامي ماثل في آثار غرناطة وقرطبة وأشبيلية وسواها، وفي قصور الزهراء والحمراء الشامخة التي تسخر بالزمن، وتبسم في وجوه الأيام، وهذا هو التراث العلمي المجيد الذي خلفه رجال الفكر الإسلامي الأندلسي، ما أروع ما كتبه عنه المنصفون من الشرقيين والغربيين. والنهضة في الاقتصاد والزراعة والصناعة والتجارة، وفي الإدارة والسياسة والـطب والعلاج، وفي جميع ميادين النشاط الإنساني، لا تزال تشير إلى مدى ما وصل إليه العرب في الأندلس من عبقرية وقوة ومدنية.

ومن مثل الطموح العلمي حياة أبي القاسم « عباس بن فرناس »، مفخرة الأندلس، والمفكر العظيم الذي رددت ذكره الأجيال، فقد نشأ « عباس » في بلاد الأندلس في أوائل القرن الثالث الهجري، والدولة للامويين أحفاد الداخل البطل الأموي الكبير، وكان لا بد له ــ ككل شاب طامح ــ أن يرد مناهل العلم، ويغذي فكره وعقله بالثقافة الإسلامية

في مساجد قرطبة ودور العلم فيها، فتتلمذ على رجال العلم، ثم أعلام الفلسفة الذين كانوا يفكرون ويبحثون ويستنبطون في خفية بعيدا عن عيون الناس والجمهور، ممن لا يستسيغون التفكير الحر ولا يشجعون عليه. ثم خرج « عباس » إلى الحياة العامة، شابا ثائر الفكر، متأجج العزيمة، مشتعل الذكاء، لا يريد أن يفكر كما يفكر الناس، ولا أن يعيش كما يعيشون، ولا أن يعني بما يعنون به، بل أراد أن يفكر كما يجب أن يفكر، وأن يستنبط ويخترع ويجدد كما شاء له عقله وقواه الفكرية الكامنة فيه. ولم تكن آمال « ابن فرناس » وأفكاره من خيالات الشباب وأكاذيب النفس، بل كانت مظهراً لعقلية مبدعة، وتفكير سليم؛ وبعد قليل تمكن هذا الذهن الحاد القوي من استنباط طريقة لصنع الزجاج من الحجارة، فكان أول مبتكر لهذه الطريقة الجديدة التي نسير على أثرها في شيء من التجديد والدقة والسرعة. ثم أخذت نفسه تحدثه : كيف نعيش دون التفكير في اختراع شيء جديد يعرف به حساب الدقائق والساعات والأيام؟ إن اخترع الشرق الساعات المائية، فليخترع هو ما تفخر به الأندلس والأندلسيون، وفعلا تم له ما أراد، فاخترع آلته البديعة « المنقالة » التي صنعها على غير مثال لمعرفة الأوقات. وحول « ابن فرناس » فكره من جديد إلى مملكة النسور ... أيظل هذا الأفق الفسيح، والجو الرحب؛ ميدانا للطيور ترفرف بأجنحتها فيه، ناعمة بجماله؟ ولم لا يشاركها فيه الإنسان؟ هذه الطيور، أليست تطير بجناحين، يساعدهما ريش كثيف، فلم لا يكون لابن فرناس جناحان ممدودان وريش منتشر على جسده؛ ليطير كما تطير النسور في الهواء؟ وأخذ يكسو نفسه بالريش ويمد له جناحين، ثم، كان يوم المحاولة الخطيرة الفريدة، التي هي أول محاولة بشرية للطيران، فاجتمع الناس من كل حدب، ليروا هذا الرجل كيف يفتح هذه الآفاق الجديدة أمام الإنسان وحرك عباس جناحيه، ونشر ريشه، وأخذ يداعب الهواء فارتفع في الجو، وطار مسافة بعيدة، والناس في أماكنهم ينظرون ويعجبون ويسخرون. ثم كان لا بد لهذا

الطائر أن يهبط إلى الأرض، فهبط رويداً رويداً حتى قرب منها، فلم يستطع حفظ توازنه، فسقط مصاباً برضوض في جسده؛ لقد نظر « ابن فرناس » إلى جناحي الطائر وريشه، فآمن بأنهما وسيلته في الطيران، ولم ينظر إلى ذيله ليعرف مدى مساعدته له في طيرانه وحفظ توازنه وحين هبوطه إلى الأرض. فلم يصنع له ذيلا كما صنع ريشاً وجناحين، فأصيبت التجربة بإخفاق ما كان أجدر « ابن فرناس » أن يتلافى سببه، وقد عجب الناس، وسخروا من « عباس » وهزئوا به، ونظم الشعراء الشعر في السخرية به والتندر عليه. وهكذا شأن العبقريين في كل جيل، يسبقون زمنهم فلا يفهمهم الناس ولا يفهمونهم، بل يعادونهم عداء شديداً. وقد يكون نقد الناس وسخريتهم سببا لإحجامه عن إعادة التجربة من جديد، وقد يكون الباعث على ذلك جهله بسبب إخفاقه في محاولته الأولى وخوفه على نفسه أن تلاقي صدمات جديدة، وقد يكون الصارف له ما أصيب به من جروح دامية أثرت في صحته. وعلى أي فرض، فما كان أقرب « ابن فرناس » إلى الظفر بأمنيته، وإلى غزو هذا الأفق الجديد وتسخيره للناس، ولو فعل ذلك لانقلبت الحياة، وتغير مجرى الحضارة، ولسجلت الحياة لعباس بن فرناس هذا النصر الذي سجلته بعد أكثر من عشرة قرون « للأخوين رايت ». ولم يسكن هذا الفكر الثائر، والعقل الجبار. بل أخذ يعمل ويبتكر، حتى تمكن من وضع صورة في بيته، تمثل هيئة السماء، يخيل للناظر فيها النجوم والغيوم والرعود والبروق؛ فعجب منه بعض الناس، وسخر به الآخرون. ويقول فيه مؤمن بن سعيد الشاعر الأندلسي :

سماء عبـــــاس الأديب أبي الـ قاســم ناهـيك حســن رائقهـا

وهكذا قضى « ابن فرناس » حياته في تجديد وابتكار، في سبيل خدمة الحضارة، والرقي بالحياة الإسلامية في عصره. وكان مع هذا موسيقيا بارعا يعد أول من فك كتاب بطليموس في الموسيقى والألحان؟ وأول

من فك من الأندلسيين كتاب العروض للخليل بن أحمد. وهو مع هذا النبوغ شاعر أديب، اتصل بالأمير الأموي حاكم الأندلس محمد بن عبد الرحمن، الذي اعتلى عرش البلاد من ٢٣٨ هـ إلى ٢٧٣ هـ، فكان له عنده مقام نبيل، ومدحه بقصائد أدبية كثيرة، وقد أنشد الأمير محمداً من أبيات :

رأيت أمير المؤمـــنين محمـــداً   وفي وجهه بـذر المحبـة يثمـر

وخرج أهل طليطلة حوالي عام ٢٤٠ هـ على الأمير محمد واستعانوا بالأفرنج فخرج إليهم بجيوشه وهزمهم وهدم قنطرة مدينتهم، وفي ذلك يقول ابن فرناس :

أضـحت طليطلـة معطلـة   من أهلها في قبضة الصقر
تـركت بـلا أهـل تؤهلها   مهجـورة الأكنـاف كالـقبر
مـا كان يبقـي الله قنطـرة   نصبت لحمل كتائب الكفر

وغنى ابن زرياب بعض الرؤساء، وعباس بن فرناس حاضر معه :

ولو لم يشقني الظاعنون لشاقني   حمام تداعت في الديار وقوع
تداعين فاستبكين من كان ذا هوى   نوائح ما تجري لهن دموع

فذيلهما « عباس » بمدح هذا الرئيس وكان اسمه محموداً :

شددت بمحمود يدي حين خانها   زمان لأسباب الرجاء قطوع
بنى لمساعي الجود والمجد قبلة   إليها جميع الأجودين ركوع

ويعد ابن فرناس من أوائل من اخترعوا فن الموشحات. وله القليل منها مما بقي من أدبه محفوظا في كتب الأدب الأندلسي ومصادره .. هذه صورة مصغرة لهذا الرجل، الذي لقب بحق حكيم الأندلس، والذي شغل الفكر الأندلسي حياً وميتاً، وكان أول من فكر في الطيران، والذي مضى على وفاته أكثر من أحد عشر قرناً من الزمان. وتوفي عباس نحو عام ٢٤٥ هـ.

وبعد عباس بن فرناس بطويل جاء ليونارد دافنتشي الإيطالي الذي عاش في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، والذي سيطرت عليه فكرة إمكان الطيران متى نجح الإنسان في تقليد الطيور، فدرس الهواء وخواصه، وتشريح الطيور، غير أنه لم يوفق إلى تحقيق غرضه واختراع المهبطة وكشف فكرة البالون؛ وبعده ظهر جورج كيلي الانجليزي في أواخر القرن الثامن عشر وقد صنع طائرة، وظل ينتظر الآلة المحركة التي قال بضرورتها للطيران، وصنع هنسن في سنة ١٨٤٢ نموذجاً لطائرة ولكن لم يقو على الطيران، ثم تلاه « سترنجفيلو » الذي حسن هذا النموذج، وبنى سنة ١٨٤٨ نموذجا آخر صغيرا وضع فيه آلة بخارية تمتاز بخفة مدهشة ساعدت على طيران هذا النموذج لأول مرة في التاريخ؛ ثم أسس بعد ذلك المستر وهام الجمعية الملوكية للطيران بانجلترا، فكانت إيذانا بقرب الكشف عن هذه المعجزة البشرية الرائعة، وفي ١٨٩٠ بنى آدر المهندس الكهربائي الفرنسي طيارة، وركب لها محركا بخاريا، وانتقل بها إلى مسافات طويلة، وفي ١٨٩٧ بنى طائرة أخرى وطار بها ٣٠٠ متر في خط مستقيم ثم نزلت إلى الأرض؛ ثم جاء للبنثال الألماني الذي طار بعد أن حسن نموذج الطائرة، وتوفي ١٨٩٦ م، ثم جاء لانجلي الأمريكي، وتلاه الأخوان رايت اللذان طارا لأول مرة في ١٧ ديسمبر ١٩٠٣.

ففي اليوم السابع عشر من شهر ديسمبر ١٩٠٣ م حدث حدَث تاريخي في بلدة كيتي هوك بولاية نورث كارولينا الأمريكية، ذلك أن الأخوين ويلبور وأورفيل رايت طارا بطائرة أثقل من الهواء، فكانا أول من نجح في ذلك في تاريخ البشر. ويوم عادا من نورث كارولينا إلى مسقط رأسهما في مدينة ديتون بولاية أوهيو لم يحتف بهما الناس، بل إن جيرانهما ظنوا انه إذا كان الشابان قد طارا حقاً، فما هي إلا مصادفة اصطلحت عليها الرياح القوية، وأن ما تمَّ لهما لن يتمَّ مرة أخرى، وكان أصدقاؤهما إذا التقوا بهما في شارع المدينة يتجنبان الإشارة إلى

ما روي عن طيرانهما، فلن تجد رجلا به مسكة من العقل يرضى أن يتحدث في رواية سخيفة كهذه الرواية.

وصدرت صحيفة « ديتون جرنال » في صباح اليوم التالي، وليس فيها كلمة ما عن الحادث الذي تمّ في ١٧ ديسمبر. ونشرت ست صحف أمريكية رواية غريبة عما تم. ولكن جميع القراء تقريباً أنكروا ما قرأوا عن الطيران بآلة أثقل من الهواء. ألم يقل كبار العلماء، وفي طليعتهم سيمون نيوكم العالم الفلكي الرياضي، إن ذلك مستحيل؟ ثم ألا تراهم قد أيدوا رأيهم بمنطق لا ينقض؟ فلم يكن غريباً أن تجد رؤساء تحرير الصحف يأبون، بعد أن قرأوا رأي العلماء، أن ينشروا أن الطيران قد تمَّ، وأنه تم على أيدي رجلين مجهولين، كان شغلهما أن يصلحا الدراجات، وليس لهما من العلم ما يصيبه طالب في جامعة، لأنهما لم يطلبا العلم في جامعة.

وفي شهر إبريل من سنة ١٩٠٤ جعل الأخوان يتدرّبان على الطيران في مرعى للبقر قريب من بيتهما في مدينة ديتون. وعلى أن خبر هذه التجارب كان أعظم أخبار العلم وأخطرها في مستهلّ هذا القرن، فإنك لن تجد ذكراً له في الصحف، حتى ولا في صحف المدينة التي أنجبت هذين الشابين. وما كان ذلك لأن الأخوين كانا يكتمان ما يصنعان. فكيف يستطيعان، لو أرادا، أن يكتما شيئاً يصنعانه في مرج على مرأى من عيون الناس، فعلى احد جانبي المرج طريق عام، وخط الترام الذي يصل المدينة بالضواحي، وعلى الجانب الآخر سكة حديدية.

وقد ذكر دان كملر الصحفي الأمريكي، الذي كان محرراً لقسم أخبار المدينة في صحيفة « ديتون ديلي نيوز » في ذكرياته العجيبة القديمة تلك الأيام، فتذكر كملر ما كان، وقال : « كان الناس الذين يمرون بذلك الحقل في مركبات الترام يجيئون إلى مكتب الصحيفة ويسألون : أفي الصحيفة ذكر لطيران الأخوين، وقد تكاثر عدد الزوار حتى صرنا

نعدهم بلية علينا ». فسألته : « ولم لَم تنشروا شيئاً في الصحيفة؟ » فقال : « لم نصدق ما قيل، ليس إلا » : ومن الأشياء التي جعلت طيران الأخوين شيئاً لا يسترعي الأنظار أنهما كانا يطيران المرة بعد المرة على ارتفاع ١٠ أقدام أو ١٥ قدماً فوق سطح الأرض. وكانا يطيران في أول الأمر مسافات قصيرة في خط مستقيم، كما فعلا في كيتي هوك سنة ١٩٠٣، وأنفقا معظم أيام سنتي ١٩٠٤ و ١٩٠٥ في التدرب على إتقان توجيه الطائرة والطيران في دائرة، وزيادة المسافة التي يقطعانها، فلما كان شهر أكتوبر من سنة ١٩٠٥ طار أورفيل ٢٠ ميلا، وبعد يومين طار أخوه ويلبور ٢٤ ميلا ونصف ميل.

ومع ذلك لم تظفر معجزة الطيران باهتمام يذكر. وذات يوم ذكر تلاميذ مدرسة ريفية لمحرر صحيفة « ديتون جورنال » الشيخ أنهم رأوا بعيونهم الأخوين يطيران حول المرعى مدة خمس دقائق. واتفق للمحرر أن لقي أورفيل رايت في مركبة الترام في أصيل ذلك اليوم فسأله : أحق ما قاله التلاميذ؟ فقال أورفيل إنهما كثيراً ما يطيران. فوقع في روع المحرر أن الرواية ليست بذات شأن ما دام اورفيل نفسه لا يعد ما يفعله هو وأخوه شيئاً غير مألوف، أو شيئا ذا خطر. فطيرانهما حول المرج شيء يسلي تلاميذ المدرسة، ولكنه لا يكاد يكون شيئاً يستحق بضعة أسطر في صحيفة، وختم المحرر حديثه مع اورفيل فقال : « إذا صنعتما شيئاً خارقاً فلا تتوانيا في نقل خبره إلينا ».

وعلى أن مئات من الناس شاهدوا الأخوين يطيران، فإن أكثر الناس في طول البلاد وعرضها، ومنهم العلماء والمحررون، أبوا ان يصدقوا أن طائرة أثقل من الهواء استطاعت حقا أن ترتفع بقوتها عن سطح الأرض.

وكانت هناك جماعة أخرى من الناس، خليقة أن تعنى بالموضوع، ولكن ما روي عنه أزعجها أكثر مما أثار فضولها، وكانت تلك الجماعة جماعة وزارة الحربية. فقد غلب الشعور الوطني على الأخوين، فأرادا

أن يعرضا على حكومة أمتهما احتكاراً لاختراعهما، وكانا يظنان أن الطائرة تصلح للاستكشاف زمن الحرب، وقد تعزز ظنهما هذا يوم أخذت حكومات الدول الأجنبية تخطب ودهما، ولا سيما الحكومة الفرنسية. فكتبا إلى وزير الحربية الأمريكية وعرضا عليه أن يكون للحكومة الحق الأول في الهيمنة على اختراعهما.

وأغلب الرأي أن رجال وزارة الحربية عدوا هذه الرسالة شيئا ينبغي أن يحفظ في « درج المهملات »، وتلقى الأخوان رسالة عليها توقيع جنرال في هيئة أركان الحرب ورد فيها : « أن مجلس المهمات يرى أن يرفض تخصيص مال لتجربة أجهزة الطيران الميكانيكي ». والحق يقال ان الأخوين لم يطلبا ولا لمحا إلى ضرورة تخصيص مال لتجاربهما. ثم تلقيا رسالة ثانية في أواخر سنة ١٩٠٥ من مجلس المهمات جاء فيها : « أن المجلس يأبى أن يصنع شيئاً حتى تصنع آلة يثبت فعلا أنها قادرة ان تطير طيراناً أفقيا وهي تحمل رجلا ».

مع أنه كان الأخوان لا يزالان يطيران في طائرة هذه صفتها منذ شهر ديسمبر ١٩٠١.

وقرأ رجل من أسرة كابوت كلمة مؤداها أن الأخوين يفاوضان فرنسا في استعمال « السفينة الهوائية » الغريبة، التي صنعاها، فكتب إليهما يسألهما لم لا يعرضان مخترعهما على حكومة أمتهم، فردا بأنهما فعلا ذلك غير مرة. واطلع السناتور هنري كابوت لودج على هذه الرسائل، فأرسلها إلى وزير الحربية، فأحالها على مجلس المهمات — فلم يفعل شيئاً، وفي سنة ١٩٠٧ أرسل احدهم إلى الرئيس ثيودور روزفلت مقالة عن الأخوين، فكتب عليها الرئيس بخطه « يبحث »، وأحالها على وزير الحربية المستر تافت، فكتب تافت عليها « يبحث » وأحالها على مجلس المهمات. وكان بعض اعضاء المجلس قد تغيروا منذ سنة ١٩٠٥، ولكن المجلس ظل يساوره

الريب في هذا الأمر وبعد بحث فاتر كتب المجلس إلى الأخوين يقول : إن الحكومة يقظة ولا تأخذ بهذه الألاعيب.

وبعد أن انقضت أربع سنوات أو نحوها على الطيران الأول في كيتي هوك، أخذت وزارة الحربية تغير موقفها، ولا سيما بعد أن توالت الأنباء من ملحقيها العسكريين بأن الحكومات الأوربية مهتمة بالطائرة، فعقد اتفاق على أن تشتري الحكومة طائرة من طائرات رايت بمبلغ ٢٥ ألف ريال إذا ثبت أنها تستطيع أن تحمل رجلا عدا قائدها وأن تطير بهما مدة ساعة، وأن تكون سرعتها ٤٠ ميلا في الساعة، وأن تحمل من الوقود ما يكفي للطيران مسافة ١٢٥ ميلا. وتم الاتفاق على إجراء التجربة في سبتمبر سنة ١٩٠٨. كان الأخوان في تجاربهما الأولى يركبان طائراتهما منبطحين على بطنهما. وكان الانبطاح على هذا النحو، مع رفع الرأس حتى يستطيع المنبطح أن يرى ما أمامه، ومع الميل بالجسم من جانب إلى جانب حتى تظل الطائرة محتفظة بتوازنها، وكان ذلك كفيلا بأن يؤود اقوى الناس. فأراد الأخوان أن يجربا جهازاً جديداً لتوجيه الطائرة، فعادا إلى مسرح تجربتهما الأولى في كيتي هوك، وذات يوم في مايو ١٩٠٨ رؤيت طائرة رايت ماضية في الجو، وقد رآها مراسل صحفي اتفق وجوده هناك، وكان اسمه سالي. فأبرق إلى طائفة من كبريات الصحف يسأل من : منها يريد قصة ما رأى؟ فأرسل إليه محرر الأنباء في صحيفة « كليفلاند ليدر » برقية غريبة، فإنه لم يكتف بقوله : إن الموضوع لا يهمه، بل أضاف كلمة أعرب فيها عن غضبه أن يعرض عليه أحد من الناس عرضاً سخيفاً كهذا. وعد محرر صحيفة « نيويوك هيرالد » برقية المراسل شيئاً أدنى إلى الجنون، ولكن صاحب الصحيفة، جيمس جوردن بنيت، كان مهتماً بشئون الطيران، فأمر باستقصاء هذه الرواية الغريبة، فبعثوا بأبرع مراسلي الصحيفة، بيرون نيوتن، إلى كيتي هوك. فإذا كان الأخوان من المخادعين، فليس ثمة قلم ألذع من قلم نيوتن في فضح

خداعهما، وغامرت الهيرالد فنشرت رسالة سالي الأولى، فلم يكد محررو الصحف الأخرى يرون ما فعلته الهيرالد، حتى قضوا بأن الأوان قد آن للوقوف على حقيقة قصة الأخوين. وسرعان ما انضم إلى بيرون نيوتن في كيتي هوك، جماعة من المراسلين والمصورين. فلما رأى الصحفيون صحراء كيتي هوك المقفرة، ظنوا أن الأخوين يؤثران البعد عن عيون الناس. فعزموا أن يلوذوا هم أيضاً بالكتمان. فكانوا يمضون بطعامهم وشرابهم كل يوم، ويختبئون في غابات الصنوبر على مقربة من قاعدة الأخوين، ثم يستطلعون بالمناظر المقربة ما يصنعان. فذهلوا عن أنفسهم ساعة رأوا رجلين من البشر يطيران. بل رأوا في يوم ١٤ مايو ما لم تقع عليه عين بشر : طيران طائرة فيها رجلان. وينبغي أن نتذكر أن جمهور الناس كان لا يزال منكراً أن الطيران مستطاع، مع أن الأخوين أقاما الدليل على إمكانه منذ أربع سنوات في هذه البقعة نفسها ــ كيتي هوك ــ وأخيراً ظفر خبر الطيران بالعناوين الضخمة في صدور الصحف معلنة ما صنعه الأخوان. وكتب بيرون نيوتن في صحيفة الهيرالد : « ليس ثمة أدنى ريب في ما صنعه هذا الرجلان في آلتهما العجيبة ». ومع ذلك فلم تكن هذه المقالات كافية لإقناع كل إنسان، وظلت صحف كثيرة ممتنعة عن نشر الخبر. فلما أرسل نيوتن مقالا إلى إحدى المجلات يصف فيه ما رآه بعينيه في كيتي هوك، أعيد إليه المقال وقد كتب المحرر عليه : « قرأنا مقالكم باهتمام ولكننا لا نستطيع أن نسلكه في صف القصص المتخيل ولا الحقيقة الواقعة » ولم يكف الناس عن الاسترابة فيما صنعه الإخوان حتى كانت التجربة العامة التي تمت في سبتمبر ١٩٠٨، فيومئذ اتفق محررو الصحف ورجال العلم، على أن الطيران بآلة أصبح حقيقة واقعة، ولكن الريب ظل يساور النفوس إلى اللحظة التي بدأ فيها الطيران. وقد قال أورفيل : إن أحس كأن الناس المحتشدين هناك، وفيهم ضباط الجيش الذين تولوا الإشراف على التجربة، لم يتوقعوا أن يروا الطائرة تطير. ويصح أن تعلم أن هذه التجربة كانت التجربة العامة

الأولى لإحدى معجزات القرن العشرين، وكان الذين احتشدوا ليروها جمهوراً صغيراً. ويقول ابن الرئيس تيودور روزفلت : إن أباه طلب منه أن يقدر عدد الناس فكان تقديره أنهم ألف أو أقل. ويقول الفتى روزفلت : « لما ارتفعت الطائرة عن الأرض ندت عن القوم زفرة استغراب، لم يكن مردها إلى أن الطيران كان عجباً من العجب وحسب، بل لأن الناس رأوا شيئاً لم يتوقعوه أيضاً. ولن أنسى ما كان لزفرة الجمهور من أثر في نفسي، فقد كانت زفرة دهشة تامة ». فلما حط اورفيل على الأرض بعد طيرانه، دهش هو أيضاً، فقد عدا اليه ثلاثة من الصحفيين أو أربعة، والدمع يترقرق في عيونهم وينسكب على خدودهم، فقد غلبتهم روعة رؤية شيء كان يعد مستحيلا. وهكذا تحققت معجزة بدأ بها عباس بن فرناس.

ويتحدث شوقي في شعره حين كان في المنفى عن آثار الأندلس وحضارتها الخالدة فيقول من بائية له :

أنادي الرسم لو ملك الجوابا ... وأجزيه بدمعي لو أثابا
وقل لحقه العبرات تجري ... وإن كانت سواد القلب ذابا
سبقن مقبلات الترب عني ... وأدين التحية والخطابا
نثرت الدمع في الدمن البوالي ... كنظمي في كواعبها الشبابا
وقفت بها كما شاءت وشاءوا ... وقوفا علم الصبر الذهابا
لها حق وللأحباب حق ... رشفت وصالهم فيها حبابا
ومن شكر المناجم محسنات ... إذا التبر انجلى شكر الترابا
وبين جوانحي واف ألوف ... إذا لمح الديار مضى وثابا
رأى ميل الزمان به فكانت ... على الأيام صحبته عتابا
وداعاً أرض أندلس وهذا ... ثنائي إن رضيت به ثوابا
وما أثنيت إلا بعد علم ... وكم من جاهل أثنى فعابا
تخذتك موئلا فحللت أندى ... ذرا من وائل وأعز غابا

ويصف شوقي في أندلسيته الخالدة الأخرى روائع المجد العربي الكبير في الأندلس فيقول :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا — نشجى لواديك أم نأسى لوادينا[1]
ماذا تقصُّ علينا غير أن يداً — قصت جناحيك جالت في حواشينا
رمى بنا البين أيكا غير سامرنا — أخا الغريب وظلا غير نادينا
كل رمته النوى ريش الفراق لنا — سهماً وسل عليك البين سكينا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمنصدع — من الجناحين عيٍّ لا يلبينا
فإن يك الجنس يا بن الطلح فرقنا — إن المصائب يجمعن المصابينا
لم تأل ماءك تحناناً ولا ظمأ — ولا ادكاراً ولا شجوا أفانينا
تجر من فنن ساقاً إلى فنن — وتسحب الذيل ترتاد المؤاسينا
أساة جسمك شتى حين تطلبهم — فمن لروحك بالنطس المداوينا؟
آهاً لنا نازحي أيك بأندلس — وإن حللنا رفيفاً من روابينا
رسم وقفنا على رسم الوفاء له — نجيش بالدمع والإجلال يثنينا
لفتية لا تنال الأرض أدمعهم — ولا مفارقهم إلا مصلينا
لو لم يسودوا بدين فيه منبهة — للناس كانت لهم أخلاقهم دينا
لم نسر من حرم إلا إلى حرم — كالخمر من «بابل» سارت «لدارينا»
لما نبا الخلد نابت عنه نسخته — تماثل الورد « خيريا » و« نسرينا »
نسقي ثراهم ثناء كلما نثرت — دموعنا نظمت منها مراثينا
كادت عيون قوافينا تحركه — وكدن يوقظن في الترب السلاطينا

ثم يتحدث عن وطنه مصر في هذه الأندلسية الرائعة فيقول :

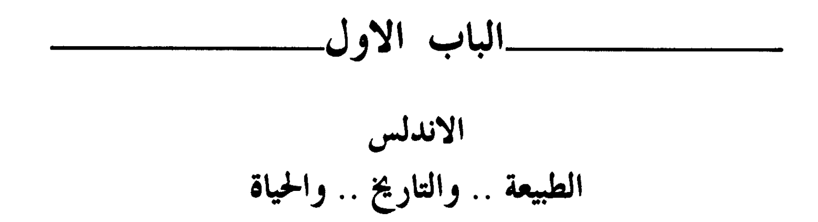
لكن مصر وإن أغضت على مقة — عين من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رفت تمائمنا — وحول حافاتها قامت رواقينا
ملاعب مرحت فيها مآربنا — وأربع أنست فيها أمانينا

(١) واد بظاهر اشبيلية كان ابن عماد مولعاً به.

ومطلع لسعود من أواخرنا   ومغرب لجدود من أوالينا
بنا فلم نخل من روح يراوحنا   من بر مصر وريحان يغادينا
كأم موسى على اسم الله تكفله   وباسمه ذهبت في اليم تلقينا
ومصر كالكرم ذي الإحسان: فاكهة   لحاضرين وأكواب لبادينا
يا ساري البرق يرمي عن جوانحنا   بعد الهدوء، ويهمي عن مآقينا
لما ترقرق في دمع السماء دماً   هاج البكا فخضبنا الأرض باكينا
الليل يشهد لم تهتك دياجيه   على نيام ولم تهتف بسالينا
والنجم لم يرنا إلا على قدم   قيام ليل الهوى للعهد راعينا
كزفرة في سماء الليل حائرة   مما نردد فيه حين يضوينا
بالله إن جبت ظلماء العباب على   نجائب النور محدوا « بجبرينا »
ترد عنك يداه كل عادية   إنسا يعثن فسادا أو شياطينا
حتى حوتك سماء النيل عالية   على الغيوث وإن كانت ميامينا
وأحرزتك شفوق اللازورد على   وشي الزبرجد من أفواف وادينا
وحازك الريف أرجاء مؤرجة   ربت خمائل واهتزت بساتينا
فقف إلى النيل واهتف في خمائله   وانزل كما نزل الطل الرياحينا
وآس مابات يذوي من منازلنا   بالحادثات ويضوي من مغانينا
ويا معطرة الوادي سرت سحراً   فطاب كل طروح من مرامينا
ذكية الذيل لو خلنا غلالتها   قميص يوسف لم نحسب مغالينا
جشمت شوك السرى حتى أتيت لنا   بالورد كتبا وبالريا عناوينا
فلو جزيناك بالأرواح غالية   عن طيب مسراك لم تنهض جوازينا
هل من ذيولك مسكي نحمله   غرائب الشوق وشياً من أمالينا
إلى الذين وجدنا ود غيرهم   دنيا وودهم الصافي هو الدينا
يا من نغار عليهم من ضمائرنا   ومن مصون هواهم في تناجينا
ناب الحنين إليكم في خواطرنا   عن الدلال عليكم في أمانينا
جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا   في النائبات فلم يأخذ بأيدينا
وما غلبنا على دمع ولا جلد   حتى أتتنا نواكم من صياصينا

ونابغـي كـأن الحشـر آخـره ... تميتنـا فيـه ذكـراكم وتحيينـا
نطـوي دجـاه بجرح مـن فراقكـم ... يكـاد في غـلس الأسحـار يطوينـا
إذا رسـا النجـم لم ترقـأ محاجرنـا ... حتـى يـزول و لم تهدأ تراقينـا
بتنـا نقـاسي الدواهـي مـن كواكبـه ... حتى قعدنـا بها حسـرى تقاسينـا
يبـدو النهار فيخفيـه تجلدنـا ... للشامـتين ويأسـوه تأسينـا
سقيـاً لعهـد كأكنـاف الـربى رفـة ... أنى ذهبنـا، وأعطـاف الصبـا لينـا
إذ الزمـان بنـا غينـاء زاهيـة ... تـرف أوقاتنـا فيها رياحينـا
الوصـل صافيـة والعـيش ناغيـة ... والسعـد حاشيـة والدهـر ماشينـا
والشـمس تختـال في العقيـان تحسبها ... « بلقـيس » ترفـل في وشي اليمانينـا
والنيـل يقبـل كالدنيـا إذا احتفـلت ... وكـان فيهـا وفـاء للمصافينـا
والسعد لو دام، والنعمى لو اطردت ... والسيل لو عـف، والمقـدار لـو دينـا





الباب الاول

الاندلس
الطبيعة .. والتاريخ .. والحياة

الفصل الاول

الاندلس .. الجنة الساحرة

الاندلس .. نذكرها حقا .. نذكر جنة الدنيا، وعبق التاريخ، وموئل الحضارة .. نذكرها بالفخر والنشوة .. ذكرى ولا كغيرها من الذكريات لأي ذكرى، ذكرى خالدة حقاً، فهي ليست ذكرى رجل وإن عظم، أو فرد وإن جلّ، إنما هي ذكرى أمة مجيدة، وشعب عريق، ودولة لم تكن تثني هامتها أمام الأعاصير، ذكرى شعب عربي عزيز، عاش في الأندلس [1] العربية الشهيدة، الأندلس التي فتحها العرب بدمائهم وأرواحهم، وازدهرت فيها الحضارة العربية طيلة ثمانية قرون (٩٢ — ٨٩٧ هـ)، والتي أثل المدنية والعمران والمجد فيها هؤلاء العرب، الغر الميامين، الذين دانت لحكمهم الدنيا، وأنصت لسلطانهم التاريخ. الأندلس التي انبثق منها النور والعرفان في العصر القديم يضيء ظلمات أوربا، ويدعو إلى تحرير العقول والأفكار والأرواح، وإلى حياة جديدة تقضي على الجهل والرجعية والإقطاع والجمود. الأندلس ذات التاريخ العريق، والمجد التليد، بساستها وأمرائها

(١) كلمة « اندلس » مأخوذة من « أنلوشيا »، وأصلها « فانلوشيا » نسبة إلى « الفندال » وهو اسم للأمة المتبربرة، التي نزلت هذه البلاد في القرن الخامس الميلادي، وقد اطلق العرب كلمة الأندلس على جميع البلاد المعروفة الآن باسم : أسبانيا والبرتغال، فهي شبه الجزيرة الشاملة لهاتين المملكتين، الواقع بين خطي عرض ٣٦ و ٤٣ شمالاً،=

= وكثيراً ما يطلقون عليها « جزيرة الأندلس »، تساهلاً، كما سموا جزيرة العرب، وسميت « اسبانيا » أخذاً من « إشبان » ملك الروم الذي أسس مدينة إشبيلية. فشبه الجزيرة كلها يسميه العرب « الأندلس »، ويسميه اليونان إيبيريا، ويسميه الرومان اسبانيا، وشبه جزيرة ايبريا واقعة في الجنوب الغربي من قارة أوربا، وهو وإن أطلق العرب عليه اسم الجزيرة مع أن الماء لا يحيط به من جميع جهاته، بيد أنهم شاهدوا الماء يحيط بما رأوا منها فأطلقوا عليه جزيرة تجوزا، كما أطلقوا على شبه الجزيرة كلها اسم الأندلس، وإن كان اسم الأندلس إنما يطلق على الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة فحسب، هذا الجزء الجنوبي الذي يرويه نهر الوادي الكبير، وتمتد مقاطعة الأندلس إلى الشمال من هذا الوادي وإلى الجنوب والشرق منه حتى بحر الروم تجاه بلاد المغرب الأقصى، حيث يفصلها عن قارة إفريقية بحر الزقاق أو مضيق جبل طارق.

وتشمل بلاد الأندلس وغيرها مما وقع تحت حكم العرب وأطلقوا عليه اسم الأندلس قسماً من الهضبة العظيمة التي يتكون منها الجزء الأكبر من بلاد أسبانيا. وأجزاء هذه الهضبة ينفصل بعضها عن بعض بحيث يعتبر كل واد مستقلاً عن الآخر، وتجري فيها أنهار كثيرة، يصب بعضها غرباً في المحيط الأطلنطي، كنهر الوادي الكبير. تمتد به الجبال شمالاً وجنوباًووديانه كثيرة البساتين الأنيقة والرياض النضرة، وعليه تقع مدينة قرطبة التي كانت من أشهر مدن الأندلس الإسلامية وعاصمة الدولة الأموية أكثر من قرنين ونصف قرن، وبها ازدهرت علوم العرب وآدابهم واشتهرت بمبانيها العظيمة وبمساجدها التي من أشهرها مسجد قرطبة الكبير، وقد كان من أكبر جامعات العلوم الإسلامية تخرج منه العلماء والفلاسفة، وتقع عليه كذلك مدينة إشبيلية وغرناطة، وكنهر باجه التي تقع عليه مدينة طليطلة التي كانت من أشهر بلاد الأندلس. وبعض هذه الأنهار يصب شرقاً في بحر الروم مثل نهر ابره الواقعة عليه مدينة سرقسطة، وكانت من البلاد الصناعية زمن العرب، وكان بها المتنزهات الجميلة والقصور العظيمة وينسب إليها كثير من علماء المسلمين ومشهوريهم.

ومن البدهي أن شبه الجزيرة كله يقع شماليه جبال البرانس وخليج بسكاي، وحده الجنوبي هو الخليج الرومي وبحر الزقاق ويعرف الآن ببوغاز جبل طارق الذي يصل البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي، وعرض هذا الخليج اثنا عشر ميلاً تقريباً؛ وشرقي الجزيرة البحر الأبيض المتوسط، وغربيها المحيط الأطلسي أو البحر الأعظم أو بحر الظلمات. وجو هذه البلاد في جملته معتدل الحرارة صيفاً وشتاءً، فبينما تصد جبال البرانس عنها الرياح الباردة تمر عليها تيارات دفيئة تكسبه دفئاً وحرارة، وتسقط الأمطار على شرقها شتاء وعلى شمالها وغربها طول العام، فتفيض الأنهار بماء هذه الأمطار الهاطلة الغزيرة، وتخصب بها تربة البلاد فتنبت الغابات والحبوب=

ومفكريها وعلمائها، وبمدنها الرائعة الجميلة : من أمثال قرطبة[1]، وإشبيلية[2]،

= والفواكه والكروم، وتكثر فيها المراعي التي تربى عليها الأغنام.

ومن الهضبة الأندلسية يستخرج النحاس والزئبق والقصدير، وعلى العموم فهذه البلاد تمتاز بجمال الطبيعة، وخصب التربة، وكثرة الأمطار، مما كان له أثر في توجيه حضارتها وجهة خاصة مستقلة.

(١) كانت في الدولة الأموية قبة الإسلام، وملاذ أعلام الأنام، بها استقر سرير الخلافة المروانية، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية اليمانية، وإليها كانت الرحلة في الرواية، إذا كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء، وهي من الأندلس بمنزلة الرأس من الجسد، قالوا : وجرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب، وبين أبي الوليد ابن رشد، والرئيس أبي بكر بن زُهر، في المفاضلة بين قرطبة وإشبيلية، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما أدري ما تقول، غير أنه إذا مات عالم باشبيلية، فأريد بيع كتبه، حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة، فأريد بيع آلاته، حملت إلى إشبيلية، وكانت قرطبة أكثر بلاد الله كتباً.. وكان بها مسجد الداخل الذي أصبح كتدرائية طولها ٢٠٧ متراً، وعرضها ١٤٧ متراً، وبها ٨٥٠ اسطوانة من المرمر، ولها عشرون باباً، وست عشرة قبة. وبه الجسر الأكبر، على النهر الأعظم، الذي قيل إنه بني بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. ويقال إنه لم تبلغ مدينة من مدن الإسلام من العز والحضارة ما بلغته قرطبة، عدا بغداد. وفيها يقول بعض علماء الأندلس :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادي، وجامعها
هاتان ثنتان، والزهراء ثالثة ... والعلم أعظم شيء، وهو رابعها

ولم تزل عاصمة البلاد خلال حكم الأمويين (١٣٨—٤٢٧هـ).

(٢) من محاسنها اعتدال الهواء، وحسن المباني، ونهرها الأعظم الذي يبلغ المد فيه اثنين وسبعين ميلاً ثم يحسر، وفيه يقول ابن سفر المريني :

شق النسيم عليه جيب قميصه ... فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها ... هزءاً، فضم من الحياء إزاره

وقيل لمن رأى مصر والشام : أيهما أحسن، أهذان أم إشبيلية ؟ فقال بعد تفضيل اشبيلية : شرقيها غابة بلا أسد، ونهرها نيل بلا تمساح. وكانت عاصمة ملك المعتمد ابن عباد من ملوك الطوائف.

وطليطلة[1]، وغرناطة[2]، وجيان، وشلب، وتقع في حوض نهر الوادي الكبير، ما

---

(١) طليطلة تطل على نهر باجه، وكانت قاعدة القوط، وفيها وجد طارق بن زياد مائدة سليمان بن داود، وكانت من ذخائر اشبان ملك الروم، أخذها من بيت القدس، وقومت هذه المائدة عند الوليد بن عبد الملك بمائة ألف دينار ؟ وقيل إنها كانت من زمرد أخضر، وإنها الآن برومة. وكذلك أصاب فيها طارق من الذخائر العظيمة ما لا يكاد يصدقه العقل. وقد صارت في الإسلام قاعدة بني ذي النون من ملوك الطوائف، وكان ابتداء ملكهم صدر المائة الخامسة.

(٢) غرناطة هي مولد لسان الدين بن الخطيب، وفيها يقول الشاعر :

غرناطـــة مـــا لهـــا نظيـــر ... ما مصرُ، ما الشام، ما العراق ؟
مـا هـي إلا العـروس تجلـى ... وتـلك مـن جملـة الصـداق

وتسمى كورة إلبيرة، التي منها غرناطة دمشق، لأن جند دمشق نزلوها عند الفتح، وقيل إنما سميت بذلك لشبهها بدمشق في غزارة الأنهار، وكثرة الأشجار، وكانت غرناطة قاعدة بني الأحمر (٦٢٩ـ٨٩٧هـ)؛ وبها قصر الحمراء المشهور، وعنها رحل الإسلام من بلاد الأندلس.

وقد نشأت غرناطة في أواخر القرن الثامن، وبناها ملوك الإسلام في الغرب؛ فبنى غرناطة أحد ملوك الأندلس، كما بنى فاس أحد الملوك الأدارسة، وكلتاهما تقوم في بقعة من بقاع الأرض متشابهة برياضها وتلالها وجداولها. وقد ازدهرتا معاً، وقامت بينهما صلات وثيقة تجارية وغير تجارية، وخاصة في عهد المرابطين. وقد لاحظ المؤرخون والكتاب الأسبانيون هذا الشبه منذ القرن السادس عشر، ونوهوا بتلك القربى التي ظلت قائمة على وجه الزمان من حيث موقع المدينتين الطبيعي؛ ولكنهما اختلفتا بعد ذلك، لأن مدينة فاس ظلت محتفظة بطابعها الإسلامي الذي نشأت عليه، في حين أن غرناطة تبدل وجهها وتغير منذ استولى عليها فردينان وإيزابيل ملكا قشتالة، وبنيا فيها الكاتدرائية الجميلة. وأشهر ما اشتهرت به غرناطة قصر الحمراء الذي طالما تغنى بجماله الشعراء، ووصف محاسنه الأدباء، وألهم أكثر من قاص حكايات بارعة جميلة. وكان من هؤلاء وأولئك « واشنجطن إيرفنج » و « شاتو بريان » و « تيوفيل جوتيه » و « مانويل أفايا » و « فريدريك أوسيفايا »، فوصفوا روعته وبهاءه، وأحاطوا بألوان الحياة التي كان يحياها أمراؤه في أوائل القرن الرابع عشر. وتختلف غرناطة عن بقية مدن أسبانيا الكبيرة بأن المسلمين بنوها لا الأسبانيين، وقد أقاموها بالقرب من خرائب مدينة أسبانية قديمة اسمها « ألفيرا »، ويلاحظ أن الناس كثيراً ما استعاروا أسماء المدن ليطلقوها على أبنائهم. فإلفيرا كان اسم مدينة فنقلوه إلى اسم سيدة. =

عدا ... ... طليطلة. والمرية ومرسية وبلنسية ومالقة ودانية وشاطبة وبرشونة وطرطوشة، وتقع على الساحل المشرف على البحر الرومي، والجزيرة

= وأطلقه « لامرتين » على بطلة قصته المشهورة. وأسمى العرب مدينتهم غرناطة، وهو اسم مأخوذ من اسم الرمان باللغة الرومانية، لأن المدينة كانت في شكلها بين التلال المحيطة بها تشبه نصف رمانة. وقد تم بناء المدينة في سنة ١٢٣٥م واستمرت بأيدي العرب إلى سنة ١٤٩٢ فكانت آخر معقل سقط بأيدي الأسبان، وأبرز خطوط تاريخها أن محمد بن الأحمر استولى عليها فيما استولى عليه من مدن الشاطئ الأسباني، وهو الذي شرع فيها في بناء قصر الحمراء، وقد أتمه خلفاؤه من بعده، وخاصة محمد الثالث الذي شيد أبواب القصر وبنى المدرسة. وكانت العلاقات بين ملوك بني الأحمر وملوك أسبانيا تختلف بين حروب ومهادنات استمرت قرناً كاملاً، وانتهت في عهد أبي عبدالله محمد بن عبدالله الذي سلم إلى فردينان وإيزابيل مفاتيح أبواب المدينة في ٢ يناير سنة ١٤٩٢، أي في نفس العام الذي اكتشفت فيه أميركا واخترعت المطبعة، ودخل الملكان المدينة في يوم الغطاس (٦ يناير) من تلك السنة. وكان أبو عبدالله قد غادر غرناطة إثر مقابلته للملكين وتسليمه لهما مفاتيح المدينة، ورحل إلى مراكش. ويروى أن أمه، وكان اسمها ثريا، سمعته وقتئذ يزفر ويبكي فقالت له : « لا تبك كامرأة على ملك لم تعرف كيف تدافع عنه كرجل ! ». وبعد سقوط غرناطة لم يلبث الشعراء أن نظموا شعراً كثيراً وصفوا فيه عهد العرب، ورثوا عزهم البائد. وكانت غرناطة قد عرفت في خلال تاريخها العربي باليسر والرخاء، واتسع ملك أمرائها إلى المرية ومالقة وغيرهما، وكان أهلها يتكلمون بلغة يخالطها ألفاظ رومانية. وكان بالقرب منها ضاحية جميلة تسمى ربض البازيين تسكنها طبقة الأعيان والوجهاء. ويلاحظ أن هذه الطبقة الأرستقراطية كانت تأنف سكنى المدن الكبيرة وتختار لها مكاناً خارج المدينة تبني فيه منازلها الأنيقة، وقديماً قالوا : « إن الأطراف مساكن الأشراف »، وكان كذلك بالقرب من المدينة دير صغير يقال له دير سيدة كرمن، إشارة إلى العذراء مريم، وهو تشويه لاسم جبل الكرمل بفلسطين. وقد نحتوا منه اسم « كرمن » الذي صاروا يسمونه به. وكان الدير قائماً على أحد التلول المحيطة بالمدينة، وموقعه ذو مناظر تعذ قرة للعيون وبهجة للنفوس. وأما قصر الحمراء فكان مقر الملوك؛ كان كأنه حصن قائم على مرتفع يشرف على المدينة في مهابة وجلال، بل إنه كان مدينة صغيرة تشبه « فرسايل » و « سانديني » مقري ملوك فرنسا؛ وهذا كان من عادة ملوك ذلك العصر أن يبنوا قصورهم خارج المدينة وفي ضاحية منها. وكانت الحمراء ذات أسوار مزدوجة، وفيها مسجد هو=

الخضراء وتقع بالقرب من ساحل بحر الزقاق؛ أما طليطلة فتقع هي ومدريد (أو مجريط) داخل الهضبة الأسبانية؛ هذه المدن ذات الذكريات المجيدة، والتي خرج

= الجامع الكبير، وسوق، وبعض المنازل بين كبير وصغير، وفيها مدافن الملوك وكانت تسمى الروضة، وكانت ذات فخامة وأبهة. ويحكى أنه لما ماتت الملكة إيزابيل أوصت بأن تدفن في قبر بسيط بكنيسة المدينة لتظهر الفرق بين الفخامة التي كانت من مظاهر ملوك العرب والبساطة التي كانت تتوخاها. ويعد قصر الحمراء أبرع مظهر للفن الإسلامي بالأندلس، وأوفى دليل على حياة العز التي كانوا يتمتعون بها. وكان يحوي كل أسباب الطمأنينة واللهو. وهو سلسة أبنية جميلة وردهات واسعة، وكان له عدة أبواب منها باب العدل الذي كتب فوقه « لا غالب إلا الله ». وكانت هذه الأبواب وتلك الغرف مزينة بأجمل الزينات، مرصعة بالعاج والصدف والفضة، مزخرفة على أحسن منوال، فيها الفسيفساء والنقوش. وفي سنة ١٥٢٦ أمر الملك شارلكان الذي كان يتردد كثيراً على قصر الحمراء أن تهدم بعض أجزائه ليبني موضعها قصراً لإقامته. وقد تم له ما أراد، ولكن بناء القصر لم ينته فظل بلا سقف يظلله... وما أحسن قول ابن خفاجة في الأندلس ومدنها :

إن للجنــــة بالأنـــــدلس … مجتلى حسـن، وريـا نـفس
فسنـا صبحتهـا مــن شـنب … ودجـا ليلتهـا مــن لــعس
وإذا مـا هـب الريـح صبـا … صحت : واشوقي إلى الأندلس

وقول ابن سفر المريني :

في أرض أنـدلس تلتـذ نعمـاء … ولا يفـارق فيهـا القـلب سـراء
وليس في غيرها بالعيش منتفـع … ولا تقـوم بحـق الأنس صهبـاء
وأين يعدل عن أرض يحض بها … على المدامـة أمـواه وأفيـاء ؟
وكيف لا يبهج الأبصار رؤيتها … وكل روض بها في الوشي صنعاء؟
وللهـواء بهـا لطـف يـرق بـه … من لا يرق، وتبدو منه أهـواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحراً … ولا انتشار لآلي الطـل أنـداء
وإنمـا أرج النـد استثـار بهـا … في ماء ورد، فطابت منه أرجاء
وأيـن يبلـغ منهـا مـا أصنفـه … وكيف يحوي الذي حازته إحصاء
قد ميزت من جهات الأرض حين بدت … فريـدة، وتولـى ميزهـا المـاء
دارت عليها نطاقا أبحر خفقت … وجداً بها إذ تبدت وهي حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب … والطير يشدو، وللأغصان إصغاء
فيها خلعت عذاري، ما بها عوض … فهي الرياض، وكل الأرض صحراء

=

منها أئمة الفكر والعلم والأدب والفلسفة؛ خلال العصور السالفة الزاهية التي حكم العرب فيها الأندلس؛ الأندلس الشهيدة التى تآمر عليها وعلى حضارتها أعداء الإسلام من متعصبي المسيحيين، فأحرقوا مدنها، وهدموا جامعاتها، وبددوا مكتباتها، وشردوا أهلها، وقضوا على آثار الحضارة فيها ظلما وجهلا واستبدادا، مما لا نسميه حركة تحرير، لأن الشعب الأسباني كان قد اختلط حينئذ بالشعب العربي، وصار أهل البلاد شعبا واحدا له خصائصه الفكرية والثقافية، ولأن حركة التحرير لا ترادف الجهل والرجعية والوحشية ولا يعنى بها سفك الدماء، وتمزيق الأشلاء، وهدم الجامعات، وحرق المكتبات، واستباحة الأعراض، وانتهاك الحرمات، والقضاء على شعب كبير له تاريخه وسماته وخصائصه في تاريخ الحضارة الإنسانية، وما أصدق ما يقول الشاعر الأندلسي :

قلت يوما لدار قوم تفانوا   أين سكانك العزاز علينا؟
فأجابت : هنا أقاموا قليلا   ثم ساروا ولست أعلم أينا

= ويقول لسان الدين بن الخطيب في خصائص الأندلس :

« وخص الله تعالى بلاد الأندلس من الريع، وغدق السقيا، ولذاذة الأقوات وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية، وكثرة السلاح، وصحة الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وفنون الصنائع، وشهامة الطباع، ونفوذ الإدارك، وإحكام التمدن والاعتمار بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها »؛ ونقل المقري عن الرازي : « بلد الأندلس هو آخر الإقليم الرابع إلى المغرب، وهو عند الحكماء : بلد كريم البقعة، طيب التربة، خصب الجنان، منبجس الأنهار الغزار، والعيون العذاب، قليل الهوام ذوات السموم، معتدل الهواء والجو والنسيم. ربيعته، وخريفه، ومشتاه، ومصيفه، على قدر من الاعتدال، وسطة من الحال... تتصل فواكهه أكثر الأزمنة، وتدوم متلاحقة غير مفقودة. أما الساحل منه ونواحيه، فيبادر بباكورة، وأما الثغر وجهاته، والجبال المخصوصة ببرد الهواء فيتأخر بالكثير من ثمره؛ فمادة الخيرات متمادية في كل الأحيان، وفواكهه على الجملة غير معدومة في كل أوان، وله خواص في كرم النبات توافق في بعضها أرض الهند، المخصوصة بكرم النبات وجواهره، منها : أن المحلب، وهو المقدم في الأفاويه والمفضل في أنواع الأشنان، لا ينبت بشيء من الأرض، إلا بالأندلس والهند. وللأندلس المدن الحصينة والمعاقل المنيعة، والقلاع الحريزة، والمصانع الجليلة، ولها البر والبحر، والسهل والوعر.

إن الأندلس وفلسطين لنشيدان رائعان من أناشيد المجد والعظمة والجلال، ولن ينسى العرب والمسلمون قصة مصرع الأندلس في القديم، ولا قصة مصرع فلسطين في الحديث، لأنهما قصتان يجب ان يلتفت إليهما الضمير الإنساني، وأن يرددهما شباب العرب في كل جيل وزمان ومكان.

وكيف ننسى أجيالا من الكفاح والبطولة والتضحية والبناء والعمل الشاق لخير الإنسانية جمعاء، وقرونا ثمانية قضاها العرب في الأندلس يرفعون لواء الحضارة، ويبنون روائع العمران، ويشجعون الفنون، وينهضون بالعلوم، ويتفانون في بعث النهضة في قلب أوربا الجاهلة الشقية المحرومة المخذولة، التي سرقت أمجاد العرب ومدنيتهم، ثم جحدت فضلهم، وأنكرت أياديهم البيض على أوربا المسكينة المحرومة يومذاك.

ونحن نعلم أنه لولا معركة تور لما تأخرت النهضة في أوربا نحو تسعة قرون طوال، هذه المعركة التي أدت إلى انتكاس الإنسانية والحضارة بانتصار شارل مارتل على عبد الرحمن الغافقي في خريف سنة ٧٣٢ م، وهي التي قال فيها مسيو كلود فارير الأديب الفرنسي الأشهر : « في سنة ٧٣٢ م (١١٤ هـ) حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التي انقضت على الإنسانية في القرون الوسطى، وكان منها أن غمرت العالم الغربي ــ مدة سبعة قرون أو ثمانية إن لم نقل أكثر ــ طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة (رونسانس) ... هذه الفاجعة هي التي أريد أن أمقت حتى ذكراها، وأعني بها الانتصار البغيض، الذي ظفر به على مقربة من بواتيه[1] ــ أولئك البرابرة المحاربون من الافرنج بقيادة الكارولنجي شارل مارتل ــ على كتائب العرب المسلمين الذين لم يحسن عبد الرحمن الغافقي جمعهم على ما ينبغي من الكثرة فانهزموا راجعين أدراجهم، في ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء. ويكفي المرء أن يطوف في حدائق الأندلس

(١) بقعة من الأرض الفرنسية قريبة من بلدة (تور) في مقاطعة شمبانيا.

أو بين الآثار العربية التي لا تزال تأخذ بالأبصار مما يبدو من عواصم السحر والخيال (إشبيلية وغرناطة، وقرطبة، وطليطلة)، ليشاهد — والألم الغريب آخذ منه .. ما عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمراني الفلسفي السلمي المتسامح — لأن الإسلام مجموعة كل هذا — فخلصها من الأهاويل التي لا أسماء لها. وكان من ذلك أن نتج خراب (غاليا) القديمة، التي استعبدها أولا لصوص أوسترازيا، ثم اقتطع جزءاً منها قرصان النورمانديين، ثم تجزأت وتمزقت وغرقت في دماء ودموع، وفرغت من الرجال بما انبعث في أرجائها من الدعوة للحروب الصليبية، ثم انتفخت بالأشلاء والجثث بما دهمتها من الحروب الخارجية والأهلية الكثيرة العدد. حدث ذلك في حين كان العالم الإسلامي — من نهر الوادي الكبير في أوربا إلى نهر السند في قلب آسيا — يزدهر كل الازدهار في ظل الإسلام ... ليس ما كتبته فصلا من التاريخ الرسمي، بل هو التاريخ الحقيقي الذي يتعلمه المرء بنفسه، مما يجتازه من بحار، ويقطعه من فياف وآفاق، ويقلبه من خزائن الكتب الأجنبية، وليس هذا بعزيز على حياة سائح يريد أن يفضح — عقب رحلة له — ما كان يلمسه بأطراف بنانه من تلك الأكاذيب الكبرى السفيهة التي أراد معلمونا — ولا يزالون يريدون — وضعها أمام أعيننا كأنها حقيقة بل هي حقيقة ».

ويقول أديب فرنسي كبير آخر، هو المسيو هنري دي شامبوت مدير مجلة (ريفو بار لمنتير) هذه الشهادة الصريحة : « لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي على تقدم العرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى، ولما أصيبت بفظائعها، ولما كابدت المذابح الأهلية الناشئة عن التعصب الديني والمذهبي. ولولا ذلك الانتصار البربري على العرب لنجت اسبانيا من رحمة محاكم التفتيش، ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون. إننا مدينون للشعوب العربية بكل محامد حضارتنا : في العلم، والفن، والصناعة، مع أننا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة

على تلك الشعوب العريقة في الفضائل، وحسبها أنها مثال الكمال البشري مدة ثمانية قرون، بينا كنا يومئذ مثال الهمجية. وإنه لكذب وافتراء ما ندعيه من أن الزمان قد اختلف، وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى »

ونعلم كذلك إنه لولا التعصب المسيحي في أسبانيا، ومأساة طرد العرب منها، وما صنعته محاكم التفتيش في أهلها العرب المسلمين وغيرهم، لولا ذلك كله لكانت أسبانيا اليوم أعز دولة في العالم، ولما تأخر بدء النهضة في أوروبا، وما أجل ما يقول نيتشة فيلسوف ألمانيا الأشهر : « لقد حرمتنا المسيحية ميراث العبقرية القديمة، ثم حرمتنا بعد ذلك الإسلام، لقد ديست بالأقدام تلك المدنية العظيمة، مدنية الأندلس المغربية، ولماذا؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة، ومن غرائز شريفة، نعم من غرائز رجال. إن تلك المدنية الإسلامية لم تنكر الحياة، بل أجابتها بالإيجاب، وفتحت لها صدرها.

وفي تصوير مدى الجرم الإنساني العظيم الذي ارتكبه الأسبانيون في حق العرب يقول محمد عبد الله عنان في كتابه « ديوان التحقيق »[1] :

« في سنة ١٤٩٩ ذهب الكردينال كمنيس إلى غرناطة، وحث مطرانها والدوق تالافيرا على اتخاذ وسائل جديدة لتنصير المسلمين، وجمع فقهاء المدينة وشرح لهم أصول النصرانية ودعاهم إلى اعتناقها، وأغدق عليهم التحف والهدايا، فأقبل بعضهم على التنصير، إما اتقاء للاضطهاد، أو اغتناما للحظوة، وتبعهم جماعة كبيرة من العامة. ولما حاول بعض أعيان المسلمين التدخل والاحتجاج بأن هذه السياسة تنافي روح العهود المقطوعة ونصوصها، أجاب كمنيس بالوعيد، وهدد باتباع الشدة والعنف، وعمد إلى ارتكاب جريمة من أشنع الجرائم البربرية، إذ أمر بجمع كل ما يستطاع

---

(١) ديوان التحقيق ــ محمد عبدالله عنان ــ ص ٣٥.

جمعه من الكتب العربية، ونظمت أكداسا في أكبر ساحات المدينة، وكان منها عدد كبير من المصاحف المزخرفة وكتب الفقه والكلام، ومنها أيضاً كثير من كتب الآداب والعلوم، وأضرمت فيها النار جميعا، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة كتاب في الطب ». ويختلف المؤرخون في تقدير عدد المخطوطات العربية التي ذهبت فريسة هذه الجريمة الشائنة. فيقدرها بعضهم بأكثر من مليون، ولكن (كوندي) يقدرها بثمانين ألفا، وتقديره أرجح وأقرب إلى المعقول، لأن المكتبة الأموية الشهيرة في قرطبة لم تزد على ستمائة الف مجلد، وقد بددت هذه المجموعة الكبيرة أيام ثورات البربر واقتحامهم لقرطبة، ولم يجتمع في غرناطة في مجموعة واحدة مثل هذا القدر، ولكن أنشئت بها مجموعات مختلفة ما بين خاصة وعامة، وكان طبيعيا أنها وهي مركز العلوم الإسلامية، بعد قرطبة، تحتوي على أنفس الآثار الإسلامية من حيث التفكير والفنون، ويؤيد كوندي تقديره بقرائن وشواهد لا بأس بها.

وها هوذا احد الشعراء الأندلسيين يبكي ما ضاع من ثمرات العقول والأفكار الإسلامية في الأندلس، فيقول من قصيدة وجهها إلى بايزيد العثماني مستغيثاً من ملك الروم وتنكيله بالمسلمين، وقضائه على تراثهم الفكري :

وخان عهودا كان قد غرنا بها ... ونصرنا كرها بعنف وقسوة
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف ... وخلطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان من أمر ديننا ... ففي النار ألقوه بهزء وحقرة
ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم ... ولا مصحفاً يخلى به للقراءة

الطبيعة الأندلسية الفاتنة

— ١ —

بلغت فتنة الطبيعة في الأندلس وجمالها حداً لا يوصف، هذه الطبيعة الساحرة التي انتظمت الجبال والأنهار والوديان والحقول الواسعة وشواطئ البحار، والمدن الجميلة، مثل : قرطبة، وغرناطة وطليطلة وأشبيلية، وغيرها. وكانت مناظر الطبيعة في الأندلس أجل من أن توصف، فهذا وادي الأشات[١]، وقد أحدقت به البساتين والأنهار، وفيه يقول أبو الحسن ابن نزار :

لله ظـــلك والهجير مسلـــط ... قـد بـردت لفحاتـه الأنـداءُ[٢]

والشمس ترغب أن تفوز بلحظة ... منـه فتطـرف طرفهـا الأفيـاء[٣]

والنهر يبســم والحبـاب كأنــه ... سلـخ نضتـه حيـة رقشــاء[٤]

فلـذاك تحذره العيـون فميلهـا ... أبـــدا على جنباتــــه إيماء

---

(١) قرية صغيرة من أعمال غرناطة.

(٢) الهجير : شدة الحر، ولفحة النار : الهبة من حرها.

(٣) الأفياء : جمع فيء، وهو ما كان شمساً فنسخه الظل، والمعنى في « تطرف طرفها الأفياء » أن الظل يرد عين الشمس عن التفتح في موضعه، فكأنها طرفت فأغمضت.

(٤) الحباب : معظم الماء، والمراد هنا ظهره. السلخ : بالفتح اسم ما نزع عن الشاة من جلدها، والفعل من باب نصر وقطع، نضا الثوب (كنصر) خلعه. الرقشاء : الحية المنقطة بسواد.

وهذا وادي عذراء، بمدينة برجة التي سميت « بهجة » لبهجة مناظرها، وفيه يقول أبو الفضل بن شرف القيرواني المتوفى عام ٤٦٠ هـ :

ريـــاض تعشقهـــا سنـــدس تـــوشت معاطفهـــا بالزهـــر
مدامعهـا فـوق خـدي ربـا لها نظـرة فتـنت مـن نظـر
وكل مكـــان بها جنـــة وكـل طريـق إليهـا سقـر

وفيها أيضا قوله :

حـــط الرحـــال ببرجـــه وارتـــد لنـــفسك بهجـــه
في قلعـــة كســـلاح ودوحـــة مثـــل لجه[1]
فـــحصنها لك أمـــن وروضهـــا لك فرجـــه
كل البـــلاد سواهـــا كعمـــرة وهـــي حجـــه

وقد ذكروا عن إشبيلية أنها من أحسن مدن الدنيا، وبأهلها يضرب المثل في الخلاعة، وانتهاز فرصة الزمان الساعة بعد الساعة، يعينهم على ذلك واديها الفرج، وناديها البهج، ولها جبل الشرف، وهو تراب أحمر مترامي النواحي، يشتمل على مائتين وعشرين قرية، قد التحفت بأشجار الزيتون واشتملت، وذكروا عن نهرها أن المد يصعد فيه اثنين وسبعين ميلا ثم ينحسر، وفيه يقول ابن سفر :

شق النسيم عليه جيب قميصه فانساب من شطيه يطلب ثاره
فتضاحكت ورق الحمام بدوحها هزءاً فضم من الحياء إزاره

إلى غير ذلك من شتى مناظر الطبيعة الفاتنة الساحرة.

(١) السلاح معروف، والمعنى : أن القلعة ــ وهي في الأصل موضع الخوف ــ صارت كأنها السلاح، ويروى « كسلام » ولا معنى له.

وقد كان الأندلسيون أكثر الناس حباً للأندلس، وافتتانا بمفاتنه وهياما بجماله وحسنه.

وقد بلغ من حبهم لبلادهم، وغرامهم بمحاسنها، ان أديباً من أهلها وهو أبو عمران موسى بن سعيد، كتب إليه أحد الوزراء يرغبه في النقلة إلى مراكش فأبى وكتب إليه : « كيف أفارق الأندلس !! وقد علم سيدي أنها جنة الدنيا بما حباها الله من اعتدال الهواء، وعذوبة الماء، وكثافة الأفياء، وأن الإنسان لا يبرح فيها بين قرة عين وقرار نفس : أفق صقيل، وبساط مديج، وماء سائح، وطائر مترنم، فكيف يعدل الأديب عن أرض على هذه الصفة ؟! فيا سموءل الوفاء، ويا حاتم السماح، ويا جذيمة الصفاء[1]، كمل لمن أملك النعمة، بتركه في موطنه، غير مكدر لخاطره بالتحرك من معدنه .. الخ ».

ولما رقت حال أبي القاسم عامر بن هشام بقرطبة، وزين له بعض أصحابه الرحلة إلى حضرة ملك الموحدين بمراكش قال وذكر المتنزهات بقرطبة. وتسمى هذه القصيدة عند أهل الأندلس كنز الأدب :

با هبة باكرت من نحو دارين وافت إلي على بعد تحييني
سرت على صفحات النهر ناشرة جناحها بين خيري ونسرين

(١) هو جذيمة بن مالك بن عامر التنوخي، أول من قاد العرب وملك على قضاعة، وكانت منازله الحيرة والأنبار، وولايته من قبل أرد شير بن بابك، وكان أبرص فعدل عن الاسم فقيل الأبرش، وهو الذي يقال له نديم الفرقدين، وكان إذا شرب قدحاً صب لهما قدحين، وهو الذي تزوج الزباء، وكان لها وتر عنده، لأنه قتل أباها عمرو بن الظرب العاملي فملكت بعده ابنته « الزباء » فاستشار أصحابه فأشاروا عليه بالمضي، إلا قصير بن سعد، فلما كان عندها قطعت رواهشه واستنزفته حتى مات، فخلفه على الملك ابن أخته عمرو بن عدي ثم احتال قصير على الزباء ودبر لها مكيدة أهلكتها.

ردت إلى جسدي روح الحياة وما خلت النسيم إذا ما مت يحييني
لولا تبسمها عن نشر أرضكم ما أصبحت من أليم الوجد تبريني

ومنها :

وأين يعدل عن أرجاء قرطبة من شاء يظفر بالدنيا وبالدين
قطر فسيح ونهر ما به كدر حفت بشطيه الفاف البساتين[1]
يا ليت لي عمر نوح في إقامتها وأن مالي فيه كنز قارون
كلاهما كنت أفنيه على نشوا ت الراح نهباً ووصل الحور والعين
وإنما أسفـــــي أني أهيم بها وأن حظي منها حظ مغبون
يا آمري أن أحث العيش عن وطني لما رأى الرزق فيه ليس يرضيني
نصحت لكن لي قلباً ينازعني فلو ترحلت عنه حله دوني
لألزمن وطني طورا تطاوعني قود الأماني وطوراً فيه تعصيني

ـ ٣ ـ

وما أكثر ما لهج أهل هذه البلاد بالثناء عليها نثراً ونظما، حتى يكاد قولهم يكون مقصوراً على وصف نعيمهم بها، والتلهف على ما فاتهم منه حين اقصوا عنها، ومن تمدحهم بمحاسنها قول ابن سفر المريني[2] :

في أرض أندلس تلتذ نعماء ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس في غيرها بالعيش منتفع ولا يقوم بحق الأنس صهباء
وكيف لا تبهج الأبصار رؤيتها وكل روض بها في الوشي صنعاء[3]

---

(١) الألفاف : الأشجار الملتفة، جمع لف « مثلثا » وهو جمع لفاء، فيكون ألفاف جمع الجمع.

(٢) نسبة إلى بني مرين. قال في شرح القاموس : بنو مرين كأمير من ملوك الغرب، منهم : أبو يعقوب عبد الحق وأولاده وطائفة من آل مرين.

(٣) بهج ككرم وفرح : سر. وكمنع : أفرح كأبهج.

أنهارهـا فضـة والمسك تـربتها والخز روضتها والـدر حصبـاء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحراً ولا انتشار لآلي الطل أنـداء
وإنما أرج النـد استـثير بها في ماء ورد فطابت منه أرجاء[1]
وأيـن يبلـغ منها مـا أصنفـه وكيف يحوي الذي حازته إحصاء؟
قد ميزت من جهات الأرض حين بدت فريـدة وتـولى ميزهـا الماء
دارت عليها نطاقا أبحر خفقت وجداً بها إذ تبدت وهي حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طرب والطير يشدو وللأغصان إصغاء
فيها خلعت عذاري ما بها عوض فهي الرياض وكل الأرض صحراء[2]

وقول ابن خفاجة (٤٥٠ ــ ٥٣٣ هـ) :

إن للجنـة بالأنـدلس مجلى مـرأى وريانـفس[3]
فسنـا صبـحتها مـن شـنب ودجـى ظلـمتها مـن لـعس[4]
فـإذا مـا هـبت الـريح صبـا صحت وأشواقي إلى الأندلس!

ويقول ابن الزقاق البلنسي في بلنسية :

بلنسيـة إذا فكـرت فيها وفي آيـاتها أسنـى البـلاد
وأعظـم شاهـدي منهـا عليهـا وأن جمالها للـعين بـادي
كساهـا ربها ديبـاج حسـن لها علمان : من بحر وواد[5]

---

(١) الأرج : توهج ريح الطيب. روى هذا البيت في نفح الطيب « استثار » ولا يكون هذا الفعل إلا متعدياً فلا يناسب في هذا الأسلوب إلا بناؤه للمجهول. الأرجاء : جمع رجا وهو الناحية.

(٢) العذار : ما سال من اللجام على خد الفرس، ولا يخلع اللجام من فرس في الركوب إلا إذا أريد أن ينطلق ملء فروجه. ويقال : خلع فلان عذاره في هذا الأمر : أن أطلق لنفسه حرية لا يردها راد.

(٣) الريا : الريح الطيبة.

(٤) الشنب : نقط بيض في الأسنان.

(٥) علم الثوب : نقشه. يريد أن البحر والوادي كأنهما نقش وزينة لبلنسية، التي شبهها بالثوب.

ويقول مروان بن عبد الله بن عبد العزيز ملك بلنسية :

كــأن بلنسيــة كاعب ... وملبسهــا سنــدس أخضــر
إذا جـئتها ستــرت نفسهــا ... بأكمامهــا فهــي لا تظهــر

وفي قرطبة أو غرناطة يقول بعضهم :

أغرناطـة الغـراء هــل لي أوبــة ... إليك وهل يدنو لنا ذلك العهد[1]
سقى الجانب الغربي منك غمامة ... وقعقع في ساحات روضتك الرعد[2]
لياليك أسحــار وأرضك جنــة ... وتربك في استنشاقها عنبر ورد[3]

وقال ابن مالك الرعيني يصف الحمراء :

رعى الله بالحمراء عيشاً قطعته ... ذهبت به للأنس والليل قد ذهب[4]
ترى الأرض منها فضة فاذا اكتست ... بشمس الضحى عادت سبيكتها ذهب[5]

ولابن خفاجة في وصف منظر راقه :

لله نهر ســال في بطحــاء ... أشهى وروداً من لمى الحسناء[6]
متعطــف مثــل الســوار كأنــه ... والزهــر يكنفــه مجر سماء

(١) غرناطة : بفتح أوله. قال في معجم البلدان : والصحيح أغرناطة بالهمز في أوله، أسقطها العامة كما أسقطوها في ألبيرة، فقالوا : لبيرة. قال ومعنى غرناطة رمانة بلسان أهل الأندلس، وهذه البلدة هي ثالثة عواصم الأندلس بعد قرطبة وإشبيلية، وقد ازدهرت فيها مملكة بني الأحمر؛ وهي على نهر شنيل في الجنوب والشرق من قرطبة. ويروى : « أقرطبة ».

(٢) القعقعة : صوت الرعد.

(٣) العنبر هنا : الزعفران. والورد : الذي يشوب بياضه حمرة.

(٤) قوله ذهبت به للأنس أي صرفته نحو الأنس.

(٥) اللغة الفصحى في الوقف على المنون المنصوب ان يكون بالألف، ولكن ربيعة تقف عليه كما يوقف على المرفوع والمجرور.

(٦) اللمى : سمرة الشفة والمراد بها هنا موضعها.

قد رق حتى ظن قرصا مفرغا   مـن فضـة في بـردة خضـراء
وغدت تحف به الغصون كأنها   هـدب تحف بمقلـة زرقـاء[1]

وهكذا فتن الأندلسيون بطبيعة بلادهم، وتحدثوا عنها في شعرهم ونثرهم .. وهذه الطبيعة السمحة كان لها أثرها في الأخيلة والعقول الأفكار؛ وكان لها الفضل فيما عرف به الاندلسيون من توقد الذهن، وكثرة النشاط، والإقبال على الحياة، والعمل من أجل الرخاء والأمن وتأصيل الحضارة.

---

(1) الهدب : بالضم وبضمتين : شعر أشفار العينين، واحدتها هدبة، ومن هنا يبين وجه تأنيث الفعل في قوله تحف.

الفصل الثاني

العرب في الأندلس

التاريخ القديم للأندلس

دخلت بلاد الأندلس في عصور التاريخ الأولى قبائل من الجلالقة والسلت والبسك، واستقر البعض في الشواطئ الساحلية، ثم هاجرت اليها سلالات حامية من البربر سكان إفريقيا، وقبل الميلاد بعشرة قرون دلف اليها سلالات سامية من الفنيقيين الذين استوطنوا قرطاجنة، وأثرت البيئة الأندلسية في هذه الأمم المختلفة إلى حد كبير. وفي عصور الحضارة الإغريقية الأولى دخل إلى البلاد كثير من اليونانيين، ثم استولى الرومان عليها في أوائل القرن الثالث الميلادي، وكانت حاضرة البلاد في عهدهم مدينة « طالقة » القريبة من اشبيلية، وقد أطلق الرومان على البلاد اسم هسبانيا، واستمر حكمهم لها زمناً طويلاً، حتى أترفوا وامحت من نفوسهم أخلاق أجدادهم الفاضلة فغلبتهم على حكم البلاد قبائل الفندال الجرمانية التي أسست لها على نهر الوادي الكبير مملكة سميت باسمهم « فندلس »، ومن هذا الاسم أخذت كلمة أندلس، ثم أغار القوط على الفندال فنسخوا الحكم الفندلسي من البلاد، واتخذوا مدينة طليطلة عاصمة لملكهم، وقد دام حكم القوط ثلاثة قرون بلغ فيها منتهى الفخامة والترف، وانتشر

في ظلاله الدين المسيحي، بعد أن تغلب على الوثنية الأولى، وكان آخر ملوكهم « رودريك » الذي اغتصب العرش لنفسه، وأقام ملكه على العسف والاستبداد، وروع الشعب، فهاجر الكثير إلى بلاد الإمبراطورية الإسلامية الناشئة، ينعمون في ظلالها بالعدل والأمن والحرية، وينشدون لوطنهم السلام والرفاهية ولو في ظلال الحكم الإسلامي النبيل.

وكان المسلمون قد فتحوا مصر عام ٢٠ هـ، وتوغلوا في شمال إفريقية بعد ذلك، وأسسوا مدينة القيروان عام ٥٠ هـ، واستمروا في فتوحاتهم، حتى بلغ عقبة بن نافع إلى شاطئ بحر الظلمات ونزل بفرسه فيه وهو يقول :

« اللهم فاشهد لو كان وراء هذا البحر قوم لخضته اليهم ».

الفتح العربي للأندلس

خلف موسى بن نصير عقبة بن نافع عام ٨٨ هـ في ولايته، وفي عزيمته وهمته، وكانت ولايته من قبل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ — ٩٦ هـ)، فتطلع موسى إلى فتح جديد يجدد به معجزات البطولة العربية، فلم يجد أمامه إلا بلاد الأندلس.

وفي هذه الفترة كان « رودريك » على عرش اسبانيا يتربص به شعبه ريب الحوادث، وأنصار الملك المخلوع ملك الجوت الذي اغتصب رودريك عرشه يدبرون له المكايد، والكونت يليان حاكم سبتة يؤازرهم مؤازرة الذائد عن شرفه وكرامته، فأخذ يرشد موسى بن نصير إلى مواطن الضعف من القوط، ويحبب اليه فتح البلاد، ويضع أسطوله تحت تصرفه، ورأى موسى أن الفرصة سانحة، فأرسل طريف بن مالك في حملة إلى بلاد الأندلس طليعة للجيش، ثم أتبعه بحملة أخرى يقودها طارق بن زياد عامل طنجة.

يروى أن الأمراء كانوا يرسلون بناتهم إلى بلاط الملك وصائف، وأن جوليان (يوليان) حاكم مدينة « سبتة » أرسل ابنته حفيدة الملك وتيزا (غيطشه) إلى القصر الملكي، فأغواها رودريك من عفافها، ثم استفاقت فأبلغت أباها أمرها، فعزم على أن يكيد لرودريك انتقاماً منه، ولم يبد مما في نفسه شيئا إلا أنه عرض بما أراد؛ إذ كان رودريك يطلب منه أن يهدي اليه صقورا للصيد فأجاب جوليان : لأرسلن اليك صقورا ما رأيتها من قبل. وربما كان جوليان أراد أن ينتقم للملك المخلوع الذي كان صهره.

وربما كان جوليان أراد أن يأمن غارة العرب الذين يحيطون به وتقض قوتهم مضجعه؛ فجعل يغري موسى بن نصير والي إفريقية من قبل الوليد ابن عبد الملك بملك رودريك وجمال بلاده ووفرة الخيرات وقلة الخطر، فلعل ذلك مانعه من العرب أو مفيئه إلى ظلهم الظليل، ولعله يظفر بتاج رودريك أو يستطيع رده إلى أحمائه أولاد وتيزا. ومن البدهي أن موسى بن نصير كتب إلى الخليفة الوليد يبلغه ويأتمر بأمره، فكتب اليه الخليفة يحذره أن يجازف بدماء المسلمين وأرواحهم ويأذن لهم في خفيف الغزوات ومأمون السرايا.

وأرسل موسى مولاه طريفا عام ٩١ هـ — ٧١٠ م، ومعه خمسمائة مسلم اجتازوا الطريق المسمى الآن بوغاز جبل طارق، وكان العرب يسمونه بحر الزقاق على أربع سفن قدمها اليهم جوليان تنفيذاً لما كان قد تعهد به لموسى بن نصير من حمل المسلمين في البحر ودلالتهم في البر وتعريفهم بعورات البلاد ومسالكها، وقد كانت سرية طريف موفقة، فتح بها المدينة الخضراء، واستيقن إخلاص جوليان وسهولة البلاد.

وأغرى هذا التوفيق الميسر موسى بن نصير فأرسل في عام (٩٢ هـ : ٧١١ م) طارق بن زياد في سبعة آلاف نزل بهم على صخرة صارت تسمى من ذلك الحين جبل طارق ودخل بهم كأنما هو يسعى

في البلاد دون مقاومة، إلى أن وصل نهر جواديليت « نهر بقة » وإذا جيش كثيف زاحف إلى المسلمين يقوده رودريك في خمسة أمثال جيشهم أو يزيد، وأعد طارق جيشه وخطب فيهم خطبته المشهورة، ثم اجتمعوا على عدوهم وحاربوا جيوشه سبعة أيام حتى انتصروا نصراً خالداً، ورئى حذاء رودريك وجواده على شاطئ النهر فقيل إنه مات غريقاً، وهكذا تم النصر، فقد كانت الحالة النفسية بين الجيشين مختلفة، فالمسلمون يجاهدون في الله حق جهاده، والجوت توزعت اهواءهم المظالم التي كان يصبُّها الملوك عليهم صبا.

وكان جيش المسلمين على قلب رجل واحد، وجيش الجوت خليطاً من الرعاع والعبيد المرتزقين الذين ليس لهم في الحرب فائدة ولا غناء، وكان قائد المسلمين كالمسلمين أو هو أشد منهم، يفيض حماسة وقوة إيمان وتلتهب كلماته في خطابته فتذكيهم حمية وتضيء لهم الطريق، حين كان رودريك في أبهة الملك على وسادة حريرية في محفة تجرها بغال بيض.

وكان اليهود مستضعفين يسومهم رودريك وجنوده سوء العذاب، وقد تنفسوا الصعداء لما رأوا جيش المسلمين فأمدوهم بالعونين الأدبي والمادي، وظاهروا المسلمين على الإسبان وكان أبناء الملك (وتيزا) قوادا في جيش رودريك وكانوا تواطئوا مع جوليان أن ينهزموا بجنودهم إبان المعركة ففعلوا؛ وكان المسلمون في موقف لا خيرة فيه، ولا احتمال : فالبحر من ورائهم والعدو أمامهم، والله تعالى وعدهم إحدى الحسنيين أنها لهم، هذا كله عجل للعرب بالنصر المبين.

ويروى أن طارقا لما بلغه قرب جيش رودريك منه قام في أصحابه فحمدالله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم حث المسلمين على الجهاد ورغبهم فيه، فكان مما قال: أيها الناس، أين المفرّ ؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم وليس لكم، والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه؛

وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً — ذهب ريحكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة عن أمركم بمناجزة هذا الطاغية؛ فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة. وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت. وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم بأوفر من حظي. وقد بلغكم ما حوت هذه الجزيرة من الخيرات العميمة. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك، أمير المؤمنين، من الأبطال عرباناً، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً؛ ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان — ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين. والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين. واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه. وإني — عند ملتقى الجمعين — حامل بنفسي على طاغية القوم « لذريق » فقاتله إن شاءالله تعالى. فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يعوزكم بطل عامل تسندون أموركم إليه. وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا من فتح هذه الجزيرة بقتله.

وبعد أن تم النصر وجد طارق من سهولة الفتح ما أغراه بالإمعان في أن يثخن في الأرض، فوالى حركاته الحربية، وتوالت انتصاراته حتى لم يلبث أن أرسل سبعمائة من رجاله فتحوا كوردبا (قرطبة)، ورأى طارق أن يعجلهم ويسرع إلى طليطلة قبل أن يولوا عليهم ملكا يجمع كلمتهم ويلم شعثهم، فتقدم قاصداً طليطلة، بعد أن فرق جيشه فرقا. فأرسل فرقة الى قرطبة. وأخرى إلى مالقة. وثالثة إلى غرناطة. فاستولت كل فرقة على البلد الذي قصدته. وسار هو إلى طليطلة، عاصمة البلاد،

فوجدها مغلقة الأبواب، حصينة الأسوار، فحاصرها زمنا، حتى اضطر أهلها إلى الصلح، فصالحهم على أن لهم الحرية في الخروج إن شاءوا. وهم أحرار في دينهم إن بقوا. وترك لهم كنائسهم.

وبلغت هذه الأنباء والانتصارات الباهرة موسى بن نصير، فكتب يخبر الخليفة الوليد بما أفاء الله على جيش المسلمين، وبادر فشخص في حملة عسكرية وجند كثيف يتمم الفتح ويساعد طارقا على التمهيد للاسلام وللعرب في هذه البلاد، وذلك بعد أن استخلف على القيروان ابنه عبد العزيز عام ٩٣ هـ. ولما بلغ موسى بن نصير ميدان القتال وجد طارقاً قد كاد يبلغ الشمال فاستدعاه اليه والتقيا عند مدينة (تلافيرا) فساط موسى طارقاً على وجهه، واستكان المولى إلى مولاه فلم يبد امتعاضا، وحمل إليه طارق الغنائم فلذلك نسب الفتح إلى موسى لأن طارقا من قبله، ولأنه أتم فتح ما بقي، ويقول بعض المؤرخين إنه إنما ضرب طارقا بالسوط لأنه حسده أن يستأثر بهذا المجد العظيم دون سيده، وان ابن نصير كان يحب أن يكون هو الفاتح وليس طارقا، والحقيقة أن موسى كان يخاف على المسلمين، وكانت سياسته أن يتم فتح البلاد على التدريج، فقد روي أن ابن نصير قال لمولاه طارق عند اللقاء : كيف غررت بنفسك وبالمسلمين ولم تخف ألا أستطيع أن أمدك بمال ولا رجال ؟!

وروي أن موسى بن نصير لم يخلع طارقا عن القيادة، ولم يستبد هو بهذه القيادة، بل اقتسما البلاد بجيشهما فجعلا يشرقان ويغربان ويصعدان وينحدران ويتلاقيان ويفترقان أربع سنين عددا، حتى ملكوا وسط البلاد وشرقها وبلاد جيليقيا (البرتغال) في غربها، ولم يتركا في الشمال إلا نفرا يسيرا من المسيحيين استهانا بهم، وإن كانوا فيما بعد من أسباب البلاء على المسلمين والإسلام في الأندلس.

وأقام موسى بالأندلس مجاهدا، وجامعا للأموال والغنائم، ومرتبا للأمور، إلى عام ٩٥ هـ. وقبض على طارق، ثم استخلف ابنه عبد العزيز، وذهب

إلى القيروان فدمشق ومعه طارق، ومات الوليد عام ٩٦ هـ. وموسى بطبرية، ويقال إن موسى وصل وأدرك الوليد حيا، وكان موسى من صنائع الوليد، وكان سليمان بن عبد الملك يحقد عليه، ولذلك لم يلبث أن تولى سليمان الخلافة، فاتهم موسى بالخيانة والغلول في الغنائم، واستخصم طارقا لديه بأن موسى نفسه عليه جهاده وبلاءه، ويروى أن سليمان قال لموسى : من فتح الأندلس ؟ فقال : أنا يا أمير المؤمنين، فقال طارق : سله يا أمير المؤمنين عن الرجل المفقودة من مائدة سليمان أين هي؟ فلم يعلم موسى عنها شيئا، فقال طارق : هي عندي يا أمير المؤمنين وأحضرها فأقروا له أنه فاتح الأندلس لا مولاه[1] ونفى سليمان موسى إلى المدينة فمات بها سنة ٩٨ هـ.

الشعب العربي في الأندلس

دخل العرب الأندلس فاتحين، وتبع الجيش الإسلامي الفاتح القبائل العربية من كل مكان، فنزل بها من قبائل العرب وساداتهم جماعة ورثوها أحفادهم : نزل بها من العدنانية خندف وقريش، ومن قريش جماعة من بني هاشم من ولد إدريس بن عبدالله مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب، ومنهم بنو حمود ملوك الأندلس بعد الدولة الأموية في الأندلس؛ ونزلها كذلك بنو أمية، ومنهم خلفاء الأندلس، ومن بني مخزوم الشاعر أبو بكر المخزومي الأعمى، والوزير أبو بكر بن زيدون، ومن عقيل القيسيين جماعة من خفاجة وغيرهم. ومن خفاجة ابن خفاجة الأندلسي شاعر الطبيعة. ونزل بها من كنانة كثيرون أقاموا في طليطلة، والعدنانيون بقبائلهم وأفخاذهم كانوا ممثلين في الأندلس تمثيلا كاملا. أما اليمانية فكانوا أكثر انتشاراً من المضرية، ومنهم محمد بن هانىء الأزدي، ومنهم بنو مازن

(١) تاريخ الأندلس ــ لعبد الفتاح بدوي ط ١٩٤٠.

وينتسبون إلى غسان الأزديين، ومنهم من الأنصار جمع غفير نزلوا الأندلس وأقاموا فيها، ومن الخزرج بالأندلس أبو بكر عبادة بن عبد الله بن ماء السماء من ولد سعد بن عبادة صاحب الرسول، وقد توفي عام ٣٣ هـ. وشهر بالموشحات، وإلى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر ملوك غرناطة، وكان من وزرائهم لسان الدين بن الخطيب، وفي آخر أيامهم انقرض ملك العرب بالأندلس.

اتصل العرب بسكان البلاد الأصليين من قوط وغيرهم، وأسلم كثير من المسيحيين واليهود، واندمج بعضهم في بعض بالمصاهرة وغيرها، وكونوا شعباً واحداً وتشاركوا في إدارة البلاد، واقتبس الإسبانيون كثيراً من عادات العرب وأخلاقهم، واخذ العرب كذلك بعض مظاهر حياتهم، وجاروهم في كثير من أحوالهم الاجتماعية، وورثت الناشئة الجديدة صفات العرب من غيرة وكرامة. وصفات الأوربيين من دقة الإدراك وسعة الخيال وقوة الفكر.

وهكذا دخل الأندلس العرب فصادفوا البلاد، وقد انطبعت فيها مزايا هذه الأمم. فما لبثوا أن أحدثوا أثرهم، وأنت أعلم الناس بطباع العربي في باديته، وما أفاده بالإسلام من خلق فاضل، ودين قويم يدعو إلى الفضيلة، ويأمر بالإنصاف في المخالطة، ويحض على العلم، ويبعث الهمم للسعي في الرزق والضرب في الأرض، واستثارة ما فيها من خير.

يروي لسان الدين ابن الخطيب عن ابن غالب مؤلف كتاب « فرحة الأنفس » في وصف الشعب العربي الأندلسي :

« أهل الأندلس عرب » في الأنسان والعزة. وعلو الهمة، وفصاحة الألسن، وطيب النفوس، وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل، والسماحة بما في أيديهم، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية، « هنديون » في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم إياها، وضبطهم لها وروايتهم، « بغداديون » في نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهة ذكائهم، وحسن نظرهم، وجودة قرائحهم

ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرهم، « يونانيون » في استنباطهم للمياه، ومعاناتهم لضروب الفراسات، واختيارهم لأجناس الفواكه، وتدبيرهم لتركيب الشجر، وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر. فهم أحكم الناس لأسباب الفلاحة، وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال ومقاساة النصب في تحسين الصناعات، وأحذق الناس بالفروسية، وأبصرهم بالطعن والضرب.

وقد ظل هذا شأن الأندلس مدة استيطانهم لهذه البلاد، وهي زهاء ثمانية قرون، فلما نفذ قضاء الله تعالى عليهم بخروج أكثرهم — وهم المسلمون — وحرمانهم من هذا الوطن الذي كان أعز عليهم من نفوسهم، تفرقوا في بلاد المغرب الأقصى ببر العدوة، فأما أهل البادية فقد نزلوا البوادي وخالطوا أهلها وأفادوهم ما كانوا درجوا عليه في موطنهم الأول، فاستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار، وأحدثوا الأرحى[1] الطاحنة بالماء، فصلحت بذلك حال مضيفيهم، وكثرت غلاتهم، وعمت الخيرات فيهم.

وأما أهل الحواضر، فمالوا إليها في وطنهم الجديد، فأهل الأدب كان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجباة الأموال، حتى كان لا يستخدم بلدي ما وجد أندلسي، وقد فاق أهل الصناعات أهل البلاد، وتولوا إدارة الأعمال.

الحكم العربي في الأندلس

١ — حكم الأندلس الولاة العرب للدولة الأموية بدمشق، وعددهم عشرون، وقد حكموا البلاد ستة وأربعين عاماً (٩٢ — ١٨٣ هـ)[2].

ولم تكن الأندلس في عهد الولاة ذات صبغة خاصة مستقلة، بل

---

(١) جمع رحى كما ذكره القاموس.

(٢) هم : طارق بن زياد (٩٢هـ)، وموسى بن نصير (٩٣—٩٥هـ)، وعبد العزيز بن موسى=

كانت تابعة لسياسة الدولة، وكان ولاتها يتلقون التعليمات من الحاكم العربي الأكبر في القيروان. ويأخذون الولاية من هذا الحاكم، ومن الخليفة نفسه، وفي هذا العهد كثرت الفتوحات :

فقد حمل عبد الرحمن الغافقي لواء الجهاد في سبيل الإسلام فاتحاً مظفراً في جنوب فرنسا حتى استولى على مدينة (بوردو) وكان بينه وبين باريس نفسها أربعون كيلومترا. وكان المسلمون رضي الله عنهم يأملون — لما لم يهيأهم فتح القسطنطينية من الشرق — أن يفتحوا بلاد أوربـا إلى أن يصلو إليها من الغرب، ويصبح الأوربـيون بالإسلام إخوانا.

ولما اجتاز عبد الرحمن « بواتييه » في طريقه إلى باريس لقيه جيش من الفرنسيين عام ١١٤ هـ، ويقود هذا الجيش أمير اسمه « شارل » وكان كبير وزراء فرنسا، التقى الجمعان فصبروا وصابروا سبعة أيام كاد

= ابن نصير (٩٥ — ٩٨ هـ) وقد مات مقتولاً، وأبو أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير (٩٨—١٠٠هـ)، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي (١٠٠—١٠٣هـ) والسمح بن مالك من قبل عمر بن عبد العزيز (١٠٣—١٠٤هـ)، وقد بنى قنطرة قرطبة وأوغل في فتح شمال اسبانيا مما يتاخم جنوب فرنسا حتى استشهد بالقرب من مدينة « ليون »، ونجا قائد جيشه عبد الرحمن الغافعي، ثم عنبسة بن سحيم الكلبي (١٠٤—١٠٨هـ)، ثم عزرة بن عبدالله الفهري (١٠٨هـ)، ثم يحيى بن سلمة (١٠٨—١٠٩هـ)، ثم عثمان بن أبي نسعة (١٠٩—١١٠هـ)، ثم حذيفة بن الأحوص (١١٠—١١١هـ)، ثم الهيثم بن عدي (١١١—١١٢هـ)، ثم عبد الرحمن الغافقي (١١٢—١١٤هـ) وهو بطل معركة تورعام ١١٤هـ على أرض فرنسا، وقد قتل فيها وهزم جيشه، ثم عبد الملك بن قطن الفهري (١١٤ — ١١٦هـ) وقد عزل، ثم عقبة الحجاج السلولي (١١٦—١٢١هـ)، ثم تلا ذلك عهد الثورات : ثورة ابن قطن في الأندلس وثورة كلثوم بن عياض القشيري في المغرب، ثم ثار الجنود البرابرة في الأندلس على ابن قطن وعرب الأندلس، ثم ثورة جنود الشام على ابن قطن حيث قتل، وتولى حسام بن ضرار الكلبي (١٢٥— ١٢٨هـ)، ثم ثوابة بن سلامة الجذامي (١٢٩—١٣٢هـ) ثم يوسف بن عبد الرحمن الفهري (١٣٢— ١٣٨هـ). ودخل عبد الرحمن الداخل بلاد الأندلس، واستولى على مقاليد الأمور فيها، حيث انتزعها بالقوة من يوسف الفهري.

المسلمون يجنون من ورائها النصر، لولا ما كانوا قد حملوا معهم من أسباب الفشل والخذلان، فقد كان المسلمون اصطحبوا معهم الأسلاب والسبايا والأموال التي غنموها في المعارك التي كانت قبل هذه المعركة، فكثرت بها أثقالهم وثقلت بها مئونتهم، واحتاجوا لرعايتها إلى عنت غير يسير. وبدا للفرنسيين وقد آذنت الشمس بالمغيب أن يهجم فريق منهم، يستنقذون هذه الأسلاب يشاغلون المسلمين بذلك، فنجحت الخطة وانقسم الجيش الإسلامي : فريق إلى الظعائن يحميها وفريق يحارب المقاتلين. وعاجل القتل الأمير عبد الرحمن الغافقي ففت قتله في الأعضاد ومزق وحدة الجيش فتوزعته الأهواء، فلما جن الليل وتحاجز الفريقان تحمل المسلمون في جنح الظلام وعجلوا حتى عن جنودهم الجرحى فلم يحملوهم معهم، فأصبح شارل مارتل وقد تبدل خوفه أمنا وغير في رأيه النهار ما كان الليل قد أنذره به من موقعة حامية الوطيس يخشى مغبتها، ووجد الميدان بلقعا إلا من أنين الجرحى فأجهز عليهم، ولكنه لم يجرؤ أن يتبع جيش المسلمين.

عرفت هذه الموقعة بواقعة بلاط الشهداء، أولئك الذين سقوا أرض فرنسا بدمائهم الذكية لتهتز فتربو بالإيمان وبالإسلام، ولكن كان غير ما كانوا يريدون، ويعتبرها التاريخ من مواقفه الحاسمة، فقد حيل بها بين المسلمين وبين ما كانوا يشتهون، وانتصبت حدا فاصلا بين المسيحية وبين تقدم الإسلام[1].

٢ ــ ثم دخل الأندلس اموي طموح هو عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام الأموي واستولى على مقاليد الحكم فيها بالسياسة والدهاء، وكان عبد الرحمن أحد الذين تمكنوا من النجاة من ايدي العباسيين وطلبهم.

ولد عبد الرحمن عام ١١٣ هـ في دمشق، وجده هشام خليفة للمسلمين (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ)، وتوفي والده في حياة أبيه، وكان الناس يتنبأون

---

(١) ١٢ تاريخ العرب في الأندلس ــ عبد الفتاح بدوي.

لعبد الرحمن بمستقبل كبير حتى قال مسلمة بن عبد الملك فيه : « سيكون هذا الفتى بالمغرب الأمر العظيم »، وانتهت الدولة الأموية وخلفتها الدولة العباسية. وكان السفاح أول خلفائها أشد الناس قسوة على الأمويين وقتلا لزعمائهم وسفكا لدمائهم، دهم بيت عبد الرحمن، وقتل يحيى أخوه، وتمكن عبد الرحمن من الفرار، ويحدثنا هو عن فراره فيقول :[1]

إنني لجالس يوما في تلك القرية في ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بي وابني سليمان بكر ولدي يلعب قدامي إذ دخل الصبي فزعاً باكياً، فأهوى إلى حجري، فجعلت أدفعه لما كان بي، ويأبى إلا التعلق وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجت لأنظر فاذا الروع قد نزل بالقرية ونظرت فاذا الرايات السود عليها منحطة وأخ لي حدث السن كان معي يشتد هاربا ويقول : النجاة يا أخي فهذه رايات المسودة، فضربت بيدي إلى دنانير تناولتها ونجوت بنفسي والصبي معي، وأعلمت أخواتي متوجهي وأمرتهم أن يلحقنني ومولاي بدر معهن وخرجت، فكمنت في موضع ناء عن القرية، فما كان إلا ساعة حتى اقبلت الخيل فأحاطت بالدار فلم تجد أثراً ومضيت ولحقني بدر فأتيت رجلا من معارفي بشط الفرات، وأمرته أن يبتاع لي دواب وما يصلح لسفري فدل على عبد سوء له فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا تنادينا من الشط : ارجعا لا بأس عليكما، فسبحت حاثاً لنفسي وسبح الغلام أخي فلما قطعنا نصف الفرات قصر أخي فالتفت لأُقوِّي من قلبه وإذا هو قد أصغى إليهم وهم يخدعونه عن نفسه وناديته : تقتل يا أخي، إلي إلي، وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشي الغرق فاستعجل الانقلاب نحوهم وقطعت أنا الفرات ثم قدموا الصبي أخي الذي صار اليهم بالأمان فضربوا عنقه، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه فاحتملت فيه ثكلا ملأني مخافة ومضيت إلى وجهي أحسب أني طائر فلجأت إلى غيضة فتواريت فيها حتى انقطع عني الطلب، ثم خرجت هارباً حتى وصلت إلى افريقيا.

(١) راجع ٢٢ تاريخ الأندلس ــ عبد الفتاح البدوي، وكتاب « صقر قريش » لعلي أدهم.

وظل عبد الرحمن يتقلب في البلاد بالمغرب خمس سنين، وأراد الذهاب إلى الأندلس : لأن فيها أملاك جده هشام وقد وهبها لحفيده عبد الرحمن، ولطموحه في إمارتها، وفي ربيع الآخر ١٣٨ هـ — ٧٥٥ م دخل عبد الرحمن البلاد ونودي به أميرا على الأندلس بتدبير اليمانية وجنود الشام في الأندلس في ألبيره، وسار عبد الرحمن إلى أشبيلية وانتصر فيها في يوم عيد الاضحى (١٣٨ هـ — ٧٥٦ م)على جيوش أمير الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري وبعد مناوشات كثيرة عقد صلح بين يوسف وعبد الرحمن، تنازل فيه يوسف عن الإمارة لعبد الرحمن، على أن يأمن يوسف على نفسه وأتباعه، ودخل عبد الرحمن بعد ذلك عاصمة قرطبة ظافرا منصورا في صفر ١٣٩ هـ يوليو ٧٥٦ م، ثم نكث يوسف فقتل، وقتل الصميل، وانتصر على العلاء بن مغيث الذي دخل الاندلس واليا من قبل الخليفة المنصور عام ١٤٦ هـ، كما انتصر على أتباع يوسف الفهري في طليطلة، وعلى اليمنيين، وعلى ابن أبي الصباح حاكم اشبيلية لعبد الرحمن، وعلى البربر الثائرين، وعلى كثير من الثورات الداخلية، وعلى جيوش شارلمان الذي تحرك للقضاء على ملك الداخل تنفيذا لأغراض هارون الرشيد في بغداد. وأسس عبد الرحمن لنفسه ولأحفاده دولة عظيمة واسعة الأرجاء امتد حكمها نحو ثلاثة قرون (١٣٨ — ٤٢٨ هـ)...

هذا هو صقر قريش الذي انقض على الأندلس فاختطفها واستأثر بها لنفسه وبنيه من بعده حتى حين، قال أبو جعفر المنصور يوما لجلسائه : تعلمون من صقر قريش ؟ قالوا: أمير المؤمنين أيده الله، قال: ليس ذاك، قالوا: فعبد الملك بن مروان، قال: لا، قالوا: ما هو، وضربوا في عرض الحديث فقال أبو جعفر : فتى قريش الأحوذي الفذ الذي قذف بنفسه في لجج المهالك لابتناء مجده؛ فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع، عصبية الجند، ضرب بين جنودها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته، حتى انقاد له عصيهم، وذل أبيهم، وإن ذلك لهو الفتى كل الفتى، لا يكذب مادحه، وقد سكن قرطبة وبنى بها القصر والمسجد الجامع،

ولقب نفسه بالداخل لأنه أول من دخل الأندلس من بني مروان، ولقب هو وذريته بالأمراء أبناء الخلفاء، حتى جاء عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ.) فلقب نفسه « أمير المؤمنين » .. وما أصدق أبا جعفر المنصور إذ نوه بعصامية الداخل وعبقريته، ويروى عن المنصور في رواية أخرى :

« لا تعجبوا لامتداد أمرنا، مع طول مراسه وقوة أسبابه، فالشأن في أمر فتى قريش الأحوذي الفذ في جميع شؤونه، وعدمه لأهله ونشبه، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته، ومضاء عزيمته، حتى قذف بنفسه في لج المهالك لابتناء مجده، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل، نائية المطمع، عصبية الجند ضرب بين جندها بخصوصيته، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته. واستمال قلوب رعيتها بقضية سياسته، حتى انقاد له عصيُّهم، وذل أبيُّهم، فاستولى فيها على أريكته، ملكا على قطيعته، قاهرا لأعدائه، حاميا لذماره، مانعا لحوزته، خالطا الرغبة إليه بالرهبة منه، إن ذلك لهو الفتى كل الفتى، لا يكذب مادحه.

وقد ظل الأمر لبني أمية إلى سنة ٤٢٨ هـ، وتولى الحكم منهم ستة عشر اميرا[١]، وكان المستعين بالله الأموي قد استعان بالقاسم وعلي ابي

(١) هم : عبد الرحمن الداخل (١٣٨—١٧٢هـ)، هشام الأول ابن الداخل عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام (١٧٢—١٨٠هـ)، والحكم الأول ابن هشام (١٨٠—٢٠٦هـ) وعبد الرحمن الثاني ابن الحكم (٢٠٦—٢٣٨هـ) وفي عهده قدم زرياب المغني إلى الأندلس فأكرم وفادته، ومحمد الأول ابن عبد الرحمن (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ)، ولعباس بن فرناس شعر فيه (جـ ٣ العقد الفريد)، والمنذر بن محمد (٢٧٣—٢٧٥هـ) وعبدالله ابن محمد (٢٧٥—٣٠٠هـ)، وعبد الرحمن الثالث ابن محمد (٣٠٠—٣٥٠هـ) والحكم الثاني (٣٥٠—٣٦٦هـ) وهشام الثاني المؤيد (٣٦٦—٣٩٩هـ) وقد استبد بالأمر في دولته حاجبه المنصور بن أبي عامر المتوفي عام ٣٩٣ هـ ومحمد المهدي (٣٩٩—٤٠٠هـ)، وسليمان المستعين (٤٠٠—٤٠٧هـ)، وعبد الرحمن الرابع (٤٠٧—٤١٢هـ)، وعبد الرحمن الخامس (٤١٢—٤١٦هـ) وهشام الثالث المعتمد (٤١٦—٤٢٨هـ).

حمود وهما من أعقاب الأدارسة الذين حكموا المغرب من عام ۱۷۲ حتى عام ۳۱۳ هـ وذلك بعد انقراض دولة الأدارسة بفاس، وجعلهما قائدين على البربر والعبيد في بعض حروبه، ثم عقد للقاسم على الجزيرة الخضراء، ولعلي على طنجة. فطمع علي في الخلافة، وادعى أن هشام الثاني كتب له بالعهد، ودخل قرطبة ولقب نفسه بالناصر، وبقي حكم الأندلس بين بني حمود وبني أمية ست سنين (٤٢٢ — ٤٢٨ هـ)، وهو عام انتهاء الحكم الأموي في الأندلس وملك بني حمود لها واستمر حكمهم لها حتى عام ٤٥٠ هـ.

وقد بلغت الدولة في عهد الأمويين ذروة المجد، وخطب ودها ملوك الغرب، وأصبحت قرطبة قبلة الملوك، وكعبة العلماء، وملاذ الحضارة والثقافة، ولقب الناصر نفسه بالخليفة، ولما ضعفت الدولة في آخر عهدها كان الحجاب هم كل شيء في الدولة، فالمنصور بن ابي عامر حاجب هشام الثاني كان بيده كل الأمور، فلما مات عام ٣٩٤ هـ خلفه ابنه أبو مروان عبد الملك بن أبي عامر على الوزارة والحجابة لهشام ولقب نفسه بالمظفر، وكان أحرص الناس على جمع علوم الأدب واللغة والتاريخ، وانتخب مما جمع له كتاباً كبيراً سماه « المظفري »، واستمر أبناؤه يحكمون بطليوس إلى عام ٤٨٥ هـ، وكانت أيامهم مواسم للأدب، وملاذاً للعلم والعلماء، وفيهم نظم الوزير ابن عبدون المتوفى عام ٥٢٠ هـ قصيدته الرائية المشهورة.

وأشهر ملوك الأندلس هو الناصر، الذي شجع العلوم والآداب والثقافة تشجيعاً كبيراً.

« ولما استفحل ملك الناصر[1]، صرف نظره إلى تشييد المباني والقصور وكان جده الأمير محمد، وأبوه عبد الرحمن الأوسط، وجده

(۱) عن ابن خلدون.

الحكم، قد اختلفوا في ذلك وبنوا قصورهم على أكبر الأنفاق والضخامة، وكان منها المجلس الزاهر والبهو الكامل والقصر المنيف، فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم وسماه دار الروضة، وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل، واستدعى عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية، ثم أخذ في بناء المتنزهات، فاتخذ مينا الناعورة خارج القصور، وساق لها الماء من أعلى الجبل ـــ على بعد المسافة.

ثم اختط مدينة الزهراء، واتخذها منزله، وكرسيا لملكه، فأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما علا على مبانيهم الأولى، واتخذ فيها مجالات للوحش فسيحة الفناء، متباعدة السياح، ومسارح للطيور مظللة بالشباك، واتخذ فيها داراً لصناعة آلات السلاح للحرب والحلى للزينة، وغير ذلك من المهن.

وأمر أن تعمل الظلة على صحن الجامع بقرطبة، وقاية للناس من حر الشمس[1].

وقد عني الناصر عناية خاصة بإنشاء نافورات من المرمر الجميل في جوامع قرطبة واشبيلية، يكتنفها بوح يغرس فيها شجر البرتقال والآس وغيرهما.

وأصلح قنطرة النهر الكبير، وضرب نقوداً جديدة وضع عليها اسمه وألقابه[2].

ومما استدل به بعض المؤرخين على رقي عصره، ما حكوه من أنه أراد الفصد ذات يوم، فقعد بالبهو في المجلس الكبير، المشرف على مدينته

---

(١) عن ابن خلدون.

(٢) وكان ذلك في السنة التي تلقب فيها بالخلافة أي في سنة (٣١٦هـ). فأمر بإقامة دار السكة داخل قرطبة، لضرب الدنانير والدراهم، وكانت مثاقيله ودراهمه محضاً من خالص الذهب والفضة.

بالزهراء، واستدعى الطبيب لذلك، وأخذ الطبيب الآلة، وحبس يد الناصر، وإنه لكذلك، وإذا بزرزور قد أطل، فصعد على إناء ذهب بالمجلس، وأنشد :

أيها الفاصـــــد رفقـــا بـــأمير المؤمنينـــا
إنما تفصـــد عرقـــا فيـــه محيـــا العالمينـــا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة، فاستطرفه الناصر وسربه، وسأل عمن اهتدى إلى ذلك وعلم الزرزور، فذكر له أن السيدة الكبرى مرجانة أم ولده ولي عهده الحكم المستنصر بالله صنعت ذلك وأعدته لهذا الأمر. قالوا : « فوهب لها ما ينيف على ٣٠ ألف دينار! ».

وقد أصاب المؤرخون في تسميتهم هذا العصر الأندلسي بالعصر الذهبي فقد نفقت فيه سوق العلم والأدب وارتقت فيه الفنون، فكنت ترى أنّى ذهبت مجالس أدب ومجالس علم ومجالس غناء، وكان بلاط الناصر مزدحماً بالعلماء ورجال الأدب والفن.

ولما عظم أمر الناصر، وارتفع شأنه، رغب في محالفته حتى أشد الملوك صلفا — كما يقول دوزي — وكان من بين هؤلاء الملوك قسطنطين ملك الروم الذي بعث إليه بهديته المشهورة وأرسل معها كتاباً يرغب فيه تجديد المحالفة القديمة التي كانت بين أسلافهما عوضا مما كان منها مع خلفاء بغداد. قالوا : « وكتب هذا الكتاب بحروف من ذهب في رق سماوي اللون، وفيه طرس سماوي أيضاً كتب بحروف من الفضة يصف الهدية وأصنافها بالخط الاغريقي.

وكان الناصر يرسل إلى القسطنطينية والعراق والحجاز والشام ومصر وإفريقية من يشتري له الكتب ويحصل له من ذخائرها وأصولها المهمة[1]

(١) نفح الطيب ١٧٠ : ١.

وأربى خلفه المستنصر على الغاية، فجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد قبله من الملوك، حتى بلغ عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعة وأربعين في كل واحدة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين، وبعث في كتاب (الأغاني) بألف دينار ذهباً، ويتجلى حبه للعلم والعلماء في استقباله العظيم لأبي علي القالي، واحتفائه به، وقد اجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وقد حققوا أنها بلغت سبعين مكتبة كانت تحفل بأربعمائة ألف مجلد[1]، وكان هو نفسه واسع الاطلاع، قلما يوجد كتاب في خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر، في أي فن.

٣ ــ ثم حكم الأندلس ملوك الطوائف نحو ست وخمسين سنة، حين انقرض ملك الأمويين، وانفرط عقد الدولة، وانتثر سلك الخلافة، وقام في كل جهة أمير؛ وكان من أشهر الأمراء: بنو جهور بقرطبة (٤٢٥ ــ ٤٦١ هـ)[2] وبنو عباد باشبيلية (٤١٤ ــ ٤٨٤)[3] وبنو حماد

---

(١) المرجع ١٨٤ : ١.

(٢) منهم أبو الحزم بن جهور المتوفي عام ٤٣٥هـ وتولى ابن زيدون له الوزارة ولما غضب عليه استعطفه بالرسالة الجدية، وينتهي نسبهم إلى أبي عبدة الكلبي جدهم الذي قدم الأندلس، وكانوا ذوي شرف في قرطبة. وتولوا الوزارة أيام المستنصر وبني عامر، ولما خلت قرطبة من الأمويين وبني حمود اجتمع الناس على جهور بن محمد ابن جهور سنة ٤٢٢ هـ، إذ كان حازماً عاقلاً، لم يخض غمار الفتن التي تداولت قرطبة، بل ترك الأمور للعصبية تشبع نهمها وتشفي غلتها. وقد علم أن هذه الفتن الهوج لا يبنى عليها ملك، ولا يستقر سلطان، فترك الفتن حتى فني فيها ذووها « فلما خلا له الجو، وصفر الفناء، وأقفر النادي من الرؤساء، وأمكنته الفرصة وثب عليها »، ولم يتحول عن داره إلى قصر الخلافة « وكان على سنن أهل الفضل، يعود المرضى ويشهد الجنائز، ولا يحتجب عن الناس، وقد نشر الأمن والطمأنينة، وضبط الأمور بحكمة وسداد، ورفع لواء الحضارة، حتى عادت به قرطبة إلى أكمل حالاتها من الحضارة والرخاء والأمن، إذ منع عنها من كان يطلبها من البرابرة، بخفض الجناح، والرفق في المعاملة حتى حصل على سلمهم واستدرار مرافق بلادهم.

وقد تضاعف ثراؤه حتى صار لا تقع العين على أغنى منه. إلا أنه حاط ذلك بالبخل الشديد، والمنع الخالص؛ اللذين لولاهما ما وجد عائبه فيه طعناً، وكان مع=

= هذا من أشد الناس تواضعاً، وأشبههم ظاهراً بباطن؛ وكان أديباً يتذوق الأدب، وشاعراً يشدو بالشعر، من ذلك قوله في تفضيل الورد :

الورد أحسن ما رأت عين وأذ	كى ما سقى ماء السحاب الجائد
خضعت نواوير الرياض لحسنه	فتذللت تنقاد وهي شوارد
وإذا تبدى الورد في أغصانه	يزهو فذا ميت وهذا حاسد
وإذا أتى وفد الربيع مبشراً	بطلوع صفحته فنعم الوافد
وإذا تعرى الورد من أوراقه	بقيت عوارفه فهن خوالد

ولم تزل قرطبة به مشرقة، وغصون الأمل فيها مورقة، حتى مات سنة ٤٣٥هـ فتولى بعده ابنه أبو الوليد فأقر الأمور على ما كانت عليه أيام والده، حتى جاء بعده ابنه عبد الملك، فغلبه ابن ذي النون على قرطبة، ثم استولى عليها المعتمد ابن عباد سنة ٤٦١ هـ.

(٣) تولى أبو القاسم بن عباد القضاء على إشبيلية، والفتن عاصفة، والثورات جامحة؛ ثارت قرطبة على القاسم بن حمود حتى خرج عنها، وقصد إشبيلية، ولكنها حذت حذو قرطبة بزعامة هذا القاضي، ونجحت في صد اللاجىء. واجتمع أهل إشبيلية على القاضي ابن عباد؛ فقام الأمر حتى مات سنة ٤٣٣هـ، فخلفه ابنه المعتضد وكان شديداً حازماً قاسياً داهية، أوتي من جمال الصورة، وتمام الخلقة. وفخامة الهيئة، وسباطة البنان. وحضور الخاطر، وصدق الحسن ما فاق به نظراءه، وكان إلى هذا شاعراً يحسن الصنعة، ويعرف للشعراء قدرهم. وتولى بعده ابنه المعتمد سنة ٤٦١هـ « وكان يشبه بهارون الواثق بالله من ملوك بني العباس : ذكاء نفس، وغزارة أدب. وكان شعره كأنه الحلل المنشرة، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من الملوك. » وكان أندى ملوك الأندلس راحة. وأرحبهم ساحة، وكانت حضرته ملتقى الرجال، وموسم الشعراء وأفاضل الأدباء » وكانت قرطبة أشهى عمله، وكان روم أمرها منتهى أمله، فما زال يعمل الحيلة حتى استولى عليها، فأعطى زمامها لابنه الظافر حتى قتل بها سنة ٤٦٦هـ في حالة مؤثرة وصفها صاحب القلائد، ثم ابنه المأمون حتى قتل كذلك أيضاً، وكانت دولة بني عباد من أبهج الدول كرماً وفضلاً وأدباً، حتى قال أبو بكر الداني : إنها أشبه شيء بالدولة العباسية ببغداد : سعة مكارم وجمع فضائل، ولذلك ألف فيها كتاباً مستقلاً أسماه « الاعتماد في أخبار بني عباد ». أما نهاية المعتمد فقد كانت من أفجع النهايات، وحسبك أن تقرأ شعره الذي يصور فيه نكبته « كان المعتمد أكبر ملوك الطوائف، وأكثرهم بلاداً، وكان=

في مالقة (٤٠٧ ــ ٤٤٩ هـ) وبنو الأفطس ببطليوس، ومنهم المظفر صاحب التاريخ المظفري واستمر حكم أبنائه فيها إلى عام ٤٨٥ هـ، وبنو هود بسرقسطة (٤١٢ ــ ٥٢٦ هـ)، وبنو ذي النون بطليطلة (٤٢٧ ــ ٤٧٨ هـ)، وبنو زيري بن مياد بغرناطة (٤١٢ ــ ٤٨٣ هـ)، وبنو صمادح في المرية الذي انتهى عام ٤٨٤ هـ، والعامريون بشاطبة، وهكذا انقسمت البلاد فرقا ودولا، وأصبح كل أمير في جهة من الجهات ملكا.

= يؤدي الضريبة للأذفونش، فلما ملك هذا طليطلة لم يعد يقبل ضريبة المعتمد طمعاً في أخذ بلاده، فأرسل اليه يتهدده. فضرب المعتمد الرسول وقتل من معه، فأستعد الأذفونش لقتاله، فاستعان المعتمد بالأمير يوسف بن تاشفين، فتم له النصر، وهرب الأذفونش، وفي العام التالي غدر يوسف هذا بالمعتمد بتأثير الدس والوشاية، فأغار على بلاد المعتمد، وانتزعها من أبنائه، ثم حاصر المعتمد باشبيلية وقبض عليه واعتقله بمدينة « اغمات »، وأودعه ذل قيدها وظلام سجنها، وشرد أبناؤه، وذلت بناته، وتحطم ملكه الشامخ، وانطوى بساط عزه ومجده، ودخلت عليه بناته في سجنه يوم عيد، وكن يغزلن للناس بالأجرة في « أغمات » حتى إن إحداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة الذي كان في خدمة أبيها وهو في سلطانه، فرآهن المعتمد في أطمار بالية وحالة رثة، فصدعن قلبه فقال :

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً	فجاءك العيد في أغمات مأسورا
ترى بناتك في الأطمار جائعة	يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة	أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية	كأنما لم تطأ مسكا وكافورا
من بات بعدك في ملك يسر به	فإنما بات بالأحلام مغرورا

وما زال يرسل من زفراته، ويسكب من دموعه، حتى مات بالسجن سنة ٤٨٨هـ، فلما مات زار قبره جماعة من الشعراء منهم ابن اللبانة الذي وقف في يوم عيد والناس عند قبور أهليهم، فأنشد بصوت عال :

ملك الملوك أسامع فأنادي	أم قد عدتك عن السماع عواد
لما نقلت عن القصور ولم تكن	فيها كما قد كنت في الأعياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعاً	وجعلت قبرك موضع الإنشاد

وعلى الرغم من الضعف السياسي الذي كانت عليه الأندلس في عهد ملوك الطوائف حيث احتدمت الخصومات والحروب بين الحاكمين، واستعان كل أمير على خصومه بأية قوة تنصره، ولو كانت هذه القوة هي قوة المسيحيين أعداء البلاد والإسلام؛ فإن العلوم والفنون والآداب ازدهرت في هذا العهد ازدهارا كبيرا، وتنافس الملوك في تشجيع العلماء والأدباء، وحاول كل أمير أن يتشبه بالخلفاء في بسطة اليد وتقريب الشعراء، يقول أبو علي الحسن بن رشيق المتوفى عام ٤٥٦ هـ، الذي عاش في عهد ملوك الطوائف :

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

٤ ــ وبعد عهد ملوك الطوائف صارت الأندلس خاضعة لحكم دولتي البربر الملثمين أو المرابطين، والموحدين ــ وذلك نحو خمس وأربعين ومائة سنة (٤٨٤ ــ ٦٢٩ هـ)، وفي عهد هاتين الدولتين صارت الأندلس بعد عصرها الذهبي ولاية تابعة للمغرب، حكمها الملثمون[1] ثمانيا وخمسين سنة (٤٨٤ ــ ٥٤١ هـ)، وهم من قبائل صنهاجة، كانوا قبل الفتح الإسلامي متوطنين في القفار، وكانوا على دين المجوسية، قد اتخذوا اللثام شعاراً لهم، وكانت الرياسة فيهم في لمتونة، وأول من حكم الأندلس منهم يوسف بن تاشفين، استصرخ به أهل البلاد، وعلى رأسهم المعتمد بن عباد، لما طمع ملك الجلالقة فيها، فلبى يوسف الدعوة، وقصد إشبيلية، فخرج ملكها للقائه وكذلك فعل غيره من الملوك، وساروا معه بجيوشهم لمحاربة الطاغية، فأزاح كابوسه عن بعض بلاد المسلمين، وانتصر على الفونس في موقعة الزلاقة يوم الجمعة ١٣ رمضان سنة ٤٨٠

(١) كانت دولة الملثمين أو المرابطين قائمة بالمغرب الأقصى، وقد أسسها يوسف بن تاشفين الصنهاجي، واتخذ لمتونة عاصمة له.

هـ، ثم عاد إلى المغرب فاستشرى الطاغية ثانية فعاد إليه يوسف فرد اعتداءه، ودانت له ملوك الطوائف حين رأوا أنهم من الضعف إما أن يخضعوا له أو للطاغية. وأسر ابن تاشفين المعتمد بن عباد، وسجنه بأغمات من بر العدوة حتى مات سنة ٤٨٧ هـ، وقيل إن الذي أوقع به عند ابن تاشفين هو المعتصم بن صمادح صاحب المرية، وكان يحقد على المعتمد بن عباد[١] وقد اتخذ يوسف قرطبة عاصمة لملكه، وكان يدعو على منابر قرطبة للخليفة العباسي، ودانت بلاد الأندلس لحكمه واستمر يجاهد ويغزو الإفرنج حتى مات سنة ٤٩٣ هـ، فقام من بعده ابنه علي ولقب نفسه بلقب أبيه : أمير المسلمين وأخذ يصد الإفرنج عن البلاد، وكان لا يبت في صغير ولا في كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء، كما كان يبغض مباحث الفلسفة والجدل والكلام، فأمر أن لا يخوض فيها أحد، وتوعد من وجد عنده كتاب فيها، ولما وصلت إلى بلاد المغرب كتب الغزالي أمر بإحراقها، وانقطع للعبادة فذهبت ريح دولة المرابطين؛ وكثرت الفتن والثورات حتى مات عام ٥٣٧ هـ؛ وخلفه ابنه تاشفين ابن علي الذي مات مقتولاً عام ٥٤٠ هـ.

وفي وسط الاضطراب والضعف قام ابن تومرت المهدي بسوس، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فآزره في دعوته عبد المؤمن بن علي، وبايع الناس محمد بن تومرت[٢] بالإمارة فأنشأ في المغرب دولة جديدة سميت

---

(١) نظم المعتمد قبل وفاته قصيدة مؤثرة أمر أن تكتب على قبره ومطلعها :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي   حقاً ظفرت بأشلاء ابـن عبـاد

وكان للمعتمد ولد يلقب بفخر الدولة وكان ولي عهده، فما برحت به الحوادث حتى تعلم صنعة الصياغة فمر به ابن اللبانة فتأثر مما رأى وأنشد قصيدته :

أذكى القلوب أسى، أبكى العيون دما   خطب وجدناك فيه يشبه العدما

(٢) ألف ابن تومرت كتاباً في أصول الدين على مذهب الأشاعرة، وكان أشعرياً في أكثر مسائل علم الكلام، وقد تأثر بآراء أستاذه الغزالي، وحاول نشرها في المغرب =

دولة الموحدين، وصارت بلاد المغرب ومراكش كلها تحت حكمهم، ومات ابن تومرت عام ٥٣٤ هـ، فخلفه عبد المؤمن بن علي الذي فتح البلاد وطوى الممالك، ولما مات علي بن تاشفين عام ٥٣٧ هـ فتح عبد المؤمن الأندلس عام ٥٣٨ هـ فانتزعها من أيدي الملثمين، واقتص أثر تاشفين بن علي حتى قتله عام ٥٤٠ هـ، وبذلك انتهت دولة المرابطين.

ولما استتب الأمر لعبد المؤمن بن علي ولى ابنه يوسف على اشبيلية؛ وولى ابنه عثمان على غرناطة، ثم عاد هو إلى مراكش ظافراً منصورا فأقام بها حتى توفي عام ٥٥٨ هـ، وكانت دولة الموحدين تشمل شمال بلاد المغرب من طرابلس إلى مراكش، كما كانت تشمل الأندلس، وترك عبد المؤمن لأسرته عرشا وطيدا وملكا كبيرا، خلفه عليه ابنه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن على الملك والولاية (٥٥٨ ـــ ٥٨٠ هـ)، ثم خلفه المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠ ـــ ٥٩٥ هـ)، ثم ابنه الناصر أبو عبدالله محمد بن يعقوب (٥٩٥ ـــ ٦١٠ هـ)، ثم ابنه يوسف (٦١٠ ـــ ٦٢١ هـ)، وحكم الموحدون البلاد نحو سبع وثمانين سنة (٥٤١ ـــ ٦٢٩ هـ) إلى أن تغلب ابن هود عليهم في بعض البلاد عام ٦٢٢ هـ؛ وزالت دولتهم ودولة ابن هود عام ٦٢٩ حيث حكم البلاد بنو الأحمر عام ٦٢٩ هـ.

٥ ـــ ولما ضعفت دولة الموحدين، ودخلها الوهن قام ابن الأحمر وقضى على دولة الموحدين بالأندلس عام ٦٢٩ هـ، وأسس لنفسه مملكة صغيرة عاصمتها غرناطة واستمر الملك في بيته أمدا طويلا (٦٢٩ ـــ

= ووافق المعتزلة في نفي الصفات وفي مسائل أخرى قليلة، وقد توفي ابن تومرت عام ٥٣٤هـ، وقد سموا الموحدين تسجيلاً لتوحيدهم الله وتعريضاً بمن جنح عن التأويل ووقف عند الظاهر.

٨٩٧ هـ[1]) ... ... وقد حكم من ملوك هذه الدولة

(١) ألف لسان الدين ابن الخيب كتاباً في ملوك هذه الدولة حتى عصره سماه « اللمحة البدرية في الدولة النصرية » وقد نشر بالقاهرة عام ١٣٤٧هـ؛ وعاصمة هذه الدولة وهي غرناطة بينها وبين قرطبة تسعون ميلاً وفحصها الأفيح ــ المشبه بالغوطة ــ حديث الركاب وسمر الليالي. قد دحاه الله في بسيط تخترقه الجداول والأنهار، وتتزاحم به القرى والجنات : في أحسن الوضع وأجمل البناء، ذرع أربعين ميلاً، تحدق الهضاب والجبال المتطامنة منه بشكل ثلثي دائرة، فعدوات المدينة منه فيما يلي المرك، مستندة إلى أطواد سامية، وهضاب عالية، ومناظر مشرفة.

ويشمل شكل هذه المدينة العظيمة ــ وما يرجع إليها من أرباضها ــ على جبال خمسة، وسهل فسيح الساحة، بعيد الأقطار، متراكب العمارة، لا يتخلله خراب ولا بياض على حد ما. عليه كور النخل قد ضم من النسم ما لا يحيط به إلا من كتب الحركات وأحصى الأنفاس. إلى الجسور المحكمة، والمساجد العتيقة، والأسواق المنتظمة. يشق البلد النهر الشهير المسمى بهدارة. آتياً من جهة الشرق، ويجتمع بخارجها بوادي شنجل الآتي من قبليها، فيشق الفحص الأفيح، ولا يزال مدة بما ينضاف إليه من فضول السقي ومواقع الأنهار بأحوازها، إلى أن يمر باشبيلية وقد صار نيلاً عظيماً، وفي ضواحي غرناطة مدينة الحمراء، وهي دار الملك مطلة على معمورها في سمت القبلة، تشرف عليه منها الشرفات البيض، والأبراج السامية، والمعاقل المنيعة والقصور الرفيعة؛ تعشي العيون، وتبهر العقول. وتنحدر من فضول مياهها وأفياض حوائرها وبركها في سفحه جداول تسمع على البعد أهزاجها؛ ويحف بسور المدينة البساتين العريضة المستخلصة، والأدواح الملتفة، فيصير ذلك خلف سياج تلوح نجوم الشرفات البيض أثناء خضراته، فلا تعرى جهة من جهاته عن الجنات والكروم والبساتين. وأما ما حازه السهل من جوفيه فمنى عظيمة الخطر، متناهية القيم، تضيق جدة من عدا أهل الملك عن الوفاء بأثمانها. منها ما يغل في السنة شطر الألف من الذهب على خمول أثمان الخضر بهذه المدينة، يختص منها بمستخلص السلطان ما يناهز الثلاثين منية. ويحيط بها ويتصل بأذيالها من العقار الثمين الذي لا يعرف الجمام ولا يفارق الريع ما ينتهي المرجع العملي منه إلى نحو خمسة وعشرين ديناراً من الذهب، وفيه من مستخلص السلطان ما تضيق عنه بيوت الأموال ذرعاً، ويرجع إلى دور ناجمة وبروج سامية وبيادر فسيحة وقصاب للحمائم والدواجن ماثلة، منها في حمى البلدة وطوق سورها من مستخلص السلطان ما ينيف على العشرين، بها الجمل الضخمة من الرجال، والفحول الفارهة من الحيوان للاثارة وعلاج الفلاحة، وفي كثير منها الحصون والأرحاء والمساجد. ويتخلل هذا المتاع الغبيط الذي هو لباب الفلاحة =

كثير[1]، وكانوا يلقبون انفسهم أمراء المسلمين.

وقد استردوا معظم بلاد الأندلس من الاسبانيين، ومنعوا الإتاوة التي كان المسلمون يدفعونها لملك أسبانيا، واستكثروا من الجيوش والأساطيل، وحكموا البلاد أكثر من قرنين ونصف من الزمان، انتعش فيها الأدب، وتقدمت العلوم والفنون، ثم ضعف السلاطين، لكثرة الخلافات والثورات والخصومات؛ ورضوا بأن يقدموا الجزية لفردناند ملك أرغونة وزوجته ملكة قشتالة؛ ثم أخذ الاسبانيون يحيطون بغرناطة ويحاصرونها من كل جهة، حتى أتم فردناند محاصرتها عام ٨٩٦ هـ، فاضطر آخر ملوك غرناطة أبو عبد الله إلى عقد معاهدة صلح بينه وبين الأسبانيين الذين لم يلتزموا

= وعين هذه المدرة الطيبة سائر القرى والبلاد التي بأيدي الرعية، مجاورة لحدود ما ذكر بلاد عريضة وقرى آهلة : منها ما انبسط وتمدن فاشترك فيه الألوف من الخلق وتعددت فيه الأشكال، ومنها ما انفرد بمالك واحد أو اثنين فصاعداً وتنيف أسماؤها على ثلاثمائة، وتنصب في نحو خمسين منها منابر الجمعيات وتمد الأكف البيض وترفع الأصوات الفصيحة لله. ويشتمل سور هذه المدينة وما رواءه من الأرحاء الطاحنة بالماء المعين على أزيد من مائة وثلاثين رحى.

(١) ينتسب بنو الأحمر إلى سعد بن عبادة، وأول ملوكهم هو أبو عبدالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الأنصاري من أبناء الأنصار، وقد ملك غرناطة في رمضان ٦٣٥هـ إلى أن توفي عام ٦٧١هـ، وخلفه ابنه أبو عبدالله (٦٧١ـ٧٠١هـ)، ثم ابنه أبو عبدالله محمد (٧٠١ـ٧٠٨هـ) وقد خلع من الإمارة في يوم الفطر عام ٧٠٨هـ وتوفي في شوال عام ٧١١هـ، وخلفه أخوه نصر الذي خلع أخاه (٧١١ـ٧١٣هـ) وخلفه ابن ابن عم أبيه، وهو السلطان أبو الوليد اسماعيل بن فرج بن اسماعيل (٧١٣ـ٧٢٥هـ)، أما نصر المخلوع فقد مات في مدينة وادي آش عام ٧٢٢هـ؛ وخلف اسماعيل ابنه محمد (٧٢٥ـ٧٣٤هـ) وقتل بظاهر جبل الفتح بأيدي جنده من المغاربة، فتولى الحكم بعده أخوه أبو الحجاج ـ يوسف (٧٣٤ـ٧٥٥هـ)، حيث اغتاله أحد الرعية فخلفه ابنه محمد (٧٥٥ـ٧٦٠هـ)، ثم ثار عليه أخوه إسماعيل وتولى الحكم بعده (٧٦٠ـ٧٦١هـ)، ولكن ابن عم له قتله واستولى على الملك.. ومن ملوك بني الأحمر أبو الحجاج يوسف (٧٣٤ـ٧٥٥هـ)، وابنه محمد (٧٥٥ـ٧٦٠هـ) وقد تولى لهما الوزارة لسان الدين بن الخطيب المتوفى في عام ٧٦٦هـ. وآخر ملوك بني الأحمر هو أبو عبدالله.

شروطها، فجلا الكثير من العرب إلى بر العدوة، وأكره من بقي منهم على التنصر، وأخذهم الاسبانيون قتلاً ونهباً وتشريدا وسجنا وتعذيبا، وبذلك انتهت دولة المسلمين في الأندلس، فلا حول ولا قوة إلا بالله .. وكان نهاية مصرع الأندلس عام ٨٩٧ هـ ـ ١٤٩٢ م، ولم يكف الاسبانيون عن نفي المسلمين عن البلاد، وإحراق كتبهم، وتبديد تراثهم. وبخروج العرب من هذه البلاد انطفأ مصباح مضيء من مصابيح الإسلام التي بعثت للحياة والنهضة في أوربا نحو ثمانية قرون.

ولا يمكن وصف معاملة مسيحيي اسبانيا للمسلمين بعد أن طردوهم من البلاد ولا الفظائع التي ذكر صالح الرندي القليل منها دون الكثير، في قصيدته النونية التي يقول فيها :

يا من لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم جور وطغيان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم في ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا ربَّ أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب ولهان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان

ويقول منها في موضع آخر :

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حل بالاسلام سلوان

ومنها :

يا غافلا وله في الدهر موعظة ... إن كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشيا مرحا يلهيه موطنه ... أبعد حمص تغر المرء أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... وما لها من طوال الدهر نسيان

ومنها :

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ عن آل اندلس ؟ فقد سرى بحديث القوم ركبان
ألا نفوس أبيات لها همم أما على المجد أنصار وأعوان ؟

والقصيدة طويلة وقد اخترنا بعضها وهي تدل على شعور صادق ونفس متألمة .. ثم هي أيضا تقرر حقيقة تاريخية ووقائع ثابتة، ليس من شك في وقوعها.

ولم تسقط غرناطة إلا بعد أن حاصر الأسبان والبرتغال سواحل الأندلس الجنوبية، واستولوا عليها قبل ذلك بمدة كبيرة، فاستولوا على سبتة عام ٨١٨ هـ وعلى جبل طارق عام ٨٦٩ هـ، وعلى طنجة عام ٨٦٩ أيضاً؛ واستولوا كذلك على جميع المدن الأندلسية ما عدا غرناطة وإقليمها وكان يحتوي نحو مائة مدينة ومائة قرية ونحو مائتي حصن وقلعة.

وقد سقطت غرناطة بعد أربعين عاما من سقوط الأستانة في أيدي الأتراك عام ٨٥٧ هـ؛ وكان سقوط غرناطة بعد حصار دام سبعة أشهر، أنهك العرب، حتى كاد الناس يأكل بعضهم بعضاً.

وكان سقوطها نتيجة كذلك لضعف بني الأحمر السياسي؛ وكان حكام المغرب عاجزين عن نجدة المسلمين في الأندلس إذ كانوا في ضعف وتخاذل وانقسام شديد، وكان ملك المغرب من بني مريد هو السلطان عبد الحق بن سعيد المتوفي عام ٩٦٠ هـ، وقد وفد عليه في فاس سلطان غرناطة بعد تسليمه المدينة لفرديناند وزوجته إيزابيلا، وقد أكرم سلطان المغرب وفادته هو وأسرته.

وقد اشتملت شروط الصلح التى وضعها أبو عبد الله بن علي آخر

ملوك بني الأحمر على سبعة وستين شرطا تنصب كلها على تأمين المسلمين في الأندلس على أموالهم وأرواحهم وأعراضهم وحرياتهم الدينية، وعدم الحيلولة بينهم وبين الهجرة متى شاء واحد منهم ذلك، ولم يف الأسبان المغتصبون بشيء من هذه الشروط.

وكان تسليم أبي عبد الله محمد بن الأحمر في ٢ ربيع الأول عام ٨٩٧ هـ، وهاجر إلى المغرب واستوطن مدينة فاس وعاش بها حتى مات عام ٩٤٠ هـ.

وقد عامل الاسبان المسلمين بقسوة لا مثيل لها، ولما ثار جماعة من البيازين وهم من عرب الأندلس في مدينة غرناطة أخمدت ثورتهم، وقامت محاكم التفتيش تنكل بالمسلمين. وفي عام ١٥٦٣ م ثار أحد سلالة بني سراج، واسمه فرج بن فرج، ولجأ إلى جبال البشرات، وتبعه كثيرون من غرناطة، ونادوا بأحد حفدة خلفاء قرطبة ملكا عليهم باسم محمد ابن أمية، واستمرت هذه الثورة عامين، وقد خلع المسلمون في أثنائها ابن أمية، وولوا أمرهم عبد الله ابن أبيه، وهو أحد الزعماء المشهورين بالبطولة، وما زالوا يجاهدون حتى غلبوا على أمرهم وعلق الأسبان رأس عبدالله على أحد أبواب قرطبة ثلاثين سنة. وأخذوا يطردون العرب من بلادهم جملة، حتى وصل عدد الذين طردوا من الأندلس أكثر من ثلاثة ملايين.

وكانت نكبة الأندلس في عهد بايزيد الثاني سلطان تركيا وقايتباي سلطان مصر، وقد اتفق الملكان على أن يَغْزُوَا اسبانيا بأسطول كبير يسيره ملك تركيا وجيش بري يسيره قايتباي من مصر، ولكن بايزيد شغل بثورة سياسية في مملكته، وقايتباي أرسل إليه الإسبان رسولا أدلى له بمعلومات كاذبة عن مصرع الأندلس، ولم تجد رسائل بايزيد الثاني وقايتباي إلى البابا وملكي أسبانيا والبرتغال شيئا في تخفيف معاملة الأسبان للمسلمين المغلوبين في بلادهم، وهكذا أراد الله ولا راد لمشيئته، قل

اللهم مالك الملك تعطي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء[1].

ويتحدث الأستاذ محمد عبدالله عنان عن أبي عبد الله آخر ملوك الأندس من بني الأحمر في بحث له فيقول فيما يقول :

كانت ظروف مملكة غرناطة تدعو إلى الألم والأسى، فقد مزقتها الحرب الأهلية شيعا، ونشب النضال من أجل الملك والرياسة بين السلطان أبي الحسن وأخيه محمد بن سعد المعروف بالزغل، ثم بين السلطان الشيخ وابنه الأمير الفتى أبي عبد الله محمد، وانتهى الأمر بأن ظفر الأمير الفتى بالعرش. وفي أثناء ذلك كانت المعارك تضطرم باستمرار بين المسلمين والاسبان حول قواعد الأندلس القليلة الباقية. وفي شهر مارس سنة ١٤٨٣ هزم الإسبان في معركة الشرقية الشهيرة بجوار مالقة، على يد بطل الأندلس يومئذ مولاي الزغل. فانتعشت آمال المسلمين وسرت الحماسة في كل مكان. وأراد السلطان أبو عبد الله أن ينتهز هذه الفرصة لمحاربة النصارى؛ فخرج على رأس قواته من غرناطة ربيع سنة ١٤٨٣ متجهاً نحو قرطبة. واجتاح في طريقه عدداً من الحصون والضياع، وهزم النصارى في عدة معارك محلية. ولكنه حين عودته أدركه النصارى في ظاهر قلعة « اللسانة » ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ارتد فيها المسلمون إلى ضفاف شينل، وقتل وأسر كثير من قادتهم وفرسانهم. وكان بين الأسرى السلطان أبو عبد الله محمد نفسه، عرفه الجند النصارى أو عرفهم بنفسه خشية الاعتداء عليه، فأخذوه إلى الكونت دي كابرا (قبره)، فاستقبله بحفاوة وأدب، وأنزله بأحد الحصون القريبة تحت حراسة قوية. وأخطر في الحال مليكه (فرديناند الكاثوليكي) بالنبأ الأليم. فطلب فرديناند أن يؤتى بالأسير الملكي إلى قرطبة، وقرر أن يستقبل كما كان يستقبل الأمراء، وأن يحتشد لاستقباله جميع الأشراف والكبراء.

---

(١) راجع صـ ٦١٥ جـ ٢ نفح الطيب في سقوط « غرناطة ».

وهكذا أتي بالسلطان أبي عبد الله من حصن اللسانة في حرس قوي. واحتشد أهل قرطبة أمام الأبواب لرؤية موكب الملك المسلم وكان أبو عبد الله يرتدي ثوباً من القطيفة السوداء، ويركب حصاناً أسود عليه سرج ثمين. وكان وجهه يشع كآبة. وكان الشعب القرطبي يحتشد جموعاً غفيرة أمام الأبواب وفي الطرقات ويتدافع بالمناكب لرؤية السلطان المنكود، وأخذ أبو عبد الله أولا إلى دار الأسقف المواجه للمسجد الجامع، ثم أخذ بعد ذلك إلى قلعة « أو ميناخي » الحصينة. وعومل هناك بكل ما يقتضيه مقامه الملكي من الإكرام، وألحق بخدمته عدة من الحشم المسلمين وأقام في أسره تغلب عليه الكآبة، وهو ينتظر يوم الخلاص.

وكان الاضطراب قد ساد غرناطة على أثر هزيمة مليكها وأسره. وبادرت أمه السلطانة عائشة الحرة بإرسال سفارة على رأسها الوزير ابن كماشة ليفاوض الملك الاسباني في الإفراج عن الأسير مقابل الشروط التي يرضاها. وحاول السلطان أبو الحسن والد الأمير الأسير، وكان قد استولى عندئذ على غرناطة، أن يسعى كذلك لدى الملك الكاثوليكي لكي يطيل أسر ولده ويكفيه مؤونة منافسته، أو أن يسليه إليه مقابل الإفراج عن بعض أكابر الأسرى النصارى الذين يحتفظ بهم، فأبى فرديناند هذا العرض واستنكر صدوره من الوالد الحقود.

وعقدت الملكة إيزابيلا الكاثوليكية مجلساً من أكابر رجال البلاط والقادة للبحث فيما إذا كان من الأفضل أن يفرج عن الأسير لقاء شروط حسنة أو أن يبقى في أسره، وبعد مناقشات طويلة رؤي أن يفرج عنه نظير أفضل الشروط التي يمكن الحصول عليها لان هذا الافراج من شأنه أن يزيد في اضطرام الحرب الأهلية بين المسلمين، وأن يعاون بذلك في إضعاف قواهم والتمهيد لسحقهم.

وانتهت المفاوضات بين رسل أبي عبدالله وبين الملكين الكاثوليكيين على ما يأتي :

ان يعترف أبو عبد الله بطاعة الملك فرديناند وزوجته الملكة إيزابيلا، وأن يدفع لهما جزية سنوية قدرها إثنا عشر دوبلا من الذهب، وأن يسلم إليهما في الحال أربعمائة أسير من النصارى الموجودين في سجون غرناطة. ثم يسلم إليهما بعد ذلك كل عام سبعين أسيراً لمدة خمسة أعوام، وأن يقدم ولده الأكبر واثني عشر عضواً آخرين من أكابر أسرته، وذلك ضمانا بحسن وفائه لشروط المعاهدة.

وتعهد الملكان الكاثوليكيان من جانبهما بالإفراج عنه فوراً، وألا يكلف في حكمه بأي أمر يخالف الشريعة الاسلامية، وأن يعاونه في افتتاح المدن الثائرة عليه في مملكة غرناطة، وهذه متى تم فتحها تغدو واقعة تحت طاعة ملك قشتالة، وأن تستمر هذه الهدنة لمدة عامين من تاريخ الافراج عن السلطان الأسير.

وفي يوم ٢ سبتمبر سنة ١٤٨٣ بعد أن قضى أبو عبد الله في الأسر بضعة أشهر قدم إلى قرطبة وفد من أكابر الغرناطيين لاستقبال أبي عبد الله واستصحابه. وأقبل أبو عبد الله في ثياب زاهية، وسار الجميع إلى حضرة ملك قشتالة. فاستقبل الملك النصراني أسيره المسلم بحفاوة ورقة، وأعرب أبو عبد الله بواسطة ترجمانه المسلم عما ينتظره من عون ملك قشتالة ورعايته، واقتيد الرهائن المشروط تسليمهم إلى أحد الحصون لحفظهم، وأمر فرديناند أن تقدم إلى أبي عبد الله هدية نفيسة من السهام والثياب والخيل، وسار أبو عبد الله ومعه سرية قوية من الجند القشتاليين حتى وصل إلى أول قلعة أمينة من قلاع المسلمين.

وللملك أبي عبد الله صورة أخذت له خلال أسره وكانت في حوزة أسرة معروفة من الأشراف هي أسرة دي كوردبا (قرطبة) الإسبانية التي ترجع أصولها إلى أيام الفروسية والحروب بين المسلمين والنصارى. وكان من أعلام هذه الأسرة القائد دون ديجودي كوردبا، كونت كابرا (قبرة) بطل واقعة اللسانة التي أسر فيها السلطان أبو عبد الله.

والمرجح أن صنع هذه الصورة لأبي عبد الله يرجع إلى فترة أسره. وفي بواعث صنعها رأيان أو نظريتان :

١ ــ أنها صنعت للملك الأسير تحقيقاً لرغبة الكونت دي كابرا، وذلك أنه كان من تقاليد الأشراف الظافرين في المعارك الحربية أن تزين قبورهم بعد الموت بما غنموا من خصومهم من السلاح والثياب. وقد رأى الكونت وبعض زملائه أن يعهدوا إلى بعض المصورين برسم صورة للملك الأسير تكون تذكاراً للمعركة، ورمزاً للظفر، ثم يزين بها قبو مدفنه بعد وفاته مع باقي متعلقات الملك المسلم. ثم تناقل ورثة الكونت ملكية هذه الصورة بالتعاقب.

٢ ــ أن يكون الملك فرديناند الكاثوليكي نفسه أو زوجه الملكة إيزابيلا قد رغب أو رغبت في رسم صورة للملك الأسير لتكون عنواناً للنصر، ولتضم إلى الذخائر الملكية. وقد عهد برسمها إلى أحد مصوري البلاط. ومن المعروف أنه لما توفيت الملكة إيزابيلا، بيعت مجموعة الصور التي كانت في حوزتها بالمزاد، وكان منها صور للملكين الكاثوليكيين وأعضاء الأسرة المالكة، وصور أخرى لبعض الملوك والأمراء الأجانب، ومن المحتمل جدا أن تكون صورة الملك المسلم قد آلت بالشراء إلى أسرة القائد الذي ظفر بأسره أو إلى أحد من المعاصرين الذين اشتركوا في المعركة، أو غيرهم ممن يهمهم أن يبقى هذا التذكار لديهم، ثم آلت بعد ذلك إلى أسرة كابرا.

وعلى أي حال، ففي أوائل القرن التاسع عشر، كانت صورة السلطان أبي عبد الله ضمن مجموعة « الدون كرستوبال رافاييل فرناندث دي كردوبا كونت دي لوكي »، وهو من أكابر أشراف غرناطة، وكان يعيش في قصره عيشة هادئة رغدة.

ودخل في خدمة الكونت في سنة ١٨١٨ محام فتى يدعى خوسيه فرناندث جيرا وعمل سكرتيراً له، وأبدى في خدمته غيرة ووفاء، وتوثقت

عرى الصداقة بين الرجلين. ووهب الكونت سكرتيره أرضاً من أملاكه. هذا فضلا عما كان يغدقه عليه من الهدايا والتحف، وكان مما أهداه إليه قبل وفاته في سنة ١٨٣٣ صورة السلطان أبي عبد الله، وبذلك آلت هذه التحفة الفريدة إلى أسرة فرناندث جيرا.

واللوحة التي رسمت عليها الصورة، صغيرة الحجم، طولها ٣٧ سنتيمتراً وعرضها ٢٦، وفيها يبدو أبو عبد الله فتى في نحو الرابعة والعشرين، وهي سنه وقت الأسر، بوجه عريض وأنف منسق، وعينين خضراوين، ونظرات حادة تغشاها الكآبة، وتظلل فمه من الأسفل ثغرة خفيفة تجعل الشفتين أكثر وضوحا. وله شعر كستني غزير، ولحية صغيرة مدببة. وتزين تاجه الذهبي أحجار من الزمرد والياقوت، وهو موضوع فوق قلنسوة خضراء. أما هذه السلسلة التي تتصل بعنقه فهي طابع الهزيمة وشعار الأسر، مما يعزز الرأي القائل بأن الصورة قد رسمت حقاً خلال أسره في قرطبة.

ويرتدي الملك الأسير في الصورة سترة ذات لونين، الأخضر وهو موشى بأسلاك الذهب، والآخر قرمزي وهو موشى بالورود الذهبية. والجزء الأسفل من الثياب مصنوع من قطيفة زاهية تزينها من الجانب الأيمن أزرار سوداء، ويرى من زاوية السترة المفتوحة، وشي قميصه العربي.

ويبدو السلطان هادئ المحيا، رصيناً، يحفه الجلال، وتشع نظراته بالكآبة والعذوبة.

وكانت الصورة حينما أهداها الكونت دي لوكي إلى صديقه الدون خوسيه فرناندث بلا إطار، فصنع لها الدون إطاراً بيضاوياً مذهباً على الطراز العربي، ونقش عليها اسم أبي عبد الله وشعار بني نصر ملوك غرناطة، وآلت الصورة إلى آل كولي ثم الى أسرة فرناندث جيرا الغرناطية، وهي الصورة الوحيدة الحقيقية للسلطان المسلم.

الفصل الثالث

الحياة الأندلسية في ظلال الحكم العربي

أولا ــ الحياة الاجتماعية

اختلط العرب[1] بسكان البلاد الأصليين وعاشروهم وصاهروهم

(١) يقول لسان الدين بن الخطيب في كتابه اللمحة البدرية : « ولما استقر الفتح وبلغ حيث بلغ من التخوم سكنت العرب الأقطار وتبوأت الديار. ثم دخلت بعد ذلك العرب الشاميون مع الأمير بلج بن بشر القشيري في عشرة آلاف فارس من أعلام أهل الشام، وتسمى « الطالعة البلجية » : « فالداخلون مع موسى وطارق يسمون بالأندلس في الرسوم والحظوظ والاقطاعات بالبلديين، والداخلون مع بلج بن بشر يسمون بالشاميين، واختص بكورة إلبيرة وهي التي أوقعوا عليها اسم دمشق جند دمشق، وبكورة جيان جند قنسرين، وبأشبيلية جند حمص، وسواها من الكور بهذه النسبة. ونزلت بهذه الكورة الإلبيرية من أعلام العرب الذين بها إلى هذا العهد بيوتهم جملة من القبائل : منهم بيوتات من قيس عيلان، ومن عبس ابن بغيض، ومن أشجع بن ريث، ومن باهلة، ومن سليم بن منصور، ومن جديلة، ومن كلاب بن ربيعة، ومن عقيل بن كعب، ومن علال بن عامر، ونمير بن عامر، ومن سلول، ومن ثقيف، ومن غافق ابن الشاهد، ومن عك، ومن الأنصار وهم بنو الأوس والخزرج، ومن غسان، ومن الأزد ومن الغوث، ومن بجيلة، ومن خثعم، ومن كندة، ومن السكاسك، ومن تجيب، ومن جذام بن عدي، ومن خولان بن عمرو، ومن المعافر بن يعفر، ومن حكم، ومن حضرموت، ومن جعفي، ومن سعد العشيرة، ومن همدان، ومن حمير، ومن=

وامتزجوا بهم، وقد عاشوا معهم في ظلال وحدة واحدة[1] وإخاء تام،

= شرعب، ومن ذي رعين، ومن ذي أصبح، ومن يحصب بن مالك، ومن كلب بن وبرة، ومن جهينة، إلى كثيرين.

(١) لم يحدث بين المسلمين وسكان البلاد الأصليين خلاف ديني ما عدا حوادث قليلة، كانت الباعث عليها تعصب بعض المسيحيين تعصباً دينياً أعمى؛ ففي القرن الثالث قامت حركة باسم الدعوة الدينية، هي حركة الاستشهاد، وقاد هذه الحركة القسيس يولوجيوس معتمداً على زعيم من أغنياء الطائفة اسمه الفارو، وكانت تعيش في قرطبة فتاة اسمها فلورا « الزهرة » كان أبوها مسلماً مات في حداثة سنها فكفلتها أمها المسيحية ولقنتها مبادئ النصرانية وشبت عليها، فلما كبرت جعلت تتردد على الكنائس فتدخل في الأمر أخوها المسلم لأبيها ووثق يولوجيوس بها صلته حتى ألقى في روعها أن المسيح لا يرضى عنها إلا إذا جهرت باعتقاد بالنصرانية وجاهدت في سبيل المسيح. فرفع أخوها أمرها إلى القاضي فادعت أمامه أنها لم تكن يوماً مسلمة وأنها لا تعرف إلا المسيحية ديناً وأمر القاضي بجلدها شفقة عليها، ولعلها تعود إلى دينها الأصلي وكفلها أخوها، ولكنها هربت إلى بيت صديق لها مسيحي فآواها ثم غابت في قرطبة وتوارت عن الأنظار؛ وفي غيبتها جهر قسيس اسمه برفكتوس بالطعن في الدين الإسلامي، فحكم القاضي باعدامه ونفذ الخصي نصر الاعدام عند غروب الشمس يوم عيد الفطر. وجعل تاجر مسيحي اسمه حنا يكثر من التعريض بالنبي ﷺ فرفع أمره إلى القاضي، وحكم عليه بالجلد أربعمائة جلدة. وحفز هذا العمل المتعصبين إلى التقدم لإرضاء المسيح بتقديم أنفسهم إلى السياف. وتقدّمهم في ذلك قسيس اسمه اسحق. ذهب إلى القاضي يوماً وقال له: أريد الدخول في دين الاسلام، فسر به القاضي وجعل يحادثه في سماحة الإسلام وعدالته وحقيقة شرعته فقاطعه القس قائلاً: لقد كذب نبيكم وخدعكم بكذبه وافترائه ثم سبه ولعنه، فلطمه القاضي وقال له: لعلك ثمل من شراب أو بك مس جنون فتثبت. فأجاب: إنني أملك قواي كاملة ولم أذق شراباً في يومي، وإنما دفعني إلى ما كان مني إخلاصي لديني، فسجنه القاضي معتقداً أنه مجنون حتى يتبين أمره، ولكن عبد الرحمن لما بلغه ما فعل القسيس هاله الأمر، فأمر بقتله ثم صلبه وإحراقه. وتعاقبت حوادث مثل حادثة إسحاق حتى بلغ عدد الذين قطعت رقابهم في هذا السبيل أحد عشر في أقل من شهرين، فوجدت الحكومة الإسلامية نفسها تلقاء حالة اجتماعية يجب علاجها، فصدر أمر عبد الرحمن بعقد مؤتمر يبحث هذا الأمر ويسوسه بما ينبغي أن يساس به، وأخذ الحكومة الاسلامية في الأندلس بباعث من التسامح الديني تفكر في حل لهذا، ورأت أن تدعو الحكومة ذوي المكانة والنفوذ من المسيحيين للنظر في في الوصول الى حالة تحقن دماء الناس، وتمنع من التطاول على الاسلام=

وأخذ السكان الأصليون يتعلمون اللغة العربية، ودخل كثير منهم في الاسلام طوعا ورغبة، وتبادلو العادات والتقاليد. وأصبح المجتمع الأندلسي عربي الملامح والسمات، وأقامت القبائل العربية الوافدة في كل مكان من هذه البلاد الجميلة(١)، وتركت كل العوامل ويضاف إليها عامل آخر هو

= أو الطعن فيه، وللدلالة على أن هذه الحركة التي تقدم بها المستهدفون للسيف ليست من الدين في شيء وأنها لا تؤدي إلا إلى تعرض المسيحيين للابادة والفناء، ومثل الحكومة في هذا المؤتمر شخص اسمه جوميز بن أنطونيان، صار له شأن في عهد خلف عبد الرحمن، وصدر قرار المؤتمر بأمرين :

الأول : أن حركة الاستشهاد هكذا خاطئة لا صحة لها.

الثاني : أنه يجوز للقساوسة أن يأمروا بسجن من تظهر عليه أعراض مثل هذه الفتن.

ولم يؤد المؤتمر إلى النتيجة التي كانت منتظرة، فان يولوجيوس وأشياعه لجوا في عملهم فطوردوا من مكان إلى مكان وسجنوا كلما وجد مبرر لسجنهم، وسجن يولوجيوس فالتقى في سجنه وفلورا مرة أخرى. وفي ٢٤ نوفمبر سنة٨٥١ أعدمت تلك الفتاة وزميلة لها تسمى ماري.

(١) لما استقرت قدم المسلمين بالأندلس وتم فتحها، صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هممهم إلى الحلول بها. فنزل بها من جراثيم العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم، إلى أن كان من أمرهم ما كان. فأما العدنانيون فمنهم خندف ومنهم قريش، وأما بنو هاشم فمنهم جماعة كلهم من ولد إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، ومن هؤلاء بنو حمود ملوك الأندلس بعد انتشار سلك بني أمية، ومن بني مخزوم أبو بكر المخزومي الأعمى الشاعر المشهور من حصن المدور ومنهم الوزير الفاضل في النظم والنثر أبو بكر بن زيدون، ووالده الذي هو أعظم منه أبو الوليد بن زيدون وزير معتضد بني عباد. ومن الكنانيين ابن جبير صاحب الرحلة.

ومـمن نزل الأندلس من قحطان، الأزد، ومنهم محمد بن هانئ الشاعر المشهور الألبيري، وهو من بني المهلب، ومن الأزد من ينتسب إلى الأنصار على العموم وهم الجم الغفير بالأندلس، قال ابن سعيد : والعجب ما يشذ عن العدد كثرة، ولقد أخبرني من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد منه إلا شيخاً من الخزرج وعجوزاً من الأوس، قال ابن غالب : وكان جزء الأنصار بناحية طليطلة، وهم أكثر القبائل بالأندلس في شرقها ومغربها.

ومن الخزرج بالأندلس أبو بكر بن عبدالله بن ماء السماء من ولد سعد بن عبادة =

بيئة الأندلس الغنية الجميلة الشاعرة، تركت آثارها في العقول والأفكار والنفوس والأرواح، وقد اشتهر المجتمع الأندلسي بعلو الثقافة وانتشارها،

= صاحب رسول الله ﷺ وهو المشهور بالموشحات، وإلى قيس بن سعد بن عبادة ينتسب بنو الأحمر سلاطين غرناطة، الذين كان لسان الدين بن الخطيب أحد وزرائهم وعلى عهدهم انقرض ملك الأندلس من المسلمين.

وعلى الجملة فقل أن تجد قبيلة من القبائل العربية ليس من بينها من اتخذ الأندلس موطنه لكثرة خيراتها وطيب هوائها. وكان أكثر الوافدين عليها من أهل الشام حتى اضطر أحد أمرائها إلى أن يفرقهم في البلاد، فأنزل أهل دمشق ألبيرة وسماها دمشق. وأنزل أهل حمص أشبيلية، وسماها حمصاً، وأهل قنسرين : جيان وسماها قنسرين. وأهل الأردن ناحية رية ومالقة وسماها الأردن، وأهل فلسطين ناحية شذونة وشريش وسماها فلسطين.

ورحل إلى الأندلس أيضاً كثير من أهل مصر والعراق، كما عبر إليها من مراكش وشمال إفريقية جماعة من البربر، واختلط كل هؤلاء بسكان البلاد الأصليين من قوط وغيرهم بالمصاهرة والمصادقة، وجمعهم الإسلام، فكان صلة أخرى غير صلة الاجتماع في بقعة واحدة، وامتزجت كل هذه الأجناس بعضها ببعض امتزاجاً تسرب في عقولهم كما تسرب في دمائهم. ونمت مواهبهم الفطرية وساعدهم على ذلك انتجاعهم بلاداً واسعة غنية جميلة مختلفة المناظر متعددة المناحي. فكان أثر ذلك كله أن تقوم فيها حالة اجتماع خاصة، وأن تصبح لهم مميزات وصفات في الاجتماع والعلم والفن لم تكن لغيرهم من العرب الخلص، بل اشتقت من خير ما حملت عناصر هذا المجتمع الجديد من مميزات وما ركب من طبائعها من صفات، فكانوا أخف الناس أرواحاً وأصفاهم نفوساً وألطفهم أذواقاً وأحدهم أذهاناً، حتى صح فيهم ما نقل عن ابن غالب في (فرحة الأنفس) : « أهل الأندلس عرب في الأنساب والعزة والأنفة، وفصاحة الألسن، وطيب النفوس، وإباء الضيم، وقلة احتمال الذل والسماحة بما في أيديهم، والنزاهة عن الخضوع وإتيان الدنية. هنديون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم إياها، وضبطهم وروايتهم لها. بغداديون في نظافتهم وظرفهم ورقة أخلاقهم ونباهتهم وذكائهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم، وحدة أفكارهم، يونانيون في استنباطهم للمياه، ومعاناتهم لضروب الصناعات واختبارهم لأجناس الفواكه، وتدبيرهم لتركيب الشجر، وتحليتهم البساتين بأنواع الخضر، وأصناف الزهر، فهم أحكم الناس لأعمال الفلاحة، ومنهم ابن بصال صاحب كتاب الفلاحة الذي شهدت التجربة له، وهم أصبر الناس على مطاولة التعب في تجويد الأعمال، وتحسين الصنائع. وأحذقهم بالفروسية، وأبصرهم بالطعن والضرب.

فالفلاح في حقله والتاجر في متجره والصانع في مصنعه، كل هؤلاء فضلا عن سواهم من الطبقات الراقية، كانوا يجيدون المشاركة في أمور الثقافة والأدب والشعر، ويمتاز المجتمع الأندلسي كذلك بعلو الذوق ولطفه وانتشار الآداب الاجتماعية الرفيعة فيه. وكانت الفنون والآداب والغناء والموسيقى ذائعة في كل وسط .. وسنتحدث عن كثير من مظاهر هذه الحياة الاجتماعية الرفيعة في الفصول التالية .. وكانت اللغة العربية التي يتحدث بها هذا المجتمع لغة راقية مهذبة رقيقة يتحدث بها الناس على أنها لغة راقية، لغة الثقافة والآداب[1] وإن كانت الآداب الشعبية كالزجل قد ذاعت ذيوعا كبيراً.

---

(١) يقول الأستاذ حسن جاد « صـ ٤٠ ابن زيدون » :

كانت حالة اللغة في الأندلس تختلف عنها في الشرق، فقد كانت قواعد التعليم هناك تقوم على علوم الدين وشواهد العرب وأمثالهم ومنثورهم ومنظومهم، وكانوا كذلك عرباً بيدهم النفوذ والسلطان وللغتهم القهر والغلبة، ولا مزاحم لها من اللغات الأخرى، لأن العرب في الأندلس انتصروا انتصاراً عاماً، فملكت لغتهم ألسنة أهلها بما لهم من النفوذ. حتى إن هشام بن الداخل حظر على النصارى أن يتكلموا بغير العربية. فبقيت لهذا نقية من العجمة، غضة الإهاب، ناضرة الشباب، زمناً طويلاً. على حين كانت تموت في المشرق بمزاحمة أضدادها ولا سيما الفارسية، التي انهزم الشرقيون أمام حضارة أهلها؛ ثم إن الدولة العباسية ورثت حضارات وثقافات عريقة ظهر أثرها في اللغة فجنى على مادتها باللحن والعجمة، ولكنها لم تصب في الأندلس لخلوها من هذه الثقافات. وكانت مع هذا لغة الخاصة والعامة في معظم عهد العرب بالأندلس، في الوقت الذي كانت فيه لغة الخاصة فقط بالمشرق، ولئن امتازت فيه بشدة الأسر ورصانة الأسلوب، فحسبها في الأندلس أنها كانت تذهب مذهب النسيم : رقة لفظ، وأناقة أسلوب.

ولهذا فتن بها الإسبان. وشغفوا بها كل الشغف، حتى أنساهم ذلك لغتهم. اللاتينية، وحتى جأر بالشكوى من هذه الحال « الفارو » كاهن قرطبة إذ يقول : « إنا نحب أن نقرأ الشعر والقصص وندرس الدين والفلسفة في اللغة العربية، فنتعلم لغة عذبة الألفاظ، بليغة الأداء، جميلة الإنشاء، ولا تكاد تجد فينا من يقرأ الكتب المقدمة باللغة اللاتينية، وشباننا الأذكياء جميعاً لا يعرفون غير لغة العرب وآدابهم، وكلما قرأوا كتبها، ودرسوا أدبها أعجبوا بها، فاذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية=

ويقول استانلي بول : « ... أخذ النصارى يبغضون لغتهم اللاتينية القديمة، ويصدفون عن آدابها، فتعلموا العربية، واستطاعوا بعد حين أن يكتبوا لها، كما يكتب العرب انفسهم، وقد ندد يولوجيوس نفسه بهذه الحال إذ يقول : إن النصارى يولعون بقصائد الشعر العربي وقصصه، ويهجرون الكتاب المقدس وآثار القديسين. ومما يوجب الحزن والأسى أن الجيل الناشئ لا يعرف غير العربية، فهو يقرأ كتب المسلمين بشغف، وينشئ لها الخزائن، ويراها جديرة بالإعجاب، في حين أنه يبخل بنظرة إلى كتاب مسيحي. ثم يقول : لقد نسي النصارى لغتهم، ومن العسير أن نجد واحداً منهم في كل ألف يكتب حرفا لاتينيا كتابة سائغة، وهم مع ذلك يستطيعون أن ينظموا شعراً عربيا رائعاً[1] ».

ويقول أحمد ضيف في بلاغة العرب في الأندلس نقلا عن مؤرخي الفرنجة : « هجر أهل إسبانيا اللاتينية واشتغلوا باللغة العربية وآدابها وكانوا لا يكتبون بغيرها حتى إن أحد العلماء المشهورين منهم شكا من ذلك وقال : إننا نحب قراءة الشعر والقصص العربية، وندرس المسائل الدينية والفلسفة الإسلامية، باللغة العربية لنتعلم لغة رشيقة وعبارة بليغة ولا يكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية، وكل شبابنا الأذكياء لا يعرفون غير لغة العرب وآدابها لأنهم يقرأون الكتب العربية ويدرسونها بهمة عظيمة ويدعوهم كثرة اطلاعهم على تلك الكتب إلى الأعجاب بآداب العرب، فاذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منها وقالوا إنها لا تستحق عناية قارئ أو مستفيد، من أجل ذلك نسي المسيحيون لغتهم فلا تكاد تجد في الألف منا واحداً يمكنه

= سخروا منه وقالوا : إن الفائدة منه لا تساوي التعب في قراءته، وهكذا نسي المسيحيون لغتهم وجهلوا كتابتها وبلاغتها، وحذوقوا اللسان العربي حتى ليكتبونه نثراً ونظماً في أسلوب أنيق، وتصوير دقيق، يفوقون فيه العرب أحياناً ».

(١) نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ـــ كامل كيلاني

أن يكتب رسالة باللاتينية أما إذا أرادوا أن يكتبوا بالعربية فإن كثيراً منهم يكتب بعبارات بليغة وأسلوب منمق، وقد يفوقون العرب أنفسهم في ذلك حتى في الشعر وكتابة القوافي ».

ويقول نقلا عن مؤرخ آخر : « في أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هي لغة الوثائق الرسمية، وفي هذا الوقت ترجم قسيس من أهل اشبيلية التوراة إلى اللغة العربية لتلاميذه، فوجد أحد العلماء هناك على أهل دينه واتهمهم بالمساعدة على نشر اللغة العربية. والعمل على ترك اللاتينية. وقد دامت هذه الحال زمناً طويلا في قرطبة وطليطلة حتى إن القسس لجهلهم اللاتينية اضطروا إلى ترجمة كتب الكنيسة إلى اللغة العربية وبقي ذلك إلى أواخر القرن الحادي عشر إلى أن استولى الفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥ م ».

أولاً: مشاهد من الحياة الأندلسية

ـ ١ ـ

قدم الأندلس علي بن نافع زرياب المغني ـ الزرياب طائر أسود اللون حسن الصوت وسمي به لسمرة كانت فيه مع جمال الصوت ـ وقد تخرج زرياب على يدي إسحق الموصلي فنبغ حتى نال من أستاذه كل تقدير، وقال الرشيد يوما لإسحق : أحب يا إسحق أن تبغيني شابا ظريفاً تؤدبه أدبك حتى ندخره لوقت قد لا نجدك فيه، فقال إسحق : لدي يا أمير المؤمنين بغيتك التي تريد، شاب لم تقع عيناي على أحسن منه صوتاً وأداباً وألحاناً، وهو بالباب إذا شاء مولانا أمير المؤمنين : قال الرشيد : علي به، فدخل زرياب. واستجوبه الرشيد فأبان عن ظرف ولباقة، فأعجبه وطلب منه الغناء فقال : أريد العود. فجيء له بعود أستاذه إسحق، فأبى وقال : أريد عودي وهو بالباب، فقيل له : أليس عود أستاذك عوداً ؟ فأجاب : إن كان مولانا يريد أن أغني غناء أستاذي فإني أغني على عوده، وإن كان مولانا يريد غنائي فإني أغني على عودي، فأعجبت هذه الفطنة الرشيد وارتاح لها، ولما جيء بعود قال له الرشيد : أراه كعود إسحق، فأجاب نعم يا مولاي هو مثله في الشكل، وأمير المؤمنين صادق، ولكن أوتار العيدان يتخذونها من الحرير، وأنا أتخذ أوتار عودي من مصارين الأشبال، فأكبر هذا الجواب زريابا في عيني هارون،

ثم انطلق فغنى الصوت الذي فيه :

يـا أيها الملك الميمـون طائـره   هرون راح اليك الناس وابتكروا

فطرب الرشيد طرباً ما رئي مثله عليه من قبل وأبدع فيه زرياب وأغرب فأطرب وأعجب وشاءت المقادير أن تنقل زريابا من بغداد إلى قرطبة، فقد أوجس الموصلي في نفسه خيفة على صيته وجاهه في بلاط الرشيد أن يسقطه هذا الغلام الناشئ المبدع، فخلا الأستاذ بتلميذه وقال : يا زرياب إنك تلميذي وإنني أحبك كابني ولكنني أيضاً أحب نفسي، وليس إلا اثنتان فواحدة بنعماها وأخرى أظنك تأباها ولا ترضاها، فإما أن نقيم هنا وأنا والله دائب وراء قتلك حتى يكون ولو بذلت في ذلك نفسي لأنك قاتلي ولا محالة، وإما أن تختار لك بلداً ترحل إليه بعيداً لا تعود ما أنا حي ولك حين ذاك كل ما يعينك على الوصول إلى ما تريد من جاه ومن مال. وكان لا جرم أن يختار زرياب الرحيل وهو يرى هذا الوعيد والتهديد ويعلم جاه إسحق عند الرشيد فرحل يضرب آباط الأسفار إلى الأندلس وقد كانت شهرتها وقتئذ بلغت بغداد فيما بلغت من بلاد الشرق فلم تعد ولاية من ولايات الأمويين ولا إيالة يطمع فيها العباسيون ولكن ملك دولة وفخامة يغدق فيها الحكم ابن هشام حتى يستقدم اليه من المشرق كثيراً من جلة العلماء كأبي علي القالي.

ولما أشرف زرياب على الأندلس كان الحكم قد أشرف على الموت فلم يجد زرياب من الحكمة أن يجتاز إلى الأندلس، ولبث في إفريقية ينتظر، فلما تولى عبد الرحمن بن الحكم أرسل الألطاف والهدايا ورسلا يبشرون زرياباً بعيش ومجد وبخير كثير في بلاط عبد الرحمن، فانتقل زرياب إلى الأندلس في أبهة وإعزاز، حتى إن عبد الرحمن خرج إليه من عاصمة ملكه يتلقاه زيادة في التجلة والإكبار.

وتغلغل نفوذ زرياب الأدبي في علية القوم وسراتهم فقلدوه في أشياء كثيرة، غيرت من عادات الناس في طعامهم وشرابهم ولبوسهم وأزيائهم على وجه العموم فحبب إليهم كئوس الزجاج عن أدوات الذهب والفضة والمعادن، وكان هو وأولاده يقصون شعورهم ولا يتركون منها إلا جمة تزين النواصي فقلدهم الأندلسيون في ذلك، وغير ملابسه وألوانها على حسب الفصول فغير الناس كما يغير، ونشأ من هذا كله لون من الحضارة لم يكن معروفا، وكان لهذا اللون أثره في انتقال الأندلس حالا على حال.

وكذلك كان إبداع زرياب في الغناء مؤثراً في الأدب العربي إذا ادخل في آلات الموسيقى ما لم يكن فيها قبل من الأوتار، فاخترع بذلك أداة جديدة تسري عن الناس همومهم وأحزانهم، وترقق طباعهم وعواطفهم، وتدعو الشعراء إلى الابتكار والإجادة في أنواع الشعر الغنائي وتجويدها، لقد كان لزرياب والذين من بعده أثر كبير في الأدب الغربي نفسه لأنه لقح الأدب الفرنسي بكثير من الظواهر العربية في الأساليب وفي المعاني ويظهر هذا التلقيح في أمرين :

الأول : ان أدوات الغناء قد نقل كثير منها إلى الفرنسيين، حتى إن كلمة عود نقلت بنفسها لهذا المسمى العربي، والأداة الموسيقية نفسها.

والثاني: أن الشعر الفرنسي لم يكن مقفى في بادئ نشأته لأن أصله وهو الشعر اللاتيني لم يكن مقفى، ثم ظهرت التقفية في هذا الشعر بعد عصر الاختلاط الذي كان بين الأندلسيين والفرنسيين في عهدي الحرب والسلام، فدل على تأثر الأدب الفرنسي بالأدب العربي، والفضل في ذلك لزرياب وأمثاله.

وبما مكن عبد الرحمن لزرياب في المنزلة، تمكن سلطان زرياب في الحاشية والبلاط والأمراء والأشراف، ولكن لباقة الرجل وحسن تفكيره جعلته يكتفي بهذا النفوذ الأدبي، ولا يحاول أن يتورط به في مجال التعصب السياسي والمنازعات.

وإذا قدر للأندلس أن يكتب تاريخها الفني والاجتماعي، فلا شك أن انضر صفحة في ذلك التاريخ المجيد وأعجبها تكون صفحة أبي الحسن علي بن نافع المغني الملقب بزرياب. فهو رجل استطاع وحده أن ينقل أمة بأسرها من حال البداوة الى حال الحضارة، وذلك بشيئين اثنين : تحبيب الموسيقى اليها وتنظيم حياتها اليومية.

ولقد فتح المسلمون الأندلس في العقد الأخير من القرن الأول الهجري، وانتشرت القبائل العربية والبربرية في بسائطها وحزونها، ولكنهم ظلوا حتى أواخر القرن الثاني بداة جفاة، كلما اجتمعت كلمتهم لم يلبثوا أن تفرق بينهم الإحن والعداوات المنبعثة عن العصبية القبلية، فكأنهم لا يزالون ضاربين في هضاب نجد وسهول تهامة ومفاوز إفريقية. ثم أخذت شئونهم السياسية تستقر وتنسق بفضل مجهود المتقدمين من أمراء الدولة الأموية الأندلسية : عبد الرحمن الداخل، وهشام، والحكم، وعبد الرحمن الأوسط. أما الأحوال الاجتماعية فظلت على ما كانت عليه فساداً واضطرابا.

وعلى العكس من ذلك كان المشرق الإسلامي في ذلك الزمان، قد استبحر فيه العمران، وبلغت المدنية الإسلامية فيه غايتها، وتعلق فيه ذوو الدعة واليسار بأسباب الكمال من شئون الحياة بعد أن استكملوا الضروري والخارجي منها على حد تعبير ابن خلدون. وقد أسعفهم في ذلك عامل الدين وعامل التاريخ معاً، فأما المعتدلون منهم فكانوا يستندون إلى أن الدين الإسلامي دين يسر، يحب من المؤمن ان يكون هيناً لينا موفور الحظ من الظرف والكياسة، غير فظ ولا غليظ القلب، ولا ناس نصيبه من الدنيا. وأما المتطرفون فوجدوا في تقاليد الفرس والروم الاجتماعية ما جعلهم يؤثرون العاجلة ويحرصون على لذة الحياة الدنيا ومتعها، وأيا كانت الطرق الموصلة اليها.

وقد تألفت من هؤلاء وهؤلاء طبقة ارستقراطية، مرهفة الأذواق،

رقيقة الطباع. ترى في الموسيقى، ومجالس الأنس والطرب، وحفلات السمر خير ما يرفهون به عن تلك الأذواق المرهفة والطباع المترفة. هذا هو السبب المباشر في تقدم صناعة الغناء في ذلك الزمان، وبلوغها الغاية على أيدي : إبراهيم المهدي، وإبراهيم الموصلي، وابنه اسحاق. وهذا هو السبب كذلك في استفاضة مجالس الأنس والطرب لذلك العهد في مدن الشرق الإسلامي وبغداد خاصة، وفي بلوغ هذه المجالس درجة من التأنق يمكن تصورها إذا عرفنا أنهم وضعوا لها آدابا كانوا يأخذون بها من يحضرها من الندماء، والجلساء، والسمار. من ذلك أن يكون الغناء قوامها، وأن يحتفل لها بلبس الثياب المصبغة الأنيقة، وأن يزين المجلس بالأزهار والرياحين، وألا يحضرها إلا من كان مهذباً، خفيف الروح، حاضر البديهة، قادراً على قول الشعر وارتجاله، فضلا عن تذوقه وروايته عندما يتقضى المقام ذلك.

وإلى هذا المشرق اتجه أمراء بني امية الأندلسيون، وهم أبناء خلائف دمشق ورصافتها، يستهدونه فنانين ومعلمين يهذبون ما غلظ من طباع العرب والبربر والمولدين، وينظمونها جميعاً في نسق واحد. وقد أهدى المشرق إلى المغرب غير واحد من المغنين أمثال : علون، وزرقون، ولكن زريابا كان أعظم هؤلاء جميعاً وأبعدهم أثراً.

وقد نهض زرياب بالموسيقى الشرقية نهضة جديدة مطبوعة بطابعه، وذلك بما أدخله على العود من إصلاح وتحسين، وبما استن من طرق جديدة في إلقاء الغناء وتعليمه، فقد اتخذ لنفسه وهو بالمشرق عوداً جعله على الثلث من وزن العود القديم، وصنع أوتاره من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها رقة ورخاوة، واتخذ بمها ومثلثها من مصران شبل أسد « فلها في الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها »، فلما كان بالأندلس زاد أوتار العود الأربعة المقابلة

للطبائع الأربعة وترا خامسا يقوم مقام النفس من الجسد، فاكتسب به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة كما يروي المقري. واتخذ مضراب العود من قوادم النسر بدلا من مرهف الخشب « وذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه ».
وأما من حيث إلقاء الغناء فقد رسم زرياب أن يبدأ في الإلقاء بالنشيد بأي نقر كان، ثم يؤتى في أثره بالبسيط ويختم بالمحركات والإهزاج. أما مذهبه في تعليم الغناء فيقول فيه المقري : « وكان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلمه أمره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة، وأن يشد صوته جدا إذا كان قوي الصوت. فان كان لينه أمره أَن يشد على بطنه عمامة فإنَّ ذلك مما يقوي الصوت ولا يجد متسعا في الجوف عند الخروج على الفم، فإنْ كان ألص الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق، راضه بأن يدخل في فيه خشب عرضها ثلاث أصابع. يبيتها في فمه ليالي حتى ينفرج فكاه. وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصيح بأقوى صوته يا حجام! أو يصيح آه! ويمد بها صوته، فان سمع صوته بها صافيا نديا قويا مؤديا لا تعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس، عرف أن سوف ينجب وأشار بتعليمه، وإن وجده خلاف ذلك أبعده ». هذه العبارة تشير في صراحة إلى أن زريابا أنشأ بالأندلس في أوائل القرن الثالث الهجري ما يصح أن نسميه بلغة الوقت الحاضر معهدا لتعليم الموسيقى الشرقية.

وقد ابتكر زرياب لأهل الأندلس ألواناً من الطعام استطابوها ونسبوا بعضها إليه، وعلّمهم أن يشربوا من آنية الزجاج الرقيق بدلا من آنية المعدن. وهو أول من اجتنى لهم البقلة الشهية المعروفة بالهليون، وكانوا لا يعرفونها من قبل. وعلّمهم أن يبسطوا فوق ملاحف الكتان أنطاع الاديم اللين، وأن يبسطوا سفر الأديم فوق الموائد الخشبية، فذلك أنظف لها وآنق لمنظرها. وعلمهم أن يلائموا بين ما يلبسون وبين فصول السنة

الأربعة فيتدرجوا من الخفيف الأبيض صيفاً إلى الثقيل الملون شتاء، ولفتهم إلى أنواع من الطيب والعطر لم يلبثوا ان أقبلوا عليها وفضلوها على ما كانوا يتعطرون به من قبل، كما علمهم كيف ينظمون شعورهم تصفيفاً وتدويراً وإرسالا.

وقد توفي زرياب في إمارة الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) وكما رزق زرياب الحظوة عند أهل الأندلس في حياته، فقد رزقها ذكراه عندهم بعد مماته. ذلك بأن مذهبه في الغناء وما رسمه لهم من أسلوب المعيشة ظل باقياً متوارثاً فيهم حتى آخر أيامهم. فلما انتهى أمر الأندلس وخرج من تبقى من أهلها إلى بلدان إفريقية الشمالية انتقل اليها بانتقالهم مقدار غير قليل من صناعة زرياب وآدابه. يقول ابن خلدون عند ذكره زريابا : « فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف، وطما منها بأشبيلية بحر زاخر، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بافريقية والمغرب، وانقسم على أمصارها، وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها »، ويقول المقري « وكان زرياب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتراك في كثير من ضروب الظرف وفنون الآداب ولطف المعاشرة، وحوى من آداب المجالسة طيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية ما لم يجده أحد من أهل صناعته، حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه واستحسنه من أطعمته، فصار إلى آخر ايام أهل الأندلس منسوباً إليه معلوما به ».

كان أهل رومية القديمة على عهد نيرون يلقبون سرياً من سراتهم اسمه بطرونيوس برب الظرف وسلامة الذوق، لأنه كان عندهم مضرب المثل في ذلك، أما أهل الأندلس فقد وصفوا زرياباً بأنه « معلم الناس المروءة ».

— ٢ —

يقول[1] محدث : قصدت منزل ابن بكار المرواني في أشبونة[2] ونقرت الباب، فنادى من هذا؟ فقلت : رجل ممن يتوسل لرؤياك بقرابة، فقال : لا قرابة إلا بالتقى؛ فإن كنت من أهله فادخل، وإلا فتنَحَّ عني. فقلت : أرجو في الاجتماع بك والاقتباس منك أن أكون من أهل التقى، فقال : ادخل؛ فدخلت عليه؛ فاذا به في مصلاه، وسبحة أمامه، وهو يعد حبوبها ويسبح؛ فقال لي : أمهلني حتى أتمم وظيفتي من هذا التسبيح، ثم أقضي حقك؛ فقعدت الى أن فرغ. فلما قضى شغله عطف علي، وقال : ما القرابة التي بيني وبينك؟ فانتسبت له فعرف أبي، وترحم عليه، وقال لي : لقد كان نعم الرجل وكان لديه أدب ومعرفة؛ فهل لديك أنت مما كان لديه شيء؟ فقلت له : إنه كان يأخذني بالقراءة وتعلم الأدب، وقد تعلقت من ذلك بما أتميز به؛ فقال لي : هل تنظم شيئاً؟ قلت : نعم! وقد ألجأني الدهر إلى أن أرتزق به. فقال : يا ولدي إنه بئسما يرتزق به، ونعم ما يتحلى به إذا كان على غير هذا الوجه! ولكن تحل الميتة عند الضرورة! فأنشدني — أصلحك الله — مما على ذكرك من شعرك.

فطلبت بخاطري شيئاً أقابله به مما يوافق حاله، فما وقع لي إلا فيما لا يوافقه من مجون ووصف خمر وما أشبه ذلك. فأطرقت قليلا؛ فقال : لعلك تنظم! فقلت لا! ولكنني أفكر فيما أقابلك به؛ فقولي أكثره فيما حملني عليه الصبا والسخف، وهو غير لائق بمجلسك.

فقال : أنشدني ما وقع لك غير متكلف، فلم يمدني خاطري إلا بشعر

(١) نفح الطيب ١١٢ : ٢

(٢) أشبونة : بلد بالأندلس.

أمجن[1] فيه، فقال: أما كان في نظمك أطهر من هذا؟ فقلت له: ما وفقت لغيره. فقال: لا بأس عليك، فأنشدني غيره، ففكرت إلى أن أنشدته قولي:

ولما وقــــفت على ربعهـــــم تجرعت وجــدي بالأجـــرع[2]
وأرســل دمعــي شرار الدموع لنـــار تأجـــج في الأضلـــع

فقـــام عــــذولي لما رأى بكـــائي وقفـــاً على الأدمـــع
فقــلت لـــه: هـــذه سنـــة لمن حفـظ العهـد في الأربـع[3]

فرأيت الشيخ قد اختلط، وجعل يجيء ويذهب، ثم أفاق، وقال: أعد بحق آبائك الكرام. فأعدت فأعاد ما كان فيه، وجعل يردد، فقلت له: لو علمت أن هذا يحركك ما أنشدتك إياه. فقال: وهل حرك مني إلا خيراً وعظة. يا بني إن هذه القلوب المخلاة لله كالأوراق التي جفت، وهي مستعدة لهبوب الرياح، فإن هب عليها أقل ريح لعب بها كيف شاء، وصادف منها طوعه.

فأعجبني منزعه، وتأنست به، ولم أر عنده ما يعتاد من هؤلاء المتدينين من الانكماش؛ بل ما زال يحدثني بأخبار فيها هزل، ويذكر لي من تاريخ بني أمية وملوكها ما أرتاح له، ولا أعلم أكثره. فلما كثر تأنسي به أهويت إلى يده كي أقبلها، فضمها بسرعة، وقال: ما شأنك؟ فقلت: أرغب في أن تنشدني شيئاً من نظمك! فقال: أما نظمي زمان الصبا فكان له وقت ذهب، ويجب للنظم أن يذهب معه، وأما نظمي في هذا الوقت فهو فيما أنا بسبيله؛ وهو يثقل عليك، فقلت له: إن أنصف سيدي أنشدني من نظم صباه، ومن نظم شيخوخته فيأخذ كلانا بحظه،

---

(١) راجع هذا الشعر في صـ ١١٢ : ٢ من نفح الطيب.
(٢) الأجرع: الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل.
(٣) الأربع: جمع ربع، الدار بعينها.

فضحك، وقال : ما أعصيك وأنت ضيف، ولك حرمة أدب، ووسيلة قصد، ثم أنشدني وقد بدا عليه الخشوع وخنقته العبرة :

ثق بالذي سواك من عدم فإنك من عدم
وانظر لنفسك قبل قر ع السن من فرط الندم
واحذر ـ وقيت ـ من الورى واصحبهم أعمى أصم
قد كنت في تيه إلى أن لاح لي أهدى علم
فاقتدت نحو ضيائه حتى خرجت من الظلم
لكن قناديل الهوى في نور رشدي كالحمم[1]

فوالله لقد أدركني ما أدركه، وغلب على خاطري بما سمعت من هذه الأبيات، وفعلت بي من الموعظة غاية لم أجد منها التخلص إلا بعد حين، فقال الشيخ : إن هذه يقظة يرجى معها خيرك، والله مرشدك ومنقذك، ثم قال لي : يا بني، هذا ما نحن بسبيله الآن، فاسمع فيما مضى، والله ولي المغفرة وأنشد :

أطل عذار على خده فظنوا سلوي عن مذهبي
وقالوا : غراب لوشك النوى فقلت : اكتسى البدر بالغيهب[2]
وناديت قلبي : أين المسير وبدر الدجى حل بالعقرب[3]
فقال : ولو رمت عن حبه رحيلا عصيت ولم أذهب

فسمعت منه ما يقصر عنه صدور الشعراء، وشهدت له بالتقدم، وقلت له : لم أر أحسن من نظمك في جد ولا هزل. ثم قلت له : أأرويه عنك؟ فقال : نعم! ما أرى فيه بأساً بعد إطلاع من يعلم السرائر على ما في الضمائر، فقلت له : فإن أسبغت علي النعمة بزيادة شيء

---

(١) الحمم : الرماد والفحم، وكل ما احترق من النار.
(٢) الغيهب : الظلمة.
(٣) العقرب : برج في السماء.

من هذا الفن فعلت ما تملك به قلبي آخر الدهر. فقال: يا بني، لا ملك قلبك غير حب الله تعالى، ثم قال: ولا أجمع عليك رد قول ومنعا، ثم أنشد:

أيها الشـــادن الـــذي حسنـه في الـــورى غـــريب
لحظ ذاك الجمـــال يـــط فـئ مـا بـي مـن اللهـيب
وعليـــه أحـــوم دهـــ ري ولكننـــي أخـــيب
كلمـــا رمت زورة قـــيض الله لي رقـــيب

فمازج قلبي من الرقة واللطافة لهذا الشعر ما أعجز عن التعبير عنه، فقلت له: زدني زادك الله خيراً، فأنشدني:

ما كان قلبي يدري قدر حبكم حتى بعدتم فلم يقدر على الجلد
وكنت أحسب أني لا أضيق به ذرعاً فما حان حتى فت في عضدي
ثم استمرت على كره مريرته[1] فكاد يفرق بين الروح والجسد
عساكم أن تلافوا باللقا رمقي فليس لي مهجة تقوى على الكمد

ثم قال: حسبك، وإن كلفتني زيادة، فالله حسبك، فقلت له: قد وكلتني إلى كريم غفور، فبالله إلا ما زدتني؛ وأكببت لأقبل رجليه، فضمهما وأنشدني شعراً رقيقاً؛ ملأ سمعي عجائب، وبسط أنسي، وكتبت كل ما أنشدني، ثم قلت له: لولا خوفي من التثقيل عليك لم أزل أستدعي منك الإنشاد حتى لا تجد ما تنشده. فقال: إن عدت إلى هنا تذكرت وأنشدتك، فما عندي مما أضيفك به غير ما سمعته وما تراه.

ثم قام وجاء من بيت آخر في داره بصحفة فيها حساً[2] من دقيق وكسور باردة، فجعل يفت فيها، ثم أشار إلي أن أشرب، فشربت، ثم

---

(١) المريرة: القوة.
(٢) الحسا: المرق.

شرب إلى أن أتينا على آخرها، ثم قال. هذا غذاء عمك نهاره، وإنه لنعمة من الله تعالى، أستديم بشكرها اتصالها. فقلت له: يا عم؛ ومن أين عيشك؟ فقال : يا بني عيشتي بتلك الشبكة أصطاد بها في سواحل البحر ما أقتات به، ولي زوجة وبنت يعود من غزلهما مع ذلك ما نجد به معونة؛ وهذا مع العافية والاستغناء عن الناس خير كثير. فتركته، وفي نيتي أن أعود إلى زيارته بعد أيام خوف التثقيل، فعدت إليه بعد ثلاثة أيام، فنقرت الباب، فكلمتني المرأة بلسان عليه أثر الحزن، وقالت : إن الشيخ قد خرج إلى الغزو، وذلك بعد انفصالك عنه بيوم، ناله كالجنون، فقلت له : ما شأنك؟ فقال : إني أريد أن أموت شهيداً، وهؤلاء جيران لي قد عزموا على الغزو، وأنا ماض معهم ثم اختال في سيف ورمح، وتوجه معهم، وقال : نفسي هي التي قتلتني بهواها، أفلا أقتص منها فأقتلها؟ فقلت لها : من خلف للنظر في شأنكم؟ فقالت : ليس ذلك لك! فالذي خلفه لنا لا نحتاج معه إلى غيره، فأدركني من جوابها روعة، وعلمت أنها مثله زهداً وصلاحاً.

فقلت : إني قريبه، ويجب علي أن أنظر في حالكم بعده! فقالت : يا هذا إنك لست بذي محرم، ولنا من العجائز من ينظر لنا، ويبيع غزلنا، ويتفقد أحوالنا؛ فجزاك الله عنا خيراً. انصرف عنا مشكوراً! فقلت لها : هذه دراهم خذوها؛ لتستعينوا بها. فقالت : ما اعتدنا أن نأخذ من غير الله، وما كان لنا أن نخل بالعادة. فانصرفت نادماً على ما فاتني من الاستكثار من شعر الشيخ. ثم عدت بعد ذلك لداره سائلا عنه، فقالت لي المرأة : إنه قد قبله الله تعالى . فعلمت انه قتل؛ فقلت لها : أقتل ؟ فقرأت: ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾.

فانصرفت معتبراً من حاله!

قصد(١) المنصور بن أبي عامر رجل جوهري من تجار المشرق من مدينة عدن بجوهر كثير وأحجار نفيسة، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسنه، ودفع إلى التاجر الجوهري صرته — وكانت قطعة يمانية — فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شط النهر، فلما توسطها واليوم قائظ، وعرقه منصب، دعته نفسه إلى التبرد في النهر، فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط، فمرت حدأة فاختطفت الصرة، تحسبها لحماً، وطارت في الأفق ذاهبة بها.

فقامت قيامة التاجر، وعلم أنه لا يقدر أن يستدفع ذلك بحيلة، فأسر الحزن في نفسه، ولحقه لأجل ذلك علة اضطرب فيها، واستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكآبة، وفقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة فسأله المنصور عن شأنه فأعلمه بقصته، فقال له : هلا أتيت إلينا حين وقوع الأمر فكنا نستظهر على ذلك بالحيلة! فهل هديت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها ! فقال: مر شرقاً على سمت هذا الجبل الذي يلي قصرك — يعني الرملة.

فدعا المنصور شرطيه الخاص به؛ فقال : جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة، فمضى وجاء بهم سريعاً، فأمرهم بالبحث عمن غير حال الإقلال منهم سريعاً، وانتقل عن الإضافة دون تدريج؛ فتناظروا في ذلك، ثم قالوا : يا مولانا؛ ما نعلم إلا رجلا من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم، ويتناولون السبق بأقدامهم؛ عجزاً عن شراء دابة؛ فابتاع اليوم دابة، واكتسى هو وولده كسوة متوسطة.

فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب، فحضر الرجل بين يدي المنصور فاستدناه، والتاجر حاضر، وقال له : سبب ضاع منا

(١) نفح الطيب ١٩٢ : ١.

وسقط إليك، ما فعلت به؟ قال : ها هوذا يا مولاي، وضرب بيده إلى حجزة[1] سراويله، فأخرج الصرة بعينها، فصاح التاجر طربا وكاد يطير فرحا.

فقال له المنصور : صف لي حديثها. فقال : بينا أنا أعمل تحت نخلة إذ سقطت أمامي فأخذتها، وراقني منظرها؛ فقلت إن الطائر اختلسها من قصرك لقرب الجوار، فاجتزت بها، ودعتني فاقتي إلى أخذ عشرة مثاقيل كانت معها مصرورة، وقلت : أقل ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها.

فأعجب المنصور ما كان منه، وقال للتاجر : خذ صرتك، وانظرها، واصدقني عن عددها، ففعل وقال : وحقك يا مولاي، ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها وقد وهبتها له. فقال له المنصور : نحن أولى بذلك منك، ولا ننغص عليك فرحك؛ ثم أمر للتاجر بعشرة دنانير عوضاً عن دنانيره، وللرجل بعشرة دنانير ثواباً له، وقال لو بدأنا بالاعتراف قبل البحث لأوسعناه جزاء. فأخذ التاجر في الثناء على المنصور، وقد عاود نشاطه. وقال : لأبثن في الأقطار عظم ملكك، ولأبين أنك تملك الطير، فلا تعتصم منك، ولا تؤذي جارك.

فضحك المنصور، وقال : اقصد في قولك يغفر الله لك! فعجب الناس من تلطف المنصور في امره، وحيلته في تفريج كربته!

(١) الحجزة من السراويل : موضع التكة.

كان[1] أبو بكر بن المنخل وأبو بكر الملاح متآخيين متصافيين، وكان لهما ابنان صغيران قد برعا في الطلب، وحازا قصب السبق في حلبة الأدب، فتهاجى الإبنان بأقذع الهجا، فركب ابن المنخل في سحر من الأسحار مع ابنه عبد الله، فجعل يعتب عليه على هجاء بني الملاح، ويقول له : قد قطعت ما بيني وبين صديقي وصفيي أبي بكر في إقذاعك بابنه! فقال له ابنه : إنه بدأني والبادي أظلم، وإنما يجب أن يلحى[2] من بالشر تقدم، فعذره أبوه! فبينا هما على ذلك إذ أقبلا على واد تنق فيه الضفادع، فقال أبو بكر لابنه أجز :

تنق ضفادع الوادي

فقال ابنه : بصوت غير معتاد

فقال الشيخ :

كأن نقيق مقولها

فقال ابنه : بنو الملاح في الوادي

فلما أحسست الضفادع بهما صمتت، فقال أبو بكر :

وتصمت مثل صمتهم

فقال ابنه : إذا اجتمعوا على زاد

فقال الشيخ : فلا غوث للمهوف

فقال الابن : ولا غيث لمرتاد!

---

(١) نفح الطيب ص ٣٠١ جـ ٢.

(٢) يلحى : يلام ويعنف.

ورد[1] ابن جاخ الشاعر على المعتضد بن عباد، فدخل الدار المخصوصة بالشعراء فسألوه، فقال : إني شاعر! فقالوا : أنشدنا من شعرك فأنشدهم شعراً ضحكوا منه وازدروه. فقال بعض عقلائهم : دعوه، فإن هذا شاعر، وما يبعد أن يدخل مع الشعراء، ويندرج في سلكهم، فلم يبالوا كلام الرجل، فبقي معهم، وكان لهم في تلك الدولة يوم مخصوص، لا يدخل فيه على الملك غيرهم، فقال بعضهم لبعض : هذه شنعة[2] بنا أن يكون مثل هذا البادي يقدم علينا، ويجترئ على الدخول معنا. فاتفقوا على أن يكون هو أول متكلم في اليوم المخصوص بهم عند جلوس السلطان، وقدروا أن يقول مثل هذا الشعر المضحك فيطرده عنهم، ويكون ذلك حسما لعلة إقدام مثله عليهم.

فلما كان اليوم المذكور، وقعد السلطان في مجلسه، ونصب الكرسي لهم، رغبوا منه أن يكون هذا القادم أول متكلم في ذلك اليوم، فأمر بذلك، فصعد الكرسي، وانتظروا أن ينشد مثل ذلك الشعر المضحك، فقال :

قطعت يا يوم النوى أكبادي ... وحرمت عن عيني لذيذ رقادي
وتركتني أرعى النجوم مسهدا ... والنار تضرم في صميم فؤادي
فكأنما آلى الظلام ألية ... لا ينجلي إلا إلى ميعاد
ولرب خرق[3] قد قطعت نياطه ... والليل يرفل في ثياب حداد
بشملة[4] حرف[5] كأن زميلها ... سرح[6] الرياح وكل برق غادي
والنجم يحدوها وقد ناديتها ... يا ناقتي عوجي على عباد

(١) نفح الطيب صـ ٤٥٨ جـ ٢.
(٢) الشناعة : الفظاعة، والاسم الشنعة.
(٣) الخرق : القفر والأرض الواسعة.
(٤) الشملة : السريعة.
(٥) الحرف : الناقة الضامرة.
(٦) سرح الرياح : إرسالها.

ملك إذا ما أضرمت نار الوغى وتـلاقت الأجنـاد بالأجنـاد
فترى الجسوم بلا رءوس تنثني وترى الرءوس لقى[1] بلا أجساد
يـأيها الملك المؤمـل والـذي قدمـا سما شرفـا على الأنـداد
إن القـريض لكاسـد في ارضنـا ولـه هنـا سـوق بـغير كسـاد
فجلبت من شعري إليك قوافياً يفنـى الزمـان وذكرهـا متمادي
من شاعر لم يضطلع أدباً ولا خـطت يـداه صحيفـة بمداد

فقال له الملك : أنت ابن جاخ؟ فقال : نعم! فقال : اجلس، فقد وليتك رياسة الشعراء، وأحسن إليه، ولم يأذن في الكلام في ذلك اليوم لأحد بعده!.

— ٦ —

قال[2] المنصور بن أبي عامر يوماً لأبي عمر يوسف الرمادي : كيف ترى حالك معي؟ فقال : فوق قدري ودون قدرك؛ فأطرق المنصور كالغضبان، فانسل الرمادي، وخرج وقد ندم على ما بدر منه، وجعل يقول : أخطأت، لا والله ما يفلح مع الملوك من يعاملهم بالحق! ما كان ضرني لو قلت له : إني بلغت السماء، وتمنطقت بالجوزاء! وأنشد :

من يأت هذا الموت لا يلف حاجة لنفس إلّا قد قضيت قضاءها

ولما خرج كان في المجلس من يحسده على مكانه من المنصور، فوجد فرصة، فقال : وصل الله لمولانا الظفر والسعد! إن هذا الصنف صنف زور وهذيان، لا يشكرون نعمة، ولا يرعون الإل[3] ولا ذمة، كلاب من غلب، وأصحاب من أخصب، وأعداء من أجدب، وحسبك منهم

(١) اللقي : ما طرح.
(٢) نفح الطيب صـ ٢٢٦ جـ ٢.
(٣) الإل : العهد.

أن الله جل جلاله يقول فيهم: ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون** ﴾، والاتبعاد منهم أولى من الاقتراب، وقد قيل فيهم : ما ظنك بقوم الصدق يستحسن إلا منهم.

فرفع المنصور رأسه ــ وكان محامي أهل الأدب والشعر ــ وقد اسود وجهه، وظهر فيه الغضب المفرط، ثم قال : ما بال أقوام يشيرون في شيء لم يستشاروا فيه، ويسيئون الأدب بالحكم فيما يدرون، أيرضى أم يسخط؟ وأنت ــ أيها المنبعث للشر دون أن يبعث ــ قد علمنا غرضك في أهل الأدب والشعر عامة، وحسدك لهم؛ لأن الناس كما قال القائل :

من رأى الناس له فضـ ــلاً عـليهم حسـدوه

وعرفنا غرضك في هذا الرجل خاصة، ولسنا ــ إن شاء الله ــ نبلغ أحداً غرضه في أحد؛ وإنك ضربت في حديد بارد، وأخطأت وجه الصواب، فزدت بذلك احتقاراً وصغاراً، وإني ما أطرقت من كلام الرمادي إنكاراً عليه، بل رأيت كلاماً يجل عن الأقدار الجليلة، وتعجبت من تهديه له بسرعة، والله لو حكمته في بيوت الأموال لرأيت أنها لا ترجح ما تكلم به قدر ذرة، وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام في شخص قبل أن يؤخذ معه فيه، ولا تحكموا علينا في أوليائنا ولو أبصرتم منا التغير عليهم؛ فإننا لا نتغير عليهم؛ بغضاً عنهم، بل تأديباً وإنكاراً، فإنا من نريد إبعاده لم نظهر له التغير، بل ننبذه مرة واحدة، والتغيير إنما يكون لمن يراد استبقاؤه. ولو كنت مائل السمع لكل أحد منكم في صاحبه لتفرقتم أيدي سبأ، وجونبت أنا مجانبة الأجرب، وإني قد أطلعتكم على ما في ضميري، فلا تعدلوا عن مرضاتي.

ثم أمر أن يرد الرمادي. وقال له : أعد علي كلامك، فارتاع، فقال :

---

(٢) التأنيس خلاف الإيحاش.

الأمر على خلاف ما قدرت، الثواب أولى بكلامك من العقاب، فسكن لتأنيسه، وأعاد ما تكلم به، فقال المنصور : بلغنا أن النعمان بن المنذر حشا فم النابغة بالدر، افعلوا به ذلك.

— ٧ —

ومن الجواري في الأندلس فضل المغنية، وكانت حاذقة بالغناء كاملة الخصال وأصلها لاحدى بنات هارون الرشيد ونشأت وتعلمت ببغداد، ودرجت من هناك إلى المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، فانصقلت ورقت طبقتها في الغناء، واشتريت من هناك لعبد الرحمن أمير الأندلس مع جارية أخرى مدينة اسمها علم، وصواحب غيرهن.

ومنهن جارية اسمها قلم، وكانت أندلسية الأصل من سبي البشكنس حملت صبية إلى المشرق فوقعت بالمدينة حتى اشتريت لعبد الرحمن، وكانت أديبة ذاكرة حسنة الخط راوية للشعر حافظة للأخبار عالمة بضروب الآداب.

ومنهم جارية تسمى العجفاء؛ قال في نفح الطيب : قال الأرقمي : قال لي أبو السائب — وكان من أهل الفضل والنسك : هل لك في احسن الناس غناء ؟ فجئنا إلى دار مسلم بن يحيى مولى بني زهرة فأذن لنا، فدخلنا بيتاً عرضه اثنا عشر ذراعاً في مثلها، وطوله في السماء ستة عشر ذراعاً، وفي البيت نمرقتان قد ذهب عنهما اللحمة وبقي السدى وقد حشيتا بالليف، وكرسيان قد تفككا من قدمهما ثم اطلعت علينا عجفاء كلفاء عليها هروي أصفر غسيل وكأن وركيها في خيط من وسخها فقلت لأبي السائب : بأبي أنت من هذه ؟ فقال : اسكت، فتناولت عوداً فغنت :

بيد الذي شغف الفؤاد بكم　　تفريج ما ألقى من الهم
فاستبقني أن قد كلفت بكم　　ثم افعلي ما شئت عن علم
قد كان صرم في الممات لنا　　فعجلت قبل الموت بالصرم

قال : فحسنت في عيني وبدا ما أذهب الكلف عنها، وزحف أبو السائب وزحفت معه، ثم تغنت :

برح الخفاء فأي ما بك تكتم　　ولسوف يظهر ما تسر فيعلم
كم ما تضمن من عزيز نيله　　يا قلب إنك بالحسان لمغرم
يا ليت أنك يا حبيب بأرضنا　　تلقي المراسي طائعاً وتخيم
فتذوق لذة عيشنا ونعيمه　　ونكون إخواناً فماذا ننقم ؟

قال : فزحفت مع أبي السائب حتى فارقنا النمرقتين وربت العجفاء في عيني كما يربو السويق بماء مزنة، ثم غنت :

يا طول ليلي أعالج السقما　　إذ حل كل الأحبة الحرما
ما كنت أخشى فراقكم أبداً　　فاليوم أمسى فراقكم ضرما

فألقيت طيلساني وأخذت (شادكونة) فوضعتها على رأسي وصحت كما يصاح على اللوبيا بالمدينة، وقام أبو السائب فتناول ربعة في البيت فيها قوارير ودهن فوضعها على رأسه، وصاح صاحب الجارية وكان ألثغ : قوانيني، يعني قواريري، فاصطكت القوارير وتكسرت وسال الدهن على رأس أبي السائب وصدره وقال للعجفاء : لقد هجت لي داء قديماً ثم وضع الربعة، وكنا نختلف إليها حتى بعث عبد الرحمن بن معاوية فابتيعت له العجفاء، وحملت إليه.

ومن الجواري في الأندلس طروب وهي جارية من نافارا (نبرة) ولع بها عبد الرحمن حتى لقبت السلطانة طروب، وتدخلت في شئون

الإمارة بما هيأ لها عبد الرحمن على نفسه من الهيمنة، حتى لقد كان لا يطيق الصبر على فراقها ولا على هجرها. غاضبته مرة فصدت عنه ولزمت مقصورتها فضاق ذرعاً بهجرها، فجهد يترضاها وهي تجهده عناء وترهقه عنتاً، فأرسل بعض خصيانه الخواص يستكرهونها على المجيء إليه، فأغلقت عليها الباب وأقسمت ألا تذهب ولو اقتضى الأمر قتلها، فأوحى عبد الرحمن إليهم أن يحملوا بدر المال فيجعلوها من وراء الباب سداً، ثم أقبل يستعطفها ويهب لها هذه البدر، فرقت له وعطفت عليه.

— ٨ —

قال أبو الطاهر[١] إسماعيل بن أحمد التجيبي : كنت بمدينة مالقة[٢] من بلاد الأندلس سنة ست وأربعمائة، فاعتللت بها مدة انقطعت فيها عن التصرف، ولزمت المنزل، وكان يمرضني[٣] حينئذٍ رفيقان كانا معي، يلمان من شعثي ويرفقان بي.

وكنت إذا جنني الليل اشتد سهري، وخفقت حولي أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية، واختلطت الأصوات بالغناء، فكان ذلك شديداً علي، وزائداً في قلقي وتألمي، فكانت نفسي تعاف تلك الضروب طبعاً، وتكره تلك الأصوات جبلة، وأود لو أجد مسكناً لا أسمع فيه شيئاً من ذلك، ويتعذر علي وجوده لغلبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكثرته عندهم.

وإني لساهر ليلة بعد إغفاءة في أول ليلتي، وقد سكنت تلك الألفاظ

(١) شرح المختار من شعر بشار صـ ١٤.

(٢) مدينة بالأندلس كانت ثغراً حصيناً على بحر الروم، أسسها الفينيقيون، وكان لها شهرة أيام الرومان والقرطاجيين، وكان بها بنو حمود من ملوك الطوائف.

(٣) مرضه : قام عليه في مرضه.

المكروهة، وهدأت تلك الضروب المضطربة، وإذا بضرب خفي معتدل حسن لا أسمع غيره، فكأن نفسي أنست به، وسكنت إليه، ولم تنفر منه نفارها من غيره، ولم أسمع معه صوتاً، وجعل الضرب يرتفع شيئاً فشيئاً ونفسي تتبعه، وسمعي يصغي إليه، إلى أن بلغ في الارتفاع إلى ما لا غاية وراءه، فارتحت له، ونسيت الألم، وتداخلني سرور وطرب، وخيل إلي أن أرض المنزل ارتفعت بي، وأن حيطانه تمور[1] حولي، وأنا في كل ذلك لا أسمع صوتاً.

فقلت في نفسي : أما هذا الضرب فلا زيادة عليه؛ فليت شعري كيف صوب الضارب ! وأين يقع من ضربه ؟ ولم ألبث أن اندفعت جارية تغني في هذا الشعر بصوت أندى من النوار، غب القطار[2]، وأحلى من البارد العذب، على كبد الهائم الصب، فلم أملك نفسي أن قمت ورفيقاي نائمان، ففتحت الباب، وتبعت الصوت، وكان قريباً مني، فاطلعت من وسط منزلي على دار فسيحة، وفي وسط الدار بستان كبير، وفي وسط البستان شرب[3] نحو عشرين رجلاً، قد اصطفوا وبين أيديهم شراب وفاكهة، وجوار قيام بعيدان وطنابير وآلات لهو، ومزامير لا يحركنها، وجارية جالسة ناحية، وعودها في حجرها، كل يرمقها ببصره، ويوعيها سمعه وهي تغني وتضرب، وأنا قائم بحيث أراهم ولا يرونني، وكلما غنت بيتاً حفظته إلى أن غنت عدة أبيات وقطعت، فعدت إلى موضعي، يشهد الله وكأنما انشطت[4] من عقال، وكأن لم يكن بي ألم، وقد وعيت الأبيات وهي :

مـــا بـــال أنجم هـــذا الليـــل أضلت القصد؟ أم ليست على فلك

(١) تمور : تتحرك وتذهب وتجيء.

(٢) القطار : جمع قطر.

(٣) جمع شارب.

(٤) أنشط من عقال : حل.

عادت سواريه[1] وقفاً لا حراك بها	كـأنما جـثت صرعـى بمعتـرك
هل من بشير بنور الصبح، تنقذني	بشراه من طول وجد غير مترك
فقد أجد التواء الليل لي شجناً	وأضجعتني تباريحي[2] على الحسك[3]
خذ يا شمول[4] كئوس الراح مترعة	فسقينها ولا تسـأل عـن الـدرك
وهيج بـألحانك الطنبـور إن لـه	على شجون المعنى سطوة الملك

ثم انصرفت في صباح تلك الليلة، فلقيت صديقاً لي من أهل العلم قرطبياً سكن مالقة، فأخبرته الخبر، وأنشدته الشعر، ووصفت له الدار، فاغرورقت عيناه وقال : الدار للوزير فلان، والجارية فلانة البغدادية إحدى المحسنات من جواري المنصور بن أبي عامر، وصارت إلى ابن الوزير بعد موت المنصور وتمزق ملكه !.

(١) جمع سار.
(٢) تباريح الشوق : توهجه؛ والتباريح الشدائد.
(٣) الحسك : نبات ورقه كورق الرجلة وأدق وعند ورقه شوك صلب ذو ثلاث شعب.
(٤) شمول : اسم غلام صقلبي من صقالبة المنصور.

صور أندلسية

— ١ —

معركة تور في فرنسا

امتدت فتوحات عرب الأندلس شمالاً إلى فرنسا، ووطئ عبد الرحمن الغافقي أرضها عام ١١٤ هـ ــ ٧٣٢ م؛ وتقدم إلى وادي اللوار حتى مدينة تور، وبين بواتيه وتور دارت المعركة بين الغافقي وشارل مارتل؛ وكان جيش الغافقي نحو ٨٠ ألفاً، وجيش مارتل كان فيه الجرمانيون، ولا سيما التيوتون، وبدأت المعركة يوم الجمعة ٧ شعبان سنة ١١٤ هـ ــ ٢ أكتوبر سنة ٧٣٢ م، وبعدها بيوم قتل الغافقي في الميدان، وقتل كثير من الجيش الإسلامي أو أكثر من نصفه، وانسحب الباقون من فرنسا إلى ما وراء جبال بيرنه، فانفرد شارل مارتل ثم ابنه ثم حفيده شارلمان بالحكم في فرنسا، وهم ملوك الدولة الماروفنجية الشهيرة، وتأسست على أنقاض معركة تور الامبراطورية الرومانية الغربية، وتوج البابا شارلمان امبراطوراً على فرنسا وألمانيا وإيطاليا سنة ٨٠٠ م ــ ١٨٤ هـ في عهد الرشيد، وبهذا بدأ التمدن المسيحي.

يقول جبون المؤرخ الإنجليزي في نتائج هذه المعركة : « لو لم يصد الهجوم لكانت العربية تدرس في جامعات انجلترا وألمانيا ».

ويقول مسيو كلود فارير[1] : « في سنة ٧٣٢ م — ١١٤ هـ، حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التي انقضت على الإنسانية في القرون الوسطى، وكان منها أن غمرت العالم الغربي — مدة سبعة قرون أو ثمانية إن لم نقل أكثر — طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة؛ هذه الفاجعة هي التي أريد أن أكره حتى ذكراها، هي الانتصار البغيض الذي ناله على مقربة من بلدة بواتييه — قريباً من بلدة تور في مقاطعة شمبانيا — أولئك البرابرة المحاربون من الإفرنج بقيادة الكارولنجي شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين بقيادة الغافقي... ففي ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثمانية قرون الى الوراء، ويكفي المرء أن يطوف في حدائق الأندلس أو بين الآثار العربية في إشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليطلة ليشاهد — والألم الغريب آخذ منه — ما عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العمراني الفلسفي السلمي المتسامح — لأن الإسلام مجموعة كل هذا — فخلصها من الأهاويل التي لا أسماء لها، وكان من ذلك أن نتج خراب غاليا القديمة، في حين كان العالم الإسلامي، من نهر الوادي الكبير في أوربا إلى نهر السند في قلب آسيا، يزدهر كل الازدهار في ظل الإسلام ».. وفي هذه المعركة يقول شبلي ملاط الشاعر اللبناني :

من للزمان بمثل فضل محمد	وعدالة كعدالة الخطاب
رفع الرسول عماد أمة يعرب	وأعزها بالآل والأصحاب
غشت الفتوح وصفقت راياتها	في الشرق فوق أباطح وهضاب
وتغلغلت في الغرب طائرة على	أكتاف صقر جارح وعقاب
لولا تجلد «شارل مارتل» خيمت	في قلبه بسرادق وقباب
ولكان صار الغرب أندلساً به	شوقي يقول سواحراً وسوابي

(١) مدرس بمدرسة اللغات الشرقية في باريس.

— ٢ —

رسالة قصيرة :

أرسل العزيز الفاطمي ابن المعز حاكم مصر (٢٦٥ — ٣٨٦ هـ) في أول ولايته رسالة إلى الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر رسالة يسبه فيها ويهجوه؛ فاكتفى الحكم بأن كتب إلى العزيز هذه الكلمات « عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك ».

وبعد ذلك أرسل صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٨ هـ الى يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن حاكم المغرب والاندلس وملك الموحدين بالمغرب يستنجد به على الصليبيين فرفض أن يعينه لأنه لم يلقبه بأمير المسلمين.

— ٣ —

أبو جعفر الحميري :

قال المراكشي في كتابه « المعجب[1] » :

أخبرني شيخي وأستاذي أبو جعفر أحمد بن محمد بن يحيى الحميري رحمه الله أيام قراءتي عليه بقرطبة سنة ٦٠٦ هـ، وذلك أنا بلغنا عليه في الحماسة إلى مقطوعة ابن زيابة التيمي التي أولها :
يـا لهف زيابـة للحـرث الـــ ـصائـــح فالغـــانم فــــالآئب

فلما أنتهينا منها إلى قوله :
والله لـو لاقيتـه خاليـاً لا آب سيفانا مع الغالب

قال لنا : أحدثكم بأعجب ما اتفق لي في هذا البيت، وذلك أن

(١) ص ١٧١.

أمير المؤمنين أبا يوسف رحمه الله لما فصل عن قرطبة متوجهاً إلى لقاء الأدفنش لعنه الله، قال لي ولدي عصام بعد انفصاله بليلة أو ليلتين : يا أبت رأيت البارحة أمير المؤمنين داخلاً قرطبة وقد رجع من السفر وهو متقلد بسيفين فقلت يا بني : لئن صدقت رؤياك هذه ليهربن الأدفنش لعنه الله، وخطر لي هذا البيت :

والله لـو لاقيتـه خاليـاً   لا آب سيفانا مع الغالب

فصدقت الرؤيا والتعبير؛ وكان أبو جعفر آخر من انتهى إليه علم الآداب بالأندلس، لزمته نحواً من سنتين فما رأيت أروى لشعر قديم ولا حديث، ولا أذكر بحكاية تتعلق بأدب أو مثل سائر أو بيت نادر أو سجعة مستحسنة منه، أدرك جلة من مشايخ الأندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب، وأعانه على ذلك طول عمره وصدق محبته وإفراط شغفه بالعلم، قال لي ولده عصام وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبي الطيب قرئت علي أو أكثرها فألفيتها شديدة الصحة فقلت له : لقد كتبتها من أصل صحيح وتحرزت في نقلها، فقال لي : ما يمكن أن يكون في الدنيا أصل أصح من الأصل الذي كتبت منه، فقلت له أين وجدته ؟ قال هو موجود الآن بين أيدينا وعندنا، وكنا في المسجد في زاوية فقلت له أين هو ؟ فقال لي عن يمينك، فعلمت أنه يريد الشيخ فقلت ما على يميني إلا الأستاذ فقال لي هو أصلي وباملائه كتبت، كان يملي علي من حفظه، فجعلت أتعجب فسمع الأستاذ حديثنا فالتفت إلينا وقال فيم أنتما ؟ فأخبره ولده الخبر، فلما رأى تعجبي قال : بعيد « أن تفلحوا يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبي والله لقد أدركت أقواماً لا يعدون من حفظ كتاب سيبويه حافظاً ولا يرونه مجتهداً »، وتوفي أبو جعفر هذا في شهر صفر من سنة ٦١٠ عن ست وتسعين سنة، ولم يكن في الأندلس أعلى رواية منه في كل ما يروى؛ ولم ار قبله ولا بعده مع اتساع علمه وشدة تمييزه وحسن اختياره ومعرفته بعلل

هذه الصناعة أكثر إنصافاً منه ولا أسرع رجوعاً إلى الحق، قال المراكشي : كنت أنشده من شعري على ركاكته وكثرة تكلفه وبعده من الجودة أبياتاً لا أعدها شيئاً يحملني على إنشادها إياه فرط استدعائه ذلك مني فيلهج بها ويشتد استحسانه لها وربما درسها فحفظها، أنشدته يوماً وقد استدعى مني ذلك على عادته بيتين ارتجلتهما في شاب كان يقرأ معنا، كان شديد العفة مع حسن رائع وظرف ناصع كان اسمه فتحاً، هما :

يا من له عن كناس ... من المتيّم قلبه
ما أنت كاسمك فتح ... وإنما أنت قلبه

فطرب والتفت إلى ابنه وقال له : هذا والله الشعر لا ما تصدعني به طول نهارك إن كنت تقول مثل هذا وإلا فاسكت، فلما كان من الغد قال لي أعلمت ما صنع عصام أمس قلت لا قال كان كما قالوا في المثل : سكت ألفاً، ولم يزل أمس يعمل فكرته فبعد الجهد الشديد أخذ معنى بيتيك فسلبه روحه وأعدمه رونقه ومسخه جملة فقال :

سبي فؤادي خشف ... فقوتي اليوم ضعف
سموه فتحاً مجازاً ... وفي الحقيقة حتف

ما زاد أكثر من المجاز والحقيقة فقلت أنا : هذا والله أحسن من شعري، فتغير لي وقال يا بني دع عنك هذه العادة فإن أسوأ ما يخلق به الإنسان الملق وتزيين الباطل سيما إذا أضاف إلى ذلك الحلف الكاذب، والله إنك لتعلم أن هذا ليس بشيء وإلا فقد اختل ميزك وساء اختيارك، وما أظن هذا هكذا، وسمعته من شدة إنصافه يستحسن بيتين هجاه بهما صاحبنا على ابن خروف رحمه الله، وذلك أن الأستاذ كان يلقب بالوزغي وكان عنده شاب يقرأ عليه يلقب الغرنوق وهو اسم عندهم للكركي والفصيح فيه غرنيق، فكان بعض الطلبة يتهمون الأستاذ بالميل إلى ذلك الشاب، فقال ابن خروف في ذلك :

أحقاً سام أبرص ما سمعنا بأنك قد تعشقت ابن ماء
وكيف وأنت في الحيطان تمشي وذاك يطير في جو السماء

فأبعده الأستاذ وأنهى خبره إلى القاضي أبي الوليد بن رشد فأوجعه ضرباً وامتنع الأستاذ من قراءته عليه فحرمه الله بهذين البيتين فوائد علمه وأبعده عن مربع جنابه وولاه الأستاذ خطته وألقى حبله على غاربه، فلم يفلح ابن خروف بعدها ولا حصل على شيء من العلم، وإنما كان يعتمد فيما يأتي به على طبعه خاصة. وتوفي عام ٦١٠ هـ.

وكان يحفظ ديوان المتنبي، ويقول لمن يتعجب من حفظه : « لقد أدركت شيوخاً لا يعلمون من حفظ كتاب سيبويه حافظاً ».

— ٤ —

المعتصم بن صمادح :

لم يقتصر يوسف بن تاشفين ملك المرابطين على الاستيلاء على الأندلس عام ٤٨٤ هـ، وعلى نفي المعتمد بن عباد من إشبيلية في العام نفسه إلى المغرب الأقصى حيث مات منفياً مشرداً في أغمات عام ٤٨٧ هـ؛ بل أخرج كذلك المتوكل بن المظفر ملك بطليوس من ملكه وقتله عام ٤٨٥، وكان أبوه المظفر ـــ المتوفي عام ٤٦٠ هـ ـــ قد ملك بطليوس قبل ابنه المتوكل مدة طويلة ثم أخرج المرابطون كذلك المعتصم بن صمادح ملك المرية من ملكه عام ٤٨٤ هـ، وحينما كانت الأندلس في أمر مريج، زال عنها سلطان الخلافة فاضطربت. وفقدت رواسيها من بني أمية فمادت. وأصبحت كرقعة الشطرنج، يتغالب الملوك على كل بيت فيها، كل قوي يحوز ما وسع حوله وهمته، والعيش غلاب « والبر أوسع. والدنيا لمن غلبا ». ملك محمد بن أحمد بن صمادح التجيبي مدينة « وشقة »

بالأندلس. ثم ملك ابنه معن بن محمد مدينة (المرية[1]). وخلفه ابنه أبو يحيى المعتصم بالله وهو في سن الرابعة عشرة حيث نشأ في ملك ضيق الرقعة، فاستعاض منه سعة الخلق وبعد الهمة وحلية العلم والأدب والسخاء الشامل، والجود العميم، حتى طاول المعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف ونافسه. وقال أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حينما لقيهما بالأندلس « هذان رجلا هذه الجزيرة ». قال ابن خلكان :

« وكان رحب الفناء، جزيل العطاء، حليماً عن الدماء. طافت به الآمال واتسع في مدحه المقال، وأعملت إلى حضرته الرحال، ولزمه جماعة من فحول الشعراء ». وقال الفتح بن خاقان :

« ملك أقام سوق المعارف على ساقها، وأبدع في انتظام مجالسها واتساقها، وأوضح رسمها، وأثبت في جبين أيامه وسمها، لم تخل أيامه من مناظرة، ولا عمرت إلا بمذاكرة أو محاضرة. وكانت دولته مشرعاً للكرم، ومطلعاً للهمم؛ فلاحت بها شموس، وارتاحت فيها نفوس، ونفقت فيها أعلام الأعلام، وتدفقت بحار الكلام، كإجادة ابن عمار وإبداعه، في قوله معتذراً من وداعه :

أمعتصماً بالله والحرب ترتمي	بأبطالها والخيل بالخيل تلتقي
دعتني المطايا للرحيل وإنني	لأفرق من ذكر النوى والتفرق
وإني إذا غربت عنك فإنما	جبينك شمس والمرية مشرقي

وكان المعتصم ــ كالمعتمد بن عباد ــ شاعراً مجيداً، كتب إلى الوزير الشاعر ابن عمار :

وزهدني في الناس معرفتي بهم	وطول اختباري صاحبا بعد صاحب
فلم ترني الأيام خلا تسرني	مباديه إلا ساءني في العواقب
ولا قلت أرجوه لدفع ملمة	من الدهر إلا كان إحدى المصائب

(١) مدينة بالأندلس على ساحل البحر الرومي كانت قاعدة الأسطول الإسلامي.

وقد طوى الأمير أربعين عاماً في إمارته، شاع فيه ذكره، ونبه اسمه، وحلب الدهر أشطره، ورأى أحداثه وعبره. ثم حم القضاء، وبعث ابن تاشفين جنوده على ملوك الطوائف تثل عروشهم، وتعفي آثارهم، ولقي « رجلا الجزيرة » الصدمات الأولى، فدارت على المعتمد الدائرات، فإذا هو أسير أغمات[1]، وللمعتمد بن عباد قصة ملؤها العبرات والزفرات.

وعلم ابن صمادح بما أصاب صاحبه فملكه الغم، وناء به الحزن. وكان أسعد من صاحبه جداً، نجاه الموت من الإسار، وأنقذه الحمام من المذلة. « رب عيش أخف منه الحمام ». ولله ابن بسام حين يقول :

« وكان بين المعتصم وبين الله سريرة أسلفت له عند الحمام يداً مشكورة، فمات وليس بينه وبين حلول الفاقرة به إلا أيام يسيرة، في سلطانه وبلده، وبين أهله وولده ».

دع ما نمق الكتاب وأنشد الشعراء، ودع أربعين عاماً طواها الزمان كأنها أحلام، وانظر المعتصم ليلة الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة ـــ الليلة التي طلع عليه بالردى فجرها. فها هو ذا على فراش الموت في قصره بالمرية، ومعسكر ابن تاشفين على مقربة من المدينة، ترى خيامه، وتسمع ضوضاءه، ويسمع المعتصم وجبة من الجيش اللجب، والجند المصطخب، فيقول كأن لم ينعم بالملك والجاه أربعين عاماً :

« لا إله إلا الله، نغص علينا كل شيء حتى الموت ». قالت « أروى » إحدى جواريه : « فدمعت عيناي، فلا أنسى طرفاً إلي يرفعه، وإنشاده لي بصوت لا أكاد أسمعه » :

ترفق بدمعك لا تفنه ... فبين يديك بكاء طويل

---

(١) بلدة كانت وراء مراكش.

ما أشبه الليلة البارحة :

سقطت الأندلس في أيدي الإسبانيين، وخرت صريعة مضرجة بالدماء والأشلاء؛ أليست الأندلس مثل بغداد، وألم تسقط بغداد من قبل في أيدي التتار المخربين، كما سقطت الأندلس من بعد في أيدي الإسبان المدمرين.

ورثى الشعراء الأندلس حتى قبل النكبة، بمراث تفتت الأكباد وتستجلب الزفرات، كما رثى الشعراء بغداد، عاصمة الإسلام ودار السلام، فهذا الشيخ سعدي الشيرازي الشاعر الفارسي الكبير — الذي عده قومه أحد أنبياء الشعر الثلاثة، والآخران الفردوسي والأنوري. وهو طائر الصيت بكتابيه كلستان وبستان، وبديوانه وأشعاره الأخرى — يرثي بغداد وحضارتها.

روي أنه لما أغار التتار على بغداد في حياته رثى حاضرة الإسلام بقصيدتين : فارسية وعربية. وقصيدته العربية ليست على نسق شعره الفارسي بلاغة وإحكاماً، ولكنها قصيدة نادرة في موضوعها ومنها :

حبست بعيني المدامع لا تجري ... فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها ... تمنيت لو كانت تمر على قبري
لأن هلاك النفس عند أولي النهى ... أحب لهم من عيش منقبض الصدر
لزمت اصطباراً حيث كنت مفارقاً ... وهذا فراق لا يعالج بالصبر
ولا تسألن عما جرى يوم حصرهم ... فذلك مما ليس يدخل في الحصر
بكت جدر المستنصرية ندبة ... على العلماء الراسخين ذوي الحجر
نوائب دهر ليتني مت قبلها ... ولم أر عدوان السفيه على الحبر
محابر تبكي بعدهم بسوادها ... وبعض قلوب الناس أحلك من حبر
أيا ناصحي بالصبر دعني وزفرتي ... أموضع صبر والكبود على الجمر ؟
فجرت مياه العين فازددت حرقة ... كما احترقت جوف الدماميل بالفجر

فأين بنو العباس مفتخر الورى ذوو الخلق المرضي، والغرر الزهر؟
غدا سمراً بين الأنام حديثهم وذا سمر يدمي المسامع كالسمر
وفي الخبر المروي دين محمد يعود غريباً مثل مبتدإ الأمر
أأغرب من هذا يعود كما بدا وسبي ديار السلم في بلد الكفر ؟
فلا انحدرت بعد الخلائف دجلة وحافاتها لا أعشبت ورق الخضر
أتذكر في أعلى المنابر خطبة ومستعصم بالله لم يك في الذكر
محبة مشتاق وألف ترحم على الشهداء الطاهرين من الوزر
هنيئاً لهم كأس المنية مترعاً وما فيه عند الله من أعظم الأجر
فلا تحسبن الله مخلف وعده بأن لهم دار الكرامة والبشر
إلام تصاريف الزمان وجوره يكلفنا مالا نطيق من الأمر ؟
وسائر ملك يقتضيه زواله سوي الملكوت القائم الصمد الوتر

— ٦ —

الماضي الخالد :

لما فتح العرب الأندلس ساسوا أهلها سياسة رشيدة، بنيت على التسامح والعدل، وقامت على المساواة والإذعان للحق، وترفعت نفوسهم عن الدنايا، وعفت أيديهم عن أموال المغلوبين. ولم يمض إلا زمن يسير حتى تبين أثر العدل في حضارة البلاد ورقيها، وأخذ العرب في تخطيط المدن، وتشييد القصور، وحفر الترع، وإقامة الجسور، وبناء القناطر، وشق الخلج، وتهيئ الأرض للزراعة، وتعبيد الطرق، واستيراد كثير من الأشجار والنبات من مصر والشام والعراق؛ وجلبوا إليها من الشرق كل ما فيه من صناعات؛ وأقبل الأندلسيون عليها فأجادوها أيما إجادة. وأصبحت مدنهم الكبيرة غاصة بالعدد العظيم من الصناع، وجمعت قرطبة الشيء الكثير من مختلف المصنوعات، وأخذت ينابيع الثروة تتفجر في كل ناحية من نواحي البلاد.

واهتموا بنشر العلوم والفنون حتى نبغ كثير من العلماء في العلوم المختلفة : من دينية، ولسانية، وطبية، وزراعية، وطبيعية وفلسفية. وشملت العمارة جميع نواحيها، حتى كان المسافر في أوديتها وأنهارها لا يكاد ينقطع نظره عن القصور الفخمة، والبساتين المتصلة التي أملت على ابن خفاجة المتوفى سنة ٥٣٣هـ، قوله في وصفها :

يا أهل أنـــدلس، لله دركم ماء وظـل وأنهار وأشجـار
ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار
لاتحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

وكانت قرطبة ــ عاصمة الأندلس ــ زهرة البلاد في الغرب، كما كانت بغداد زهرتها في الشرق، وكانت الحواضر العظيمة ــ كالقاهرة ودمشق وبغداد ــ تحمل إليها ما اكتمل من صناعاتها، ونادر كتبها، ومختلف تحفها، لبيعها في أسواقها التي تكتظ بالأموال في أيدي النساء والرجال.

لذا كانت حضارة القوم تأخذ بطرف من حضارات هذه البلاد.

وكان بالأندلس أيام العرب أربع جامعات للطب بقرطبة وأشبيلية ومرسية وطليطلة، ومئات من المدارس والمعاهد قد اكتظت بالطلبة من جهات مختلفة. وقد تخرج في هذه المعاهد كثير من فحول العلماء في كل فن، أمثال ابن رشد في الفلسفة، وابن زهر في الطب، وابن فرناس في الرياضة، وابن زيدون وابن خفاجة في الأدب، وغير هؤلاء ممن يضيق المقام عن ذكرهم، ولا زلنا نقرأ أسماء من انتسب منهم إلى مدينته، كالقرطبي، والإشبيلي، والمالقي، والبطليوسي، والشاطبي؛ وكانت جامعة قرطبة في الغرب كمدرسة الإسكندرية في الشرق إبان عظمتها، يؤمها الطلاب من كل فج، حتى من بلاد الرومان واليونان[1]. ويعترف

(١) راجع الذخيرة لابن بسام الأندلسي المتوفى عام ٥٤٢هـ، ونفح الطيب للمقري م ١٠٤١هـ.

المصنفون من مؤرخي الإفرنج بما كان لحضارة العرب من أثر في مدنية اوربا الحديثة.

— ٨ —

شاعر يرثي الأندلس :

هذه القصيدة طبعها لأول مرة الأستاذ صوالح محمد بالجزائر سنة ١٩١٤، وذكر أن هذه القصيدة من جملة قصائد بعثت الى السلطان بايزيد العثماني بقصد الاستغاثة، ونشرت صحيفة الزهرة التونسية من قبل نتفاً منها، ومؤلف القصيدة مجهول، ويذكر المؤرخ المغربي السيد محمد ابن علي الدكالي السلوى أن صاحبها كما يفهم من القصيدة من مدينة المرية، ولعله أبو جعفر بن خاتمة، وقد تكون مذكورة في كتاب له يسمى مزية المرية الموجود منه نسخة خطية بمكتبة الأسكوريال :

أحقاً خبا من جو رندة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت ... منازلها ذات العلا وقصورها
أحقاً خليلي أن رندة أقفرت ... وأزعج عنها أهلها وعشيرها
وهدت مبانيها وثلت عروشها ... ودارت على قطب التفرق دورها
وكانت عقاباً لا ينال مطارها ... ومعقل عز زاحم النسر صورها
هوت رندة الغراء ثم حصونها ... وأنظارها شنعاء عز نظيرها
وقد كن عقداً زين القطر نظمها ... فقد فتح الآن البلاد نثيرها
وفرق شمل المؤمنين لهيبها ... وقطع من أرحامهم زمهريرها
تسلمها حزب الصليب وقادها ... وكانت شروداً لايقاد نفورها
وقد ذهبت أديانها ونفوسها ... وقد دثرت تحت السباء دثورها
فباد بها الإسلام حتى تقطعت ... مناسبها واستأصل الحق زورها
وأصبحت الصلبان قد عبدت بها ... تماثيلها دون الإله وصورها

لقرع النواقيس اعتلى بمنارها كرائه أصوات يروع صريرها
فيا ساكني تلك الديار كريمة سقى عهدكم مزن يصوب نميرها
أحقاً أخلائي القضاء أدباركم ودارت عليكم بالصروف دهورها
فقتل وأسر لا يفادي وفرقة لدى صرعات الحشر يأتي سفيرها
لعمر الهدى ما بالحشا لفراقكم سوى حرق سحم تلظى سعيرها
ولوعة ثكل ليس يذهب روعها ولا تنقضي اشجانها وزفيرها
ونفس على هذا المصاب حزينة يذوب كما ذاب الرصاص صبورها
وقلب صديع ماج فيه بلاؤه سويداؤه سوداء جم ثبورها
سأبكي وما يجدي على الفائت البكى بعبرة حزن ليس يرقى عبورها
شآبيب دمع بالدماء مشوبة يساجل قطر الغاديات درورها
عويلاً يوافي المشرقين بريحه وثكلا بأقمار قد أطفىء نورها
فواحسرتا كم من مساجد حولت وكانت إلى بيت الحرام شطورها
ووا أسفا كم من صوامع أوحشت؟! وقد كان معتاد الأذان يزورها
فمحرابها يشكو لمنبرها الجوى وآياتها تشكو الفراق وسورها
وكم من لسان كان فيها مرتل وحفل بختم الذكر تمضي شهورها
وكم من فتى ثبت الجنان مهذب يود المنايا وهو كان يريدها
يصول على الأبطال صولة ضيغم فيرهبه شبل الشرى وهصورها
له في سبيل الله خير نقيبة تزان لها عين الجنان وحورها
له في جناب الكفر أجدى نكاية وشعواء غارات يشاب مغيرها
يراع لها دين الصليب وحزبه ويخزى بها غنصارها ورميرها
وكم أنفس كانت لديه أسيرة فأضحى لعمر الله وهو أسيرها
تحكم فيه الشرك وهو موحد كما قد قضى جبارها ونذيرها
وكم طفلة حسناء فيها مصونة إذا سفرت يسبي العقول سفورها
تميل كغصن البان مالت به الصبا وقد زانها ديباجها وحريرها
فأضحت بأيدي الكافرين رهينة وقد هتكت بالرغم منها ستورها
وقد لطمت واحر قلبي خدودها وقد أسبلت وأدمع عيني شعورها

وإن تستغث بالله والدين لا تغث ... وإن تستجر ذا رحمة لا يجيرها

وقد حيل ما بين الشفيق وبينها ... وأسلمهــا آباؤهــا وعشيرهــا

وكم من عجوز يحرم الماء ظمؤها ... على الذل يطوي لبثها ومسيرها

وشيخ على الإسلام شابت شيوبه ... يمزق من بعد الوقـار قتيرهـا

وكم فيهم من مهجة ذات ضجة ... تود لو انضمت عليها قبورها

لها روعة من وقعة البين دائم ... أساها وعين لا يكف هديرها

وكم من صغير حيز من حجر أمه ... فأكبادها حراء لفح هجيرها

وكم من صغير بدل الدهر دينه ... وهل يتبع الشيطان إلا صغيرها

وكم من شقي يسرت هذه له ... سبيلاً إلى العسرى يحيف كفورها

كروب وأحزان يلين لها الصفا ... عــواقبها محذورة وشرورهــا

فيا فرحة القلب الذي عاش بعدها ... ويالعمى عين رآها بصيرها

ويا غربة الإسلام بين خلالها ... ويا عثرة أنى يقال عثورها

ويا ليت أمي لم تلدني وليتني ... بليت ولم يلفح فؤادي حرورها

وما خير عيش يعذب الموت دونه ... ويغبط قل الأهل فيه كثيرها

فيا ليت شعري بعد ماصح موتها ... أيرجى على رغم العداة نشورها

ويا ملة الإسلام هل لك عودة ... لأرجائها يشفي الصدور صدورها

وهل تسمع الآذان صوت الأذان في ... معالمها تعلو بذاك عقيرها

ويا لعزاء المؤمنين لفاقة ... على الرغم أغنى من لديها فقيرها

لأندلس ارتجت لها وتضعضعت ... وحق لديها محوها ودثورها

منــازلها مصــدورة وبطاحهــا ... مــدائنها موتــورة وثغورهــا

تهائمهــا مفجوعــة ونجودهــا ... وأحجارها مصدوعة وصخورها

وقد لبست ثوب الحداد ومزقت ... ملابس حسن كان يزهو حبورها

فأحياؤها تبدي الأسى وجمادها ... يكاد لفرط الحزن يبدو ضميرها

لو أن ذا إلف من البين هالك ... لذابت رواسيها وغاضت بحورها

على فرقة الدين الذي جاءها به ... بشير الأنام المصطفى ونذيرها

فمالقة الحسناء ثكلى أسيفة ... قد استفرغت ذبحاً وقتلاً حجورها

وجزت نواصيها وشلت يمينها — وبدل بالويل المبين سرورها
وقد كانت الغربية الجنن التي — تقيها فأضحى جنة الحرب سورها
وبلش قطت رجلها بيمينها — ومن سريان الداء بان قطورها
وضحت على تلك الثنيات حجرها — فأقفر مغناها وطاشت حجورها
وبالله إن جئت المنكب فاعتبر — فقد خف ناديها وجف نضيرها
وسكرها قد بدل اليوم علقما — لها رجة، نار الهيام تثيرها
وعرج على الإقليم فابك ربوعها — بسحب يضاهي المعصرات خريرها
وودع بها وفد النعيم فإنها — لها أدمع نهر الدموع يميرها
ألا ولتقف ركب الأسى بمعالم — قد ارتج باديها وضج حضورها
بدار العلى حيث الصفات كأنها — من الخلد والمأوى غدت تستطيرها
محل قرار الملك غرناطةالتي — هي الحضرة العليا زهتها زهورها
فما في العراقين العتيقين مثلها — ولا في بلاد الله طراً نظيرها
ترى الأسى أعلامها وهي خشع — ومنبرها مستعبر وسيرها
ومأمومها ساهي الحجى وإمامها — وزائرها في مأتم ومزورها
لها حال نفس قد أصيب فؤادها — وبتت لها اليمنى وحم ثبورها
فأنفسها في الصعق دون إفاقة — كنفس كليم الله إذ دك طورها
وقد ذعرت تلك البنيات حولها — فهن بواكي الأعين الرمد مورها
وقد رجفت وادي الأشى فبقاعها — سكارى وما استاكت بخمر ثغورها
لقد أظلمت حتى لفرط حدادها — سواء بها نجل العيون وعورها
وبسطة ذات البسط ما شعرت بما — دهاها وأنى يستقيم شعورها
على عظم بلواها وطول وبالها — وما كابدت من ذا المصاب نحورها
وما أنس لا أنس المرية إنها — قتيلة أوجال أزيل عذارها
فلو أحرق الثكل المصابين أصبحت — تأجج من حر الوجيف بحورها
فيا أصدقائي ودعوها كريمة — أو استودعوها من إليه أمورها
منازل آبائي الكرام ومنشئي — وأول أوطان غذاني خيرها
وأقروا عليها من سلامي تحية — تجددها آصالها وبكورها

أماناتها ضاعت فضاعت رقابها ... لقد عميت عين تبدد نورها
أضعنا حقوق الرب حتى أضاعنا ... وقضت عرى الإسلام إلا يسيرها
وملتنا لم نعرف الدهر عرفها ... من النكر فانظر كيف كان نكيرها
بما قد كسبنا نالنا ما أنالنا ... كذى السيرة السوأى لدى من يسيرها
بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا ... وبؤنا بأحوال ذميم حضورها
بعصياننا استولى علينا عدونا ... وعاثت بنا أسد العدا ونمورها
نعم سلبوا أوطاننا ونفوسنا ... وأموالنا فيئاً أبيحت وفورها
علوها بلا مهر وما غمزت لهم ... قناة ولا غارت عليهم ذكورها
وقد عوت الافرنج من كل شاهق ... علينا فوفت للصليب نذورها
وقد كشرت ذؤبانها وكلابها ... وقد كسرت عقبانها ونسورها
وجاءت إلى استئصال شأفة ديننا ... جيوش كموج البحر هبت دبورها
علامات أخذ مالنا قبل بها ... جنايات أخذ قد جناها مثيرها
فلا تمحى إلا بمحو أصولها ... ولا تنجلي حتى تخط أصورها
معاشر أهل الدين هبوا لصعقة ... وصاعقة وارى الجسوم ظهورها
أصابت منار الدين فانهد ركنه ... وزعزع من أكنافه مستطيرها
أدارت على غربية الدهر أكؤساً ... فظاعاً بسكر الدهر تقضي خمورها
ودبت أفاعيها إلى كل مؤمن ... وعض بأكباد التقاة عقورها
أنادي لها عجم الرجال وعربها ... نداء سراة القفر إذ ضل عيرها
وأستنفر الأدنى فالأدنى فريضة ... على زمر الإسلام جلت أجورها
على كل محتاج لفضل دفاعها ... فليس يؤدي الفرض إلا نفيرها
ألا وارجعوا يا آل دين محمد ... إلى الله يغفر ما اجترحتم غفورها
أنيبوا وتوبوا واصبروا وتصدقوا ... وردوا ظلامات يبيد نقيرها
ومن كل ما يردي النفوس تطهروا ... فليس يزكي النفس إلا طهورها
ألا واستعدوا للجهاد عزائماً ... يلوح على ليل الوغى مستنيرها
بأسد على جرد من الخيل سبق ... يدع الأعادي سبقها وزئيرها
بأنفس صدق موقنات بأنها ... الى الله من تحت السيوف مصيرها

تروم إلى دار السلام عرائساً … على الله في ذاك النعيم مهورها
وضرب كأن الهام تحت ظلالها … حثالة نور الورد ذر ذرورها
وطعن يرى الخطي في مهج العدا … كاقلام ذات الخط خطت سطورها
يمين هدى إن تتقوا الله تنصروا … وتحظوا بآمال يشوق غريرها
فلا يخذل الرب المهيمن أمة … تدين بدين الحق وهو نصيرها
وان أنتم لم تفعلوا فترقبوا … بوادر سخط ليس يرجى فتورها
وأيام ذل واهتضام وفرقة … يطاول آناء الزمان قصيرها
وأهدوا لدين الشرك كل خريدة … خبتها على طول الليالي خدورها
وكل نفيس من نفوس كريمة … وأعلاق أموال خطير خطيرها
وحق العظيم الشأن لا عيش بعدها … بلايا يمر الطيبات مرورها
فترفع شكواها لعالم سرها … فليس لها في الخبر إلا خبيرها
نمد أكف الذل في باب عزه … بافئدة خوف الفراق يطيرها
فإن لم يقل رب العباد عثارنا … فهذا العدو الضخم حتماً يبيرها
إله الورى ندعوك يا خير مرتجى … لكالحة هز الصليب سرورها
وشقت جيوب المؤمنين وأسخنت … عيونهم والكفر ظل قريرها
وليس لها يا كاشف الكرب ملجأ … إذا لم يكن منك التلافي ظهيرها
أغث دعوات المستغيثين إنهم … ببابك موقوفو الحشاشات، بورها
وليس لهم إلا الرسول وسيلة … شفيع الورى يوم التنادي بشيرها
إمام الهدى بحر الندى قامع العدا … وأول رسل الله فضلاً أخيرها
محمد المختار من آل هاشم … سراج السموات العلى ومنيرها
دعوناك، أملناك، جئناك خشعاً … بأنفس استولى عليها قصورها
بجاه العظيم الجاه أدرك ذماءنا … برحمى يحلى المؤمنين شذورها
وعفو وتأييد ونصر مؤزر … وعزة سلطان يروق طريرها
ولطف وتسديد وجبر لما مضى … يدال به من كل عاد كسيرها
وارسل على هذا العدو رزية … يروح ويغدو بالبوار مبيرها
يشتت شمل الكفر تشتيت نقمة … وينظم شمل المؤمنين حصيرها

وصـــلّ على خير البريـــة أحمد   وأكرم من قـد أنجبتـه ظهورهـا
وأصحابـه الشـهب الهداة وآلـه   صلاة مع الآنـاء يزكـو عبيرهـا

ويبدو من هذه القصيدة أن صاحبها من المرية[1]، وأنها نظمت بعد سقوط غرناطة... ولما اشتدت حركة محاكم التفتيش في إسبانيا، أرسل بعض المسلمين في الأندلس إلى السلطان بايزيد الثاني نحو عام ١٥٠٥م رسالة سجلها المقري في مؤلفه أزهار الرياض، ويبدو على القصيدة أنها نظمت بعد سقوط الأندلس نحو سنة ١٥٠٠م ــ ٩٠٩هـ، حينما قام الإسبان بأول محاولة لتنصير المسلمين؛ وقرر مجلس الدولة أن يفرض التنصر على المسلمين عام ٩٠٤هـ ــ ١٤٩٩م.

ــ ٨ ــ

شاعر يصف آثار الأندلس :

وقد زار إسبانيا عام ١٩٥٢ الأديب الشاعر جورج صيدح، ووصف معالم الآثار الأندلسية، فقال فيما قال :

في قرطبة : عاصمة الدولة العربية الأولى، يقوم الجامع الأكبر على انقاض كنيسة عظيمة استولى العرب على نصفها يوم فتحوا المدينة وتركوا النصف الثاني للمسيحيين حتي يتيسر للفريقين القيام بشعائر الدين. روى لنا الدليل أن عبد الرحمن الداخل عندما أسس الخلافة الأموية في قرطبة

---

(١) سقطت مدينة « رندة » في أيدي الإسبان عام ٨٩٠هـ ــ ١٤٨٥م، وسقطت بعدها مالقة في شعبان ٨٩٢هـ ــ ١٤٨٧م، ووادي آش والمرية والمنكب في آخر ٨٩٤هـ ــ ١٤٨٩ م، وبسطة في المحرم ٨٩٥هـ ــ ديسمبر ١٤٨٩، ثم سقطت بعدها في صفر ٨٩٧هـ ــ ديسمبر ١٤٩١م، ودخلها فرديناند في الثاني من ربيع الأول ٨٩٧هـ ــ ٢ يناير ١٤٩٢م.

حاول ضم القسم المسيحي إلى القسم الإسلامي وتشييد جامع جديد يليق بمقام الخلافة، فعارضه المسيحيون واشترطوا عليه وهو الفاتح الحاكم بأمره، أن يعوضهم مالاً يكفي لبناء كنيسة جديدة؛ وأن يجدد بناء جميع الكنائس التي تهدمت أثناء الحرب، فقبل عبد الرحمن شروطهم ووفى بها. ثم شرع في بناء الجامع الذي نراه اليوم بروعته الفذة وهندسته العجيبة. يقوم على ألف ومائة عمود، وفي خلالها يسجد ستة عشر ألف مصل فلا تحجب عن نظرهم المحراب. أما بعد جلاء العرب عن المدينة فقد عمد الملكان فرديناند وشارلكنت إلى بث المذابح والتماثيل في بهو الجامع وجدرانه، وإلى اقتلاع الأعمدة المواجهة للمحراب ليحل هيكل عال محلها. وأرانا الدليل ونحن على ضفة وادي الكبير ثلاث طواحين قائمة في عرض النهر تعرقل سير المراكب فيه، وقال لنا إن الخليفة الحكم فاوض أصحابها على شرائها منهم لهدمها فلم يقبلوا، وبقيت الطواحين في مكانها إلى اليوم. ثم ذكر لنا أن سبعين مكتبة عمومية كانت في قرطبة في عهد العرب أقفلت وأغفلت بعد ذهابهم. هذه المكاتب مضافة الى الجامعة الشهيرة التى أسسها عبد الرحمن في القرن الثامن، جعلت من قرطبة مركز الإشعاع العلمي، ونقطة دائرة المعارف العالمية.

وفي إشبيلية : أكبر مدينة أندلسية، خيل لنا فيها أن الجو يتنفس عن ورود الشام، وأن النسيم يترنح على نغمات العود والكمان، رنات الطقاطيق (الكاستانويلا) لم تفارق أسماعنا في الأسواق والحدائق نهاراً، وفي الحارات والمقاهي ليلاً، الغناء ذو لهجة شجية مأخوذة عن الموال العربي وحلقات الرقص لا تختلف كثيراً عن حلقات الدبكة. يقول المؤرخون في كتبهم : من لم ير إشبيلية لم ير شيئاً، ويقول الدليل : إن مات عالم في إشبيلية لا يوجد مشتر لكتبه إلا في قرطبة، وان مات مغن في قرطبة لا يوجد من يشتري آلات الطرب من ورثته إلا في إشبيلية.

وفي طليطلة : وهي إحدى مفاخر العرب، لم نجد من آثارها إلا

كنيساً لليهود أبينا دخوله، وأطلال القصر الحصين (الكاسار) الذي خربته قنابل الجمهوريين في حربهم مع الجنرال فرانكو؛ ولم يزل يتداعى وينذر الزائرين بالخطر، ثم الكنيسة الكبرى أو الجامع الفخم سابقاً، فزرناها فاسترعى انتباهنا طائفة من التماثيل تحدق بالمذبح في صدر الكنيسة، وتمثل الباباوات الأولين ما عدا واحداً منها يمثل شيخاً لابساً عمامة وجبة عربية، قال لنا الدليل إنه تمثال الفقيه أبي الوليد، وقصته تتلخص في أن جمهوراً من المسيحيين طرقوا الجامع ذات ليلة وعبثوا بزينته ما استطاعوا، فجاءهم الحاكم العربي بخيله ورجله ليؤدبهم بحد السيف ويبيدهم عن بكرة أبيهم، فوقف الفقيه أبو الوليد في وجهه، ينصحه ويسترضيه مقدماً رأسه كفارة، عن المذنبين، حتى رق الحاكم وعدل عن الانتقام، فحقنت الدماء، وأصبح الفقيه قديساً في نظر المسيحيين يحق له المثول في الهيكل، بين الباباوات.

وفي مدريد : التي تسلمها العرب قرية حقيرة وسلموها مدينة عظيمة الشأن كاتدرائية تدعى « سيدة المد » وأصل التسمية هو أن ملك « كاستيا » عندما أجلى العرب عن المدينة وجد في قصر ملكهم مداً نقش عليه رسم العذراء، فبنى الكنيسة تخليداً لذلك الرسم، وجعل من عذراء المد شفيعة عاصمته.

وفي غرناطة : عاصمة العرب الأخيرة، قال لنا الدليل ونحن نخبط الطريق صعداً إلى جبال الثلج (سييرانيفادا) المشرفة على قصر الحمراء : كان العرب أول من تسلقوا هذه الشاهقات، وافتتحوا خزانات الثلوج الأبدية فيها، هم الذين أجروا المياه في قنوات تهبط منها إلى السهول، ولولاهم لما عرفت الأندلس الخصب في مزارعها، والأزهار في حدائقها، والنوافير في قصر الحمراء. أمامكم عروس المدائن الأندلسية تحرسها من أعلى الروابي قصور الملوك والقواد وقلاعهم، صمدت لهجمات الإسبان مائتين وستين عاماً بعد سقوط قرطبة، ثم دانت لهم فنكلوا بآثارها الفخمة

حسداً وانتقاماً، وجردوا الحمراء من الكثير من زخرفها. وعمد شارلكنت إلى تشييد قصر الى جانبها يزيدها ارتفاعاً، ولكنه فارق الحياة قبل استكمال البناء. ثم أشار الدليل الى معالم الحمامات العربية (أسماها تركية) التي انتشرت من ألف عام؛ فتذكرت كلمة الدكتور فيليب حتي : « كان الاستحمام أمراً مألوفاً في غرناطة يوم كان محظوراً على طلاب جامعة اكسفورد، لاعتباره خطراً على صحة أجسامهم ».

وفي القرى : في طريقنا الى الجزيرة، وهي أول مدينة وطأتها أقدام العرب بعد جبل طارق، أومأ الدليل إلى قرية « التعريفة » وإلى مناعة أسوارها، التي قاومت الفاتحين فحاصروها، وفي أثناء الحصار وقع ابن حاكمها الإسباني أسيراً في يد العرب، فحمله القائد العربي إلى مدخل السور ونادى بأبيه ان يستسلم أو يشهد ذبح ولده بعينه، فكان جواب الأب أن ألقى بخنجره إلى القائد العربي قائلاً : « اذبحه بهذا إن أعوزك السلاح » فعفا القائد عن الولد، وافتتح القرية عنوة بعد أيام. وعلى ذكر البطولة، روى لنا الدليل أن هناك قرية أسماها العرب « الحاقة » امتنعت عليه رغم قربها من قلاعها الحصينة في بلد الوسقة، حاصرها العرب حتى أفنوا رجالها فلم تستسلم، بل هرع النساء والأولاد إلى الأسوار يحمونها بأجسادهم. فرفق بهم الفاتحون وتركوا القرية وشأنها. وما أكثر الحكايات التي يتناقلها الشعب من هذا الطراز تمجيداً لذكرى العرب. إن السائح العربي ليشعر أنه في بيته القديم عندما يمر بقرى ودساكر هذه أسماؤها : الباسطة (فيها صناعة المدي والخناجر العربية)، قلعة النهر (حيث ولد سرفنتس)، الكوة (حيث الكروم وأحراج الزيتون)، الميرة (عكاظ الأدب والشعر)، الإبر (حيث مغازل الأنسجة الدمشقية)، القنطرة، القانص، الخائن، السيرة، الهامة، الغوطة، المنكر، قلعة أيوب، الروضة، طيف الله، وادي الحجارة، وادي اللب، وادي الرامة، وادي الكبير، وهلم جرا. وبمناسبة الأسماء العربية لي ملاحظة

على قصر الحمراء : إن اسمه بالإسبانية وفي جميع اللغات اللاتينية « الامبرا » بإضافة حرف الباء على الكلمة العربية، وليس « الأمرا » كما يلفظ الأجانب كلمة الحمراء. ألا يكون هذا الاسم الحقيقي « العنبرة » ؟ يؤيد هذا الظن أن لا وجود للون الأحمر في داخل القصر، بل كل جدرانه وسقوفه وزخارفه بلون العنبر.

— ٩ —

ويصف « واشنجتن ارفنج » روائع الفن العربي في قصر الحمراء فيقول :

كان أجمل ما في غرناطة، في عهد الامبراطورية العربية الإسبانية — كما لا يزال إلى اليوم — القصر الملكي أو حصن « الحمراء »، وقصرها الذي أنشأه محمد أبو الأحمر بن نصر، ويلقب بالغالب بالله، ثاني ملوك غرناطة الذي وفى نفقات إنشائها من ضريبة فرضها على الرعايا المغلوبين. وكان يشرف على البناء بنفسه. وعندما أتمه جعله مقاماً ملكياً. وقد حصن هذا الملك السعيد الجد الجبل الذي تقوم عليه. وخلال مدة حكمه كلها وقف جزءاً وفيراً من ثرواته على تحسينها والبلوغ بها مبلغ الكمال.

وأغرم خلفا أبي عبدالله كل الغرام بزخرفة « الحمراء » أو إضافة أشياء إليها ولا سيما محمد الثاني، وحفيده محمد الثالث. وقد أنشأ هذا الملك مسجداً على فن معماري جميل، أنفق عليه نفقات واسعة، وجمله تجميلاً بالفسيفساء، وجعل سقفه تعتمد على أعمدة كثيرة بديعة الصنع، تيجانها وقواعدها من الفضة. والأمير الذي أتم هذا القصر هو يوسف بن اسماعيل ابن فرج، ويلقب بأبي الحجاج. وقد حكم من سنة ٧٣٢ هـ إلى سنة ٧٥٥هـ (١٣٣١ — ١٣٥٤م). وكان آخر ما عمله في الحمراء البرج المربع. وهو الآن المدخل الأكبر الحالي للقلعة، وتدل النقوش التي عليه على أنه أنشئ سنة ١٣٤٨ م.

ويقوم قصر « الحمراء » فوق الحافة الشمالية لتل يطل على منظر ممتد فوق ريف جميل، ويسمو بطلعته الجليلة فوق مدينة غرناطة. وقد تقوضت جوانبه التي تواجه القلعة تقويضاً، أو أتخمت بمبان حديثة حتى لم يعد ظاهراً إلا قلة قليلة من آثار الجدران الخارجية، ولكن البقايا الداخلية من القصر على حال لا بأس بها، تعطي صورة واضحة عن عظمة رائعة لملوكها السابقين. وقد خطت قاعاته على أن تكون سلسلة متصلة من الأجنحة، كلها في مستوى واحد. ومن المحقق أنها كانت في حالها الأولى ساحرة فاتنة. فالردهات والقاعات والسقائف والعمد والعقود والفسيفساء والنباتات والأزهار البلسمية المختلفة الألوان... كل ذلك تراه خلال سديم رشاش النافورات. ومع أن العرب لم يكونوا على علم بالمنظور إلا أن مشاهدهم المعمارية كانت بحق ساحرة تفتن الأنظار، وأحكم إعدادها حتى ليبدو البناء الصغير أكبر مما هو عليه. واستعاضوا عن تلك الأعمال الفنية القديمة الغالية بأن جملوا قاعاتهم وحريمهم بمظاهر الطبيعة البسيطة.

والماء موفور في كل ناحية بالقصر، زمام أمره في أيديهم، يصعدون به أو يهبطون. وحيناً يجلونه للعيون، وحيناً يخفونه حسبما يريدون. وأحياناً يفجرونه في الهواء يبدد وخيم الأبخرة السابحة في الفضاء، ويحيل جفاف الطقس رخاء. وأحياناً أخرى ينشرونه في وسط القاعة، صفحة مستطيلة تبدو عليها مناظر الأبنية والنافورات والأشكال، ثم السماء بزرقتها الصافية. وقد جملت الحافة بأعلام من المرمر الأبيض، تضم أحواضاً طويلة من الأزهار نسقت على الجانبين. ينساب فيها جدول جار لا ينقطع حتى ينتهي إلى طرف من أطرافها ثم يخرج من طرف آخر، تاركاً السطح المستوي استواء البلاط ناعماً، وكأنه تلك الأرض الزجاجية من ردهة الاستقبال التي تلقى فيها سليمان ملكة سبأ.

وفي كل جناح يجري تياران من الهواء في غير انقطاع، فهناك كوات قريبة السقف يخرج منها الهواء الساخن الفاسد، الذي يطرده الهواء النقي

أسفل منه إلى أعلى. وبتلك الأنابيب المبثوثة في الجدران، التي هي أشبه بالأقبية تحت الأرض، ينتشر الدفء لا في هذه الحمامات المصطفة وحدها بل في كل الأجنحة العليا المجاورة، التي تعوزها الحرارة. والأبواب في العادة كبيرة بنيت إلى الداخل قليلاً، اللهم إلا في جانب البناء تجاه الوهدة حيث المنظر جيد عظيم، فقد وضعت النوافذ لتجعل نظر الناظر لا يعدو ما في داخل القصر.

وإن الزخارف العربية، والطلاء والفسيفساء، التي تم صنعها في حرص ودقة، تدلنا على عنايتهم واهتمامهم حتى بالأجنحة الصغيرة، فبدلاً من أن يغطوا الجدران بالورق أو بالخشب فقد غشوها بالزخرفة العربية التي صبت في قوالب على هيئة فريدة، ثم ضم بعضها إلى بعض على حال لا يظهر أثر الانفصال. وهذه الزينات المنعطفة ملونة في تدريج سليم بالذهبي الناصل ثم الأزرق الصافي ثم الأرجواني القاتم. وأول الألوان أقربها وآخرها أبعدها من العين. ولكن السطح في عامته أبيض.

والكثرة من أعمال النحت التي تبدو غير مستوية في بروزها تثير البلبلة، لذا تنزهوا عن ذلك الخطأ في ذلك المكان حيث الحليات قد صنعت حفراً كما أن عددها الذي لا يحصى يثير في النفس شعوراً بلا نهائية. أما في الخارج حيث يضطرون إلى الأشياء البارزة، فيلاحظ أن خط التسلسل يكون متسقاً في كل مجموعة ذات نسق بين. وكذلك القباب والمقنطرات صنعت من حليات مصبوبة، تكان تكون في خفة الخشب وفي صلابة المرمر. والجزء الأدنى من الجدران على ارتفاع يقرب من أربعة أقدام، مغطى بالفسيفساء الخزفية ذات الأشكال والألوان المختلفة. ويتبين لنا من قليل القطع التي بقيت فيه أن أرض الأجنحة وأعمدتها كانت هي الأخرى مغطاة بفسيفساء من هذا الطراز.

ومن أعجب ما في « الحمراء » قاعة البركة، وهي قاعة فسيحة، رصفت أرضها بالمرمر الأبيض، وزين كل ركن منها برواق ذي أعمدة، وفي

وسطها حوض للسمك زخرف بالأسماك الذهبية، طوله ١٣٠ قدماً وعرضه ٣٠ قدماً، وقامت على حوافه وشائع الورود. وفي الطرف الأعلى يطل برج قمارش الكبير وهو أحد الأبراج العظيمة المجاورة للقصر. وقد سمي باسم مهندسه العربي الذي أبدع هندسته، وجعله يزهى على سائر الأبراج على الرغم من جمالها الفتان.

وهناك قاعة الأسود وبها الاثنا عشر أسداً لا تزال ناهضة ترسل من أفواهها المياه البللورية. وقد زودت بأحواض الزهر، وأحيطت بالأروقة ذات الأعمدة. ويواجه هذه القاعات قاعة بني سراج التي سميت باسم ذلك النفر من الفرسان الأبطال الذي قتلوا فيها غيلة بأيدي الافرنج.

— ١٠ —

ويصف باحث[١] مدينة قرطبة بأنها كانت تعد من المدن العالمية المهمة، وكانت أعظم مدن الأندلس جميعاً، سواء بأبنيتها الجميلة الفخمة، أم بدور كتبها الكثيرة الواسعة، أم بحدائقها وبساتينها البديعة، وقد اتخذها عبد الرحمن الداخل عاصمة له، وشيد فيها القصور والحدائق والأبنية والمساجد، ولا سيما الجامع المعروف « بجامع قرطبة » وظلت عاصمة الأندلس حتى زمن عبد الرحمن الناصر، ثامن ملوك بني أمية هناك، إذ أنشأ على مقربة منها مدينة الزهراء المشهورة، وجعلها عاصمة له بدلاً منها، وفي عهد الحكم المستنصر ازدهرت البلاد ازدهاراً عظيماً، وكثرت دور الكتب والمدارس وانتشرت العلوم والآداب بين طبقات الأمة، وكان لقرطبة النصيب الأوفر من عنايته، حتى لقد عين أخاه الأمير عبد العزيز مديراً لإحدى مكتبات (دور كتب) تلك المدينة

(١) هو الأستاذ الناصري من مقالة نشرت في مجلة الرسالة.

العظيمة، ثم جاء هشام الثاني، فعجز عن إدارة المملكة، وتدخل أرباب المصالح، والمطامع في أمورها، وكانت النتيجة انفصال الأقاليم واستقلالها، ومن جملتها « قرطبة » إذ استقلت سنة ٤٢١هـ ١٠٢٩م، واستولى عليها « أبو الحزم بن محمد بن جهور »، وأسس الدولة الجهورية فيها (٤٢٢ هـ ـــ ١٠٣٠ م)، ولما مات (٤٣٥ هـ ـــ ١٠٤٣ م) تولى الأمر بعده ابنه « أبو الوليد محمد بن جهور »، ثم توفي وخلفه ابنه عبد الملك بن محمد، فكرهته الرعية لسوء معاملته لهم، ثم خلعوه وأخرجوه من قرطبة (٤٦١هـ)، متحدين مع جيش محمد بن عباد، وبسقوطه انقرضت دولة بني جهور، ومنذ ذلك الوقت بدأت قرطبة في التأخر، وفي سنة ١٢٣٦م استولى عليها الافرنج، وطردوا أهلها، واتخذوها حصناً على حدود مملكتهم وهي الآن من المدن الصغيرة، ويبلغ عدد نفوسها (٨٠٠٠٠) نسبمة.

أما في تلك العصور الزاهرة، فكان عدد نفوسها يربو على المليون، وكلهم يعيشون في خفض من العيش ورفاهية وسعادة، ومما ساعدهم على تلك الرفاهية إتقانهم لفنون وصنائع كثيرة، وزيادة نسبة المتعلمين والمثقفين بينهم كما كان الحال في باقي المدن الأندلسية المتوسطة والكبيرة، فاشتهرت غرناطة بجودة حريرها، وطليطلة بتفننها في صنع الأسلحة، وقونقة بجوخها الأخضر والأزرق، وقرطبة بصناعة السروج ودباغة الجلود الخ. وكان في قرطبة مصانع كثيرة مختلفة، تصدر أنواع السلع الأخرى إلى المدن الأندلسية، وإلى خارج البلاد أيضاً..

ونقل صاحب نفح الطيب عن ابن سعيد مؤلف الحلة المذهبة في مملكة قرطبة : « أن عرب قرطبة كانوا يتفاخرون بثلاث : بأصالة البيت، وبالجندية، وبالعلم. قال : وهي أكثر بلاد الأندلس كتباً، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك من آلات التعين والرياسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون له معرفة، يحتفل أن تكون في بيته خزانة

كتب، ويحتفظ بها، ليس إلا أن يقول : عندي خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس عند غيري والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصته وظفرت به.. ».

وكان فيها مكتبات كثيرة وكبيرة، تحوي أثمن الكتب وأجلها وأفضلها، ولهذا فاق القرطبيون غيرهم من أهل الأندلس والأقطار الأخرى، بكثرة علمائهم وأدبائهم، وبشدة إقبالهم على التعليم والتثقف، وعلى حبهم للعلماء واحترامهم لهم، ولصناعة العلم والأدب.

وكان للحكم الثاني في قرطبة مكتبة، فيها ستمائة ألف كتاب لها أربعة وأربعون فهرساً، في كل فهرس ٢٠ ورقة لأسماء الدواوين فقط!!. ويقول جستاف لوبون ــ بهذه المناسبة : إن شارل الحكيم الذي تولى أمر فرنسا بعد خلافة الحكم بأربعمائة سنة (١٣٦٤م) بذل جهده في أن يجمع أكبر عدد ممكن من الكتب للمكتبة الأهلية بباريس ــ حين أسسها ــ ولكنه لم يستطع أن يجمع أكثر من تسعمائة مجلد ثلثها دينية !..

وكانت الكتب تردها من بغداد ودمشق وخراسان والآستانة، وكان فيها ٨٠ مدرسة جامعة، يقصدها طلاب العلم الراقي والأدب الرفيع من أنحاء العالم المختلفة، ومنهم البابا سلفستر الثاني، وكان قد ذهب إلى اشبيلية، فدرس فيها زمناً، ثم إلى قرطبة، وذلك قبل أن يصبح بابا (٩٩٩م)، وكان يسمى قبلاً الراهب جربرت، وممن تخرجوا في جامعات قرطبة، بطرس فنرابل، وقسيس كولوني، وكذلك « شانجه » ملك ليون، وغيرهم كثيرون من الأوربيين الذين نذهب إلى جامعاتهم التي حلت محل الجامعات العربية.

وكان في قرطبة علماء وأدباء وفضلاء كثيرون، نذكر منهم، أبو بكر يحيى بن سعدون الأزدي القرطبي، الملقب « بصائن الدين »، وهو أحد الأئمة المتأخرين في القراءات، وعلوم القرآن، والحديث، والنحو،

واللغة الخ. ولد بقرطبة (٤٨٦) ومات بالموصل (٥٦٧هـ). وأبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف المعروف « بابن الفرضي ». وكان فقيهاً عالماً، من مؤلفاته (تاريخ علماء الأندلس) و المختلف والمؤتلف) و (أخبار شعراء الأندلس)، وقد ولد سنة ٣٥١هـ. وقتله البربر يوم فتح قرطبة سنة ٤٢٢هـ. وابن زيدون ولد سنة ٣٩٤هـ. ومات باشبيلية سنة ٤٦٣هـ. وأحمد بن محمد عبد البر، من موالي بني أمية، وله كتاب في الفقهاء بقرطبة ومات مسجوناً. ومنهم : أحمد بن محمد ابن موسى، له مؤلفات كثيرة من أخبار الأندلس، توفي في ١٢ رجب سنة ٣٤٤هـ. وولد في ١٠ من ذي الحجة سنة ٢٧٤.

وخالد بن سعيد القرطبي : أحد أئمة الأندلس، مات فجأة في سنة ٣٥٢هـ في الستين من عمره، وحسن بن الوليد بن نصر، وابن الدباغ الأزدي، وغيرهم... وغيرهم...

وتقع قرطبة على الشاطىء الغربي من نهر الوادي الكبير، وبينها وبين البحر خمسة أيام، وذكر ياقوت الحموي في معجمه أنها كانت « أعظم مدينة في الأندلس، وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقة، ويقال إنها كأحد جانبي بغداد، وإن لم تكن كذلك فهي قريبة منها، وهي حصينة بسور من حجارة، ولها بابان مشرعان في نفس السور الى طريق الوادي من الرصافة ـــ والرصافة مساكن أعالي البلد متصلة بأسافله من ربضها وأبنيتها، مشتبكة محيطة من شرقيها وشماليها وغربيها وجنوبيها، فهو إلى واديها وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع ومساكن العامة بربضها... ».

وكان طول قرطبة أربعة وعشرين ميلاً، وعرضها ستة أميال « وكان عدد أرباضها ٢١ ربضاً، في كل ربض من المساجد والأسواق ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره، وكان بخارج قرطبة ثلاث آلاف قرية، في كل واحدة منها منبر وفقيه ».

وكان فيها (٢٠٠،٠٠٠) بيت و (٦٠٠) مسجد و (٥٠) مستشفى و (٩٠٠) حمام سوقي، فضلاً عن الثمانين مدرسة التي ذكرناها، وكان فيها قنطرة طولها ٨٠٠ ذراع وارتفاعها ٦٠ ذراع وعرضها ٢٠ ذراعاً، وفيها ثماني عشرة حنية وتسعة عشر برجاً.

وقد تنافس الخلفاء والأمويون في تعمير هذه المدينة وتزيينها وتجميلها، فبنى عبد الرحمن الداخل (القصر الكبير) وجعله مقراً له، وشيد المنصور ابن أبي عامر قصر الزهراء سنة ٣٦٠ على نهر الوادي الكبير، وانتقل إليه سنة (٣٧٠هـ)، وبنى باقي الملوك والوزراء والعظماء قصوراً كثيرة نذكر منها : الحائر، الروضة، المعشوق، المبارك، التاج، السرور الخ...

ولكن أعظم بنايات قرطبة، بل الأندلس كلها : المسجد الجامع، الذي شيده عبد الرحمن الداخل، وكان في الأصل كنيسة فأعجبه موقعها فأخذها من النصارى مقابل أموال وأراض كثيرة.

وكان جامع قرطبة آية من آيات الفن العربي، ودليل قاطع على علو كعب العرب في النقش والبناء، وبرهان ساطع على سمو الذوق العربي، والمقدرة الفنية العربية. ولم يكن يضاهيه من المساجد والقصور في ذلك العصر سوى الجامع الأموي بدمشق، وليس من السهل وصف عظمة جامع قرطبة وتصويره للقارئ وصفاً وتصويراً صادقين، بل ليس من السهل على القارئ أن يدرك عظمته إذا ما نظر إلى عدة صور فوتوغرافية عنه، ومع ذلك فنحن باذلون جهدنا في أن نعطيك فكرة عامة عنه :

طول المسجد ٦٠٠ قدم وعرضه ٢٥٠ قدماً وارتفاعه ٢٠ متراً، وفي عرضه الأيمن ٣٨ صحناً، والأيسر ٢٩ صحناً، وفيه ١٢٩٣ عموداً من الرخام، تيجانها منقوشة بمختلف النقوش الرائعة. « وفيه من جهة الجنوب ١٩ باباً مبطنة بصفائح من النحاس المتوج (نحاس المدافع)،

وأوسطها مرصع بصفائح من الذهب، وبأعلاه ثلاث كرات ذهبية فوقها رمانة من العسجد ».

أما الباب العمومي ــ وهو باب المنارة ــ فهو من النحاس أيضاً، عرضه ٨ أمتار، وارتفاعه ٢٠ متراً، وفي الزاوية القبلية من المساجد تقوم منارته العظيمة، وهي مربعة الشكل، وطول كل ضلع منها ١٢ متراً وارتفاعها ١٣ متراً، وتتحلى بتفاحات فضية وذهبية، محيط كل منها نصف متر أو أكثر بقليل. ويقول صاحب « رحلة في الأندلس » : إنها خمس طبقات في كل طبقة عدد كبير من الأجراس.

وكانت قبة المسجد مشيدة على ٣٦٥ عموداً من المرمر، والمحراب والمقصورة من أجمل ما في المسجد، ففي تلك المقصورة كان الخلفاء يصلون « وهي بناء مربع مرتفع مزين بنقوش جصية بديعة جداً وعليها كتابات قرآنية وأحاديث نبوية ». وأما المحراب ففسيح وواسع، ويتكون سقفه من قطعة رخامية واحدة وفيه كتابات كوفية قرآنية، وكان في المصحف العثماني الشريف، وقد نقله عبد المؤمن بن علي إلى مراكش عند استيلاء الموحدين على الأندلس سنة ٥٥٢هـ.

وكان في المسجد (٤٧٠٠) قنديلاً من الذهب الأبريز، واحد منها في المحراب، وكان يصرف عليها سنوياً (٢٤٠٠٠) رطل زيت، و (١٢٠) رطلاً من العنبر والعود القاقلي...

ويقول سديو : « كانت هذه المدينة تصبح مضيئة، وحاراتها مطيبة، بما يلقى فيها من الزهور، مع استعمال الألحان المطربة في المتنزهات والميادين العامة..

البطل الخالد :

يحدثنا التاريخ أنه لم يبق للمسلمين في الأندلس إلا مملكة غرناطة — هذه البقعة الصغيرة القريبة من البحر. وقد ألح العدو عليها، وصمم على محوها واستمات المسلمون في الدفاع عنها، إذ كانت الملجأ الأخير، والوزر الذي ليس وراءه إلا الموت أو الاستعباد.

وكان بنو مرين — ملوك المغرب — يرسلون جيوشهم مدداً لبني الأحمر ملوك غرناطة، وربما ساروا بأنفسهم ليجاهدوا في جانب إخوانهم وجيرانهم. وكان أولو النجدة والقوة يفدون على الأندلس مجاهدين مرابطين غضباً لدينهم، وحمية لاخوانهم.

جاء الى الأندلس : عثمان بن أبي العلاء، أحد أمراء بني مرين، فتولى « مشيخة الغزاة » وحسن بلاؤه، وعظمت مكانته فكان شجاً في حلوق الإسبان. ولم يكن عثمان ملكاً، ولكنه كان من نفسه الكبيرة في جيش، ومن كبريائه في سلطان.

تولى زعامة الغزاة ثلاثاً وعشرين سنة، فما وهن عزمه، ولا فل حده، ولا أغمد سيفه، ولا حط سرجه :

وما كان إلا النار في كل موضع تثير غباراً في مكان دخان

والنفس الكبيرة تستهين بالصعاب، وتطرق على المنايا الأبواب. وما الجيوش الجرارة، والحروف المستعرة في همة الرجل العظيم إذا صمم ؟

فأثبت في مستنقع الموت رجله وقال لها: من تحت أخمصك الحشر

وحسبنا من الإفاضة في وصف عثمان، والإشادة بذكره، أن نذكر هنا بعض ما كتبه أصحابه الغزاة على قبره :

« هذا قبر شيخ الحماة، وصدر الأبطال والكماة؛ واحد الجلالة،

ليث الإقدام والبسالة؛ علم الأعلام، حامي ذمار الإسلام؛ صاحب الكتائب المنصورة، والأفعال المشهورة، والمغازي المسطورة؛ وإمام الصفوف، القائم بباب الجنة تحت ظلال السيوف؛ سيف الجهاد. وقاصم الأعاد، وأسد الآساد؛ العالي الهمم، الثابت القدم، الهمام الماجد الأرضى، البطل الباسل الأمضى، المقدس المرحوم، أبي سعيد، عثمان بن الشيخ الجليل الهمام، الكبير الأصيل الشهير، المقدس المرحوم أبي العلاء إدريس بن عبدالله بن عبد الحق. كان عمره ثمانياً وثمانين سنة، أنفقه ما بين روحة في سبيل الله وغدوة، حتى استوفى — في المشهور — سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة.

« توفي، رحمه الله، يوم الأحد الثاني لذي الحجة من سنة ثلاثين وسبعمائة. رحمه الله ! ».

— ١٢ —

من صور التاريخ الأندلسي شخصية سيدة اسمها صبح أو صبيحة، وهي نصرانية نافارية، كانت زوجة الحكم المستنصر بالله خليفة الأندلس (٣٥٠ — ٣٦٦هـ : ٩٦١ — ٩٧٦) وأم ولده هشام المؤيد بالله، وكانت من الأسبانيات الأسيرات[١]، وكانت على قسط كبير من الجمال، وقد ولدت للحكم ابنه عبد الرحمن عام ٣٥٢هـ — ٩٦٢م، وولدت له كذلك ابنه هشاماً عام ٣٥٤هـ، ولما توفي ابنه عبد الرحمن صار هشام ولي العهد عام ٣٦٥هـ. وكان من الموظفين في ديوان

(١) من هؤلاء الأسيرات : ايلونا القوطية، أرملة رودريك ملك القوط عند الفتح، ويسميها العرب أم عاصم، وقد تزوجها عبد العزيز بن موسى بن نصير. وكانت أم عبد الرحمن الناصر اسمها « ماريا » وهي إسبانية نصرانية تزوجها الأمير محمد بن محمد.

الحكم شاب اسمه محمد بن عبدالله بن أبي عامر المعافري، وكان له نفوذ كبير لدى الحكم وزوجته صبيحة. ولما مات الحكم كان النفوذ لثلاثة: صبح أم هشام، والحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، ومحمد بن أبي عامر، ورفع بعد قليل ابن أبي عامر إلى رتبة الوزارة.

— ١٣ —

التراث الأندلسي

لن يستطيع أحد في اسبانيا أن يجيب عن هذا السؤال الحزين: أين الثمانون ألف كتاب التي أمر « الكردينال شيمتر » بحرقها في ساحات غرناطة بعيد استظهارهم عليها، فأحرقوها وهم لا يعلمون ما يعملون، حتى أفنوا — على ما قال مؤرخهم « ربلس » — ألف ألف وخمسة آلاف مجلد كلها خطتها أقلام العرب، وليتهم يخبروننا: كم من كتاب لعبت بهم نيرانهم بعد ذلك، وماذا يقولون عن السفن الثلاث التي ظفروا بها مشحونة بالمجلدات العربية الضخمة وطالبة ديار سلطان مراكش فسلبوها، وألقوا كتبها في قصر الأسكوريال سنة ١٦٧١م — ١٠٨٢هـ، حتى لعبت بها النيران فأكلت أغلبها... وتولى ميخائيل القصيري تكوين مكتبة الأسكوريال بما بقي منها، وكان نحو ١٨٥١ كتاباً[1].

(١) مجلة المقتطف — السنة الثالثة — ص ٧.

الأميرة الصغيرة

الأندلس نار تشتعل، ملوك الطوائف كل منهم مشغول بأمر مملكته الصغيرة، والنزاع بينهم يشتد، والافرنجة من الأسبان يستولون في ظل هذا الضعف السياسي الخطير، والعجز الحربي الواضح، على المدن الأندلسية مدينة أثر مدينة..

والمعتمد بن عباد ملك اشبيلة في هم ناحب، وقلق شديد، وفزع رهيب، فعاصمة ملكه اشبيلية تكاد تسقط في يد الاسبان، وأعيان اشبيلية ورجالات الدولة، في لقاءات مستمرة، وها هم أولاء يجتمعون بالمعتمد، ويجمعون الرأي على ان لا مفر من الاستنجاد بسلطان المرابطين في المغرب، لوقف الزحف الاسباني على إشبيلية.. والمعتمد يستمع اليهم، وبدأ يميل الى مشورتهم ورأيهم، وتحذره زوجته اعتماد الرميكية من العاقبة، ويحذره الملتفون حوله من رجال الحاشية، لأن مجيء ابن تاشفين معناه ذهاب ملك بني عباد، فيرد المعتمد عليهم رداً بليغاً فاصلاً : لأن أكون حادي ابل في « مراكش » أفضل لي من أن أكون راعي خنازير في « قشتالة »..

وبعث المعتمد الى سلطان المرابطين يستنجد به، فرد عليه رداً بليغاً، وأكد له انه هو وجيشه في الطريق اليهم..

ودخل ابن تاشفين اشبيلية، وعسكر جيشه في المعسكرات خارج المدينة، ورحب به ابن عباد ترحيباً كبيراً، واجمل له ولجيشه الكبير في الضيافة، وبدأ الجميع يستعدون للمعركة القادمة..

وكان النصر العظيم الذي أحرزه ابن تاشفين والمعتمد في معركة « الزلاقة » عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م حاسماً ومدوياً، وانهار الاسبان، وسحقت قواتهم سحقاً شديداً، واستعاد الاندلسيون الأمن والطمأنينة،

وهدأ المعتمد واطمأن على عرشه التي كادت تعصف به الأحداث.

ولكن الملك الغربي بدأ يفرض هيمنته على ملوك الطوائف وبدأ يولي من يشاء ويعزل من يشاء، وجاء الدور على المعتمد نفسه، فاستولى السلطان على الحكم في اشبيلية، وقرر نفي ابن عباد هو واسرته وحاشيته الى مدينة (اغمات) الصغيرة في المغرب، واصبح للمرابطين امبراطورية واسعة، تمتد من المغرب الأوسط (الجزائر) الى المغرب الأقصى وغانا ومالي والسنغال والنيجر وبعض الأطراف الأخرى.

واستعد المعتمد للرحيل، والدموع تتساقط من مآقيه غزيرة على خده، ومعه زوجته الرميكية ذات الدلال والجمال.. وجاء الرعاع من السوقة فهاجموا القصر في اللحظات الأخيرة، واعملوا في السلب والنهب، ثم اشعلوا النار فيه، ولم يدر المعتمد من الأمر شيئاً، وأطفال المعتمد اصبحوا لا يعرفون ماذا يفعلون..

وها هي ذي الأميرة الصغيرة بثينة بنت المعتمد تهرب من القصر والنار مشتعلة فيه، وهي لا تدري اين تسير، وأبواها لا يدريان من أمرها شيئاً.

وجاء رجل من السوقة فأخذها الى منزله، ثم خرج بها في الصباح الى سوق الجواري فباعها فيه على أنها رقيقة لتاجر ثري من تجار اشبيلية.

واستسلمت الأميرة الصغيرة لحكم القدر، وصارت لا تكف عن البكاء والدموع كلما خلت الى نفسها.. ولجمالها المفرط وادبها الجم، عاملها سيدها معاملة طيبة، واخذت تكبر شيئاً فشيئاً، الا ان خوفها على فراق أبويها ومصيرهما المظلم لم ينقطع ابداً.

ورأى فيها التاجر ملامح الذكاء والأدب والظرف فرشحها لأحد ابنائه لتكون أم ولد له، وأخذ التاجر وابنه يستعدان لهذا اليوم الموعود.

وهنا بدأت الأميرة تفصح عن نسبها، أنها حرة لا رقيقة، وهي

من بيت بني عباد، وبنت ملك اشبيلية المعتمد المعزول، وهي لا تحل لأحد الا بعد زواج، ثم هي لا تمانع في هذا الزواج، ولكن لا بد من موافقة ولي امرها الملك الاشبيلي في أغمات، وانها ترى ان ترسل الى أبيها رسالة تستأذنه في الموافقة على هذا الزواج.

وكان المعتمد وزوجته في اغمات يتحملون مع آلام النفي وعذاب الغربة، مرارة حرمانهم من بنتهم الأميرة الصغيرة، وجهلهم بمصيرها.

وفجأة وصلتهم رسالة من الأميرة الصغيرة، تحكي فيها قصتها، وتستشير أباها في هذا الموقف، الذي وضعتها الأقدار فيه، وتقول لأبيها شعراً، وماذا تقول الأميرة بثينة لأبيها المعتمد ولأمها الرميكية ؟ انها لا تملك الثناء على الانسان المرشح للزواج منها :

اسمع كلامي واستمع لمقالتي	فهي السلوك بدت في الأجياد
لا تنكروا اني سبيت وأنني	بنت لملك من بني عباد
ملك عظيم قد تولى عصره	وكذا الزمان يؤول للافاد
لما أراد الله فرقة شملنا	واذاقنا طعم الأسى من زاد
قام النفاق على أبي في ملكه	فدنا الفراق ولم يكن بمراد
فخرجت هاربة فحازني امرؤ	لم يأت في أفعاله بسداد
قد باعني بيع العبيد فضمني	من صانني الا من الأفكاد[1]
وارادني لزواج نجل طاهر	حسن الخلائق من بني الأنجاد[2]
ومضى اليك يروم رأيك في الرضا	ولأنت تنظر في طريق رشادي
فعساك يأبتي تعرفني به	اذ كان ممن يرتجى والوداد
عسى (رميكية) الملوك بفضلها	تدعو لنا باليمن والاسعاد

قصيدة شعرية مؤثرة حزينة، ووصلت الرسالة يحملها المرشح للزواج

---

(١) أي إلا من الأحزان.

(٢) أي الشجعان الأبطال.

من الأميرة الى يدي المعتمد، فلم يتمالك المعتمد نفسه من البكاء الشديد هو وزوجته الملكة أم الأميرة بثينة، ورحبا بالرسول الكريم، واكرماه في منزلهما الصغير، في أغمات إكراماً حاتمياً.

وبمقدار ذكاء المعتمد وحصانته السياسية لم يدر ماذا يصنع ؟ ولكنه لم يجد مفراً من الموافقة على هذا الزواج، وبارك للزوج فيه، فكتب عقد زواج ابنته بثينة على الشاب المهذب الذي كان رسول الأميرة اليه، وأشهد نفسه على عقد زواجها منه، وكتب اليها رسالة صغيرة مملوءة بأحر العواطف، وفيها يقول لابنته الأميرة العروس :

بنيتي كوني به برة   فقد قضى الدهر باسعاده

وسافر الزوج يحمل رسالة الملك الاشبيلي المعزول المنفي في اغمات، الى ابنته الأميرة بثينة في اشبيلية.

فأخذت الرسالة وقبلتها وضمتها الى صدرها في فرح وبكاء.

ثانياً ــ الحياة الفكرية في الأندلس

تمهيد

١ ــ قوام الحياة الفكرية في أي مجتمع أو شعب، هو انتشار الثقافة إلى حد بعيد انتشاراً يجعل في استطاعة كثير من الناس أن يفكروا بعقولهم، لا عن تقليد أو متابعة للحياة في سيرها الوئيد، ويضاف إلى ذلك الفكر الحر واشتغال رجال من أفذاذ العلماء بعلوم الفلسفة التي تكون العقل المستنير الواعي المدرك لكل ما حوله من مظاهر الحياة والوجود، الدائب على تسخير الحياة للإنسان، لا تسخير الإنسان للحياة؛ والحياة الفكرية مع ذلك لا بد لها من ذيوع الحرية في المجتمع ليستطيع كل إنسان أن يفكر بعقله كما يجب أن يفكر، وأن يبحث كما يريد البحث، وأن يستنتج ما شاء له التفكير، ونستطيع أن نقول : إن ذيوع الثقافة في الأندلس أمر مسلم، وسنتحدث بتفصيل عن ألوان العلوم والفنون والآداب التي عرفت وذاعت في الأندلس بعد ذلك بقليل، أما حرية التفكير ومدى انتشار مباحث الفلسفة في الأندلس فيهمنا أن نتحدث عنهما بشيء من التفصيل.

لقد كانت الثقافة العامة ذائعة في الأندلس، ومع ذلك فقد كان للأندلسيين نصيب كبير في العلوم والآداب والفنون، وتعلق ظاهر بالعلوم الشرعية كالتفسير وخدمة الحديث والفقه والأصول، وكذلك العلوم العربية

كالأدب والنحو واللغة، فظهر فيه ابن عبد ربه الأندلسي صاحب كتاب « العقد الفريد » الذي يعد من أهم مصادر الأدب العربي، وابن سيده صاحب المخصص؛ وقد عنوا عناية فائقة بالتاريخ، ظهرت في أدبهم من نثر وشعر، وبرز فيه ابن الأفطس وابن حيان وابن بسام وابن بشكوال، هذا كله عدا معرفتهم بفنون الطب والنبات والكيمياء والعمارة والموسيقى، وهذا عدا ما كانوا يمتازون به من ذوق لطيف، وأذن ناقدة، وبصر بمحاسن الكلام وحسن تمييزه.

ويقول صاحب نفح الطيب : إن كل العلوم لها حظ عند الأندلسيين واعتناء إلّا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظاً عند خواصهم، ولا يتظاهر بهما خوف العامة، فإنه كلما قيل : فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم اطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت، وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن[1]. ويذكر المقري في مواضع من كتابه : أسماء بعض من اشتهروا بالتنجيم كأبي عبيدة مسلم بن أحمد المتوفى في أواخر القرن الثالث وغيره.

وإذا نحن أردنا أن نبحث الحركة الفكرية والفلسفية في الأندلس، فعلينا أن نخرج إلى نطاق أوسع في البحث والاستقصاء.

٢ ــ لم تكن في الأندلس قبل الفتح الإسلامي آراء وبحوث في الفلسفة، ولم يعرف سكان البلاد القدماء ولا علماؤها شيئاً عن فلسفة الإغريق، وكانت تقيم بها سلالات آرية، لم تحصف عقولها، ولم تخرج عن بداوتها الأولى، ولم يرتفع فكرها إلى أفق الفلسفة، وكانت تقيم

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٣٦.

معها سلالات حامية أبعد ما تكون عن الفلسفة وعن التفكير العقلي، وسلالات سامية اختلطت بالبربر، وشغلت بالتجارة والملاحة، فأنى تطبع عقولها على الفلسفة ؟ ثم هذه القبائل الآرية المتبربرة كالسلت والفندال والقوط كانت تهاجم البلاد كرة بعد أخرى، فلم يكن يستتب فيها أمن، ولا يفرغ فيها عقل إلى التفكير، وكانت البلاد مع هذا وهذا تدين بالوثنية فلم تشع فيها هداية السماء وشعاع الوحي المسيحي إلا بعد الميلاد بقرون، أي نحو عام ٥٨٩م؛ والإغريق الذين أقاموا فيها هاجروا إليها قبل الميلاد بخمسة قرون أو نحو ذلك، أي أنهم هاجروا إليها قبل أن تنمو الفلسفة الإغريقية وتزدهر.

وامتزاج هذه الأمم في اسبانيا ـــ وهي على ما رأيت من بعد عن الفلسفة وعن البحث المطلق ـــ يحتاج إلى زمن بعيد؛ حتى تخرج منها أمة واحدة مبتكرة مفكرة.

كانت إذن بلاد الأندلس خالية من العلوم فلم ينبغ منها في القديم عالم، وكانت عاطلة من الفلسفة فلم يخرج منها فيلسوف. بيد انه كان فيها طلاسم قديمة، وكان بها سحرة وكهان على عهد حكم الرومان، وكان آية السحر عندهم أن يبنوا قنطرة، أو يضعوا طلسماً أو يحركوا آلة بالهواء.

وعندما فتح العرب الأندلس واستقروا فيها، وذاعت العلوم عندهم، وكثرت هجرتهم إلى الشرق، وهجرة أهل المشرق إليهم، كانت الفلسفة وترجمة علومها ذائعة في المشرق وخاصة في بغداد وشمال الجزيرة الفراتية، ومن ذلك الحين بدأ الأندلسيون يتصلون بالفلسفة ومباحثها وعلومها؛ وإن كانت العلوم السائدة في الأندلس هي العلوم اللغوية والدينية والأدبية، فضلاً عن أن اختلاط الأمم والعناصر بعد الفتح لم يكن قد أتيح له الوقت الكافي بعد ليثمر فلسفة وفكراً حراً، بيد أنه كان هناك أفراد يذهبون إلى بلاد المشرق، فيطلعون على ما هنالك من علم وفلسفة،

ثم جاء إلى بلاد المغرب أظهر ذلك أو كتبه، وكان الذين يظهرون ذلك يجدون مقاومة وتشهيراً من الأدباء والفقهاء؛ رحل من المغرب إلى المشرق أبو عبيدة مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة البلنسي المعروف بصاحب القبلة، فسمع بمكة من علي بن عبد العزيز، وبمصر من المزني والربيع بن سليمان المرادي ويونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبدالله ابن عبد الحكم وجماعة سواهم ــ وكان عالماً بالنجوم وحركات الكواكب وأحكامها وحسابها، وقد لقي عنتا من نظرائه من الأدباء والفقهاء، فقد عابوا مذهبه، وأنكروا عليه، وشنعوا به، وممن شنع عليه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأديب الأندلسي صاحب « العقد الفريد » المتوفى سنة ٣٢٨هـ فقد قال فيه :

أبا عبيدة والمسؤول عن خبر ... يحكي ويخبر أسرارا للذي سألا
أبيت إلا شذوذاً عن جماعتنا ... ولم يصب رأي من أرجى ولا اعتزلا
كذلك القبلة الأولى مبدلة ... وقد أبيت فما تبغي بها بدلا
زعمت بهرام أو بيذخت يرزقنا ... لا بل عطارد أو برجيس أو زحلا
وقلت إن جميع الخلق في فلك ... بهم محيط وفيهم يقسم الأجلا
والأرض كرية حف السماء بها ... فوقا وتحتا وصارت نقطة مثلا
صيف الجنوب شتاء للشمال بها ... قد صار بينهما هذا وذا دولا
فإن كانون في صنعا وقرطبة ... برد وأيلول يذكي فيهما الشعلا
هذا الدليل ولا قول حزرت به ... من القوانين يجلي القول والعملا
كما استمر ابن موسى في غوايته ... توعر السهل حتى خلته جبلا
أبلغ معاوية المصغي لقولهما ... إني كفرت بما قالا وما فعلا

فترى ابن عبد ربه في هذه القصيدة الساخرة يهزأ بأبي عبيدة ويفند رأيه ويبطل مذهبه، وينعى عليه غروره وشذوذه، فهو يلومه على ان عرض نفسه للسخرية والتهمة، وهو يعتب عليه أن شذ عن جماعة الفقهاء والأدباء وعن إجماعهم على تحريم النظر في ضلالات الحكمة ومريبات

الفلسفة والكلام، ثم هو ينبهه على خطأ رأي المرجئة ومذهب المعتزلة، وينعى عليه أن ولى وجهه شطر بيت المقدس راصداً للنجوم في الأفلاك، وكيف ؟ ولم يتوجه إليها ؟ وقد بدلت القبلة الأولى منذ فجر الإسلام، ثم هو يذكر آراءه ويعود عليها بالنقض.

وقد كان بدء ظهور الفلسفة في الأندلس في منتصف القرن الثالث الهجري.

علوم الفلسفة في الأندلس :

وجدت الفلسفة هناك أولاً مقاومة شديدة، ومع ذلك فقد استمرت تخطو وئيدة وئيدة؛ وكان أول ما ظهر من فروع الفلسفة : علم الفلك والنجوم، ثم تلاهما علم الطب فعلم الكلام... ولما بزغت الحضارة الأندلسية في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠ـــ٣٥٠هـ) شجع العلوم والفنون والآداب واشترى الكتب الثمينة وأكرم وفادة العلماء الذين رحلوا إليه من الشرق، وكان ابنه الحكم رئيساً لمعاهد قرطبة ومكتباتها ونواديها العلمية والأدبية، أي أنه كان بمثابة وزير للمعارف في حكومة الناصر؛ وقد كان لنشأته بين أمهر الأساتذة وعلماء العربية أثر في ميله إلى الثقافة والآداب، واتصل الحكم برجال التفكير الأندلسي، وغرس ذلك في نفسه حب الإطلاع والإقبال على الكتب والسخاء في أمور العلم والثقافة وعلى العلماء والأدباء، وحاكاه في ذلك الأمراء والولاة.

وتولى الحكم (٣٥٠ ـــ ٣٦٦هـ : ٩٦١ ـــ ٩٧٦م)، فطلب من القاهرة وبغداد وشتى العواصم المخطوطات في الفلسفة والرياضة وعلوم العربية والدين، وكان له في جميع بلاد الشرق عمال يجلبون له المؤلفات العربية والقديمة، وقد بعث بألف دينار لأبي الفرج الأصفهاني ليبعث له بنسخة من كتابه « الأغاني »، وكان للحكم مكتبة عظيمة قيل إنها

كانت تحتوي على أربعمائة الف مجلد، وقيل ستمائة الف، وكانت فهارسها تبلغ اربعة واربعين فهرساً ليس فيها إلا ذكر أسماء المؤلفات، وكان الحكم يطالع الكتب ويعلق عليها بخطه ويذكر شيئاً من حياة المؤلفين، وقل ان كان يوجد كتاب في مكتبته ليس له فيها تعليق، وقد قلده الشعب عامتهم وخاصتهم في حب الثقافة. وذاعت كتب الفلسفة ومذاهبها، وكان للطب في الأندلس اربع جامعات كبيرة، وكان في قرطبة وحدها أكثر من ثمانين مدرسة، منها مدرسة جامع قرطبة الكبير، التي كان يلقي فيها « القالي » مجالسه الأدبية ودروسه اللغوية، وكان الحكم يعقد الندوات العلمية والأدبية في قصره، ويجتمع بأفذاذ العلماء يجادلهم ويناظرهم، كما كان يشجع الشعراء ويثيبهم : وطار من أجل ذلك صيت العرب في الأندلس.

وقد أعجب أهل اوربا بعلوم العرب وحضارتهم، وأقبلوا على الأندلس يتعلمون في جامعاتها، ويتتلمذون على العلماء العرب، ويقرأون في مؤلفاتهم، ويترجمونها إلى لغاتهم، ويتولون المناصب الرفيعة في بلادهم، حتى إن بابا روما جوبرت سلفستر الثاني الذي ولي البابوية عام ٣٨٩هـ ــ ٩٩٦م كان ممن تعلموا في الأندلس على أيدي الأساتذة المسلمين.

وفي عهد الناصر والحكم نبغ بعض الفلاسفة، ومنهم : ابن التيمية من أهل قرطبة وكان بارعاً في النجوم والطب وشتى الثقافات. وكان ممن رحل إلى المشرق وتوفي عام ٣١٥هـ[1]، ومنهم : السري عبدالله ابن محمد، وكان عالماً بالعدد والهندسة وتوفي نحو عام ٣٧٠ هـ، ومنهم : محمد بن إسماعيل المتوفى عام ٣٣١هـ، وقد رحل الى المشرق وبرع في الطب والنجوم؛ وفي الأدب والشعر والموسيقى، وكذلك

---

(١) ١٠١ طبقات الأمم لصاعد.

أبو بكر بن أبي عيسى، وكان إماماً في الهندسة والنجوم وكان يعلمها[1].

ولما توفي الحكم خلفه ابنه هشام المؤيد وكان صغيراً يبلغ العاشرة من عمره، وكان لحاجبه المنصور بن أبي عامر سلطان عليه وعلى الدولة، فعمد المنصور إلى مكتبة الحكم وفتشها وأخرج منها كتب الفلسفة وأحرقها بمشهد الفقهاء، وبهذا أخذت الفلسفة في الانكماش، وسكن الفلاسفة بعد أن تحركوا في عهد الناصر والحكم، وظلت الفلسفة الى آخر عصر الدولة الأموية عام ٤٢٨هـ تلقى مقاومة واضطهاداً شديدين.

ومن ثم نرى كيف أن الفلسفة نشأت في الأندلس متأخرة مستعارة من الشرق، وكيف قضت نصف قرن مكروهة مضطهدة، ثم نصفاً آخر حرة آمنة، ثم نصفاً ثالثاً تلقى فيها المقاومة والعسف.

وفي عهد ملوك الطوائف شغلت الفتن ملوك قرطبة عن تعقب الفلاسفة ومحاكمتهم؛ فاستعادت حريتها ونشاطها، ومع ذلك فقد بيعت المكتبات العامة والخاصة التي كانت تزين قصور قرطبة ـــ بأبخس الأثمان، وتناولها الناس وقرأوا فيها الكثير. من بحوث الفلسفة التي نجت بعض مؤلفاتها من عسف ابن أبي عامر وأصحابه، فأمن الناس وأظهروا ما لديهم في الفلسفة من كتب، وأخذوا يهتمون بالعلم الرياضي وصناعة المنطق، دون العلم الطبيعي والعلم الإلهي، وصاروا يجادلون ويناظرون في مسائلها، ونبغ فيها في هذا العهد وفي أهم عصر الدولة الأموية الكثير من الفلاسفة، من أشهرهم :

١ ـــ الإقليدي عبد الرحمن بن إسماعيل، وكان متقدماً في الهندسة والمنطق، وكان أبوه أحد وجوه قرطبة وولي الحسبة للحكم، وقد اختصر

(١) ١٠٢ المرجع.

الإقليدي كتب أرسطو المنطقية الثمانية في كتاب لم يصلنا[1].

٢ ـــ أبو عثمان[1] سعيد بن فتحون السرقسطي، وقد أصيب بمحن شديدة في عصر ابن أبي عامر، ولما اطلق سراحه هاجر الى صقلية وتوفي بها عام ٤١٠هـ، وله رسالة في الموسيقى ورسالة شجرة الحكمة في المدخل إلى علوم الفلسفة.

٣ ـــ المجريطي[2] مسلمة بن احمد المتوفى عام ٣٩٨هـ، وكان إمام الرياضيين في الأندلس في وقته، مع مهارة الفلك، وكان يدمن المطالعة في كتاب « المجسطي » لبطليموس، وقد اختصر تعديل الكواكب في زيج البتاني[3] وزاد في زيج الخوارزمي[4] جداول فلكية كثيرة، وحول تاريخه الفارسي إلى التاريخ العربي، وتتلمذ عليه الكثيرون.

٤ ـــ محمد بن الحسن وكان بصيراً بالطب والمنطق وسواهما، وتوفي عام ٤٢٠هـ.

٥ ـــ الكرماني[5] عمر بن عبد الرحمن القرطبي (٣٦٨ ـــ ٤٥٨هـ)، رحل الى المشرق وتعلم في مدارس حران الهندسة والطب، ثم عاد إلى الأندلس وأقام بسرقسطة، ويعد من الفحول في الطب والهندسة والحساب، وهو أول من أدخل « رسائل إخوان الصفاء »

(١) ١٠٦ طبقات الأمم.
(٢) ١٠٧ طبقات الأمم لصاعد.
(٣) هو محمد بن جابر المتوفى عام ٣٠٧هـ وينسب إلى بتان من أعمال حران، وقد نبغ في الهندسة والنجوم.
(٤) هو محمد بن موسى الخوارزمي من علماء الهيئة وكان خازن دار الحكمة للمأمون، وله زيجان فلكيان.
(٥) ١٠٩ طبقات الأمم.

في الأندلس ولم يعرف احد ادخلها قبله في هـذه البـلاد، فقرأهـا الكثيرون[1].

٦ ــ هشام بن أحمد الطليطلي الكناني وقد برع في المنطق والهندسة والكلام، وتوفي نحو ٤٥٤هـ.

٧ ــ الإمام الوزير ابن حزم علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (٣٨٤ ــ ٤٥٦هـ[2]) ولد في بيت عريق في قرطبة وكان والده وزيراً للمنصور بن أبي عامر ولابنه المظفر بعده، وكان أخوه أبو محمد وزيراً للمستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر، وقد تعلم ابن حزم على مشاهير العلماء والفلاسفة، ونبغ في علوم الشريعة واصول الدين واللغة والأدب والتاريخ، وعني بالمنطق عناية خاصة وألف فيه كتاب « التقريب » وله « الفصل في الملل والنحل » وكتاب « مراتب العلوم » وكثير من المؤلفات التي تبلغ أربعمائة مؤلف.

وكان ابن حزم شافعي المذهب، ثم اتبع مذهب داود الظاهري وافرط في الدعوة له، وله حظ كبير في علوم اللغة والأدب، وكان شاعراً، ويروى له :

انا الشمس في جو العلوم منيرة	ولكن عيبي ان مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع	لجد على ما ضاع من ذكري الشهب
ولـي نحـو العـراق صبابـة	ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب

ويقول المراكشي : « وهو أشهر علماء الأندلس وأكثرهم ذكراً في مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء، وذلك لمخالفته مذهب مالك

(١) هذه الرسائل إحدى وخمسون مقالة في الفلسفة ألفها في البصرة جماعة من الفلاسفة في منتصف القرن الرابع وحببوا فيها الفلسفة إلى الناشئ، وذكروا فيها أن الكمال لا يتم إلا بتآخي الدين والفلسفة، ومن زعمائهم : زيد بن رفاعة والمقدسي.

(٢) راجع ص ١١٧ طبقات الأمم لصاعد.

بالمغرب، واستبداده بعلم الظاهر ولم يشتهر به قبله أحد، وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه اليوم عندنا بالأندلس ».

وقد عاش ثرياً مبجلاً، حتى مات عن إحدى وسبعين سنة، وهو أحد الأفراد الذين وقفوا أنفسهم على تحصيل العلم ونشره، وقيل فيه : إنه كان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام. ويصفه بعض معاصريه فيقول : وما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ والتدين، وكان له في الآداب والشعر نفس واسع، وباع طويل، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه، وله مؤلفات كثيرة في الحديث والأصول، والأخلاق والسير، والأنساب. ومن أشهر كتبه غير كتاب الفصل : شرح الموطأ للامام مالك، والجامع في صحيح الحديث ومداواة النفوس، والمعروف بالأخلاق والسير. وغير ذلك كثير، ولابن حزم تراجم في كتاب الصلة لابن بشكوال وفي كتاب بغية الملتمس للضبي، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان، وفي طبقات الأمم لصاعد، وغير ذلك من المراجع.

ومن فصوله في كتابه « الفصل في الملل والنحل[1] » فصل كتبه في الكلام على من انكر الشرائع من المنتمين[2] إلى الفلسفة[3] :

---

(١) الفصل : الفروق أو الأقضية والأحكام، جمع فصلة، والملل : الأديان والشرائع جمع ملة. والنحل المذاهب وأصلها الدعاوى جمع نحلة، والكل كقطعة وقطع وفرقة وفرق، وهذا المركب بجملته أصبح علماً على هذا الكتاب.

(٢) من الانتماء وهو الانتساب والاعتزاء.

(٣) أصلها كلمة يونانية مركبة من كلمتين. هما (فيلوس) أي محبة و (سوفيا) أي الحكمة، فيكون معناها : محبة الحكمة، والفيلسوف هو محب الحكمة، وقد آثر الحكماء وصف أنفسهم بمحبة الحكمة دون الحكمة نفسها التي هي العلم بحقائق الأشياء، لأن الحكيم الحق هو الله سبحانه وتعالى : وهو نوعان : نظرية وهي إما إلهية وإما طبيعية وإما رياضية، وعلمية وهي الأخلاق والتدبير المنزلي والتدبير السياسي. ويرى طائفة من القدماء أن هذا النوع هو ثمرة النوع الآخر والغرض منه : وسيجري على ذلك ابن حزم في هذا الفصل.

الفلسفة ــ على الحقيقة ــ إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود نحوه[١] بتعليمها، ليس هو شيئاً غير إصلاح النفس، بأن تستعمل في دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها في المعاد، وحسن السياسة للمنزل والرعية[٢] وهذا نفسه لا غيره هو الغرض في الشريعة[٣] (الإسلامية). هذا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء بالفلسفة ولا بين أحد من العلماء بالشريعة. فيقال لمن أنتمى الى الفلسفة بزعمه، وهو ينكر الشريعة بجهله ــ على الحقيقة ــ بمعاني الفلسفة[٤] وبعده عن الوقوف على غرضها ومعناها : أليست الفلسفة[٥] بإجماع من الفلاسفة، مبينة[٦] للفضائل من الرذائل. موقفة على البراهين المفرقة بين الحق والباطل ؟ فلا بد من نعم ضرورة[٧]. فيقال له : أليس الفلاسفة كلهم قد قالوا : إصلاح العالم بشيئين : أحدهما باطن والآخر ظاهر. فالباطن هو استعمال النفس للشرائع الزاجرة[٨] عن تظالم[٩] الناس وعن القبائح، والظاهر هو التحصين بالأسوار، واتخاذ السلاح لدفع العدو الذي يريد ظلم الناس والإفساد، ثم أضافوا إلى إصلاح النفوس بما ذكرنا : إصلاح الأجساد بالطب ؟ فلا بد من نعم ضرورة.

---

(١) جهته وناحيته.

(٢) فعيلة بمعنى مفعولة أي المرعية من الرعاية وهي السياسة والتدبير والحفظ.

(٣) في بمعنى أي الغرض من الشريعة.

(٤) أي بسبب جهله بمعاني الفلسفة على الحقيقة، أي حالة كون جهله كائناً على الحقيقة، ففي الكلام تقديم وتأخير كما رأيت.

(٥) مقول القول، والاستفهام هنا التقرير بما يعد النفي لأنه إنكار للنفي.

(٦) أي مميزة ومفرقة، من بان الشيء بمعنى افترق وانفصل.

(٧) أي إذا قيل له ذلك فلا مفر ولا مناص من أن يقول نعم، وضرورة منصوبة على التمييز لأن المعنى : أن حتمية ذلك الجواب حاصلة من جهة الضرورة.

(٨) المانعة والناهية، وإسناد الزجر إلى الشرائع التي يزجز بها مجاز عقلي.

(٩) أن يظلم الناس بعضهم بعضاً، وهذه الصيغة تدل على المشاركة كالتقاتل والتضارب.

فيقال لهم : فهل صلاح العالم، وانكفاف الناس[1] عن القتل الذي فيه فناء الخلق وعن الزنا الذي فيه فساد النسل، وخراب المواريث، وعن الظلم الذي فيه الضرر على الأنفس والأموال، وخراب الأرض، وعن الرذائل من البغي والحسد والكذب والجبن والبخل والنميمة والفسق والخيانة، وسائر الرذائل، إلا لشرائع زاجرة[2] الناس عن كل ذلك ؟ فلا بد من نعم ضرورة، وإلا وجب[3] الإهمال الذي فيه فساد كل ما ذكرنا. فإذا[4] لا بد من ذلك، ولولا ذلك[5] لفسد العالم كله، ولفسدت العلوم[6] كلها، ولكان الإنسان قد بطلت فضيلة الفهم[7] والنطق والعقل الذي فيه، وصار كالبهائم فلا تخلو[8] تلك الشرائع من أحد وجهين : إما أن تكون صحاحاً من عند الله عز وجل الذي هو خالق العالم ومدبره[9] كما يقول أصحاب الشرائع، وإما أن تكون

---

(١) امتناعهم، من كفه إذا منعه.

(٢) يعني : إلا تقتضي ومعلول هذا الصلاح لشرائع.

(٣) أي وإن لا يكن انكفاف الناس عن الرذائل مقتضى الشرائع، ثبت ولزم إهمال الشرائع لما به إصلاح العالم وتضييعها له.

(٤) أي فإذا لزم الإهمال المؤدي إلى الفساد وترتب على نفي أن يكون إصلاح العالم مقتضى للشرائع وهو باطل، فلا بد ولا مفر من جعله مقتضاها ولازماً لها لتنزههما عن ذلك.

(٥) أي ولولا اقتضاء الشرائع لما به صلاح العالم.

(٦) أي من حيث فقدانها ثمرتها التي عرفتها قبل.

(٧) أي انتفت الفضيلة التي هي الفهم فالإضافة بيانية، والفهم وما عطف عليه بمعنى واحد. وذلك أن فائدة العقل هي النظر وتحصيل العلم. وقد بطلت العلوم التي هي مطلوب العقول وثمراتها ببطلان الغاية والغرض منه االذي هو الفضائل على تقديره إهمال الشرائع للفضائل. فثبت بطلان ذلك وثبت أن الفضائل هي مقتضى ولازم للشرائع.

(٨) أي فإذا سلم ذلك فلا تخلو الشرائع.

(٩) التدبير : التصريف على مقتضى الحكمة.

موضوعة[1] من أفاضل الحكماء لسياسة الناس بها[2]، وكفهم عن التظالم والرذائل. فإن كانت موضوعة كما يقول هؤلاء المخاذيل[3] فقد تيقنا أن ما ألزموا الناس من ذلك كذب لا أصل له، وزور مختلق، وإيجاب لما لا يجاب، وباطل لا حقيقة له، ووعيد ووعد[4]، وكلاهما كذب. فإن كان ذلك كذلك[5] فقد صار الكذب[6] الذي هو أرذل الرذائل، وأعظم الشرور، لا يتم صلاح العالم الذي هو الغرض من طلب الفضائل إلا به. وإذا كان ذلك كذلك فقد صار الحق باطلاً، والصدق رذيلة، وصار الباطل حقاً وصدقاً، والكذب فضيلة، وصار لا قوام للعالم أصلاً إلا بالباطل، وصار الكذب نتيجة الحق[7] وصار الباطل ثمرة الصدق[8] وصار الغرور والفسق والخديعة فضائل ونصيحة، وهذا أعظم ما يكون من المحال والممتنع والخلف[9] الذي لا مدخل له في العقل[10]؟

وفي هذا النص نجد ابن حزم يذهب في الاستدلال على قيام شرائع

---

(١) أي مبتدأة مخترعة باصطلاح الحكماء.

(٢) السياسة : التدبير.

(٣) جمع مخذول من الخذلان ضد التوفيق.

(٤) الوعيد : الإنذار والتهديد والمشهور اختصاص الوعد بالخير كاختصاص الوعيد بالشر. وهو متعين في مثل هذا التعبير.

(٥) أي فإن كان ما ألزموا الناس به على تقدير أن الشرائع من وضع الحكماء كما قلنا من أنه كذب وزور الخ.

(٦) المراد به كذبهم على الله في نسبة الشرائع إليه على هذا التقدير، وكذب ما تضمنته من الوعيد بالعقاب والوعد بالثواب الأخرويين.

(٧) هكذا في الأصل.

(٨) الظاهر ثمرته.

(٩) الخلف بالضم الاختلاف، والتناقض أن تكون النتيجة على خلاف المفروض وبالفتح الرديء من الكلام، والظاهر هنا الأول.

(١٠) كناية عن عدم قبول العقل له.

من عند الله سبحانه وتعالى، والرد على من ينتسبون كذباً إلى الفلسفة ويزعمون أن الشرائع من وضع الحكماء، خلافاً لما توجبه أصول الفلاسفة جميعاً من صحة الشرائع، إلى أن الفلسفة تتفق مع الشريعة في أن المقصود من كل منهما هو استعمال الفضائل في الدنيا لتصل بالناس إلى إصلاح النفوس وسلامة الناس في المعاش والمعاد. فيقال لمن أنكر الشريعة ممن ينتسبون إلى الفلسفة بزعمهم وهم أجهل الناس بمعانيها: إن ما به هذا الصلاح وتلك السلامة إما أن يكون مقتضى الشرائع تفرق بين الحق والباطل وتبين الفضيلة من الرذيلة، وتأمر بأسباب السلامة، وتزجر وتنهى عن أسباب الهلاك، وإما أن يكون فتكون الشرائع قد أهملت ذلك وأضاعته. ولزوم ذلك للشرائع محال لأنها منزهة عن التصنيع والإهمال. وذلك أن الإهمال فساد. والشرائع لا تقتضي الفساد وإنما تقضي الصلاح. فلا بد إذن أن يكون ما به صلاح النفوس وسلامة الناس في المعاش والمعاد مقتضى ولازماً للشرائع لا لغيرها، وإلا فسد العالم وفسدت المعارف كلها؛ لأن ثمرة المعارف والغرض منها هي ذاك، لانتفت كذلك فضيلة العقل الذي به المعرفة والعلم لبطلان ثمرة العلم والمعرفة إذن، فإذا سلم ذلك فلا تخلو هذه الشرائع من أن تكون من عند الله خالق العالم ومدبره ومصرفه على مقتضى الحكمة والعالم بما يصلحه وما به سلامة الناس في المعاش والمعاد. وإما أن تكون هذه الشرائع من صنع الحكماء ووضعهم، إلا أنهم نسبوها كذباً وزوراً إلى الله سبحانه وتعالى، فوعدوا الناس بثواب لا أصل له، وتوعدوهم بعقاب لا حقيقة له، كما هو مقتضى قول أهل الخذلان والبطلان ممن ينتسبون بزعمهم الى الفلسفة، وهم أجهل الناس بأغراضها ومعانيها، وذلك يؤدي إلى محالات هي:

أ ــ أن يكون ما أوجبته الشرائع على الناس غير واجب عليهم لأنه كذب لا أصل له وباطل لا حقيقة له.

ب ــ أن يكون الكذب كهذه الشرائع الموضوعة لا يتم صلاح العالم الذي هو الغرض من الفضائل إلا به، وبذلك يصير العالم الذي أقامه الله على الحق قائماً على الباطل وعلى الكذب الذي هو أرذل الرذائل وأعظم الشرور.

ج ــ وأن يصير الحق باطلاً بواسطة أنه أمر به وحمل عليه الباطل، والصدق رذيلة لأنه إنما أمرت به شرائع كاذبة.

د ــ وأن يصير كذلك الباطل كالشرائع الموضوعة حقاً وصدقاً بواسطة أن الحق ومقتضاه، ويصير الكذب فضيلة لأدائه إليها.

هـ ــ وأن يصير نتيجة الكذب الحق وثمرة الباطل الصدق.

و ــ وأن يصير خصال الغرور والغش والخديعة إلى أضدادها فتصير من باب الفضائل والنصيحة. وهذا كله أعظم ما يكون من المحال الذي يمتنع قبوله في العقل، فما استلزم ذلك من كون الشرائع من وضع الحكماء هو كذلك في الإحالة والبطلان؛ لأن ما استلزم المحال فهو محال.

٧ ــ عبد الرحمن بن أحمد اللخمي، وقد درس كتب جالينوس وأرسطو ومهر في الطب والأدوية، وألف فيها كتاباً جليلاً لا نظير له، وتوفي حوالي عام ٤٧٠هـ.

٨ ــ ابن خلدون أبو مسلم عمرو بن أحمد الخضرمي، من أشراف أهل إشبيلية في علوم الفلسفة، مشهوراً بعلم الهندسة والطب والنجوم، وتوفي عام ٤٤٩هـ.

٩ ــ ابن السمح[1] أبو القاسم أصبغ بن محمد؛ وكان بارعاً في العدد والهندسة والفلك وحركات النجوم والطب، ومن كتبه : المدخل

---

(١) ١٠٧ و ١٠٨ طبقات صاعد.

إلى الهندسة في تفسير كتاب إقليدس، وكتاب ثمار العدد، وكتاب طبيعة العدد، وكتابه الكبير في الهندسة، وكتاباً في الآلة المسماة بالاسطرلاب، ومن كتبه : زيجه الذي ألفه على أحد مذاهب الهند المعروف بالسند هند، وكان من تلامذة المجريطي، وتوفي في غرناطة سنة ٤٢٦هـ عن ست وخمسين سنة، وميلاده عام ٣٧٠هـ.

١٠ ــ ابن الصفار[١] أحمد بن عبدالله بن عمر، وكان مشهوراً في العدد والهندسة والنجوم، وقعد في قرطبة لتعليم هذه العلوم، وأدركته الفتنة في قرطبة أيام ابن أبي عامر، ثم خرج منها إلى دانية عاصمة الأمير مجاهد العامري على الساحل الأندلسي الشرقي وتوفي بها، وكان له أخ اسمه محمد، شهر بعمل الاسطرلاب[٢].

١١ ــ ابن برغوث المتوفى عام ٤٤٩هـ وكان بارعاً في العلوم الرياضية[٣].

١٢ ــ أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي المتوفي عام ٥٠٠هـ، وهو من الأطباء، وله في الطب كتب.

---

(١) ١٠٨ المرجع نفسه.

(٢) لفظة يونانية مركبة من « استرون » بمعنى كوكس، و « لافي » بمعنى أخذ، فمعناها أخذ الكواكب، ويفسرها العرب بميزان الشمس أو ميزان الكواكب، وهي آلة يتوصل بها إلى معرفة كثير من أحوال الكواكب على أسهل طريق وأقرب مأخذ، كارتفاع الشمس وسمت القبلة وعرض البلاد وسوى ذلك، وأول من صنع الاسطر لاب بطليموس، وأول من علمه في الإسلام إبراهيم بن حبيب الفزاري، وقيل إن الأوائل كانوا يتخذون كرة على مثال الفلك ويرسمون عليها الدوائر ويفسرون بها الليل والنهار ويصححون بها الطالع إلى زمن إدريس، وأن ابناً لإدريس اسمه « لاب » هو الذي صنعها ــ وقد حلت في عصرنا الآلات الحديثة محل الاسطرلاب.

أما الزيج الذي سبق ذكره فهو جدول يستدل به على حركة الأفلاك لأجل تقويم مواقعها، وأقدم الزيجات : زيج بطليموس، والزيج ينفع في الأسفار البحرية وفي علم الهيئة.

(٣) ١١١ صاعد الأندلسي.

١٣ ــ ابن شهر[1] مختار بن عبد الرحمن، كان بصيراً بالهندسة والنجوم بليغاً شاعراً متكلماً، ولي قضاء المرية في آخر دولة زهير العامري سنة ٤٢٧هـ وتوفي بمدينة قرطبة عام ٤٣٥هـ.

ومنهم ابن العطار[2]، وابن الليث[3] المتوفى في بلنسية عام ٤٠٥هـ، وكان يتقلد فيها القضاء.. وابن حي[4] الذي خرج من الأندلس عام ٤٢٢هـ إلى مصر فاليمن، وتوفي باليمن عام ٤٥٦هـ.. وابن الجلاب[5]، وأبو الحسن علي بن اسماعيل بن سيده الأعمى، وهو أعلم أهل قرطبة بالنحو واللغة والشعر، وله كتاب المخصص، وقد عنى بعلوم المنطق عناية كبيرة وألف فيها مؤلفاً كبيراً وتوفي سنة ٤٥٨هـ عن ستين سنة وميلاده نحو عام ٣٩٨هـ، والقاضي صاعد الأندلسي المتوفى عام ٤٦٢هـ، صاحب كتاب « طبقات الأمم ».

ومن الأطباء في الأندلس: أبو مروان عبد الملك بن زهر الأشبيلي[6] وابن الذهبي المتوفى ببلنسية عام ٤٥٦هـ، وأبو المطرف عبد الرحمن بن محمد[7] وكان ميلاده عام ٣٩٨م، وأقام في طليطلة، وسعيد بن محمد بن البغونش[8] (٣٦٩ــ٤٤٤هـ) وهو من أهل طليطلة، ويوسف بن محمد[9] (٣٤٥ ــ ٤٣٥هـ) والكتاني أبو عبدالله محمد بن الحسين[10] (٣٤٠ ــ ٤٢٠) ومحمد بن عبدون، وقد رحل

---

(١) ١١١ صاعد الأندلسي.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) ١١٣ صاعد الاندلسي.
(٤) المرجع نفسه.
(٥) ١١٤ المرجع نفسه.
(٦) ١٢٩ المرجع نفسه.
(٧) ١٢٨ المرجع نفسه.
(٨) ١٢٧ المرجع نفسه.
(٩) ١٢٦ المرجع نفسه.
(١٠) ١٢٥ المرجع نفسه.

الى المشرق وعاد عام ٣٦٠هـ وخدم المستنصر[١] ويحيى بن اسحق أحد وزراء الناصر وله في الطب كناش كبير في خمسة أسفار ذهب فيه مذهب البونانيين في الطب[٢] وسعيد بن عبد الرحمن بن عبد ربه ابن أخي محمد صاحب « العقد الفريد »، وكان طبيباً نبيلاً وشاعراً محسناً، وله رجز طويل في الطب، وكان له أيضاً بصر بالكواكب[٣]، وأحمد وعز ابنا يونس[٤]، وقد رحلا إلى المشرق عام ٣٤١هـ، وعاد منه عام ٣٥١هـ، فألحقهما الحكم بخدمته في الطب، واستخلصهما لنفسه من سائر الأطباء وعاش أحمد بعد أخيه طويلاً، وكان بارعاً في أمراض العين.

مقاومة الفلسفة في الأندلس :

وفي عهد المرابطين لقيت علوم الفلسفة مقاومة شديدة، فاختفى الفلاسفة وسكتت مباحث الفلسفة، ولما وصلت كتب الغزالي أمر علي ابن يوسف بن تاشفين بإحراقها، وانقطع الناس عن الأبحاث الفلسفية والمجادلة فيها، إلى أن ضعفت دولة المرابطين، وفي عهد الموحدين استمرت مقاومة الفلسفة إلا في عهد يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨ــ٥٨٠هـ) الذي أطلق حرية الفلاسفة والمفكرين، وكان عصره غرة في جبين الحياة الفكرية في الأندلس.

وكان يوسف هذا ملماً بجميع فروع الثقافة، مؤثراً للعلم، محباً للأدب واللغة، مطلعاً على التاريخ، درس الطب، وتعلم الفلسفة، وأمر بجمع كتبها، وكانت له مكتبة فلسفية كبيرة، وقرب إليه العلماء

(١) ١٢٤ صاعد الأندلسي.
(٢) ١٢١ المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) ١٢٤ المرجع نفسه.

والفلاسفة، فصحبه أبو بكر محمد بن طفيل الفيلسوف المتوفى عام ٥٨١ تلميذ ابن باجة وأستاذ ابن رشد وصاحب القصة الفلسفية المشهورة : « حي بن يقظان ».. وقد قرب هذا الخليفة إليه ابن رشد، فعينه عام ٥٦٥هـ قاضياً في أشبيلية، وبعد ذلك بعامين عينه قاضياً في قرطبة، وفي سنة ٧٨هـ عينه قاضياً للقضاء في هذه المدينة، وقد لخص ابن رشد له كتب أرسطو المنطقية الثمانية. وكان يجادل ابن طفيل وابن رشد في مباحث الفلسفة حتى عظم شأنها في عهده. وخلفه ابنه يعقوب (٥٨٠ـ٥٩٥هـ) فقرب إليه الصالحين والزهاد وعلماء الحديث، وأظهر الزهد والتقشف، وأراد أن يجمع الناس على مذهب واحد يستمده من ظاهر الكتاب والسنة، فأمر بإحراق كتب مذهب مالك، وأمر العلماء بجمع الأحاديث الصحيحة في كتاب واحد، حمل الناس على حفظه وخافه الفقهاء، ثم أمر بترك الاشتغال بالعلوم العقلية وعدم الخوض في شيء منها، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة.

واشتد في مقاومة الفلسفة وأصحابها ومال الى التصوف، وجعل حوله بطانة من شيوخ الطرق الذي أحنقوه على الفلاسفة عامة وعلى ابن رشد خاصة ومن سوء حظ هذا الفيلسوف أن جماعة من أعدائه قد اندسوا بين هؤلاء المتصوفين، وأخذوا يكيدون له من وراء ستار الدين حتى إذا استحكم العداء في نفس الأمير، أمر بالقبض على ابن رشد وتلاميذه المخلصين له، فجيء بهم وحوكموا أمام مجلس علني، ولم يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم، وأسفرت المحاكمة عن نفيهم، فنقوا الى « أليسانا ».

وعلى أثر أمر الخليفة بنفي ابن رشد إلى « أليسانا » وبإحراق كتبه، أذاع منشوراً شديداً من إنشاء عبدالله بن عياش، شهر فيه بالفلاسفة، وحذر الشعب من كتب الفلسفة، وحرم على الناس الاشتغال بها. وهذا نصه :

« قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام، وأقر لهم عوامهم بشفوف عليهم في الأفهام، حيث لا داعي يدعو الى الحي القيوم، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم، فخلدوا في العالم صحفاً مالها من خلاق، مسودة المعاني والأوراق، بعدها من الشريعة بعد المشرقين، وتباينها تباين الثقلين، يوهمون أن العقل ميزانها، والحق برهانها، وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقاً، ويسيرون فيها شواكل وطرقاً، ذلكم بأن الله خلقهم للنار، وبعمل أهل النار يعملون، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة، ومن أوزار الذي يضلونهم بغير علم، ألا ساء ما يزرون، ونشأ منهم في هذه السمحة البيضاء شياطين إنس يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون. فكانوا عليها أضر من أهل الكتاب، وأبعد عن الرجعة إلى الله والمآب، لأن الكتابي يجتهد في ضلال، ويجد في كلال، وهؤلاء جهدهم في التعطيل، وقصاراهم التمويه والتخييل، دبت عقاربهم في الآفاق برهة من الزمان إلى أن أطلعنا الله سبحانه منهم على رجال كان الدهر قدمنا لهم على شدة حروبهم، وعفي عنهم سنين على كثرة ذنوبهم، وما أملى لهم إلا ليزدادوا إثماً، وما أمهلوا إلا ليأخذهم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً. وما زلنا ــ وصل الله كرامتكم ــ نذكرهم على مقدار ظننا فيهم وندعوهم على بصيرة إلى ما يقربهم إلى الله سبحانه ويدينهم، فلما أراد الله فضيحة عمايتهم وكشف غوايتهم، وقف لبعضهم على كتب مسطورة في الضلال، موجبة أخذ كتاب صاحبها بالشمال، ظاهرها موشح بكتاب الله، وباطنها مصرح بالإعراض عن الله، لبس الإيمان منها بالظلم، وجيء منها بالحرب الزبون في صورة السلم، مزلة للأقدام، وهم يدب في باطن الإسلام، أسياف أهل الصليب دونها مفلولة، وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة، فإنهم يوافقون الأمة في ظاهرهم وزيهم ولسانهم، ويخالفونها بباطنهم وغيهم

وبهتاتهم. فلما وقفنا منهم على ما هو قذى في جفن الدين، ونكتة سوداء في صفحة النور المبين، نبذناهم في الله نبذ النواة، وأقصيناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة، وأبغضناهم في الله، كما أنا نحب المؤمنين في الله، وقلنا : اللهم دينك هو الحق اليقين، وعبادك هم الموصوفون بالمتقين، وهؤلاء قد صدفوا عن آياتك، وعميت أبصارهم وبصائرهم عن بيناتك. فباعد أسفارهم وألحق بهم أشياعهم حيث كانوا وأنصارهم، ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الإلجام بالسيف في مجال ألسنتهم، والإيقاظ بحده من غفلتهم وسنتهم. ولكنهم وقفوا بموقف الخزي والهون، ثم طردوا عن رحمة الله، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون. فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على الإيمان حذركم من السموم السارية في الأبدان. ومن عثر له على كتاب من كتبهم، فجزاؤه النار التي بها يعذب أربابه، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه، متى عثر منهم على مجد في غلوائه، عم عن سبيل استقامته واهتدائه، فليعاجل فيه بالتثقيف والتعريف. ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون. أولئك الذين حبطت أعمالهم. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون. والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم، ويكتب في صحائف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم... إنه منعم كريم ».

ذلك هو المنشور الذي أمر الخليفة بإذاعته في بلاد الأندلس والمغرب، فكان له أسوأ الأثر في الحياة الفكرية العربية والأندلس.

وظل ابن رشد وتلاميذه عاماً في المنفى حتى أذن الخليفة بإعادتهم فعادوا إلى الأندلس من جديد، وقد أمر الخليفة بإحراق كتب الفلسفة كلها إلا الطب والحساب والقليل من علوم النجوم، مما يتوصل به إلى معرفة أوقات الليل والنهار؛ ولكنه لم يلبث بعد قليل أن نزع عن

ذلك كله، وجنح إلى تعلم الفلسفة، واستدعى ابن رشد إليه في مراكش حيث توفي فيها آخر عام ٥٩٤هـ، وتوفي بعده بقليل الخليفة نفسه عام ٥٩٥هـ.

وقد ظهر من الفلاسفة في عهد المرابطين والموحدين ــ على الرغم من هذه المقاومة التي عرفنا أمرها من قبل ــ الكثير من الفلاسفة العبقريين ومن أشهرهم :

١ ــ **ابن باجة السرقسطي** : لقبه ابن الصائغ، وكان طبيباً فيلسوفاً مولعاً بالموسيقى، وتوفي بفاس في المغرب الأقصى عام ٥٣٣هـ.

وابن الصائغ اسمه أبو بكر محمد بن يحيى بن باجة، وكان ميلاده في سرقسطة وهي مدينة كبيرة تقع على نهر إبرو. وكانت من المدن الصناعية في عهد الحكم العربي للأنلس، وقد نشأ فيها العلماء والأدباء والفلاسفة. ومن فلاسفتها ابن فتحون، المتوفى في أوائل القرن الخامس الهجري بصقلية، وعبدالله بن أحمد المنجم، المتوفي سنة ٤٨٨هـ، وأحمد ابن سليمان بن الحاجب، المتوفى عام ٤٧٠ هـ، والكرماني المتوفى عام ٤٥٨هـ.

وقد ولد ونشأ ابن باجة في آخر عهد ملوك الطوائف وأوائل دولة المرابطين، وبرع في الطب والفلك والفلسفة، وكان أبو بكر بن إبراهيم صهر علي بن يوسف بن تاشفين والياً على المدينة؛ فاتخذ ابن باجة جليساً له ووزيراً وفي عام ٥١٢هـ انتقل ابن باجة إلى إشبيلية على أثر سقوط سرقسطة في يد الفونس الأول، وعكف في إشبيلية على الاطلاع والبحث والتأليف، ثم خرج منها إلى غرناطة، فأقام بها حيناً ينشر الفلسفة ويعلمها، ثم انتقل الى فاس عاصمة بلاد المغرب الأقصى، اتصل بالأمير يحيى بن تاشفين، وظل مقيماً بفاس حتى توفي عام ٥٣٣هـ. وقد عاش ابن باجة يدافع عن آراء الفلاسفة، ويناضل آراء الغزالي القائمة على نقد تعاليم فلسفة آرسطو وأتباعه كالفارابي وابن سينا، ويدعو الى

معرفة الإنسان ذاته، ومعرفة الطبيعة التي حوله. وله كتب كثيرة منها : رسالة الوداع — رسالة تدبير المتوحد — شرح كتاب السماع الطبيعي لأرسطو — كتاب اختصار الحاوي للرازي في الطب، وقد توفي الرازي عام ٣٢٠هـ، وسوى ذلك من مؤلفاته، ورسالة الوداع التي ألفها ابن باجة ترجمت في القرن الرابع عشر الميلادي إلى العبرية، وفيها الكثير من آراء ابن باجة وفلسفته، وقد كتبها قبل سفر طويل عزم عليه، وبعث بها إلى تلميذ له ليكون على علم بفلسفته إذا قدر له أن لا يعود، أما رسالة ابن باجة الأخرى « تدبير المتوحد » فهي أهم كتبه وأجلها، ويقول عنها ابن رشد : « أراد أبو بكر أن يختط خطة التدبير المتوحد في هذه الأمة لكنه لم ينجزها، وكثير منها غامض لأنه أول من سار في هذا المضمار ولم يسبقه فيه أحد »؛ وفي المكتبة التيمورية جزء من هذا الكتاب، وقد لخص هذه الرسالة موسى النربوني الإسرائيلي في شرحه العبري لرسالة « حي بن يقظان »، وعلى هذا الملخص عول الباحثون؛ وقد تحدث فيها عن التدبير السياسي وشئون الحكومة الكاملة، وعن أفعال الإنسان، وعن الغاية من الأعمال الإنسانية، ويعرف الفيلسوف بأنه إنسان إلهي سام، وهو لا يقصد إلا أرفع الأعمال وأعلاها ذكراً، وهو ممتاز بهذا عن جميع الناس، إلى غير ذلك من مباحث هذه الرسالة التي تعطينا صورة صادقة عن فلسفة ابن باجة التي قامت على مناهضة آراء الغزالي الصوفية.

وقد وصف ابن طفيل ابن باجة بتوقد الذكاء وصحة النظر وصدق الروية وبأنه شغلته الحياة عن إخراج مكنونات علمه، وبادره الموت قبل نضوج فلسفته، وكان الفيلسوفان متعاصرين وكانت بينهما عداوة شديدة.

وقال فيه تلميذه أبو الحسن علي بن عبد العزيز الغرناطي : « كان في ثقابة الذهن، ولطف الغوص على تلك المعاني الجليلة الشريفة الدقيقة،

أعجوبة دهره، ونادرة الفلك في زمانه، فإن هذه الكتب الفلسفية كانت متداولة من عهد الحكم المستنصر، فما انتهج فيها الناظر قبل ابن باجة سبيلاً، وما تقيد عند الناظرين في تلك الكتب قبل ابن باجة إلا ضلالات كما تبدو عند ابن حزم، وكان أجل نظار زمانه، وإنما انتهجت سبل النظر في هذه العلوم بهذا الحبر وبمالك بن وهيب الاشبيلي ».. وقد تتلمذ عليه كثيرون منهم ابن رشد (٥٢٠ــ٥٩٤هـ) كما يقولون، ومنهم علي بن عبد العزيز الغرناطي الذي نزح عن الأندلس بعد وفاة أستاذه، ومات بصعيد مصر في النصف الأخير من القرن السادس الهجري. ولابن باجة شعر روى بعضه المقري وابن خاقان وابن خلكان، ومنه :

قد أودعوا القلب لما ودعوا حرقا   فظل في الليل مثل النجم حيرانا
راودته يستعير الصبر بعدهم   فقال : إني استعرت اليوم نيرانا

ومنه :

لا والذي جعل الغصون معاطفاً   لهم وصاغ الأقحوان ثغورا
ما مر بي ريح الصبا من بعدهم   إلا شهقت له فعاد سعيرا

وقد كان نبوغ ابن باجة في الفلسفة الطبيعية والهندسة وعلم الهيئة لا حد له، ومن آرائه : أن العقل يمد الجسم بالحركة، وأنه يسير في مدارج حتى يتصل بالعقل الفعال، وأن على الانسان إدراك الصور المعقولة جميعاً وأن العقول الإنسانية خالدة، وأن الناس لا يسمون إلى إدراك الحقيقة إلا في القليل النادر، وعلى الإنسان تصريف وجوه الحيل في اكتساب المال، إلى غير ذلك من آرائه. ويوازن الغرناطي بينه وبين مالك بن وهيب الاشبيلي[1] فيقول : « كانا متعاصرين غير أن مالكا لم يقيد عنه إلا قليل نزر من أول الصناعة الذهنية ــ المعقولات ــ ثم أضرب عن النظر ظاهراً في هذه العلوم وعن التكلم فيها لما لحقه

(١) يصفه المراكشي بالمشاركة في جميع العلوم، والتحقق بكثير من أجزاء الفلسفة.

من المطالبات في دمه لسببها ». وقد قلد ابن باجة فلاسفة الشرق كالفارابي وابن سينا، وإن كان لم يترك لنا فلسفة كاملة تضارع ما للفارابي أو لابن سينا أو للغزالي.

٢ ـــ ابن طفيل : أبو بكر أو أبو جعفر محمد بن عبد الملك ابن طفيل، الحكيم الأندلسي الشهير، ولد في « وادي آش » وهي قرية صغيرة من أعمال غرناطة تحيط بها الأنهار والبساتين، ولجمال الطبيعة وسحرها فيها وصفت شعراً ونثراً في الأدب الأندلسي.

نشأ ابن طفيل في ظلال دولة الموحدين، وأكب على الدراسة والنظر في علوم الأدب والدين، ونبغ فيها، ثم عشق كتب الفلسفة ومباحثها، فتفرغ لدراستها والنظر فيها حتى أصبح من الواقفين على مذاهبها، المطلعين على أسرارها، المفتنين في جميع فروعها من الطبيعيات والإلهيات، واتخذ الطب مهنة، وقربته مهنته من أمير قرطبة زمناً، وسرعان ما اتصل بأبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي ملك الموحدين (٥٨٨ـــ٥٨٠هـ)، وكان يوسف يشجع الفلاسفة، ويجمع كتب الفلسفة، ويدرس فروعها، واختار الملك ابن طفيل طبيبه ووزيره ونديمه، وفي مكتبة الملك الكبير طالع ابن طفيل من كتب الفلسفة الكثير، وكان يقرب الفلاسفة والمفكرين من الملك ويحضه على إكرامهم، وهو الذي نوه عنده بابن رشد، ودعا ابن رشد إلى تلخيص كتب أرسطو ليوسف لما آنس فيه من جودة الذهن وصفاء القريحة، ولما سمعه من شكوى الملك من غموض تراجم مؤلفات أرسطو ورغبته في تلخيصها وتسهيل عباراتها وأغراضها وتقريب مآخذها، وكان ابن طفيل شيخا وابن رشد في عهد الشباب..

وفي هذا الوسط كتب ابن طفيل رسالته « حي بن يقظان »، التي أحدثت في عالم الفكر ضجيجاً عظيماً، ففي البيئات العربية كانت مصدراً هاماً لنظرية التوحيد التي بدأها ابن باجة ونماها ابن طفيل،

وفي البيئات الأوربية قد فازت أيضاً بحظ عظيم من الاهتمام. فترجمها إلى العبرية موسى الناربوني في منتصف القرن الرابع عشر وترجمها إلى اللاتينية « بوك » الإنجليزي، ونشرها في « أوكسفورد » مع النص العربي في سنة ١٦٧١ ثم في سنة ١٧٠٠. ثم ترجمت هذه الترجمة اللاتينية الى اللغة الإنجليزية مرتين، ثم ترجم النص العربي إلى الإنجليزية أيضاً ونشر في سنة ١٧١١. ولا ريب أن إحدى هذه الترجمات هي التي يسرت للكاتب الانجليزي « دانييل دي فويه » التأثر بخيال ابن طفيل حتى جعلته يحاكي رسالة « حي بن يقظان » فينشئ في سنة ١٧١٩ على غرارها روايته الفخمة « روبينسون كروزوويه » التي يشاهد فيها الباحث لوحة أمينة للرقي المنهجي والعواطف الأخلاقية الملموسة في رواية ابن طفيل، وترجم هذا الكتاب الى اللغة الهولاندية في سنة ١٦٧٢. وقد ترجمه إلى الألمانية (بريتيوس) في سنة ١٧٢٦، ثم ترجمه إلى نفس اللغة (إيشورن) في سنة ١٧٨٣.

وكان ابن طفيل في آخر حياته قد وجه عنايته إلى العلم الإلهي، نابذاً ما سواه من فروع الفلسفة، كما كان حريصاً على التوفيق بين الشريعة والفلسفة، معظماً للنبوات، ولم يترك مؤلفات في الفلسفة سوى « حي بن يقظان » وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة عام ١٢٩٩هـ، وكذلك له رسالة في الطبيعيات ورسالة في النفس، لم يصلنا عنهما شيء، ويروى عن ابن رشد أن له كتاباً في (البقع المسكونة وغير المسكونة)، ويذكر ابن رشد أن له آراء في الفلك، كما يذكر (البتروجي) تلميذ ابن طفيل أن أستاذه ذكر له أنه وفق لنظام فلكي لحركات الأفلاك غير النظام الذي اتبعه بطليموس؛ وابن طفيل من غير شكل اول من أخرج الفلسفة في ثوب قصصي جميل، وكان مع هذا شاعراً كاتباً، وفي (المغرب[1]) و (وفيات الأعيان[2]) أن ابن باجة

(١) ص ١٥٦.
(٢) ٣٧٤ : ٢.

كان أستاذاً له ولكن ابن طفيل يقول في رسالته « حي بن يقظان » إنه لم يلقه، فضلاً عن أن يكون قد تتلمذ عليه.

والمرجع الوحيد لدراسة ابن طفيل هو رسالته « حي بن يقظان » أو « أسرار الحكمة المشرقية » التي يشرح فيها ابن طفيل كيف يهتدي الإنسان إلى الاتصال بالعالم العلوي ويعرف الله ويربط روحه به، ويصل إلى مرتبة الإدراك عن طريق الاتصال بالطبيعة والكائنات في إنسان ونبات وحيوان. وقد هدف ابن طفيل إلى أن تكون رداً على آراء ابن باجة في رسالة الاتصال، واسترشد برأي ابن سينا في الاتصال.

وفلسفة ابن طفيل إشراقية تحل معضلة كبيرة من مشكلات الحياة، هي علاقة النفس البشرية بواجب الوجود العظيم، ولكن لم يكتف برأي الغزالي الذي وقف في الاتصال إلى حد التصوف، بل أمعن في فلسفة ابن باجة والفلسفة القديمة ووضح كيف ينمو الفكر الإنساني وكيف يحل مشكلات الوجود.

هذا ولا ننسى أن نقول : إن ابن طفيل روي له كثير من القصائد، ومن شعره الفلسفي قوله :

يا باكيا فرقة الأحباب عن شحط ... هلا بكيت فراق الروح للبدن
يا شد ما افترقا من بعد ما اعتلقا ... أظنها هدنة كانت على دخن
إن لم يكن في رضا الله اجتماعهما ... فيا لها صفقة تمت على غبن

٣ ــ ابن رشد :

هو ابن الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، ولد في قرطبة في سنة ٥٢٠هـ ــ سنة ١١٢٦م من أسرة ماجدة عالية الشأن، توارث أفرادها منذ زمن بعيد بعض المناصب الراقية في الدولة، فكان أبوه قاضياً في قرطبة، ورث القضاء عن جده، وقد مكنه ثراء والده من

أن يتلقى دراسة عالية في كثير من العلوم والفنون مثل الفقه وعلم الكلام والنحو والطب والموسيقى والفلك وبقية علوم الرياضة وما وراء الطبيعة، حتى صار أعلم أهل عصره قاطبة بكل هذه العلوم. وروي أنه لم يدع القراءة طول حياته إلا ليلتين : ليلة زواجه وليلة وفاة والده. وفي سنة ٥٤٨هـ—١١٥٣م قدم ابن طفيل إلى الأمير أبي يعقوب بن عبد المؤمن الموحدي، وقد روى لنا أحد تلاميذ ابن رشد قصة هذه التقدمة فقال على لسان أستاذه ما يأتي : حين مثل ابن رشد بين يدي أمير المؤمنين[1] ألفاه مع ابن طفيل، فلما استقر بهم المجلس، أخذ هذا الأخير يثني عليه وعلى أسرته ثناء، يقول ابن رشد : إنه لا يستحقه. وعلى أثر ذلك وجه الأمير إليه هذا السؤال : هل للسماء مبدأ، أو هي أزلية.. ؟ فارتاع ابن رشد من هذا السؤال، وأحس بحروجة موقفه، وخشي أن تجلب الإجابة عليه سخط الأمير. فاستعمل أسلوب الحكيم وأخذ يتصيد المبررات للفرار من الجواب. فلما شعر الأمير بارتباكه التفت إلى ابن طفيل. وأخذ يتحدث عن هذه المشكلة، فذكر فيها آراء أفلاطون وأرسطو وبعض الفلاسفة الآخرين، وسرد الاعتراضات التي وجهها المتكلمون إلى هذه الآراء، وقد دل حديثه على عمق وسعة اطلاع وقوة ذاكرة أدهشت ابن رشد وملأته إعجاباً بهذا الأمير العالم، كما أعجب الأمير بابن رشد إعجاباً كبيراً[2].

وفي عام ٥٥٨، تولى يوسف بن عبد المؤمن الخلافة بعد والده، وقرب إليه ابن رشد؛ وفي عام ٥٦٥، ولاه قضاء إشبيلية، ثم ولاه

(١) لم يكن هذا الأمير في ذلك العهد أميراً للمؤمنين، لأنه لم يصعد على العرش إلا بعد وفاة والده سنة ٥٥٨هـ — ١١٦٣م. وقد تسبب هذا التعبير « أمير المؤمنين » في خطأ كثير من العلماء الذين كتبوا عن ابن رشد.

(٢) كان من أساتذته أحمد بن رزق؛ ومن أساتذته في الطب عبد الملك بن زهر الأندلسي م ٥٩٠هـ، وأبو جعفر هارون، وفي الفلسفة ابن طفيل وابن باجة.

بعد ذلك قضاء قرطبة، ثم أضاف إليه غرناطة، واختاره قاضي القضاة؛ وبعد وفاة الملك عام ٥٨٠هـ، خلفه ابنه يعقوب بن يوسف على الملك، وكان شديد التعصب على الفلاسفة، ثم وشي بابن رشد عنده، واتهمه خصومه لديه، بأنه يشرك بالله ويشتغل بالفسلفة وعلوم الأوائل، وينكر الدين؛ وقدموا إليه جملة في كتاب لابن رشد نصها : « فقد ظهر أن الزهرة، أحد الآلهة، يحكي بهذه الجملة مذهب قدماء الفلاسفة؛ وسيق ابن رشد إلى المحاكمة. فسأله الملك : هل هذه الأوراق بخطك، فأنكر ذلك، فلعن الملك كاتبها وأمر الناس بلعنه، ثم أخرج ابن رشد مهاناً، وحكم عليه بالنفي هو وتلاميذه، وصدر منشور يتوعد فيه الخليفة من يخوض في شيء من الفلسفة، وأمر بإحراق كتبها إلا الطب والحساب، وقليلاً من علم الفلك؛ وكان منفى ابن رشد وتلاميذه في « أليسانة ».

وبهذا تعرضت الفلسفة والفلاسفة لمحنة جديدة؛ وبعد عام عفا الخليفة عنه وعن تلامذته، والغى الحظر الذي أصدره على الفلاسفة وكتب الفلسفة، وأكرم ابن رشد ورضي عنه. وأخيراً توفي ابن رشد في آخر عام ٥٩٤هـ وقيل في صفر عام ٥٩٥هـ في المغرب، ونقلت رفاته الى قرطبة بعد ثلاثة أشهر ودفن فيها.

وقد تتلمذ على ابن رشد كثيرون منهم ابن سابق وابن حوط الله وغيرهما.

وفلسفة ابن رشد في المغرب تماثل فلسفة ابن سينا في المشرق، وابن رشد يأخذ أرسطو محاولاً التوفيق بين الفلسفة والدين. وقد تتلمذ على آراء ابن رشد الكثيرون من شباب الغرب. بل إن فلسفته كان لها أثر كبير في النهضة الأوربية، وفي بعث اليقظة في بيئات الغرب، وقد كانت بعض مؤلفات ارسطو قد صارت منذ سنة ١٢٥٥ ضمن منهج كلية الفنون بجامعة باريس رغم الحروب الشعواء التي أعلنها

عليها البابوات، ولكن هذه المؤلفات كانت تدرس في ذلك العهد دراسة محايدة، لا يشتغل القائمون بها بمحاولة التوفيق بين الدين والفلسفة.

ولما كان من الضروري أن يستعين الأساتذة المكلفون درس مؤلفات أرسطو بما كتبه الشراح عليها، فقد قام الأستاذ « سيجيه البراباني » بدراسة واسعة لشروح ابن رشد على كتب أرسطو استغرقت أكثر من أحد عشر عاماً منذ سنة ١٢٦٦ إلى سنة ١٢٧٧، فكانت هذه الدراسة مبدأ الحركة التي عرفت فيما بعد باسم « الرشدية اللاتينية » والتي كانت ترمي إلى كشف كل لبس يحوط آراء أرسطو في النقط الأساسية من مذهبه، وهي: أزلية العالم، وجحود علم الإله بالجزئيات، وإنكار انشغال العناية الإلهية بعالم ما بعد فلك القمر، ووجوب صدور المعلومات عن عللها دون أي استثناء، ووحدة العقل المفيض بالنسبة لجميع بني الإنسان، وزوال شخصية النفس بتفكك الجسم. ولكن رجال الدين اضطهدوه، ففي سنة ١٢٧٠ أدان أسقف باريس ثلاث عشرة فقرة من فقرات ابن رشد تتعلق بنظريات أزلية العالم والقضاء والقدر، وإنكار علم الإله بالجزئيات، ووحدة العقل المفيض. وفي سنة ١٢٧٧ أمر البابا جان الحادي والعشرون ذلك الأسقف بإجراء تحقيق كانت نتيجته إدانة مائتين وتسع عشرة فقرة. ومن الغريب أن القديس توماس كان قد أقر كثيراً من هذه الفقرات، فكانت إدانة سيجيه لها إدانة غير مباشرة للقديس توماس فتحت باب معركة حامية الوطيس بين أنصار توماس وخصومه.

وعلى أثر هذا الحكم طرد سيجيه من الجامعة، ثم دعي الى المحاكمة فحكم عليه بالسجن المؤبد، ولكن سكرتيره قتله في سنة ١٢٧٢. وعلى الرغم من هذا الاضطهاد استمرت الحركة الرشدية في طريقها، وكان لها من النتائج ما ينتظر من مثيلاتها من الحركات العنيفة، تضعف حيناً فيقل أنصارها، وتقوى حيناً آخر فيظهر لها أنصار جدد. ومن مظاهر

قوتها بعد حادث سيجيه أن قام جان الجندولي بتدريس هذه الآراء من جديد في تلك الجامعة، فأصدر البابا جان الثاني والعشرون قراراً بطرده من حظيرة الدين، رغم أنه قال في دفاعه عن نفسه : إنه يؤمن بما جاء به الدين، ولكنه لا يستطيع أن يدلل عليه، فهنيئاً للذين يستطيعون التدليل، أما أنا فليس في وسعي بإزائه إلا الإيمان بالقلب.

ثم كان الطب هو السبب الأول الذي اقتاد الفلسفة الرشدية إلى جامعة بادوا في النصف الأول من القرن الرابع عشر، وكان « بيير الألباوي » أول من عمل على وضع ابن رشد في صف أرسطو، وقد أحنق عليه انتصاره لحكيم قرطبة السلطة الدينية، فأمرت بالقبض عليه لتعدمه كما كان مألوفاً في ذلك العصر، ولكنه توفي أثناء التحقيق وفاة طبيعية، فدفع الحنق أولئك المتعصبين إلى إحراق جثته. ومن الأساتذة الذين عملوا على تثبيت الفلسفة الرشدية في جامعة بادوا « جريجوار الربميني » و « جيروم فيراري » و « جان الجندولي » الذي كان أستاذاً في باريس وطرده البابا من حظيرة الدين في سنة ١٣٢٦. وكان قد كتب شروحاً طويلة لكتب أرسطو وابن رشد. ومنهم أيضاً « أوربانو البولوني » الذي كتب في نسة ١٣٣٥ شرحاً لشرح ابن رشد على كتاب الطبيعة لأرسطو، فأحدث بذلك سنة اعتبار ابن رشد من كبار الفلاسفة الجديرين بالشرح، وكان أول العاملين على حلوله في تلك الأوساط محل أرسطو. ومنهم أيضاً بول البندقي المتوفى في سنة ١٤٢٩، والذي كان من أكبر علماء عصره المتضلعين. وكان بول أوجوستانيا شديد التدين، ولكنه وافق على كثير من نظريات ابن رشد وتحمل مسئولياتها أمام دينه، وكان يعلن أن ابن رشد هو أجل من فهموا فلسفة أرسطو، ثم قامت مدرسة في ذلك العهد لاحياء المعارف الإغريقية، وكان على رأسها « نقولا فافا » فأعلنت بلسان زعيمها أن ابن رشد أساء شرح كثير من نظريات حكيم استاجيرا، فاتفق أشياع النظام الديني الذي كان « بول » و «فافا » ينتسبان إليه على أن تعقد مناظرة بين

هذين العالمين يؤيد فيها كل منهما رأيه بالحجة والبرهان، فعقدت هذه المناظرة وحضرها ثمانمائة من رجال الدين، فكان النصر فيها حليف « فافا » على « بول » وابن رشد، ولكن هذه الهزيمة التي أصابت « بول » لم تتعد البيئات الدينية لأنها ــ فيما يظهر ــ كانت مدبرة. أما في البيئات الجامعية فقد بقي سلطانه العلمي عزيزاً سامياً لم يمسه أدنى ضعف. ومن زعماء هذه المدرسة أيضاً « جايتا نودي تيين » (١٣٨٧ــ١٤٦٥) وكان من أسرة عريقة في إتاليا، وقد ساهم بموهبته ومعارفه ومجهوده وثروته في إعلاء المذهب الرشدي وتثبيت أهميته في جامعة بادوا.

ولقد كان حظ هذا العالم أسعد من حظوظ كثير من أسلافه، فسطع نجمه في أوروبا كلها، وطبعت مؤلفاته عدة طبعات، مع أن الباحثين المحدثين يرون أن مذهبه كان أقل وضوحاً من مذهب (بول البندقي)، بل إن من يتعمق في قراءة كتبه يظهر له أنه لا يتفق مع ابن رشد في كل نظرياته على الرغم من أنه يزعم هذا. ولكن لعل السبب في شهرته هو أنه قام بمجهود كبير في الدعاية لابن رشد من جهة، وفي التوفيق بين الشارح (ابن رشد) وبين الدين لا سيما فيما يتعلق بخلود النفس من جهة أخرى. ولقد نجح (جيتانو دي تيين) في التنويه بابن رشد حتى صار بفضله الحكيم الأول الذي لا ينازع في (بادوا) و (بولوني) وأصبح أهم ما يشغل أساتذة الفلسفة في جامعتي هاتين المدينتين هو شرح الشرح الكبير لابن رشد. وفي عام ١٤٨٠ ألفت كاساندرا فيديليه ــ وهي إحدى شهيرات عالمات مدينة البندقية ــ رسالة أيدت فيها تأييداً علمياً بعض النظريات الرشدية، فنالت بها جائزة الفلسفة الكبرى. غير أن هذا التعلق الفائق بمذهب ابن رشد من المفكرين لم يمنع من أن يكون له خصوم يهاجمونه في عنف وقوة. ومن أشهرهم وأبرزهم بومبنازي الذي ظل يناضله تارة بطريقة مباشرة وأخرى على

لسان أنصاره المتحمسين حتى توفي، فكانت وفاته بمثابة هدنة وضعت أوزار الحرب بين الرشدية والبومبنازية.

وعلى أثر ذلك خلا الجو للفلسفة الرشدية، فانفردت بالسلطان في جامعة بادوا، ولكن بعد أن أزال منها مهرة الأساتذة أكثر ما يصطدم مع التعاليم المسيحية، فعادت حركة الترجمة في كتب ابن رشد إلى النشاط من جديد، ولكنها لم تكن أقل رداءة من الترجمة القديمة، لأن أصلها العبري كان سيئاً.

غير أن هذه السيادة الرشدية المغالية كانت قد أحدثت من قبل رد فعل بين المجددين، فنهض أنصار الثقافة الهيلينية الذي كانوا يتعالون على معاصريهم بأنهم هم وحدهم العلماء الحقيقيون بالهيلينية الصحيحة، وأعلنوا احتقارهم لتلك الهيلينة الزائفة المشوهة الآتية عن طريق العرب، وذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك، فصرحوا بأن آراء ابن رشد غير قابلة للمعقولية وغير جديرة بالعقل المثقف. وبالإيجاز كانت غايتهم أن يضعوا كل تراجمة القرون الوسيطة وشراحها في الدرك الأسفل من الإهانة والازدراء. وفي ٤ من إبريل سنة ١٤٩٧ صعد نيقولا توماس للمرة الأولى على المنصة ليدرس أرسطو باللغة الإغريقية. وعلى أثر ذلك احتدمت معركة حامية الوطيس بين الأرسطو طاليسية العربية من خلال ابن رشد، والأرسطو طاليسية الإغريقية من خلال مؤلفات أرسطو نفسه وتلاميذه وشراحه من الإغريق. وقد ساعد على تفاقم هذه المعركة اتجاه العقول في ذلك الحين إلى أفلاطون، إذ أن دراسة هذا الأخير في كتبه أبانت للمثقفين أن العرب كثيراً ما كانوا يخلطون بين آراء هذين الحكيمين مخدوعين بالتلفيق الإسكندري. وقد بدأت هذه النهضة الأفلاطونية في مدينة فلورانسا التي هامت بآراء أفلاطون في كل نواحي حياتها هياماً جعل العلماء يطلقون عليها اسم المدينة الروحية.

وقد كان (بيك دي لا ميراندول) صورة أمينة لتلك المعارك

والمناضلات؛ ففي كتبه يعثر الباحث على الأفلاطونية والأرسطوطاليسية والرشدية وبقية النزعات المختلفة والمذاهب المتباينة المعروفة إذا ذاك، مفصلة تفصيلاً يختلف باختلاف قيمتها وحظوظها في ذلك الحين. وأكثر من ذلك أنه كان يتباهى بأنه يستطيع أن ينصر أية فكرة كانت في جميع المشكلات التي يمكن الإنسانية أن تعرفها. وقد أضاف فولتير إلى هذه الجملة سخرية من صاحبها قوله : بل ومشكلات عديدة أخرى. وقد صارت هذه الجملة الساخرة المضافة إلى جملة بيك دي لامير أندول مثلاً يضرب للسخرية من التباهي، ولكن هذه السخرية لم تكن عادلة من جانب ذلك الساخر، فقد كان بيك دي لا ميراندول دائرة معارف كاملة، وقد أحصى جميع المشكلات التي دارت أو يمكن أن تدور حولها المجادلات الإنسانية في تسعمائة مشكلة، وأعلن مقدرته على حلها بالحجج المنطقية. وقد انتهت هذه المناضلات بانتصار الهيلينة الصحيحة في جميع جامعات أوروبا ومدارسها وانهزام الرشدية فيها ما عدا جامعة بادوا، فقد بقي ابن رشد فيها مستمتعاً بشيء من الاحترام وإن كانت سيادته الأولى قد انمحت. فمثلاً : « زارا بيلا » وهو استاذ الفلسفة في جامعة بادوا من سنة ١٥٦٤ إلى سنة ١٥٨٩ — كان يعتمد في فهم الفصول الغامضة من كتب أرسطو على شروح ابن رشد إلا فيما يتعلق بنظرية خلود النفس، فقد كان يتبع فيها بومبنازي. وقد كان ألبيرتي، وكريمونيني ينسجان على منوال زارا بيلا، فيدعوان إلى نظريات ابن رشد ما خلا نظرية خلود النفس. وفي سنة ١٦١٩ أمرت السلطات الدينية أساتذة جامعة بادوا بنقض كل ما يدرسونه فيها من ضلالات ارسطو، فما وصل هذا الأمر الى مسمع كريمونيني احتج عليه وأجاب بلهجة حادة ملؤها الكرامة والعظمة قائلاً : إنه جاء إلى هذه الجامعة ليبسط آراء أرسطو ويشرحها. فإذا اتهم باللادينية استطاع أن يدافع عن نفسه، وهذا هو كل ما يمكنه فعله. ولهذا يعتبر كريمونيني آخر ممثلي الفلسفة الرشدية في جامعة بادوا. وكانت وفاته في سنة

١٦٣١ بمثابة وضع الحد الأخير لدراسة الفلسفة العربية في الغرب.

إجمال لحال الفلسفة الأندلسية قبل ابن رشد :

ونستعير هنا من ابن طفيل وصفا لحال الفلسفة الأندلسية قبل ابن رشد ذكره في قصته الخالدة « حي بن يقظان[1] » قال : « من ينشأ بالاندلس من أهل الفطرة اللائقة قبل شيوع علم المنطق والفلسفة فيها قطعوا أعمارهم بعلوم التعاليم، وبلغوا فيها مبلغاً رفيعاً، ولم يقدروا فيها على أكثر من ذلك، ثم خلف من بعدهم خلف زادوا عليهم بشيء من علوم المنطق، فنظروا فيه ولم يفض بهم إلى حقيقة الكمال، فكان فيهم من قال :

برح بي أن علوم الورى اثنان ما إن فيهما من خريده
حقيقة يعجز تحصيلها وباطل تحصيله لن يفيده

ثم خلف من بعدهم خلف أحذق منهم نظراً، وأقرب إلى الحقيقة، ولم يكن فيهم أثقب ذهناً، ولا أصح نظراً، ولا أصدق رؤية، من أبي بكر بن الصائغ، غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه، وبث خفايا حكمته، وأكثر ما يوجد له من التآليف إنما هي غير كاملة ومخرومة من أواخرها، ككتابه في النفس، وتدبير المتوحد، وما كتبه في المنطق وعلم الطبيعة، وأما كتبه الكاملة فهي كتب وجيزة ورسائل مختلفة، وقد صرح هو نفسه بذلك، فهذا حال ما وصل إلينا من علم هذا الرجل ونحن لم نلق شخصه؛ وأما من كان معاصراً له ممن لم يوصف بأنه في مثل علمه فلم يترك تأليفاً، وأما من جاء بعدهم من المعاصرين لنا فهم بعد في حد التزايد أو الوقوف على غير كمال، أو ممن لم يصل إلينا حدس أمره.

---

(١) ص ١١ حي بن يقظان.

هذا هو ما قاله ابن طفيل عن الفلسفة الأندلسية قبل ابن رشد، وطبعاً كان ابن طفيل أستاذاً لابن رشد، فلم يدرك حين تأليف رسالته « حي ابن يقظان » عصر نبوغه.. ولا ننسى أن نذكر من الفلاسفة الأطباء في عصر ابن رشد أبو بكر بن زهر المتوفى عام ٥٩٠هـ.

الفلسفة الأندلسية بعد ابن رشد :

علمنا الكثير من حال الفلسفة الأندلسية في عصر الموحدين، وهو العصر الذي عاش فيه ابن رشد، أما حالها في عهد بني الأحمر ملوك غرناطة، فإننا نلاحظ أولاً أنه لم يكن لفلسفة ابن رشد ولا لمؤلفاته سوى أثر قليل في الأندلس بعد وفاته، وكذلك كان أثرها في العالم الإسلامي قليلاً جداً، وقد ضاعت أصول الكثير من مؤلفاته، ولم يكن لابن رشد تلاميذ ولا أتباع يواصلون فلسفته، وذلك بسبب مقاومة الفلسفة في الأندلس.

وليس من شك في أنه كان يوجد الكثيرون من أهل الفكر الحر، كل واحد في معزل عن الآخر، وكانوا يرون في العبث أن يكلف الإنسان نفسه الاشتغال بالفسلفة، إذ لم تكن الفلسفة قد استطاعت وحدها أن تؤثر في الثقافة العامة أو في الفكر الإسلامي أو في مجرى الحياة تأثيراً كثيراً؛ وقد قاوم بنو الأحمر علوم الفلسفة واضطهدوا أصحابها، فهاجر بعضهم إلى أوربا وأقام بعضهم في الأندلس منقطعاً عن النظر فيها، وساعد على ضعف شأن الفلسفة الصراع الشديد بين الأسبانيين والأندلسيين، وكذلك نكبة ابن رشد وتشريد تلاميذه، هذا إلى اضطهاد ملوك غرناطة للفلسفة، فخمدت روحها، وانطفأ شعاعها؛ وعادت الحياة الفكرية في الأندلس إلى الانحطاط، وكثر الصوفيون الذين كان من بينهم قليل نحوا نحو الفلسفة، ولما وجه الامبراطور فريدريك الثاني حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي عدة مسائل فلسفية

للمسلمين في سبتة ندب الملك عبد الواحد فيلسوفاً صوفياً هو ابن سبعين المتوفى عام ٦٦٨هـ للإجابة عنها، وقد فعل ذلك فأخذ يتلو في زهو آراء الفلاسفة القدماء والمحدثين.

ويصف ابن خلدون في مقدمته حال الفلسفة في هذا العهد فيقول بعد أن ذكر ابن الصائغ وابن رشد[١] : « إن المغرب والأندلس لما ركدت ريح العمران بها، وتناقصت العلوم بتناقصه، اضمحل ذلك ــ يشير إلى العلوم العقلية والحكمة ــ منها إلا قليلاً من رسومه تجدها في تفاريق من الناس وتحت رقبة « من علماء السنة[٢] »، ثم يقول : « ويبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة، وخصوصاً في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر، وأنهم على ثبجٍ من العلوم الفلسفية، كذلك بلغنا لهذا العصر أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجة من أرض « رومة » وما إليها من العدوة الشمالية نافقة الأسواق، وأن رسومها هنالك متجددة، ومجالس تعليمها متعددة، ودواوينها جامعة، وطلبتها متكثرة[٣] ».

ويقول كذلك ابن خلدون : « وقد عول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب على زيج لابن إسحاق من متجر تونس في أول المائة السابعة، ويزعمون أنه عول فيه على الرصد، وأن يهودياً كان بصقلية ماهراً في الهيئة والتعليم، وكان قد عُني بالرصد[٤] » وهكذا نجد ابن خلدون

---

(١) ذكر ابن خلدون المجريطي إمام الأندلس في القرن الثالث في التعاليم والسحر وأنه لخص جميع تلك الكتب وهذبها في كتابه « غاية الحكيم » ولم يكتب في هذا العلم بعده، وكتب المجريطي كتاباً في الكيمياء سماه زينة الحكيم (٥٠٤، ٥١٢ المقدمة).

(٢) صـ ٤٥٥ مقدمة ابن خلدون.

(٣) المرجع نفسه

(٤) ٤٦٣ ــ ٤٦٤ المرجع نفسه.

يؤكد اضطهاد الفلسفة في الأندلس والمغرب بعد عصر ابن رشد[1] اضطهاداً شديداً.

ومن فلاسفة هذا العهد موسى بن ميمون تلميذ ابن رشد[2] المتوفى عام ٦٥٠هـ، ولسان الدين بن الخطيب المتوفى عام ٧٧٦هـ وقد درس الطب والفلسفة وعلوم الأدب والدين واللغة وبرع في الكثير فيها، وتولى الوزارة لأبي الحجاج يوسف ثم لابنه محمد بعده، ثم اتهم بالكفر والإلحاد فهرب إلى المغرب الأقصى وقبض عليه في مدينة فاس.

---

(١) وقد تحدث ابن خلدون عن ابن رشد. فذكر أنه لخص كتب أرسطو وشرحها، متبعاً لها، غير مخالف (٤٦٦ المقدمة).

(٢) ولد بقرطبة — ودرس الطب والفلسفة وعلوم الدين ثم هاجر إلى مصر لاضطهاد الموحدين له، وأقام بالفسطاط يعلم الفلسفة ويتاجر في الجواهر، حتى اتخذه صلاح الدين طبيباً خاصاً، وترك مؤلفات كثيرة في الطب والفلسفة وتوفي عام ٦٥٠هـ.

الثقافة والعلوم في الأندلس

تمهيد :

نشطت العلوم والثقافات والفنون في الأندلس نشاطاً كبيراً لا حد له، وزاد من ذلك : عناية ملوكهم وأمرائهم بالعلوم، وذكاء العلماء وشدة تحصيلهم وكثرة روايتهم وهجرتهم المستمرة إلى المشرق، وكثرة المدارس والجامعات والمكتبات، وإقبال العامة والخاصة على العلم على حد سواء.

ويدلك على مكانة العلم والعلماء ما جاء في نفح الطيب للمقري[1] قال : أما حال أهل الأندلس في فنون العلوم، فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التمييز، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعة، ويربأ بنفسه أن يرى فارغاً عالة على الناس، لأن هذا عندهم في نهاية القبح، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة، يشار إليه، ويحال عليه، وينبه قدره وذكره عند الناس، ويكرم في جوار وابتياع حاجة وما أشبه ذلك. وهم يقرءون جميع العلوم في المساجد؛ فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم

---

(١) ١٠٢ : ١ نفح الطيب.

بباعث في نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم، وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم؛ فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم ولا يتظاهر بها خوف العامة، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه؛ فإن زل في شبه رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت، وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجاري والله أعلم. وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم، وسمة الفقيه عندهم جليلة حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه : بالفقيه، وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي : فقيه، لأنها عندهم أرفع السمات.. وعلم الأصول عندهم متوسط الحال، والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة، حتى إنهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة، وهم كثير، والبحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه، وكل عالم في أي علم لا يكون متمكناً من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتمييز ولا سالم من الازدراء، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية، حتى لو ان شخصاً من العرب سمع كلام الشلوبيني أبي علي المشار إليه بعلم النحو في عصرنا الذي غربت تصانيفه وشرقت وهو يقرئ درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه، والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجري على قوانين النحو استثقلوه

واستبردوه، ولكن ذلك مراعى عندهم في القراءات والمخاطبات في الرسائل. وعلم الأدب المنثور في حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبل علم عندهم، وبه يتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستثقل.. والشعر عندهم له حظ عظيم وللشعراء من ملوكهم وجاهة، ولهم عليهم حظ ووظائف والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم إلا أن يختل الوقت ويغلب الجهل في حين ما، وإذا كان الشخص بالأندلس نحوياً أو شاعراً فإنه يعظم في نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العجب، عادة قد جبلوا عليها ».. ويقول باحث في تصوير عناية الأندلسيين بالعلوم والثقافات[1].

وعنوا بجمع الكتب في كل علم وفن. فقد كان في أسبانيا ستون مكتبة عامة أشهرها مكتبة قرطبة. وكانت تحتوي على الكتب العقلية والنقلية التي ترجمها وألفها العرب في الزراعة والفلك والرياضة وفي الطب والكيمياء والموسيقى وفي أصول الدين كالتوحيد والفقه والحديث والتفسير، وفي فنون الأدب كالبلاغة والتاريخ والقصص والرحلات والخطب ودواوين الشعر المختلفة ومعاجم اللغة، كان كل ذلك مجموعاً منظماً في مكتبة الحكم المستنصر (٣٥٠ـ٣٦٦) التي كانت فهارسها أربعة وأربعين ــ كما سبق ــ وبلغت الكتب فيها مائتي ألف مجلد، قالوا إنه قلما يوجد كتاب في مكتبته إلا كان له نظر فيه وتعليق عليه، وكان يجمع في داره الحذاق في صناعة النسخ والضبط ويجود عليهم بالمال، ويبعث بالكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار يزودهم بالمال، وبعث في كتاب الأغاني إلى مؤلفه أبي الفرج بألف دينار من الذهب العين، فجاءه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق، وكذلك كان الخلفاء في إكرام العلماء والأخذ بناصرهم، فكان المنصور بن أبي عامر على

(١) بلاغة العرب في الأندلس ص ١١.

مثل هذه الحال يعمل على ترقية العلوم ونشرها، ويزور المدارس ويحضر الدروس ويختلط بالطلبة ويمدح المدرسين ويكافئ التلاميذ على جدهم، وكانوا إذا فتحوا بلداً أو مدينة يبدأون بانشاء مسجد ومدرسة يقصدون بذلك أن نشر الدين والعلم معاً لازم لتهذيب الأمم، وأن تربية النفوس بالدين كتربية العقول بالعلوم والمعارف، وعنهم أخذ أهل أوربة المدارس الجامعة ونظام الكليات التي يجتمع فيها كثير من الطلبة على أساتذة يتعلمون في العلوم المختلفة، وكان في كل مدينة من مدن إسبانيا مدرسة كبيرة، وكان للطب أربع مدارس آهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الملل.

وقد[1] كانت علوم العرب بالأندلس هي الشعاع الذي أضاء لأهل أوربا ما كان مظلماً من عقلهم، فإنهم لم يعرفوا حكمة اليونان إلا بعد أن قرأوها مترجمة في كتب العرب، وعن العرب أيضاً أخذوا نظام المدارس الجامعة، وقد كان في كل مدينة من مدن الأندلس مدرسة جامعية، وكان للطب بتلك البلاد أربع مدارس آهلة بالطلاب من جميع الملل، في قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية. وكان في قرطبة وحدها ثمانون مدرسة لأنواع العلوم، وذلك في مدة الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ــ٣٦٦هـ).

وورد في صحيفة مدرسة أدنبرج الكلية في بيان فضل عرب الأندلس على أوربا الحديثة : إنا لمدينون للعرب كثيراً، ولو قال غيرنا خلاف ذلك. فإنهم الحلقة التي وصلت مدنية أوربا قديماً بمدنيتها حديثاً، وبنجاحهم وسمو هممهم تحرك أهل أوربا إلى إحراز المعارف، واستفاقوا من نومهم العميق في الأعصار المظلمة، ونحن مدينون لهم أيضاً بترقية العلوم الطبعية والفنون النافعة وكثير من المصنوعات والمخترعات التي نفعت أوربا علماً ومدنية ».

(١) الأدب العربي وتاريخه جـ ٣ ـــ محمود مصطفى.

وقد بنى فيليب الثاني ملك اسبانيا في النصف الأخير من القرن السادس عشر الأسكوريال على قمة مرتفعة، بعيدة عن مدريد بأكثر من خمسين كيلومتراً، والأسكوريال يشمل الكنيسة والقصر والمقبرة الملكية والدير ومدرسة، وفي الأسكوريال مكتبة ضخمة، والقسم العربي فيها غني بالتراث الأندلسي القديم الذي لا يزال مخطوطاً حتى اليوم.

عناية الملوك بالعلم والعلماء :

كان للملوك في الأندلس عناية شديدة بالعلم والعلماء، فعبد الرحمن بن الحكم (٢٠٦ــ٢٣٨هـ)، كان مثلاً في تكريم العلماء، ورعاية الثقافة، وهو الذي قدم زرياب إلى الأندلس في عهده، ويروى أن عبد الرحمن كتب إلى عماله على البلاد بأن يحسنوا إليه، ويوصلوه إلى قرطبة، فلما وصلها أنزله في قصر مشيد، وجعل له مائتي دينار في العام، ولكل واحد من بنيه الأربعة عشرين ديناراً، وأجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار واقطعه دوراً وضياعاً كثيرة. ولعبد الرحمن قصص تدل على كرم وسخاء في رعاية العلم والعلماء.

وفي عهد الناصر (٣٠٠ــ٣٥٠هـ) أنشئت المدارس والمكتبات العامة، وكان دائب الحدب على العلماء والسؤال عنهم، ومجالستهم.

حكى الفقيه أبو القاسم بن مفرج قال : كنت أختلف إلى الفقيه أبي ابراهيم من كبار علماء المالكية في عهد الناصر لدين الله ــ رحمه الله تعالى ــ فيمن يختلف إليه للتفقه والرواية فإني لعنده في بعض الأيام في مجلسه بالمسجد المنسوب لأبي عثمان الذي كان يصلي به قرب داره. ومجلسه حافل بجماعة الطلبة وذلك بين الصلاتين ــ إذ دخل عليه خصي من أصحاب الرسائل جاء من عند الخليفة الحكم فوقف وسلم وقال له : « يا فقيه أجب أمير المؤمنين أبقاه الله، فان

الأمر خرج فيك وها هو قاعد ينتظرك وقد أمرت بإعجالك فالله الله ! فقال سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين ولا عجل، فارجع إليه وعرفه — وفقه الله — عني أنك وجدتني في بيت من بيوت الله تعالى معي طلاب العالم أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله ﷺ فهم يقيدونه عني، وليس يمكنني ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم في رضا الله وطاعته؛ فذلك أوكد من مسيري اليه الساعة، فاذا انقضى أمر من اجتمع إلي من هؤلاء المحتسبين في ذات الله، الساعين لمرضاته، مشيت إليه إن شاء الله تعالى — ثم أقبل على شأنه، ومضى الخصي يهينم متضاجراً من توقفه، فلم يك إلا ريثما أدى جوابه، وانصرف سريعاً ساكن الطيش فقال : يا فقيه أنهيت قولك على نصه إلى أمير المؤمنين أبقاه الله فأصغى إليه، وهو يقول لك : جزاك الله خيراً عن الدين وعن أمير المؤمنين وجماعة المسلمين وأمتعهم بك ! وإذا أنت أوعيت فامض إليه راشداً إن شاء الله تعالى، وقد أمرت أن أبقى معك حتى ينقضي شغلك وتمضي معي. فقال : حسن جميل، ولكني أضعف عن المشي إلى باب السدة ويصعب علي ركوب دابة لشيخوختي وضعف أعصابي، وباب الصناعة الذي يقرب إليّ من أبواب القصر المكرم أحوط لي وأقرب وأرفق بي، فان رأى أمير المؤمنين أيده الله ان يأمر بفتحه لأدخل اليه منه، هون علي المشي، وودع جسمي. وأحب أن تعود وتنهي اليه ذلك عني حتى تعرف رأيه فيه، وكذلك تعود إلي، فاني أراك فتى شديداً، فكن على الخير معيناً. ومضى عنه الفتى ثم رجع بعد حين وقال يا فقيه : قد أجاب أمير المؤمنين إلى ما سألت وأمر بفتح باب الصناعة وانتظارك من قبله ومنه خرجت إليك وأمرت بملازمتك مذكراً بالنهوض عند فراغك. وقال: افعل راشداً وجلس الخصي جانباً حتى أكمل أبو ابراهيم مجلسه بأكمل وأفسح ما جرت به عادته غير منزعج ولا قلق، فلما انفضضنا عنه قام إلى داره فأصلح من شأنه، ثم مضى إلى الخليفة الحكم فوصل إليه من ذلك الباب وقضى حاجته

من لقائه ثم صرفه على ذلك الباب فأعيد إغلاقه على اثر خروجه. قال ابن مفرج : ولقد تعمدنا في تلك العشية إثر قيامنا عن الشيخ أبي ابراهيم المرور بهذا الباب المعهود إغلاقه بدير القصر الذي تجشم الخليفة له فوجدناه مفتوحاً كما وصف الخصي وقد حفه الخدم والأعوان منزعجين ما بين كناس وفراش، متأهبين لانتظار أبي ابراهيم، فاشتد عجبنا لذلك وطال تحدثنا عنه.. فهكذا تكون العلماء مع الملوك، والملوك مع العلماء قدس الله تلك الأرواح[1].

وقد كان اهتمام الحكم (٣٥٠ــ٣٦٦هـ) بالعلم والعلماء لا مثيل له، وهو الذي استقبل أبا علي القالي في وفادته على الأندلس عام ٣٢٨ بدعوة من أبيه، وكتب إلى بعض العمال ان يتلقاه في وفد من وجوه رعيته ففعل وسار به في موكب جليل إلى قرطبة، وقد بعث الحكم وهو ولي العهد كذلك إلى أبي الفرج الأصبهاني، في طلب نسخة من كتابه « الأغاني »، وبعث اليه بألف دينار، فجاءته منه نسخة قبل أن يظهر بالمشرق، وشفعها أبو الفرج بقصيدة يمدحه فيها، وبمؤلف في نسب الأمويين... وكان اهتمام الحكم بالكتب والمكتبات كبيراً، وكان في قرطبة في عهده عشرات المكتبات العامة، وفي غرناطة سبعون مكتبة عامة.

أما ملوك الطوائف فقد جدوا في إعزاز العلم، وإكرام العلماء، متنافسين[2] في الفضل، قاصدين إلى إرضاء العامة، مقدرين ما للعلم من أثر في حفظ ممالكهم. ولقد كان منهم الفقهاء والأدباء والعلماء، في كل فن يؤلفون وكثيراً ما يدعون العلماء إلى التأليف برسمهم، كما فعل ذلك سابقاً في دولة بني مروان أبو علي القالي، فانه طرز كتابه

(١) ١٧٦/١ نفح الطيب.
(٢) ٣/٣٢ الأدب العربي ــ محمود مصطفى.

« الأمالي » باسم أمير المؤمنين الحكم المستنصر وقد تبلغ الدالة بالعالم والاعتزاز منه بشرف العلم، أن يأبى إجابة الأمير إلى جعل كتابه برسمه، فقد ذكروا أن أبا غالب اللغوي القرطبي المتوفى سنة ٤٣٦هـ لما ألف كتابه في اللغة، بعث اليه أبو الجيش مجاهد العامري ملك دانية بألفي دينار، ومركوباً وكساء، على أن يجعل الكتاب باسمه فيزيد فيه : « ألفته لينتفع به الناس، وأخلد فيه همتي، ثم أقبل في صدره اسم غيري، وأصرف الفخر له ! » فلما بلغ هذا مجاهداً استحسن أنفته.

ولقد بلغ من حرص هؤلاء الأمراء على ظهور الكتب مؤلفة برسمهم أن عادى الأخ أخاه في سبيل ذلك، وقتل المؤلف الذي آثر أخاه بالذكر في مقدمة كتاب، فقد ذكروا في سبب قتل الفتح[1] بن خاقان (٤٨٠ــ٥٢٩هـ) صاحب كتابي « قلائد العقائد » و « مطمح الأنفس » وقد وجد مقتولاً بفندق بمدينة مراكش ــ أن الذي أشار بقتله هو أمير المسلمين أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين، أخو أبي اسحق إبراهيم، الذي ألف له الفتح بن خاقان كتاب « قلائد العقيان »، وذكر في خطبة الكتاب، فحسده أخوه على هذه الميزة وأشار بقتله . وهذه عبارة المقدمة التي ورد فيها اسم أبي اسحق « ولم يزل شخص الأدب وهو متوار، وزنده غير وار. وجده عاثر، ومنهجه داثر. إلى أن أراد الله اعتلاء اسمه، وإحياء رسمه، وإنارة أفقه، وإعادة رونقه، فبعث من الأمير الأجل أبي أسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين ملكاً علياً، وغدا للبة المجد حلياً، وهمى على الأمة وسمياً وولياً ».

ومن مؤلفي هؤلاء الملوك المظفر بن الأفطس صاحب بطليموس، كان كثير الأدب، جم المعرفة، محباً لأهل العلم، جماعاً للكتب، ذا خزانة عظيمة قال في حقه ابن بسام : كان المظفر المتوفى سنة ٤٦٠هـ، أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع، وله التصنيف الرائق، والتأليف

(١) ولد باشبيلية ونشأ بالأندلس، وكتب لابن تاشفين، وله : مطمح الأنفس وقلائد العقيان.

الفائق، المترجم بالتذكرة، والمشتهر أيضاً باسم الكتاب المظفري في خمسين مجلداً، يشتمل على فنون وعلوم ومغاز وسير ومثل وخبر، وجميع ما يختص به علم الأدب، وذكر « المعجب » أنه كان ولوعاً بالاطلاع على جميع فروع الثقافة فجمعت له كتب ومؤلفات في شتى أنواع العلوم، وقد جمع ما ألفته له العلماء في كتاب سماه باسمه.

وقد اشتهر أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بحبه للعلم وجمع الكتب، وكان يناقش العلماء، حتى قال الفيلسوف ابن رشد، أشهر حكماء الأندلس على الإطلاق، والمعتبر في المغرب كابن سينا في المشرق : إنه هو الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطو.

أشهر العلماء في الأندلس :

١ ـــ نبغ في علوم اللغة كثيرون، من أشهرهم أبو بكر الزبيدي صاحب مختصر العين المتوفى عام ٣٧٩هـ، وهو محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي. قال ابن الفرضي : كان واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة، أخذ العربية عن أبي علي القالي وأبي عبدالله الرياحي. وأدب ولد المستنصر بالله، وولي عهده هشام، وولي قضاء قرطبة، وصنف : مختصر العين، وأبنية سيبويه، والواضح في العربية، وما يلحن فيه عوام الأندلس، وطبقات النحويين. توفي سنة ٣٧٩ وقيل ٣٩٩، والزبيدي بضم الزاي وفتح الباء نسبة إلى زبيد وهي قبيلة باليمن كما في وفيات الأعيان، وقد ألف مختصر العين الزبيدي لهشام المؤيد مختصراً له من كتاب العين.

٢ ـــ ابن سيده : وهو الحافظ أبو الحسن علي بن إسماعيل، كان إماماً في اللغة والعربية حافظاً لهما. وقد جمع في ذلك جموعاً منها « كتاب المحكم في اللغة » وهو كتاب جامع، رتبه ترتيب كتاب العين،

ويمتاز بالضبط والدقة، وصحة الشواهد؛ وهو برمته في المتحف البريطاني، ومنه بدار الكتب أجزاء لا تتم نسخة، ومنها المخصص وهو معجم في سبعة عشر جزءاً مطبوع بمصر. ومنها «شرح مشكل المتنبي» وهو مخطوط بدار الكتب المصرية، وكان ابن سيده ضريراً وأبوه كذلك. وكان أبوه قبله قيماً باللغة، وعليه اشتغل ابنه في أول أمره، وتوفي سنة ٤٥٨هـ.

٣ — وأبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن خروف النحوي الأندلسي الإشبيلي، كان فاضلاً في علم العربية، وله فيها مصنفات، شهدت بفضله وسعة علمه. شرح كتاب سيبويه شرحاً جيداً، وشرح كتاب الجمل للزجاجي. قالوا : كان في خلقه زعارة (شراسة) ولم يتزوج قط، وكان يسكن الحانات، واختل في آخر عمره، ومشى في الأسواق عريان بادي العورة. توفي باشبيلية سنة ٦٠٩ أو ٦١٠ على ما ذكره ابن خلكان أو سنة ٦٠٣ كما يقول المزهر.

٤ — وعلي بن مؤمن بن محمد المكنى أبا الحسن بن عصفور النحوي الحضرمي الإشبيلي حامل لواء العربية في زمانه بالأندلس، أخذ عن الدباج والشلوبيني ولازمه مدة، ثم كانت بينهما منافرة ومقاطعة، وتصدر للاشتغال بالتدريس مدة في عدة بلاد، وجال في الأندلس وأقبل عليه الطلبة، وكان أصبر الناس على المطالعة لا يمل ذلك، ولم يكن عنده ما يؤخذ عنه، غير النحو ولا تأهل لغير ذلك، وكان رقيق الدين، جلس في مجلس شراب فلم يزل يرجم بالنارنج حتى مات سنة ٦٦٣ وقيل ٦٦٩هـ. وصنف كتباً كثيرة.

٥ — وعمر بن محمد أبو علي الإشبيلي المعروف بالشلوبين، إمام عصره في العربية بلا مدافع، وآخر أئمة العربية بالمشرق والمغرب، وكان العارفون بقدره من تلاميذه وغيرهم يغالون فيه مغالاة شديدة، وكانت فيه مع ذلك غفلة وصورة بله، حتى قالوا إنه كان يوماً على جانب النهر وبيده كراريس فوقع منها كراسة في الماء وبعدت عنه

فلم تصل اليها يده فأخذ كراسة أخرى وجذبها بها فتلفت بالماء !! وله في هذه الحال حكايات كثيرة. توفي باشبيلية سنة ٦٤٥هـ.

والشلوبيني والشلوبين بلغة الأندلس الأبيض الأشقر كما قال ابن خلكان، وقال ياقوت في معجم البلدان : شلوبين أو شلوبينة أو شلوبينية بالياء المخففة : حصن بالأندلس، من أعمال كورة ألبيرة على شاطىء البحر، كثير الموز وقصب السكر والشاه بلوط، ومنه أبو علي الشلوبيني. وقال صاحب القاموس المحيط شلوبين أو شلوبينية : بلد بالمغرب، منه أبو علي الشالوبيني النحوي : وقال السيوطي في بغية الوعاة : أبو علي الإشبيلي الأزدي المعروف بالشلوبين.

٦ ـــ وعبدالله بن السيد البطليوسي، وكان عالماً بالأدب واللغات، متبحراً فيهما، سكن مدينة بلنسية، وكان الناس يجتمعون إليه ويقرأون عليه؛ وكان حسن التعليم جيد التفهم، وله كتاب : « الاقتضاب في شرح أدب الكتاب » وهو مطبوع، توفي سنة ٥٢١هـ.

٧ ـــ ومحمد بن يوسف أثير الدين أبو حيان الأندلسي الغرناطي النفزي (نسبة إلى نفزة ـــ بالفتح ـــ وهي قبيلة من البربر) وهو نحوي عصره، ولغويه، ومفسره، ومحدثه، ومقرئه، ومؤرخه وأديبه، سمع بالأندلس وإفريقية، ومصر والحجاز وغيرها، وتولى التدريس بمصر بالمنصورية. وكان يقرئ بجامع الأقمر، وكان فصيح العبارة، وقد أخذ العربية بمصر عن البهاء بن النحاس وأخذ عنه أكابر عصره، وتقدموا في حياته : كالشيخ تقي الدين السبكي والجمال الأسنوي، وابن قاسم؛ وابن عقيل وغيرهم؛ وكان له إقبال شديد على أذكياء الطلبة، وكان ثبتاً صدوقاً حجة، سالم العقيدة من البدع الفلسفية، كثير الخشوع والبكاء عند قراءة القرآن، وهو الذي جرأ الناس على مصنفات ابن مالك، وشرح لهم غامضها وألّف كثيراً، ومات بمصر سنة ٧٤٥هـ.

٨ ـــ ومن الأندلسيين أصلاً كذلك ابن مالك جمال الدين محمد

ابن عبدالله بن مالك الامام العلامة الأوحد الطائي الجياني الأندلسي، المالكي حين كان بالمغرب، الشافعي حين انتقل الى المشرق، النحوي نزيل دمشق.

ولد ــ رحمه الله ــ بجيان الأندلس سنة ٦٠٠هـ أو في التي بعدها، وسمع بدمشق من مكرم، وأبي صادق الحسن بن صباح وأبي الحسن السخاوي وغيرهم، وأخذ العربية عن غير واحد، فممن أخذ عنه بجيان أبو المظفر ثابت بن محمد بن يوسف بن الخيار الكلاعي من أهل لبلة، وأخذ القراءات عن أبي العباس أحمد بن نوار، وقرأ كتاب سيبويه على أبي عبدالله بن مالك المرشاني، وجالس ابن يعيش وتلميذه ابن عمرون وغيره بحلب، وتصدر بها لاقراء العربية، وصرف همته إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية، وأربى على المتقدمين. وكان إماماً في القراءات وعالماً بها؛ وصنف فيها قصيدة دالية مرموزة في قدر الشاطبية.

وأما اللغة فكان اليه المنتهى فيها، قال الصفدي أخبرني أبو الثناء محمود قال ذكر ابن مالك يوماً ما انفرد به صاحب المحكم عن الأزهري في اللغة، قال الصفدي : وهذا أمر يعجز، لأنه يحتاج إلى جميع معرفة ما في الكتابين، وأخبرني عنه : أنه كان إذا صلى في العادلية ــ لأنه كان إمام المدرسة ــ يشيعه قاضي القضاة شمس الدين ابن خلكان إلى بيته تعظيماً له. ومع هذا لم ندر لأي سبب أغفل ابن خلكان ترجمته.

وقد روى عنه الألفية شهاب الدين محمود المذكور، ورواها الصفدي خليل عن شهاب بن محمود قراءة، ورواها إجازة عن ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر، وعن شهاب الدين بن غانم بالإجازة عنهما عنه. وأما النحو والتصريف فكان فيهما ابن مالك بحراً لا يجارى، وإماماً لا يبارى. أما اطلاعه على أشعار العرب التي يستشهد بها على النحو

واللغة فكان أمراً عجيباً وكان الأئمة الأعلام يتحيرون في أمره. وأما الاطلاع على الحديث فكان فيه آية، وكان أكثر ما يستشهد بالقرآن، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث، وإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى أشعار العرب، هذ مع ما هو عليه من الدين المتين والعبارة وصدق اللهجة وكثرة النوافل وحسن السمت وكمال العقل، وأقام بدمشق مدة يصنف ويشتغل بالجامع وبالتربة العادلية وتخرج عليه جماعة، وكان نظم الشعر عليه سهلاً رجزه وطويله وبسيطه.

ومن تصانيف ابن مالك « الموصل في نظم المفصل » وقد حل هذا النظم فسماه : سبك المنظوم، وفك المختوم، ومن قال : إن اسمه فك المنظوم، وسبك المختوم، فقد خالف النقل والعقل، ومن كتب ابن مالك « الكافية الشافية » ثلاثة آلاف بيت وشرحها، و « الخلاصة » وهي مختصر الشافية، و « إكمال الأعلام بمثلث الكلام » وهو مجلد كبير كثير الفوائد يدل على اطلاع عظيم و « لامية الأفعال وشرحها » و « فعل وأفعل » و « المقدمة الأسدية » وضعها باسم ولده الأسد و « عدة اللافظ وعمدة الحافظ » و « النظم الأوجز فيما يهمز » و « الاعتضاد في الظاء والضاد » مجلد و « إعراب مشكل البخاري » و « تحفة المودود في المقصور والممدود » وغير ذلك كشرح التسهيل.

وروى عنه ولده بدر الدين محمد، وشمس الدين بن جعوان، وشمس الدين ابن أبي الفتح، وابن العطار، وزين الدين أبو بكر المزي، والشيخ أبو الحسن اليوتيني (شيخ المؤرخ الذهبي)، وشهاب الدين بن غانم، وناصر الدين بن شافع، وخلق سواهم. ومن رسوخ قدمه في علم النحو أنه كان يقول عن ابن الحاجب : إنه أخذ نحوه من صاحب المفصل، وصاحب المفصل نحوي صغير، وناهيك بمن يقول هذا في حق الزمخشري. وكان الشيخ ركن الدين بن القوبع يقول : إن ابن مالك

ما خلى للنحو حرمة. وقدم رحمه الله القاهرة ثم رحل إلى دمشق وبها مات ثاني عشر شعبان سنة ٦٧٢هـ.

وكان ذا عقل راجح حسن الأخلاق مهذباً ذا رزانة وحياء ووقار وانتصاب للإفادة، وصبر على المطالعة الكثيرة، تخرج به أئمة ذلك الزمان كابن المنجى وغيره، وسارت بتصانيفه الركبان، وخضع لها العلماء والأعيان، وكان حريصاً على العلم حتى إنه حفظ يوم موته ثمانية شواهد.

وذكر الصفدي عن الذهبي، أن ابن مالك صنف الألفية لولده تقي الدين محمد الملقب بالأسد، واعترضه العلامة العجيسي بأن الذي صنف له عن تحقيق المقدمة الأسدية، قال : وأما هذه يعني الألفية فذكر لي من أثق بقوله، أنه صنفها برسم القاضي شرف الدين هبة الله بن نجم الدين عبد الرحيم بن شمس بن ابراهيم بن عفيف الدين بن هبة بن مسلم بن حسان الجهني الحموي الشافعي الشهير بابن البارزي.

وقال بعض المغاربة يمدح ابن مالك وألفيته :

لقد مزقت قلبي سهام جفونها ... كما مزق اللخمي مذهب مالك
وصال على الأوصال بالقد قدها ... فأضحت كأبيات بتقطيع مالك
وقلدت إذ ذاك الهوى لمرادها ... كتقليد أعلام النجاة ابن مالك
وملكتها رقي لرقة لفظها ... وإن كنت لا أرضاه ملكاً لمالك
وناديتها يا منيتي بذل مهجتي ... ومالي قليل في بديع جمالك

٩ ــ ومن المؤلفين في التفسير أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد القرطبي (٢٣١ــ٢٧٦هـ)، وله تفسير ضخم، قيل إنه لم يؤلف مثله في الإسلام، وفضل على تفسير ابن جرير الطبري، وكان من أكبر أئمة الحديث في الأندلس، روى عن ألف وثلاثمائة راو.

١٠ ــ ومن الأئمة رجال الدين في الأندلس يحيى بن يحيى بن كثير الليثي، وكانوا يدعونه عاقل الأندلس وراويها ومحدثها، ارتحل

إلى المشرق، وسمع من الإمام مالك الموطأ ورواه عنه. حتى كان المشارقة يرجعون إلى روايته ويقدمونه على غيره مع كثرة رواة كتاب الموطأ. وهو من الذين عملوا على نشر مذهب مالك في الأندلس هو وأستاذه زياد بن عبد الرحمن اللخمي، وكان أميناً في دينه معظماً لدى الأمراء لترفعه عن القضاء. توفي بقرطبة سنة ٢٣٤هـ.

١١ ـــ ومن فقهاء الأندلس المعروفين كذلك عبد الملك بن حبيب السلمي القرطبي ولد سنة ١٧٤ وتوفي سنة ٢٣٨هـ. وكان فقيه عصره، سكن قرطبة وزار مصر ثم عاد إلى الأندلس وتوفي بها. وكان من كبار فقهاء مذهب مالك، عالماً بالتاريخ والأدب. ألف كتباً كثيرة منها « طبقات الفقهاء »، وطبقات المحدثين، وتفسير موطأ مالك، والواضحة، وغيرها.

١٢ ـــ ومن علماء التفسير والحديث المعروفين في الأندلس : القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي ولد سنة ٤٨١ هـ وتوفي سنة ٥٤٢هـ، ومن أشهر كتبه « الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » وهو من أعظم كتب التفسير وأجلها.

١٣ ـــ ومن العلماء الفقيه الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣هـ وله : التمهيد والاستيعاب.

١٤ ـــ ومن أشهر علماء الشريعة : القاضي عياض، كان إمام الحديث في وقته ولد بمدينة سبتة سنة ٤٧٦هـ وولي القضاء بها، وتوفي بمراكش سنة ٥٤٤، ومن كتبه الشهيرة : « كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى » و « طبقات الحاكمين » و « مشارق الأنوار في غريب الحديث » وغيرها.

١٥ ـــ ومن أئمة الدين المعروفين أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، سبق ذكره في الفلاسفة، وأصل جده الأعلى من بلاد

فارس وقد دخل أحد أجداده الأندلس. ولد أبو محمد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ. ولما شب اشتغل بتعلم العلوم الدينية : كالحديث والفقه، حتى صار من كبار العلماء في ذلك. وألف في علم الحديث والفقه والأصول ومراتب العلوم، وكتب مباحث في أصول الأديان وما كان من التبديل والتغيير في بعضها. وألف رسائل في الطب والأدب، فكان عالماً وأديباً وفقيهاً وشاعراً متفنناً في العلوم جميعها، عاملاً بعلمه حتى قالوا : إنه كان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسعة في علم اللسان ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار. وكانت بينه وبين علماء زمانه مناظرات ومجادلات حملت أعداءه على التشنيع به، حتى نفرت منه القلوب، وأجمع فقهاء زمانه على تضليله، فأقصته الحكام عن بلاده حتى توفي سنة ٤٥٦هـ. ومن أشهر كتبه : كتاب « الفصل في الملل والنحل » تكلم فيه على مذاهب الفلاسفة ومعتقداتهم، وفصل الكلام على الفرق الإسلامية. وهذا الكتاب من أفضل ما كتب في هذه الموضوعات.

١٦ ــ والشاطبي صاحب الشاطبية في القرآن، وقد توفي عام ٥٩٠هـ.

١٧ ــ وأبو العباس المرسي، وكان مفسراً جليلاً، أخذ عنه ابن عطاء الله الاسكندري، وقد توفي بالاسكندرية عام ٦٨٦.

١٨ ــ ومن أشهر مؤلفيهم في التاريخ ابن حيان، المتوفى عام ٤٧٦هـ. صاحب « المبين » في ستين مجلداً[1] والمظفر بن الأفطس صاحب بطليوس، وله كتاب « المظفري » في خمسين مجلداً، وتوفي عام ٤٦٠هـ. ومن كتبهم في الطبقات كتاب « طبقات الأمم » للقاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي المتوفى سنة ٤٦٢، وذكر فيه تاريخ العلوم عند جميع الأمم، وعد علماء كل أمة، ولابن بسام الشنتمري

(١) وله : « المقتبس في تاريخ الأندلس » في عشرة مجلدات وهو مفقود.

المتوفى سنة ٥٤٢هـ، كتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » وهو تاريخ الأندلس وآدابها في القرن الخامس الهجري[1]، ومنه جزءان مخطوطان في دار الكتب المصرية، والثالث في برلين، وقد طبع الكتاب في مصر.

ولابن بشكوال أبي القاسم خلف الخزرجي الأنصاري القرطبي المتوفى سنة ٥٧٨هـ : كتاب « الصلة » جعله ذيلاً لتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي المتوفى سنة ٤٠٣هـ، الواقع في عدة مجلدات، وقد طبع كتاب « الصلة » في مدريد في مجلدين، وبه ١٤٤٠ ترجمة، وقد ذيله ابن الأبار المتوفى سنة ٦٥٨هـ، في كتاب سماه « تكملة الصلة » وقد طبع في مدريد في مجلدين فيهما ٢١٥٢ ترجمة لأعيان الأندلس وعلمائها، وشعرائها. وللفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٢٩ هـ كتابان: « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس » في أخبار الوزراء، والكتاب، والعلماء والشعراء. ولقد بلغ من عنايتهم بالتاريخ، أن أرخوا المدينة الواحدة في كتاب، كما فعل لسان الدي بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦، في كتاب « الإحاطة في أخبار غرناطة ». ومن المؤرخين : علي ابن موسى بن سعيد المغربي الشاعر الرحالة الغرناطي، رحل إلى مصر والشام وبلاد العراق والحجاز، ودون مشاهداته في مؤلفات بقي منها : « المغرب في حلى المغرب » في خمسة عشر مجلداً، توارث تأليفه ستة من آباء المؤلف وأعمامه، في ١١٠ سنة، وكتاب « المشرق في حلى المشرق » في ستين جزءاً، وهذا مفقود، وتوفي ابن سعيد في

---

(١) وقد قسم المؤلف الكتاب إلى أربعة أقسام : الأول في أدباء أهل قرطبة وما يضاف إليها من بلاد أواسط الجزيرة، والثاني في أدباء الجانب الغربي من الأندلس من إشبيلية إلى ساحل البحر المحيط، والثالث في أدباء الجانب الشرقي، والرابع فيمن طرأ على الأندلس من الأدباء، وذكر المستشرق (جيمس هيورث دن) أن الكتاب منه نسخة خطية كاملة في مكتبة باريس.

دمشق سنة ٦٧٣. ولابن بطوطة المتوفى عام ٧٧٨هـ كتابه : تحفة الأنظار في غرائب الأمصار. وكتاب لسان الدين بن الخطيب صاحب « الإحاطة في أخبار غرناطة » في مجلدين وهو مرتب على حروف المعجم، ابتدأه المؤلف بمقدمة عن ولاية غرناطة وعادات أهلها وشرح كثير من أحوالهم على أيامه، وعبارته مسجوعة، وتراجمه طويلة، وآخرها ترجمة المؤلف لنفسه، وهو خاص بمشهوري غرناطة، عاصمة ملك بني الأحمر.

ومن عنايتهم بالتاريخ، أن نظموه شعراً، كما فعل أحمد بن عبد ربه، المتوفي سنة ٣٢٨هـ صاحب العقد الفريد، فإنه نظم حروف عبد الرحمن الناصر ونظم كذلك تاريخ المنذر بن محمد (٢٧٣ــ٢٧٥هـ). وسبقه إلى نظم التاريخ يحيى بن حك الجيَّاني المتوفى سنة ٢٥٠هـ، فقد ذكروا أن له تاريخاً منظوماً.

١٩ ــ ومن الرحالة الأندلسيين المؤرخين : ابن جبير الأندلسي محمد ابن أحمد بن جبير الكناني (٥٤٠ ــ ٦١٤هـ). وكان ميلاده ببلنسية أو بشاطبة، وتوفي في الاسكندرية. وكان مقيماً بغرناطة، وهو أديب شاعر مجيد، وقد قام بعدة رحلات إلى المشرق :

الأولى : قام بها من غرناطة عام ٥٧٨هـ، وعاد الى غرناطة في محرم سنة ٥٨١هـ، وقد زار فيها مصر والحجاز والشام وبغداد.

والثانية : قام بها من غرناطة عام ٥٨٥، وعاد إليها عام ٥٨٧هـ.

والثالثة : قام بها من سبتة ودخل فيها مكة، ثم عاد إلى بيت المقدس، ورحل إلى مصر، فأقام بالاسكندرية حتى توفي.

ويحدثنا ابن جبير (٥٤٠ ــ ٦١٤هـ) في رحلته الكثير من المعلومات عن صقلية، وانتشار المسلمين فيها، ويصف ملك الجزيرة المسيحي وحسن سيرته واستخدامه للمسلمين وأنه كثير الثقة بالمسلمين يسكن

إليهم في أحواله، ويذكر تشبه الملك بملوك المسلمين، ويقول ابن جبير : ومن عجيب شأن هذا الملك أنه يقرأ ويكتب بالعربية[1].

ثم يتكلم على الجزائر المجاورة لصقلية واضطهاد المسلمين بها وإلجاءهم إلى التنصر وتعذيبهم، وما تبع ذلك من أحوال تسوء كل مسلم[2].

ويذكر كذلك استرقاق المسلمين رجالاً ونساء في سردانيا[3].

هذا كله بعد أن كانت كريت في القرن الرابع : جميع سكانها مسلمون، وكان أميرها يسمى عبد العزيز بن شعيب من ولد أبي حفص البلوطي الأندلسي وذلك عام ٣٤٥هـ، وقد غزا المسلمون كذلك جزيرة صقلية زمان بني الأغلب عام ٢١٢هـ، ثم قرعوا أبواب روما وضربوا الجزية على البابا[4].

٢٠ ــ ومن مؤرخي الأندلس المقري صاحب نفح الطيب شهاب الدين أحمد بن محمد أبو العباس المقري التلمساني (٩٨٨ــ١٠٤١هـ) : من أفذاذ الأدباء والمفكرين العرب في القرن الحادي عشر الهجري، وقد نشأ في مدينة « مقرة » في إقليم الزاب بالمغرب الأوسط، ورحل إلى جهات كثيرة في المغرب، وإلى البلاد الإسلامية : مصر والحجاز والشام، ومات في القاهرة، حيث دفن في مقبرة المجاورين، بعد أن ترك وراءه آثاراً أدبية خالدة، ومؤلفات ممتازة مشهورة، وذكراً مدوياً في كل مكان.

وترجع أهمية تآليف المقري إلى أنها دوائر معارف عامة عن الأدب

---

(١) ٣٠٨ و ٣٠٩ رحلة ابن جبير.
(٢) ٣٠٩ــ٣٢٤ رحلة ابن جبير.
(٣) ص ٤ المرجع نفسه.
(٤) ٢٤ حضارة العرب في الأندلس للبرقوقي.

العربي في الأندلس والمغرب، وموسوعة تاريخية كبرى عن الحياة السياسية والفكرية والأدبية في هذه البلاد؛ وقد طارت شهرة كتابه « نفح الطيب » في العالم كله، وعد مرجعاً أصيلاً في الآداب العربية في الأندلس خلال حكم العرب لها، وقد استقى المقري مواد هذا الكتاب من مئات المراجع التي ضاعت بعد عصره، وبقي ذكرها وآثار منها في نفح الطيب.

وظل تاريخ المقري مجهولاً أو شبه مجهول، حتى تصدى للكتابة عنه أديب تونسي معاصر، هو البحاثة « الحبيب الجنحاني » الذي تحدث في مفتتح كتاب ألفه عن المقري بعنوان « المقري صاحب نفح الطيب » عن الحياة الفكرية في العالم الإسلامي في عصر المقري، وتكلم عن حياة المقري وآثاره ومؤلفاته ومكانته العلمية والأدبية في عصره في شيء من الإفاضة والتحليل والبحث والنقد.

وفي آخر هذا الكتاب القيم يتكلم المؤلف عن المقري المؤرخ والشاعر والكاتب، ويأتي بنماذج مختارة من أدبه. ثم يحصي شتى المصادر التي رجع إليها في كتابة بحثه.

٢١ ــ ومن علماء الأدب في الأندلس :

الأعلم الشنتمري المتوفى عام ٤٧٦هـ، وله كتب عديدة منها : شرح كتاب سيبويه، وشرح ديوان زهير، وشرح الشعراء الستة الجاهليين.

ومنهم : أبو علي القالي صاحب الأمالي (٢٨٨ــ٣٥٦هـ).

وقد ولد ونشأ في ديار بكر سنة ٢٨٨هـ. ثم رحل إلى العراق وتلقى العلم في بغداد. ورحل إلى الأندلس سنة ٣٢٨هـ فحفل به عبد الرحمن الناصر وجعله مؤدب ابنه الحكم ومعلمه. واشتهر أمر القالي في الأندلس حتى أخذ عنه كثير من أدباء زمانه. واشتغل بالتدريس في مسجد قرطبة وهناك أملى على تلاميذه كتاب الأمالي المشهور.

والقالي اسمه إسماعيل، ولقبه أبو علي، واسم أبيه القاسم، وكان من موالي عبد الملك بن مروان. وأكثر أبو علي من حفظ اللغة والشعر، وعني عناية شديدة بدرس نحو البصريين، وتتلمذ لابن دريد، ونفطويه، وابن درستويه، وغيرهم. وقد أقام ببغداد خمساً وعشرين سنة، ثم أقام بالموصل زمناً، ثم وفد على الأندلس في زمن الناصر، وكان ابنه الحكم يتصرف حينئذٍ من أمر أبيه كالوزير، فأمر عاملهم ابن رماحس؛ أن يجيء، مع أبي علي إلى قرطبة في وفد من وجوه رعيته، ينتخبهم من بياض أهل الكورة، تكرمة أبي علي، ففعل، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل، فكانوا يتذاكرون الأدب في طريقهم، ويتناشدون الأشعار، إلى أن تجاوزوا يوماً، وهم سائرون أدب عبد الملك بن مروان، ومسألته جلساءه عن أفضل المناديل، وإنشاده البيت :

ثمت قمنا إلى جرد مسومة   أعرافهن لأيدينا مناديل

وكان الذاكر للحكاية الشيخ أبا علي، فأنشد الكلمة في البيت : « أعرافها لأيدينا مناديل ». فأنكرها ابن رفاعة الألبيري. وكان من أهل الأدب والمعرفة، وفي خلقه حرج وزعارة، فاستعاد أبا علي البيت مستثبتاً مرتين، وفي كلتيهما أنشده « أعرافها »، فلوى ابن رفاعة عنانه منصرفاً، وقال : « مع هذا يوفد على أمير المؤمنين وتجشم الرحلة لتعظيمه، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس، لا يغلط الصبيان فيه، والله لا تبعته خطوة »، وانصرف عن الجماعة، وندبه أمير رماحس ألا يفعل، فلم يجد فيه حيلة، وكتب إلى الحكم يعرفه، ويصف له ما جرى لابن رفاعة ويشكوه، فأجابه على ظهر كتابه : « الحمد لله الذي جعل في بادية من بوادينا من يخطئ وافد أهل العراق إلينا، وابن رفاعة أولى بالرضا عنه.

ومن علماء الأدب كذلك ابن عبد ربه (٢٤٦ــ٣٢٨هـ).

وكتابه « العقد الفريد » يحسب من أمتع كتب الأدب وأجلها فائدة

وأوسعها مادة. جرى مؤلفه في تصنيفه على أسلوب لم يسبق إليه، فقسمه إلى عقود وجواهر، تكلم في كل باب منها على موضوع خاص. فجاء وافياً في الأدب العربي وتاريخ العرب وأحوالهم، جامعاً لكثير من القصص والأخبار وأيام العرب وعلوم اللغة، وكثير من المسائل الأدبية محتوياً على جملة من الحكايات والنوادر والملح، مما يحتاج إليه الأديب من شعر ونثر. وأكثر الكتاب مختار من كلام الكتّاب والمؤلفين من أهل المشرق، فهو كتاب جليل الفائدة لمن يريد الوقوف على أدب العرب.

ومن علماء الأدب في الأندلس كذلك :

جمال الدين أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي المعروف بابن الأشتركوني المتوفى سنة ٥٣٨، وله خمسون مقامة أنشأها بقرطبة على منوال مقامات الحريري والتزم فيها ما لا يلزم، ولذا تعرف بالمقامات اللزومية، وحدث فيها المنذر بن حمام عن السائب بن تمام، وأبو الحسن علي بن موسى الأندلسي المتوفى عام ٦٧٣هـ، وله كتاب « ريحانة الأدب » جمع فيه بين عيون الأخبار ومستحسنات الأشعار.

ومن علماء الأدب كذلك : الشريشي، ومدينة « شريش » المنسوب إليها أديبنا الشريشي شارح مقامات الحريري هي إحدى القرى الجميلة القديمة في الأندلس، ويصف ابن ليال الشاعر متنزهاً فيها يسمى « إجانة » فيقول :

أيا حبذا إجانة كيفما اغتدت	زمان ربيع أو زمان عصير
مذانب ماء كاللجين على حصى	كدر بلا ثقب أغر نثير
ورمل إذا ما ابتل بالماء عطفه	غنينا به عن عنبر وذرور
وتين كما قامت على حلماتها	نهود عذارى الزنج فوق صدور
كأن القباب الخز فيها عرائس	على سرر مفروشة بحرير

ويذكر الشريشي في هذا الكتاب عرضاً أسماء بعض شيوخه، منهم: ابن جبير[1] الرحالة الأندلسي المشهور الذائع الصيت... وهذه قصة أدبية يشير فيها إلى أستاذه أبي عبدالله بن زرقون، وفيها شيء من تاريخ صباه وبداهته الحاضرة، قال الشريشي[2]: حدثني الفقيه أبو عبدالله بن زرقون في بستانه بطريانة أيام قراءتي عليه النوادر والكامل، وكان رحمه الله مذاكراً بالطريقة الأدبية مع تميزه بالطريقة الفقهية، فدارت بيني وبينه في إحدى العشيات، أنواع من المذاكرات، في فنون أدبيات، فاهتز رحمه الله وهش وأظهر السرور بي وأنا يومئذٍ غلام ما بقل عذاري، فقال لقد علمت أن بيني وبينك أخوة، قلت: وكيف ذاك يا سيدي؟ فقال إني ولدت ببلدك شريش فزدت بالحديث غبطة واستزدت منه فقال لي ومع ذلك فثم قصة مستظرفة: اعلم أني كنت اجتزت بشريش قافلاً من العدوة مع الفقيه أبي بكر عبدالله بن العربي رحمه الله، فلما صرنا في بطاحها وبين كرماتها وجنانها، أخذ الفقيه أبي بكر يثني عليها بكل لسان، على كثرة ما رأى من البلدان، ويقول: إن الأشياء التي جمعت فيها لا تكاد تجتمع في بلدة من كثر الزرع والضرع والزيت والعصير والملح وغير ذلك، فقلت له: أعلمت أني ولدت بها فقال لي أبو بكر: أتقول أنت الآن مسقط الرأس شريش؟ فقلت له مجيزاً: وبها كنت أعيش، فقال أبو بكر: وردها من سلسبيل، فقلت: وصحاريها عريش. ثم سرنا في طريقنا على قوافي السروجية، فرددناها شريشية، وقدمنا بها الطريق ونحن لا نشعر فكانت أسر عشية مجالسة مثل هذا الفاضل وسنه وقد نيف على الثمانين بسنتين، يحدثني عن ابن العربي وابن عبدون الكاتب ونظرائهم في رياض كلها نزهة على نهر أشبيلية وهي أمامنا على بهجتها وجمالها؛

(١) راجع ١٢٦ جـ ٣ من هذا الكتاب ومواضع أخرى ــ نشر خفاجي.

(٢) شرح المقامات جـ ٢.

مادحاً لي ولبلدي ليدخل علي بذلك مسرة، نسأل الله تعالى أن يبلغه غاية السرور في دار البقاء.

« وشرح المقامات للشريشي » مجموعة علم وأدب، ودائرة معارف ثقافية واسعة، ومصدر من مصادر الأدب العربي القديمة، وهو بحق ثروة علمية ثمينة، وهو جدير بعناية الأدباء والعلماء به واهتمامهم بدراسته والاطلاع عليه، فوق أنه عظيم الأهمية في دراسة الأدب العربي القديم في الأندلس وبلاد المغرب؛ لما تضمنه من طرائف وفصول قيمة وإشارات لطيفة، عن الأدب الأندلسي وأعلامه.

ويقول السيوطي عنه في بغية الوعاة (ص ١٤٣) : أحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى بن عبد المؤمن القيسي الشريشي، أبو العباس النحوي، شارح المقامات. قال ابن عبد الملك : كان مبرزاً في المعرفة بالنحو ، حافظاً للغات، ذاكراً للآداب، كاتباً بليغاً فاضلاً ثقة، عني بالرحلة في طلب العلم، وروى عن أبي الحسن ومصعب ابن أبي ركب وابن خروف، وخلق، وعنه: ابن الأبار وابن فرتون وأبو الحسن الرعيني، وتصدر لإقراء اللغة والأدب والعربية والعروض... وله ثلاثة شروح في المقامات، وشرح الإيضاح، وشرح عروض الشعر، وعلل القوافي، وشرح الجمل، ومختصر نوادر القالي، وغير ذلك، مات بشريش في ذي الحجة سنة ٦١٩هـ.

وترجم له المقري في الجزء الأول في كتاب نفح الطيب ص ٣٧٦ فقال : الكمال أبو العباس أحمد الشريشي، وهو أحمد بن عبد المؤمن ابن موسى بن عيسى بن عبد المؤمن القيسي من أهل شريش. روى عن أبي الحسن بن ليال، وأبي بكر بن أزهر، وأبي عبدالله بن زرقون، وأبي الحسن بن جبير، وغيرهم.. وأقرأ العربية، وله تآليف أفاد بما حشد فيها، منها : شرح الإيضاح للفارسي، والجمل للزجاج، وله في العروض تآليف، وجمع مشاهير قصائد العرب، واختصر نوادر أبي علي

القالي. قال ابن الأبار: لقيته بدار شيخنا أبي الحسن بن حريق من بلنسية قبل توجهي إلى إشبيلية في سنة ٦١٦، وهو إذ ذاك يقرأ عليه شرحه للمقامات، فسمعت عليه بعضه وأجاز لي سائره مع رواياته وتآليفه، وأخذ عنه أصحابنا، ثم لقيته ثانية مقدمه من مرسية: ومن بديع نظمه وهو بمصر يتشوق إلى الشام:

يا جيرة الشام هل من نحوكم خبر ... فإن قلبي بنار الشوق يستعر
بعدت عنكم فلا والله بعدكم ... ما لذ للعين لا نوم ولا سهر
إذا تذكرت أوقاتاً نأت ومضت ... بقربكم كادت الأحشاء تنفطر
كأنني لم أكن بين النيرين ضحى ... والغيم يبكي، ومنه يضحك الزهر
والورق تنشد والأغصان راقصة ... والدوح يطرب بالتصفيق والنهر
والسفح أين عشياتي التي سلفت ... لي منه؟ فهي لعمري عندي العمر
سقاك يا سفح سفح الدمع منهملا ... وقل ذاك له إن أعوز المطر

وله شروح لمقامات الحريري: كبير ووسط وصغير، وفي الكبير من الآداب ما لا كفاء له. وكان رحمه الله معجباً بالشام. وقال ابن الأبار عندما ذكره إنه شرح مقامات الحريري في ثلاث نسخ، كبراها الأدبية، ووسطاها اللغوية، وصغراها المختصرة.

ومن الأدباء المؤلفين: أبو الوليد الباجي، ولد عام ٤٠٣، وتوفي في أواخر القرن الخامس الهجري، وذلك عام ٤٧٤هـ[1]. وكان يعاصره محمد بن حزم الظاهري[2] (٣٨٤ــ٤٥٦هـ).

ومنهم محمد بن الوليد الفهري (٤٥١ــ٥٢٠هـ)[3]، والكاتب محمد ابن عبد ربه المالقي من أدباء القرن السادس الهجري[4]؛ وأبي

---

(١) ١٧٣ــ٢٠٢ : ٦ نفح الطيب.
(٢) ٢٠٢ــ٢٢٢ : ٦ المرجع نفسه.
(٣) ٢٢٢ــ٢٣٢ : ٦ المرجع نفسه.
(٤) ٢٥١ــ٢٥٦ : ٦ المرجع نفسه.

الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الإشبيلي (٤٦٠ ــ ٥٢٩هـ)، وكان شاعراً مجيداً[1]، وبرع في الفلسفة والطب؛ وأبو العباس الشريشي. وقد سبقت ترجمته بتفصيل[2]، وتوفي عام ٦١٩هـ، والوزير أبو عبدالله محمد بن أبي الحسن بن عبد ربه حفيد صاحب « العقد الفريد » من أدباء الأندلس في القرن السادس وأوائل السابع الهجري[3].

ومن العلماء الأجلاء بقي بن مخلد (٢٠١ــ٢٧٦هـ)، وقاسم بن ثابت السرقسطي المحدث أول من أدخل كتاب العين الأندلس، وتوفي عام ٣٠٣هـ.

ويقال إن تآليف عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السلمي الفقيه الإمام بلغت ألفاً[4]، وكان الأديب الشاعر محمد بن سعيد الذي عاصر عهد عبد الرحمن ابن الحكم (٢٠٦ــ٢٣٨هـ) يلقب بالأصمعي لقوة ذكائه.

اما يحيى بن يحيى الليثي[5] المتوفى عام ٢٢٤هـ بقرطبة، فهو الذي انتهت إليه الرياسة بالأندلس، وبه اشتهر مذهب مالك[6] فيها، ومنذر ابن سعيد البلوطي قاضي الجماعة بقرطبة[7] في عهد الناصر، مكانته أجل من أن تجحد.

وقد سافر إلى الشرق وسنه وقتئذٍ ثمان وعشرون سنة، وتلقى العلم على أستاذه مالك بن أنس الذي أملى عليه كتابه المعروف بالموطأ،

---

(١) ٢٨٠ــ٢٩٢ : ٦ المرجع.
(٢) راجع ٣٠٦ــ٣١٠ : ٦ المرجع، وصـ ٢٣ من هذا الجزء.
(٣) ٣١٥ــ٣١٩ : ٦ المرجع.
(٤) ٨ جـ ٦ نفح الطيب ــ نشر فريد رفاعي.
(٥) ١٦ جـ ٦ نفح الطيب.
(٦) ٩ظ : ٦ المرجع.
(٧) ٣٤ــ٤٧ : ٦ المرجع.

وحدث أن كان يحيى ذات يوم في أحد دروس مالك ومعه عدد من الطلاب رفقائه، فقال قائل: « حضر الفيل »، فجروا جميعاً لرؤيته، ولم يتحرك يحيى من مكانه، فسأله مالك: « لم لم تذهب لتراه، وليس في بلادك مثل هذا الحيوان؟ » فأجابه يحيى: « لقد تركت بلادي لأراك وأتلقى عنك الدروس، ولم آت هنا لرؤية الفيل » فسر مالكاً هذا الجواب وقال عنه إنه عاقل الأندلس، ولما عاد يحيى إلى إسبانيا، بذل كل ما في وسعه لنشر تعاليم مذهب مالك — ولئن كان يحيى هذا قد أصر بسبب تورعه ونسكه على رفض أي منصب من المناصب العامة، فقد عظم تأثيره لذلك وذاع صيته إلى حد أن وصلا — كما يقول ابن حزم — إلى أنه كان لا يولى قاض في الأندلس إلا بعد أن يؤخذ رأي يحيى فيه، وإلا بعد أن يبين من يفضله على سواه من الناس[1].

---

(١) ابن خلكان جـ ٤ صـ ٢٩، ويقول المقري في ذلك « ومن الراحلين من الأندلس الفقيه المحدث، يحيى بن يحيى الليثي راوي الموطأ عن مالك رضي الله تعالي عنه، ويقال إن أصله من برابرة مصمودة — وحكى أنه لما ارتحل إلى مالك ولازمه، فبينما هو عنده في مجلسه مع جماعة من أصحابه، إذ قال قائل « حضر الفيل فخرج أصحاب مالك كلهم، فقال مالك: « مالك لم تخرج وليس الفيل في بلادك؟ » فقال « إنما جئت من الأندلس لأنظر إليك وأتعلم من هديك وعلمك، ولم أكن لأنظر إلى الفيل » فأعجب به مالك وقال: « هذا عاقل الأندلس » ولذلك قيل: « إن يحيى هذا عاقل الأندلس، وعيسى بن دينار فقيهها، وعبد الملك بن حبيب عالمها، ويقال إن يحيى راويها ومحدثها، وتوفي يحيى بن يحيى سنة ٢٣٤هـ في رجب وقبره كان يستقسى به بقرطبة ».

« وكان مع أمانته ودينه معظماً عند الأمراء يكنى عندهم. عفيفاً من الولايات منزهاً، جلت رتبته عن القضاء، وكان أعلى من القضاة قدراً عند ولاة الأمر بالأندلس، لزهده في القضاء وامتناعه — قال الحافظ بن حزم — « مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان، مذهب أبي حنيفة، فانه لما ولي القضاء أبو يوسف كانت القضاة من قبله، من أقصى المشرق إلى أقصى عمل أفريقيا، فكان لا يولي إلا أصحابه والمنتسبين لمذهبه، ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فان يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان،

ومن علماء الأندلس : أبو محمد القاسم الشاطبي (٥٣٨ـ)٥٩هـ) وقد دخل مصر عام ٥٧٢هـ، ودفن بالقاهرة بالتربة الفاضلية بسفح جبل المقطم، والإمام القاضي أبو بكر بن العربي (٤٦٨ ـ ٥٤٣ هـ)، ودفن بفاس.

ومن المحدثين : عمر بن الحسين الظاهري الأندلسي المحدث (٥٤٨ـ٦٠٣هـ) توفي بالقاهرة ودفن بسفح المقطم.

وعلى ذلك فقد أصبح مذهب مالك يلي الحديث مباشرة في اتخاذه شرعاً للبلاد، قال عالم من كتاب القرن العاشر : « لقد كان الإسبانيون لا يعرفون إلا القرآن والموطأ، فكانوا إذا وجدوا تابعاً من أتباع مذهب أبي حنيفة أو الشافعي طردوه من إسبانيا ـ والويل لمن يصادفونه من المعتزلة أو الشيعة أو من طائفة تنتمي لمذهب ما، فإنهم كثيراً ما كانوا يخمدون أنفاسه[1].

ومن أئمة الصوفيين بالأندلس أبو عبدالله القرشي الهاشمي (٥٤٤ـ٥٩٩هـ)[2]، ومحمد بن سراقة الشاطبي (٥٩٢ـ٦٦٣هـ) وأقام بمصر نحو العشرين عاماً وبها توفي.

ومن علماء الأندلس كذلك : عبد الرحمن بن عبدالله السهيلي الأندلسي المالقي المتوفى عام ٥٨١، العالم بالعربية واللغة، ومن تصانيفه : الروض الأنف[3].

= مقبول القول في القضاء وكان لا يلي قاض في أقطار الأندلس إلا بمشورته واختياره ولا يشير إلّا بأصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع إلى الدنيا، فاقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به ـ على أن يحيى لم يقبل قضاء قط، ولا أجاب إليه ـ وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم.

(١) المقدسي ص ١٤٤.

(٢) ١٣٧ـ١٤٤ : ٦ نفح الطيب.

(٣) ١٨٧ نكت الهميان.

ومنهم : محمد بن أحمد جابر الأندلسي الضرير (المتوفى عام ٦٩٨هـ) قدم دمشق وسمع بها على شيوخ عصره، وتوجه منها إلى حلب عام ٧٤٣هـ[١].

ويوسف بن سليمان الشنتمري الأندلسي الأعلم النحوي، مات باشبيلة عام ٤٧٦هـ، وميلاده عام ٤١٦هـ، ومن مؤلفاته : شرح على الحماسة.

وألف القرطبي: محمد بن عبد الرؤوف بن محمد الأزدي الكاتب العالم بالأخبار واللغة، المتوفى عام ٣٤٣هـ، كتاباً في أخبار شعراء الأندلس.

ولابن آبان محمد القرطبي الأندلسي، شرح لديوان المتنبي، وكان عالماً باللغة والأخبار والأنساب، وتوفي سنة ٣٥٤هـ[٢].

ولابن السراج محمد بن سعيد الشنتمري النحوي الأندلسي المالكي المتوفي عام ٥٤٩هـ، كتاب « جوهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب »، ومختصر العمدة لابن رشيق.

وألف الاشبيلي محمد بن خلف المتوفى سنة ٥٨٦هـ شرح الأشعار الستة، وشرح الفصيح في اللغة.

وألف الأندلسي محمد بن يحيى الشاطبي المتوفى عام ٥٤٧هـ تاريخاً لملوك الأندلس.

وألف محمد بن صالح القحطاني الأندلسي المتوفى عام ٣٨٣هـ تاريخاً للأندلس.

وألف الباجي محمد بن أحمد اللخمي الاشبيلي الأندلسي المالكي المحدث (٣٥٦ـــ٤٢٣هـ) كتباً كثيرة.

---

(١) ٢٤٤ نكت الهميان.

(٢) ٤٣ : ٢ هدية العارفين تأليف اسماعيل البغدادي باشا، طبعة استامبول ١٩٥٥.

وألف ابن الحذاء القرطبي محمد بن يحيى (٣٤٨ـ٤١٦هـ) كتاب : « الخطب والخطباء ».

وألف الحميدي محمد بن أبي نصر الأندلسي م ٤٨٨هـ « جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس ».

وللطرطوشي محمد بن الوليد الأندلسي (٤٥١ـ٥٢٠هـ) كتاب سراج الملوك، وللسرقسطي محمد بن حكم الأندلسي م سنة ٥٣٨هـ كتاب شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي، ولابن الاشتركوني محمد بن يوسف السرقسطي الأندلسي م ٥٣٨هـ شرح للكامل للمبرد، والمقامات السرقسطية في خمسين مقامة.

وممن نشأوا في الأندلسي الشيخ الأكبر محمد بن علي بن العربي الطائي الحاتمي الأندلسي المولود بالأندلس عام ٥٦٠هـ المتوفى بدمشق عام ٦٣٨هـ وهو من أئمة الصوفية.

وللأستجي أبي عبدالله محمد بن أحمد الأندلسي المتوفى عام ٦٤٠هـ كتاب : الحلل في نظم الدول، وللوادي آشى المتوفى سنة ٦٥٧هـ مختصر إحياء علوم الدين للغزالي، وللمرسي محمد بن عبدالله الأندلسي (٥٧٠ـ٦٥٥هـ) كتاب البديع والبلاغة؛ ولابن هشام محمد بن يحيى الأنصاري النحوي الأندلسي (المتوفى عام ٦٤٦هـ) شروح على كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي؛ ولابن سراقة محمد بن محمد الأندلسي (٥٧٢ـ٦٦٢هـ) كتاب إعجاز القرآن؛ ولابن منظور الافريقي (٦٣٠ـ٧٧١هـ) كتاب لطائف الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. ولأبي حيان الأندلسي محمد بن يوسف (٦٥٤ـ٧٤٥هـ) مؤلفات كثيرة في النحو والتفسير؛ وللشريشي محمود بن أحمد الأندلسي م ٧٦٩هـ شرح على مفتاح العلوم للسكاكي.

ومن الأدباء كذلك : الفتح محمد بن عبدالله بن خاقان الإشبيلي.

ولد سنة ٤٨٠، وتوفي سنة ٥٢٩هـ. ونشأ ببلاد الأندلس، ثم دخل بلاد المغرب واتصل بملوكها. وكتب لبني تاشفين، وألف كتابيه « قلائد العقيان » و « مطمح الأنفس » وهما من أشهر ما كتب عن أدباء الأندلس وشعرائهم وقضاتهم ووزرائهم.

مؤرخون أندلسيون :

وهم كثيرون أشهرهم :

١ ــ أبو بكر بن القوطية : ومن مصنفاته تاريخ الأندلس من فتحها إلى عبد الرحمن الناصر.

٢ ــ ابن حزم، وله عدة مؤلفات في الأحكام والفقه والملل وغيرها، وله كتاب صغير سماه نقط العروس، ذكر فيه وقائع تاريخية في الأندلس، وأخلاق وعادات بني أمية فيها، وهو كتاب مفيد لم يصل لنا منه سوى بعض أبواب حفظها المؤرخون الذين بعده[1].

٣ ــ أبو مروان بن حيان القرطبي، المعروف بابن حزم، المتوفى سنة ١٠٧٦م. كان رئيس الشرطة في قرطبة، وله كتاب « المقتبس في تاريخ الأندلس »، في عشرة مجلدات، ثم كتاب « المتين أو المبين، كما جاء في كشف الظنون » في تاريخ الأندلس أيضاً في ستين مجلداً، ولم يصل إليه من مؤلفه سوى بعض فصول أوردها من جاء بعده من المؤرخين، ويتضح منها حسب رأي دوزي أن وصف الحوادث التاريخية ونقدها كان من مؤلفات بن حزم مستوفياً لا يقبل الزيادة.

٤ ــ أبو عبدالله محمد بن أبي نصر الحميدي الأندلسي، المتوفى سنة ١٠٩٥م، أصله من قرطبة روى عن أبي محمد علي بن حزم

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٣٤٠.

الظاهري وأكثر من الأخذ عنه وشهر بصحبته، وحج إلى مكة سنة ١٠٥٦م، وطاف بافريقية ومصر والشام والعراق واستوطن بغداد. وله عدة مؤلفات منها : تاريخ علماء الأندلس سماه « جذوة المقتبس » في مجلد واحد، يقول في مقدمته إنه كتبه من حفظه ولذلك لا يعتمد عليه[1].

٥ ـــ لسان الدين أبو عبدالله محمد المعروف بابن الخطيب، المتوفى سنة ٧٧٦هـ ـــ ١٣٧٤م، كان وزيراً لأبي الحجاج يوسف سلطان غرناطة، وصنف له كتاب « الإحاطة في تاريخ غرناطة » الذي أخذ عنه المقري.

٦ ـــ أبو العباس المقري، المتوفى سنة ١٠٤١هـ ـــ ١٦٣١م، أصله من الغرب واستوطن في القاهرة وصنف فيها « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب »، ذكر فيه تاريخ الأندلس من فتحها إلى غزو الملك فرديناند غرناطة.

وقد كتب كثير من المؤرخين عن المغرب، اشتهر منهم : ابن عذارى المراكشي، وله كتاب « البيان المغرب في أخبار المغرب ».

وممن نبغ في الأندلس : ابن البيطار المالقي، المتوفى بدمشق سنة ٦٤٦هـ وقد درس النباتات في الشام وبلاد الروم واليونان، وله كتاب « مفردات الأدوية » وكان من خدم الملك الكامل الأيوبي، وكان يعتمد عليه في معرفة الأدوية، ولا يزال مرجعاً أصيلاً في بابه.

مدرسة النحو بين مصر والأندلس :

من هؤلاء : أبو عمرو عثمان المعروف بابن الحاجب، تخرج بها وبرع في علوم العربية وغيرها، ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعها،

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ٤٨٥.

قال ابن خلكان : وقد سألته عن مواضع في العربية مشكلة، فأجاب بأبلغ إجابة، ومن جملة ذلك أني سألته في بيت المتنبي :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتحم

عن السبب في خفض مصطبر ومقتحم ولات ليست من أدوات الجر فأطال الكلام، وأحسن الجواب، ولم يذكر ابن خلكان صورة إجابة ابن الحاجب على ذلك خوف الإطالة، وأقول : يجوز في هذا أن يكون الجربحتّى ولات كلا ليست حاجزاً كما جروا بالباء في قولهم « جئت بلا زاد » على رأي؛ ونصبوا المضارع بأن في نحو (لئلا يعلم)، وفي شرح المتنبي للعكبري في هذا الموضع التاء في لات زائدة، وقد تزداد في الحروف كثم وثمت ورب وربت والجر به شاذ، وقد جر به العرب، وأنشدوا :

طلبوا صلحنا ولات أوان فأجبنا أن لات حين بقاء

ثم عاد ابن الحاجب إلى القاهرة، وأخذ عنه خلق كثير، ومن مصنفاته الكافية في النحو والشافية في الصرف وتوفي سنة ٦٤٦هـ.

وعلى الكافية شروح كثيرة من أشهرها شرح رضي الدين محمد ابن الحسن الاستربادي المتوفي حوالي سنة ٦٩٠هـ.

وهذا الشرح جليل الاعتبار، كثير الفوائد، فيه أشياء لا توجد في غيره وشواهد هذا الشرح أخذها عبد القادر البغدادي، المتوفى بالقاهرة ١٠٩٣هـ، وبنى عليها خزانته المشهورة المسماة : خزانة الأدب، ولب لباب لسان العرب، وهي واسعة الأرجاء، مملوءة بجواهر الأدب، قل أن يوجد كتاب في بابها يحاكيه؛ فهي ضالة الأديب، وقد طبعت بمطبعة بولاق سنة ١٢٩٩ في أربعة أسفار ضخمة.

ومن أشهر علماء النحو محمد بن عبدالله بن مالك، نشأ بمدينة جيان من الأندلس، ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها، وكان بحراً لا يشق

عبابه في العلوم خصوصاً في النحو، وتصدر بحلب لإقراء العربية، وكان يجتمع به قاضي القضاة ابن خلكان ويحترمه لعلمه، ومن تصانيفه منظومة الكافية الشافية في النحو، وهي ثلاثة آلاف بيت، وشرحها ثم لخصها في أرجوزة سماها : الخلاصة، وهي ألف بيت ولذا تعرف بالألفية، ونثر هذه في كتاب سماه : الفوائد النحوية والمقاصد المحوية، ولتسهيل هذا الكتاب وتكميله صنف كتاباً سماه : تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، واشتهر كتاب التسهيل دون كتاب الفوائد، ومن تصانيفه أيضاً : الأعلام بمثلث الكلام، وعدة اللافظ وعمدة الحافظ، وتوفي بدمشق ٦٧٢، وقد سبقت ترجمته.

هذا وقد أقبل الناس إقبالاً زائداً على الألفية يحفظونها ويتعرفون أحكامها؛ ولذا أكثر العاماء من شرحها، فمن شرحها: محمد بن الناظم المتوفى سنة ٦٨٦ بدمشق، وحسن بن قاسم المصري المتوفى سنة ٧٤٩، وقد شرح التسهيل أيضاً. وأبو زيد عبد الرحمن المكودي المتوفى سنة ٨٠١، وأبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١، وبدر الدين علي الأشموني المتوفى في حدود سنة ٩٠٠هـ، وهذا الشرح يسمى : منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، ويدرس بالأزهر بعد شرح ابن عقيل لأنه أوسع منه وأصعب. وقد دونوا على هذه الشروح حواشي، فمن ذلك : حاشية أحمد بن قاسم العبادي المتوفى سنة ٩٩٢ على شرح ابن الناظم، وحاشية الشيح أحمد السجاعي المتوفى سنة ١١٩٧ بمصر على شرح ابن عقيل، وحاشية الشيخ محمد الخضري الدمياطي المتوفى سنة ١٢٨٨ على هذا الشرح، وهي أوسع وأنفع من حاشية السجاعي وكلاهما يقرأ بالأزهر، وحاشية الشيخ محمد الصبان المصري المتوفى سنة ١٢١٦ على هذا الشرح أيضاً ويقرأها المنتهون بالأزهر.

ومن إشبيلية : علي بن محمد الكتامي أبو الحسن المعروف بابن

الضائع، كان إماماً في العربية لا يجارى، لازم الشلوبين وفاق أصحابه بأسرهم، أملى على إيضاح الفارسي، ورد اعتراضات ابن الطراوة على الفارسي، واعتراضات على سيبويه، واعتراضات البطليوسي على الزجاجي، ورد على ابن عصفور معظم اخياراته، وله شرح الجمل وشرح كتاب سيبويه، جمع فيه بين شرحي السيرافي وابن خروف، وله في مشكلاته، عجائب توفي سنة ٦٨٠.

وكان من أهل فاس : أبو عبدالله محمد بن محمد بن داود المعروف بابن آجروم الصنهاجي، نسبة إلى صنهاجة وهي قبيلة بالمغرب المتوفي سنة ٧٢٣، ولا يؤثر عنه إلا متن الأجرومية، وعليها شروح كثيرة. منها : شرح الشيخ خالد الأزهري المتوفى سنة ٩٠٥، وعليه حاشية للسيد محمد أبي النجا من نحاة القرن الثالث عشر، ومنها : شرح الشيخ حسن الكفراوي الأزهري المتوفى سنة ١٢٠٢ بالقاهرة. وعلى الأزهرية حاشية للشيخ محمد الأمير المتوفى سنة ١٢٣٢، حاشية للشيخ حسن العطار المصري المتوفى سنة ١٢٥٠.

واشتهر من الأندلس : أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي، نزيل مصر، كان إمام عصره في فنون الأدب أخذ عن ابن الضائع وغيره، وأخذ عنه كثير من الأئمة : كتقي الدين السبكي وابن قاسم وابن عقيل والسمين، وكان يقرىء الناس كتاب سيبويه ومصنفات ابن مالك ويرغبهم فيها ويشرح لهم غامضها، ومصنفاته في العربية كثيرة. منها : التذييل والتكميل في شرح التسهيل، وهو مطول، واختصره في كتاب سماه : ارتشاف الضرب من لسان العرب. قال الصفدي : لم أره قط إلا يسمع أو يشتغل أو يكتب أو ينظر في كتاب، وكان ثبتاً قيماً عارفاً باللغة، وأما النحو والصرف فهو الإمام المطلق فيهما، وخدم العلم أكثر عمره حتى صار لا يدركه أحد في أقطار الأرض، وله اليد الطولى في التفسير والحديث وتراجم الناس ومعرفة طبقاتهم خصوصاً

المغاربة، ومن شعره :

عداي لهم فضل عليّ ومنة | فلا أذهب الرحمن عني الأعاديا
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها | وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

ومنه :

سبق الدمع بالمسير المطايا | إذ نوى من أحب عني نقله
أجاد السطور في صفحة الخد | ولم لا يجيد وهو ابن مقله

ومات بالقاهرة سنة ٧٤٥.

وفي مصر نبغ ابن هشام (٧٠٨ـ٧٦١هـ) وكان من أئمة النحو، وله كتب مشهورة، منها : القطر والشذور ومغني اللبيب ورتبه على ثمانية أبواب. الأول : في تفسير المفردات وفيه يذكر حروف المعاني وما أشبهها. والثاني : في تفسير الجملة وذكر أقسامها وأحكامها. والثالث : في ذكر أحكام ما يشبه الجملة وهو الظرف والجار والمجرور وذكر حكمهما في التعلق. والرابع : في ذكر أحكام يكثر دورها ويقبح بالمعرب جهلها. والخامس : في ذكر الجهات التي يدخل الاعتراض على المعرب من وجهتها. السادس : في التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين والصواب خلافها. والسابع : في كيفية الإعراب. والثامن : في ذكر أمور كلية يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور الجزئية، وهي إحدى عشرة قاعدة، ويندرج تحت كل باب مواد كثيرة تعرف من الاطلاع على الكتاب؛ وله أيضاً كتاب أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، وقد نثرها فيه ويعرف بالتوضيح. قال الأمير في حاشيته على المغني هذا : ولد ابن هشام بالقاهرة سنة ٧٠٨ ولم يأخذ عن أبي حيان غير أنه سمع منه ديوان زهير بن أبي سلمي، ومن شعره :

ومن يصطبر للعلم يظفر بنيله | ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل
ومن لم يذل النفس في طلب العلا | يسيراً يعش دهراً طويلاً أخاذلِ

وتوفي سنة ٧٦١، ورثاه ابن نباتة المصري شاعر الملك المؤيد

صاحب مصر وحماه بقوله :

سقى ابن هشام في الثرى نوء رحمة يجر على مثواه ذيل غمام
سأروي له من سائر المدح سيرة فما زلت أروي سيرة ابن هشام

تورية بعد الملك بن هشام صاحب السيرة.

وقد اعتنى العلماء بمصنفات ابن هشام فشرحوها وكتبوا عليها الشروح والحواشي العديدة. ثم ظهر السيوطي (٨٤٩ـ٩١١هـ) من مصر، وتصدر مدرسة النحو المصرية في عصره، وصار من أئمة العربية وأعلامها الخالدين.

المؤرخون الأندلسيون

نبغ في الأندلس كثير من المؤرخين ودونوا معالم هذا التاريخ كاملاً، وإن كانت آثارهم كلها أو جلها تعد مفقودة، ومن هؤلاء :

١ ـ أبو مروان بن حيان القرطبي المعروف بابن حزم المتوفى سنة ١٠٧٦م، وكان رئيس الشرطة في قرطبة وله كتاب : « المقتبس في تاريخ الأندلس » في عشرة مجلدات. ثم كتاب المتين أو المبين كما جاء في كشف الظنون، وهو في تاريخ الأندلس أيضاً في ستين مجلداً. ولم يصل الينا من مؤلفيه سوى بعض فصول أوردها من جاء بعده من المؤرخين، ويتضح منها حسب رأي دوزي أن وصف الحوادث التاريخية ونقدها كان من مؤلفي ابن حزم مستوفياً.

٢ ـ أبو عبدالله محمد بن أبي نصر الحميدي الأندلسي المتوفى سنة ١٠٩٥م، أصله من قرطبة، روى عن أبي محمد علي بن حزم الظاهري، وأكثر من الأخذ عنه وشهر بصحبته وحج إلى مكة سنة ١٠٥٦م، وطاف بافريقية ومصر والشام والعراق واستوطن بغداد. وله عدة مؤلفات منها تاريخ علماء الأندلس سماه « جذوة المقتبس » في

مجلد واحد، يقول في مقدمته : إنه كتبه من حفظه ولذلك لا يعتمد عليه[1].

٣ ــ لسان الدين أبو عبدالله محمد المعروف بابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦هـ ــ ١٣٧٤م كان وزيراً لابي الحجاج يوسف سلطان غرناطة، وصنف له كتاب : « الاحاطة في تاريخ غرناطة » الذي أخذ عنه المقري.

٤ ــ أبو العباس أحمد المقري المتوفي سنة ١٠٤١ هـ ــ ١٦٣١ م أصله من الغرب، واستوطن القاهرة وصنف فيها « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب »، ذكر فيه تاريخ الأندلس من فتحها إلى غزو الملك فرديناند غرناطة.

وقد كتب كثير من المؤرخين عن المغرب، اشتهر منهم ابن عذارى المراكشي في الجيل الثالث عشر، وله مصنف يسمى « البيان المغرب في أخبار المغرب ».

واشتهر في الجيل الرابع عشر أبو الحسن علي بن أبي ذرع صاحب كتاب « أنيس المطرب في أخبار المغرب » و « روض القرطاس في تاريخ مدينة فاس ». وسماه أيضاً « القرطاس الكبير » ألفه للسلطان أبي سعيد عثمان بن المظفر ثامن سلطان من دولة بني مرين، وذكر به أخبار المغرب من أيام ادريس الأول سنة ٧٢٥ أيام السلطان أبي سعيد، ويظهر أن التاريخ المسمى بكتاب القرطاس ليس إلا مختصراً من القرطاس الكبير بقلم ابن أبي ذرع نفسه. ونذكر أخيراً تاريخ (عبد الواحد المراكشي).

---

(١) وفيات الأعيان حـ ١ صـ ٤٨٥.

مفاخر الأندلسيين :

ولعرب الأندلس مفاخر كثيرة في شتى شئون الحياة، فقد كان الذي اخترع المدفع هو أندلسي من العلماء العرب في غرناطة، في عهد السلطان أبي الحسن الأحمر، واسمه « إبراهيم الصانتو ».

وهو رجل زاهد عابد فقيه أديب، له مشاركة في العلوم، وتخصص في الكيمياء، وذو بصر نافذ، وقريحة وقادة وخيال خصب، وهو مجنون بحب بلاده، ناقم على الأوغاد الذي أخذوا يبيعونها للعدو وآثروا العاجلة على الآجلة، فجاهر بنقده للسلطان على ما فرط في شأنها وشأن عرشه، وذلك بالرغم من أنه كانت له مكانة في قلب السلطان لما اشتهر به من زهد وتقوى، حتى لقد أطلق عليه لقب « الصانتو » أي الولي أو القديس.

قرأ الصانتو في كتب التاريخ والأدب والرحلات أن المصريين استعملوا النار اليونانية في حربهم مع لويس التاسع أمام دمياط وتغلبوا عليه بها، فجعل ينقب ويبحث ويقدح زناد الفكر إلى أن توصل إلى لون من النار يمكن استعماله في الحرب مع فرديناند. وقرأ في كتاب « حسن الرماح » عن البارود أنه « بيضة تخرج وتحرق » فجعل غايته أن يعثر على المواد التي يركب منها البارود وأن يصنع منها الألغام والقنابل، فلما توصل إلى ذلك جعل هدفه أن يصنع المدفع الذي يطلق القنابل على العدو. فعل ذلك كله في الجبل تحت ستار من التكتم، إذ كان يعلم أن البلاد موبوءة بجواسيس العدو، وأن الحكومة ذاتها ملوثة بفعل التجسس، فهو يخشى أن يؤول اختراعه إلى العدو فتنقلب الآية ويستخدمه العدو ضد بلاده. فلما انتهى من وضع اختراعه وتجاريبه، صنع له رسوماً منفصلة وجاء إلى العاصمة يقصد أن يضعه بين يدي السلطان بالذات فلا يأتمن عليه أحداً سواه، وكان يعلم أن يكفيه أن يذكر اسمه فتفتح أبواب السلطان في وجهه. فلما جاء العاصمة علم أن السلطان لا يقابل

أحداً لكثرة مشاغله، فرأى أن يستعين بالحريم، وكان يمقت السلطانة عائشة ومن ينتمون إليها لعلمه بأن حزبها على صلة بايزابيللا وفرديناند، ولم يجد بدأً من أن يلجأ إلى السلطانة ثريا فلجأ إليها، فأوصت أهل القصر بأن يوصلوه إلى باب السلطان ويساعدوه على ولوجه. وما أكثر ما صرف في ذلك من جهود ووقت ومال وصحة حتى أصيب بالشلل ولم يظفر بأكثر من الجلوس قريباً من باب السلطان في انتظار الإذن له طويلاً، وقد اتهمه الخونة الاسبان في غرناطة بأنه يريد قتل الملك، وحوكم وفتش منزله وأخذت أوراق اختراعه فسلمت إلى سفير فرديناند وإيزابيلا في غرناطة، وفوجىء العرب في « ايلورة » بأصوات كالرعد القاصف، وإذا هي القنابل يطلقها عليهم فرديناند فتدك القلعة، وتهدمها على رؤوس من فيها، وكذلك حدث في « مالقة » واستطاع هذا المدفع أن ينهي في بضعة أشهر ملكاً استمر ثمانمائة عام.

وكان أول من أنشأ الحدائق العامة لراحة الشعب هم العرب وخاصة أهل قرطبة، الذي أنشأوا الحدائق العامة، وجلعوا في المقاعد المظللة وغير المظللة، وجعلوا في داخل المقاعد المظللة رفوفاً للكتب توضع عليها، وكان يوجد في كل حديقة مكتبة عامة يستعير منها القارئ كتباً، ويضعها عند الفراغ منها أو عند الاستراحة على تلك الرفوف، وكان الكتاب يساوي مبلغاً عظيماً ربما بلغ الألوف، وإنما هونه على المكتبة وعلى مستعير الكتاب الأمانة التي كانت متغلغلة بين الناس، ورقابة أحكام الشريعة النافذ أمرها، يقول المستر « ب، ج ترند » في الجزء الأول من كتابه « تراث الإسلام » : « كان يستعمل في الحدائق العامة القاشاني بالنماذج الهندسية والرسوم الملونة، كمقاعد ورفوف للكتب في قرطبة ».

وأول من استعمل البارود هم العرب عام ١٧٩هـ ــ ٩٠٦م، وهم الذين نقلوه إلى الأندلس، وعنهم أخذته أوربا.

وأول من صنع الدبابة هو موسى بن نصير سنة ٩٢هـ حينما فتح الأندلس، ولما أراد فتح مدينة ماردة، وكانت محصنة، وأهلها ذوو بأس شديد، اخترع موسى لهم دبابة، دب فيها المسلمون تحتها إلى برج من أبراج أسوارها وجعلوا ينقبونه.

وقد سبق عرب الأندلس المصريين إلى الطباعة بزمن يسير، فكانت السجلات تطبع في دار وزير الناصر أمير المؤمنين، وأشاد بذلك كوندي الاسباني، وقال: وهم سبقوا جو تنبرج إلى الطباعة ببضعة قرون.

وهؤلاء العرب من أهل الأندلس هم سلالة عرب المشرق الذي أثلوا الملك، وشادوا الحضارة، وأقاموا الجامعات، ونشروا الثقافة، ورفعوا من شأن الفكر الإنساني، وهم الذين اخترعوا كل جلائل المخترعات ودقائقها، ووصلوا حتى إلى أقل الكشوف، من مثل «قلم الحبر» فقد ذكر القاضي النعماني في «الخصائص والمسامرات» قال: «حدثنا الإمام المعز عن اختراع هذا القلم[1]، وقد وصف صنعه، ثم مرت بضعة أيام، حتى جاء الصانع يحمل قلماً من ذهب، فأودعه المداد وكتب به، وزاد شيئاً من المداد عن مقدار الحاجة، فأمر بإصلاحه، فإذا هو قلم يقلب باليد، ويميل إلى كل ناحية، ثم إذا رفعه عن الكتاب أمسك المداد، فرأيت صنعة عجيبة لم أكن أظن أني أرى مثلها».

(١) يريد قلم الحبر الذي يكتب من حبر مخزون في جوفه.

شخصية أندلسية ــ أبو علي القالي
٢٨٨ ــ ٣٥٦م

ترجع شهرة أبي علي القالي إلى كتابه الجليل « الأمالي »، ويعد كتاب الأمالي لأبي علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي من أشهر مصادر الأدب العربي القديم، ويعد من أصول الثقافة الأدبية، وقد أشاد به العلماء والأدباء والنقاد يقول فيه ياقوت في معجم الأدباء[1] : « كتاب الأمالي معروف بين الناس، كثير الفوائد، غاية في معناه ». وقال أبو محمد بن حزم فيه : هو مبار لكتاب الكامل الذي جمعه المبرد، ولئن كان كتاب أبي العباس المبرد أكثر نحواً وخبراً، فان كتاب أبي علي أكثر لغة وشعراً[2].

والكتاب دائرة معارف واسعة في الأدب والنقد والشعر واللغة، وهو بحق في مقدمة أمهات كتب الأدب العربي المعدودة. ويقول القالي في مقدمة الكتاب : « أودعته فنوناً من الأخبار، وضروباً من الأشعار. وأنواعاً من الأمثال، وغرائب من اللغات، على أني لم أذكر فيه باباً من اللغة إلا أشبعته، ولا ضرباً من الشعر إلا اخترته، ولا فناً من

(١) ص ٣٥٢ جـ ٢ معجم الأدباء لياقوت.

(٢) المرجع نفسه.

الخبر إلا انتخلته، ولا نوعاً من المعاني والمثل إلا استجدته؛ ثم لم أخله من غريب القرآن، وحديث الرسول ﷺ، على أنني أوردت فيه من الابدال ما لم يورده أحد، وفسرت فيه من الاتباع ما لم يفسره بشر »[1].

ويقول محقق كتاب الأمالي : إن أئمة اللغة والأدب طالما تجدهم ينظمون في كتبهم من درره، ويغترفون من بحره، وهو تأليف جزل الفائدة، جم النفع لمن يريد التعمق في علم اللغة، وتزيين عقله بالآداب العربية، والأخبار المنتخبة، والأشعار المختارة، والأمثال المستجادة.

وقد طبع الكتاب لأول مرة في مطبعة بولاق الأميرية بالقاهرة عام ١٣٢٢هـ، فأقبل على اقتنائه العلماء والأدباء إقبالاً منقطع النظير، وقررت وزارة المعارف المصرية تدريس الكتاب في مدرستي دار العلوم والقضاء الشرعي وفي غيرهما من المعاهد العلمية إبان ذلك العهد، واتخذ في الأزهر الشريف كتاباً للمطالعة، ثم أعيد طبعه بمطبعة دار الكتب المصرية عام ١٣٤٤هـ ــ ١٩٢٦م مع إدخال تحسينات عليه، والحاق فهارس مستوفاة به، وإضافة كتاب « التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه » للإمام أبي عبيد البكري[2]...

---

(١) ص ٣ جـ ١ الأمالي طبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٤هـ ــ ١٩٢٦م ــ وقد تحدث صاحب الأمالي عن الاتباع في الجزء الثاني من كتابه صفحة ١٠٨، كما تحدث عن الابدال أيضاً في الكتاب.

(٢) هو عبيدالله بن عبد العزيز بن محمد البكري الوزير، من أعيان الأندلس وأدبائها وعلمائها المشهورين، كان من أهل مرسية، وبها ولد عام ٤٣٢هـ ــ ١٠٤٠م ونشأ، ثم هاجر إلى قرطبة، ثم لاذ بصاحب المرية فاصطفاه لصحبته وآثر مجالسته والأنس به، وتهادى ملوك الأندلس مؤلفاته. وكان من أهل اللغة والآداب الواسعة، والمعرفة بالتاريخ والأنساب والأخبار والشعر، وتوفي بقرطبة عام ٤٨٧هـ ــ ١٠٩٤م (٢ : ٥٢ عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، و ١ : ٢٨٣ ابن بشكوال، وراجع كذلك المقدمة التي نشرت في صدر كتاب التنبيه، بقلم الأب أنطون صالحاني اليسوعي).

والأمالي مطبوع في دار الكتب المصرية في جزئين يقع الأول في ٢٨٤ صفحة عدا المقدمة، والثاني في ٣٢٦ صفحة، وكتاب ذيل الأمالي والنوادر للقالي أيضاً في ٢٢٤ صفحة.. أما كتاب التنبيه مع فهارس الأمالي فيقع في ٢٢٤ صفحة أيضاً.

والتعليقات التي نشر بها الكتاب في طبعتيه قليلة وإن كانت قيمة، ولدي شرح واسع مستفيض ضخم للكتاب يقع في ستة أجزاء كبار، وحجم كل جزء لا يقل عن خمسمائة صفحة، إلا أنني حتى اليوم لم أحاول نشر هذا الشرح الضخم لما يتكلفه من أعباء مالية كبيرة، ولفقدان التشجيع على نشر مثل هذه الآثار والتآليف.

وتراثنا الأدبي القديم في حاجة ماسة إلى العناية به، وطبع روائعه، وعلى كثرة سبل الطبع والنشر اليوم، فإنه لم يعد أحد في عهدنا الحاضر يعنى بمثل هذه الكتب، لأن شباب العرب صار اهتمامهم بقراءة القصص والمجلات أكثر من اهتمامهم بقراءة المصادر والأصول لثقافتنا العربية الإسلامية.

— ٢ —

والقالي من أشهر أعلام الأدب العربي القديم، وهو إمام في اللغة وعلوم الأدب، وله مؤلفات جمة مأثورة مشهورة، ويقول الزبيدي فيه : « ما نعلم أحداً من المتقدمين ألف مثله[١] ». وكان القالي أحفظ أهل زمانه للغة وأرواهم للشعر وأعلمهم بعلل النحو على مذهب البصريين، وأكثرهم تدقيقاً في ذلك.

وحياة القالي مثال رائع لحياة العلماء المسلمين في العصور القديمة،

(١) ٢ : ٣٥٢ معجم الأدباء لياقوت.

عصور النهضة الفكرية والازدهار العلمي، والتشجيع الكامل من الخلفاء والوزراء والأعيان.. إن العلم في العالم الإسلامي القديم لم يكن وسيلة للدعاية السياسية ولا للشهرة الرخيصة، ولا للإعلان الكاذب، ولا للمجد.. إنه كان حركة ضخمة لخدمة التقدم والرقي بالحضارة وإعزاز شأن العقل، والنهوض بمستوى الحياة، وكان العلم والتعليم كله مجانياً، وأجور العلماء ومكافآت الطلاب كلها من الدولة، هذا إلى الأوقاف الضخمة، التي كان يرصدها أعيان المسلمين على الجامعات والمدارس والمساجد وحلقات العلم، وإلى حد كبير يصح أن نقول اليوم إن حركات التعليم في العالم العربي والإسلامي لا روح لها، لأنها ليست خالصة لوجه الله، وليس المقصود بها بالعلم في حد ذاته، وإنما تتجه للكسب المادي، ولتسنم الوظائف، ولإدراك الشهرة قبل كل شيء، ومع التقدم الزمني الكبير فلا زلنا في العلم المادي عالة على الغرب. أما علومنا الإسلامية الأصيلة فقد قلت العناية بها وضعف الإقبال عليها، وفترت روح العلماء والمتعلمين حيالها، وتكاد الأيام المقبلة تهدد الثقافة الإسلامية الأصيلة تهديداً خطيراً: بإضعاف روح الإقبال عليها، وبإهمال شئون طبعها ونشرها وبانعدام إدراك فائدتها وقيمتها.

فكتاب ككتاب الأمالي الذي نتحدث عنه لم يعد اليوم مقرراً للدراسة فيما نعلم إلاَّ في كلية اللغة العربية، وهذا شأن الكامل للمبرد ومقدمة ابن خلدون والبيان والتبيين للجاحظ وزهر الآداب للحصري وسواها.

ولد أبو علي اسماعيل بن القاسم بن هارون بن عيسى بن محمد ابن سليمان مولى عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي المشهور عام ٢٨٨ هـ بـ « منازجرد » من أعمال ديار بكر[1]، وبها نشأ وحصل أطرافاً

---

(١) بغية الملتمس للضبي ص ٢١٨، وهو أحد الكتب التي تجمعها المكتبة الأندلسية، وهي الصلة لابن بشكوال في جزءين، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، وتكملة الصلة لابن الأبار وتكملة التكملة لابن الأبار، وبغية الملتمس للضبي، والمعجم لابن=

من العلم، ثم رحل عنها إلى العراق لطلب العلم والتحصيل، وفي طريقه إلى بغداد كان في رفقة جماعة من « قالي قلا »[1]، وكانوا ــ كما يقول القالي ــ يكرمون لمكانهم من الثغر، فلما دخل بغداد نسب إليهم لكونه معهم، وأطلق عليه القالي، وأحياناً كانوا يسمونه البغدادي لطول إقامته في بغداد، وكانت رحلة القالي إلى بغداد عام ٣٠٣هـ، وهو في الخامسة عشرة من عمره[2]، وفي بغداد تتلمذ على فحول العلماء، وأئمة الثقافة، وجهابذة الرواة، من مثل : البغوي المتوفى عام ٣١٧هـ، والعدوي (٢١٠ــ٣١٩هـ) والسجستاني المتوفى عام ٣١٦هـ، وابن صاعد (٢٢٧ــ٣١٧هـ)، وابن درستويه (٢٥٨ــ٣٤٧هـ) والزجاج المتوفى عام ٣١١هـ، والأخفش الصغير المتوفى عام ٣١٥هـ، وابن دريد (٢٢٣ــ٣٢١هـ) ونفطويه المتوفى عام ٣٢٣هـ، وابن السراج المتوفى عام ٣١٦، وابن الانباري المتوفى عام ٣٢٨هـ، وسواهم من أعلام العلماء الذي يروي عنهم وينوه بعلمهم.

وبدا نبوغ القالي في علوم اللغة والأدب لأساتذته، وأخذت شهرته تزداد في حلقات العلم والثقافة في بغداد، وجلس للتعليم والإفادة، وظل ربع قرن مقيماً في بغداد متعلماً ومعلماً ومحققاً ومفيداً، حتى جاءت سنة ٣٢٨هـ، فكانت سنة تطور كبير في حياة القالي الثقافية والأدبية.

كان القالي ينتمي إلى بني أمية، وكان هواه معهم، وكان ازوراره عن بني العباس شبه معروف للخاصة من أترابه ولداته، وكان لبني أمية دولة في الأندلس أسسها الداخل عام ١٣٨هـ، وظلت قائمة حتى عصر القالي.

= الأبار، وفهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين في ضروب العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن خليفة الأموي الأشبيلي. وقد نشرت المكتبة الأندلسية في مدريد بإشراف المستشرقين الاسبانيين : كوديرا، وريبرا.

(١) قرية من قرى « منازجرد ».

(٢) ١ : ٣٥٢ معجم الأدباء لياقوت.

وكان من الممكن أن يسمع الأمويون في الأندلس بعالم كبير ينتمي إلى بني أمية، ويعيش في بغداد شبه مغضوب عليه.

وكان الحكم في الاندلس إبان ذاك الخليفة الأموي المشهور عبد الرحمن الناصر الذي تولى الحكم في الأندلس خمسين عاماً (٣٠٠ـ ٣٥٠هـ) رفع فيها منار العلوم والآداب في هذه البلاد، ووطد فيها دعائم الدولة، ونهض بمملكته نهضة جليلة، وحارب خصومه وانتصر عليهم في مواقع عديدة، وكان يساعده في حكم البلاد ابنه وولي عهده الحكم بن الناصر الذي ولي الخلافة بعد أبيه ستة عشر عاماً (٣٥٠ـ ٣٦٦ـ). وكانت عاصمة الخلاف الأموية في الأندلس هي قرطبة منذ أسس عبد الرحمن الداخل مملكة أموية فيها، وفي عهد الناصر وابنه الحكم أسست المكتبات، وأنشئت الجامعات والمدارس، وازدهرت الحركة العلمية في الأندلس ازدهاراً لم يحدث له نظير من قبل.

ـ ٣ ـ

وكانت قرطبة إبان ذاك تعد من العواصم الكبرى في العالم، وقد بلغت من الحضارة منزلة تكاد تصل إلى المنزلة التي بلغتها بغداد، وكان سكانها أكثر من مليون نسمة، وقد أنشأ الناصر على مقربة منها مدينة الزهراء الخالدة، وينقل المقري عن أبي سعيد مؤلف « الحلة المذهبة في مملكة قرطبة » أن هذه المدينة كانت أكثر بلاد الاندلس كتباً، وكان أهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك من آلات الرياسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون له معرفة يحتفل أن تكون في بيته خزانة كتب ويحتفظ بها، وما هو إلا أن يقول : عندي خزانة كتب (أي مكتبة)، والكتاب الفلاني ليس عند غيري، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصلته وظفرت به، ويقول سديو : كانت

هذه المدينة تصبح مضيئة، وحاراتها مطيبة بما يلقى فيها من الزهور، مع استعمال الألحان المطربة في المنتزهات والميادين العامة.

وفي لحظة حاسمة في حياة القالي وصلته رسالة من الناصر خليفة المسلمين في الأندلس، يرغبه في الوفود عليه، لنشر علمه، ولبى القالي الدعوة، وسافر إلى قرطبة، مودعاً بغداد وعهده فيها، وحياته بها.

وفي أحد ثغور الأندلس وصلت السفينة التي تقل عالمنا الكبير، وتلقاه بأمر الحكم ولي العهد في الميناء ابن رماحس في وفد من العلماء والوجهاء، وساروا وسار معهم القالي في موكب نبيل إلى قرطبة، يتذاكرون الأدب، ويتناشدون الشعر.

وكان ممن صحب القالي إلى قرطبة الأديب الأندلسي ابن رفاعة الألبيري وللقالي معه قصة غريبة، أنشد القالي في الطريق بيتاً من الشعر لعبدة بن الطبيب :

ثمت قمنا إلى جرد مسومة   أعرافها لأيدينا مناديل

فأنكر ابن رفاعة البيت، واستعاده من القالي مراراً فأنشده القالي في كل مرة « أعرافها »، وقال : « مع هذا يوفد على أمير المؤمنين، وتتجشم الرحلة لتعظيمه، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا يغلط فيه الصبيان، والله لا تبعتُهُ خطوة »، وانصرف عن الجماعة.

ولعل هذه القصة هي التي جعلت القالي يشهد للأندلسيين بالعلم والذكاء، يقول ابن بسام في الذخيرة عن القالي : لما وصلت القيروان وأنا أعير من أمر به من أهل الأمصار فأجدهم درجات في العبارات وقلة الفهم بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد، كأن منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم محاصة ومقايسة، فقلت : إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في أفهامهم، بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم، فسأحتاج إلى ترجمان في هذه الأوطان. قال ابن

بسام : فبلغني أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق الأندلسي في ذكائهم، ويتغطى عنهم عند المباحثة والمفاتشة، ويقول لهم : إن علمي علم رواية وليس بعلم دراية، فخذوا عني ما نقلت، فلم آل لكم أن صححت.

دخل القالي قرطبة لثلاث بقين من شعبان عام ٣٣٠هـ كما يقول ابن خلكان، فأكرم الناصر وفادته، وأعلى في دولته مكانته، وآثره بالعطف والتقدير، بتأديب ولي عهده الحكم، وتثقيفه ثقافة أدبية وعربية خالصة، واستوطن قرطبة، وأخذ يلقي محاضراته ودروسه في حلقات مسجدها الجامع، فأورث أبو علي أهل الأندلس علمه، وأقبل عليه أهل الأندلس للإفادة والتعلم والتأدب من دروسه التي كان يلقيها من روايته وحفظه في كل يوم خميس بقرطبة، في المسجد الجامع بالزهراء، وكان أبو علي واسع العلم، كثير الرواية، طويل الباع في علوم الأدب واللغة، مما شهد به علماء عصره، فسمع الناس منه، وقرأوا عليه كتب اللغة، والأخبار والأمالي، وعظمت استفادتهم منه. ومن تلاميذه في هذه الفترة : الزبيدي مؤلف كتاب مختصر العين وإمام اللغة والأدب في الأندلس في عصره وسواه.

وللشاعر الأندلسي الرمادي يوسف بن هرون الكندي قصيدة في مدح القالي، قال فيها :

روض تعاهده السحاب كأنه ... متعاهد من عهد إسماعيل
قسه إلى الإعراب تعلم أنه ... أولى من الأعراب بالتفضيل
حازت قبائلهم لغات فرقت ... فيهم وحاز لغات كل قبيل
فالشرق خال بعده فكأنما ... نزل الخراب بربعه المأهول
وكأنه شمس بدت في غربنا ... وتغيبت عن شرقهم بأفول

وحقاً كان القالي شمساً بدت من المغرب، وخلا منها مكانها في المشرق.

وعاش القالي عشرين سنة في الأندلس في خلافة الناصر، ثم ست سنوات أخرى في خلافة الحكم بن الناصر، الذي شمله بالعطف والعطاء؛ مما جعله في سعادة ورخاء ونعمة وفراغ بال؛ ومما جعله يعكف على الإفادة والتأليف.

وللقالي كتب عديدة منها: الأمالي، والممدود والمقصور، وكتاب الإبل، وكتاب حلى الإنسان والخيل وشياتها، وكتاب « فعلت وأفعلت »، وكتاب مقاتل الفرسان، وتفسير السبع الطوال، وكتاب البارع في اللغة، وسواها.

وكان بين أبي علي القالي وبين العلماء والأدباء في الأندلس صداقات ومداعبات ووفاء، وكان من معاصريه من علماء اللغة بالأندلس : ابن القوطية وغيره.

وكان تعصب الدولة في الأندلس لكل ما هو أموي يرفع من مكانة القالي فيها، وخاصة عند الخليفة الناصر وولي عهده، ولذلك رفعت مكانته في الدولة، واحتل منزلة سامية فيها، وصار عميد العلماء والأدباء في عصره، كما كان إمام الأدب وشيخ اللغة في زمانه.

ومما يدلك على مكانة القالي أن الخليفة الناصر وولي عهده الحكم كانا يعهدان إليه بتمثيل الدولة في أخطر المواقف السياسية، حتى ليروى أن الناصر كلفه بالخطابة أمام وفد الروم لولا أن أبا علي بهت وانقطع عنه الكلام في هذا الموقف، فقام مقامه منذر بن سعيد البلوطي.

وتوفي القالي في قرطبة في ربيع الآخر عام ٣٥٦هـ، وشيعت جنازته الأندلس كافة، وبكاه فيها العلماء والأدباء والطلاب بكاء حاراً، رحمه الله رحمة واسعة.

ومقدمة كتاب الأمالي سجل ثمين يكشف لنا ألواناً عديدة من حياة القالي وأدبه، فهي تمثل نثره الفني أصدق تمثيل، وهي تصور لنا البواعث النفسية لتأليف الأمالي، والقالي فيها يشيد — بعد حمد الله — بفضل العلم وترفع العالم، ويثني فيها على الناصر وتشجيعه للآداب، وعلى ولي عهده الحكم، ويذكر أنه أملى « الأمالي » في يوم الخميس بقرطبة، وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة، ثم يختم المقدمة ببيان ما اشتمل عليه الكتاب من بحوث وآراء ودراسات.

والأمالي مع مظهره الأدبي العالي، يدل على ثقافة لغوية واسعة، وهو حافل بالفوائد اللغوية التي لا توجد في كتاب، فتجد القالي فيه مثلاً يتعرض لتفسير مادة « نسأ » ومادة « لحن » ومادة « حرد »، ويفسر الغريب من حديث السحابة التي نشأت ورسول الله جالس بين أصحابه ﷺ، ويتعرض للكلام على غريب حديث : « ألم أخبر أنك تقوم الليل، وتجده كذلك يخصص مطالب لترتيب أسنان الإبل وأسمائها وأسماء الرجل يحب محادثة النساء، ولأسماء الشخص، ولأسماء الألوان وأوصافها، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه الكتاب من ثقافة لغوية عرض لها المؤلف قصداً، أو ذكرها أثناء شرحه لنصوص أدبية قديمة أو محدثة، وفي فصول في الكتاب يذكر ما تتعاقب فيه العين والحاء، والهمزة والهاء، والسين والتاء. الخ.

أما ثقافات الكتاب الأدبية فينطق بها ما احتوى عليه الكتاب من روائع الآثار المروية عن العصر الجاهلي والإسلامي والأموي وصدر دولة بني العباس، وهي نصوص أدبية رفيعة قد لا توجد في كتاب آخر، سواء ما سجله القالي منها من النثر أم الشعر.

وفي الكتاب كذلك آراء وأحكام ومجالس في النقد، وهي ذات أهمية كبيرة في ثقافة الأديب ومتذوق الأدب.

والنصوص الواردة في الكتاب تفسر لنا بعض الجوانب الغامضة من حياة العرب في الجاهلية وعصر صدر الإسلام وبني أمية، تصويراً كبيراً له مدلوله التاريخي.

وأكثر روايات القالي عن ابن دريد، ويظن أن مجالس ابن دريد الواردة في هذا الكتاب هي مقدمة لظهور فن المقامة في الأدب العربي، ومنها مثلاً حديث البنات الثلاث اللاتي وصفن فيه ما يحببن من الأزواج وسوى ذلك، والقالي يمزج النثر بالشعر والخطب بالأمثال، والحكمة بالوصية، والنقد بالشرح، ويأتي بعد ذلك بالطرائف المستجادة، والفوائد المستحسنة، مما يروع، ويسحر.

وبين بحوث الكتاب اللغوية يعقد القالي مطالب يذكر فيها ما قال الشعراء في الحديث، أو في البكاء ووصف الدموع أو في العناق أو غير ذلك، ويذكر كثيراً من القصائد المشهورة في الأدب العربي، أو يعرض لحديث الشعر أو النثر، أو لسوى ذلك من الموضوعات الطريفة.

وكثيراً ما يستروح القالي إلى شيء من النقد، فيذكر مثلاً سؤال بعض خلفاء بني أمية لجرير عن أشعر الناس، أو يروي مفاضلة بين عمر وجميل في الغزل، أو يذكر ما يستحسن ويستجاد من شعر شاعر، مما يدل على روح النقد الأصيلة، أو سوى ذلك.

أما ملاحظات البكري على القالي، فمع كثرتها نجد بعضها يتصل بتصحيح اسم من الأسماء، كأن يذكر القالي لعبد الملك وإنشاده شعر قيس ابن رفاعة، فيذكر البكري أن صحة الأسم هي أبو قيس بن أبي رفاعة، وكأن يحقق الرواية الأدبية، وكأن يصحح شرحاً لنص من النصوص؛ أو سوى ذلك، وهذه التنبيهات في جملتها مفيدة مهمة.

وبعد فإن كتاب القالي دائرة المعارف في الأدب القديم، وهو ثمرة

من ثمرات الرجولة المكتهلة، والإحاطة التامة، والثقافات الواسعة، وهو من أجلّ ما ألفه القالي من مؤلفات.

وهو صورة لآداب المشرق في مختلف العصور إلى آخر القرن الثاني الهجري، وآداب المشرق كانت في الأندلس من الطرف الجميلة، التي يحتفل بها، وتروى وتذاع. وليس في الكتاب طبعاً شيء من آداب الأندلسيين وآثارهم، إنما هو صورة مشرقة واضحة لذوق أدباء المشرق وشعرائه ونقاده.

ونحن في هذه الدراسة الموجزة ننوه بفضل القالي على الأدب ولغة العرب وثقافات الأدباء في القديم والحديث، ونوصي الشباب أن يقرأوا « الأمالي » ويستفيدوا مما فيه من آثار ونصوص وحكم وآداب، فهو جدير بالعناية والاهتمام.

— ٥ —

وللقالي كتاب « البارع » في اللغة : وهو معجم ابتدأ فيه منذ سنة ٣٣٩هـ وعاونه فيه وراق اسمه محمد بن الحسين الفهدي من أهل قرطبة منذ عام ٣٥٠هـ واستمر في تأليفه حتى توفي القالي إلى رحمة الله فتولى تهذيبه وراقه مع محمد بن معمر الجياني. وكان قد أتمه. ولم يستطع تبييضه ونقله. بل نقل كتاب الهمزة. وكتاب الهاء. وكتاب العين..

والبارع مبني على حروف المعجم : وجمع فيه كتب اللغة، وعزا كل كلمة من الغريب إلى من نقلها عنه من العلماء، واختصر الإسناد عنهم، وهو يحتوي على ٥٠٠٠ ورقة.

وقد اتبع القالي فيه طريقة الخليل ومنهجه : فبنى « البارع » على

مخارج الحروف، ولكنه لم يسر على ترتيب الخليل. فبدأ بالهمزة، ثم بالهاء، ثم بالعين، مع خلاف يسير في الترتيب، ومع مخالفته الخليل في الأبنية وترتيبها فهي عند القالي ستة : أبواب الثنائي المضاعف ويسميه الثنائي في الخط والثلاثي في الحقيقة، وأبواب الثلاثي الصحيح. وأبواب الثلاثي المعتل، وأبواب الحواشي، وأبواب الرباعي، وأبواب الخماسي... والقالي يتبع الخليل في ذكر الكلمة ومقلوبها..

ومن البارع قطعتان : أحدهما في المتحف البريطاني برقم ٥٢٩٨١١، والثانية في المكتبة الأهلية بباريس برقم ٤٢٣٥ وقد صورهما الدكتور فلتون وجعلهما في كتاب.

والبارع أول معجم يظهر في الأندلس، وهو صورة لمعاجم المشارقة ولابتكارهم[1].

---

(١) الصحاح ومدارس المعجمات للأستاذ أحمد عبد الغفور عطار ص ١١٧ و ١١٨.

اللغة العربية في الأندلس

— ١ —

لغة الكتابة والثقافة والتأليف :

بعد أن تغلب العرب على شبه الجزيرة دخل في حكمهم آلاف المسيحيين من كل جهة فتحوها. فعاش أولئك المسيحيون في كنف المسلمين. وأحسنت الحكومة معاملتهم، ومنحتهم الحرية الدينية، وكثيراً ما رفعتهم إلى مناصب عالية في الجيش وفي بلاط الملك. فاعتنق كثير منهم الإسلام وافتتن بحضارته وثقافته، حتى رأينا « الفارو » كاهن قرطبة في أواسط القرن التاسع للميلاد يولول في أوائل ذلك العصر شاكياً من أبناء دينه انكبابهم على مطالعة أشعار العرب وأساطيرهم، وهيامهم بدراسة كتابات لاهوتيي المسلمين وفلاسفتهم — لا بقصد تفنيدها — بل رغبة في التعبير عن خوالجهم بأسلوب عربي رشيق وصحيح[1].

(١) يقول دوزي : « بعد الفتح الإسلامي اعتنق كثير من المسيحيين دين الفاتحين — حفزتهم لهذا المنافع من جهة، واقتناعهم بأن الدين الإسلامي هو الدين الحق من جهة أخرى. فقد جددوا فلسفتهم في نظرية الصراع — يعتقدون أنه حيث تكون القوة يكون الحق، ويقولون للكهنة : « لو كانت المسيحية حقاً فلماذا أسلم الله بلادنا وهي مسيحية لشيعة دين غير صحيح، وقد زعمتم أنه أخذ الكاثوليكية تحت رعايته، =

وكان الفارو يتساءل قائلاً : « أنى يتاح لإنسان في هذه الأيام أن يقابل واحداً من أبناء جنسنا يقرأ التفاسير اللاتينية للكتب المقدسة ؟؟

= وقصصتم لمحة من تلك المعجزات التي وقعت غيرة على هذا الدين من المظالم الآرية — فلم لا تبعث هذه المعجزات مرة أخرى ؟ » وكانت هذه الاعتراضات في العصور السابقة تسبب الحيرة والارتباك للكهنة أنفسهم الذين كانوا يجهلون كذلك كيف خضع المؤمنون وذلوا أمام الملحدين !! — فلما تقادم زمن الفتح حلت هذه الاعتراضات بأن المتأخرين من ملوك القوط بل كهنتهم وأشرافهم كانوا أئمة مجرمين وأن القوارع التي قرعتهم لم تكن إلا عقاباً عادلاً من الله — وقد كان اعتبار النكبات قصاصاً عادلاً، من فلسفة الأقدمين على العموم واليهودية على الخصوص — وقد تتجلى في أمثال سليمان سعادة الأبرار وشقاوة الفجار في صور مختلفة — وكانت القرون الوسطى تطبق على التعاسة نفس هذه النظرية، فكان انتصار المسلمين على الخصوص آية الغضب الإلهي كما كانت انتصارات المسيحيين في رأي المسلمين — وكانت تردد هذه الجملة في إيطاليا كذلك وهي : « إذا انتصر المسلمون فذلك لأن الله يريد عقابنا على خطايانا »، وكذلك كان يقال في أسبانيا وفي سنة ٨١٢ م أذاع الفونس الثاني منشوراً باملاء الكهنة قال فيه : « أيها الإله — إن القوط أهانوك بكبريائهم فكانوا أهلاً لأن تمزقهم السيوف العربية » وفي سنة ٩٢٤م قال سنكودي نفار في منشوره بمناسبة إنشاء معبد البلد : « لقد كانت إسبانيا تحت سلطان المسيحيين، فكانت حصونها وقراها مكتظة بالكنائس. وبذلك كان الدين المسيحي سائداً في كل مكان. ولكن أسلافنا تتابعت خطاياهم وخرجوا على وصايا الإله، فلأجل أن يعاقبهم على ما قدمت أيديهم ويرجعهم إلى الصراط السوي رماهم بهذا الشعب البربري ». وقال سبستيان بدوره : « وإنما هلك الجيش القوطي لأن الملوك والكهنة تركوا شريعة الله »، وقال كاهن : « عاقب الله أسلافنا في هذه الحياة الدنيا حتى لا تكون هنالك حاجة إلى عقابهم في الحياة الأخرى » وفي رواية كاهن بشيليوس أقدم المؤرخين الذين ينقلون عنه : « أن برمود كان عاقلاً عادلاً وأنه كان يعمل على فعل الخير واجتناب الشر، ولكنه كان يسيء الحظ فقد حدث في عهده — وقت أن كان يشغل عرش ليون — أن وجه المنصور ابن أبي عامر إلى المسيحية أشد الضربات التي أصابتها منذ الهجوم العربي، فلم ينج شيء من سيوف المسلمين، ولم تكن لترى حينذاك إلا مدائن مخربة وأديرة خاوية وكنائس مهدمة — بل لقد وصلت الحال إلى أن سقط سبستبول وهيكل سان جان رأساً على عقب — وهنا رجع السؤال، لماذا تغلب المسلمون على المسيحية ؟ وأجاب الكهنة على سابق عادتهم ذاك عقاب على خطايانا والمنصور هو مطرقة الغضب الإلهي، وهكذا كانوا يسمونه، ولهم الحق=

ومن ذا الذي يدرس منهم فصول الأناجيل وسير الأنبياء والحواريين !! واحسرتاه ؟ إن كل الشبان المسيحيين ذوي المواهب، لا يعرفون إلا العربية وإلّا كتابات العرب فهم يقرءونها ويدرسونها بحماس بالغ منتهاه ــ كما أنهم ينفقون المبالغ الطائلة من النقود لاقتنائها في مكاتبهم. وتراهم ــ أنى وجدوا ــ يذيعون أن تلك الآداب جديرة بالإعجاب، فإذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية أزور جانبهم، وأجابوا باحتقال : « إنها أسفار لا تستحق الذكر ! واحسرتا عليهم ! لقد نسي المسيحيون لغتهم، حتى ليندر العثور ــ بين آلاف منا ــ على فرد يستطيع أن يحرر إلى أحد أصدقائه رسالة لاتينية بأسلوب لا بأس به ــ على حين ترى العدد الجم قادراً على الإبانة عما في

= في ذلك، فلقد بلغ به حبه الشديد للغزو، أنه ربما خرج للمصلي يوم العيد، فحدثت له نية في ذلك فلا يرجع إلى قصره بل يخرج بعد انصرافه من المصلى يوم العيد كما هو من فوره إلى الجهاد، فتتبعه عساكره وتلحق به أولاً فأولاً، فلا يصل إلى أوائل بلاد الروم، إلا وقد لحقه كل من أراده من العساكر، غزا في أيام مملكته نيفاً وخمسين غزوة، وفتح فتوحاً كثيرة، ووصل إلى معاقل امتنعت على من كان قبله، وفي أيامه تغالى الناس في الأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى، وذلك لرخص أثمان بنات الروم، حتى نودي على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة وكانت ذات جمال رائع، فلم تساو أكثر من عشرين ديناراً؛ وكان في أكثر زمانه لا يخل بأن يغزو غزوتين في السنة... راجع في ذلك الكتاب المعجب ــ على أنهم كانوا جديرين أن يبينوا لنا أين كانت تلك الجرائم التي استوجبت هذه العقوبة الهائلة ؟؟ وكيف تم ذلك رغم أن الإيمان بالخلود كان في ذلك الزمن أكثر منه في أي زمن آخر ؟؟ ولكن لا غرابة في ذلك فقد آلى كتاب القرن الثاني عشر على أنفسهم أن يقوموا بهذا الواجب، فمؤلف التاريخ الكشتالي على الرغم من أنه من رجال الكنيسة ضحى بلا روية بالكهنة الذين ترأسوا كنيسة « رمبو ستيل » في القرن العاش وأظهرهم بمظهر الفسقة المجرمين قساة القلوب، وعنى فيلاخ أفيديو بشخص برمود ــ ألا ترى كيف أنه يبدأ كلامه بنشر صحيفة طويلة من سيئاته ومخازيه، فإذا انتهى منها وصل إلى هذه النتيجة فقال : « وإنما بسبب جرائم برمود وجرائم شعبه ان المنصور.. الخ » وهكذا برروا عمل الألوهية التي سمحت للاسلام أن يكتسح المسيحية.

نفسه بأسلوب عربي خلاب، وعلى حين ترى حذقهم في قرض الشعر العربي قد وصل إلى حد فاقوا معه العرب أنفسهم[1] ».

أما المولدون والصائبون من الإسبانيين الذي اعتنقوا الإسلام، فقد استعربوا تماماً بعد أجيال قليلة، ومنهم نبغ أدباء وشعراء ازدان بهم الأدب العربي قي الأندلس.

وقد حظر هشان بن الداخل (١٧٢ـ١٨٠) على النصارى أن يتكلموا بغير العربية، وفي هذا دلالة واضحة على حب هؤلاء الملوك للغتهم، وعملهم على سيطرتها، لتحكم الألسنة، بأن تجعل العربية لغة الأسواق، وحديث التعامل، وحوار الباعة.

ولا ريب أن الدين الإسلامي وعروبة القابضين على أزمة البلاد هما العامل الأول في انتشار تلك اللغة الكريمة، زادها الله شرفاً ورفعة.

والعامل الثاني الذي له أثره من بعد : هو الحاجة إلى الاتصال بالحاكم واستدرار خيره في مقتضيات الملك : من كتابة وعملة وزلفى وشفاعة وما إلى ذلك.

كذلك أغرى بها وزاد الرغبة في تعلمها، سهولتها وعذوبتها وسرعة تعلمها، ولا سيما ما كان في البيئات المنزلية، وكذلك المصاهرة التي مزجت العناصر ولقنت ألفاظ اللغة وأساليبها، ولم يكن العرب يتحرجون

---

(١) ومن كلام هذا الكاهن كما في كتاب تاريخ العرب في أسبانيا لدوزي ٢/١٠٣ : إنا نحب أن نقرأ الشعر والقصص، وندرس الدين والفلسفة في اللغة العربية، فنتعلم لغة عذبة الألفاظ، بليغة الأداء، جميلة الإنشاء، ولا تكاد تجد فينا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية، وشبابنا الأذكياء جميعاً لا يعرفون غير لغة العرب وآدابهم، وكلما قرءوا كتبها ودرسوا أدبها أعجبوا بها، فإذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منه، وقالوا إن الفائدة منه لا تساوي التعب في قراءته، وهكذا نسي المسيحيون لغتهم، وجهلوا كتابتها وبلاغتها، وحذقوا اللسان العربي حتى ليكتبونه نثراً ونظماً بأسلوب أنيق وتصوير دقيق.

من مصاهرة من دخل في دينهم، وأوى إلى كنف الإسلام، مهما انحدر نسبه أو رتبته.

كذلك لا ننسى ما كان من الحكام الأولين الأمويين من بِرٍّ بلغتهم، فإنهم كانوا في المغرب مثلهم في المشرق، يعنون بمفاخر آبائهم ويلتمسون ذلك في لغتهم وتراثها الأدبي الخالد، فيعقدون للأدب مجالس هم مديرو حوارها، ورواة أخبارها، في فصاحة ولسن، وطبع لا تكلف معه، والناس يتبعون ملوكهم، وكذلك هم عاشقون لهذه اللغة في ذاتها، يحنون إليها حنين الطيور إلى الوكور، فلطالما عملوا على ترقية شئونها. وإعلاء كلمتها، والحض على التفاني في خدمتها ببذل الأموال، وتقريب المجاهدين في سبيلها والمرابطين على حفظ ثغورها. فشجع ذلك على نقل الأدب الشرقي إلى الغرب بالأخذ عن الكتب تارة. والرحلة للحج وطلب العلم أخرى. بل لقد كانوا يحببون المقام في بلاد الأندلس بشتى المغريات. ولقد جهد كثير منهم أن تظهر مؤلفات النابهين من الشرقيين في بلادهم قبل ظهورها بالمشرق، كما في كتاب شرح مختصر ابن عبد الحكم للأبهري، وكما في الأغاني، وكان ذلك طمعاً في استرداد الملك الضائع. وتقويض عرش الغالبين من بني العباس.

— ٢ —

وتجد اللغة في عهد الولاة الفاتحين، وهو ما يقرب من نصف قرن، كانت حالها في المغرب أشبه بشيء بحالها في المشرق، فإن القوم هم القوم، ولم يجد في أمرهم ما هو جدير بأن يؤثر في حال اللغة، ولا أستحدث جديد لها، فاللغة قوية فطرية، أسلوبها مرسل وألفاظها جزلة بريئة من تكلف البديع، ومعانيها بعيدة من تعمق الفلاسفة، وترتيب

الحكماء، وأغراضها دائرة حول أحوال المعيشة والحث على إعلاء كلمة الله، وبذل النفوس لحماية البلاد والحفاظ عليها.

وفي زمن بني امية لموك الطوائف انتشرت اللغة بين أهل البلاد على اختلاف أجناسهم ومللهم. حتى ترجم بها القسوس التوراة وغيرها من الكتب الدينية. وذلك دليل على أنها أخضعت كل شيء لسلطانها هنالك، وقد دخل على اللغة كثير من التجديد في شتى نواحيها :

فأما أسلوبها : فقد صقل بجمال البلاد ورقتها، وجد فيه كثير من الصنع المقبول. ولا سيما السجع والسلاسة المستعذبة.

وأما المعاني فقد كانت واضحة بعيدة عن التعمق، متعددة الصور، لطيفة المنزع، كثيرة الطرف، جذابة النكات، لا يمل المتأمل فيها؛ لخفة روح القوم وميلهم نحو كل جميل خلاب من الأفكار والتصويرات؛ وحسبك خيالهم البديع الذي كانت الطبيعة الأندلسية من بعض مصادره.

وأما الأغراض : فقد اتسعت رقعتها وتعددت منازعها فجالت في شئون الملك ودواوين الحكم ومرافق الإمارة ثم صنوف الصناعة والتجارة، وقطعت شوطاً كبيراً في تصوير العلوم والمعارف وتجلت في معارضها الجميلة، وصافة لكل مظاهر الطبيعة وصنعة الحضارة ومشاهد النهضة، ونبغ الشعر الأندلسي في الوصف، مع دقة الخيال، ورقة العبارة.

وقد كان حظهم من الترجمة بخساً ضئيلاً لتفانيهم في حب لغتهم وبغضهم للأجانب وبعدهم عن مؤثرات عملت في الشرق عملها، من سلطان الفرس وسيطرة الدخيل. ولكن الوهن دب الى اللغة في زمن المرابطين والموحدين لكثرة الفتن، ولأن السلطان إذ ذاك في أيدي البربر وهم بعيدون كل البعد عن فهم اللغة العربية وجمالها، وسحرها، فانحطت بانحطاطهم، وعادت متقهقرة إلى الوراء.

ولكن القدر تداركها ببني هود ثم بني الأحمر. وهم عرب خلص،

فأعادوا لها شيئاً من مجدها التالد؛ وعزها الغابر؛ واستطاعت اللغة أن تقوم من كبوتها وكادت تصمد لعادية الزمان، لولا أن الفتن والقلاقل كانت متغلغلة في داخل البلاد؛ والعدو رابض لهم، متربص لخطاهم، يشعل الفوضى بين صفوفهم، حتى هزمهم واستولى عليهم؛ فمحيت للغة العربية من الأندلس بعد خروجهم، وعادت البلاد إلى لغتها الأصلية، ودينها القديم.

— ٣ —

وقد كان سريان الفساد في عربية الأندلس بطيئاً، ويعلل ذلك ابن خلدون بكثرة معاناتهم لعلوم اللسان، وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظماً ونثراً، وتداول ذلك فيهم مائتين من السنين، مما جعلهم أقرب إلى تحصيل ملكة اللغة المضرية من غيرهم من أمثال البربر، ولهذا ما كان بإفريقية من مشاهير طارئين عليها. ولذلك سبب آخر، وهو أن أهل اللسان العجمي، الذي تفسد ملكتهم، ليست عجمتهم أصلاً للغة أهل الأندلس، وإنما هم طارئون عليهم، أما البربر في هذه العدوة فهم أهلها، ولسانهم لسانها، إلا في الأمصار فقط، وهم فيها منغمسون في بحر عجمتهم ورطانتهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم، بخلاف أهل الأندلس.

ويقول باحث[1] : وهناك شيء شغل ملوك هذه البلاد بلغتهم، ووجه منهم عناية زائدة إليها، هو منافستهم للمشارقة، وتساميهم إلى أن يعدوا معهم، بل طمعهم في أن يفوقوهم، وهذه المنافسة قد تناولت كل شيء حتى أسماء البلاد، بل سموا : حمص، ودمشق، وقنسري،

(١) ٤٤ : ٣ الأدب العربي وتاريخه — المرحوم محمود مصطفى.

وفلسطين[1]، كما أسموا في الشعراء ابن هانئ وابن زيدون، بمتنبي الغرب وبحتريه. وكما شبهوا المخزومي الشاعر الأعمى بأبي العلاء، حتى قال بعضهم في الترحيب به حين قدم غرناطة :

يا ثانيا للمعري   في حسن نثر ونظم
وفرط ظرف ونبل   وغوص فكر وفهم

وقد دعتهم هذه المنافسة، إلى أن يستدرجوا علماء الشرق وأدباءه، وأصحاب الفنون فيه، إلى بلادهم ويرغبوهم بإغداق المال والجاه عليهم، حتى يظهر للغرب فضل على الشرق، وما ببعيد عنك حديث أبي علي القالي وزرياب المغني وغيرهما، وقد استنفد صاحب نفح الطيب أغلب الجزء الثاني، في ذكر هؤلاء الراحلين إلى الأندلس، وبيان ما نالوا من إكرام.

ويروي أن أبا علي القالي في وفوده على أمير المؤمنين الناصر، قال : « لما وصلت إلى القيروان كنت اعتبر من أمر به من أهل الأمصار، فأجدهم درجات في العبارات وقلة الفهم؛ بحسب تفاوتهم منها بالقرب والبعد، كأن منازلهم من الطريق، هي منازلهم من العلم محاصة ومقايسة، فقلت : إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في أفهامهم بقدر نقصان هؤلاء عمن قبلهم، فسأحتاج إلى ترجمان، في هذه الأوطان » فلما وصل إلى الأندلس وجد أحلى الناس لساناً، وأفصحهم بياناً، وأنفذهم أذهاناً، وكان كثيراً ما يعجب من ذلك. ولا غرو[2].

---

(١) يقول المقري : لما تولى أبو الخطار ولاية الأندلس عام ١٢٨هـ أنزل أهل دمشق « إلبيرة » وسماها دمشق، وأنزل أهل حمص إشبيلية، وسماها حمص، وأنزل أهل قنسرين حيان، وسماها « قنسرين »؛ وهذا مبعثه الحنين إلى الوطن.

(٢) ومن صور عامية أهل الأندلس في القرن السادس الهجري ما رواه السيوطي في « بغية الوعاة »، إذ ذكر في ترجمة الحافظ أبي محمد بن حوط الله المتوفى سنة ٦١٢ بغرناطة، وتفسير هذا اللقب (حوط الله)... « قال ابن عبد الملك : كأنه مصدر حاط يحوط مضافاً إلى الله تعالى، وذكر شيخنا أبو الحكم أن أصله : حوطله مصغر=

لغة التخاطب :

يقول باحث محدث[1] : كانت عناصر الشعب الأندلسي مكونة من ثلاثة عناصر :

١ ــ العرب، الذين دخلوها فاتحين، ونزحوا إليها من الشام وغيره، من قبائل المضرية واليمانية.

٢ ــ البربر، الذين ظل العرب يعانون أمرهم، ويختلطون بهم منذ اختط عقبة بن نافع مدينة القيروان سنة ٥٠هـ، وقد أسلموا ثم ارتدوا، ثم أسلموا ثم ارتدوا، وكان ذلك منهم اثنتي عشرة مرة، كما يذكر المؤرخون، ثم ثبتوا على الإسلام، وتلوا قرآنه متعبدين ومتفقهين في دين الله.

٣ ــ سكان البلاد، الذين قبلوا الإقامة بين ظهراني العرب، راضين بحكمهم، مغتبطين بعدالتهم، من نصارى ويهود. وقد أقبل عليهم العرب الفاتحون، ينتفعون بمواهبهم، في إدارة البلاد، خصوصاً اليهود منهم الذين أظهروا للفاتحين إخلاصاً أدى إلى الثقة بهم والاستنامة إليهم، فكان من نتائج ذلك أنْ تولى الوزارة في غرناطة اليهودي المعروف بابن نغذالة، استوزره ابن باديس[2] صاحب غرناطة، وقد قتل هذا الوزير اليهودي سنة ٤٥٩هـ.

= حوت » مؤنثاً، على لغة شرق الأندلس، فإنهم يفتحون أول الكلمة من نحو الحوت والسعور، وينطقون بالتاء طاء، فيقولون في حوت : حوط، ويلحقون آخر المصغر لاماً مشددة مفتوحة في المؤنث، مضمومة في المذكر، وهاء ساكنة فيقولون في تصغير حوت : حوطله وحوطله. فمن الذي يسمع حوطله في هذه الأيام ويفهم أن المراد بها تصغير حوت.

(١) ٤٦ جـ ٣ الأدب العربي وتاريخه.

(٢) من ملوك الطوائف.

وأظهر هذه العناصر العرب، وهم حكام البلاد وساستها وقوادها، وقد كثر عددهم في الأندلس، حتى كانت بعض الأنساب بالمشرق مفقودة، وفي الأندلس متصلة، كما في نسب الأنصار الذين كان منهم في الأندلس عدد كبير، وكان الأثر لذلك ذيوع اللغة العربية على الألسنة، وخفتها في الأفواه، واتخاذ الجميع لها لغة تخاطب ينطقون بها معربة سليمة فصيحة، أو يحرفونها تحريفاً قليلاً.

وقد كانت العامة تشارك في الأدب وتحتفي به، وكانت لغة تخاطبها تكاد تكون أدباً، وكان منهم شعراء، وكتاب، وأدباء؛ وقد روى لنا القزويني عن مدينة « شلب » بالبرتغال، أن من إحدى عجائبها أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً، ولا يعاني الأدب، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه، وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبته منه[1].

وهذا كله ناشئ عن رقي الثقافة والميل إلى الأدب، وكانت هناك فنون أدبية ذائعة الصيت بين الناس، وأغان عامية متداولة في هذه البيئة.

وكان من بين تلك الأغاني الدارجة: فنَّا الزجل والموشحات، وهما ضربان محبوبان، وكلاهما مبتدع في إسبانيا، ووضعهما معروف وإنشاؤهما متجانس، ويتركب أغلب هذه الأغاني والأوضاع الدارجة، من العامية الرقيقة غير المقيدة بقواعد اللغة. وأول من رفع الزجل إلى مرتبة الأدب هو ابن قزمان في سنة ١١٦٠ ميلادية. ومما نقل إلينا من مخلفات الأمويين بالأندلس، نرى أن شغفهم بالشعر والموسيقى والبلاغة الراقية، قد زاد حتى كان قريباً عن حبهم الحديث.

وكثير من الشعراء كان يلتقط المعاني التي تدور على ألسنة العامة، فينظمها ليتغنى الناس بها، حتى قربت لهجاتهم من اللهجات العامية،

---

(١) ص ٢٤٥ عجائب المخلوقات.

وأصبحت خليطاً من اللغة الفصحى وكلام العامة، وصار الناس ينظمونها غير متبعين قواعد اللغة وأصولها. فتعددت لهجاتها، وتولد من ذلك فن الزجل : وهو نوع من الشعر العامي المتوغل كثيراً في لهجات العامة وأغانيهم. وقد ذاع أمر الزجل وتعددت لهجاته بتعدد الأماكن التي نشأ بها، واشتمل على أنواع من الشعر، أكثرها الغزل والوصف، وكثيراً ما يكون الزجل أصدق في التعبير عن النفوس من الشعر الفصيح، لقربه من تعبير العامة واشتماله على عباراتهم المألوفة، وعدم احتياجه إلى التكلف في الصناعة، واختيار الألفاظ، وأول من ابتكر الزجل أبو بكر محمد بن قزمان القرطبي المتوفي سنة ٥٥٥هـ. ثم ظهرت أنواع أخرى من الشعر العامي سميت بأسماء مختلفة.

ويقول باحث : وكان كلما مضى الزمن على الفتح، ونزع العرب في الأندلس إلى الترف، وألفوا سكنى المدن، لانت جلودهم وألسنتهم، وبعد عهدهم بالفطرة العربية، فانمازت لغة حديثهم عن لغة كتابتهم، وصار إلى العربية كل ما يصير إلى اللغات حين يفقد أهلها ملكاتهم : من تحريف، وتصحيف، وإهمال للإعراب، واشتقاق على غير القياس العربي، واستعمال لكلمات من الدخيل، واختلاف في نبر الحروف ولهجة النطق. وكذلك الشأن في خلطاء العرب، من البربر وأهل البلاد، اضطربت في ألسنتهم لغاتهم واللغة العربية، فنشأت ألفاظ ليست من هذه ولا من تلك، وحدثت منهم أساليب في العربية يحاكون بها أساليب لغتهم التي درجوا عليها، وهكذا حتى تألفت لغة جديدة تحمل سمات اللغات لهؤلاء المتخاطبين، وتلك هي التي تسمى « اللغة العامية ».

وهذه العامية تحتاج إلى زمن في تكوينها، وتمام بنائها، وتأصل ملكتها، لذلك نراها في بلاد الأندلس قد صارت كذلك بعد حين، فغلبت على الألسنة حتى لا يستطيع العالم النحوي، الذي وعى علم العربية، وحفظ شواهدها، وفصل مسائلها أن يقيم لسانه لحناً، ذكروا

ذلك عن الشلوبيني، قال صاحب نفح الطيب في معرض الكلام على علم النحو : « والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة، وإن كان كلامهم الشائع في الخواص والعوام، كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية، حتى إن شخصاً من العرب لو سمع كلام الشلوبيني أبي علي المشار إليه بعلم النحو في عصره، الذي غربت تصانيفه وشرقت، وهو يقرأ درسه، لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه. والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب، وأخذ يجري فيه على قواعد النحو، استثقلوه واستبردوه، ولكن ذلك مراعى عندهم في القراءات والمخاطبات والمراسلات ».

ولكن هذه العامية التي صارت لسان الخاص والعام في محادثاتهم، كانت عامية مقبولة، يغلب في كلماتها العنصر العربي، ويقل الدخيل، ولا يشتد التحريف، ترى كل ذلك ماثلاً في موشحاتهم، وأزجالهم، التي هي أدب عامتهم، فأنت لا تكاد تعثر فيها بدخيل، ولا بمحرف بعد من أصله كل البعد، وإن كان إهمال الإعراب شائعاً فيها، لأنه أول ظاهرة تبدو في عامية اللغة العربية في أي بلد نشأت.

على أن هذه الموشحات والأزجال، لا ينبغي أن تعد مقياساً مضبوطاً للعامية، ولا مثالاً صادقاً لما كانت عليه، فإنها عامية الخاصة، إذ كان أغلب قائليها من الشعراء المعربين، الذين تبسطوا في قولهم، توسعوا في أدبهم، فقالوا الموشحات والأزجال، فتكون لغة هذين الفنين هي عامية الأدباء، وإن كانت لا بد مفهومة للعامة، لأنهم هم المقصودون بها في الخطاب، فهي تدل من قريب على اتجاه العامية على أهل الأندلس، فهي عامية غير مستقلة، ولا مستبشعة ».

الباب الثاني

الشعر الأندلسي

تمهيد

كان الملوك في الأندلس أدباء وشعراء، يتذوقون الأدب، ويقرضون الشعر، والأديب أعرف بقيمة الأديب، والشاعر آنس بالشاعر، فكانوا لهذا يتنافسون في تعهد الأدباء، وإثابة الشعراء، ويبالغون في إكرامهم، وإجزال العطاء لهم. وكان عبد الرحمن الداخل شاعراً، وكان ابنه هشام أديباً، وكان المستنصر عالماً وأديباً، وكذلك كان بقية الخلفاء والوزراء والملوك : كابن أبي عامر، وملوك بني الأفطس والمعتضد وابن جهور وغيرهم. وقد يكون من فرط عناية بعض هؤلاء الملوك بالأدب واعتدادهم بالشعر ألا يستوزروا وزيراً إلا أن يكون شاعراً أديباً كما فعل المعتمد، ولقد قالوا : إنه لم يجتمع من فحول الشعراء وأمراء الكلام بباب أحد من ملوك الإسلام ما اجتمع بباب الرشيد والصاحب بن عباد، والمعتمد هذا وكان بحضرته مثل : ابن زيدون وابن اللبانة وابن عمار وابن وهبون وغيرهم.

وفي هذا الاهتمام من جانب الخلفاء والملوك ما فيه من بعث الهمم، واستنهاض القرائح، والنهوض بالشعر والأدب.

وكان المعتمد يناظر المتوكل بن الأفطس، وكان في حضرة بطليوس كالمعتمد بإشبيلية، يتردد أهل الفضل بينهما كتردد النواسم بين جنتين،

وينظر الأدب منهما عن مقلتين، والمعتمد أشعر والمتوكل أكتب[1].

وقد صرف ملوك الطوائف جهدهم إلى العناية بالأدب والشعر، فصار المدح لغذاء أرواحهم كالملح لطعام أجسامهم، وظلت هذه العادة فيهم، حتى إن يوسف بن تاشفين لما دخل الأندلس توسط له المعتمد بن عباد عند الشعراء ليمدحوه حتى لا يصغر شأنه، مع أنه دخل في نجدة لهم على الإفرنج، وكان على يده النصر المبين[2]. ولو زعم أحد أنه لم يقم أحد من أمراء الأندلس وخلفائها ووزرائها إلى آخر القرن الخامس إلا وهو جامع أسباب الأدب، لكان خليقاً أن يصدق في زعمه، ولولا أدبهم لما نفق الأدب عندهم.. ولم يعرف فيهم من أهل الركاكة والسخف إلا المستكفي والد ولادة.

— ٢ —

وكانت مجالس الأدب في الأندلس من أكبر مسارح الأفكار، وأفخم مظاهر الجمال، وأظهر مظاهر الحياة العقلية والاجتماعية، كانت تحفل بأنواع الأدب، وألوان الطرب، وأفانين اللهو والسمر، وكان الشعر فيها نشوة الشارب، وغناء الراقص، ولغة الكؤوس، وأدب النفوس.

وكان للمنصور بن أبي عامر مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل الأدب والعلم، للمناظرة بحضرته[3]، وكان للمعتمد دار مخصوصة بالشعراء، وديوان تقيد فيه أسماؤهم، وقد جعل لهم يوماً يفرغ لهم

---

(١) النفح حـ ٢ صـ ٢٥٣.

(٢) تاريخ الأدب للرافعي حـ ٣ صـ ٢٩٢.

(٣) المعجب للمراكشي.

فيه، فلا يدخل عليه غيرهم[1] :

١ ــ ومن مجالس الأدب ما يروى من أن المنصور جلس يوماً[2] وعنده اعيان مملكته ودولته من أهل العلم كالزبيدي والعاصمي وابن العريف وغيرهم، فقال لهم المنصور : « هذا الرجل الوافد علينا[3] يزعم أنه متقدم في هذه العلوم، وأحب أن يمتحن، فوجه إليه، فلما مثل بين يديه، والمجلس قد احتفل، خجل، فرفع المنصور محله، وأقبل وسأله عن ابن سعيد السيرافي، فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه. فبادره العاصمي بالسؤال عن مسألة من الكتاب، فلم يحضره جوابها، واعتذر بأن النحو ليس جل بضاعته، فقال له الزبيدي : « فما تحسن أيها الشيخ ؟ ». فقال : « حفظ الغريب ». قال : « فما وزن أولق ؟ ». فضحك صاعد وقال : « أمثلي يسأل عن هذا ؟ إنما يسأل عنه صبيان المكتب ! » قال الزهري : « قد سألناك، ولا نشك أنك تجهله » فتغير لونه وقال : « أفعل وزنه ».

فقال الزبيدي : « صاحبكم ممخرق ! ».

وقال له صاعد : « إخال الشيخ بضاعته الأبنية ! » فقال له : « أجل »، فقال صاعد : « وبضاعتي أنا حفظ الأشعار، ورواية الأخبار، وفك المعمى وعلم الموسيقى ! ». قالوا : « فناظره ابن العريف فظهر عليه صاعد وجعل لا يجري من المجلس كلمة، إلا أنشد شعراً شاهداً، وأتى بحكاية تجانسها ».

---

(١) النفح حـ ٢ ص ٤٦٨.
(٢) نفح الطيب.
(٣) يعني أبا العلاء صاعداً.

٢ ـــ ومن مجالس الأدب ما يروى من أن صاعداً الأندلسي[1] كان بين يدي المنصور، فأحضرت إليه وردة في غير وقتها لم يستتم فتح ورقها، فقال فيها صاعد مرتجلاً :

أتـتك أبـا عامـــر وردة يذكرك الـمسك أنفاسهـا
كعـذراء أبصرهـا مبصـــر فغـطت بأكمامهـا راسهـا

(١) هو صاعد بن الحسن الربعي، وكنيته أبو العلاء، وأصله من الموصل، وقد تعلم في بغداد، واستمر بها حتى تبحر في اللغة والأدب، ثم ورد على المنصور بن أبي عامر سنة ٣٨٠، في أيام إمارته، فأراد المنصور أن يعفي به آثار أبي علي القالي، فلم يجد منه ما يرتقبه، وأعرض عنه أهل العلم، وقدحوا في علمه ودينه، ولم يأخذوا عنه شيئاً، لقلة الثقة به.

وقد ذكر ابن بسام أن الأندلسيين دحضوا كتابه « الفصوص » الذي ألفه للمنصور ـــ ونحا به منحى كتاب النوادر للقالي ـــ وأنهم ألقوه في النهر، وذكر الماركشي صاحب كتاب المعجب والمقري هذه الحكاية بروايات أخرى، أشهرها أنه دفع الكتاب لغلام بعد تمامه، فعبر فزلت قدم الغلام به وهو يعبر نهراً، فسقط هو والكتاب في النهر. قالوا : ففرح ابن العريف بذلك وقال مرتجلاً بحضرة المنصور :

قد غاص في البحر كتاب الفصوص وهكـــذا كـــل ثقيـــل يغـــوص

فضحك المنصور والحاضرون، ولكن ذلك لم يرع صاعداً، وقال :

إلــــى معدنـــــه إنمـــــا توجد في قعر البحار الفصوص

وكان السبب في تأليفه هذا الكتاب، أن المنصور أراه كتاب النوادر للقالي، فأكد له صاعد أن في قدرته أن يؤلف كتاباً خيراً منه، وقال له : « إن أراد المنصور أمليت على كتاب دولته كتاباً أرفع منه وأجل، لا أورد فيه خبراً مما أورده أبو علي ! » فلما أذن له المنصور بذلك جلس بجامع « الزاهرة » وكتب كتابه « الفصوص » حتى أكمله. قالوا : فتتبعه أدباء ذلك الوقت فلم تمر فيه كلمة صحيحة عندهم، ولا خبر ثبت لديهم ! ».

ولقد أحسن ابن بسام كل الإحسان، وتوخى شرعة الإنصاف والعدالة، في تعليقه على هذا الخبر، حين قال: « ما أظن أن يجترئ على مثل هـذا ! وإنما صاعد اشترط أن لا يأتي إلا بالقريب غير المشهور، وأعانهم على نفسه، بما كان يتنقف به من الكذب.

فسر بذلك المنصور، وكان ابن العريف حاضراً، فدعاه إلى مناقضته، وقال للمنصور : هذان البيتان لغيره، وقد أنشدنيهما بعض البغداديين بمصر لنفسه، وهما عندي على ظهر كتاب بخطه، فقال له المنصور : « أرنيه » فخاف ابن العريف، وركب وحرك دابته حتى أتى مجلس ابن برد، وكان أحسن أهل زمانه بديهة، فوصف له ما جرى، فقال هذه الأبيات ودس فيها بيتي صاعد :

عشوت إلى قصر عباسة — وقد جدل النوم حراسها
فألفيتها ـ وهي في خدرها — وقد صرع السكر آناسها ـ
فقالت « أسار على هجعة ؟ » — فقلت « بلى ! » فرمت كاسها
ومدت يديها إلى وردة — يحاكي لك الطيب أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر — فغطت بأكمامها راسها
وقالت خف الله لا تفضحن — في إبنة عمك عباسها
فوليت عنها على غفلة — وما خنت ناسي، ولا ناسها

فطار ابن العريف بها، وعلقها على ظهر كتاب بخط مصري، ومداد أشقر ودخل بها على المنصور.

فلما رآها اشتد غيظه، وقال للحاضرين :

« غداً أمتحنه، فإن فضحه الامتحان أخرجته من البلاد، ولم يبق في موضع لي عليه سلطان ! ».

فلما أصبح، وجه إليه، فأحضر، وأحضر معه جميع الندماء، فدخل بهم إلى مجلس محفل، قد أعد فيه طبقاً عظيماً فيه سقائف مصنوعة من جميع النواوير، ووضع على السقائف لعب من ياسمين في شكل الجواري، وتحت السقائف بركة ماء، قد ألقي فيها اللآلئ مثل الحصباء، وفي البركة حية تسبح.

فلما دخل صاعد ورأى الطبق، قال له المنصور : « إن هذا اليوم،

إما أن تسعد فيه معنا، وإما أن تشقى بالضد عندنا، لأنه قد زعم قوم أن كل ما تأتي به دعوى، وقد وقفت من ذلك على حقيقة، وهذا طبق، ما توهمت أنه عمل لملك مثله، فإن وصفته بجميع ما فيه، علمت صحة ما تذكره ».

فقال صاعد بديهة :

أبا عامر! هل غير جدواك واكف ... وهل غير من عاداك في الأرض خائف؟
يسوق إليك الدهر كل غريبة ... وأعجب ما يلقاه عندك واصب
وشائع نور، صاغها هامر الحيا ... على حافتيها عبقر ورفارف
ولما تناهى الحسن فيها، تقابلت ... عليها بأنواع الملاهي الوصائف
كمثل الظباء المستكنة كنسا ... تظللها بالياسمين السقائف
وأعجب منها أنهن نواظر ... إلى بركة ضمت إليها الطرائف
حصاها اللآلى، سابح في عبابها ... من الرقش مشئوم الثعابين زاحف
ترى ما تراه الحسن في جنباتها ... من الوحش، حتى بينهن السلاحف

قالوا : « فاستغربت له يومئذٍ تلك البديهة، في مثل ذلك الموضع، وكتبها المنصور بخطه ».

وكان إلى ناحية من تلك السقائف سفينة فيها جارية من النور تجذب بمجاذيف من ذهب لم يرها صاعد، فقال له المنصور : « أحسنت ! إلا أنك أغفلت ذكر المركب والجارية »، فقال للوقت:

وأعجب منها غادة في سفينة ... مكللة تصبو إليها المهافف
إذا راعها موج من الماء تتقي ... بسكانها، ما إن ذرته العواصف
متى كانت الحسناء ربان مركب ... تصرف في يمنى يديها المجاذف
ولم تر عيني في البلاد حديقة ... تنقلها في الراحتين الوصائف
ولا غرو إن ساقت معاليك روضة ... وشتها أزاهير الربى والزخارف
فأنت امرؤ، لو رمت نقل متالع ... ورضوى، زوتها من سطاك نواسف
إذا رمت قولاً، او طلبت بديهة ... فكلني له، إني لمجدك واصف

قالوا : « فأمر له المنصور بألف دينار ومائة ثوب، ورتب له في كل شهر ثلاثين ديناراً[1] ».

٣ ـــ ومن مجالس الأدب هذا المجلس في مناقضة صاعد لابن العريف في حضرة المنصور : دخل ابن العريف يوماً على المنصور، وعنده صاعد، فأنشده ـــ وهو بالموضع المعروف بالعامرية ـــ من أبيات :

فالعامريـــة تزهـــى على جميع المباني
وأنت فيها كسيف قد حل في غمدان

فأظهر صاعد للمنصور أن في استطاعته أن يرتجل خيراً من هذا الشعر الذي أعده ابن العريف وروى فيه، فطلب منه المنصور أن يفعل، ليظهر صدق دعواه، فقال من غير فكرة طويلة :

يا أيها الحاجب المعـ ـتلـي علـى كيـــوان
ومـن بـه قـد تناهـى فخـار كـل يمانـــي
العامريـــة أضـــحت كجنـــة الرضـــوان
فريـــــدة لفريـــــد ما بيـن أهـل الزمـان

ثم مر في الشعر إلى أن قال في ختام الأبيات :

فدم مدى الدهر فيهـا فـــي غبطـــة وأمـــان

فأعجب المنصور ببداهته، وقال لابن العريف: « ما لك فائدة في مناقضة من هذا ارتجاله، فكيف تكون رويته ؟ ».

فأجابه ابن العريف : « إنما أنطقه وقرب عليه المأخذ إحسانك ! ».

فقال له صاعد : « يفهم من هذا أن قلة إحسانه إليك أسكتتك وبعدت عليك المأخذ ».

فضحك المنصور وقال : « غير هذه المنازعة أليق بأدبكما ! ».

---

(١) نفح الطيب.

٤ ـــ ومن مجالس الأنس واللهو ما يروى من أن صاعداً اللغوي كان كثيراً ما يمدح بلاد العراق بمجلس المنصور ويصفها ويقرظها، فكتب الوزير عبد الملك بن شهيد[١] إلى المنصور في يوم برد، بهذه الأبيات :

أما ترى برد يومنا هذا	صيرنا للكمون أفذاذاً ؟
قد فطرت صحة الكبود به	حتى لكادت تعود أفلاذاً ؟
فادع بنا للشمول مصطليا	نغذ سيراً إليك إغذاذا
وادع المسمى بها، وصاحبه	تدع نبيلاً، وتدع أستاذا
ولا نبالي أبا العلاء[٢] زها	بخمر قطربل وكلواذا
ما دام في أرملاط مشربنا	دع دير عمى، وطيرناباذا

وكان المنصور قد عزم ذلك اليوم على الانفراد بالحرم، فأمر بإحضار من جرى رسمه من الوزراء والندماء، وأحضر ابن شهيد في محفة، لنقرس كان يعتاده وأخذوا في شأنهم، فمر لهم يوم لم يهدوا مثله، ووقت لم يعهدوا نظيره وطما الطرب، وسما بهم، حتى تهايج القوم ورقصوا، وجعلوا يرقصون بالنوبة، حتى انتهى الدور إلى ابن شهيد، فأقامه الوزير أبو عبدالله بن عباس فجعل يرقص، وهو متوكئ عليه، ويرتجل، ويومي إلى المنصور، وقد غلبه السكر :

هاك شيخا قاده السكر لكا	قام في رقصته مستهلكا
لم يطق يرقصها مستثبتا	فانثنى يرقصها مستمسكا
عافه عن هزها منفردا	نقرس، أخنى عليه، فاتكى
من وزير فيهم رقاصة	قام للسكر يناغي ملكا !
أنا لو كنت كما تعرفني	قمت اجلالا على رأسي لكا
قهقه الإبريق مني ضاحكا	ورأى رعشة رجلي فبكى

(١) عبد الملك ابن شهيد هو والد الوزير أبي عامر أحمد بن شهيد.. وابنه شاعر مشهور.
(٢) يعني أبا العلا صاعداً.

قالوا : « وكان حاضرهم ذلك اليوم، رجل بغدادي حسن النادرة سريعها[1] فلما رأى ابن شهيد يرقص قائماً من ألم المرض الذي كان يمنعه من الحركة، قال : « لله درك يا وزير ! ترقص بالقائمة وتصلي بالقاعدة ؟ ».

فضحك المنصور وامر لابن شهيد بمال جزيل ولسائر الجماعة وللبغدادي[2].

٥ ـــ وذكر ابن بسام أن أبا عامر بن شهيد أحمد بن عبد الملك الوزير[3]، أهدي له غلام من النصارى لم تقع العيون على شبهه فلمحه الناصر فقال لابن شهيد : « أنى لك هذا ؟ » فقال (هو من عند الله)، فقال له الناصر : تتحفوننا بالنجوم وتستأثرون بالقمر ؟ فاستعذر واحتفل في هدية بعثها مع الغلام وقال : يا بني كن مع جملة ما بعثت به، ولولا الضرورة ما سمحت بك نفسي. وكتب معه هذين البيتين :

أمولاي هذا البدر سار لأفقكم ... وللأفق أولى بالبدور من الأرض
فأرضيكم بالنفس وهي نفيسة ... ولم أر قبلي من بمهجته يرضي

فحسن ذلك عند الناصر، وأتحفه بمال جزيل، وتمكنت عنده مكانته، ثم إنه بعد ذلك أهديت إليه جارية من أجمل نساء الدنيا، فخاف أن ينتهي ذلك إلى الناصر فيطلبها فتكون كقصة الغلام، فاحتفل في هدية أعظم من الأولى وبعثها معها، وكتب له هذه الأبيات :

أمولاي هذي الشمس والبدر أولا ... تقدم، كيما يلتقي القرمان
قران لعمري بالسعادة ناطق ... فدم منهما في كوثر وجنان
فما لهما والله في الحسن ثالث ... وما لك في تلك البرية ثان

---

(١) كان يعرف بالفكيك، وكان ابن شهيد استحضره إلى المنصور.

(٢) المقري.

(٣) راجع كتاب نفح الطيب صـ ٢٢٩ـــ٢٣٣ وصـ ٢٤٦ و ٢٤٧ جـ ١.

فتضاعفت مكانته عنده، ثم إن أحد الوشاة رفع للملك أنه بقي في نفسه من الغلام حزازة وأنه لا يزال يذكره حين تحركه الشمول ويقرع السن على تعذر الوصول، فقال للواشي بذلك : لا تحرك لسانك وإلا طار رأسك، وأعمل الناصر حيلة في أن كتب على لسان الغلام رقعة منها : يا مولاي تعلم أنك كنت لي على انفراد ولم أزل معك في نعيم، وإني وإن كنت عند الخليفة مشاركاً في المنزل له، محاذر ما يبدو منه من سطوة الملك، فتحيل في استدعائي منه.. وبعثها مع غلام صغير السن وأوصاه أن يقول من عند فلان، وأن الملك لم يكلمه قط، إن سأله عن ذلك، فلما وقف أبو عامر على الرسالة واستخبر الخادم فعلم في سؤاله ما كان في نفسه من الغلام وما تكلم به في مجالس المدام، كتب على ظهر الرقعة، ولم يزد حرفاً :

أمن بعد إحكام التجارب تبتغي ... لدي سقوط العير في غابة الأسد ؟
وما أنا ممن يغلب الحب قلبه ... ولا جاهل ما يدعيه أولو الحسد

فلما وقف الناصر على الجواب تعجب من فطنته ولم يعد إلى استماع واش به، ودخل عليه بعد ذلك فقال له : كيف خلصت من الشرك ؟ فقال : لأن عقلي بالهوى غير مشترك، فأنعم عليه وازدادت محبته عنده.

— ٣ —

وكان ذكاء الأندلسيين مما يجعلهم نابغين في الأدب، ملهمين في الشعر والنثر، ومن مثل ذكائهم وجودة قرائحهم وبصرهم ببلاغة الكلام : ما يروى عن القاضي منذر بن سعيد البلوطي قاضي الجماعة بقرطبة، قال : أتيت وأبو جعفر بن النحاس في مجلسه بمصر يملي في أخبار الشعراء شعر قيس المجنون، حيث تقول :

خليلي هل بالشام عين حزينة ... تبكي على نجد، لعلي أعينها

قد اسلمها الباكون إلا حمامة مطوقة باتت وبات قرينها
تجاوبها أخرى على خيزرانة يكاد يدنيها من الأرض لينها

فقلت له : يا أبا جعفر، ماذا ـــ أعزك الله تعالى ـــ باتا يصنعان ؟ فقال لي : وكيف تقول أنت يا أندلسي ؟. فقلت له : بانت وبان قرينها. فسكت. وما زال يستثقلني بعد ذلك حتى منعني كتاب العين.

وقد امتاز الأندلسيون كذلك بحافظة قوية اعتمدوا عليها في رواية الأدب والشعر، ومن نوادر حافظة الأندلسيين القوية الواعية : ما يروى عن الوزير أبي بكر ابن وزير أبي مروان عبد الملك، قال : « بينما أنا قاعد في دهليز دارنا وعندي رجل ناسخ أمرته أن يكتب لي كتاب الأغاني. فجاء الناسخ بالكراريس التي كتبها فقلت له : « أين الأصل الذي كتبت منه لأقابل معك به ؟ » قال : « ما أتيت به معي »، فبينما أنا معه في ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بذ الهيئة، عليه ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها، فحسبته لما رأيته من بعض سكان أهل البادية. فسلم وقعد. وقال : « يا بني ! استأذن لي على الوزير أبي مروان » فقلت له : هو نائم، هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف، حملني على ذلك نزوة الصبي، وما رأيت من خشونة هيئة الرجل، ثم سكت عني ساعة وقال : « ما هذا الكتاب الذي بأيديكما ؟ » فقلت له : « ما سؤالك عنه ؟ » قال : « أحب أن أعرف اسمه فإني كنت أعرف أسماء الكتب فقلت : هو كتاب الأغاني فقال : إلى أين بلغ الكاتب منه قلت : « بلغ موضع كذا ».

وجعلت أتحدث معه على طريقة السخرية به والضحك على قالبه، قال : وما لكاتبك لا يكتب ؟ قلت : طلبت منه الأصل الذي يكتب منه لأعارض هذه الأوراق، فقال : لم أجئ به معي، فقال : يا بني خذ كراريسك وعارض. قلت : بماذا ؟ وأين الأصل ؟ قال : كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صباي، فتبسمت من قوله. فلما رأى تبسمي

قال : يا بني أمسك علي. فأمسكت عليه وجعل يقرأ، فوالله إن أخطأ واواً ولا فاء. هكذا نحو كراسين؛ ثم أخذت له في وسط السفر وآخره فرأيت حفظه في ذلك كله سواء. فاشتد عجبي، وقمت مسرعاً حتى دخلت على أبي فأخبرته الخبر ووصفت له الرجل، فقام كما هو من فوره لا يرفق على نفسه وأنا بين يديه، وهو يوسعني لوماً حتى ترامى على الرجل وعانقه، وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول : « يا مولاي ! اعذرني، فوالله ما أعلمني هذا الخلف إلا الساعة » وجعل يسبني والرجل يخفض عليه ويقول : ماعرفني. وأبي يقول : هبه ما عرفك فما عذره في حسن الأدب ؟ ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به، فتحدثا طويلاً، ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافياً حتى بلغ الباب، وأمر بدابته التي يركبها فسرجت وحلف عليه ليركبنها ثم لا ترجع إليه أبداً . فلما انفصل قلت لأبي : من هذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم ؟ فقال لي : اسكت ! ويحك ! هذا أديب الأندلس وسيدها في علم الأدب. هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون، أيسر محفوظاته كتاب الأغاني، وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته. وكان ابن عبدون يلقب بأصمعي الأندلس.

ولهذا دلالة قوية على عناية الوزراء وأرباب السلطان بالأدب ورجاله، ووضعهم إياهم في المكان الأول من الإجلال والرفعة، وقد أطنبت الحكاية في وصف ذلك، ودلالة كذلك على اهتمام الأندلسيين الشديد بنقل كتب الشرق ونسخها لتعم فائدتها، ولقد يزيدكم اقتناعاً بهذا الرأي ما يروى عن الحكم الثاني وعنايته الفائقة الحدود باقتناء الكتب النفيسة وجلبها من أقصى بلاد الشرق، حتى لقد بادر بشراء كتاب الأغاني قبل أن ينشر في الشرق نفسه، ودليل على شغف الأندلسيين بالإكثار من المحفوظات إلى حد يصعب تصديقه على من لم يدرس حياة العرب دراسة جيدة، فإن من لا يعرف المنزلة العالية التي وصلت

إليها ملكات العرب في الشرق لا يستطيع تصديق هذه الحكاية وأمثالها مما يروونه عن عرب الأندلس، ولقد كان يكفي لاعتبار الإنسان أديباً أن يكون حفاظة، ولقد أكثر ملوك الأندلس من اقتراح حفظ كتب بعينها، وخصوا من يفعل ذلك بجوائز مالية، فاشتد إقبال الناس على تنفيذ رغباتهم طمعاً في ذلك، وقد وصل حفاظ الأندلس إلى درجة لا تقل عما وصل إليه حفاظ المشرق.

الفصل الأول

مواقف للشعر والشعراء

— ١ —

قفل أمير المؤمنين يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠ — ٥٩٥ هـ) من غزوة الأراكة سنة ٥٩١ هـ، فورد عليه الشعراء من كل قطر يهنئونه، فلم يمكن لكثرتهم أن ينشد كل قصيدته، بل كان يختص منها بالإنشاد البيتين، أو الثلاثة المختارة، فأنشده أحدهم :

ما أنت في أمراء الناس كلهم   إلا كصاحب هذا الدين في الرسل
أحييت بالسيف دين الهاشمي كما   أحياه جدك عبد المؤمن بن علي

فأمر له بألفي دينار ولم يصل غيره من الشعراء عملاً بقولهم : « منع الجميع أرضى الجميع »، وانتهت إليه رقاع الشعراء وغيرها، وتراكمت حتى حالت بينه وبين ما أمامه.

— ٢ —

ذكر الفتح بن خاقان أن ذا الوزارتين القائد عيسى بن لبون، كان بمجلس مشرف على بطحاء قد لبست زخرفها، ودبج الغمام مطرفها؛

وفيها حدائق ترنو عن مقل نرجسها، وتبث طيب تنفسها، والجلنار قد لبس أردية الدماء، والراح قد ملك أفئدة الندماء، فقال :

قم يا نديم أدر على القرقفا أو ما ترى زهر الرياض مفوفا[1]
فتخال محبوبا مدلا وردها وتظن نرجسها محباً مدنفاً[2]
والجلنار دماء قتلى معرك والياسمين حباب ماء قد طفا

— ٣ —

كان ذو الوزراتين أبو بكر بن رحيم، قد مال مع أصحابه إلى إحدى جنات مرسية، فحلوا منها في قبة فوق جدول مطرد، وتحت أدواح طيرها غرد، وإذا بالجنان وقف عليه، وقال كان بموضعكم هذا بالأمس صاحب الموضع ومعه شعور منشورة، وخدود غير مستورة. فاستدعى الوزير فحماً، وكتب على إحدى زوايا القبة :

قادنا ودنا إليك فجئنا بنفوس فدتك من كل بؤس
فنزلنا منازلاً لبدور وحللنا مطالعاً لشموس

— ٤ —

قال أصحاب القاضي أبي عبدالله محمد بن عيسى : ركبنا لبعض الأمر في موكب حافل من وجوه الناس، إذ عرض لنا فتى متأدب قد خرج من بعض الأزقة سكران يتمايل، فلما رأى القاضي هابه، وأراد

(١) القرقف : كجعفراسم الخمر، يرعد منها صاحبها، قيل سميت قرقفاً لأنها تقرقف صاحبها أي ترعده، وأنكر بعضهم أنها تقرقف الناس، وقال الليث : هي اسم. للخمر. المفوف : كمعظم، برد رقيق، أو فيه خطوط بيض.

(٢) دنف المريض ثقل مرضه، وأدنفه المرض، فالمريض مدنف ومدنف، بصيغتي الفاعل والمفعول.

الانصراف فخانته رجلاه واستند إلى الحائط، فلما قرب منه القاضي رفع رأسه، وأنشأ يقول :

ألا أيها القاضي الذي عم عدله　　فأضحى به في العالمين فريدا
قرأت كتاب الله تسعين مرة　　فلم أر فيه للشراب حدودا
فان شئت أن تجلد فدونك منكباً　　صبور على ريب الزمان جليدا
وإن شئت أن تعفو تكن لك منة　　تروح بها في العالمين حميدا
وإن أنت تختار الحديد فإن لي　　لساناً على مر الزمان حديدا

فلما سمع القاضي شعره، وميز أدبه، أعرض عنه، وترك الإنكار عليه.

ـ ٥ ـ

غنى الوزير أبو بكر بن رحيم في بعض الليالي بهذا الشعر :

بدا فكأنما قمر　　على أزراره طلعا
وقد خلعت عليه الرا　　ح من أثوابها خلعا

وكان من الحاضرين من استحسن الشعر، فرغب إليه في تذييله، فقال :

فأهدى من محاسنه　　إلى أبصارنا بدعا
فلما فت أكبدنا　　وحاز قلوبنا رجعا
ففاضت أعين أسفاً　　وفاضت أنفس جزعا[1]

---

(١) يقال فاض الماء فيضاً وفيضوضة وفيضاناً : بمعنى كثر حتى سال، وفاضت نفس الرجل. وفاض الرجل فيوضاً وفيضاً : مات.

— ٦ —

استدعى المتوكل الأديب الحكيم أبا الفضل بن شرف، في يوم ماطر، ونسيم روض عاطر، فصحبته في ممشاة إليه سحابه بلت عليه ثيابه، فلما دخل على المتوكل أدناه، وأكرم مثواه، وهزه إلى القول في ذلك فاهتز، وقال :

صاحبنا الغيث الى الغيث   لكنه غيث بلا عيث
سحابة تهمى حياها سرى   لا تخلط الإعجال بالريث
يا ليث غاب حسنه باهر   والحسن لا يعرف لليث
أحلني قربك في موضع   يجل عن أين، وعن حيث[1]

— ٧ —

رأى الشنتريني نجماً في السماء، وترك وراءه مستطيل ضياء، فقال :

وكوكب أبصر العفريت مسترقا   للسمع فانقض يذكي إثره لهبه
كفارس حل إحضار[2] عمامته   فجرها كلها من خلفه عذبه !!

— ٨ —

ركب المعتمد بن عباد المتوفى عام ٤٨٧هـ للتنزه بظاهر إشبيلية، في جماعة من ندمائه، وحشد من شعرائه، فلما بعد أخذ في المسابقة بالخيول، فجاء فرسه بين البساتين سابقاً، فرأى شجرة تين قد أينعت وزهت، وبرزت فيها ثمرة فسدد اليها عصا كانت في يده فأصابها،

(١) أي المكان.
(٢) الاحضار : العدو.

وثبتت في أعلاها فأطربه ذلك، والتفت ليخبر من لحقه من أصحابه، فرأى ابن حاج الصباغ أول لاحق به، فقال أجز :

كأنها فوق العصا.........

فأجابه مسرعاً :

............هامة زنجي عصا

وابن حاج هذا كان صباغاً عامياً، ولكنه قال الشعر فاشتهر أمره حتى جالس الملوك، وقد مر عليه الوزير أبو بكر بن عمار المتوفى عام ٤٧٩هـ فرأى ما فعلت الصباغة بيده، فأخرج زنده وأشار اليه، وقال :

كم بين زند وزند...........

فقال ابن حاج ما بين وصل وصد

— ٩ —

ذكر ابن بسام في الذخيرة، قال : اجتمع ابن عبادة وعبدالله بن القابلة البستي بالمرية فنظر إلى غلام وسيم يسبح في البحر، وقد تعلق بسكان[١] بعض المراكب فقال ابن عبدة أجز[٢] : انظر إلى البدر الذي لاح لك — فقال ابن القابلة : في وسط اللجة تحت الحلك :

قد جعل الماء سماء له وصير الفلك مكان الفلك

---

(١) السكان : الدفة.

(٢) الاجازة في الشعر أن تكمل مصراع غيرك، وقيل هي أن ينظم الشاعر على شعر غيره في معناه ما يكون به تمامه وكماله، وهي مشتقة من الإجازة في السقي، يقال : أجاز فلان فلاناً إذا سقاه وسقي له، فكأنهم شبهوا قول الشاعر المجيز بعمل الشاعر، والمجاز شعره بسقي الشخص للشخص، قال ابن السكيت يقال للذي يرد الماء مستجيز، قال ابن رشيق ويجوز أن يكون من أجزت عن فلان الكأس إذا صرفتها عنه دون أن يشربها إلى من يليه وكأنهم شبهوا الشاعر لما تعدى باتمام شعره بمجيز الكأس، قال أبو نواس : وقلت لساقيها أجزها فلم تكن لينهى أمير المؤمنين وأشربا

جلس المعتمد بن عباد يوماً للشرب، وبين يديه ساقية جميلة، قد تقابل بدر وجهها بشهاب الكأس، واتفق أن لمع البرق فارتاعت، فقال بديهاً :

روعها البرق وفي كفها — برق من القهوة لماع
عجبت منها وهي شمس الضحى — كيف من الأنوار ترتاع ؟!

فلما أعجبه البيتان، استدعى في الحال عبد الجليل بن وهبون المرسي، وأنشده البيت الأول، وقال أجز، فقال :

ولن ترى أعجب من آنس — من مثل ما يمسك يرتاع[1]

— ١١ —

قال الفتح بن خاقان المتوفى عام ٥٢٩هـ، في كتاب القلائد : خرجت من اشبيلية لوداع كبير من المرابطين، فوجدت معه الوزير أبا محمد ابن مالك، فلما انصرفنا عدنا متسامرين فمررنا بمرج حسن النبات، بديع النوار، فبادل ملوك من مماليكه، وضيء الوجه إلى زهرة بديعة فاقتطفها وأتاه بها، لتعجبه من حسنها، فاقترح علي أن أصفه، فقلت :
وبدر بدا والطرف مطلع حسنه — وفي كفه من رائق النور كوكب

فقال مجيزاً :

يروح لتعذيب النفوس ويغتدي — ويطلع في أفق الجمال ويغرب
ويحسد منه الغصن أي مهفهف — يجيء على مثل الكثيب ويذهب

---

(١) يرى صاحب البدائع أن هذا البيت أحسن من بيت المعتمد.

ولم يقف تناول الشعر ومعاناته على طائفة دون أخرى؛ فقد قاله الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد، ونبغ فيه كثير من العوام مثل : ابن حاج الصباغ، ويحيى القصاب، كما برزت فيه النساء، مثل : حسانة التميمية — وكانت على أيام الحكم (١٨٠ — ٢٠٦هـ) وابنه عبد الرحمن (٢٠٦—٢٣٨هـ) ومثل حفصة الركونية، المشهورة بالجمال والمال والحسب، ومثل ولادة بنت المستكفي، صاحبة ابن زيدون، ومثل اعتماد جارية المعتمد بن عباد، وأم أولاده، وقد كان أدبها سبب تقريبها، فقد كان مع ابن عمار وزيره، وقد ركبا النهر فمرت الريح، فزردت صفحة الماء، فقال اب عباد لابن عمال، أجز

صنع الريح من الماء زرد.............

فلم يستطع الوزير، فقالت غسالة كانت على مقربة منهما، هي (اعتماد) هذه :

....................أي درع لقتال لو جمد

فطار بها المعتمد إعجاباً، وشفع لها عنده أيضاً قسامة وجهها، فضمها إلى جواريه.

آراء في الشعر الأندلسي

إن الشعر الأندلسي الذي تعوزنا عنه مئات الدراسات لا زال في حاجة ماسة إلى جهد الباحثين وجهادهم للكشف عن جوانبه ونواحيه الغامضة حتى اليوم.

والشعر الأندلسي كان يحفل بأعلام خالدة فيه؛ من أمثال ابن هانئ متنبي المغرب، وابن زيدون بحتري المغرب، والأعمى التطيلي معري المغرب، وحمدة بنت زياد خنساء المغرب، وسواهم.

ويقول الدكتور أحمد زكي أبو شادي من حديث له عن الشعر الأندلسي :

الدكتور نيكل[1] من ثقات العالم في اللغة البروفنسية وفي الشعر التروبادور الذي يعده مديناً للشعر العربي في نشأته، وله ذوق أدبي ناضج، وشاعرية مرهفة، وتضلع من اللغة العربية التي درسها كما درس القرآن الكريم والشعر العربي على شيوخ الأزهر، إلى جانب تبحره في لغات أوروبية متعددة بله سياحاته التي تعد وحدها ثقافة إنسانية، ولا غرو إذا تتابعت بعد ذلك دراساته وكتبه مثل ترجمته الانجليزية لكتاب (طوق الحمامة) لابن حزم الأندلسي، ومثل نشره كتاب

---

(١) له : كتاب المختارات من الشعر الأندلسي.

« الزهرة » لأبي داود الأصفهاني بالاشتراك مع فقيد الشعر ابراهيم طوقان، وديوان ابن قزمان القرطبي الذي ترجم بعضه إلى الاسبانية، ناهيك بمحاضراته الجامعية الممتازة في أمريكا وخارجها، وله فضل أدبي على الشعر الأندلسي، وإن أمامنا خمسة عصور للشعر الأندلسي تستحق الدرس، ألا وهي عصر بني أمية، فعصر ملوك الطوائف، فعصر المرابطين، فعصر الموحدين، وأخيراً عصر بني نصر في غرناطة وهو آخر أيام العرب في الأندلس.

فاذا نظرنا في نماذج العصر الأول : عصر الإمارة والخلافة الممتد ما بين سنة ست وخمسين وسبعمائة إلى سنة عشرين بعد الألف للميلاد. نجد لعبد الرحمن الداخل من الشعر الوجداني التأملي البليغ الكثير، وشعره جامع بين نصاعة الألفاظ وإشراق البيان وصدق العاطفة مع ملاءمة الموسيقى لما فيه من نزعة تأملية، وهذا أبو المخشي شاعره في أيامه هو الذي مدح سليمان بن عبد الرحمن بشعر؛ وتوهم عليه فيه أنه عرض بهشام أخيه، وكانت بينهما مباعدة ومنافسة، فتعصب متعصب لهشام فسمل عينيه، فقال في العمى شعراً حسناً، ثم قصد به عبد الرحمن بن معاوية فأنشده إياه، فرق له واستعبر، ودعا بألفي دينار فأعطاه وضاعف له دية العينين. وهو الشعر الذي أوله :

خضعت أم بناتي للعدى	أن قضى الله قضاء فمضى
ورأت أعمى ضريراً، إنما	مشيه في الأرض لمس بالعصا
فاستكانت ثم قالت قوله	وهي حري بلغت مني المدى
ففؤادي قرح من قولة	« ما من الأدواء داء كالعمى »

وفي موسيقى هذه المقصورة صوت فجيعته وأنين لوعته. وهي على غرار الشعر الأندلسي في صدر الفتح الاسلامي من تماسك الألفاظ ومتانة التركيب وصدق العاطفة وروعة المعاني... فاذا بلغنا ابن هانئ الأندلسي الذي لقب « بمتنبي الغرب » وجدنا الشاعرية المفتنة، وان

لبث تقليد المدح للحكام والمغالاة في ذلك سنة في الأندلس، وهناك أشعار لشعراء كان بهجة المجالس؛ كما هي زينة المصنفات الأندلسية الأدبية، وكان بين أولئك الشعراء الحكام أنفسهم مثل الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل الذي اشتهر من غزله قوله :

ظل من فرط حبه مملوكا ... ولقد كان قبل ذاك مليكا
إن بكى أو شكا الهوى زيد ظلماً ... وبعاداً أدنى حماماً وشيكا
تركته جآذر القصر صباً ... مستهاماً على الصعيد تريكا
يجعل الخد راضعاً فوق ترب ... للذي يجعل الحرير أريكا
هكذا يحسن التذلل للحـ ... ـر إذا كان في الهوى مملوكا

وإن ننس لا ننس بين أولئك السابقين ابن عبد ربه الشاعر الناثر القرطبي الذي كان يعجب به أبو الطيب المتنبي حتى وصفه « بمليح الأندلس »، فقد كان شاعراً مفلقاً في معظم شعره، ولو أنه كان مكثراً. وهو من الرائدين في الشعر القصصي كما يرى من أرجوزته في تاريخ عبد الرحمن الناصر. وما عاب شعره إلا تطرق الجانب التعليمي إليه حينما تقدمت به السن وإيثار الموعظة والزهد على العاطفة التي هي روح الشعر. ويقول بروكلمان في عرضه لمراحل التطور في الشعر العربي بمجلة « الأدب الإسلامي » الصادرة عن مدينة لاهور في يونية سنة ١٩٥٢ : إن شعراء العربية في الأندلس تشربوا حب الطبيعة وجمالها، فتألق شعرهم واشتهر في الشرق وقلده كثيرون من الأدباء في مصر وسورية، وانتشر هذا الشعر الجديد في القرون الوسطى بأنحاء العالم العربي جميعه؛ حين لم يكن ثمة فارق كبير ما بين إنتاج شعراء البلاط في فاس القاهرة وجنوبي بلاد العرب. ونظرة مستقلة منصفة في شعر ابن عبد ربه ترينا الشاعر المجدد كما ترينا الشاعر الكلاسيكي في آن. وكثير في هذا الشعر يتضمنه كتاب « يتيمة الدهر » وكتاب « تاريخ علماء الأندلس » فضلاً عن كتابه « العقد الفريد » وفي الجزء الثاني منه أرجوزته التاريخية الشهيرة في عبد الرحمن الناصر، وإن قيل إن

له ديواناً كبيراً لا نعرف أنه أهتدي إليه بعد. وهو على الإجمال محافظ، حتى إنه انتقد بشدة إحدى قصائده مسلماً أبا عبيدة القائل بكروية الأرض ! وعمر فوق الثمانين فشاخ شعره معه، وراح ينقض شعره الغزلي السابق في صباه بقصائد فقهية زهدية، ومع ذلك لم يخل من الحكمة الآسرة كما نرى في هذا الشعر، وهو آخر نظمه :

بليت وأبلتني الليالي بكرها ... وصرفان للأيام معتوران
ومالي لا أبلى لسبعين حجة ... وعشر أتت من بعدها سنتان
ولست أبالي من تباريح علتي ... إذا كان عقلي باقياً ولساني !

وهذا مثال من شعره الوجداني المأثور :

أنت دائي وفي يديك دوائي ... يا شقائي من الجوى وبلائي !
إن قلبي بحب من لا أسمي ... في عناء، أعظم به من عناء !
كيف لا ؟ كيف أن ألذ بعيش ... مات صبري به ومات عزائي
أيها اللائمون ! ماذا عليكم ... أن تعيشوا وأن أموت بدائي؟
« ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الميت ميت الأحياء »

وهذا مثال آخر لغزله :

محب طوى كشحاً على الزفرات ... وإنسان عيني خاض في غمرات
فيا من بعينيه سقامي وصحتي ... ومن في يديه ميتتي وحياتي
بحبك عاشرت الهموم صبابة ... كأني لها ترب وهي لداتي
بخدي أرض للدموع ومقلتي ... سماء لها تنهل بالعبرات !

وذلك مثال آخر في « يوم الفراق » :

ودعتني بزفرة واعتناق ... ثم نادت : متى يكون التلاقي
وتصدت فأشرق الصبح منها ... بين تلك الجيوب[1] والأطواق

---

(١) الجيب : مكان العنق من الثوب.

ياسقيم الجفون من غير سقم | بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أفظع يوم | ليتني مت قبل يوم الفراق !

ومثال آخر في وصف رمح وسيف :

بكل رديني[1] كأن سنانه | شهاب بدا في ظلمة الليل ساطع
تقاصرت الآجال في طول متنه | وعادت به الآمال وهي فجائع
وذي شطب تقضي المنايا لحكمه | وليس لما تقضي المنية دافع
ويستل أرواح الكماة انسلاله | ويرتاع منه الموت والموت رائع

وليس لابن عبد ربه ابتداع يضارع تفنن ابن هاني ولا عبد الملك ابن شهيد ولا جرأة ابراهيم بن إدريس من شعراء العصر الأول، ولكنه مع ذلك صاحب ألمعية انعكست على مرآتها موحيات زمنه فراح يجدد بالتوشيح والشعر القصصي، كما انعكست على مرآتها ثقافته الدينية فصار المتزمت في أواخر عمره، وكان المحافظ في معظم سنيه حتى إنه في تأليفه (العقد الفريد) لم يعن بأدباء الأندلس وشعرائها، وإنما عني بأدباء المشرق وشعرائه فحسب، عدا نماذج من شعره أتى بها، حتى قال فيه الصاحب بن عباد: « هذه بضاعتنا ردت إلينا. ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، فاذا به يشتمل على أخبار بلادنا. لا حاجة لنا به ! ».

ومهما يكن من شيء فابن عبد ربه، ناظماً وناثراً، كان حلقة اتصال متينة بين القديم والجديد في عصره. وشعره في الغالب شعر الذكاء والفكر، وطاقته غير قليلة، حتى قال فيه أبو الطيب المتنبي — على جلالة قدره — « يا بن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبواً ».

ويستوقف نظرنا بين شعراء العصر الأندلسي الأول : منذر بن سعيد البلوطي الذي برز في عهد الأمير المنذر وقد كان هذا الشاعر بربري

---

(١) الرديني : الرمح نسبة إلى ردينة وهي امرأة اشتهرت بتقويم الرماح.

الأصل وقد أتم دراسته في قرطبة التي ولد بجيرتها، وبعد إتمام دراسته حج وبقي خارج الأندلس أربعين شهراً، وقد تلقى في القاهرة علوم اللغة عن الشيخ أبي جعفر أحمد بن محمد بن النحاس، وكان شيعي المذهب فلما عاد الى الأندلس عين في منصب قاضي قضاة قرطبة وذلك في عهد الناصر تقديراً لتصرفه البارع في استقبال سفير امبراطور القسطنطينية، إذ كان المقرر أن يستقبله الأديب أبو علي القالي بخطاب الترحيب، ولكن القالي روعه الموقف فلم ينبس ببنت شفة، وفي هذه اللحظة الحرجة تقدم الشاعر منذر وارتجل خطاباً سر منه الجميع، وفي المقدمة ذلك السفير الذي أطرى الشاعر ونوه به كسياسي ممتاز. وقد ذكر أبو عامر بن شهيد في كتابه (حانوت العطار) نماذج ثلاثة من شعره. وقد عمر الى الثانية والثمانين، فلا بدع إذا أملى عليه طول اختباره هذا الشعر في الموت والحياة :

الموت حوض وكلنا يرد	لم ينج مما نخافه أحد
فلا تكن مغرما برزق غد	فلست تدري لما يجيء غد
وخذ من الدهر ما أتاك به	ويسلم الروح منك والجسد
والخير والشر لا تدعه فما	في الناس إلا التشنيع والحسد !

وسأله شاعر يوماً :

مسألة جئتك مستفتياً	عنها، وأنت العالم المستشار
علام تحمر وجوه الظبا	وأوجه العشاق فيها اصفرار

فأجابه :

احمر وجه الظبي، إذ لحظه	سيف على العشاق، فيه احورار
واصفر وجه الصب لما نأى	والشمس تبقي للمغيب اصفرار

وهذا من شعر الذكاء، كما أن المثال السابق من شعر التأمل والتفلسف؛ وقد اشتهر بدقة أحكامه وطهارة ذمته وحسن تصرفه، وكل هذا يتلاءم مع مسلكه، في مستهل حياته. ولكنه مع ذلك لم يكن راضياً عن الوسط الذي

يعيش فيه، ولو أنه عاصر الناصر والحكم المستنصر في عهديهما الذهبيين ذلك لأنه تعرض بنبوغه للحسد وللدسائس ولصنوف من الكيد نغصت عليه أيامه، فقال فيما قال مثل هذا الشعر العاطفي القوي:

هذا المقال الذي عابه فند ... لكن صاحبه أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريباً كنت مطرفا ... لكنني منهمو فاغتالني النكد
لولا الخلافة، أبقى الله بهجتها ... ما كنت أبقى بأرض ما بها أحد

ومما يؤسف له أن بيئة هذا الشاعر التي جنت عليه ونغصته رغم نباهة شأنه ونقاء ضميره وعفة يده وجنب كذلك على شعره الوجداني الرائع كالمثل السابق. فأهمل شعره وضاع أو أضيع، يقول استيفن سبندر الشاعر الناقد الأمريكي: إن الشعراء يستطيعون أن يوحوا إلى الأحزاب السياسية، ولكن الشعراء أنفسهم يعانون عندما تنجح القضايا الاجتماعية أو الدينية التي يدعون إليها وينافحون عنها، وان هذا ما حدث حتى في عصرنا الحاضر شرقاً وغرباً. وهكذا كان حظ الشاعر المثقف النزيه منذر بن سعيد البلوطي. ولا ريب أن الاهتداء إلى شعره الوجداني الضائع الذي يصور في الوقت ذاته زمنه وملابساته لمما يعد غنماً للأدب، ولعل هذا يتحقق يوماً ما. وإن من الجناية على الأدب أن يحارب ويتلف من الإنتاج ما يخالف بيئة معينة أو عصراً من العصور ويستبقي ما يرضيها ويلائمها ولو كان الأول أسمى قدراً من الوجهة الفنية. فالفكر الإنساني يجب تسجيله على علاته، فان ما قد نظنه صالحاً في وقت ما قد يحكم عليه التاريخ بالعكس في عصر آخر.. إن الشعر الأندلسي هو نتيجة التفاعل بين شعر القوطيين والإيبريين من ناحية والشعر العربي الكلاسيكي من ناحية أخرى، فكلاهما أثر في الآخر وكل من العرب والمستعربين أسهم في إبداع الشعر العربي الجديد الذي تألق في سماء الأندلس، وإن لم يتميز تميزاً واضحاً في بداية العصر الأول. ولكن أمراً واحداً كان جلياً من البداية في ذلك الشعر وهو الحرص على الإيقاع في أدق صورة دون أي تساهل في ذلك قد لا نراه في بعض الشعر المعاصر، كبعض الشعر اللبناني وبعض شعر الزهاوي وفي الشعر الجاهلي، وهذا موضوع تناوله بعض

الكتاب في مجلة (المقتطف) تناولاً فلسفياً بديعاً، كما تناوله كتاب « بدائع العروض ». ولكن جمال الإيقاع ــ على أي حال ــ ليس إلا عنصراً من عناصر الشعر وليس روح الشعر ولا الشعر كله.

ومن بين شعراء العصر الأندلسي الأول الظرفاء المجيدين : عبد الملك ابن شهيد. وهو الآخر شاعر قرطبي صار فيما بعد حاجباً أو وزيراً للناصر وبقي في بلاط الحكم المستنصر ثم نال أكبر حظوة في بلاط المنصور إذ كان أقرب المقربين إليه من الوزراء. ومن أظرف شعر ابن شهيد الأبيات التالية التي ارتجلها في مجلس المنصور، وقد استغرق المجلس في الشراب والمرح ورقص الوزراء دون تحفظ، فنهض ابن شهيد على الرغم من تقدم سنه وإصابته بالنقرس، نهض من محفته متكئاً على ذراع الوزير أبي عبدالله ابن عباس، وحاول هو أيضاً أن يرقص منشداً ومخاطباً المنصور :

هاك شيخاً قاده السكر لكا	قام في رقصته مستهلكا
لم يطق يرقصها مستثبتاً	فانثنى يرقصها مستمسكا
عاقه عن هزها منفرداً	نقرس أخنى عليه فاتكا
من وزير فيهمو رقاصة	قام للسكر يناغي ملكا
قهقه الإبريق مني ضاحكا	ورأى رعشة رجل فبكى !

وهذا من أنفس الشعر الوصفي المطبوع في الأدب العربي. وقد كان أحد الظرفاء بمجلس المنصور فبهت مما رأى وقال لابن شهيد ممازحاً : بالله يا سيدي الوزير إنك لترقص واقفاً بينما تصلي لله جالساً ! فأغرب المنصور في الضحك ومن شعره الارتجالي الذي ينم عن ذكائه الوقاد بيتاه اللذان وجههما إلى الوزير عبد الملك بن جوهر الذي كان يلقب بالحمار (لأن جده ابن هشام كان بيطاراً في سورية) وكانت بينهما منافسة شديدة، فاتفق يوماً أن مر ابن شهيد بدار ابن جوهر فاستأذن في رؤيته، ولكن ابن جوهر ادعى بلسان خادمه أنه غائب

عن داره، فكتب إليه ابن شهيد :

أتيناك، لا عن حاجة عرضت لنا إليك، ولا قلب إليك مشوق
ولكننا زرنا بضعف عقولنا حماراً تولى برنا بعقوق !

ولكن ابن جوهر لم يكن أقل ذكاء منه فرد عليه قائلاً :

حجبناك لما زرتنا غير تائق بقلب عدو في ثياب صديق
وما كان بيطار الشآم بموضع يباشر فيه برنا بخليق

وثمة شاعر موهوب : هو أبو هارون بن عبد الملك بن حبيب، الذي كان إمام المذهب المالكي في زمنه كما كان مؤرخاً عظيماً ومعلماً جليلاً، يتسابق الى حلقات دروسه، ويبلغ من إجلاله العلم والتعليم أنه كان يلبس أفخر الملابس خلال التدريس. لقد كان أبو هارون شاعراً أصيلاً موهوباً ولذلك كان شعره ذا نفحة تختلف جد الاختلاف عن طابع شعر الفقهاء بل نظمهم المحصور غالباً في أساليب خبرية تعليمية بعيدة كل البعد عن روح الشعر. فأبو هارون مثل باهر لتجلي الشاعرية على الرغم من أية مهنة يحترفها الشاعر معينة على توسيع أفق تأملاته وتجاريبه وقد زار أبو هارون الشرق حيث تبحر في دراسة المذهب المالكي قبل أن يصبح داعيته الأكبر في الأندلس، وثمة في أحد المجالس حاول أحدهم انتقاصه لصغر جسمه فرد عليه بقوله :

لا تنظرن الى جسمي وقلته وانظر لصدري وما يحوي من السنن
فرب ذي منظر من غير معرفة ورب من تزدريه العين ذو فطن
ورب لؤلؤة في قعر مذبلة لم يلق بال لها إلا إلى زمن !

ونادى أبو هارون برعاية الأدباء حتى يتفرغوا لإنتاجهم النافع، إذ كثيراً ما جنى الفقر عليهم فشغلتهم أهون شؤون المعاش عن الابداع الفني الذي يكسب أمتهم ولغتهم ثروة.

وقد عرض هذا الشاعر بالمغني الموسيقي الشهير (زرياب) صاحب

الفضل الكبير في إنهاض الموسيقى الأندلسية، فقال أبو هارون من قصيدة وجهها إلى عبد الرحمن الثاني يهنئه بيوم عاشوراء :

قد طاح أمري والذي أبتغي هين على الرحمن في قدرته
ألف من الحمر[1]، وأقلل بها لعالـم أربـى علـى بغيتـه
(زرياب) قد أعطيها جملة وحرفتي أشرف من حرفته !

وهذه حماسة المحامي المدافع عن قضية عامة وعن حق خاص، إذ لا ينكر أن الموسيقى والغناء من أشرف الفنون الجميلة وإنما وجه الاعتراض المغالاة في تكريم فن من الفنون على حساب غيره. كما يغالي عصرنا الحاضر في تكريم الرياضة البدنية على حساب النبوغ الذهني ! ولهذه الروح كتب أبو هرون إلى الزجالي :

كيف يطيق الشعر من أصبحت حالته اليوم كحـال الغـرق !
والشعـر لا يسـلس إلا علـى فـراغ قـلب واتسـاع الخلـق
فاقنـع بهـذا القـول مـن شاعـر يرضى من الحظ بأدنى العنق[1]
أمـا ذمـام الـود منـي لكـم فهو من المحتوم فيما سبـق !

وهكذا على رغم طاقته الشعرية الرفيعة حالت بيئة هذا الشعر الموهوب دون العناية الكبرى التي كان يود أن يمنحها الشعر، والقليل الذي تركه لنا على الرغم من شواغله الجمة عميق المعاني جميل الترسل، شاهد بألمعيته الفنية.

ويذكر ابن خلدون في ختام مقدمته نبذة شائقة عن الموشحات والأزجال للأندلس قال فيها : اعلم أن الأذواق كلها في معرفة البلاغة إنما تحصل لمن خالط تلك اللغة. وكثر استعماله لها ومخاطبته بين أجيالها حتى يحصل ملكتها كما قلنا في اللغة العربية، فلا يمتري الأندلسي بالبلاغة التي في شعر أهل المغرب، ولا المغربي بالبلاغة التي في شعر

---

(١) هي الدنانير.

أهل الأندلس والمشرق، ولا المشرقي بالبلاغة التي في شعر الأندلس والمغرب لأن اللسان الحضري وتراكيبه مختلفة فيهم، وكل واحد منهم مدرك لبلاغة لغته، وذائق لمحاسن الشعر من أهل جلدته، وفي خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم آيات.. ونحن ــ ورثة العربية في جميع عصورها ــ علينا إذا أقدمنا على النقد الأدبي، وعلى الأخص نقد الشعر أن نكون متزودين أولاً باطلاع كاف على نماذجه الرفيعة في عصوره المختلفة، وثانياً بقدرة على الاندماج في شخصية الشاعر المنقود وفي بيئته، وثالثاً بالقدرة على الموازنة التي يساندها الذوق الأدبي المكتسب والطبع الشعري وروح الإنصاف. فاذا قدرنا الشعر الأندلسي فانما يعتمد تقديرنا على أسس تتفق وتختلف مع ملاحظات ابن خلدون ــ تتفق معه في الفكرة العامة، وتختلف من ناحية الشمول والأدب المقارن وعدم الاعتراف بتحديد الفن. فعندنا أن الشعر الفني الصحيح الذي يعتمد على روحه الأصيلة لا على عكاز من توابعه قابل للتقدير ــ كيفما كانت لغته ــ أهل للتنويه به في كل زمان ومكان. وكلما كانت روح الشعر الفنية عالية جبارة استقلت أو كادت عن جميع العناصر المؤازرة لها كالإيقاع الموسيقي والانتقاء اللفظي، وهذا ما نجده في شعر الفحول، ولو كان نثراً مترجماً مثل شعر تاجور وشعر إقبال أو نثراً شعرياً عربي الأصل كالكثير من النثر الفني لمصطفى صادق الرافعي، فانه تحفة ومتعة روحية في ذاتها لا يعوزها النظم ليتألق جمالها، وعلى ضوء هذا المذهب الذي ندين به ننقد الشعر الأندلسي نقد المتذوق المقدر.

وبين الشعراء الممتازين في الإمارة والخلافة بالأندلس الذين يغفل مدرسو الأدب العربي ذكرهم : الشاعر البليغ ابن دراج القسطلي الذي عده ابن حزم قريناً لأبي تمام والمتنبي، وهو بربري الأصل سكنت أسرته الموسورة في قسطلة وتعلم في قرطبة وبلغ بفضل مكانته الاجتماعية

وعلمه وفطنته منزلة كاتب الإنشاء في أواخر عهد الحكم المستنصر. وكان ابن دراج مشهوراً ببلاغته وامتلاكه ناصية العربية، وباشراق أسلوبه نثراً ونظماً : وله شعر متين في مدح المنصور، بعضه مرتجل. وبلغ منزلة الاعتراف به كأحد شعراء البلاط المعدودين المخصصة لهم الرواتب. وقد تعرض لحسد كثير، مما جنى على إنتاجه الوفير، فضاع معظم شعره. وقد عد ابن حزم قصيدته في فتح سانياغو (الذي وقع في العاشر من أغسطس سنة سبع وتسعين وتسعمائة للميلاد) من روائع الشعر العربي. وبعد وفاة المنصور صار ابن دراج شاعر البلاط في عهد المظفر. وفي أواخر أيامه كان متصلاً ببلاط المنذر بن يحيى في سرقسطة.

وهناك نماذج من شعره البديع في (يتيمة الدهر). وأقل ما تتصف به هذه النماذج السلاسة البيانية والموسيقى العذبة وسلامة اللغة، ولكنها ليست قوية العاطفة، ولذلك لم نضعها نحن في منزلة شعر ابن خفاجة أو شعر ابن زيدون مثلاً، ومع ذلك فليس من الإنصاف الحكم الوافي الصادق على شاعر مكثر ضاع أكثر شعره ولم يبق منه إلا القليل الذي حرص عليه بعض الحكام كهذه الأبيات التي يمد بها المنصور والتي تذكرنا برائية أبي نواس في مدح الخصيب :

ألم تعلمي أن الثواء هو التوى[1] وأن بيوت العاجزين قبور ؟
وأن خطيرات المهالك ضمن لراكبها أن الجزاء خطير ؟
يخوفني طول السفار وإنه بتقبيل كف العامري جدير
مجير الهدى والدين من كل ملحد وليس عليه للضلال مجير
تلاقت عليه من تميم ويعرب شموس تلاقى في العلا وبدور
همو يستقلون الحياة لراغب ويستصغرون الخطب وهو كبير
ولما توافوا للسلام ورفعت عن الشمس في أفق الشروق ستور

(١) التوى : الهلاك.

وقد قام من زرق الآسنة دونها   صفوف، ومن بيض السيوف سطور
رأوا طاعة الرحمن كيف اعتزازها   وآيات صنع الله كيف تنير
وكيف استوى بالبر والبحر مجلس   وقام بعبء الراسيات سرير
فجاءوا عجالاً والقلوب خوافق   وولوا بطاء والنواظر صور
يقولون والإجلال يخرس ألسناً   وحارت عيون ملأها وصدور :
«لقد حاط أعلام الهدى بك حائط   وقدر فيك المكرمات قدير»

وليس في هذا الشعر كما يرى كبير ابتداع ولا قليله، وأنما جماله في السلاسة وحسن التناول البياني، ومثله هذه الأبيات في الوداع لولا وميض من العاطفة يلمح فيها :

قالت، وقد مزج الفراق مدامعا   بمدامع، وترائباً بترائب:
« أتفرق حتى بمنزل غربة   أم نحن للأيام نهبة ناهب ؟
ولئن جنيت عليك نزهة راحل   فأنا الزعيم لها بفرحة آيب
هل أبصرت عيناك بدراً طالعا   في الأفق إلا من هلال غارب ؟ »

فكيف يمكن التوفيق بين مستوى الشعر وبين المدح الذي أسبغه عليه ابن حزم وابن خلدون والمراكشي والمعري وأمثالهم من الأدباء النقاد المؤرخين ؟ إذا قام هذا المدح على الشعر الباقي لابن دراج القسطلي فهو مدح توحي به بلاغته البيانية فحسب، لا طاقته الفنية، واذا قام على مجمل شعره المعروف في زمنه، فلا بد لنا من الاستنتاج أن خير شعره ــ أي ما تناول وحدانياته ومشاهداته وتأملاته وحياة الناس ــ قد فقده الأدب العربي.

من أعلام الشعراء الأندلسيين

نبغ في الأندلس من الشعراء كثيرون، منهم : ابن عبد ربه الأندلسي (٢٤٦ــ٣٢٨هــ)، وابــن هانــئ (٣٢٦ــ٣٦٣هــ) والغــزال (١٥٦ــ٢٥٠هـ)[1] وابن زيدون (٣٩٤ــ٤٦٣هـ)، وابن خفاجة (٤٥٠ــ٥٣٣هـ)[2]، وابن وهبون المتوفى قبل عام ٥٣٣هـ. والأعمى التطيلي المتوفى قبل عام ٥٤٢هـ، وابن برد الأصغر الذي قتل عام٤٣١هـ، وابو حفص الأكبر المتوفى عام ٤٢٨هـ، ابن دراج القسطلي (٣٤٧ــ٤٢١هـ)، ولسان الدين بن الخطيب (٧١٣ــ٧٧٦هـ)، وابن الحداد المتوفى عام ٤٨٠هـ، والفتح بن خاقان المتوفى عام ٥٢٩هـ؛ وسواهم كثيرون.. أما من نبغ من الأدباء المشهورين فقليل منهم : ابن شهيد (٣٨٢ــ٤٢٦هـ)، وابن سهل (٦٠٩ــ٦٤٩هـ)، وابن بسام المتوفى عام ٥٤٢هـ وسواهم.

---

(١) بغية الملتمس ـــ واسم الغزال يحيى بن حكيم وهو شاعر مطبوع.

(٢) راجع ١٩٠ــ٢١٢ بلاغة العرب في الأندلس.

الشعر الأندلسي وتياراته

ـ ١ ـ

عندما دخل العرب الأندلس واستراحوا من الغزو، رجعوا إلى طبيعتهم المتأصلة فيهم وهي قرض الشعر، فالشعر هو متعتهم النفسية وغذاؤهم الروحي، ومرآة لحياة العربي الاجتماعية والنفسية يتغنى به في حله وترحاله. ويذكر فيه ما يمر بخلده من حب وبغض، ويرسم ما يحيط به من جمال الطبيعة وما تلهمه روحه من خيال بديع، فأخذوا يقولونه في أغراضه التي فشت في الشرق وفي أغرض أخرى جديدة، وكان من الأسباب التي دعت إلى نهضة الشعر في الأندلس :

١ ــ طبيعة بلاد الأندلس وما فيها من المناظر المختلفة؛ والأمطار المتصلة والأدواح الظليلة، والأنهار الجارية، والسهول الخصبة، والجبال المكسوة والمروج الموشاة بألوان الزهر، والقصور الشاهقة، والرياض الغناء. والغواني الحسان. كل ذلك أكسب الوجدان لطفاً، والمعاني دقة، والألفاظ جمالاً وروعة.

٢ ــ عناية الملوك الأمراء بقرض الشعر حملت الشعب جميعه على الإقبال عليه، حتى أصبح قول الشعر زينة لكل أديب، وجمالاً لكل عالم. أولع به الفقهاء والنحاة والفلاسفة، والرياضيون، والأطباء،

والمؤرخون. كما أولع به كثير من النساء حتى نبغن فيه، وبارين الرجال وقلن الجيد الممتع منه: كقول حمدونة الأندلسية تصف وادياً:

وقانا لفحة الرمضاء واد   سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه، فحنا علينا   حنو المرضعات على الفطيم

٣ ــ كثرة جمهرة العرب في الأندلس. وتمكن السلطان في أيديهم، وشدة محافظتهم على تقويم لسانهم.

ــ ٢ ــ

مميزات الشعر الأندلسي وخصائصه:

أما مميزاته من حيث الأغراض: فإنه لما طاب للعرب العيش في الأندلس بتمكن سلطان بني أمية، ونقلت دواوين المشرق أخذوا يعنون بالشعر في أغراض شتى شملت فنونه كل مرافق الحياة، فنظموا في كل ما نظم فيه شعراء المشرق: من مدح وهجاء وفخر وحماسة، وتهنئة، ورثاء، ووصف، وغزل وخمر وندمان ونساء وغلمان وعبث ومجون، وزهد وتصوف، غير أنهم فاقوا المشارقة في بعض أغراضه، ونقصوا عنهم في أغراض أخرى، لأسباب اقتضتها طبيعة إقليمهم، ونظام معيشتهم، وطريقة تثقيفهم.

ومن الأغراض التي فاقوا فيها المشارقة: الوصف، ولا سيما وصف مناظر الطبيعة وجمال الكون. فوصفوا الرياض والبساتين والأشجار والثمار والأزهار والطيور، ووصفوا السحاب والرعد والبرق وقوس قزح والبرك والأنهار والبحار، وتوسعوا في ذلك حتى أحلوه محل النسيب في صدور القصائد، ووصفوا أساطيل البحر لكثرة اتخاذها لحرب العدو، وسير الجيوش ونشوب المعارك، والقصور والتماثيل والفوارات ومجالس اللهو وآلاته والطرب والسمر.

ومن الأغراض الجديدة التي نظموا فيها :

١ ـــ رثاء الممالك الزائلة : وذلك حينما تقلص ملك المسلمين واستولى أعداؤهم على مدنهم وحصونهم: كقول صالح بن شريف الرندي م ٨٩٨هـ يرثي الأندلس :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

٢ ـــ الاستغاثة والاستنجاد بالنبي ﷺ وكبار الصالحين، وترغيب ملوك الإسلام في انقاذ البلاد، وقد كثر ذلك في القرنين : الثامن والتاسع، حين توالت عليها غارات الإسبان، ومن ذلك قصيدة ابن الأبار يخاطب ملك المغرب ومنها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

٣ ـــ نظم العلوم والفنون : وذلك لشدة عنايتهم بالعلوم وحرصهم على استظهارها.

ومن الأغراض التي قصر فيها الأندلسيون عن المشارقة ولم يجاروهم فيها :

١ ـــ الشعر المشتمل على الحكم التي تسير مسير الأمثال.

٢ ـــ الشعر المتضمن الآراء الفلسفية من نقد الشرائع ونظام الحكم وأخلاق الناس .

وأما مميزاته في ألفاظه وأساليبه : فإننا نرى في الشعر الأندلسي سهولة في الألفاظ وسلاسة في التراكيب. ويرجع ذلك إلى أن الشعراء لم يحملوا الألفاظ ما لا تطيق من المعاني المزدحمة، فالسر في هذه السلاسة والعذوبة : سهولة طباعهم ولين أخلاقهم وإرسالهم القول من غير تكلف ولا تصنع، فجاء أكثره جارياً مع الطبع، ولم يبالغوا في الأخذ بفنون البديع من تورية وجناس وطباق وغيرها، وما كان يقع لهم منه في

عباراتهم جميل مقبول، لأنهم كانوا يأخذون من الأنواع البديعية ما تجود به القريحة من غير تعمل ولا إجهاد خاطر.

وأما مميزاته في معانيه : فإننا نجد معاني الشعر الأندلسي واضحة جلية بعيدة عن تعمق الفلاسفة وتدقيق الحكماء لقلة المشتغلين منهم بالحكمة. وبغض العامة لها.. وغلب على الشعر الأندلسي الخيال البديع الذي نشأ فيهم من ضروب الجمال المنتشرة في شبه جزيرتهم، وساعدهم ذلك على أن يجوِّدوا التشبيه، ويكثروا من استعمال المجاز والكناية في شعرهم.

— ٣ —

وعندما أقام العربي في الأندلس ظهر الشعر العربي في هذه البيئة، لما رآه العربي من جمال تلك البلاد. فكان عقله وخياله يمثلان حياتين : حياة البدو وحياة الحضر. وكان شعره منبعثاً من هذين الأثرين، فظهر فيه جمال الفطرة، ونضارة الحضارة، وجزالة البداوة، ورقة الخيال، والافتنان في الجد والهزل والمجون، ووصف العواطف والأهواء. وكان لحضارة تلك البلاد وجمال الطبيعة أعظم أثر في نفوس الشعراء، فجالوا في كل شيء وقع عليه نظرهم ومر بخاطرهم حتى كان ذلك من مميزات الشعر في الأندلس ومن أظهر خصائصه.

وقد ذاع الشعر في كل طبقات الناس، فكان في الشعراء : الخلفاء والأمراء والوزراء والنساء والفقهاء والحكماء الذين كانوا ينظمونه في جميع المعاني.

ولما قام ملك بني أمية هناك فسح الخلفاء صدورهم للشعراء والأدباء في مجالس الأدب والغناء، وأفاضوا عليهم الأموال، فاتخذ الشعراء ذلك

وسيلة للتقرب إلى الحكام وكبار القوم بمدحهم والتملق إليهم، ووصف مجالسهم وقصورهم، ومعالم الحضارة في بلادهم حتى كان الشعر صناعة ووسيلة إلى كسب المال، وبالغوا في مدح هؤلاء الخلفاء والأمراء استدراراً لعطاياهم. وقد ظهر في هذا العصر جماعة من كبار الشعراء، منهم : محمد بن هانئ؛ وابن دراج القسطلي، وأحمد بن شهيد.

وكان عصر ملوك الطوائف من أزهى عصور الشعر والأدب، ظهر فيه كثير من فحول شعراء الأندلس : كالوزير ابن زيدون، وابن خفاجة، وابن سهل، وعبد الجليل بن وهبون، والوزير ابن عمار، وملك قرطبة واشبيلية المعتمد بن عباد. وظهر في دولة بني الأحمر لسان الدين ابن الخطيب وغيره من كبار الشعراء. وقد بقي الشعر زاهياً إلى خروج العرب من هذه البلاد. وقد كان الشعر أسبق أنواع الأدب ظهوراً، لأنه مظهر الثقافة العربية، ومرآة لحياة العرب العقلية والاجتماعية، يشدو به العربي حيثما نزل وأينما ارتحل، فيذكر فيه ما يمر بخاطره من حب وبغض، ويصف فيه ما يجول بنفسه من أثر ما يحيط به من جلال الطبيعة وجمالها؛ فكان لجمال بلاد الأندلس أثر في عقله. ولكن أخلاقه العربية كانت تسيطر عليه، وعزته القومية وذكريات بلاده وأهله ما فتئت تلازمه. فكان عقله يمثل حياتين، حياة البدو وحياة الحضر. ولقد احتفظ الشعر في الأندلس بطابعه العربي كما انحدر من الجاهلية، فاقتصر في مصادر إلهامه على المدح والرثاء والغزل والفخر. ذلك أن العرب بأسبانيا عاشوا في حنين دائم الى البلاد التي أنبتتهم واعتبروا أنفسهم مهاجرين. وكان الملوك منهم يزدحم الشعراء على أبوابهم كما كانوا يفعلون في الشرق، وكثر عددهم بين رجال الحاشية والبطانة، وكانوا ينظمون في المدح والفخر، لأنهم نقلوا معهم أيضاً الى بلاد الغرب العصبية.

على أن العرب امتزجوا بسكان البلاد، واعتنق الإسلام فريق من الأسبانيين المسيحيين، فنشأ جيل جديد من المولدين خفت لديه العصبية،

ولكنها لم تترك الفخر، فظل يحتل مكانة بارزة في الشعر؛ وظلت قلوب العرب تضطرم حنيناً إلى بلادهم الأصيلة، وظل القوم يحتفظون بالتراث العربي. وصاروا يتبادلون مع المسلمين بالشرق آثار القرائح من شعر وتأليف. ففي عهد عبد الرحمن الثاني سافرت بعثة علمية من الأندلس إلى العراق وعادت منه بكتب العلم والفلسفة المنقولة إلى العربية. ورحل المغني زرياب من بغداد إلى اسبانيا فعلم الطبقة الأرستقراطية فيها الموسيقى والغناء. وظهر حينئذٍ فن الموشحات، ومخترعه مقدم ابن معافر الفريري فانشطر الشعر بالأندلس إلى شطرين: اتباعي، وجديد، وانحرف الشطر الثاني عن تقاليد القصيدة، ولكنه احتفظ بالفصحى.

نشأت في أواخر خلافة الأمويين مدنية جديدة تقوم على العرب والمولدين والأسبانيين الذين تعلموا العربية؛ وكان مركزها قرطبة؛ وكانت مزيجاً من الحضارتين العربية والرومانية، فشاعت في قرطبة ألوان من اللهو والمرح تشبه ما كان في بغداد مما يمثله كتاب ألف ليلة وليلة، ولكن هذه الحياة الجديدة كانت تنقصها أبهة الشرق وفخامته، ولكنه يضاف إليها تبسط في المعائش، وترهف في إحساس العامة.

وكان عبد الرحمن الناصر قد أنشأ قصر الزهراء ومدينته. ولم يجد العرب في الأندلس عهداً كذا العهد. عم فيه الرخاء وسادته الرفاهية والغبطة، حتى صح فيه المثل العامي : مثل « أيام العروس ».

فلا عجب إذا ازدهر الشعر على أنواعه وأخذت ترق حاشية الشعراء ويترهف إحساسهم. فهذا ابن عبد ربه صاحب « العقد الفريد » يجمع تراث العرب في كتابه : العقد الفريد. وظل الملوك والخلفاء على عادتهم من نظم الشعر وقرضه، فمن ذلك قول المستظهر :

طال عمر الليل عندي   مـذ تولـعت بصـدى
يا غزالا نـقض العهـ   ـد ولم يعرف بوعـد

أنسيت العهد إذا بتـ ـنا على مفروش ورد
واعتنقنا في وشاح وانتظمنا نظم عقد
ونجوم الليل تحكي ذهباً في لازورد

وانصرف الغزل عن المادة، وصار يتجرد من المحسوسات متسامياً إلى العاطفة المنزهة. ووضع ابن حزم، فقيه الأندلس وعالمها، كتابه « طوق الحمامة »، وضمنه تحليلاً نفسياً للحب مازجاً بين النظريات المجردة والأقاصيص المروية، وأكثرها من مشاهداته وتجاربه الشخصية. وأسماه ابن حزم « الحب المهذب » أو « حب المروءة ».

على أن ألوان الحياة بالأندلس وجو البلاد والإطار الذي كان يحيط بحياة الناس كل هذا كان أقوى شاعرية وأبرع جمالاً وأعظم أثراً في النفس من الشعر الذي ألهمه، وليس معنى هذا أن ذلك الشعر كان ضعيفاً، ولكنه ظل في أغلبه اتباعياً لا يستطيع أن يسمو إلى جمال الأشياء التي تفيض الإلهام على الشاعر.

وفي القرن الخامس الهجري صار الشعر يجري على كل لسان حتى قال ابن حيان : « إنه كان باستطاعة الفلاح الذي يحرث الأرض أن يرتجل الشعر في أي موضوع يعن له، وظل المدح النوع البارز في الشعر. لأنه ما كادت الخلافة الأموية بأسبانيا تنهار حتى انقسمت الدولة إلى دويلات صغيرة على رأس كل واحدة منها ملك أو أمير، وقد عرفوا في التاريخ باسم ملوك الطوائف، وكان كل واحد منهم يحتفي بالشعراء ويضمهم الى بطانته فينظمون له المديح ويسطرون محامده فلا بدع إذا كثر شعراء ذلك العصر وعظم شعر المدح.. وكان الكثيرون من أولئك الملوك والأمراء يتذوقون الشعر أو ينظمونه، وكان أبرزهم أبو القاسم بن عباد المعتمد على الله صاحب اشبيلية، فقد كان شاعراً، وعاش في حياة فيها ألوان الشعر ومظاهره؛ وقرب الشعراء. بل لم يستوزر إلا من كان أديباً.

وكان أبرز شعراء ذلك العصر ابن زيدون، الذي استوزر لابن عباد، ولولادة بنت المستكفي، وكانت بينهما صلات ومطارحات شعرية. وإذ زخر شعرهما بالمحسنات اللفظية امتاز أيضاً بجودة الإلهام وبراعته. ويجدر التنويه باسم ابن عمار؛ صديق ابن عباد أيضاً. وهو من الشعراء في ذلك العهد وقد نظم في سائر أبواب الشعر وفنونه، وكان شعره قوي الالهام.

وفي عهد المرابطين ظهر ابن قزمان. واستحدث في الشعر فن الزجل ولكن القصيدة التقليدية ظلت في ذلك العصر، وفي عهد الموحدين، محتفظة بمكانها الأول في الشعر الاتباعي الذي ظل آخذاً مجراه. وكان من أشهر رجاله: ابن خفاجة وابن زمرك.

وأخذت دولة العرب بأسبانيا تنهار شيئاً فشيئاً. وتقع المدن بأيدي المسيحيين واحدة بعد الأخرى، حتى لم يبق إلا غرناطة التي انحصر فيها النشاط الأدبي وتكاثر الشعراء في بلاطها، وكان أشهرهم لسان الدين بن الخطيب. على أن هذا المعقل الأخير للعرب لم يلبث أن استسلم للاسبانيين في عام ٨٩٧هـ — (١٤٩٢)م.. فانتهت العربية وآدابها في الأندلس.

— ٤ —

وقد حافظ العرب في الأندلس على تقاليد الشعر العربي وأوزانه وقيود القافية فيه. ويقول البعض إن شعراء الأندلس تأثروا بطبيعة البلاد، فاختلف شعرهم عن شعراء المشرق من حيث الإلهام والصور، ويقول الآخرون: إن هذا التأثر قليل لم يبرز فيه إلا نفر من الشعراء من أمثال ابن حزم. ولكن الأكثرية الغالبة نسجت على غرار شعراء المشرق فلم تخرج على الشعر الاتباعي. وثابرت على النظم في موضوعاته المختلفة

كالغزل والنسيب والمدح والرثاء والفخر. وقد كان عدد شعراء الأندلس كثيراً، وكان شعرهم طيباً ناضجاً يعبر عن الإسلام في ذلك العهد، ولكنهم على كثرة عددهم لم ينبغ فيهم شاعر عبقري يعادل أبا الطيب المتنبي أو أبا العلاء المعري.

ولم يستطع الشعر العربي الاتباعي أن يخلق جواً خاصاً بالأندلس لأنه ظل خاضعاً لتقاليد الشعر في الشرق العربي « كما ظلت قرطبة محافظة على تقاليد دمشق وبغداد في الحكم والحياة العامة.. » أما ذلك الجو الخاص الذي يتأثر بطبيعة البلاد الجديدة التي امتلكها العرب، فهو موجود في الموشحات والزجل. وهذان الفنان — فضلاً عن ميزتهما — يثيران مشاكل لغوية وأدبية عديدة.

وكان جديراً بعرب الأندلس أن يوفقوا إلى خلق أنماط من الشعر خاصة بهم، وقد وفقوا إلى ذلك في الموشحات التي كانت تنظم باللغة الفصحى، والأزجال التي كانت تنظم بالعامية، وهما بمثابة دم جديد يلقح به الشعر العربي؛ ويستمد منه حياة نابضة قوية لأن فيهما انفكاكاً من قيود القصيدة.

وتتألف القصيدة عادة، سواء الموشح منها أم الزجل « من بيت أو أكثر إلى ثلاثة أبيات في مستهلها تسمى « المركز » وتأتي بعدها المقطوعات من خمسة إلى ثمانية أبيات من الشعر تتألف من « الأغصان »، وهي ذات قافية أو قواف مستقلة. وتنتهي ببيت من الشعر يقال له « السمط » توافق قافيته قافية « المركز ». وكانت هذه الموشحات والأزجال، وخاصة الأزجال، تنظم للغناء، وكانت آلات الطرب تتألف من المزمار والقيثارة والصاجات. وكان المغني يفتتح الغناء بالمركز ثم بالمقطوعة ثم يعيد المركز. ويشترك معه في غناء هذا الأخير جمهور من الحاضرين. وكانت قافية « السمط » إيذاناً للجمهور بأن يشتركوا مع المغني في إنشاد « المركز ».

أما الموشح الذي كان المستشرق الالماني « هارتمن » ممن توفر على دراسته في بحث ظهر له سنة ١٨٩٧، فقد استنبطه مقدم بن معافر الفريري. وكان أعمى. وسيرة مقدم هذا فكادت تكون مجهولة. فلم يصلنا من أخباره إلا النزر القليل. ولم يلبث الموشح أن ذاع واشتهر وتناوله كثيرون من الشعراء فنظموا فيه، ومن هؤلاء : ابن عبد ربه، صاحب « العقد الفريد ». وعبادة القزاز والأعمى الطليطلي وابن شهيد. وابن بقي، وابن بكر الأبيض، وأبو بكر بن باجة. وابن سهل. وابن الخطيب. وابن زمرك. وانتقل في أوائل عهده إلى الشرق، فكان من أوائل المبرزين فيه : ابن سناء الملك : ويعتبر الموشح وسطا بين الشعر الاتباعي العربي ــ أي القصيدة ــ وبين الزجل. لأن الشاعر يلتزم فيه اللغة الفصحى، أما الزجل فينظم بالعامية. وقد استحدثه أبو بكر بن قزمان. ولم يلبث الزجل أيضاً أن اشتهر وذاع في سائر البلاد العربية حتى قال ابن سعيد : إن أزجال ابن قزمان رويت ببغداد أكثر مما رويت في حواضر المغرب وكان محيي الدين بن عربي ــ وهو أندلسي ولد بأشبيلية وتوفي بدمشق حيث دفن فيها وقبره هناك معروف ــ أول من استخدم الزجل في نظم الأوراد والأناشيد الصوفية. وكذلك نجد في الشعر العبري في ذلك العهد نوعاً ينظم على طريقة الزجل العربي وأخذ غليوم التاسع « دوق أكيتانيا » الزجل ونظم على غراره باللغة البروفنسية.

ولا نعرف كثيراً عن سيرة ابن قزمان صاحب فن الزجل. ويجب أن نعتمد على ديوانه في ذلك. وهو لم يكن عربياً خالصاً بل من طبقة المولدين وله عم عرف باسمه، وكان مثله شاعراً. وكثيرون خلطوا بين الاثنين فقالوا إنه ولد في أوائل القرن الخامس الهجري فإذا صح ذلك كانت حياة ابن قزمان قد طالت مائة وأربعين سنة. أما الحقيقة فانه ولد بعد معركة « الزلاقة » بقليل أي في نحو سنة ١٠٨٦م ٤٨٠هـ بمدينة قرطبة، وطاف بأشهر مدن الأندلس فزار اشبيلية وغرناطة واتصل

بأمرائها وتوفي في سنة ١١٥٩ــ٥٥٣هـ، وكان يعرف اللغتين العربية والرومانية. وقد نظم في صباه الشعر العربي على الطريقة الاتباعية، ثم لم يلبث أن صدف عنه الى الزجل الذي استنبط طريقة نظمه، وقد أشار إلى ذلك ابن سعيد وابن خلدون وغيرهما، وقيل فيه انه عمد إلى طريقة لا يمازحه فيها أحد من شعراء عصره.

أما ديوانه فوصلت منه إلينا نسخة واحدة كتبت بمدينة صفد بفلسطين في القرن الثامن الهجري، هي محفوظة بمكتبة لينتجراد. وقد توفر على نشرها في سنة ١٩٣٣ تشيكي ضليع باللغة الرومانية يدعى « نيكل » ولكنه نقل الأزجال كما وجدها في النسخة الخطية، وهي رديئة الخط كثيرة الأخطاء، دون أن يعنى بتصحيحها فجاءت فيها مقطوعات مبهمة غير واضحة المعاني. فانبرى لها المستشرق « كولان » فاصلح أخطاءها وقوم ألفاظها حتى وضحت معانيها إلا فيما ندر، وبذلك سهلت دارسة الديوان من ناحية اللغة على الباحثين، وهم حفيون بأزجال ابن قزمان، حريصون على تمحيصها ودرسها، هذا من حيث اللغة، أما من ناحية قيمة الديوان الشعرية فتظهر واضحة قوية من أشعاره نفسها، وقد تناول فيها ابن قزمان موضوعات كثيرة، وصور نفسه تارة حسن المعاشرة يشرب الخمر ويغازل النساء، وطوراً أفاقاً فقيراً كثير الاسفار للتكسب وطلب الرزق. ويبلغ عدد قصائد الديوان ١٤٩ قصيدة تختلف في شكلها، أكثرها منظوم على طريقة الزجل المعروفة، أي أن المركز يدل على موضوع القصيدة، ثم يتناول الشاعر هذا الموضوع في المقطوعات التالية.

أما موضوعاته فمختلفة أيضاً. وثلثا قصائد الديوان في المدح؛ جرى فيها الشاعر الزجال على طريقة الشعر العربي من حيث استهلالها بالغزل والنسيب، ثم ينتقل إلى المدح. فكان بين الذين أكثر من مدحهم ابن قزمان أبو القاسم أحمد بن حمدين، وأخوه حمد بن حمدين القاضيان بقرطبة. وله تعريض بالمرابطين الذين كانوا يحكمون الأندلس.

وله ثلاثون زجلاً في الغزل وعشرة في الخمر وربما مزج بين الخمر والنسيب، فأطلعنا على أنماط من هزله ونزقه وإدمانه الخمر وبؤسه وفقره. ولكن هذا الشعر أقرب منالاً، وأبرع تصويراً وأكثر دلالة على شخصية صاحبه من غيره من أزجال الديوان، وقد جرى ابن قزمان في خمرياته على طريقة أبي نواس، ولكنه طبع شعره بطابعه الشخصي القوي. وهكذا استطاع هذا الأديب المسلم أن يزيد في ثروة بلاده الفنية، وأن يستحدث فيها فناً جميلاً جديداً، لم يلبث أن اجتاز حدود تلك البلاد إلى الغرب وانتشر فيها كلها. وقد أخذ شيوخ الصوفية وأهل الذكر ينظمون أورادهم وأناشيدهم أزجالاً يضمنونها ألوان الوجد التي اشتهروا بها، وهي لا تقل جمالاً وروعة عن شعر التصوف الذي جرى به بعد ذلك لسان بعض القديسين بأوربا وقد كان ابن عربي أول من نظم الأزجال الصوفية. ثم جرى مجراه كثيرون نذكر منهم الششتري.

ولما استحدث شعراء الأندلس الموشح والزجل في القرن الثالث الهجري كان ذلك تخفيفاً لبناء القصيدة الاتباعي وقيودها في الوزن والقافية. إذ خرجوا به على قيود القافية الواحدة والوزن الواحد، وصاروا يتصرفون في الوزن والقافية معاً. والموشح لا يختلف في أساليب نظمه عن الزجل، إلا أن الشاعر في الأول يستخدم اللغة الفصحى، وفي الثانية ينظم بالعامية، أما في تأليف القصيدة فكلا الفنين يدرجان على نمط واحد من حيث « المركز » و « الأغصان » و « السمط »، وقد وضع الزجل في أصله للغناء وقد أرادوا بنظمه وغنائه إخضاع الشعر للنغم.

وقد تأثر الاسبانيون بطريقة الموشحات العربية الأندلسية وبالزجل وذلك في القرن الثامن الهجري في حين لم يكد يبزغ فجر القرن السادس الهجري حتى أصبح منتشراً بين شعراء « لانجدوك » و « بروفانس » بفرنسا وقد عني « جوليان ريبيرا » الأسباني بدراسة هذا الموضوع ونشر في سنة ١٩١٢ بحثاً قال فيه : إن ظهور هذا النوع من نظم الشعر بفرنسا لم يكن وليد المصادقة، بل علينا أن نبحث عن أصله في الموشح وشعر الزجل العربي، من حيث الإلهام والوزن وتنويع القافية، بعد أن انقضى العهد الذي كان الشعراء فيه ينسجون على منوال الشعر اليوناني اللاتيني. ولا شك في أن الشعر طاف شواطئ البحر المتوسط حتى انتهى إلى أوربا سالكاً طريقه من بلاد اليونان إلى أوربا فاسبانيا، ومنها ـ بواسطة العرب ـ إلى فرنسا.

ومن مؤيدي رأي قيام الصلة بين الزجل العربي بأسبانيا وشعر التروبادور بفرنسا : « نيكل » و « تالجرين » و « روبير بريفو »، وقد نشر هذا الأخير كتاباً في هذا الموضوع ومن معارضيه المستشرق البرتغالي « رودريجيزلابا » الذي قال إن هذا النوع من نظم الشعر كان موجوداً باللغة الرومانية في شبه جزيرة اسبانيا قبل ابن قزمان، ولكنه لم يقدم دليلاً واضحاً على نظريته؛ وكذلك قال بعض المستشرقين الألمان[1] والبحاثة الفرنسي « جابروا » الذي يدعي أن البراهين التي يقدمها مؤيدو الرأي ليست قاطعة للدلالة عليه، ويقول : إن شعر « التروبادور » قد يكون في أوزانه وقوافيه مأخوذاً عن بعض الشعر اللاتيني المستحدث.

---

(١) ينكر الألمان تلك الصلة بين الزجل وشعر « التروبادور »، لأنهم يدعون أن القوط أخذوا طريقة نظمهم للشعر عن قدماء الألمان وأنهم جاءوا بها من ألمانيا.

ولا يخفى « مينندر بيدال » عقيدته بأن طريقة نظم الزجل انتشرت في مقاطعة البروفانس وفي أوربا منذ أخذها غليوم التاسع أمير أكيتانيا عن الأندلسيين. ولكن يلاحظ أن شعراء التروبادور — في أول عهدهم بالنظم على هذه الطريقة — لم يعنوا بنظم « المركز » في مستهل القصيدة وهو اعتراض لا يعترف « منيندز بيدال » بأصالته، لأن المركز وضع في الزجل العربي ليردده الجمهور مع المغني بعد انتهائه من كل مقطوعة. وكان الجمهور كبير العدد باسبانيا؛ أما في مقاطعات فرنسا فقد كان الشاعر (التروبادور) يغني بشعره عادة في القصر أمام الأمير وزوجته وبعض بطانته من نساء ورجال، وهذا جمهور قليل العدد لا يكفي لترديد المركز مع الشاعر بعد كل مقطوعة. على أنه لم يلبث شعراء التروبادور أن استهلوا قصائدهم بالمركز في القرنين السادس والسابع الهجري.

وإذا كان تجانس الأوزان في الزجل العربي وشعر التروبادور الفرنسي وتنظيم القوافي على نمط واحد فيهما لا يقيمان الدليل القاطع في نظر البعض على صلة التجانس بينهما، فإن بعض المستشرقين يرى في الأدلة التاريخية والموضوعية شهادة حاسمة على ذلك.

أما من حيث الموضوع فإن شعراء الزجل العربي وشعراء التروبادور لم يكتفوا بنظم ذلك النوع من الغزل الرقيق الحاشية الذي كانوا يستلهمونه مما أسموه بالعربية « حب المروءة » ذلك الحب الذي أخذه شعراء البروفانس الفرنسية عن اسبانيا الإسلامية، وبسط أصوله ومميزاته ابن حزم في كتابه « طوق الحمامة »، بل إن الفريقين تعديا هذا الحب المجرد إلى الحب الشهواني، وقد خلق شعراء التروبادور حول المرأة نفس الجو الذي خلقه شعراء العرب، وأحاطوها بالأشخاص الذين أحاطها بهم هؤلاء الشعراء، فعندهم أسماء خاصة كالتي عندنا للدلالة على الرقيب والواشي والعذول والحسود. وعند شعراء العربية أن الطاعة من

شروط الهوى، ولهم في ذلك الشيء الكثير. وعند ابن حزم أن من أحب أطاع، وهذا ما نجده عند غليوم التاسع وزمرته ممن أتوا بعده، فهم يخاطبون المعشوقة بقولهم : مولاي و (سيدي) كما كان يفعل شعراء العرب؛ ويحذون حذوهم في مخاطبة المرأة أو التحدث عنها في شعرهم بضمير المذكر، ويصفون مثلهم تباريح الجوى وآلام الحب واللوعة.. ويرى بعض المستشرقين أن كلمة (تروبادور) ــ التي أطلقت على أولئك الشعراء؛ والتي لا يعرف مصدرها في الفرنسية ــ مأخوذة من كلمة « الطرب » العربية لأنهم كانوا يتغنون بشعرهم فكيف نفسر كل هذا الذي أخذه شعراء التروبادور عن العرب، إلا أنهم اتصلوا بهم في أسبانيا في أثناء رحلاتهم إليها فسمعوا أزجالهم وحفظوها وتأثروا بها فنظموا على منوالها ؟!.

وعلى أي حال فان غليوم التاسع هو أول شعراء التروبادور وأول من قلد الأزجال العربية في الشعر البروفانسي؛ وكان يعرف العربية وكان غليوم هذا في عنفوان الشباب عندما رحل إلى الأندلس سنة ١١٠١م ــ ٤٩٤ ورحل إليها مرة أخرى عام ١١٢٠م ٥١١هـ.

ومن أوائل شعراء « التروبادور » : الكونت « دي بواتيه » الفرنسي وكان معاصراً لابن قزمان، وقد اشترك في حملات كثيرة قام بها الفرنج ضد المسلمين في اسبانيا، وكان قبل اشتراكه في هذه الحروب ينظم أشعاراً لا قافية لها تختلف كل الاختلاف عن الأشعار التي نظمها على نسق الأزجال الأندلسية عقب اتصاله بالعرب في الحروب التي اشترك فيها ضدهم. وشعراء « التروبادور » هم الذين وضعوا أسس الشعر الفرنسي وأدخلوا فيه تلك الألوان الغزلية التي نقلوها من زجل ابن قزمان وغيره ومن أشعار العرب في الأندلس. ويقول المؤرخ الانكليزي « جورج كولان »: « إن للاندلسيين موشحات وأزجالاً هي أقرب إلى أن تكون أصل أغاني « التروبادور » التي انتشرت حتى عمت أوربا ».

ويقول نيكلسون في كتابه « تاريخ آداب العرب » : « إن الشعر الأوربي كان قبل اتصال الأوربيين بالعرب شعراً ساذجاً لا قافية له، فلما اتصلوا بعرب الأندلس ظهرت فيه القافية، وسائر الأشعار الأوربية على العموم كانت خالية من القافية، حتى الشعر اليوناني الذي لم تعهد فيه القافية على الرغم من ازدهاره ورقيه منذ القدم ». ويقول المستشرق « ماكيل » : « إن أوزان الشعر الشعبي القديم في إيطاليا ــ كما في أناشيد جاكوبوني وفي أغاني المرافع ــ لا تختلف عن أوزان الشعر العربي الأندلسي »، ويقول الكاتب الايطالي « كيتاني » في كتابه « نصيب الإسلام في تدريج المدنية » : « إن الذي كان لدانتي الشاعر الايطالي من واسع الخيال وجمال التصوير في شعره ليس إلا أثراً لما كان في قرطبة وبغداد من أدب زاهر أيام كانت أوربا تخبط في جهالتها ».

— ٦ —

وقد تأثر الشعراء في اسبانيا وفرنسا وجنوب إيطاليا بالشعر العربي في الأندلس تأثراً كبيراً، وأثر الشعر الأندلسي في الشعر الغنائي، وكان له الفضل في ظهور المقطوعات الشعرية المقفاة التي تحاكي الشعر العربي في أفكاره وأخيلته، والطابع الذي اتسم به الشعر الفرنجي من وصف مناظر الطبيعة وتصوير جمال الحياة لا يختلف عن طابع الشعر الأندلسي مما يشهد أن الأوربيين نهلوا من معين الشعر الأندلسي. يقول « لويس قياردو » في كتابه « تاريخ العرب والبربر في اسبانيا »: كان الشعر الفرنسي على مثال الشعر الاسباني المأخوذ عن الشعر العربي لا عن اليوناني ولا عن الروماني، لأنهم لم يقفوا على هذا ولا ذاك قبل القرن الثامن الهجري حتى يقلدوه.. ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافي عن العرب، وهذه الصناعة جاءتنا من الأندلس عن طريق مرسيليا وطولون مع التجار الأسبان الذي كانوايفدون اليهما ». ويقول « ريرا » الذي

عني بدراسة التراث الإسلامي في أوربا: إن الملاحم القشتالية احتوت ألفاظاً عربية كالغارة والدليل والقاضي والمغفر والطلائع وغيرها مما يثبت أثر الأدب الأندلسي وشعره في صميم هذه الملاحم. وجاء في خطبة للمسيو « لاجير » بمؤتمر المستشرقين في مرسيليا عام ١٨٧٦ : إن العرب تركوا في الأندلس أثراً لا يزالون يذكرون به إلى الآن في العلوم والآداب والفنون، ولقد أخذت عنهم فرنسا كثيراً من ذلك. وقال المؤرخ الأسباني « كوند » : إن من أدب أهل اسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب متأثر به، ولا شك أن الاسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم، ويقول باحث[1] : إن معظم ما جاء به دانتي الشاعر الإيطالي كان قد ألفه قبله محيي الدين العربي، وهذا الشبه لم يقف هنا بل هو شامل للصور والأمثال والاصطلاحات حتى الأساليب الفنية.

---

(١) ١٢٣ التصوف الإسلامي — للطيباوي.

الشعر الأندلسي
بين التجديد والتقليد

يزعم بعض الكتاب أن الأدب الأندلسي أدب تقليدي محض، لم توح به عاطفة، ولم ينبض به إحساس؛ وإنما أهله عالة على المشارقة فيما يقولون وما يفعلون، فما هم بشيء إلا صدى لآثار المشرق وآدابه وأبواق تتجاوب فيها تلك الأصوات المنبعثة من الشام أو العراق، فلا ملكة ولا وجدان، ولا مواهب ولا استقلال، وإنما هي مشاعر تهجع فتعربد الحواس[1].

ويقول أحد أساتذة الجامعة المصرية : « والحق أن تأثر الأدب العربي بالأقاليم كان ضئيلاً، بالرغم من اختلاف هذه الأقاليم وتباينها في الخصائص الجغرافية والمميزات الجنسية والعقلية والشعورية، لأن الأدباء كانوا يخرجون عن حياتهم في أقاليمهم إلى حياة عامة في الأدب العربي، يعيشون فيها على تقليد المثل الأدبية التي خلفها العباسيون، فالأديب حين كان يحاول أن يكتب أو ينظم يريد أن يكون مثل الأدباء العباسيين، فهو يكتب نثراً كنثر ابن المقفع أو الجاحظ أو ابن العميد، وهو ينظم شعراً كشعر البحتري أو أبي تمام أو ابن المعتز أو المتنبي...

---

(١) من مقال للعقاد.

فقد جمد شعراء الأقاليم عند الأزياء الفنية القديمة التي نسجها البحتري وأبو تمام والمتنبي وأبو العلاء... ولعل الأندلس هي أهم الأقاليم في تاريخ الشعر العربي، غير أن من يتعقب الحركة الأدبية هناك يلاحظ أن الشعراء عاشوا على تقليد المشرق في فنونه ومذاهبه الأدبية، فلم تؤسس الأندلس لنفسها نهضة مستقلة. إنما كانت تستمد من بغداد، ولو أنها بدأت حركة مستقلة عقلية لأمكن أن توجد الفوارق بينها وبين غيرها من الأقاليم، ولكنها غرقت إلى آذانها في الثقافة العربية العامة، التي نهضت بها بغداد، وآية ذلك أنها لم تقم بها حركة ترجمة كالتي قامت في العراق، وإن الإنسان ليخيل إليه أن الأندلس كانت تقلد المشرق في جميع نواحي الحياة... ونحن إذا رجعنا إلى نماذج الشعر نفسها وجدنا كثيراً منها يصاغ على أنماط مشرقية خالصة، لا تقتصر على المشابهة في الوزن والروى، بل في كثير من المعاني والأساليب، وكأنما القصيدة كلها ليست إلا تلفيقاً للمواد الفنية التي تركها العباسيون... ولذلك لم يستطع الشعراء أن يتحولوا بالشعر إلى وجهات جديدة، فلم تحدث فيه مناهج أو مذاهب غير تلك المناهج والمذاهب العباسية.. »[1].

— ١ —

كانت الترجمة عملاً أساسياً في الحياة العقلية بالمشرق، فقد نقلت ثقافات الأمم المختلفة التي امتزج العرب بها كل الامتزاج. وأخذوا عنها من الحياة المادية والحياة العقلية ما صبغهم صبغة جديدة في مظاهر حياتهم العامة، من الحضارة والترف والنظم السياسية في الإدارة والحكم، والعادات والتقاليد، وما جدد من ثقافتهم وتفكيرهم وآرائهم

(١) الفن ومذاهبه في الشعر للدكتور شوقي ضيف.

تجديداً واضحاً كان أثره أوسع مدى في الشعر والأدب، فقد صبغت عقلية الفنيين من الأدباء والشعراء بأصباغ جديدة من العمق والدقة والتحليل وطرافة التقسيم والبعد في التفكير والخيال، حتى أصبحنا بإزاء صفات عقلية جديدة متأثرة بالفلسفة والمنطق وعلوم التنجيم والرياضة والحكم ونحوها من ثقافات اليونان والهند والفرس.

وقد تجلت مظاهر هذا كله واضحة جلية في الشعر، ظهرت في جوانبه الحسية، وطرق صياغته، وظهرت كذلك في صياغته الذهنية من تناول الأفكار وتحليلها، وما يحدث فيها من طرافة، وما يشيع من عمق ودقة.

وكانت البيئة إلى هذا ميداناً طليقاً يجيش بالنحل المختلفة والفرق والمذاهب الدينية المتعددة. فكانت هذه كلها عوامل أحدثت هذا التغيير في الطابع المادي والعقلي للفن العربي، وكان الشعر العربي (وهو صورة الحياة) خليقاً بأن يمثلها وأن يتأثر بها.

أما في الأندلس فقد كانت هناك عناصر فينيقية ورومانية وقوطية، ولكن هذه العناصر لم تكن أصحاب تراث علمي أو أدبي حتى يتأثر به العرب، ولو كان لهم شيء من ذلك لما استطاعوا أن يفرضوه على العزة العربية التي احتفظت بكيانها في هذا الإقليم، باعتبارها السلطة الحاكمة القاهرة، فلم يكن لهذه العناصر إذن أثر من ناحية الثقافة أو الأدب في الشعر العربي.

وكذلك كانت هذه البيئة بيئة محافظة واعتزاز، تعتز بكل ما هو عربي، وتتحفظ في عقيدتها وتفكيرها من فنون الفلسفة، وأهواء النحل والعقائد المختلفة، فلم تخرج عن هذا التحفظ إلا شذوذاً، أو حين انحلت رابطتها العربية، وحلت الفوضى، وأبيح ما كان محرماً.

بيد أن الأدب الأندلسي في جملته، أو الأدب الذي نعتد به وهو

ما يصور بيئته، ويصدق في تصويرها، لم يتناول شيئاً من تلك المذاهب أو العقائد أو الفلسفات التي كانت تأباها الأندلس وتنفر منها.

كانت طبيعة الأندلس في جمالها، وحضارتها في عظمتها، خليقتان بأن تلهما الشعراء الوصف، فوصفوا وأبدعوا، وكانت البيئة في عروبتها وتحفظها مؤثرة فيمن تنشئهم من الشعراء، فكانوا مثلاً صادقاً لها. فكيف نطلب منهم إذن أن يصوروا ما لم يحسوا به، وما لم يعتنقوه ؟ وكيف نلزمهم أن يكذبوا على بيئتهم، فيتحدثوا عن المذاهب والنحل والمنطق والفلسفة، وعن مظاهر حياة الفرس والروم والهند.

إن الشعر تعبير جميل عن الشعور الصادق، وقد عبر الشعراء الأندلسيون أجمل تعبير عما يحسونه وما يشعرون به، ولو طالبناهم بأكثر من هذا لخرجوا « عن حياتهم في إقليمهم إلى حياة عامة في الأدب العربي يعيشون فيها على التقليد والمحاكاة » فما هذه المذاهب التي قصروا فيها أو التي تنقصهم؟ إن حمل الشاعر على أن يقول غير ما يفيض به شعوره حمل له على أن يحطم « قيثارة » الشعر، وأن يقول كلاماً لا تفيض به عنده عاطفة. ولا ينبض له به قلب.

— ٢ —

مدى التقليد :

لا شك أن الدولة العربية بالأندلس كانت مناهضة لمثلها بالمشرق فكان من الطبيعي أن ينافسوا في حياتهم السياسية الحياة السياسية في بغداد.

وكان من الطبيعي كذلك أن تستلزم هذه المنافسة السياسية المنافسة في مظاهر الحياة العامة، فهم يطلقون على كثير من بلدانهم أسماء مشرقية، كما أنهم يحفلون بالغناء والموسيقى على نحو ما كان في بلاط الرشيد والمأمون، ويتأثرون في حياتهم العقلية والأدبية بالمشرق،

ولعل هذا كما يقول الرافعي « لأن الأدب العراقي ممتاز بمتانة اللغة لقربه من البادية ولاستفحال الرواية هناك ولكونه أصلاً[1] ».

ولسنا ننكر أن كثيراً من الكتب الأدبية عند الأندلسيين قد صيغ على شكل الكتب الأدبية عند المشارقة.

هذا هو مدى التقليد عند الأندلسيين : منافسة في الملك والسياسة تبعتها المنافسة في مظاهر هذا الملك وما يستلزمه من الحياة العلمية والأدبية، وهذا ما عناه ابن بسام حين يقول : « إلا أن أهل هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة؛ حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طنَّ بأقصى الشام أو العراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتاباً محكماً »[2]. أما الشعر فإنه لم يقصده كما زعم الزاعمون، فهو يقول قبل هذه الفقرة في وصف أهل أفقه « لعبوا بأطراف الكلام المشقق لعب الدجى بجفون المؤرق، وحدوا بفنون السحر المنمق حداء الأعشى ببنات المحلق، نثر لو رآه البديع لنسي اسمه، ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح، أو تتبعه جرول ما عوى ولا نبح ». ويقول بعد ذلك : « إنهم رءوس شعر وكتابة، تدفقوا فأنسوا البحور، وأشرقوا فباروا الشموس والبدور »[3].

فمن زعم أن شعر الأندلسيين ــ ككل مظاهر حياتهم ــ يغيب في سواد التقليد، ويدخل في شعر الأقاليم الأخرى، بحيث يشتبه النسيج، وتلتحم الديباجة، فهو لا يعرف الشعر إلا بأوزانه، ولا يميز غير ظاهره، فإن للشعر بنوع خاص دون سائر العلوم والمعارف « روحاً كروح

---

(١) تاريخ الأدب العربي للرافعي جـ ٣ــ٢٦٢.

(٢) الذخيرة جـ ١ــ٢.

(٣) الذخيرة جـ ٢ــ٣.

الإنسان تستوي مع الجنس كله في جملة الأخلاق، وتختلف في مفرداتها، حتى لقد يجد اللبيب الحاذق من التفاوت بين أنواع الأشعار، إذا هو استقرأها، وتقصص تواريخ أصحابها، ما يصح أن يخرج منه علم يسمى علم الفراسة الشعرية »[1].

الشعر ملكة طبيعية لا تتأتى بالمحاكاة، وموهبة من المواهب التي لا يختص الله بها جيلاً دون جيل، ولا إقليماً دون إقليم، فحيث جرت مع الدم في جسم صاحبها، ونبض بها حسه، وتفتحت لها نفسه، انطلق كالطائر الغرد، يصدر عنه الشعر دون تكلف، كما لا بد لابن الدوح أن يترنم.

ثم إن معظم الشعراء الاندلسيين عرب جرى الشعر في دمائهم؛ وهاجر معهم إلى هذه الجزيرة، وأية بيئة أصلح للتغريد من الأندلس ؟ وأي روض يبعث على الشعر أجمل من رياض الأندلس ؟ لقد كانت آفاقها العاطرة؛ ومغانيها الزاهرة، وحضاراتها الساحرة، جمالاً يهز المشاعر، ويوقظ العواطف، وينبه غافي الحس، ويحرك خواطر النفس ــ وكانت (الظروف) التي تحيط بالشعراء ككل (الظروف) التي تحيط بهم في كل أرض وكل إقليم، فلو أنهم عاشوا في عزلة تامة عن المشارقة، فهل نستطيع أن نحرمهم عاطفة الحب مثلاً وهي عاطفة يوحي بها الطبع، وتدعو إليها حرارة الشباب، فلا يكون الغزل غرضاً من أغراضهم ؟ أو هل نستطيع أن نغفل إحساسهم بمظاهر الجمال التي يشعرون بها في هذا الأفق ؟ هل تمنعهم من المدح وهو أمر تقتضيه الحياة؛ وتدعو إليه صلة الشعراء بالملوك ؟ وهل نكذب شاعراً كابن زيدون مثلاً في إحساسه بالحب، أو شعوره بألم السجن، ونقول إنه مقلد لأن في المشارقة من أحب فعبر عن الحب، ومن سجن فصور ظلمة السجن ؟.

(١) تاريخ الأدب العربي للرافعي جـ ٣ــ٣١١.

الحق أن الشعر من حيث هو شعور النفس، وأغنية الحس، موهبة طليقة، لا يحدها زمان ولا مكان، ومن أولى من الأندلسيين به وبيئتهم هي في نفسها معاني الشعر وينبوعه ؟.

يقول ياقوت في الحديث عن مدينة (شلب) : وسمعت ممن لا أحصى أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول الشعر، ولا يعاني الأدب، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه، وأي معنى طلبت منه[1]، فهل كان ذلك الفلاح متأثراً في هذا بالمشارقة أم هو الإحساس الطبيعي في نفسه، والدافع الغريزي في دمه ؟.

يقول ستانلي بول : « ويظهر أن العالم الإسلامي اتجه بروحانيته إلى آلهة الفنون، فمن الخليفة في عرشه إلى النوتي في سفينته. كنت تسمع النظم الفائق في مشاهد الأندلس، وجمال مدنها، ثم في روعة خرير الأنهار وسحر الليل الساجي وقد هدأت فيه النجوم؛ ثم في نشوة الحب والخمر ومجتمع الأنس، وقد اختلس المحب ساعة لقاء بفاتنته التي ترمي بقوس حاجبها القلوب »[2].

يقول المعتمد بن عباد في محنته المفجعة، وقد كتب للوزير أبي العلاء زهر ليعالج زوجته، فكتب له الوزير بالإجابة، ودعا له بطول البقاء :

دعاك لي بالبقاء وكيف يهوى ... أسير أن يطول به البقاء
أليس الموت أروح من حياة ... يطول على الشقيّ بها الشقاء
أأرغب أن أعيش أرى بناتي ... عواري قد أضر بها الحفاء
خوادم بنت من قد كان أعلى ... مراتبه إذا يبدو النداء
ولكن الدعاء إذا دعاه ... ضمير مخلص نفع الدعاء

---

(١) الحلل السندسية لشكيب أرسلان حـ ١ ص ٢٢١.

(٢) قصة العرب في أسبانيا ترجمة الجارم.

ما أمرّ الذلة بعد العز، وما أقسى الشقاء بعد النعيم، لقد عرف المعتمد كيف يصدع القلوب بأناته الكسيرة، وكيف أن الألم يفجر ينابيع النفس بالكلام، وهاك منظراً آخر أشد ألماً ولوعة.. دخل عليه وهو في تلك الحال ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه عض الأسود، وهو لا يطيق إعمال قدم، ولا يريق دمعاً إلا ممزوجاً بدم فلما رآه بكى وقال :

قيدي أما تعلمني مسلماً ... أبيت أن تشفق أو ترحما
دمي شراب لك واللحم قد ... أكلته لا تهشم الأعظما
يبصرني فيك أبو هاشم ... فينثني القلب قد هشما
ارحم طفيلاً طائشاً لبه ... لم يخش أن يأتيك مسترحما
وارحم أخيات له مثله ... جرعتهم السم والعلقما

أليست هذه نفس شاعر عرف كيف يعبر عما يجول في نفسه من المعاني، ويصف آلامه وأحزانه بلا تكلف أو تعمل ؟ وهل كان يقلد في هذا الأحساس، أو يكذب في هذا الشعور ؟ لقد برح به الألم فأنطقه هذا الشعر وأذله القيد، فسكب تلك الدموع، ونحن في هذا المقام إنما ندلل فقط على صدق الأحساس وصحة الشعور، وقد تم لنا هذا في شعر المعتمد، بقطع النظر عن (بساطة) التعبير ولين الأداء.

— ٣ —

القوافي والأوزان :

وعجيب أمر هؤلاء الواهمين، حين يتعلقون بالقشور، ويستندون إلى المظاهر. وأعجب العجب أن يتحكموا في القوافي والأوزان، فيحاولون أن يقصروها على فريق من الشعراء دون فريق، ولو كان الأمر أمرهم لوقف الشعر العربي عند العصر الجاهلي، لأن الشعراء الجاهليين قد

استنفدوا الأوزان والقوافي فلا يصح لشاعر أن ينظم بعدهم.

فهم يقولون إن كثيراً من قصائد الأندلسيين قد صيغ على نمط القصائد المشرقية.

ويقصدون بالنمط التقليد في كل شيء في القصيدة تبعاً للتقليد في الوزن والرويّ، حتى لو كان الغرض مختلفاً، والمعاني متباينة، فهم يكتفون بالنظرة العجلى التي تقع على نوع البحر والرويّ، ليحكموا على كل عناصر القصيدة بالتقليد.

ولو أننا قلبنا دواوين الشعراء منذ وجد الشعر لوجدنا الكثير من هذه المشابهات في الوزن والرويّ، إما عن غير قصد فتكون عفواً ومن حق الشاعر، أو عن قصد فتكون معارضة ومنافسة يعتد بها الشاعر ويفخر، لا محاكاة أو تقليداً.

والحق أن الشعر لا يقاس بالوزن ولا بالروي. فإن البحور والقوافي ملك الشعراء جميعاً، وإنما الشأن للصياغة والمعنى والشعور.

ولو كان الأندلسيون جامدين على التقليد، واقفين عند حدوده، لما أحدثوا هذا الحدث الجديد في الأوزان الشعرية؛ فقد عاشت الأندلس في ترف أحدث عندها اهتماماً بشعر الطبيعة، كما أحدث عندها نهضة واسعة في الغناء، نشأت مع رحيل زرياب وغيره من أمثال فضل وعلم وقلم، وقمر والعجفاء[1]. فشاع الغناء وشاعت الموسيقى؛ وكثر المغنون والمغنيات، فأحدث ذلك في الشعر تلك الموشحات والأزجال، لأن أوزانها أحفل بالتلحين من الأوزان المعروفة، وبذلك استطاعوا أن يتجاوبوا مع بيئتهم، وما كان فيها من ترف ولذة ونعيم، فقد كان منهم من ينظم ويلحن ويغني كأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأشبيلي المتوفى

---

(١) نفح الطيب جـ ٢ــ ٧٥٨.

سنة ٥٢٣هـ؛ وهو الذي لحن الأغاني الأفريقية[1]، وكالفيلسوف أبي بكر بن باجه الغرناطي صاحب كتاب الموسيقى وغيرها.

وهكذا كانت عنايتهم بالألحان واختراع الأوزان المناسبة لها، بما أوتوه من لطف ذوق، ورهافة حس، وهذه الألحان هي التي جعلت شعرهم ــ كما يقول الرافعي ــ كأنه نفوس تقطر أو تسيل.

— ٤ —

المعاني :

ويعودون إلى المعاني فيعيبون الأندلسيين في تناولهم معاني السابقين من الشعراء، ونحن نعلم أن أمرأ القيس كان يبكي كما بكى ابن خذام، وأن زهيراً كان يرى أن الشعراء لا يقولون إلا المعار، وأن عنترة كان يعترف بأن الشعراء لم يغادروا من متردم، وإذن فتداول المعاني بين الشعراء أمر ليس بالجديد ولا بالغريب. وقد نشأ عن هذا التداول ذلك البحث الواسع الذي نجده في كتب النقد العربي، ونجد النقاد يحسون بأن هذا الجانب ضروري في الشعر، حتى إن صاحب الصناعتين يقول : « ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تداول المعاني ممن تقدمهم، والصب على قوالبهم[2] » ويقول الجاحظ، « نظرنا في الشعر القديم والحديث فوجدنا المعاني تقلب ويؤخذ بعضها من بعض » « ولا يعلم في الأرض شاعر متقدم في تشبيه مصيب، أو معنى غريب، إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده إن هو لم يقدر على لفظه فيسرقه أو يدعيه، فإنه لا بد أن يستعين بالمعنى[3] ».

---

(١) النفح جـ ١ــ٢٧٢.

(٢) ص ١٨٣.

(٣) الحيوان جـ ٣ــ٩٦.

وعلى هذا تداول الشعراء المعاني من قديم الزمان.

ولست أطيل في هذا النوع من التداول الذي لا يحدث جديداً في المعنى أو تحويراً فيه، وإنما أريد أن أعرض لنوع آخر مهما اتسم به بعض الشعراء، فإنه كان السمة العامة للمعاني الأندلسية، ذلك هو عرض المعنى في ثوب جديد، والتأنق في رسمه وتلوينه، حتى إنك لتنسى أصله وتحسبه معنى جديداً، وإحساساً طريفاً. فهم يأخذونه بالتحوير أو النقص أو الزيادة أو الشرح، حتى تحس بشخصيتهم فيه واضحة جلية، وتعترف لهم بالتجديد في هذا التصرف وماذا نطلب منهم غير ذلك ؟

يقول امرؤ القيس :

سموت إليها بعد أن نام أهلها   سمو حباب الماء حالاً على حال

فيقصر عنه ابن أبي ربيعة، ولا يسمو هذا السمو حيث يقول :

ونفضت عني النوم أقبلت مشية الـ   ـحباب وركني خيفة القوم أزور

وأنشد بعضهم لأبي دهيل الجحمي :

قالت لقد أعييتنا حجة   فأت إذا ما هجع السامر

واسقط علينا سقوط الندى   ليلة لا ناه ولا زاجر

ومع أن قوله (كسقوط الندى) في غاية الجمال، إلا أن الندى مع لطفه وصفائه ورقته قد يوقظ السامر الهاجع، كما أزعجه (حباب) ابن أبي ربيعة فانظر إلى ابن شهيد الأندلسي كيف يتلطف في التوصل، فيدب دبيب الكرى الذي لا يحس ويسمو سمو النفس الذي لا يرى :

ولما تملأ من سكره   ونام ونامت عيون العسس

دنوت إليه على بعده   دنو رفيق درى ما التمس

أدب إليه دبيب الكرى   وأسمو إليه سمو النفس

ويقول أبو نواس :

عرضن للذي تحب بحب ثـم دعـه يروضـه إبليس

فيوجه ابن حزم هذا المعنى توجيهاً حسناً في طريق الخير، شارحاً ومعللاً :

أبن قول وجه الحق في نفس سامع ودعه فنور الحق يسري ويشرق
سيؤنسـه رفقـا فينسـى نفـاره كما نسي القيد الموثـق مطلـق

ويقول أبو العلاء في ذكر السيف :

ودبت فوقه حمر المنايا ولكن بعدما مسخت نمالا

فينقله ابن وهبون الأندلسي إلى وصف العذار حيث يقول :

ومعذريـن كأنمـا بخدودهـم طـرق العيـون ومنهـج الأرواح
وكأنما صقلوا الجمال وأظهروا مشي النمال على متون صفـاح

ويقول ابن الرومي :

تأمـل العيـن منهـا محاسناً لـيس تنفـد

فلا يفيد أن العين أدامت النظر حتى تتحقق من عدم نفاد المحاسن. ويقول أبو نواس :

يزيـدك وجهـه حسنـاً إذا مـا زدتـه نظـرا

فلا تفهمنا (إذا) تكرار النظر والتفنن فيه لإدراك المحاسن المتجددة. وكلا البيتين يفيد أن المحاسن على كثرتها لا تستعصي على النظر؛ ولا يصعب عليه استيفاؤها وملاحقتها. ولكن ابن زيدون يدق في هذا المعنى، حتى يرينا الحسن ألواناً وأفانين تقصر عنها ألوان النظر وأفانينه فلا يلاحقها خطوة خطوة كما في بيت أبي نواس، بل يكل فيقف في الطريق :

حسن أفانين لم تستوف أعيننا غاياتـه بأفانيـن مـن النظـر

ولم يفت الأندلسين أنفسهم أن يتلاعب بعضهم بمعاني بعض، كما

قال ابن وهبون في أمرد التحى :

دعوت دعاء مظلوم عليه وكان الله مستمعاً مجيباً
فطوقه الزمان بما جناه وعلق في عذاريه الذنوبا

فقال أبو بكر الداني :

وليس ذاك العذار شعرا لكنما سره عجيب
لما أرق الدماء ظلما بدت على خده الذنوب

وهكذا كان حسن التعليل والتفنن والإبداع فيه والإكثار منه سمة من سماتهم، وباباً من أبواب تجديدهم في المعاني وافتنانهم في التشبيهات، وإمعانهم في الخيال. قال ابن سارة الشنتريني :

لم يكس عارضه السواد وإنما نثرت عليه سوادها الأحداق

وقال ابن حمديس يصف نهراً :

جريح بأطراف الحصى كلما جرى عليه شكا أوجاعه بخريره

وكثيراً ما يعمدون إلى التشبيه العادي المكرور، فيضفون عليه أزياء جديدة تريكه جديداً طريفاً.

على أن طبيعتهم الجميلة أبت عليهم حين وصفوها أن تلبس ما خلفه الشعراء من قديم المعاني، مهما أبدعوا في تخطيطها وتجديدها، فألهمتهم من حسنها البكر معاني عذراء، يقول ابن عمار :

روض كأن النهر فيه معصم صاف أطل على رداء أخضرا

ويقول ابن خفاجة في مثل هذا النهر :

متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكنفه مجر سماء
وغدت تحف به الغصون كأنها هُدبٌ تحف بمقلة زرقاء

ويقول أبو بكر الداني في (ميورقه) :

بلد أعارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشه الطاووس
فكأنما الأنهار فيه مدامة وكأن ساحات الديار كؤوس

وقال الأعمى التطيلي يصف أسداً يمج ماء في فمه:

أســد ولــو أنــي أنــا قشه الحساب لقلب صخرة
وكأنــه أســد السمــا ء يمج مـن فيـه المجـرة

ويقول ابن خفاجة في وصف نهر:

وأدهـم مـن جياد المـاء نهـر ينــازع جلـه ريـح رخــاء
إذا بدت الكواكب فيه غرقى رأيت المـاء تحسـده السمـاء

ومن مظاهر التحرر لشعر الطبيعة في الأندلس ما رأيت من الفتنة بالبحر والتفنن في أوصاف المياه، كما أن النزعة القصصية التي امتازت بها الأندلس في الأدب تظهر بوضوح في شعر الطبيعة، ومن ذلك صورة السفرجلة في شعر جعفر بن محمد المصحفي، فهذه الصورة عبارة عن تاريخ حياة السفرجلة، منذ كانت تختال على شجرتها بألوانها وريحها وروحها إلى أن ذبلت في كف الشاعر. يقول:

ومصفرة تختال في ثوب نرجس وتعبق عن مسك ذكي التنفس
لهـا ريـح محبـوب وقـوة قلبـه ولون محب حلة السقم مكتسي
فلما استتمت في القضيب شبابها وحاكت لها الأوراق أثواب سندس
مددت يدي باللطف أبغي اجتناءها لأجعلها ريحانتي وسط مجلسي
فبزت يدي غصباً لها ثوب جسمها وأعربتها باللطف من كل ملبس
ذكرت بها من لا أبوح بذكره فأذبلها في الكف حرّ التنفس

— ٥ —

وأخيراً نستطيع أن نقول إن للأندلسيين شخصية واضحة في شعرهم، استمدوها من بيئتهم، وتجاوبوا فيها مع طبيعة بلادهم، التي كانت مصدر إلهامهم، وأفق خيالهم، فقد صفت أذهانهم، وسما وجدانهم، وعذب بيانهم، فهذبوا الشعر وتأنقوا في ألفاظه، وتصرفوا في معانيه، ونوعوا

في قوافيه، وتفننوا في خياله، ودبجوه تدبيج الزهر، وسلسلوه سلسلة النهر، وأكثروا من نظمه في البحور الخفيفة القصيرة.

وليس يعيبهم تناول المعاني القديمة في شعرهم، فقد لونوها تلويناً يصور بيئتهم، وأبرزوا بالتجديد فيها شخصيتهم، وليس الفن في الإبداع والاختراع بقدر ما هو في حسن التأليف ودقة الانسجام، وإنما يمتاز الشاعر على الشاعر، إذا اشتركا في معنى، بما يبدعه أحدهما من الألوان، وما يوفق إليه من التعبير عن ظلال المعاني ودقائقها.

ولقد شهد المستشرق الإنجليزي (نيكلسون) للشعر الأندلسي وما فيه من وجدان رقيق، وتلوين للإحساس يجعله جديداً حيث يقول: « ولعل أمتع ميزات الشعر الأسباني هي ذلك الوجدان العاطفي الرقيق الذي يندر وجود مثله في النسيب، والذي ظهر كثيراً في أغانيهم عن الحب، وهو وجدان لا يقتصر على تصوير فروسية القرون الوسطى، بل يتخطى ذلك إلى حد أن تحسبه جديداً بمحاسن الطبيعة التي جملته »[1].

والحق أن الشعر الأندلسي كما يقول الرافعي « يمتاز بتجسيم الخيال النحيف، وإحاطته بالمعاني المبتكرة التي توحي بها الحضارة، والتصرف في أرق فنون القول، واختيار الألفاظ التي تكون مادة لتصوير الطبيعة، وإيداعها في جمل وعبارات تخرج بطبيعتها كأنها التوقيع الموسيقي، بل هي تحمل على التلحين، بما فيها من الرقة والرنين، ولا يشاركهم في ذلك إلا من ينزع منزعهم ويتكلف أسلوبهم، لأن جزالة اللفظ في شعرهم إنما هي روعة مواقعه، وحلاوة ارتباطه بسائر أجزاء الجملة،

---

(١) نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٤٠ وقد توفي المستشرق المذكور في نهاية هذه الحرب العالمية وكان حجة في تاريخ التصوف الإسلامي وكتابه في تاريخ الأدب العربي مشهور.

وتلك فلسفة الجزالة ومن أجل ذلك أحكموا التشبيه، وبرعوا في الوصف، لأنهما عنصران لازمان في تركيب هذه الفلسفة الروحية التي هي الشعر الطبيعي »[1].

بحسب الشعراء الأندلسيين أنهم عبروا عن عواطفهم، وترجموا عن مشاعرهم، وتغنوا بالطبيعة، وشدوا بالحب، وكل ذلك في حلاوة لفظ وطريف معنى، ورقة أسلوب، ودقة صنعة.. وبحسب الأدب العربي ما كان لهم من الفضل في إدانة الأدب الغربي له، واستمداده منه، وتأثره به، حتى قال قائلهم : « كانت أشعار شعراء جنوب فرنسا خلواً من القافية، فاقتبسوها من عرب الأندلس، بطبيعة الجوار والخلاط، كما اقتبسوا في النظم أنواع الغزل والمدح والهجاء »[2].

وقال لويس فياردو : « كان الشعر الفرنسي على مثال الشعر الأسباني المأخوذ عن الشعر العربي لا عن اليوناني ولا عن الروماني، ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافي عن العرب »[3]

ويقول استانلي بول : « أما الأدب العربي فإن أوربا لم تر في عهد من عهودها حفاوة بالأدب وأهله كما رأت في الأندلس، حين كان الناس من كل طبقة ينظمون الشعر، ويظن أن هذا الشعر هو الذي أوحى للشعراء المغنين بأسبانيا بأناشيدهم القصصية وأغانيهم، وهو الذي حاكاه شعراء (بروفانس وإيطاليا) »[4].

والمسيو كور ناشر ديوان ابن زيدون وجارثيا جوميز مترجم قصائده إلى الشعر الأسباني يريان « أن ابن زيدون وأترابه الأصل البعيد لشعر

---

(١) تاريخ الأدب للرافعي جـ ٣ـــ٣١١.
(٢) تاريخ الأدب للزيات ص ٣١٠.
(٣) ترجمة الزيات في كتابه المذكور ص ٣١٠.
(٤) قصة العرب في أسبانيا ص ١٣٣.

هؤلاء المغنين الجوالين (التروبادور) لأن فيها وقاراً وتسامياً يقربانها من الحب المحتشم الذي يشيع في الأشعار التي ذاعت في جنوبي أوربا منذ القرن الثاني عشر »[1].

(١) مجلة الثقافة يناير سنة ١٩٤٦.

الفصل الثاني

صور من الشعر الأندلسي

١ ــ قال ابن زيدون متغزلاً في ولادة بنت المستكفي :

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا ... والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا[1]

وللنسيم اعتلال في أصائله ... كأنما رق لي فاعتل إشفاقا[2]

والروض عن مائه الفضي مبتسم ... كما حللت عن اللبات أطواقا[3]

يوم كأيام لذات لنا انصرمت ... بتنا لها ــ حين نام الدهر ــ سراقا

نلهو بما يستميل العين من زهر ... جال الندى فيه حتى مال أعناقا

كأن أعينه إذ عاينت أرقي ... بكت لما بي فجال الدمع رقراقا

ورد تألق في ضاحي منابته ... فازداد منه الضحى في العين إشراقا

سرى ينافحه نيلوفر عبق ... وسنان نبه منه الصبح إشراقا

كل يهيج لنا ذكرى تشوقنا ... إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا

لو كان وفى المنى في جمعنا بكم ... لكان من أكرم الأيام أخلاقا

لا أسكن الله قلباً عقَّ ذكركم ... فلم يطر بجناح الشوق خفاقا

---

(١) طلق الوجه : ضاحكه مشرقه، واليوم الطلق الوجه : هو الذي ليس بحار ولا بارد.

(٢) اعتل النسيم : هدأ ولم يشتد، والأصائل : جمع أصيل وهو الوقت قرب الغروب.

(٣) اللبة : موضع القلادة من العنق.

لو شاء حملي نسيم الريح حين هفا وافاكم بفتى أضناه ما لاقا
كان التجاري بمحض الود من زمن ميدان أنس جرينا فيه اطلاقا
فالآن أحمد ما كنا لعهدكم سلوتم وبقينا نحن عشاقا

٢ ــ وقال أبو زيد عبد الرحمن بن مقاتاة الأشبوني يمدح إدريس ابن يحيى أمير غرناطة بعد سنة ٤٣٤ هـ وكان إدريس من ملوك الطوائف:

أَلِبَرْقٍ لائحٍ من أندرين ذرفت عيناك بالدمع المعين؟
لعبت أسيافه عارية كمخاريق بأيدي اللاعبين
ولصوت الرعد زجر وحنين ولقلبي زفرات وأنين
وأناجي في الدجى عاذلتي ويك لا أسمع قول العاذلين
عيرتني بسقام وضنى إن هذين لدين العاشقين
قد بدا لي وضح الصبح المبين فاسقنيها قبل تكبير الأذين
واسقنيها مزة مشمولة لبثت في دنها بضع سنين
مع فتيان كرام نجب يتهادين رياحين المجون
شربوا الراح على خد رشا نور الورد به والياسمين
وجلت آياته عامدة سبج الشعر على عاج الجبين
يتساقون إذا ما شربوا بأباريق وكأس من معين
وكأن الشمس لما أشرقت فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه إدريس بن يحيى بن علـ ـي بن حمود أمير المؤمنين
ملك ذو شيبة لكنه خاشع لله رب العالمين
خط بالمسك على أبوابه ادخلوها بسلام آمنين
فاذا ما رفعت راياته حفقت بين جناحي جبرائين
وإذا أشكل خطب معضل صدع الشك بمصباح اليقين
فبيسراه يسار المعسرين وبيمناه لواء السابقين
يا بني أحمد يا خير الورى لأبيكم كان وفد المعتفين
نزل الوحي عليه فاحتبى في الدجى فوقهم الروح الأمين

خلقوا من ماء عدل وتقى   وجميع الناس من ماء وطين
انظرونا نقتبس من نوركم   إنه من نور رب العالمين

٣ ــ وقال الداخل من أبيات بعث بها إلى أخته بالشام :

أيها الراكب الميمم أرضي   أقر من بعضي السلام لبعضي
إن جسمي كما علمت بأرض   وفؤادي وساكنيه بأرض
قدر البين بيننا فافترقنا   وطوى البين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالفراق علينا   فعسى باجتماعنا سوف يقضي !

٤ ــ وقال عبد الرحمن الداخل يخاطب نخلة :

يا نخل ! أنت فريدة مثلي   في الأرض، نائية عن الأهل
تبكي، وهل تبكي مكممة   عجماء، لم تجبل على جبلي !
ولو انها عقلت، إذن لبكت   ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها حرمت، وأخرجني   بغضي بني العباس عن أهلي

٥ ــ وقال كذلك :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة   تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : « شبيهي في التغرب والنوى   وطول ابتعادي عن بني وعن أهلي »
نشأت بأرض أنت فيها غريبة   فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المزن في المنتأى الذي   يسح ويستمري السماكين بالوبل

٦ ــ وقال الداخل أيضاً :

لا يلف ممتن علينا، قائل :   لولاي ما ملك الأنام الداخل
سعدي، وحزمي، والمهند، والقنا   ومقادر بلغت، وحال حائل
إن الملوك مع الزمان كواكب   نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم ألا يغفلوا   أيروم تدبير البرية غافل ؟
ويقول قوم : « سعده لا عقله »   خير السعادة ما حماه العاقل !
أبني أمية : قد جبرنا صدعكم   بالغرب رغماً، والسعود قبائل
ما دام من نسلي إمام قائم   فالملك فيكم ثابت متواصل

٧ ـــ وقال أيضاً :

شتان من قام ذا امتعاض منتضي الشفرتين نصلا
فجاب قفراً وشق بحراً مسامياً لجة ومحلا
دبر ملكاً، وشاد عزاً ومنبراً للخطاب فصلا
وجند الجند حين أودى ومصر المصر حين أخلى
ثم دعا أهله إليه حيث انتأوا : أن هلم أهلا !
فجاء هذا طريد جوع شديد روع، يخاف قتلا
فنال أمنا، ونال شبعاً ونال مالاً، ونال أهلا
ألم يكن حق ذا علي ذا أعظم من منعم ومولى

٨ ـــ وكان عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ ـــ ٢٣٨هـ)، كثير الولد أعقب مائة وخمسين من الذكور وخمسين من الأناث، فقيهاً فيلسوفاً شاعراً، كتب مرة إلى طروب وهو في جليقية يغزو :

عداني عنك مزار العدا وقودي إليهم سهاماً مصيبا
فكم قد تخطيت من سبسب ولاقيت بعد دروب دروبا
ألاقي بوجهي سموم الهجيـ ـر إذ كاد منه الحصى أن يذوبا
تدارك بي الله دين الهدى فأحييته وأمت الصليبا
وسرت إلى الشرك في جحفل ملأت الحزون به والسهوبا

٩ ـــ وقال عبدالله بن محمد الحاكم الأموي (٢٧٥ـــ٣٠٠) :

يا مهجة المشتاق ما أوجعك ويا أسير الحب ما أخشعك
ويا رسول العين من لحظها بالرد والتبليغ ما أسرعك
تذهب بالسر فتأتي به في مجلس يخفى على من معك
كم حاجة أنجزت إبرازها تبارك الرحمن ما أطوعك

١٠ ـــ وقال في صباه :

ويحي على شادن كحيل في مثله يخلع العذار
كأنما وجنتاه ورد خالطه النور والبهار

قضـيب بـان إذا تثنـى يدير طرفا بـه احـورار
فصفـو ودي عليـه وقـف مـا اطـرد الليـل والنهـار

١١ ــ وقال:
يـا مـن يراوعـه الأجـل حتـام يلهـيك الأمـل !
حتـام لا تخشـى الـردى وكأنـه بك قـد نـزل !
أغفـلت عـن طـلب النجـا ة ولا نجاة لمـن غفـل !
هيهـات تشغـلك المنـى عمـن ليـومك يشتغـل

١٢ ــ وقال :
أرى الدنيا تصير إلى فناء وما فيها لشيء من بقاء
فبـادر بالإنابـة غيـر وان على شيء يصير إلى عفاء
كأنك قد حملت على سرير وغيب حسن وجهك في الهباء
فنافس في التقى واجنح إليه لعلك ترضين رب السماء

١٣ ــ ويقول صاحب نفح الطيب : « لما استوزر باديس، صاحب غرناطة اليهودي الشهير بابن نغذلة، وأعضل داؤه المسلمين، قال زاهد ألبيرة وغرناطة : أبو إسحق الألبيري، قصيدته النونية المشهورة التي منها في إغراء صنهاجة باليهود.... الخ. »

« وهي قصيدة طويلة، فثارت صنهاجة على اليهود وقتلوا الوزير المذكور، فأراح الله البلاد والعباد، ببركة هذا الشيخ، الذي نور الحق على كلامه باد، وهذا بعض من القصيدة :
ألا قل لصنهاجـة أجمعيـن بـدور الزمـان وأسـد العريـن
مقالـة ذي مقـة مشفـق يعـد النصيحة زلفـى وديـن
لقـد زل سيدكـم زلـة تقـر بهـا أعيـن الشامتيـن
تخيـر كاتبـه كافـراً ولو شاء كان من المؤمنيـن
فعـز اليهـود بـه، وانتخـوا وتاهوا وكانوا مـن الأرذليـن

ومنها :

فكم مسلم راغب راهب ... لأرذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم ... ولكن منا يقوم المعين
فهلا اقتدى فيهم بالأولى ... من القادة الخيرة المتقين
وأنزلهم حيث يستأهلون ... وردهم أسفل السافلين
فلم يستخفوا بأعلامنا ... ولم يستطيلوا على الصالحين

ومنها يخاطب السلطان :

أباديس[1] أنت امرؤ حاذق ... تصيب بظنك نفس اليقين
فكيف خفي عنك ما يعبثون ... وفي الأرض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الزنا ... وقد بغضوك إلى العالمين
وكيف يتم لك المرتقى ... إذا كنت تبني وهم يهدمون
وكيف استنمت إلى فاسق ... وقارنته وهو بئس القرين

ومنها :

وإني حللت بغرناطة ... فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها ... فمنهم بكل مكان لعين

ومنها :

وهم أمناكم على سركم ... وكيف يكون أميناً خؤون ؟
ويأكل غيرهم درهما ... فيقصى ويدنون إذ يأكلون
وقد ناهضوكم إلى ربكم ... فما يمنعون وما ينكرون ؟

---

(١) وباديس هو باديس بن حيوس صاحب غرناطة، وكانت بينه وبين المعتضد حروب شديدة.
قال ابن خلدون : « ولى (باديس) ملك غرناطة بعد أبيه، واستولى على سلطانه اسماعيل بن نغذلة الذمي، ثم نكبه وقتله سنة تسع وخمسين واربعمائة، وقتل معه خلقاً من اليهود، وتوفي باديس سنة سبع وستين وأربعمائة.

ومنها :

ورخـــم قردهـــم داره　　　وأجرى إليها نمير العيون
وصـارت حوائجنـا عنـده　　　ونحن على بابـه قائمـون
ويضحك منا ومـن ديننـا　　　فإنـا إلـى ربنـا راجعـون

١٤ ــ وقال ابن هانئ الأندلسي من قصيدة يمدح بها القائد جوهراً، ويصف الجيش الذي غزا به مصر، ويودعه عند خروجه من القيروان

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع　　　وقد راعني يوم مـن الحشـر أروع[1]
غـداة كـأن الأفـق سـد بمثلـه　　　فعاد غروب الشمس من حيث تطلع[2]
فلم أدر إذ سلمت كيف أشيع　　　ولم أدر إذ شيعت كيف أودع[3]
وكيف أخوض الجيش والجيش لجة　　　وإني بمن قاد الجيوش لمولع[4]
وأين ؟ ومالي بين ذا الجمع مسـلك　　　ولا لجوادي في البسيطـة موضـع[5]

---

(١) راعني : هالني وأدهشني. يوم الحشر : يوم القيامة. أروع : أكثر هولاً ودهشة وفزعاً.
المعنى :كنت أسمع عن عظمة جيش المعز لدين الله الذي يقوده القائد جوهر وقوته، ولقد رأيته اليوم بعيني رأسي فعجبت لقوته وعظمته، وخيل إلي لكثرة عدده وازدحام الخلق فيه أن اليوم الذي رأيته مجتمعاً فيه أشد هولاً وفزعاً من يوم القيامة، وكان ما سمعته عنه أقل مما رأيته عليه.

(٢) الغداة والغدوة : أول النهار المبكر.
المعنى : رأيت الجيش في الصباح المبكر وقد أحدث بسيره طبقة من الغبار في الجور أخفت الجو الطبيعي، وحجبت الشمس عن الناس فخيل إلينا أن الشمس غربت من مكان طلوعها :

(٣) المعنى : قد حير عقلي هول الموقف وروعة المنظر، فلم أدر كيف أسلم ولا كيف أشيع من أردت تشييعهم وتوديعهم.

(٤،٥) المعنى : وكيف أصل إلى من أريد توديعه في وسط هذا الجيش العظيم وكيف اجتاز تلك الكتل البشرية إلى القائد العظيم لأودعه ؟ وأين أذهب ولا طريق لي في هذا الجمع الحافل، ولا يستطيع جوادي أن يشق طريقه في هذا الزحام الهائل.

ألا إن هذا الحشد من لم يذق له	غرار الكرى جفن ولا بات يهجع[1]
نصيحته للملك سدت مذاهبي	فما بين قيد الرمح والرمح إصبع[2]
فقد ضرعت حتى الرواسي لما رأت	فكيف قلوب الإنس والإنس أضرع[3]
فلا عسكر من قبل عسكر جوهر	تخب المطايا فيه عشراً وتوضع[4]
تسير الجبال الجامدات لسيره	وتسجد من أدنى الحفيف وتركع[5]

(١) الغرار : القليل. الكرى : النوم. يهجع : ينام.
المعنى : ولقد جمع هذا الجيش العظيم شخص لم يذق طعم الراحة، لأن هذا الاستعداد الهائل يتطلب مجهوداً مضنياً وعملاً متواصلاً، وهذا ما فعله جوهر.

(٢) مذاهبي : طرقي. القيد : القدر. وقيد الرمح والرمح. أي بين الرمحين.
المعنى : المقصود بالنصيحة هنا المشورة بغزو مصر وإخلاصه لدولة المعز، فمشورة جوهر على المعز وإخلاصه لدولة المعز كانا سبباً في حشد هذا الجيش الكبير الذي سد علي طرقي في السير، فلا يستطيع المرء أن يشق لنفسه طريقاً وسط هذا الجمع الذي بلغ من شدة زحامه أن المسافة التي بين الرمحين لا تتسع لأكثر من إصبع، وهذا كناية عن شدة الزحام.

(٣) ضرع : خضع وذل واستكان. الرواسي : الجبال الراسيات.
المعنى : ليس لدينا من مظاهر ذلة الجبال وخضوعها لهذا الجيش العظيم إلا انهيارها وعدم ثباتها أمام قوته. فكأن الشاعر يقول : إن الجبال الرواسي لا تقوى على الثبات أمام هذه القوة الكبير فكيف بالإنس وهم أقل احتمالاً من الجبال ؟ وكأنه أيضاً يقول: لقد فزعت الجبال مما رأت من قوة الجيش، ومن الطبيعي أن فزع الإنسان الذي له قلب وعاطفة يكون أعظم من فزع الجماد الذي لا عاطفة له. وفي هذا كله مبالغة في قوة جيش جوهر.

(٤) الخبب : ضرب من العدو. والإيضاع : الاسراع في السير.
المعنى : لقد بلغ من كبر المسافة التي يشغلها الجيش على الأرض أن الدواب تقطع هذه المسافة وهي مسرعة في عشر ليال، وفي هذا مبالغة في تقدير الكثرة.

(٥) الحفيف : الصوت. وأدنى الحفيف : أقل الصوت.
المعنى : أن الجبال تسير لسيره وتسجد وترجع لأقل صوت منه، وأقل صوت وأقل حركة من الجيش تكون كبيرة لكثرة عدد الجيش وضخامته، وفي هذا كناية عن عظمة الجيش وشديد هيبته.

إذا حل في أرض بناها مدائنا وإن سار في أرض ثوت وهي بلقع[1]

١٥ ــ وقال ابن هانىء الأندلسي في الرثاء :

إنا، وفي آمال أنفسنا طول وفي أعمارنا قصر[2]
لنرى بأعيننا مصارعنا لو كانت الألباب تعتبر[3]
مما دهانا أن حاضرنا أجفاننا، والغائب الفكر[4]
وإذا تدبرنا جوارحنا فأكلهن العين والنظر[5]

١٥ ــ وقال ابن هاني يصف أسطول المعز الفاطمي :

أما والجواري المنشآت التي سرت لقد ظاهرتها عدة وعديد[6]

---

(١) ثوت. أقامت. البلقع : الأرض التي لا شيء بها. المعنى : لا يزال الشاعر يعطينا صورة عن كثرة عدد المحاربين وضخامة الجيش، فهو يقول إن الجيش إذا قام في جهة احتاج إلى مساكن كثيرة، وثكنات للأجناد، فبنى مدائن تؤوي هذا الجيش الضخم، وإذا لم يحل في جهة بل سار عنها ولم يقم فيها تركها قفراً لا أثر فيها للعمران ولا للنبات.

(٢،٣) المصارع : جمع مصرع وهو الهلاك : الألباب : جمع لب، وهو العقل. تعتب : تتعظ. المعنى : آمال الانسان كبيرة لا تقف عند حد مع أن أجله قصير ولا يتسع لتحقيق هذه الآمال كلها، ولو اتعظ المرء بمصارع غيره وعلم أن دوره آت لا محالة لحد من هذه الآمال وزهد في الحياة، وجملة، لنرى : خبر إن في البيت الأول.

(٤) دهانا : أصابنا بداهية وهي الأمر العظيم والمصيبة. المعنى : مما أوقعنا في المصائب وجلب علينا الشر أننا نتبع ما تراه عيوننا، ونقصر رغباتنا على ما نراه في دنيانا من متاع ومال وجاه وغيرها من الدنيويات. نتبع ذلك ولا نفكر فيما بعد الموت ولا نعمل للآخرة.

(٥) الجوارح : الحواس ومنها النظر.
المعنى : يريد الشاعر أن يذكر أن ما يجلب علينا الشر هو النظر، ولو تأملناه بالنسبة لغيره من باقي الحواس لوجدناه أضعفها.

(٦) اللغة : الجواري : السفن، وسميت بذلك لأنها تجري في الماء، وسرت : سارت ليلاً، وظاهرتها : عاونتها. يقول : قسماً بالسفن التي تشق البحر شقاً في تنقلها لقد عاونتها على ذلك آلاتها والجنود البواسل الذين تقلهم ومعهم ذخائرهم ومعداتهم.

قباب كما تزجي القباب على المها ... ولكن من ضمت عليه أسود(1)

ولله ـ مما لا يرون ـ كتائب ... مسومة تحدو بها وجنود(2)

أطاع لها أن الملائك خلفها ... كما وقفت خلف الصفوف ردود(3)

وأن الرياح الذاريات كتائب ... وأن النجوم الطالعات سعود(4)

وما راع ملك الروم إلا اطلاعها ... تنشر أعلام لها وبنود(5)

عليها غمام مكفهر صبيره ... له بارقات جمة ورعود(6)

مواخر في طامي القباب كأنها ... لعزمك باس أو لكفك جود(7)

أنافث بها أعلامك: وسما لها ... بناء على غير العراء مشيد(8)

---

(1) اللغة : قباب : جمع قبة، وسفن الأسطول الفاطمي كانت تشبه القباب من سقفها،

(2) وتزجى : تدفع، والمها جمع مهاة وهي الشمس والبقرة الوحشية. والمراد هنا الحسان اللاتي يشبهن المها، يقول : لقد أشبهت في مظهرها هوادج الحسان مع أنها لا تضم إلا أسوداً من الجنود.

(٣،٤) اللغة : الكتائب المسومة : المراد بها الملائكة، وأطاع لها : دان لها وتهيأ وانقاد، وأن الملائكة وما عطف عليه فاعل أطاع، والردود : جمع رد بكسر الدال وهو ما يعتمد عليه ويرجع اليه، والذاريات : من ذرت الريح الشيء ذروا، وأذرته، وذرته أطارته وأذهبته، والكتائب : جمع كتيبة، وهي الفرقة من الجيش. يقول : وإلى جانب هذا الأسطول وجنوده الجرارة، وجنود آخرون من الملائكة شد الله بهم أزر جيش المعز، وهيأ له القوة أن الملائكة تقف من خلفه تربط على قلبه بل ان كل شيء كان يقف إلى جوار الجيش الفاطمي، فالطبيعة تناصرهم وطالع السعد يحالفهم.

(٥،٦) اللغة : راع : أفزع، والبنود : جمع بند وهو العلم الكبير، والصبير السحابة فوق أخرى، أو السحاب المتراكم؛ يريد به دخان مقذوفاتها ونيرانها وأصواتها. يقول : إن هذه السفن التي أقضت مضجع ملك الروم وأفزعته والتي تخفق أعلامها وبنودها لو شاهدت قذائفها ودويها الشبيهة بالرعود وكرات نيرانها ـ وكأنها البرود ـ لراعك هذا الاستعداد.

(٧،٨) اللغة : الطامي : المرتفع؛ والعباب معظم السيل وكثرته والمراد به البحر، وطامي العباب من إضافة الصفة للموصوف أي العباب الطامي أو المراد بطامي الأمواج : أمواج البحر المرتفعة، وأنافت : علت، وسما : ارتفع؛ والعراء الخلاء، ومشيد مبنى بالشيد على وزن العيد وهو الجص. يقول : إن سفن الأسطول التي تمخر بالعباب قد ارتفعت أعلام المعز فوقها خفاقة تطاول بنيانها كأنها قصور أسست على الأرض الثابتة لا سفن تسير على صفحات الماء.

وليس بأعلى شاهق وهو كوكب	وليس من الصفاح وهو صلود[1]
من الراسيات الشم لولا انتقالها	فمنهـا قنـان شمـخ وربـود[2]
مـن الطيـر إلا أنهـن جـوارح	فليس لها إلا النفـوس مصيـد[3]
من القادحات النار تضرم للصلى	فليس لها يـوم اللقـاء خمـود[4]
إذا زفرت غيظاً ترامت بمـارج	كما شب من نـار الجحيـم وقـود[5]
فأفواههـن الحاميـات صواعـق	وأنفاسهـن الزافـرات حديـد[6]
يشب لآل الجاثليـق سعيرهـا	وما هي من آل الطريد بعيد[7]

(١) اللغة : الصفاح : كرمان : الحجارة العراض، والصلود : الصلب.

(٢) اللغة : الراسيات : الجبال، والشم : العالية، وقنان : جمع قنة وهي العالية، وشمخ : عالية، وربود : جمع ربد وهو الحرف البارز في الجبل.
يقول : وما أشبهها في ضخامتها بالجبال الراسيات لولا تنقلها وحركاتها.

(٣) اللغة : من الطير : مما كاد يطير، وجوارح : جمع جارحة وهي ذات الصيد من السباع والطير، والمراد تجرح خصومنا، ومصيد : صيد. يقول : وما أشبهها في سرعتها بالطيور لولا أنها تفترس أعداءنا ولا تصطاد إلا نفوسهم.

(٤) اللغة : تضرم : تسعى، للصلي : لتشوي خصومنا.
المعنى : سفن هذا الأسطول من السفن الجبارة التي تؤجج نيرانها لتأديب الأعداء وإحراقهم إذا ما دعا الأمر، التي لا يجرؤ أحد أن يخمدها إذا حمى الوطيس.

(٥،٦) اللغة : زفرت : أخرجت زفيرها أي نفسه والمراد به بخارها الحبيس، والمارج : النار بلا دخان، وصواعق : جمع صاعقة وهي الموت وكل عذاب مهلك وصيحة العذاب، ونار تسقط من السماء وصعقتهم السماء : أصابتهم بالصاعقة. يقول : وإذا ما أرسلت بدخانها وقذائفها إلى السماء خلت أنها ترسلهما لشدة غيظها أو أنها قطع من جهنم تسعرت نيرانها وكأن قذائفها صواعق تريد أن تنقض عليهم.

(٧) اللغة : يشب : يوقد ويسعر، والجاثليق : كلمة أعجمية والمراد به الرئيس الديني للمسيحيين في بغداد، وهو أكبر من المطران، والطريد : المطارد الهارب ولا يراد به شخص بعينه بل كل خصم للفاطميين يستحق أن يطارد.
يقول : وما كان اشتعالها إلا لأعداء الدين كالجاثليق وشيعته وسائر الهاربين منا بعد أن آمنوا بقوتنا.

لها شعل فوق الغمار كأنها	دماء تلقتها ملاحف سود[1]
تعانق موج البحر حتى كأنه	سليط لها فيه الذبال عتيد[2]
ترى الماء فيها وهو قان عبابه	كما باشرت ردع الخلوق جلود[3]
فليس لها إلا الرياح أعنة	وليس لها إلا الحباب كديد[4]
وغير المذاكي نجرها غير أنها	مسومة تحت الفوارس قود[5]
ترى كل قوداء التليل إذا انثنت	سوالف غيد بالمها وقدود[6]

---

(١) اللغة : الغمار بضم الغين وفتحها : الزحمة والمراد به هنا البحر. يقول : وما أرهب كراتها النارية، التي إذا ما سقطت فوق لجة الماء، كأنها الدماء حمرة استقبلتها ملاحف سود.

(٢) اللغة : السليط : الزيت، والذبال : جمع ذبالة وهي الفتيل يتدلى طرف منه في الزيت ويشعل الآخر، وهذا ما كان من مصابيح القدماء قبل إشعال زيت البترول وقبل الكهرباء. وعتيد : حاضر مهيأ معد لهذا الغرض. يقول : ألا تظن وهي تعانق موج البحر الأبيض أن الموج زيت وأن هذه القذائف المتتابعة لسرعة البرق هي فتائل المصابيح المشتعلة.

(٣) اللغة : قان : أحمر شديد الحمرة والعباب : الموج، والردع : الزعفران. والخلوق : نوع من الطيب. يقول : وإن لون مائه وقد امتزج بدماء الصرعى من خصومنا أشبه بلون الزعفران.

(٤) اللغة : الحباب بفتح الحاء : الموج، والكديد : الأرض الصلبة الوعرة، يقول : ومن عجب أن لا أعنة لها سوى الرياح، وليس لها سوى الموج تسلكه إلى غاياتها.

(٥) اللغة : المذاكي : الخيل، والنجر كالنجار : الأصل، والقود : جمع أقود وهو الذلول المنقاد، أي تنسب لغير الخيل مع أن ركابها فرسان، ومسومة : معلمة يقول : إنها ليست خيلاً، ولكنها مسومة ذلول منقادة للفوارس وإن كانت غير خيل.

(٦) اللغة : قوداء التليل : طويلة العنق، والسوالف : جمع سالفة وهي ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط ومن الفرس هاديته أي ما تقدم من عنقه. يقول : إذا انثنت شعور سوالف الغيد الحسان الشبيهات بالمها على أعناقهن. أو تمايلت قدودهن كانت السفينة من هذه السفن تشبهها بانثناء عنقها على صدرها وكانوا يجعلون في مقدم السفينة صورة رأس ثور أو كبش أو نعامة.

رحيبة مد الباع وهي نضيحة ... بغير شوى، عذراء وهي ولود[1]
تكبرن عن نقع يثار كأنها ... موال، وجرد الصافنات عبيد[2]
لها من شفوف العبقري ملامس ... مفوفة منها النضار جسيد[3]
كما اشتملت فوق الأرائك خرد ... أو التفعت فوق المنابر صيد[4]
ليوث تكف الموج وهو غطامط ... وتدرأ بأس اليم وهو شديد[5]
فمنه دروع فوقها وجواشن ... ومنه خفاتين لها و برود[6]

---

(١) اللغة: الباع، يراد بها هنا: المجاديف فهي تمد باعها، والشوى: الأطراف، وقوله وهي ولود أي أنه يتبعها أو يكون لها زوارق صغار. يقول : وأن مجاديفها عريضة طويلة ليس لها أرجل تسير عليها أو أيد تبطش بها، وأنها لم يفترعها عدو فهي لا تزال عذراء وزوارقها التي أعدت للنجاة تحملها فوقها كما تحمل الأم أولادها.

(٢) اللغة: النقع: الغبار، وموال: عبيد، والصافنات: الخيل يقول: وإنها تأنف أن يكون البر وما فيه من غبار موضعاً لنشاطها، اكتفاء بالخيول الأصيلة والفتية القوية، فالعلاقة بين سفن الأسطول وخيولها في البر أشبه بالعلاقة بين السادة وعبيدهم.

(٣) اللغة : الشفوف : الأصل فيها الثياب الشفافة الرفيعة التي تكاد تشف عما تحتها، والمراد با النقوش الجميلة الألوان التي زينت بها سفن الأسطول والعبقري : نسبة إلى عبقر وهي أرض تسكنه الجن، والمراد هنا الفنان الذي نقش هذه النقوش، والجسيد : الملتصق، والنضار : الذهب. يقول : ومما يمتلك القلوب روعة نقوشها البديعة على جوانبها فهي تحاكي ما رق من الثياب المزدانة بتصاويرها وألوانها المتنوعة المنسجمة.

(٤) اللغة : الخرد : جمع خريدة وهي البكر لم تمس أو الخفرة المتسترة الخافضة الصوت، وصوت خريد : لين عليه أثر الحياء، والصيد : جمع أصيد وهو الأسد والملك. يقول : إنها تشتمل بهذه النقوش كما تشتمل الجواري الخرد بالثياب، وهن جالسات على الأرائك أو كما يلتفع الخطباء الصيد وهم فوق المنابر.

(٥) اللغة : ليوث : جمع ليث وهو الأسد، وغطامط : عظيم هائج، وبأس اليم : شدته.

(٦) اللغة : الدروع : جمع درع وهو ما يتدرع به الإنسان ويتوقى، والجواشن : جمع جوشن وهو الدرع والصدر، والخفاتين : جمع خفتان وهو نوع من الثياب والبرود : جمع برد وهو ثوب مخطط، وكأسية يلتحف بها. يقول : إن اليم ترتفع أمواجه الزاخرة فوق السفن كالدروع وتلتف بها كأنما هي خفاتين وبرود مخططة وأكسية التحفت بها، فلم تقتصر على دروعها الحديدية، بل تنوعت دروعها.

ألا في سبيل الله تبذل كنه ما | تضن به الأنواء وهي جمود[1]
فلا غرو إن أعززت دين محمد | فانت له دون المليك عقيد[2]

١٦ ـــ ويقول الحكم بن عبد الرحمن أمير الأندلس (١٨٠ ـــ ٢٠٦هـ) :

لأمت صدوع الأرض بالسيف راقعا | وقدما لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغوري هل بها الآن ثغرة | أبادرها مستنضي العزم دارعا
وشافه على الأرض الفضاء جماجما | كأقحاف شريان الهبيد لوامعا
تنبئك أني لم أكن عن قراعهم | بوان، وأني كنت بالسيف قارعا
وأني إذا حادوا جزاعا عن الردى | فلم أك ذا حيد عن الموت جازعا
حميت ذماري وانتهكت ذمارهم | ومن لا يحامي ظل خزيان ضارعا
ولما تساقينا سجال حروبنا | سقيتهمو سما من الموت ناقعا
وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم | فوافوا منايا قدرت ومصارعا
فهذي بلادي إنني قد جعلتها | مهاداً ولم أترك عليها منازعا

١٧ ـ وقال ابن برد الأصغر من شعراء الأندلس يصف السحب والبرق[3] :

وما زلت أحسب فيه السحاب | ونار بوارقها تلتهب
بخاتي توضع في سيرها | وقد قرعت بسياط الذهب

١٨ ـ وقال أحمد بن عبد ربه الأندلسي[4] يصف حماماً :

(١،٢) اللغة : كنه الشيء : جوهره وغايته وقدره ووجهه، وكنهه إذا بلغ كنهه والأنواء : جمع نوء وهو سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق يقابله من ساعته في كل ثلاثة عشر يوماً، وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها، ولا غرو : لا عجب، وعقيد : معاقد من العقد بمعنى العهد والميثاق.

(٣) هو كاتب بليغ، وشاعر ممتاز، توفي في النصف الأخير من القرن الخامس الهجري.

(٤) هو الأديب الكاتب الشاعر والوشاح المؤلف أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد الذي يعد من أركان الأدب العربي توفي سنة ٣٢٨هـ.

ونائح في غصون الدوح أرقني ... وما عنيت بشيء ظل يعنيه
مطوق بعقود ما تزايله ... حتى تزايله إحدى تراقيه[1]
قد بات يبكي بشجو ما دريت به ... وبت أبكي بشجو ليس يدريه

١٩ ــ وقال في المدح :

كريم على العلات جزل عطاؤه ... منيل وإن لم يعتمد لنوال
وما الجود من يعطي إذا ما سألته ... ولكن من يعطي بغير سؤال

٢٠ ــ وقال يصف سيفا :

وذي شطب تقضي المنايا بحكمه ... وليس لما تقضي المنية دافع[2]
فرند إذا ما اعتن للعين راكد ... وبرق إذا ما اهتز بالكف لامع[3]
يسلل أرواح الكماة انسلاله ... ويرتاع منه الموت والموت رائع
إذا ما التقت أمثاله في وقيعة ... هنالك ظن النفس بالنفس واقع[4]

٢١ ــ وقال أيضاً :

بكل مأثور على متنه ... مثل مدب النمل في القاع[5]
يرتد طرف العين عن حده ... عن كوكب للموت لماع

٢٢ ــ وقال ابن زيدون في ولادة[6] :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم، وبنا، فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً إليكم، ولا جفت مآقينا[7]

---

(١) يريد بالعقود ما يرى من الألوان في عنقه.

(٢) الشطب : الحزوز في جانبي السيف طولاً.

(٣) اعتن : ظهر وبدا.

(٤) أي ما تظنه النفس من الهلاك واقع لا محالة.

(٥) أي يلوح ويتراءى لمن ينظر إليه أمثال مداب النمل من انعكاس الضوء وانكساره على صفحته. وذلك يبين في السلاح المجلو من الفولاذ الذكر.

(٦) مرت ترجمته عند الكلام على نثره.

(٧) الجوانح. جمع جانحة : وهي الضلع، والمراد بالجوانح : ما تجنه من القلب والحشا الملتهب بالحب وقوله : ولا جفت مآقينا، أي ما جفت عيوننا من الدمع والبكاء عليكم.

يكاد حين تناجيكم ضمائرنا … يقضي علينا الأسى لولا تأسينا[1]

حالت لفقدكم أيامنا فغدت … سوداً، وكانت بكم بيضاً ليالينا[2]

إذ جانب العيش طلق من تألفنا … ومورد اللهو صاف من تصافينا

وإذ هصرنا غصون الأنس دانية … قطوفها، فجنينا منه ماشينا[3]

ليسق عهدكم عهد السرور فما … كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم … حزناً مع الدهر لا يبلى ويبلينا[4]

إن الزمان الذي ما زال يضحكنا … أنساً بقربكم قد عاد يبكينا

ما حقنا أن تقروا عين ذي حسد … بنا، ولا أن تسروا كاشحاً فينا[5]

غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا … بأن نغص، فقال الدهر : آمينا !

فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا … وانبت ما كان موصولاً بأيدينا

وقد نكون، وما يخشى تفرقنا … فاليوم نحن، وما يرجى تلاقينا

لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم … رأياً، ولم نتقلد غيره دينا

لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا … إن طالما غير النأي المحبينا

والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً … منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا … ولا اتخذنا بديلاً منك يسلينا

يا ساري البرق غاد القصر فاسق به … من كان صرف الهوى والود يسقينا

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا … من لو على البعد حيا كان يحيينا

يا روضة طالما أجنت لواحظنا … ورداً جلاه الصبا غضاً ونسرينا[6]

---

(١) التأسي : التصبر.

(٢) حالت : استحالت من بيض إلى سود.

(٣) هصرنا : أملنا إلى ناحيتنا.

(٤) الانتزاح ض الافتراق.

(٥) أقر الله عينه بالسلامه : ضد أسخنتها بالوجع، والمراد أن تسروا الحاسد. والكاشح : المضمر العداوة. والواشي : المبغض.

(٦) النسرين : نوع من الورود وأكثر ما يكون أبيض الزهر عطر الرائحة.

ويـا حيـاة تملينـا بزهرتهـا — منـى ضروبـاً ولـذات أفانينـا[1]

ويا نعيماً خطرنا من غضارته — في وشي نعمى سحبنا ذيلها حينا[2]

لسنا نسميك إجلالاً وتكرمة — وقدرك المعتلى عن ذاك يغنينا

إذا انفردت وما شوركت في صفة — فحسبنا الوصف إيضاحاً وتبيينا

يا جنة الخلد، أبدلنا بسلسلها — والكوثر العذب زقوماً وغسلينا[3]

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا — والسعد قد غض من أجفان واشينا

سران في خاطر الظلماء يكتمنا — حتى يكاد لسان الصبح يفشينا

إن كان قد عز في الدنيااللقاء ففي — مواقف الحشر نلقا كم ويكفينا

لا غرو في أن ذكرنا الحزن حين نهت — عنه النهى وتركنا الصبر ناسينا

إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً — مكتوبة، وأخذنا الصبر تلقينا

أما سواك فلم نعدل بمنهله — شرباً وإن كان يروينا فيظمينا

لم نجف أفق جمال أنت كوكبه — سالين عنه، ولم نهجره قالينا

ولا اختياراً تجنبناك عن كثب — لكن عدتنا على كره عوادينا[4]

نأسى عليك إذا حثت مشعشعة — فينا الشمول وغنانا مغنينا[5]

لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا — سيما ارتياح، ولا الأوتار تلهينا

دومي على العهد ما دمنا محافظة — فالحر من دان إنصافاً كما دينا

---

(١) تملينا،استمتعنا. والمنى جمع منية. والضروب هنا : الأنواع. والأفانين هنا جمع أفنون، وهو النوع والضرب أي لذات مختلفة الشكول.

(٢) خطر الرجل في مشيته رفع يديه ووضعها عجباً وتيهاً. والغضارة : النعمة والسعة والخصب والوشي نوع من الثياب الحريرية المنقوشة.

(٣) السلسل : الماء العذب البارد. والكوثر : الكثير من كل شيء، والنهر. ونهر في الجنة. والزقوم المذكور في القرآن الكريم، يراد به ضرب من العذاب في النار، جاء تمثيله بأنه طعام شجرة تكون في أصل الجحيم هذا اسمها. والغسلين : ما ينغسل من الثياب ونحوها. وغسلين النار : ما ينغسل من جلود الكفار فيها.

(٤) عن كثب : عن قرب. وعدتنا العوادي : صرفتنا الصوارف. وهي شواغل الدهر وصروفه.

(٥) الشمول : من أسماء الخمر والمشعشعة الممزوجة بالماء.

فما ابتغينا خليلاً منك يحبسنا ... ولا استفدنا حبيباً عنك يغنينا
ولو صبا نحونا من علو مطلعه ... بدر الدجى لم يكن - حاشاك - يصبينا
أبكي وفاء، وإن لم تبذلي صلة ... فالذكر يقنعنا، والطيف يكفينا
وفي الجواب اقتناع لو شفعت به ... بيض الأيادي التي ما زلت تولينا
عليك مني سلام الله ما بقيت ... صبابة منك نخفيها فتخفينا

٢٣ ـ وقال في الذكرى متوجعاً :

ودع الصبر محب ودعك ... ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن ... زاد في تلك الخطى إذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنى ... حفظ الله زماناً اطلعك
إن يطل بعدك ليلي فلكم ... بت أشكو قصر الليل معك

٢٤ ـ وقال أبو بكر محمد بن عمار[1] :

وهويته يسقى المدام كأنه ... قمر يطوف بكوكب في حندس
متأرج الحركات تندى ريحه ... كالغصن هزته الصبا بتنفس
تسعى بكأس في أنامل سوسن ... ويدير أخرى في محاجر نرجس[2]

٢٥ ـ ومن قوله في الاستعطاف :

سجاياك إن عاقبت أندى وأسمح ... وعذرك إن عاقبت أجلى وأوضح
وإن كان بين الخطتين مزية ... فأنت إلى الأدنى من الله أجنح
حنانيك في أخذي برأيك لا تطع ... عداتي، وإن أثنوا علي وأفصحوا
وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا ... سوى أن ذنبي واضح متصحح
نعم لي ذنب ! غير أن لحلمكم ... صفاة يزل الذنب عنها فيسفح[3]

---

(١) هو أبو بكر محمد بن عمار وزير المعتضد بن عبد ملك اشبيلية، ثم وزير ابنه المعتمد، وبيد المعتد قتل بعد خيانة له في الملك والسياسة سنة ٤٧٧هـ. وكان شاعراً بليغاً يتشبه بالمتنبي في مطامعه في الملك والدولة.

(٢) السوسن والنرجس : زهران أبيضان من الفصيلة البصلية.

(٣) أي أن حلمه كالصخرة الملساء يزل وينزل عنها الذنب.

وان رجائي أن عندك غير ما يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح

ولم لا ؟ وقد أسلفت وداً وخدمة يكران في ليل الخطايا فيصبح

وهبني قد أعقبت أعمال مفسد أما تفسد الأعمال ثمت تصلح[1]

أقلني بما بيني وبينك من رضا له نحو روح الله باب مفتح !

وعف على آثار جرم جنيته بهية رحمى منك تمحو وتصفح

ولا تلتفت رأي الوشاة وقولهم، فكل إناء بالذي فيه يرشح[2]

سيأتيك في أمري حديث وقد أتى بزور بني عبد العزيز موشح[3]

وما ذاك إلا ما علمت، فإنني إذا ثبت لا أنفك آسو واجرح[4]

نخيلتهم، لا در لله درهم، أشاروا تجاهي بالشمات وصرحوا[5]

وقالوا : سيجزيه فلان بفعله ! فقلت : وقد يعفو فلان، ويصفح !

ألا إن بطشاً للمؤيد يتقى ولكن حلماً للمؤيد أرجح

وبين ضلوعي من هواه تميمة ستنفع لو أن الحمام مجلح[6]

سلام عليه كيف دار به الهوى : الي فيدنو، أو علي فينزح[7]

---

(١) ثمت : هي (ثم) العاطفة لحقتها تاء التأنيث كما تلحق (رب) فيقال : (ربت) وأصلها أن تكون ساكنة، ولكنها تفتح معهما كثيراً.

(٢) تلتفت مضمن معنى فعل متعد، تديره : (تعتبر أو تقبل).

(٣) كانوا من موالي المنصور بن أبي عامر، ورثوا أبناءه وأحفاده في شرقي الأندلس. وكانت لهم به دويلة دامت ردحاً من الزمان.

(٤) إذا ثبت : إذا رجعت إلى ما كنت عليه من وزارتك. وآسو : من أسا الجرح أي داواه وعالجه. والمراد لا أنفك أنفع وأضر، فينالهم مني شر.

(٥) نخيلتهم : أي هذه نخيلتهم. والنخيلة : الطبيعة النصيحة. وكلا المعنيين لائق. ودر هنا فعل ماض من در اللبن، ودرهم فاعله على نحو جد جده وجل جلاله، والجملة : دعاء عليهم، أي لا كان درهم لله بمعنى لا وفقهم الله للخير.

(٦) التميمة : خرزة رقطاء كان الأعراب يعلقونها في أعناق أطفالهم لتقيهم شر العين والشياطين. المجلح : الأكول. والمعنى في قلبي له حب سينفعني ويشفع عنده إذا أراد الموت أكلي.

(٧) ينزح : يبعد.

ويهنيه ان مت السلو، فإنني أموت، ولي شوق اليه مبرح

٢٦ ــ وقال الأديب أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسي الأندلسي من شعراء شرقي الأندلس، وكان خدم المعتمد بن عباد من ملوك الطوائف بعلمه وشعره، يصف النيلوفر :

وبركة تزهو بنيلوفر نسيمه يشبه روح الحبيب[1]
حتى اذا الليل دنا وقته ومالت الشمس لعين المغيب
أطبق جفنيه على إلفه وغاص في الماء حذار الرقيب

٢٧ ــ وقال ابن خفاجة الأندلسي :

ربما استضحك الحباب حبيب نفضت ثوبها عليه المدام
كلما مر قاصراً من خطاه يتهادى كما يمر الغمام
سلم الغصن والكثيب علينا فعلى الغصن والكثيب السلام

٢٨ ــ وقال في طول الليل :

يا ليل وجد بنجد أما لطيفك مسرى
وما معي طليقاً وأنجم الجو أسرى
وقد طمى بحر ليل لم يعقب المد جزرا
لا يعبر الطرف فيه غير المجرة جسرا

٢٩ ــ وقال ابن سهل الأندلسي[2] :

سل في الظلام أخاك البدر عن سهري تدري النجوم كما يدري الورى خبري
أبيت أهتف بالشكوى وأشرب من دمعي وأنشق ريا ذكرك العطر
حتى أخيل أني شارب ثمل بين الرياض وبين الكأس الوتر

---

(١) النيلوفر : ضرب من الرياحين ينبت في المياه الراكدة.

(٢) هو الشاعر الرقيق الوشاح ابراهيم بن سهل الأشبيلي الأندلسي وكان يلقب قبل إسلامه بالإسرائيلي. كان يهودياً وأسلم، ومات غرقاً سنة ٦٤٩هـ.

من لي به ؟ اختلفت فيه الملاحة إذ   أومت إلى غيره إيماء محتضر[١]
معطل فالحلى منه محلأة   تغني الدراري عن التقليد بالدرر[٢]
بخدّه لفؤادي نسبة عجب   كلاهما أبداً يدمي من النظر[٣]

٣٠ — وقال ابن سهل في توشيح له :

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى   قلب صب حله عن مكنس
فهو في حر وخفق مثلما   لعبت ريح الصبا بالقبس
يا بدوراً أشرقت يوم النوى   غرراً تسلك بي نهج الغرر[٤]
ما لنفسي في الهوى ذنب سوى   منكم الحسنى ومن عيني النظر
أجتني اللذات مكلوم الجوى   والتذاذي من حبيبي بالفكر[٥]
كلما أشكوه وجدي بسما   كالربا بالعارض المنبجس[٦]
إذ يقيم القطر فيها مأتما   وهي من بهجتها في عرس[٧]
أيها السائل عن جرمي لديه   لي جزاء الذنب وهو المذنب
أخذت شمس الضحا من وجنتيه   مشرقاً للشمس فيه مغرب[٨]

---

(١) أي تفاوتت فيه الملاحة عن نفسها عند الناس فهي فيه كاملة وفي غيره بمنزلة إشارة خفيقة كاشارة المحتضر عند الموت.

(٢) محلأة، ممنوعة.

(٣) أي فؤادي يدمي من نظرات المحبوب الرامية بسهام التأثير، وخده كأنه يدمي من حمرة الخجل عند نظري إليه.

(٤) الغرر، التغرير والخطر.

(٥) أي وإنما التذاذي من حبيب بالتفكر فيه.

(٦) أي كابتسام الربا المشرقة بالأزهار بعد أن سقاها العارض المنبجس : أي السحاب الهاطل.

(٧) أي أن نزول القطر الشبيه بقطرات الدمع يقيم في الربا مأتماً ومناحة ببكائه على حين أن الربا في أعراس من بهجتها.

(٨) أي أن حمرة المشرق قبيل ظهور الشمس على الأفق وحمرة شفقها بعيد الغروب مستعارة من وجنتيه الحمراوين.

ذهب الدمع بأشواقي إليه ولـه خـد بلحظي مذهب[1]
ينبت الورد بغرسي كلما لاحظته مقلتي في الخلس
ليت شعري أي شيء حرما ذلك الورد على المغترس
كلما أشكو إليه حرقى غادرتني مقلتاه دنفا
تركت ألحاظه من رمقي أثر النمل على صم الصفا[2]
وأنا أشكره فيما بقي لست ألحاه على ما أتلفا
فهو عندي عادل إن ظلما وعذولي نطقه كالخرس
ليس لي في الأمر حكم بعد ما حل من نفسي محل النفس
منه للنار بأحشائي ضرام تتلظى كل حين ما تشا
هي في خديه برد وسلام وهي حر وحريق في الحشا
أتقي منه على حكم الغرام أسداً ورداً، وأهواه رشا
قلت ـ لما أن تبدى معلما وهو من ألحاظه في حرس
أيها الآخذ قلبي مغنما اجعل الوصل مكان الخمس[3]

وقد عارض هذه الموشحة كثيرون منهم لسان الدين بن الخطيب[4].

---

(١) أي مذهب من الخجل. وهذا المعنى مكرر جره إليه جناس الاشتقاق بين (ذهب) في أول البيت و (مذهب) في آخره.

(٢) أي أثراً ضعيفاً لأن النمل لا يؤثر مشيه في الصخرة الملساء.

(٣) أي أن الجيش الفاتح لا يأخذ كل الغنيمة بل يكون خمسها للدولة تنفقه في مصالح الناس وصدقاتهم.

(٤) هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد الغرناطي الأندلسي المعروف بلسان الدين ابن الخطيب وزير بني الأحمر ملوك غرناطة. وكان وزيراً لأبي الحجاج يوسف من عظماء ملوكهم، ثم لابنه، فاتهم بالخيانة في السياسة والزندقة، ففر إلى المغرب، وسعى أعداؤه به حتى أسلموه فقتل سنة ٧٧٦هـ. وكان شاعراً كاتباً مؤرخاً مؤلفاً فقيهاً متفلسفاً. وله عدة كتب وشعر رقيق وكتابة، يروي صاحب نفح الطيب وصاحب صبح الأعشى منها كثيراً.

٣١ ــ وقال ابن دراج القسطلي يصف وداعه لزوجته وابنه الصغير :

ولما تدانت للوداع وقد هفا ... بصبري منه أنة وزفير
تناشدني عهد المودة والهدى ... وفي العهد مبغوم النداء صغير
عيي بمرجوع الجواب ولفظه ... بموقع أهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت ... له أذرع محفوفة ونحور
فكل مفداة الترائب مرضع ... وكل مخباة المحاسن ظير
وطار جناح البين بي وهفت بها ... جوانح من ذعر الفراق تطير
لئن ودعت مني غيوراً فانني ... على عزمتي في شجوها لغيور
ولو شاهدتني والهواجر تلتظي ... علي ورقراق السراب يمور
أسلط حر الهاجرات إذا سطا ... على حر وجهي والأصيل هجير
وأستنشق النكباء وهي لوافح ... واستوطئ الرمضاء وهي تفور
ودارت نجوم القطب حتى كأنها ... كئوس مها والى بهن مدير
وقد خيلت طرق المجرة أنها ... على مفرق الليل البهيم قتير
وللموت في عين الجبان تلون ... وللذعر في سمع الجريء صغير
لبان لها أني من البين جازع ... وأني على مض الخطوب صبور
وأعتسف الموماة في غسق الدجى ... وللأسد من غيل الضباب زئير
وقد حومت زهر النجوم كأنها ... كواكب في خضر الحدائق حور

٣٢ ــ وقال ابن زيدون :

ما على ظني بأس ... يجرح الدهر ويأسو[1]
ربما أشرف بالمر ... ء على الآمال باس[2]

(١،٢) اللغة: يأسو بالتخفيف: يأسو أي يداوي، الآسي، الطبيب والجمع أساة، وباس: بأس : أي شدة. المعنى، لا تثريب على أن طاش سهمي وخاب رجائي وكذب حدسي، فقد يستهدف المرء للأخطار وتحدق به الشدائد حين يشرئب منه الأمل ويستشرف الرجاء.

ولقـد ينجـيك إغفـا ل ويؤذيك احتـراس[1]
ولكـم أجـدى قعـود ولكم أكدى التماس[2]
وكذا الحكـم إذا مـا عـز نـاس ذل نـاس
وبنـو الأيـام أخيـا ف سـراة وخسـاس[3]
نلـبس الدنيـا ولكـن متعـة ذاك اللبـاس[4]
يا أبـا حـفص ومـاسـا واك في فهم إيـاس[5]
من سنى رأيك لي في غسق الخطب اقتباس[6]
ووداد‌ي لك نص لـم يخالفـه القيـاس[7]
أنـا حيـران وللامـ ـر وضـوح والتبـاس[8]
لا يكـن عهـدك ورداً إن عهدي لك آس[9]

(١،٢) اللغة : احتراس، تحفظ، وأكدى : بخل وقل خيره والمراد لم يفد.

المعنى : قد يتخذ المرء الحيطة ويحترس فيحيق به البلاء ويصميه العناء على حين يسلم من النوائب من لم يتحصن من المصائب، وليس ثمة معيار لسنة الحياة، فقد يجدي الكسل والتواكل، ولا يغني الجد والنشاط.

(٣و٤) اللغة : أخياف، مختلفون، وأخوة أخياف، أمهم واحدة وآباؤهم شتى، وسراة : المراد بها هنا الاشراف والسادة وأصحاب المروءة، ونلبس الدنيا : يراد بها الإقبال عليها ومداراتها والسير في ركابها.

المعنى : الناس يتباينون فمنهم الرفيع ومنهم الوضيع وهم جميعاً يتهافتون على عرض الدنيا الحائل وظلها الزائل، ولا تثريب عليهم في ذلك فرفاهة الحياة وآلاؤها في التمتع بنعمائها ومباهجها ومداراتها والاحتطاب في حبلها.

(٥و٦) اللغة : أبو حفص : هو الوزير ابن برد الذي استنجد به الشاعر، وإياس يضرب به المثل كثيراً في الذكاء، فيقال : هو إياس ذكاء أو هو أذكى من إياس، والسنى بالقصر : الضوء، والغسق. ظلمة أول الليل، والخطب : الشأن والأمر صغر أو عظم والجمع خطوب، واقتباس : أخذ.

(٧) اللغة : نص : شاهد.

المعنى : إن مودتي لك تشهد بصدق ما أقول وتحفزك لإغاثتي وإقالتي من كبوتي.

(٨ ــ ٩) اللغة : حيران : حار يحار كتحير واستحارا إذ نظر الى الشيء فغشي عليه، ولم يهتد لسبيله فهو حيران وحائر، وهي حيراء، وآس : شجر معروف والواحدة آسة. =

وأدر ذكـري كأسـاً   ما امتطت كفك كاس[1]
فعسى أن يسمح الدهـ   ـر فقد طال الشماس[2]
واغتنـم صفـو الليالـي   إنما العيش اختـلاس[3]
ما ترى في معشر حا   لوا عن العهد وخاسوا ؟[4]
ورآنـــي سامريـــاً   يتقـي منـه المسـاس[5]
أذؤب هامت بلحمـي   فانتهـاب وانتهـاس[6]
كلهم يسأل عن حا   لي وللذئب اعتساس[7]

= المعنى : إنني ــ وقد غشيت السجن ــ أخبط خبط عشواء في ليلة طخياء، ولكن لي وطيد الأمل أن تنقشع عني الغمة وتنحسر الكربة، فكل أمر ينجلي بعد التباسه.

(١،٢) اللغة: امتطت: اتخذتها مطية والمراد ما استقرت بكفك كأس والشماس: المنع وأصله من شمس الفرس شموساً وشماساً منع ظهره فهو شامس وشموس.

المعنى : واذكرني أيها الصديق كلما قبلت ابنة الكرم وثملت رضابها وحملت كأسها، فانني مغرم بها صب، تبلت فؤادي وملكت على أقطار نفسي، وقد حيل بيني وبينها وانحسر عنى رداء البهجة والسرور فهل يجمع الدهر بيننا ونحتسي السلاف وننسى أوصاب الحياة ونوائبها.

(٣) اللغة : اغتنم : انتهز، وصفو الليالي. يراد بها عهود السعادة، والاختلاس السلب على غرة، والاختلاس أيضاً : انتهاز الفرصة.

المعنى : واهتبل الفرصة حين تسنح ومتع نفسك بانتهاز ما يتسنى لك الظفر به من أطايب الحياة ولذائذها.

(٤،٥) اللغة: معشر كمسكن: الجماعة وأهل الرجل، وحالوا: مالوا أو تغيروا، وخاسوا: نقضوا، والسامري : الذي عبد العجل من بني إسرائيل، ويتقي : يتجنب.

المعنى : يستنكر ابن زيدون على ابن جهور وحاشيته تنكرهم له وتغيرهم عليه ونقضهم العهد ونكرانهم المعروف فقد نبذوه نبذ النواة في كثيب الصحارى، وفروا منه فرار الطاهر من الأرجاس والأنجاس، كأنما هو سامري دنسته عبادة العجل.

(٦،٧) اللغة: الانتهاس: أخذ اللحم بمقدم الأسنان، والاعتساس: الطواف بالليل.

المعنى : إن ابن جهور وبطانته إن هم إلا كالذئاب التي ولعت بنهش لحمي والفتك بي، يتساءلون عن حالي ويظهرون لي المحبة والإخاء مع أنهم يتسقطون أنبائي ويتحسسون أموري ليهدموا صرحي ويشوهوا سيرتي.

إن قسا الدهر فللما ء من الصخر انبجاس[1]
ولئن أمسيت محبو سا فللغيث احتباس[2]
ويفت المسك في التر ب فيوطا ويداس

٣٣ ــ وقال ابن خفاجة في وصف جبل :

بعيشك هل تدري أهوج الجنائب تخب برحلي أم ظهور النجائب ؟[3]
فما لحت في أولى المشارق كوكبا فأشرقت حتى جئت أخرى المغارب[4]
وحيداً تهادى في الفيافي فأجتلى وجوه المنايا في قناع الغياهب[5]
ولا جار إلا من حسام مصمم ولا دار إلا في قتود الركائب[6]
ولا أنس إلا أن أضاحك ساعة ثغور الأماني في وجوه المطالب[7]

(١، ٢) اللغة : الانبجاس : التفجر والنبوع.
المعنى : إن اغطشت لي الليالي وساء حالي فعما قريب تنحسر الغمة والماء قد يتفجر من الصخر، ولئن كنت أرسف اليوم في أغلال السجن فغدا أغدوا حراك طليقاً، فالغيث ــ وهو أعم الأشياء نفعاك ــ يحتبس ويتخلف، وإذا انتهكت كرامتي ونكست هامتي فان المسك كثيراً ما يفتت في الثرى فتطؤه النعال وتدوسه الأقدام.

(٣) اللغة : هوج الجنائب. الرياح الجنوبية الهوجاء. والنجائب : جمع نجيبة وهي الناقة الكريمة. يقول لست أدري : أهي الرياح الهوج التي تحمل رحلي وتقلني أم النوق الكريمة (وهو كناية عن نشاطها وسرعتها).

(٤،٥،٦) اللغة: لحت: نظرت، والفيافي: جمع فيفاء وهي الصحراء، وأجتلي: أتبين، والقتود: أخشاب الرحال. المعنى : يصف رحلة عنيفة في الصحراء قد لفه فيها الليل بشملة، وشعر بالخطر يدنو منه وأنه يوشك أن يفقد حياته، فليس له من جار يستجير به سوى سيفه المصمم، وليس له دار يعتصم بها ويلتجىء اليها سوى أخشاب الرحال.

(٧) اللغة : وجوه المطالب : شتى المطالب. يقول إنه غدا فريداً وحيداً لا يجد من يؤنس وحدته ويذهب وحشته سوى آماله التي تجيش بخاطره فتملأ نفسه قوة وتغمر فؤاده رجاء وتربط على قلبه فينفض من مخاوفه وأوهامه.

وليل إذا ما قلت : قد باد فانقضى	تكشف عن وعد من الظن كاذب[1]
صحبت الدياجي فيه سود ذوائب	لأعتنق الآمال بيض ترائب[2]
فخرقت جيب الليل عن شخص أطلس	تطلع وضاح المضاحك قاطب[3]
رأيت به قطعاً من الفجر أغبشاً	تأمل عن نجم توقد ثاقب[4]
وأرعن طماح الذؤابة باذخ	يطاول أعنان السماء بغارب[5]
يسد مهب الريح عن كل وجهة	ويزحم ليلاً سهبه بالمناكب[6]
وقور على ظهر الفلاة كأنه	طوال الليالي مفكر في العواقب[7]
يلوث عليه الغيم سود عمائم	لها من وميض البرق حمر ذوائب[8]
أصخت إليه، وهو أخرس صامت	فحدثني ليل السرى بالعجائب[9]
وقال : إلى كم كنت ملجأ قاتل	وموطن أواه تبتل تائب[10]

(١،٢،٣) اللغة : تكشف : ظهر، والذوائب : جمع ذؤابة وهي الخصلة من الشعر المتدلي، والترائب : عظام الصدر أو ما ولى الترقوتين منه أو ما بين الثديين غبرة إلى سواد، ووضاح المضاحك : أي تتراءى في خلاله أشعة الفجر، وقاطب : أي أنه لا يزال عليه من غبش الليل بقية.

والترقوتين : عظمان في موضع الكتف أو موضع القلادة؛ وأطلس : شخص أطلس، والأطلس الذي في لونه غبر.

(٤) اللغة : ثاقب : لامع.

المعنى : رأيت به قطعاً أغبش من الفجر لا يزال يبدو فيه نجم متوقد ثاقب، وهو الزهرة أو عطارد، لأنهما من كواكب الصباح يكونان بالتبادل على الأفق عند طلوع الفجر.

(٥،٦) اللغة: وأرعن: ورب جبل أرعن مرتفع القمة، وباذخ: عال، والغارب: الكاهل، والمناكب : جمع منكب : وهو مجتمع رأس الكتف والعضد.

يقول : ورب جبل عالي القمة يطاول السماء بكاهله، يحول دون سير الريح وهبوبها، ويزحم الكواكب بالمناكب.

(٧،٨) اللغة: الفلاة: القفر أو المفازة لا ماء فيها أو الصحراء الواسعة، يلوث: يلف ويعمم على رأسه من الغيم عمائم سوداء لها بروق حمر.

(٩) اللغة : أصخت : استمعت، والسرى : السير ليلاً.

(١٠) اللغة : الأواه : التائب وتبتل إلى الله : انقطع للعبادة.

المعنى: كثيراً ما التجأ إلى القائلون وأوى إلى العابدون من الرهبان الذين ينون صوامعهم في رؤوس الجبال.

وكم مربي من مدلج ومؤوب — وقال بظلي من مطي وراكب[1]
ولاطم من نكب الرياح معاطفي — وزاحم من خضر البحار غواربي[2]
فما كان إلا أن طوتهم يد الردى — وطارت بهم ريح النوى والنوائب[3]
فما خفق أيكي غير رجعة أضلع — ولا نوح ورقي غير صرخة نادب[4]
وما غيض السلوان دمعي، وإنما — نزفت دموعي في فراق الصواحب[5]
فحتى متى أبقى؟ ويظعن صاحب — أودع منه راحلاً غيـر آئب[6]
وحتى متى أرعى الكواكب ساهراً — فمن طالع أخرى الليالي وغارب[7]
فرحماك يا مولاي دعوة ضارع — يمد إلى نعماك راحة راغب[8]
فأسمعني من وعظه كـل عبـرة — يترجمها عنه لسـان التجـارب[9]
فسلى بما أبكي وسرى بما شجى — وكان على عهد السرى غير صاحب[10]
وقلت ومـن نكـبت عنـه لطيـة — سلام فأنا من مقيـم وذاهب[11]

٣٤ ــ وقال أبو الحسن بن الحباب يرثي ثاني ملوك بني الأحمر أبا عبدالله (٦٧١ــ٧٠١هـ) ويمدح ولده بتقلد أمره بعده :

---

(١) اللغة : المدلج : من الدلج وهو السير من أول الليل، والمؤوب : من الأوب والإياب هو الرجوع، وقال : أي نام وقت القيلولة وهي نصف النهار.

(٢) اللغة : النكب بضم النون وإسكان الكاف. جمع نكباء، وهي الريح تهب بين مهبي ريحين، ومعاطفي وغواربي : يريد بهما جوانبي وأظهري.

(٣) اللغة : طوتهم : أخفقتهم والمراد أماتتهم، والنوى : الفراق والبعد.

(٤) اللغة : خفق أيكي : أي خفق غصون أيكي، والأيك : اسم جمع لايكة والأيك : الأشجار المتكاثفة، والورق : جمع ورقاء وهي الحمامة.

(٥) اللغة : غيض الدمع : نقصه وحبسه، ويقال : غاض الكرام أي قلوا، والسلوان : النسيان والتسلي، ونزفت : سكبت واستنفدت.

(٦،٧) اللغة: ويظعن: يرحل. وأرعى الكواكب: أراعيها وأساهرها.

(٨،٩) اللغة: الضارع: الخاشع، والراحة: كف السيد، والعبرة: العظة.

(١٠) اللغة : فسلى : فأنسى، وسرى : أزال، وشجى : أطرب.

(١١) اللغة : نكبت عنه : ملت عنه، وانصرفت، والطية : الحاجة والقصد ووجهة المسافر، ومن في « ومن مقيم » زائدة أو بيانية، أي فأنا من بين مقيم وهو أنت وذاهب وهو نحن.

مصاب جليل وصنع جميل ... وملك سعيد وأجر جزيل
فذاك يهيج برح الأسى ... وهذا يسكن فرط الغليل
وكل الأنام له باهت ... وكل فؤاد صحيح عليل
فمذ غاض بحر الندى لم تزل ... بحار الدموع عليه تسيل
وحق لأجفاننا أن تصو ... ب وحق لأجسادنا أن تحول
لئن ساءنا خطب ذاك المصا ... ب لقد سره وشك ذاك الرحيل
فمن قصره وإلى قصره ... فطاب معرسه والمقيل
تبدل من نعمة تنقضي ... نعيماً مقيماً ونعم البديل
وعوض من زائل باقياً ... فها هو في نعمة لا تزول
فقل للمعادين : موتوا أسى ... وقل للموالين : كفوا العويل
فقد حل حيث اشتهى، وارتقى ... بأعلى محل وأسنى مقيل
وأولاه مولاه ما اختاره ... وقابل أعماله بالقبول
فما زال حزب الهدى في اعتزا ... ز لديه، وحزب الضلال الذليل
فطوراً يسير إلى حربهم ... ففي كل فج دماء تسيل
وطوراً يجهز جيشاً لهم ... ففي كل حزن وسهل رعيل
وخلف فينا الرضا العادل ال ... إمام السعيد الهمام الجليل
به ألف الله شمل الهدا ... ة وجدد ربع المعالي المحيل
ضللنا لفقد إمام الهدى ... فكان لنا منه أهدى دليل
فقال لإعزاز دين الإلا ... ه فكان له الله نعم الوكيل
فصبراً لخطب يهد القوي ... وبشرى لهذا الفعال الجميل
فلولاك يا محيي المكرما ... ت لما غادر الحزن منا العقول
ولولاك من للعلى بعده ... وللصفح عن مذنب مستقيل ؟
ومن للكفاح وسمر الرما ... ح، ومن للحسام اليمان الصقيل؟
ومن للعباد ومن للبلاد ... ومن للسماح وبذل الجزيل ؟
ومن للأيادي وقتل الأعادي ... ويوم الجلاد العريض الطويل
وقد جبر الله صدع القلوب ... بحار على نهج تلك السبيل

بغيث العفـاة وسـم العـدا ... ة، وأسعد كاف، وأسنى كفيل
فأشرقت الأرض من بعد ما ... تـردت بغيـهب ذاك الأفـول
وألـــبس أندلســـاً عدلـــه ... جمالاً فليس لها من عديـل
فـدم للأنـام كمـا تبتغـــي ... عليك من النصر ظل ظليـل
وقابل جميع جيـوش الأسـى ... بصبـر يـرد شباهـا فليــل
ولا زلت في ملكك المعتلى ... وفـي نعـم ضافيـات الذيـول

٣٥ ــ وكان ثالث ملوك بني الأحمر بـن محمـد بـن يوسـف (٧٠١ــ٧٠٨هـ) شاعراً بليغاً، وكان شعره مستطرفاً من مثله. لا، بل يفضل به الكثير ممن ينتحل من الملوك الشعر. وكان له مجموع منه ألفه بعض خدامه. فمن بعض المطولات :

واعدنـي وعـداً وقـد أخلفـا ... أقل شيء في المـلاح الوفا
وحـال عهـدي ولـم يرعـه ... مـا ضـره لـو أنـه أنصفـا
مابالهـا لـم تتعطـف علـى ... صب لها مـا زال مستعطفا
يستطلـع الأنبـاء مـن نحوهـا ... ويـرقب البـرق إذا مـا حفـا
خفقت سقماً عن عيان الورى ... وبان حبي بعد ما قد خفـا
لله كـم مـن ليلـة بتهـا ... أدير مـن ذاك اللمـى قرقفـا
متعتنـي بالوصـل منهـا ومـا ... أخلفت عهداً خفت أن يخلفا

ومنها :

ملكـتك القـلب وإنـي امـرؤ ... على ملك الأرض قد وقفـا
أوامري في النـاس مسموعـة ... وليس مني في الورى أشرفا
يرهف سيفي في الوغى مصلتا ... ويتقــى عزمــي إذا أرهفــا
وترتجى يمنـاي يـوم النـدى ... تخالها السحب غدت وكفا
نحن ملوك الأرض من مثلنا ؟ ... حزناً تليـد الفخـر والمطرفـا
نخاف إقداماً ونرجـى نـدى ... لله مـا أرجـى ومـا أخوفـا
لي راية في الحرب قد غادرت ... ربع العدى قاعاً بها صفصفا

يا ليت شعري والمنى جمة　　والدهر يوماً قد يرى منصفا
هـل نرتجي اليـوم تدانيكـم　　أو يصبح الدهـر بـه مسعفـا

٣٦ ــ وقال الشيخ القاضي أبو بكر بن شبرين يرثي السلطان اسماعيل أحد ملوك بني الأحمر (٧٢٥ــ٧٣٤هـ)، ويعرض ببعض من حمل عليه من خدمه :

استقــــلا ودعانــــي　　طائفــاً بيــن المغانــي
وانعما بالصبـر إنـي　　لا أرى مــا تريــان
قضي الأمر الذي في　　شأنــــه تستفتيــــان
ومضــى حكــم إلــه　　ما له في الملك ثان
مات يوم السلم قعصاً[1]　　مدره الحرب العوان
يــا خليلــي أعينــا　　ني على شجو عناني
واذكرا سابغـة النعـ　　ـمة فيمـا تذكـران
وإذا صليتمــا يــو　　مــاً عليــه أذنــان
مـا علمنـا غيـر خيـر　　فاقضيـا مـا تقضيـان
لا نبالي مـا سمعنـا　　مــن فــلان وفــلان
غير ما قالوا اعتقدنا　　وعلينــا شاهـــدان
وغـدا يجمعنـا المـو　　قف : من قاص ودان
ورضى الله هو المطـ　　ـلوب فـي كـل أوان
وأخو الصدق لعمري　　ذو مقامـات حسـان
وهـوى النـفس عنـاء　　حائـل دون المغانـي
وعلى البغضاء يطـوي　　ود اخــوان الخــوان
بأبـــي والله أشـــلا　　ء على الرمل حواني
بفتـى مـا كـان بالـوا　　نــي ولا بالمتوانــي

(١) القعص : الموت المعجل.

يمزج الماء نجيعاً　　وينادي : عللاني
ليس بالهابة النكس　　ولا الغمر الهدان
أبيض الوجه تراه　　والردى أحمر قان
أي سيف لضراب　　أي رمح لطعان
ذو نجار خزرجي الـ　　ـمنتمى سامي المكان
ذكره قد شاع في الأر　　ض إلى أقصى عمان
لا تراه الدهر إلا　　خلف سرج أو عنان
عن صهيل الخيل لا يلـ　　ـهيه تعزاف القيان
إن ألمت هيعة طا　　ر إليها غير وان
يصدع الليل بقلب　　ليس بالقلب الجبان
يا لها من نصبة لو　　لا نحوس في القرآن
وشباب عاجلوه　　بالردى في العنفوان
لم يجاوز من سنيه الـ　　ـعشر الا بثمان
دوخ الأقطار غزواً　　من هضاب ومحاني
حكموا فيه الظبى أسـ　　ـرع من لمح العيان
إن يكونوا غادروه　　في الثرى ملقى الجران
تشرب الأرض دماً منـ　　ـه تهاداه الغواني
وتحييه بتسليـ　　ـم ثغور الأقحوان
فالمعالي أودعته　　بين سحر وليان
وغوادي المزن يرضعـ　　ـن ثراه بلبان
ضاع صرح الثغر لما　　أغمد السيف اليماني
وأعير الأسد الور　　د القميص الأرجواني
عاطياني أكؤس الحز　　ن عليه عاطياني
حمله دون صلاة　　للثرى مما شجاني
أو ما كانوا له يد　　عون أعقاب الأذان ؟
لا تهينوه فما كا　　ن بأهل للهوان

عجبي والله من إبـ — ـطان هذا الشنآن
أنا مذ غاب فبالسا — لي فؤاداً ما أراني
وبحسبي دعوات — أنا فيها ذو افتتان
بت أهديها إليه — بعد ترتيل المثاني
ذاك جهدي إن احسا — ن أبيه قد غذاني
فأنا الشيعة حقاً — بفؤادي ولساني
أفأنسى ذلك العهـ — ـد وليس الغدر شأني ؟
ويقال الرشح موجو — د قديماً في الأواني
وعهود الناس شتى — من عجاف وسمان
وهي النعمة حقاً — شكرها في كل آن
اتئد يا فارس الخيـ — ـل فغير الله فان
والمعالي تطلب الثا — ر وتأتي بالأماني
وهي الأرحام ولا تنسـ — ـى ولو بعد زمان
أنت من رحمة غفا — ر الخطايا في ضمان
وهو يوفي الخصم إن شا — ء : وزاناً بوزان
والذي أفشى قبيحاً — حظه عض البنان
سلم الله على من — فيه ذو جهل لحاني
وجزاه بجهاد — جاء منه ببيان
ربنا أنت خبير — بخفيات الجنان
ويداك الدهر فينا — بالندى مبسوطتان
ومجال العفو رحب — والرضى غض المجاني
فتغمدنا برحمى — وقبول وأمان
واجمع الشمل على أفـ — ـضل حال في الجنان

٣٧ ــ وقال ابن عبدون، المتوفى سنة ٥٢٠هـ، في رثاء بني الأفطس من ملوك الطوائف :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور[1]
أنهاك أنهاك لا أنهاك واحدة عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة والبيض والسمر مثل البيض والسمر[2]
ولا هوادة بين الرأس تأخذه يد الضراب وبين الصارم الذكر[3]
فلا يغرنك من دنياك نومتها فما صناعة عينيها سوى السهر
هوت بدارا، وفلت غرب قاتله وكان عضباً على الأملاك ذا أثر[4]
واسترجعت من بني ساسان ما وهبت ولم تدع لبني يونان من أثر[5]
وما أقالت ذوي الهيئات من يمن ولا أجارت ذوي الغايات من مضر[6]
ومزقت سبأ في كل قاصية فما التقى رائح منهم بمبتكر[7]

---

(١) فجعه كمنع : أصابه بمصيبة : عين الشيء : نفسه. الأثر : بقيته. الأشباح جمع شبح : وهو الشخص أي سواد الإنسان وغيره. الصور جمع صورة : وهي شكل الشيء. وقد جعل الشاعر الأشباح في مقابلة العين والصور في مقابلة الأثر، والمعنى أن الدهر لا يبقي شيئاً، فان بقيت منه صورة أتى عليها، فاذا كان هذا فعل الدهر فلا معنى للبكاء على شيء.

(٢) رجل حرب : أي عدو، للذكر والأنثى والجمع والواحد، لأنه في الأصل مصدر فلما وصف به بقي على إفراده. البيض والسمر الأولان، يصح أن يراد بهما النساء البيض والسمر. ويكون قد ضربهما مثلاً لغدر الزمان، يريد أن النساء، وإن كان شأنها اللين والضعف، ومسرة الإنسان، يجيئ من ناحيتها الشر، فيكن كالسيوف والرماح.

(٣) الهوادة : الرفق واللين. الذكر : القوي. يشير إلى أن الدهر لا تهدأ حوادثه، فلا يمر منه يوم، إلا والحرب فيه مستعرة.

(٤) داراً : آخر ملك من ملوك الفرس الأولى، وقاتله هو الإسكندر. العضب : السيف. الأثر والأثر. والأثر معناها فرند السيف.

(٥) بنو ساسان : هم الفرس الأواخر. وأبوهم الذي ينسبون إليه هو ساسان الأصغر وهو أردشير بن بابك.

(٦) الهيئة : الشارة والعلامة. الغاية : من معانيها الراية. يقال أقال الله عثرتك وأقالكها. وأجاره : قبله في جواره وحماه، والمعنى أن الأيام والليالي لم تمنع ضررها عن ملوك اليمن ومضر.

(٧) سبأ : هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان، وسمي بذلك لأنه أول من أدخل السبي في بلاد اليمن، وقد ذكر الله تمزيق أولاد سبأ بقوله تعالى: ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم=

ونفذت في كليب حكمها ورمت مهلهلاً بين سمع الأرض والبصر

٣٨ ــ ومن شعر الوصف :

شجرية ذهبية نزعت إلى سحر يؤثر في النهى تأثيرا
وكأنما تأبى لوقع طيرها أن تستقل بهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فإن شدت جعلت تغرد بالمياه صفيرا
وكأنما في كل غصن فضة لانت فأرسل خيطها مجرورا

٣٩ ــ ومن نظم الفنون ــ وقد كثر عندهم، فنظموا قواعد العلوم والفنون كالتاريخ، والعروض، والنحو، والصرف، والبديع، والفقه، ولابن عبد ربه أرجوزتان، إحداهما في العروض، والأخرى في تاريخ المنذر ابن محمد، (٢٧٣ ــ ٢٧٥) من خلفاء بني أمية ــ قول ابن عبد ربه في أرجوزته الأخيرة وهي طويلة، منها :

بالمنذر بن محمد شرفت بلاد الأندلس
فالطير فيها ساكن والوحش فيها قد أنس

٤٠ ــ وقال أبو البقاء صالح بن شريف الرندي المتوفى سنة ٦٩٨هـ، يرثي الأندلس :

= آية جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم، واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور، فاعرضوا، فأرسلنا عليهم سيل العرم، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ ومزقناهم كل ممزق ﴾، وقد وصفوا عمارة هذه الأرض فقالوا : إن المرأة كانت إذا أرادت أن تجتني من ثمارها شيئاً وضعت مكتلها على رأسها وخرجت تمشي تحت الأشجار وهي تغزل، أو تعمل ما شاءت فلا ترجع حتى يمتلىء مكتلها. ولما تمزق أولاد سبأ كانوا عشرة. سكن الشام منهم أربعة : وهم لخم، وجذام، وغسان وعاملة. وسكن اليمن ستة هم كندة ومذحج وحمير والأزد وأنمار والأشعريون. والرواح الوقت من الزوال إلى الليل، والسير فيه، وراح إلى أهله أي رجع في هذا الوقت، والابتكار أو البكور : الخروج وقت البكرة، وهي من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

لك شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور، كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتماً كل سابغة ... إذا نبت مشرفيات وخرصان[1]
وينتضي كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذي يزن والغمد غمدان[2]

ومنها :

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان[3]
أصابها العين في الإسلام فارتزأت ... حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان
وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان

٤١ ــ وقال ابن الأبار القضاعي المتوفى ٦٥٨هـ وكان قد أرسله زيان صاحب بلنسية إلى أبي زكريا صاحب افريقيا يستنجده

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً ... إن السبيل إلى منجاتها درسا[4]

---

(١) السابغة : الدرع التامة الطويلة. نبا السيف : أخطأ الضريبة. المشرفيات : جمع مشرفي، وهو السيف وإنما سميت كذلك، نسبة إلى المشارف وهي قرى من أرض العرب، تدنو من الريف في بلاد الفرس، كانت العرب تجلب منها السيوف فنسبت إليها، والنسبة كما تعلم للواحد. الخرصان، بضم الخاء وكسرها، جمع خرص بالضم، وهو القناة أو السنان.

(٢) انتضى السيف : جرده من غمده كنضاه... ذو يزن : من ملوك اليمن. غمدان : قصر بصنعاء باليمن، بناه يشرخ بأربعة وجود : أحمر وأبيض وأصفر وأخضر، وبنى داخله قصراً بسبعة سقوف، بين كل سقفين أربعون ذراعاً. أو قبة سيف ابن ذي يزن، أو حصن في رأس جبل صنعاء.

(٣) أحد : جبل أحمر قرب المدينة يقع شماليها، وعنده كانت الوقعة الفظيعة، التي قتل فيها حمزة عم النبي ﷺ، وثلاثة وسبعون صحابياً، وكسرت رباعية الرسول، وشج وجهه الشريف وكلمت شفته : ثهلان : جبل من جبال نجد.

(٤) درس الطريق ودرسته الريح كلاهما من باب قعد : بمعنى خفيت معالمه.

وهب لها من عزيز النصر ما التمست | فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها | فطالما ذاقت البلوى صباح مسا[1]
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً | للحادثات وأمسى جدها تعسا[2]
في كل شارقة إلمام بارقة | يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة إخجال شارقة | تثني الأمان حذاراً والسرور أسى[3]
وفي بلنسية منها وقرطبة | ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا[4]
مدائن حلها الإشراك مبتسماً | جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا

٤٢ — ومما كتب به آخر ملوك الأندلس، أبو عبدالله محمد، إلى سلطان فارس يتوسل إليه، وهي من إنشاء كاتبه البليغ؛ أبي عبدالله محمد العقيلي :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم | رعياً لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن | جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً | وأفظع الخطب ما يأتي على الرغم

---

(١) يقال حاشى فلاناً من القوم أن استثناه، والمعنى : أنقذ حشاشة الأندلس (بقية روحها) مما تعانيه وتقاسيه من العذاب.

(٢) اللام في للجزيرة، داخلة على المستغاث له، فهي لذلك مكسورة، والمستغاث به مقدر والأصل يا لك أيها الملك للجزيرة، الجزر: بالتحريك الشاء السمينة ومعنى كون أهل الحزيرة صاروا شياهاً سمانا، أنهم أعدوا للذبح، كما تعد هذه الشياه له.

(٣) الشارق : الجانب الشرقي فتكون الشارقة الشرقية، وكذلك الغاربة الناحية الغربية، البارقة : السيوف. الشائبة : واحدة الشوائب وهي الأدناس والأقذار، يقول : في كل ناحية شرقية من هذه البلاد تدنو سيوف يكون من آثار فعلها مأتم عند أهل البلاد وعرس عند المغيرين المعتدين كما قال المتنبي (مصائب قوم عند قوم فوائد). وكذلك في كل جهة غربية تحدث أمور دنسة مخجلة من فعل الأعداء، تقلب الأمن للأهلين خوفاً، والسرور حزناً.

(٤) نسف الشيء : اقتلعه من أصله. نزف البئر : نزح ماءها. النفس : من معانيها الجسد والدم. وظاهر أنه يجب ارادة المعنى الأول في قوله ينسف النفس، والمعنى الثاني في ينزف النفس، ومع ملاحظة أن الأخيرة وردت في البيت محركة، والأصل تسكينها.

حكم من الله حتم لا مرد له ... وهل مرد لحكم منه منحتم
هي الليالي وقاك الله صولتها ... تصول حتى على الآساد في الأجم
كنا ملوكاً لنا في أرضنا دول ... نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صبب ... يرمى بأفجع حتف من بهن رمي

٤٣ ــ ولابن هانئ في الرثاء:

وهب الدهر نفيساً فاسترد ... ربما جاد بخيل فحسد
كلما أعطى فوفى حاجة ... بيد شيئاً تلقاه بيد
كاذب جاء جهاماً زبرجاً ... بعد ما أومض برق ورعد
خاب من يرجو زماناً دائماً ... تعرف البأساء منه والنكد
فإذا ما كدر العيش نما ... وإذا ما طيب الزاد نفد
فلقد أذكر من كان سها ... ولقد نبه من كان رقد
أبداً يعجم مني نبعة ... وقناة ليس فيها من أود

٤٤ ــ وللسان الدين بن الخطيب من موشح له :

يا أهيل الحي من وادي الغضا ... وبقلبي سكن أنتم به
ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا ... لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى ... تعتقوا عانيكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مغرماً ... يتلاشى نفساً في نفس
حبس القلب عليكم كرماً ... أفترضون عفاء الحبس

٤٥ ــ وكانت الأندلس ــ كما يقول باحث معاصر ــ مباءة الخيال ومسرحه، بما ركب الله في طبيعتها من فنون السحر والجمال. لذلك أتى شعراء الأندلس منه بالعجب العجاب في أشعارهم، فلهم التشبيهات البديعة، والتوليدات العجيبة، والأخيلة الرائعة. وكان ابن هانئ يطرق المعاني المعروفة. ولكنه بما يولد ويفلسف ويغرب، ويبدع في الصناعة، يخيل للناظر أنه أتى بالجديد المبتكر، وإنما المبتكر التوليد والخيال، والمعاني الجزئية. هذا مع ما لابن هانئ من المعاني الجديدة، التي

تسلكه في عداد الشعراء المبتكرين. انظر إلى قوله يتغزل :

قمن في مأتم على العشاق ... ولبسن السواد في الأحداق
وبكين الدماء، بالعنم الرطب ... المقنى، وبالخدود الرقاق[1]
ومنحن الفراق رقة شكوا ... هن، حتى عشقت يوم الفراق

ومن روائع التشبيهات قول حمدة بنت زياد :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا ... وليس لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة ... وقل حماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك وأدمعي، ... ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

وقول ابن خفاجة يصف السرى في فلاة :

ومفازة، لا نجم في ظلمائها ... يسري، ولا فلك بها دوار[2]
تتلهب الشعرى بها، وكأنها ... في كف زنجي الدجى دينار[3]
قد لفني فيها الظلام وطاف بي ... ذئب يلم مع الدجى زوار
والليل يقصر خطوه ولربما ... طالت ليالي الركب وهي قصار
قد شاب من طرف المجرة مفرق ... فيه، ومن خط الهلال عذار[4]

ومن إمعانهم في الخيال فَشَا في كلامهم هذا النوع البديعي المعروف بحسن التعليل، فقل أن تجد شاعراً لم يستعمله. ومن أمثلته قول أبي بكر بن زهر :

وموسدين على الأكف خدودهم ... قد غالهم نوم الصباح وغالني
ما زلت أسقيهم، وأشرب فضلهم ... حتى سكرت ونالهم ما نالني
والخمر تعرف كيف تأخذ ثارها ... إني أملت إناءها فأمالني

---

(١) العنم : شجر له ثمرة حمراء يشبه بها البنان المخضوب. المقنى : الشديد الحمرة.

(٢) المفازة : الفلاة لا ماء فيها.

(٣) الشعرى : كوكب يظهر في شدة الحر.

(٤) المجرة : منطقة في السماء ذات نجوم كثيرة لا يميزها البصر فترى بقعة بيضاء.

وقول ابن هانئ :

أثمرت رمحك من رؤوس ملوكهم ... لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وصبغت درعك من دماء كماتهم ... لما رأيت الحسن يلبس أحمرا

وقول ابن حمديس يصف نهراً صافياً :

ومطرد الأمواج يصقل متنه ... صبا أعلنت للعين ما في ضميره
جريح بأطراف الحصى كلما جرى ... عليه، شكا أوجاعه بخريره

وقول محمد بن البين البطليوسي يصف سرب نساء :

غصبوا الصباح، فقسموه خدودا ... واستنهبوا قضب الأراك قدودا
ورأوا حصا الياقوت دون نحورهم ... فاستبدلوا منه النجوم عقودا
واستودعوا حدق ألمها أجفانهم ... فسبوابهنّ ضراغماً وأسودا
لم يكفهم حمل الأسنة والظبا ... حتى استعاروا أعينا ونهودا
وتضافروا بضفائر أبدوا لنا ... ضوء النهار بليلها معقودا
صاغوا الثغور من الأقاحي بينها ... ماء الحياة لو اغتدى موروداً

وقالت حمدة بنت زياد تصف وادياً :

وقانا لفحة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه، فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ... ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا ... فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

٤٦ ــ وقال بعضهم يصف ناعورة :

وذات حنين ما تغيض جفونها ... من اللجج الخضر الصوافي على الشط
وتبكي فتحيي من دموع جفونها ... رياضاً تبدت بالأزاهر في بسط
فمن أحمر قان، وأصفر فاقع ... وأزهر مبيض، وأدكن مشمط
كأن ظروف الماء من فوق متنها ... لآلي جمان قد نظمن على قرط

وقال أبو عبدالله الشبلي القائد يصف موقعة بينه وبين أعدائه :

ولما تلاقينا، جرى الطعن بيننا فمنا ومنهم طائحون عديد
وجال غرار الهند فينا وفيهمو فمنا ومنهم قائم وحصيد
فلا صدر إلا فيه صدر مثقف وحول الوريد للحسام ورود
صبرنا ولا كهف سوى البيض والقنا كلانا على حر الجلاد جليد
ولكن شددنا شدة فتبلدوا ومن يتبلد لا يزال يحيد
فولوا وللسمر الطوال بهامهم ركوع وللبيض الرقاق سجود

٤٧ ــ وقال ابن سهل الاسرائيلي يصف جمال الطبيعة :

الأرض قد لبست رداء أخضرا والطل ينثر في رباها جوهرا
هاجت فخلت الزهر كافوراً بها وحسبت فيها الترب مسكاً أذفرا
وكأن سوسنها يصافح وردها ثغر يقبل منه خداً أحمرا
والنهر ما بين الرياض تخاله سيفاً تعلق في نجاد أخضرا
وجرت بصفحتها الربا فحسبتها كفا ينمق في الصحيفة أسطرا
وكأنه ــ إذ لاح ــ ناصع فضة جعلته كف الشمس تبراً أصفرا
والطير قد قامت به خطباؤه لم تتخذ إلا الأراكة منبرا

٤٨ ــ وقال أبو عبدالله بن الأزرق قاضي الجماعة بقرطبة :

عم باتصال الزمن ولا تبالي بمن
وهو يواسي بالرضا من سمج أو حسن
أو من عجوز تحتظى والظهر منها منحنى
أو من مليح مسعد موافق في الزمن
مهما تبدى خده يبدو لك الورد الجنى
والغصن في أثوابه اذا تمشى ينثني
لا أم لي، لا أم لي إن لم أبرد شجني
وأخلعن في المجو ن والتصابي رسني
وأجعل الصبر على هجر الملاح ديدني

ومنها :

فإنني لنا صح ... وإنني، وانني
فلا تكن لي لاحيا ... وفي الأمور استفتني
فلم أزل أعرب عن ... نصحي لمن لم يلحني
وان تسفه نظري ... ومذهبي وتنهني
فالصفع تستوجبه ... نعم ونتف الذقن
وبعد هذا أشتفي ... منك، ويبرا شجني
وأضرب الكف أما ... م ذلك الوجه الدني
قد كان أولى بك عن ... هذي المخازي تنثني
النفي تستوجبه ... لواسط أو عدن
عرضت بالنفس كذا ... الى ارتكاب المحن
أفدي صديقاً كان لي ... بنفسه يسعدني
فتارة أنصحه ... وتارة ينصحني
وتارة ألعنه ... وتارة يلعنني
وربما أصفعه ... وربما يصفعني
أستغفر الله، فهـ ... ـذا القول لا يعجبني
يا ليت هذا كله ... فيما مضى لم يكن
أضحكت والله بذا ... حديث من يسمعني
دهر تولى وانقضى ... عني كطيف الوسن
يا ليتني لم أره ... وليته لم يرني
دنست فيه جانبي ... وملبسي بالدرن
وبعت فيه عيشتي ... لكن ببخس الثمن
كأنني ولست أد ... ري اليوم ما كأنني
والله ما التشبيه عنـ ... ـد شاعر بهين
لكنه أنطقني ... بالقول ضيق العطن
واحسرتي، واأسفي ! ... زلت وضاعت فطني

لو أنصف الدهر لما أخرجني من وطني
وليس لي من جنة وليس لي من مسكن
أسرح الطرف وما لي دمنة في الدمن
وليس لي من فرس وليس لي من سكن
يا ليت شعري وعسى يا ليت أن تنفعني
هل أمتطي بوماً الى الـ شرق ظهور السفن
وأجتلي ما شئته في المنزل المؤتمن
حينئذ أخلع في هدي القوافي رسني
من منقذي أفديه من ذا الجوع والتمسكن
وعلة قد استوى فيها الفقير والغني
هل للثريد عودة إلي، قد شوقني
تغوص فيه أنملي غوص الأكول المحسن
لا تنسبوا لي سفها فالجوع قد أرشدني

وبعد أن مضى يعدد ألوان الطعام التي يتشهاها قال :

إيه خليلي هذه مطاعم لكنني
أعجب من ريقك اذ يسيل فوق الذقن
هل نلت منها شبعاً فذكرها أشبعني
وان تكن جوعان يا صاح فكل بالأذن
فليس عند شاعر غير كلام الألسن
يصور الأشياء وهـ ـي أبداً لم تكن
فقوله يريك ما ليس يرى بالممكن
ولتنصرف، فقصدنا أطراف هذا الموطن

٤٩ ــ وقال ابن عبد ربه :

يقول لي العاذل : تب عن هوى من ليس يدنيك إلى مطلب
وكيف لي، والدين دين الهوى فلا أرى أرجح من مذهبي ؟

أليس باب التوب قد سده   طلوعه شمساً من المغرب ؟

٥٠ — وقال ابن شهيد، وقد عرضت له جارية :

أصباح لاح، أم بدر بدا   أم سنا المحبوب أورى زندا ؟
هب من نعسته منكسرا   مسبل للكم، مرخ للردا
يمسح النعسة من عيني رشا   صائد في كل يوم أسدا
قلت : هب لي يا حبيبي قبلة   تشف من حبك تبريح الصدى
فانثنى يهتز من منكبه   قائلاً : لا، ثم أعطاني اليدا
كلما كلمني قبلته   فهو ما قال كلاماً رددا
قال لي يلعب : صد لي طائراً   فتراني الدهر أجري بالكدا[1]
وإذا استنجزت يوماً وعده   قال لي يمطل : ذكرني غدا
شربت أعضاؤه خمر الصبا   وسقاه الحسن حتى عربدا
رشأ، بل غادة ممكورة   عممت صبحاً بليل أسودا[2]

٥١ — ولشاعر اندلسي لما استولى المسيحيون على بلنسية يخاطب صاحب إفريقية ابا زكريا عبد الواحد بن أبي حفص :

نادتك أندلس فلب نداءها   واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعوتك العلية، فاحبها   من عاطفاتك ما يقي حوباءها
واشدد بجلبك جرد خيلك أزرها   تردد على أعقابها أرزاءها
رش أيها المولى الرحيم جناحها   واعقد بأرشية النجاة رشاءها
أشفي على طرف الحياة ذماؤها   فاستبق للدين الحنيف ذماءها
حاشاك أن تفنى حشاشتها وقد   قصرت عليك نداءها ورجاءها
طافت بطائفة الهدى آمالها   ترجو بيحيى المرتضي إحياءها

---

(١) الكدا بضم الكاف : الصحراء.

(٢) الممكورة من النساء : المستديرة الساقين، أو المطوية الخلق، يقال : امرأة ممكورة الساقين أي جدلاء اللسان.

واستشـرفت أمصارهـا لإمـارة عقدت لنصر المستضام لواءها
يـا حسرتـي لعقائـل معقولـة سئم الهوى نحو الضلال هداءها
إيه بلنسية، وفـي ذكـراك مـا يمري الشئون : دماءها لا ماءها
كيف السبيل إلى احتلال معاهد شب الأعاجـم دونهـا هيجاءهـا
وإلى ربا وأباطح لـم تعـر مـن حلل الربيـم، مصيفهـا وشتاءهـا
طاب المعرس والمقيـل خلالهـا وتطلعت غـرر المنـى أثناءهـا
بأبي مـدارس كالطلـول دوارس نسخت نواقيس الصليب نداءها
ومصانع كثف الضلال صياحها فيخالـه الرائـي اليـه مساءهـا
ناحت بها الورقاء تسمع شدوها وغدت ترجـع نوحهـا وبكاءهـا
عجباً لأهـل النـار حلـوا جنة منهـا تمـد عليهـم أفياءهـا
صفحاً جميلاً أيها المولى الرضى عن محكمات لم نطق إحصاءها
تقـف القوافي دونهـن حسيـرة لا عيهـا تخفـي ولا إعياءهـا

الفصل الثالث

فن الموشحات في الأدب الأندلسي
صور من الموشحات

الموشحة المنسوبة لابن المعتز:

أيها الساقي، إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع
ونديم همت في غرته
وشربت الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق اليه واتكا وسقاني أربعاً في أربع
ما لعيني عشيت بالنظر ؟
أنكرت بعدك ضوء القمر
وإذا ما شئت فاسمع خبري
عشيت عيناي من طول البكا وبكى بعضي على بعضي معي
غصن بان مال من حيث التوى
مات من يهواه من فرط الجوى
خفق الأحشاء موهون القوى

كلما فكر في البين بكى   ما له يبكي لما لم يقع ؟

ليس لي صبر، ولا لي جلد

يا لقومي عذلوا واجتهدوا

أنكروا شكواي مما أجد

مثل حالي حقه أن يشتكي   كمد اليأس وذل الطمع

كبدي حرى ودمعي يكف

يذرف الدمع ولا ينذرف

أيها المعرض عما أصف

قد نما حبي بقلبي وزكا   لا تقل في الحب : إني مدعي

موشحة ابن سهل:

وهي على وزن الرمل المحذوف، قال ابن سهل الإسرائيلي:

هل درى ظبي الحما، أن قد حمى   قلب صب حله عن مكنس

فهو في حر وخفق مثلما   لعبت ريح الصبا بالقبس

يا بدوراً أطلعت يوم النوى   غرراً تسلك بي نهج الغرر

ما لقلبي في الهوى ذنب سوى   منكم الحسن، ومن عيني النظر

أجتني اللذات مكلوم الجوى   والتذاذي من حبيبي بالفكر

كلما أشكوه وجدا بسما   كالربا بالعارض المنبجس

إذ يقيم القطر فيها مأتما   وهي من بهجتها في عرس

غالب لي، غالب بالتؤده   بأبي أفديه من جاف رقيق

ما رأينا مثل ثغر نضده   أقحوان عصرت منه رحيق

أخذت عيناي منه العربده   وفؤادي سكره ما إن يفيق

فاحم اللمة، معسول اللمى   أكحل اللحظ، شهي اللعس

وجهه يتلو الضحى مبتسماً   وهو من إعراضه في عبس

أيها السائل عن ذلي لديه   لي جزاء الذنب. وهو المذنب

أخذت شمس الضحى من وجنتيه   مشرقاً للصب فيه مغرب

ذهب الدمع بأشواقي إليه   وله خد بلحظي مذهب
يطلع البدر عليه كلما   لاحظته مقلتي في الخلس
ليت شعري، أي شيء حرما   ذلك الورد على المغترس

كلما أشكو إليه حرقي   غادرتني مقلتاه دنفا
تركت ألحاظه من رمقي   أثر النمل على صم الصفا
وأنا أشكره فيما بقي   لست ألحاه على ما أتلفا
فهو عندي عادل إن ظلما   وعذولي نطقه كالخرس
ليس لي في الحب حكم بعدما   حل في النفس محل النفس
منه للنار بأحشائي اضطرام   تتلظى كل حين ما تشا
وهي في خديه برد وسلام   وهي ضر وحريق في الحشا
أتقي منه على حكم الغرام   أسد الغاب وأهواه رشا
قلت لما أن تبدى معلما   وهو من ألحاظه في حرس
أيها الآخذ قلبي مغنما   اجعل الوصل مكان الخمس

موشحة أبي الحسن المريني[1]

في نغمة العود والسلافه   والنهر والروض لي نديم
أطال من لامني خلافه   فظل في نصحه مليم[2]
دعني على منهج التصابي   ما قام لي العذر بالشباب
ولا تطل في الهوى عتابي   فلست أصغي إلى عتاب
لا ترج ردي إلى صواب   والكاس تفتر عن حباب
والغصن يبدي لنا انعطافه   إذا هفا فوقه النسيم
والروض أهدى لنا قطافه   واختال في برده الرقيم
يا حبذا عهدي القديم   ومن به همت مسعدي

---

(١) تولى عرش فاس أكثر من عشرين عاماً (٧٣١ — ٧٥٢ هـ) بعد والده ابن سعيد المريني، وتولى بعده ابنه أبو عنان العرش.
(٢) ألام : أتى ما يلام عليه !.

ريم عن الوصل لا يريم ... مولع بالتودد
ما تم إلا به النعيم ... طوعاً على رغم حسدي
معتدل القد ذو نحافه ... أسقمني طرفه السقيم
ورام طرفي به انتصافه ... فخذ من خده الكليم
غض الصبا عاطر المقبل ... أحلى من الأمن والأمل
ظامي الحشا مفعم المخلخل ... حلو اللمى ساحر المقل
لكل من رامه توصل ... لم يخش رداً بما فعل
أشكو، فيبدي لي اعترافه ... إن حاد عن نهجه القويم
لا أعدم الدهر منه رافه ... فحق لي فيه أن أهيم
لله عصر لنا تقضى ... بالسد[1] والمنبر البهيج
أرى ادكاري اليه فرضاً ... وشوقه دائماً بهيج
فكم خلعنا عليه غمضاً ... وللصبا مسرح أريج
ورد أطال المنى ارتشافه ... حتى انقضى شربه الكريم
لله ما أسرع انحرافه ... وهكذا الدهر لا يديم
يا من يحث المطي غربا ... عرج على حضرة الملوك
وانثر بها إن سفحت غربا[2] ... من مدمع عاطل سلوك
واسمع إلى من أقام صبا ... واحك صداه، لا فض فوك
بلغ سلامي قصر الرصافة ... واذكر له عهدي القديم
وحي عني دار الخلافة ... وقفة بها وقفة العريم

موشحة ابن باجة :

روى ابن خلدون أن الحكيم أبا بكر بن باجة حضر مجلس مخدومه ابن تيفلويت صاحب سرقسطة، فألقى على بعض قيناته موشحته :

---

(١) من منتزهات قرطبة.

(٢) الغرب : الدلو الكبيرة.

جـــرر الذيـــل أيمـــا جـــر وصـل الشكــر مـنك بالشكــر
خضب الزند منك باللهب
من لجين قد حف بالذهب
تحت سلك كجوهر الحبب
مع أحوى أعيذب الشنب
أودعت كفــه مــن السحـــر جامــد المـاء، وذائب التبـر
هاك نور الصباح قد لاحا
ونسيـم الريـاض قـد فاحـا
فتـأهب وشعشـع الراحـا
لا تقد في الظلام مصباحا
حيـــن تنهـــل أدمـــع القطـــر فقـل الـروض فاسـم عطـري
فهمـــوم راحت بأفـــراح
فـي مسـاء وعنـد إصبــاح
والغـوادي تجـود بالــراح
وهي تسقي الربـا بأقـداح
وقـــدود الأغصـــان بالسكـــر تنثنـــي فـــي غلائـــل خضـــر

واستمر فيها إلى أن ختمها بقوله :

عقـــد الله رايـــة النصـــر لأميـــر العـــلا أبـــي بكـــر

فلما طرق ذاك التلحين سمع ابن تيفولويت، صاح : واطرباه، وشق ثيابه، وقال : ما أحسن ما بدأت، وما ختمت، وحلف بالايمان المغلظة، لا يمشي ابن باجة إلى داره، إلا على الذهب، فخاف الحكيم سوء العاقبة، فاحتال بأن جعل ذهبا في نعله ومشى عليه.

موشحة لابن زهر :

قال ابن زهر الفيلسوف المتوفى سنة ٥٩٥هـ.

ما للموله من سكره لا يفيق يا له سكران
هـل تستعـاد أيامنـا بالخليـج ولياليـنـا
إذ يستفاد من النسيم الأريج مسك دارينا
وإذ يكاد حسن المكان البهيج أن يحيينا
نهر أظله روح عليه أسيق مونق فينـان
والماء يجري وعائم وغريق من جنى الريحان

موشحة ابن اللبانة :

قال ابن اللبانة الأندلسي المتوفى سنة ٥١٧هـ :
أذابت الأشواق، روحي على أجساد، أعارها الطاووس، من ريشه أبراد.

كـواعب أتـراب تشابـهت قـدا
عضت على العناب بالبـرد الأنـدى
أوصت بي الأوصاب وأعـرت الوجـدا
وأكثـر الأحبـاب أعدى من الأعدا[1]

موشحة لأبي حيان :

ولأثير الدين أبي حيان النحوي الأندلسي الغرناطي المتوفى بمصر سنة ٦٥٤هـ :

عاذلـي فـي الأهيـف الآنس لـو رآه الأسـد قـد عـذرا[2]
رشأ قد زانه الحـور

---

(١) الكواعب جمع كاعب : البنت نهد ثديها. العناب : ثمر أحمر تشبه أطراف الأنامل. البرد : الثلج وعنى به الأسنان.
(٢) الأهيف : الضامر البطن الرقيق الخاصرة.

غصن من فوقه قمر
قمر من سحبه الشعر
تفـــر فيـــه أم درر

جـــال بيـــن الـــدرر واللـــعس[1] خمـــرة مـــن ذاقهـــا سكـــرا

رجة بالردف أم كسل
ريقة بالثغر أم عسل
وردة بالخد أم خجل
كحل بالعين أم كحل

يـــا لهـــا مـــن أعيـــن نـــعس جلـــبت لناظـــري سهـــرا

مذ نأى عن مقلتي حسن
ما أذيقا لـذة الوسـن
طال ما ألقاه من شجن
عجبا ضدان في بـدن[2]

بفـــؤادي جـــذوة القـــبس وبعينـــي المـــاء منفجـــرا

موشحة لسان الدين بن الخطيب:

جادك الغيث إذا الغيث همى
يـا زمـان الوصـل بالأنـدلس
لـم يكـن وصـلك إلا حلمـا
في الكرى أو خلسة المختلس
اذ يقـود الدهر أسبـاب المنـى
تنقل الخطو على مـا نرسـم
زمـراً بيـن فـرادى وثنـى
مثل ما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنى
فسنـا الأزهـار فيـه يبسـم
وروى النعمان عن ماء السما
كيـف يـروي مـالك عـن أنس
فكسـاه الحسـن ثوبـاً معلمـا
يزدهـي منـه بأبهـى ملـبس
في ليـال كتـمت سـر الهـوى
بالدجى، لـولا شمـوس القـدر

---

(١) اللعس : سمرة مستحبة في الشفة.
(٢) الوسن : النعاس. الشجن : الحزن.

مال نجم الكأس فيها وهوى ‏ مستقيم السير سعد الأثر
وطر ما فيه من عيب، سوى ‏ انه مر كلمح البصر
حين لذ النوم منا، أو كما ‏ هجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا، أو ربما ‏ أثرت فينا عيون النرجس
أي شيء لامرئ قد خلصا ‏ فيكون الروض قد كنن[1] فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا ‏ أمنت من مكره ما تتقيه
فاذا الماء تناجى والحصا ‏ وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيور ندما ‏ يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآس لبيبافهما ‏ يسرق السمع بأذني فرس
يا أهيل الحي من وادي الغضى ‏ وبقلبي سكن أنتم به
ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا ‏ لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى ‏ تنقذوا عائذكم من كربه
واتقوا الله، وأحيوا مغرما ‏ يتلاشى نفساً من نفس
حبس القلب عليكم كرما ‏ أفترضون عفاء الحبس
وبقلبي فيكم مقترب ‏ بأحاديث المنى، وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب ‏ شقوة المغري به، وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب ‏ في هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة، معسول اللمى ‏ جال في النفس مجال النفس
سدد السهم وسمى ورمى ‏ بفؤادي نهبة المفترس
إن يكن جار وخاب الأمل ‏ وفؤاد الصب بالشوق ندوب
فهو للنفس حبيب أول ‏ ليس في الحب لمحبوب ذنوب
أمره معتمل ممتثل ‏ في ضلوع قد براها وقلوب
حكم اللحظ بها فاحتكما ‏ لم يراقب في ضعاف الأنفس
ينصف المظلوم ممن ظلما ‏ ويجازي البر منها والمسي

---

(١) استتر.

موشحة الوشاح :

وقد أبدع أبو بكر الأبيض الوشاح في قوله من موشحة له :

ما لذ لي شرب راح على رياض الأقاح   لولا هضيم الوشاح إذا أسى في الصباح
أو في الأصيل أضحى يقول   ما للشمول ؟ لطمت خدي
وللشمال هبت فمال   غصن اعتدال ضمه بردي
رمما أباد القلوب يمشي لنا مستريبا   يا لحظه رد ثوباً ويا لماه الشنيبا
برد غليل صب عليل   لا يستحيل فيه عن عهد
ولا يزال في كل حال   يرجو الوصال وهو في الصد

ومن أبدع موشحات عبادة القزاز موشحته التي فيها قوله :

لا جرم من لمحا   قد عشقا قد حرم

من موشحة التلمساني :

قال التلمساني من موشحة له :

يا مذيبا مهجتي كمدا   فقت في الحسن البدور مدى
يا كحيلا كحله اعتمدا   عجبا أن تبرئ الرمدا
وبسقم الناظرين كسى   جفنك السحار وانكسرا

من موشحة لأبي حيان :

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان، من موشحة له :

إن كان ليل داج   وخاننا الإصباح
فنورها الوهاج   يغني عن الصباح
سلافة تبدو   كالكوكب الأزهر
مزجها شهد   زعرفها عنبر
وحبذا الورد   منها وإن أسكر

وفيها يقول في وصف حبيبه :

بلحظــه المرهــف يسطو على الأسـد
كسطـوة الحجـاج في النـاس والسفـاح
فمـا تـرى مـن نـاج مـن لحظه السفـاح

من موشحة :

هـل يصـح الأمـان مـن شبيـه البـدر ؟
وهـو مثـل الزمـان منتـم للغـدر ؟

وهي معارضة للموشحة التي أولها :

ضـاحك عـن جمـان سافـر عـن بـدر
ضـاق عنـه الزمـان وحـواه صـدري

موشحة لابن بقي :

من موشحات ابن بقي قوله :

مـا ردنـي لابس ثوب الضنا الـدارس
الأقمر
فـي غصـن مـائس شعاعـه عـاكس
ضوء البصر

وقوله أيضاً :

خذ حديث الشوق عن نفسي وعـن الدمـع الـذي همعـا
ما تـرى شوقـي قـد وقـدا
وهمـا دمعـي واطـردا
واغتدى قلبي عليك سدى ؟

آه من ماء ومن قبس بين طرفي والحشا جمعا !
بأبي ريم إذا سفرا
أطلعت أزراره قمراً
فاحذروه كلما نظرا
فبألحاظ الجفون قسي
أنا منها بعض من صرعا

موشحة لابن بقي :

وقد قلد ابن بقي ابن المعتز في موشحته فقال :

غلب الشوق بقلبي فاشتكى ألم الوجد فلبت أدمعي
أيها الناس فؤادي شغف
وهو من بغي الهوى لا ينصف
كم أداريه ودمعي يكف
أيها الشادن من علمكا بسهام اللحظ قتل السبع
بدر تم تحت ليل أغطش
طالع في غصن بان منتشي
أهيف القد بخد أرقش
ساحر الطرف وكم ذا فتكا بقلوب الأسد بين الأضلع
أي ريم رمته فاجتنبا
وانثنى يهتز من سكر الصبا
كقضيب هزه ريح الصبا
قلب هب لي يا حبيبي وصلكا واطرح أسباب هجري ودع
قال : خدي زهرة مذ نوفا
جردت عيناي سيفاً مرهفا
حذراً منه بأن لا يقطفا

إن مـــن رام جنـــاه هلكـــا فـأزل عـنك أغـلال الطمـــع

ذاب قلبي في هوى ظبي غرير

وجهه في الدجن صبح مستنير

وفـؤادي بيـن كفيـه أسيـر

لـم أجـد للصبـر عنـه مسلكـا فانتصـاري بانسكـاب الأدمـــع

فن الموشحات الأندلسية

الموشحات[1] بين المشرق والمغرب :

الموشح فن جديد من فنون الشعر العربي يمتاز بجماله الفني، وكثرة صوره الشعرية وتعقيدها في صناعة الشعر وكثرة قوافيه وأدواره، وبأوزانه الكثيرة التي تلائم الذوق، وتوائم الموسيقى والغناء، وتتمشى مع الترف وجمال الفن، والموشح جار على طريقة أهل الروم، جاء من بلادهم خالياً من الكلام، ليس فيه سوى النغمات المخصوصة، ثم تأمل العرب أدواره ونظموا الموشحات على مقتضاه، ويقال إن أول التواشيح هو المنسوب إلى أولاد النجار عند قدوم النبي ﷺ المدينة، فاستقبلوه والجواري ينشدن :

---

(١) الموشحة من الظباء والشاء والطير : التي لها طرتان من جانبيها، قال الشاعر :

أو الأدم الموشحة العواطي   بأيديهن من سلم النعاف

والطرتان من الحمار وغيره مخطُّ الجَنْبَيْن، وديك موشح إذا كان له خطتان كالوشاح والخطة كالخط ، وثوب موشخ ذا كان فيه وشي.. وسمي الموشح موشحاً لأن خرجاته وأغصانه كالوشاح له، والوشاح والإشاح كرسان من لؤلؤ وجوهر منظومان مخالف بينهما، معطوف أحدهما على الآخر تتوشح به المرأة. والكرس : القلائد المضموم بعضها إلى بعض.

أشرقت أنوار محمد　　واختفت منه البدور
يا محمد يا محمد　　أنت نور فوق نور[1]

على أن هذا هو صورة بدائية للموشحات، والصلة بينه وبين الموشحات كما عرفها المتأخرون بعيدة أو منقطعة.. وقد جدد الشعراء العباسيون في القصيدة العربية تخلصاً من قيود القافية. ولكي يلائم الشعر الغناء، فاخترعوا المسمط والمخمس والمزدوج والدوبيت والمواليا والسلسلة والمخمسات، نظم عليها بشار ومحمد بن أبي بدر السلمي[2] ومحمد بن عيسى التميمي[3]، وسواهم من الشعراء العباسيين، ويراها ابن رشيق هي والمسمطات دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه[4]، ونسب لامرئ القيس مسمط، وينفي كثير من النقاد نسبته إليه[5].

والسبب الأول في اختراع الموشحات هو الغناء[6]، لأن أوزانها أحفل بالغناء والتلحين، الذي كان ضرورياً عند شعراء الأندلس من أوزان الشعر[7]، واتخذ في أول الأمر أداة للهو والمجون، ثم استعمل بعد ذلك في أغراض الشعر الأخرى[8].

وتنسب لابن المعتز (٢٤٧ــ٢٩٦هـ) أول موشحة من الموشحات

---

(١) ١٣٤ وما بعدها الموشحات لعلام خليل ــ مخطوط بكلية اللغة ــ وهذا النص عن كتاب « القصيدة الدرويشية في تحرير السبع الفنون الأدبية » للشيخ أحمد الدرويش ــ وهو مخطوط بدار الكتب المصرية.
(٢) ٤٤٩ معجم الشعراء.
(٣) ٤٥٢ المرجع نفسه.
(٤) ١٥٧ : ١ العمدة.
(٥) ١٥٧ : العمدة، ٦٣ــ٩٠ رسالة الغفران.
(٦) ١٦٣ : ٣ تاريخ آداب لغة العرب للرافعي.
(٧) ٣١٢ : ٣ المرجع نفسه.
(٨) ١٥٣ الموشحات.

الفنية المعروفة، وهي موجودة في ديوانه المخطوط والمطبوع اذ كانت صحيحة النسبة لابن المعتز تكون أول موشحة عرفت في الأدب العربي، والباحثون يختلفون في ذلك :

فيتردد بعض الباحثين فيمن سبق إلى اختراع الموشحات : أهو ابن المعتز أم مقدم بن معافر الفريري الأندلسي[1]. ويرى آخر أنه مع ذلك لا يستبعد أن تكون روح ذلك العصر التي أوحت إلى أحدهما بهذه الفكرة هي التي أوحت إلى الآخر بها دون تقييد[2]، ويرى آخرون أن الموشحات فن أندلسي خالص سبق إلى اختراعه الأندلسيون[3]، وهناك من يزعم أن ابن المعتز هو مبتدع الموشحات.

وفي رأيي أن هذه الموشحة ليست لابن المعتز، بل هي بعيدة عن روح الشاعر وعواطفه وفنه الأدبي ولا تمثل شيئاً من نظراته في الحياة، وليس فيها تشبيه واحد من التشبيهات التي عرف بها ابن المعتز.. إنها بعيدة عن جو ابن المعتز وسماته الفنية، وجو الأندلس أغلب عليها.. وقد كنت أظن أنها لابن معتز الأندلس مروان بن عبد الرحمن الأمير الشاعر المشهور (٣٥٢ــ٤٠٠)[4]، ولكن وجدت في بعض المصادر نسبتها لأبي بكر محمد بن عبد الملك بن زهر الأندلسي الأشبيلي

---

(١) ٢٧٨ تاريخ الأدب العربي للزيات.

(٢) ٢٧٢ نظرات في الأدب الأندلسي لكامل كيلاني.

(٣) ٣٩ و ٤٢ و٢٢٣ بلاغة العرب في الأندلس لضيف، ٢٢٥ و ١٩٥ : ٤ نفح الطيب ط ١٣٠٢هـ، ٢٤٣ سلافة العصر، ٥٨٣ مقدمة ابن خلدون ١٦١ : ٣ الرافعي، ٩٨ و ٩٩ : ٣ الأدب العربي وتاريخه لمحمود مصطفى، ١٠٣ــ٢ المرجع نفسه، و١ و٢ و٣ الذخيرة لابن بسام، ٤٩ الفن ومذاهبه في الشعر لشوقي ضيف.

(٤) راجع ترجمته في ص ٤٤٧ بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس للضبي وهو الجزء الثاني من المكتبة الأندلسية، وترجمته برقم ١٣٤٣، وهي نفسها في هامش ١٨٦ : ٣ نفح الطيب للمقري ــ نشر فريد رفاعي، وقد ترجمنا لهذا الأمير وذكرنا بعض شعره في كتابنا (ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان ص ٣٢٢ و٢٣).

(٥٠٧ــ٥٩٥)[1]. وإذا كان صحيح النسبة لابن زهر فانه من المشكوك فيه حينئذ : من هو السابق إلى ابتكار نمط هذه الموشحة، أهو ابن زهر أم ابن بقي الأندلسي المتوفى عام ٥٤٠هـ، والذي تروى له موشحه عارض بها الموشحة المنسوبة لابن المعتز، ولشاعر آخر موشحة، على نمط الموشحة المنسوبة لابن المعتز، وأولها :

هلك الصب المعنى هل لكا   في تلافيه بوعد مطمع[2]

ويذكر ابن معصوم كذلك في كتابه السلافة أن الموشحات من ابتداع مقدم بن معافر[3].

ابن خلدون ورأيه في الموشحات :

يقول ابن خلدون : « أما أهل الأندلس، فلما كثر الشعر في ديارهم وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً منه، سموه بالموشح، ينظمونه أسماطاً أسماطاً، وأغصاناً أغصاناً يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ويلتزمون قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات. وينسبون فيها ويمدحون، كما يفعل في القصائد. وتجاروا في ذلك الغاية ؟ واستظرفه الناس جملة : الخاصة والكافة، لسهولة تناوله، وقرب طريقه، وكان المخترع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر الفريري من شعراء الأمير عبدالله بن محمد

---

(١) ٢٢ : ١ معجم الأدباء، وابن زهر نشأ بالأندلس وبرع في العربية والشعر وكان يحفظ شعر ذي الرمة وانفرد بالاجادة في نظم الموشحات (٧١ : ٢ معجم الأدباء، ١٠ : ٢ وفيات الأعيان ط. ١٣١هـ ٣١٣ : ٣ الرافعي، ١١٧ : ٤ نفح الطيب ٥ و ٥٨ مقدمة ابن خلدون.

(٢) ٩٦ و٩٧ الموشحات لعلام خليل.

(٣) ٢٤٣ سلافة العصر لابن معصوم من أعيان القرن الحادي عشر، وقد ألفها عام ١٠٨٢هـ.

المرواني، وأخذ ذلك عنه عبدالله أحمد ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر. وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية، وقد ذكر الأعلم البطليوسي، أنه سمع أبا بكر ابن زهر يقول: كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله :

بدر تم شمس ضحى	غصن نقا مسك شم
ما أتم ما أوضحا	ما أورقا ما أنم
لا جرم من لمحا	قد عشقا قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمن الطوائف؛ وجاء مصلياً خلفه منهم ابن رافع رأسه، شاعر المأمون ابن ذي النون صاحب طليطلة، قالوا: وقد أحسن في ابتدائه في موشحته التي طارت له، حيث يقول :

العود قد ترنم	بأبدع تلحين
وسقت المذانب	رياض البساتين[1]

وفي انتهائه حيث يقول :

تخطر ولا تسلم	عساك المأمون
مروع الكتائب	يحيى بن ذي النون

ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة الملثمين، فظهرت لهم البدائع، وسابق حلبتهم الأعمى التطيلي، ثم يحيى بن بقي ».

---

(١) المذانب جمع مذنب وهو مسيل الماء إلى الأض والجدول يسيل عن الروضة بمائها إلى غيرها.

شعراء الموشحات في الأندلس :

إن أول من ثار على الأوزان القديمة وابتدع الموشحات كما يروى هو مقدم ابن معافر الفريري من شعراء الأمير عبدالله بن محمد المرواني[1] في القرن الثالث الهجري وهو الذي نوع أوزانها وأدوارها، وعنه أخذ أحمد ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد المتوفى عام ٣٢٨ هـ، وكان ذلك في القرن الرابع الهجري، وعن هذين أخذ الناس، ثم سال سيل الموشحات في المغرب والمشرق فبرع بعدهما عباقرة الوشاحين في الأندلس، ومقدمهم : عبادة القزاز المتوفى سنة ٤٢٢هـ، شاعر المعتصم ابن صمادح صاحب المرية من ملوك الطوائف، وجاء بعده « ابن رافع رأسه » شاعر المأمون ابن ذي النون صاحب طليطلة من ملوك الطوائف أيضاً، وقد حكم بنو ذي النون طليطلة في القرن الخامس (٤٢٧ــ٤٧٨هـ). ثم جاءت الحلبة التي كانت في زمن الملثمين وعلى رأسها فارسها الأعمى التطيلي المتوفى عام ٥٢٠هـ، ووراءه يحيى بن بقي، وأبو بكر الأبيض، وابن باجة الفيلسوف الطبيب الملحن المتوفى عام ٥٣٣هـ وابن اللبانة المتوفى عام ٥١٧هـ، واشتهر بعد هؤلاء في فجر دولة الموحدين : ابن شرف، وابن هردوس، وابن مؤهل، وابن زهر الفيلسوف.

وبعد هذه الطبقة طبقات جاءت بالغرائب؛ ومنهم : ابن سهل الإسرائيلي الاشبيلي المتوفى عام ٦٤٩هـ وأبو حيان النحوي، ولسان الدين بن الخطيب م ٧٧٦هـ وابن زمرك وتلميذه.

وبرع في العدوة نفر منهم : ابن خلف الجزائري، وفي المشرق كثيرون منهم : ابن سناء الملك المتوفى عام ٦٠٨هـ. صاحب كتاب « دار الطراز » في الموشحات وأنواعها.

---

(١) تولى الحكم مدة طويلة (٢٧٥ــ٣٠٠هـ).

الفن الشعري للموشحة :

ذكر ابن سناء الملك في كتابه « دار الطراز » عدة مناهج فنية في نظم الموشحات، وترتيب أبياتها، وأظهر طريقة في نظمها هي كما ذكرها ابن سناء وابن خلدون وسواهما أن تتألف الموشحة من أقفال وأبيات فالأقفال هي ما اتفقت وزناً وأجزاء وقافية، والأبيات هي ما اتفقت وزناً وأجزاء واختلفت قافية غالباً، وينقسم الموشح باعتباره جزأيه إلى :

١ ــ تام: وهو ما تألف من ستة أقفال وخمسة أبيات وابتدئ فيه بالأقفال.

٢ ــ والى أقرع، وهو ما تركب من خمسة أقفال، وخمسة أبيات، وابتدئ فيه بالأبيات، فمثال الأول، قول ابن التلمسأني :

قمــر يجلــو دجــى الغــلس   بهــر الأبصــار منــذ ظهــرا

آمـن مـن شينـة الكلـف

عذت مـن حبيه بالكلـف

لم يزل يسعى إلـى تلفـي

بركـاب الـدل والصلـف

فالقفل « قمر الخ » والبيت من « آمن » إلى « الصلف »، والموشح تام لأنه مبتدأ بالقفل. ومثال الثاني قول الآخر :

سطــوة الحبــيب   أحلى من جنى النحل

وعلــى الكئــيب   أن يخضــع للــذل

أنــا فــي حــروب   مع الحـدق النجـل

لـي لـي يـدان بأحـور فتـان   من رأى جفونه فقد أفسد دينه

فمن قوله : « سطوة » إلى قوله « النجل » بيت. ومن « ليس لي » إلى « دينه » قفل، والموشح أقرع، لأنه بدئ ببيت.

وأقل ما يتركب منه القفل جزءان، وقد يصل إلى احد عشر جزءاً وتنقسم الأبيات إلى : مفردة، ومركبة، والأولى ما تركبت من أجزاء فقط، والأخرى ما تألفت من أجزاء وفقر.

ومثال الأولى :

شمس قارنت بدراً راح ونديم

أدر كؤوس الخمر

عنبرية النشر

إن الروض ذو بشر

ومثال الأخرى :

عقارب الأصداغ في السوسن الغض   تسبي تقى من لاذ بالنسك والوعظ

من قبل أن يعدو   علي لم أحسب

أن تخضع الأسد   لجؤذر ربرب

ظبي له خد   مفضض مذهب

وشادن يبدو   في صدغه عقرب

فالبيت في المثال الأول مركب من أجزاء فحسب، أما في الثاني فمركب من أجزاء وفقر، كما ترى[1].

---

(١) القفل الأخير من الموشح يسمى خرجة، وهي أساس الموشحة، وعليها تنبني، كما أنها جماع سر جمالها وبلاغتها عند الأدباء، والغالب كما يقول الباحثون أن يكون الخروج اليها وثباً واستطراداً، وأن تكون قولاً مستعاراً على بعض ألسنة الناطق أو الصامت، ويكثر أن تكون على ألسنة النساء والصبيان، والسكرى والسكران، ويجب حينئذ أن يكون في البيت الذي قبلها قال : أو قلت أو قالت أو غنى أو غنت أو نحو ذلك.

والقفل كما ذكرنا آنفاً يتركب من جزأين فأكثر إلى ثمانية أو عشرة، وقد أوصله ابن سناء الملك إلى أحد عشر.

فمثال المكون من جزأين، قول الشاب الظريف :

قمر يجلو دجا الغلس   بهر الأبصار مذ ظهرا

ومثال المكون من ثلاثة أجزاء :

حـلب بـه الأمطـار   أزرة النوار، فيا خدني

وهكذا...

ومثال المركب من أحد عشر قول ابن سناء الملك :

مظلوم، المسواك، ثغر هداك، بالابتسام، الى الغرام، فيا خلي، لا تعذلي، دعني فلن، أصبر عن، سحار، وفتاك.

والبيت قلنا إنه بسيط ومركب، فالبسيط يكون من ثلاثة أجزاء أو أربعة أو خمسة، ومثاله فيما تركب من ثلاثة :

أرى لك مهنـد   أحاط به الإثمد   فجرد ما جـرد
فيا ساحر الجفن حسامك قطاع

فالأجزاء الثلاثة الأولى، والأخيران قفلة مركبة من فقرتين.

والمركب من الأبيات، ما كان كل منه مركباً من فقرتين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة، وبملاحظة أن البيت نفسه يكون مكوناً من ثلاثة أجزاء أو أكثر، نرى أنه يحدث من ذلك صور كثيرة، ولنضرب لها أمثلة توضحها. فمثال البيت المركب من فقرتين وثلاثة أجزاء :

أقـــم عـــذري   فقـد آن أن أعكـف
علـــى خمـــر   يطوف بها أوطـف[1]
كمـــا تـــدري   هضيم الحشى مخطف

---

(١) الوطف كثرة شعر الحاجبين أو العينين.

إذا ما ماد في مخضرة الأبراد رأيت الآس بأوراقه قد ماس

ويلاحظ في هذا المثال، أن قفلته مكونه من أربعة أجزاء.
ومثال ما تركب من ثلاث فقر وثلاثة أجزاء :

من لي به يرنو بمقلتي ساحر إلى العباد
ينأى به الحسن فينثني نافر صعب القياد
وتارة يدنو كما احتسى الطائر ماء الثماد

فجيده أغيد والخد بالخال، منمق، تكتمه الحجب، فلي إلى الكلة تشوق.

ويلاحظ في هذا المثال أن قفلته مكونة من ستة أجزاء.

ومن أمثلة التام قول الأعمى التطيلي :

ضاحك عن جمان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان وحواه صدري
آه مما أجد شفني ما أجد
قام بي وقعد باطش متئد
كلما قلت قد قال لي : أين قد ؟

فمن « ضاحك » إل « صدري » قفلة؛ ومن « آه » إلى « قد » الثانية بيت.

وهناك طريقة ثانية آتية في نظم الموشح، هي أن تجعل الموشح أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً، وتلتزم عدد الأغصان التي في كل سمط وأحرف قوافيها إلى آخر الموشح، ومن أمثلة ذلك قول عبادة القزاز :

١	٢	٣	٤	
بدر تم	شمس ضحا	غصن نقا	مسك شم	: سمط
ما أتم !	ما أوضحا !	ما أورقا !	ما أنسم	: سمط
لا جرم	من لمحا	قد عشق	قد حرم	: سمط

فكل سطر من هذا الموشح يسمى سمطاً، وهو يشتمل على أربعة أغصان والأغصان التي تحت كل رقم متحدة القافية في جميع الأسماط.

ومن طرق نظم الموشح : كذلك أن تأتي ببيتين تسميهما اللازمة؛ يتفق الحرفان اللذان في صدريهما « عروضيهما » كما يتفق الحرفان اللذان في عجزيهما « ضربيهما » ثم تتبع اللازمة بأدوار مركبة من خمسة أبيات، ثلاثة منها تتفق الحروف التي في صدورها كما تتفق الحروف التي في أعجازها، أما البيتان الأخيران فيكونان مثل بيتي اللازمة، ومن أمثلة ذلك موشحة ابن سهل الإسرائيلي المتوفى سنة ٦٤٩هـ ومنها :

أيها السائل عن جرمي لديه	لي جزاء الذنب وهو المذنب
أخذت شمس الضحا من وجنتيه	مشرقاً للشمس فيه مغرب[١]
ذهب الدمع بأشواقي إليه	وله خد بلحظي مذهب[٢]

ومنها :

لازمة:

فهو عندي عادل إن ظلما	وعذولي نطقه كالخرس
ليس لي في الأمر حكم بعدما	حل في نفسي محل النفس

دور:

منه للنار بأحشائي ضرام	تتلظى كل حين ما تشا[٣]
هي في خديه برد وسلام	وهي حر وحريق في الحشا
أتقي منه على حكم الغرام	أسداً ورداً وأهواه رشا[٤]

---

(١) حمرة المشرق قبل طلوع الشمس في الأفق وحمرة شفقها بعيد الغروب، مستعارة من وجنتيه الحمراوين.

(٢) لونه كلون الذهب من الخجل.

(٣) ضرام اشتعال. وتتلظى : تتلهب.

(٤) أسد ورد : لونه بين الكميت والأشقر، والرشأ : الظبي إذا قوي ومشى.

قـلت لمـا أن تبـدى معلمـاً   وهو من ألحاظه في حرس[1]
أيهـا الآخـذ قلبـي مغنمـا   اجعل الوصل مكان الخمس[2]

ومن أمثلة ذلك أيضاً موشحة لسان الدين بن الخطيب وزير بني الأحمر المتوفي سنة ٧٧٦هـ، وقد عارض بها ابن سهل، ومنها :

وروى النعمان عن ماء السما   كيف يروي مالك عن أنس[3]
فكساه الحسـن ثوبـاً معلمـا   يزدهـي منـه بأبهـى ملـبس
في ليـال كتمت سر الهوى   بالدجى لـولا شمـوس الغـرر
قال نجم الكأس فيها وهوى   مستقيـم السيـر سعـد الأثـر
وطر ما فيه من عيب سوى   أنـه مـر كلمـح البصـر
حين لذ الأنس شيئاً أو كما   هجم الصبح هجوم الحـرس
غـارت الشهب بنا أو ربمـا   أثـرت فينـا عيـون النـرجس

ومن الطرق كذلك أن تأتي بموشحة تجعل أولها بيتاً تلتزم فيه التقفية في صدر الشطر الأول وعروضه، وصدر الشطر الثاني وضربه، وتسمي هذا البيت مذهباً، ثم تأتي بثلاثة أشطر أخرى تلتزم فيها التقفية أيضاً لكن على حرف آخر، وتسمى هذه الأشطر دوراً ثم تعود وتأتي ببيت مقفى كالأول ومتحد معه في حرف التقفية ويسمى قفلة، ثم تأتي بدور وقفلة أخرى، وهكذا إلى سبعة أدوار في الأكثر.. ومن أمثلة ذلك موشحة ابن سناء الملك، ومنها :

---

(١) لابساً الثوب المخطط.

(٢) يأخذ الجيش الفاتح أربعة أخماس الغنيمة ويترك الخمس للدولة تنفقه في المصالح، وهو يطالب محبوبه بالعدل.

(٣) في النعمان وماء السماء تورية إذ النعمان إما الشقائق وهي زهر أحمر، وماء السماء : ماء المطر، وإما النعمان وماء السماء من ملوك الحيرة، والثاني جد الأول، ومالك هو الامام مالك بن أنس صاحب المذهب، والمراد أن بين شقائق النعمان والمطر من الشبه ما بين مالك وأبيه أنس من أن الأول في كلا الجانبين ناشئ عن الثاني وأثر منه.

قفلة

واحل : حتى تراني عنك في معزل   قلل : فالراح كالعشق إن يزد يقتل

دور

من ظلم : في دولة الحسن إذا ما حكم   فالسدم يجول في باطنه والندم[1]
والقلم يكتب ما سطر فوق القمم

قفلة

من ولي : في دولة الحسن ولم يعدل   يعزل إلالحاظ الرشأ الأكحل

دور

لا أريم : عن شرب صهباء وعن عشق ريم   فالنعيم : عيش جديد ومدام قديم[2]
لا أهيم : إلا بهذين فقم يا نديم

وهذه المناهج الأربع هي أسهل الكيفيات وأقربها اتصالاً بالأذهان، وهناك طرق أخرى لا يأتي عليها العد، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

أوزان الموشحات :

لم يلتزم الأندلسيون في الموشح قافية واحدة أو وزناً واحداً، لأنهم وجدوا أن إيجاد وزن يناسب النغم أسهل من إيجاد نغم يناسب الوزن، ومن أجل ذلك كان الموشح تابعاً لما تقتضيه الأنغام، فتارة يوافق أوزان الشعر العربية التي ابتكرها الخليل، وتارة يخالفها؛ ويقول ابن سناء الملك المتوفى عام ٦٠٨هـ في كتابه « دار الطراز » المخطوط بدار الكتب المصرية : الموشحات تنقسم إلى قسمين :

١ ـــ ما جاء على أوزان أشعار العرب وهو قسمان : أحدهما ما

(١) السدم : الهم.
(٢) لا أريم : لا أعدل، والريم : الظبي.

لا يتخلل أقفاله وأبياته كلمة تخرج تلك الفقرة التي جاءت فيها عن الوزن الشعري، وما كان من الموشحات على هذا النسج فهو المرذول المخذول، وهو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات، ولا يفعله إلا الضعاف من الشعراء وذلك كقول القائل :

يا شقيق الروح من جسدي   أهوى بي منك أم لمم ؟

فهذا من المديد، وكقول الآخر (وهو ابن المعتز) :

أيها الساقي إليك المشتكى   قد دعوناك وإن لم تسمع

فهذا من الرمل. والثاني تخللته كلمة أخرجته من الوزن مثل قول ابن بقي :

صبرت والصبر شيمة العاني   ولم أقل لمطيل هجراني   معذبي كفاني

٢ ــ والثاني وهو ما لا مدخل فيه لشيء من أوزان الشعر، هو القسم الكثير، والجم الغفير، والقدر الذي لا ينحصر، وأوزانه كثيرة منها : « مستفعلن فاعلن فعيل » مرتين، ومنها : « فاعلاتن فاعلن مستفعلن فاعلن » مرتين.

أسلوب الموشح وأغراضه :

أما أسلوبه فعربي، في ألفاظه وتراكيبه، وقد تكون بعض ألفاظه غير معربة، وكان كلما تقدم الزمن به زاد عدم العناية بالإعراب فيه[1]، وإن كان لا يخرج في جملته عن الأسلوب العربي، وذلك عدا الخرجة وهي آخر قفل من الموشح، وهي غالباً تكون فكاهة عذبة ونادرة حارة، ملحونة اللفظ، جارية على لسان ناطق أو صامت. يقول ابن خلدون : ولما شاع الموشح وأخذ به الجمهور لسلاسته نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية

(١) راجع ٢٤٣ سلافة العصر لابن معصوم.

من غير أن يلتزموا فيها إعراباً وهو الزجل. ويرى بعض النقاد اشتراط خلو الموشح، من اللحن وأنه كالشعر في إعرابه، قال ابن سناء : اللحن لا يجوز استعماله في شيء من ألفاظ الموشح إلا في الخرجة خاصة، ويقول أحمد ضيف في كتابه: بلاغة العرب في الأندلس نقلاً عن بعض المتأخرين : إن الموشحة كالشعر في إعرابه، وإن كانت تخالفه في أوزانه.

وأما أغراض الموشحات فقد كانت تنظم أولاً للغناء، والمعاني الوجدانية المتصلة بالتلحين كالغزل والوصف، ولما شاع الموشح وانتشر بين الشعراء شاع نظمه في شتى أغراض الشعر، من الفخر والمدح والرثاء والهجاء والوصف والتهنئة والوعظ والشكر. وسواها.

ألوان من الموشحات : لابن زمرك موشحة منها :

والحب ذو عدوان	يجهد في ظلم البري
وصارم الأجفان	مؤيد بالحور
رحماك في صب	أذكرته عهد الصبا
بواعث الحب	قادت إليه الوصبا
لم تهف بالقلب	ريح الصبا إلا هبا[1]

وقد انتقل التوشيح ــ بعد شيوعه بالأندلس ــ إلى بلاد المغرب والشرق، فنبغ فيه كثير، على رأسهم ابن سناء الملك، المتوفى سنة ٦٠٨هـ، وقد فتح فيه فتحاً جديداً، وأحدث أنواعاً وأوزاناً لم يسبق إليها، ومن موشحاته موشحته المشهورة :

كللي، يا سحب تيجان الربا بالحلى
واجعلي، سوارك منعطف الجدول

(١) هبا يهبو : مات.

يا سما، فيك وفي الأرض نجوم وما[1]
كلما، أغربت نجماً أشرقت أنجما[2]
وهي ما، تهطل إلا بالطلى والدما[3]
فاهطلي، على قطوف الكرم كي تمتلي
وانقلي للدن طعم الشهد والقوقل[4]
تتقد كالكوكب الدري للمرتصد
يعتقد بها المجوسي بما يعتقد
فاتئد يا ساقي الراح بها واعتمد

ونظم كثير من الشعراء في المشرق الموشحات؛ ولا يزال بعض الشعراء إلى اليوم ينظمون الموشح، ومنهم أبو الوفا رمزي نظيم الشاعر المصري المعاصر والرصافي الشاعر العراقي المشهور المتوفى عام ١٩٤٥.

ولا شك أن الموشحات نمط جديد ولون مبتدع في الأدب، وأنها طوعت الشعر للغناء إلى حد كبير، وقربت أسلوب الشعر للجماهير، وقصرت المسافة بين العربية والعامية، وارتقت بأذواق الجماهير، وكانت ذات أثر كبير في الشعر العربي القديم والحديث.

---

(١) ماء السماء في سحابها وماء الأرض في غدرانها وأنهارها.
(٢) يقول : إن غياب نجوم السماء ينشأ عنه ظهور نجوم الأرض وهي نباتها.
(٣) يقول : إن الأرض لا تهطل إلا بأعناق القتلى ودمائهم.
(٤) ثمر نخلة : وهو صلب كأنه الخشب.

الزجل في الأدب الأندلسي

الزجل في اللغة : التطريب ورفع الصوت، زجل فهو زاجل وزجل. والزجل كذلك اللغة : الصوت، وسمي هذا اللون من ألوان الأدب زجلاً لرفع الصوت فيه وترجيعه به في الإنشاد، ويسمى الشعر العامي، والأندلس بيئة الزجل الأولى كالموشح، وإن كان تأخر عن الموشحات وهو نوع من الشعر العامي، وقد ذاع فن الزجل وتعددت لهجاته بتعدد الأماكن التي نشأ بها، واشتمل على أنواع من الشعر كالغزل والوصف، وكثيراً ما كان الزجل أصدق في التعبير عن النفوس من الشعر الفصيح لقربه من تعبير العامة، واشتماله على عباراتهم المألوفة، وعدم احتياجه للتكلف في الصناعة واختيار الألفاظ.

ولما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه، وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية، من غير أن يلتزموا فيها إعراباً ، واستحدثوا فناً سموه بالزجل. والتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد. فجاءوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستجمعة. وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية، أبو بكر ابن قزمان. فلم تظهر حلاها، ولا انسكبت معانيها واشتهرت رشاقتها، إلا في زمانه، وكان لعهد الملثمين، وتوفي عام ٥٥٥هـ وهو إمام الزجالين على الإطلاق.

ويقال : إن أول من اخترعه رجل يقال له راشد، وكان لابن قزمان فضل الشهرة والتجويد، وعاصره محلف الأسود، وجاءت بعدهم حلبة مدغليس، وبعدها ظهر ابن جحدر باشبيلية، ثم أبو الحسن سهل بن مالك، ثم ابن الخطيب، والألوسي، قال ابن سعيد :

« ورأيت أزجاله مروية ببغداد، أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب، قال : وسمعت أبا الحسن بن جحدر الاشبيلي؛ إمام الزجالين في عصرنا يقول : ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة، وقد خرج إلى متنزه مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش، وأمامهم تمثال أسد من رخام، يصب الماء من فيه، على صفائح من الحجر مدرجة، فقال :

وعريش قام على دكان   بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان   فيه غلظ ساق
وفتح فمه بحال إنسان   فيه الفواق
وانطلق يجري على الصفاح   ولقى الصباح

وكان ابن قزمان نسيجاً وحده أدباً وظرفاً ولوذعية وشهرة، حلو الكلام، مبرزاً في نظم الزجل، وهذه الطريقة، الزجلية، بديعة تتحكم فيها ألقاب البديع، وتنفسح لكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر؛ وبلغ فيها ابن قزمان مبلغاً كبيراً، فهو آيتها المعجزة، وحجتها البالغة، وفارسها العلم، والمبتدي فيها والمتمم، أحرز السبق عند تسابق الأعيان، واشتمل عليه المتوكل على الله المتوفى عام ٤٨٤هـ فرقاه إلى مجالس الملك، وخلفه في مذهبه ابن حاج، وقد كان أبو عبدالله بن حاج المعروف بمدغليس صاحب الموشحات يشرب مع ندماء ظراف، في جنة بهجة، فجاءتهم ورقة من ثقيل يرغب في الإذن، وكان له ابن مليح فكتب إليه مدغليس :

سيدي : هذا مكان، لا يرى فيه بلحية غير تيس مصفعاني، له بالصفع كدية
أوله ابن شافع فيه فيلقى بالتحية
أيها القائل بادر سائقا تلك المطية

وكان مدغليس هذا مشهوراً بالانطباع والصنعة في الأزجال، خليفة ابن قزمان في زمانه، وأهل الأندلس يقولون ابن قزمان من الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء، ومدغليس بمنزلة أبي تمام. بالنظر إلى الانطباع والصناعة فابن قزمان ملتفت للمعنى ومدغليس ملتفت للفظ، وكان أديباً معرباً لكلامه مثل ابن قزمان، ولكنه لما رأى نفسه في الزجل انجب اقتصر عليه.

صور من الزجل

١ ـــ يقال : إن أبا بكر بن قزمان القرطبي حين كان صغيراً في المكتب، دخل عليه صبي صغير مثله، فناداه وأجلسه بجانبه، وصار يحييه، فرآه الفقيه على ذلك فضربه فكتب في أعلى اللوح هذا المطلع :

الملاح أولاد إماره والوحاش أولاد نصاره
وابن قزمان جا يغفر ما قبل له الشيخ غفاره

فاطلع الفقيه على اللوح، فرأى هذا المطلع، فقال : هجوتنا بكلام مزجول ـــ يعني مقطعاً يترنم به ـــ فسمي زجلاً.

٢ ـــ ومن أمثلة الزجل قول ابن قزمان هذا، وقد خرج إلى متنزه مع بعض أصحابه. فجلسوا تحت عريش، وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء من فيه، على صفائح من الحجر مدرجة :

وعريش قام على دكان بحال رواق

إلى آخر الأبيات وقد مضت..

٣ ـــ وقد جاء بعده عبدالله بن الحاج المعروف بمدغليس فأجاد أيضاً، ومن أزجاله :

ورذاذ دق ينـــزل　　وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضض　　وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر　　والغصون ترقص وتطرب
وتريد تيجي إلينا　　ثم تستحي وتهرب

٤ ـــ وقال قاسم بن عبود الرياحي في ختام زجل له :

ما أعجب حديثي　　إش هذا الجنون ؟
نطلب وندبر　　أمراً لا يكون ؟
وكم ذا نهون　　أمراً لا يهون ؟
واش مقدار ما نصبر　　لبعد الحبيب ؟

٥ ـــ وقال بعضهم :

يا حادي العيس ازجر بالمطايا زجر　　وقف على منزل أحبابي قبيل الفجر
وصيح في حيهم: «يا من يرد الأجر!　　ينهض يصلي على ميت قتيل الهجر!»

٦ ـــ وقال آخر :

عيني التي كنت أرعاكم بها باتت　　ترعى النجوم وبالتسهيد افتاقت
وأسهم البين صابتني ولا فاتت　　وسلوتي ـــ عظم الله أجركم ـــ ماتت

٧ ـــ وقال آخر :

لي دهر يعشق جفونك وسنين　　وأنت لا شفقة ولا قلب يلين

إلى أن يقول في ختام زجله :

خلق الله النصارى للغزو　　وأنت تغزو قلوب العاشقين

٨ ـــ ومما اختاره ابن خلدون، من زجل أهل مصر القاهرة، وأحسن في اختياره كل الإحسان، قول بعضهم في ذلك العصر :

هـذي جراحي طريـا والدمـــا تنضـــح
وقاتلـــي يـــا أخيـــا فـــي الفـــلا يمـــرح !
قالوا: «ونأخذ بثـارك» قـــلت: «ذا أقبـــح!»

وقد عم فن الزجل في الأندلس، حتى كان العامة ينظمون فيه بطريقتهم العامية في سائر البحور الخمسة عشر.

٩ ـــ ولقاسم بن عبود زجل وهذه منه بعض أبيات :

بـالله أي نصـيب ليس لي فيه نصيب
محبوبـاً مخالـف ومعـــو رقـــيب
حين قصـد مكانو يقيـم فـي المقـام
ويبخـــل علينـــا بـــرد الســـلام
أدخلت يا قلبـي روحك في زحام
سلامـتك عنـــدي هي شيء عجيب
وكيف بالله يسلم من هو في لهيب
بـالله يـا حبيبـــي أترك هـذا النفـر
واعمـد أن نطيب فـي هـذا النهـار
واخرج معي للوادي لشـــرب العقـــار
نتمـــم نهارنـــا في لـذة وطـيب
فـــي الأرض والا في المرج الخصيب
وفي حبك أمسيت فـي أهلي غـريب
وما الموت عنـدي إلا حيـن تغـيب
اتكـــل علـــى الله وكن فـظ جسور
وإن رأيت فضولي فقـــل أي تمـــور
كمش عني وجهك فـــان رآك نفـــور
يهرب عنك خائف ويبقـــى مـــريب
وامش إنت موقـر كـــأنك خطــيب

ما أعجب حديثي إيش هذا الجنون
نطلب وندبر أمراً لا يكون
وكم ذا نهون شيئاً لا يهون
وإيش مقدار ما نصبر لبعد الحبيب
رب اجمعني معو عاجلاً قريب

الفصل الرابع

تراجم لأشهر الشعراء الأندلسيين
ابن هانئ الأندلسي ـــ ٣٢٠ ـــ ٣٦٢ هـ

نشأته وثقافته :

١ ـــ ولد أبو قاسم محمد بن هانئ بن محمد الأزدي في قرية من قرى إشبيلية تدعى « سكون » عام ٣٢٠هـ، من أسرة ذات حسب ومجد، وأدب وعلم، يتصل نسبها بسلالة المهلب بن أبي صفرة الأزدي القائد الاسلامي المشهور في دولة بني أمية؛ وسواء كان من سلالة يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب الذي وطد للمنصور ثاني خلفاء بني العباس دعائم ملكه في شمال إفريقية إلى أن توفي عام ١٧٠هـ، أو من أحفاد أخيه روح بن حاتم الذي ولى فلسطين ثم شمال إفريقية بعد موت أخيه يزيد، وسواء كان هذا أو ذاك، فان ابن هانئ على أي حال ينحدر من سلالة أزدية قحطانية يمنية، لها ماضيها الحافل، وتاريخها المجيد، ولها أثرها في نفس الشاعر وفي أدبه.

٢ ـــ وقد ملأ ذلك نفسه شعوراً بهذا الماضي، وفخراً به، وعزماً على مواصلة الجهاد لتجديد ذلك العهد الذي أعيا على الأيام أن يتبدد،

وكان يقرنه الشاعر بمجده الذي شاده بكفاحه في الحياة :

ذرني أجدد ذلك العهد الذي ... أعيا على الأيام أن يتقشبا

ولم يقبل الشاعر أن يعيش كلا على الماضي في مستقبل حياته، أو يحيا عيالاً عليه، بل سعى وناضل في الحياة :

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا
وبالهمة العلياء يرقى إلى العلا ... فمن كان أرقى همة كان أظهرا
ولم يتأخر من يريد تقدماً ... ولم يتقدم من يريد تأخرا

كان أبو الشاعر هانئ من قرية من قرى « المهدية » عاصمة ملك الفاطميين الأولى، وكان شاعراً أديباً، كما يقول الذهبي[1] وابن خلكان[2]، ثم هاجر من قريته بالمغرب إلى الأندلس، وعاش في إشبيلية، وانتقل منها بعد ذلك إلى البيرة، وفي إشبيلية ولد ابنه محمد ابن هانئ، فنشأ وترعرع في بيئتها الحافلة بألوان الحضارة والعلم والأدب، وبأسباب المجد السياسي الذي كسبه الأمويون في الأندلس، وخاصة في عهد ملكهم العظيم الناصر (٣٠٠ــ٣٥٠هـ).

٣ ــ واختلف ابن هانئ إلى مجامع العلم والأدب في إشبيلية، يثقف نفسه، ويهذب عقله ويكون ملكاته تكويناً يصل بينه وبين الحياة بأسباب الطموح والأمل.

ثم رحل إلى قرطبة العاصمة الأولى لملك بني أمية، التي كانت تزخر بالجامعات والعلماء، وبأسباب الحضارة وألوان الثقافة، فعكف على تزويد نفسه فيها بأكبر قسط من الثقافة والمعرفة، والظاهر أن رحيله إليها في بدء حياته كان لهذا الغرض وحده دون سواه.

كانت الثقافة الأندلسية في هذا العهد وفي ظلال الناصر تنال من عناية الدولة والشعب، ورعاية الحكومة والملك، كل ما كان يطمح

(١) وفيات الأعيان، ص ٨١. ... (٢) تاريخ الإسلام ٥/٢.

إليه محب للعلم والمعرفة، وكان الناصر وولي عهده الحكم يبذلان جهوداً جبارة لنشر العلم، وتشجيع العلماء، فأقيمت كثير من الجامعات، وفتحت كثير من دور الكتب التي تؤنق في اختيار مجموعاتها من شتى بلاد الشرق، وساعدت الدولة العلماء في رحلاتهم العلمية إلى بغداد وسواها من عواصم الثقافة الإسلامية في الشرق الإسلامي، واستقبل الناصر كثيراً من الوافدين على بلاطه من العلماء والأدباء، كالقالي وسواه[1]، فشعت في آفاق الأندلس أضواء العلم والثقافة، وامتلأت مدنها وعواصمها بأسباب الحضارة والمدنية والعمران، وأخذت مشاعل النور ترسل أشعتها القوية الجبارة، فتضيء ظلمات الحياة في الغرب، وتزيد اشتعال النور وتألق الضوء في الشرق، وتملأ الحياة قوة ونشاطاً ومدنية وترفاً.

وكانت السمة الغالبة على الثقافة الأندلسية حينذاك هي الدراسات الدينية واللغوية والأدبية الواسعة، أما الدراسات العقلية فقد تجهموا لها وناوأوها، وصرفتهم بيئتهم المنمقة بألوان الجمال عنها، فرأوها عبثاً لا خير فيه، وحاولوا الحجز بين أنصارها وبين التفكير الحر، ولكن الحرية الفكرية التي غرس بذورها الناصر وابنه الحكم لم تحل بين آثار التفكير العقلي وانتقال عدواه من الشرق إلى الأندلس، على يد الراحلين عنها والوافدين إليها من العلماء والمفكرين، الذين أحصاهم صاعد الأندلسي في كتابه طبقات الأمم.

ومن ذلك نستطيع أن نحدد ألوان الثقافات التي تلقاها ابن هانئ في دراسته، وتفرغ لتحصيلها، فهي ثقافة دينية واسعة، ألم بها الشاب

---

(١) ولد القالي عام ٢٨٨هـ، وحصل ثقافته اللغوية والأدبية في بغداد، ثم هاجر إلى الأندلس عام ٣٢٨هـ، فاستقبله ولي العهد ورحب به، وتلقى عليه كثيراً من المحاضرات، ودعاه إلى إلقاء محاضراته في مسجد قرطبة العظيم، والتي دونها في كتابه « الأمالي » وظل كذلك حتى توفي عام ٣٥٦هـ.

الناشئ حين درس القرآن وعلومه، وأجاده حفظاً، مما نفعه في مستقبله الأدبي وصبغ أسلوبه بصبغة القرآن القوية المطبوعة، حتى كان ابن هانئ فيما بعد المجيد في الاقتباس من الذكر الحكيم وآياته فنجد له قوله :

ألا أيها الوادي المقدس بالطوى   وأهل الندى إني إليك مشوق

ونجده يقول :

كانت جناناً أرضهم معروشة   فأصابها من جيشه إعصار

ويقول لأمير « الزاب » :

لعمري لقد أيدت يوم الوغى به   كما أيدت كفاك بالأنمل العشر

كذلك ناجى الله موسى نبيه   فنادى أن أشرح ما يضيق به صدري

إلى غير ذلك مما يلاحظ القارئ فيه روح التأثر بأساليب الذكر الحكيم. وبجانب هذه الثقافة الدينية ثقافة لغوية واسعة، تراها في كل قصيدة من قصائد الشاعر واضحة ملموسة؛ ولعل ابن هانئ كان ممن جلسوا إلى القالي وسمعوا محاضراته اللغوية في مسجد قرطبة، كما جلس إلى سواه من علماء اللغة وأساتذتها، ومما نمّى فيه هذه الثقافة اللغوية أيضاً إدمان قراءته للشعر الجاهلي في عهد دراسته الأدبية واحتذاؤه حذوه في نظم القريض وصياغته. فوق مخالطته للقبائل العربية التي كانت نازلة في مدن الأندلس؛ ومحتفظة بروحها العربية الأولى. ولا يكاد يضارع ابن هانئ في هذا المحصول اللغوي الواسع شاعر سواه غير أبي الطيب المتنبي الشاعر الحكيم. وبجانب ذلك كله كانت الثقافة الأدبية الواسعة مكملة لجوانب هذه الثقافات في شخصية شاعرنا ابن هانئ. فقد ورث عن والده حب الأدب والميل إليه، والشغف بالشعر والظهور في ميدانه وفي شتى أغراضه ونواحيه، وأعان ذلك دراسته وحفظه لأشعار العرب وأخبارهم وأيامهم وأدبهم وشعرهم. واتصاله بالبيئات الأدبية في الأندلس. وساعد على ظهور ملكة الشعر في نفسه :

روحه الأدبي الموهوب؛ وفطرته الشعرية الموروثة، وعناية والد الأديب الشاعر به؛ وتوجيهه إياه الى كل ما يفيده في مستقبله الأدبي. وإلى كل ما ينمي ملكاته. ويفجر في قلبه ينابيع الشاعرية والإلهام، هذا كله فضلاً عن حياة الشاعر في بيئة الأندلس الأدبية الحافلة بالأدباء والشعراء، والتي لقي الأدب والشعر فيها رعاية وتشجيعاً أمدهما بأسباب الحياة والقوة والنضج، وكما قرأ ابن هانئ الشعر الجاهلي وتأثر به فقد أطلع على شعر كثير من المحدثين، وعلى شعر المتنبي، الذي عاصره وتأثر به، وقرأ ديوانه، كما ترشدنا إلى ذلك قصيدته الحادية والعشرون من ديوانه الذي نشرته مكتبة المعارف بتعليق الدكتور زاهد علي.

وفي قصيدة ابن هانئ الفائية التي مطلعها:

أليلتنا إذ أرسلت وارداً وحفا   وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شنفا

وهي القصيدة الحادية والثلاثون في ديوانه، وصف دقيق للنجوم وهيآتها وحركاتها في إشراقها وغروبها، وقد يدل ذلك على إلمام ابن هانئ ببعض فنون من الفلسفة، ويروي لنا التاريخ الأدبي أن ابن هانئ كان متهماً في الأندلس بمذاهب الفلاسفة[1] وأنه تعرض بسبب ذلك للقتل، مما دعاه إلى الهجرة إلى المغرب، ونحن نستبعد إلمام ابن هانئ ببعض فروع الفلسفة لأن تراثه الشعري بعيد كل البعد عن روح الفلسفة ومذاهبها في التفكير، وقد يكون الشاعر قرأ أو درس شيئاً من ذلك، إلا أنه على أي حال لم يفرغ لهذا اللون من الثقافة، ولم يشرب قلبه حب مذاهب الفلاسفة. وهجرته سنبين أسبابها الصحيحة فيما يلي من هذه البحوث.

وإذا بثقافة ابن هانئ تستمد عناصرها من القرآن واللغة والأدب والشعر، ومن أثر الوراثة الذي كان له مظاهر في نفس الشاعر وعقله،

---

(١) الذهبي ١٨/٥.

ومن أثر البيئة التي كان يعيش فيها، ثم من تجارب الحياة الطويلة والكفاح المستمر، والرحلة الدائمة، التي تركت آثارها الكبيرة في عقلية الشاعر وتفكيره وفي أدبه وشعره.

حياة الشاعر في الأندلس :

أخذ ابن هانئ الشاب يسير في غمار الحياة. ويخطو خطوات وئيدة في ميدان الطموح والمجد، وكان قد نضجت روح الشاعرية في نفسه، فنظم الشعر يصور فيه عواطف الشباب وآماله وآلامه في الحياة.

ثم دفعته همته وماضي أسرته الحافل إلى السعي في طلب الشهرة والمجد، ورأى الحياة العامة في الأندلس تسمح له أن يطمح إلى أعلى مناصب الدولة. بعدما حصل ما حصل من ثقافة جعلته شاعراً لا يقل عن غيره من الشعراء الممتازين في بيئته.

فبدأ يتصل برجالات الدولة، وخاصة أمير إشبيلية، بعد أن عاد إليها من رحلته الثقافية في قرطبة، وأعزه الأمير واصطفاه، ورفع منزلته لديه وأكرم مثواه، واتخذه شاعره ونديمه، ولعل الشاعر قد اضطر إلى هذا الاتصال الأدبي اضطراراً، لفقر جامح ألم به، أو لموت والده صغيراً وذهاب ما كان يعينه على شئون الحياة من مال.

وقدر ابن هانئ يد الأمير عليه، فشكره ونوه به ونظم قصائده في الثناء عليه والإعجاب به، وإن كان ديوانه خلواً من ذلك، وليس فيه بيت أو قصيدة في أمير إشبيلية، بل ولا في تصوير حياته في الأندلس، ولعل شعره الذي نظمه فيها ضاع في أثناء هجرته، أو أنه لم يعن الرواة الشيعيون الذي رووا شعره بحجمه مع ما جمعوه من شعره الذي نظمه وهو مقيم في دولة الفاطميين، فلم يلتفتوا إلا إلى شعره الذي أيد به هذه الدولة ورجالاتها.

واستمرت المودة بين الشاعر والأمير حيناً من الزمان. ولكن ابن هانئ كان برماً بالحياة في الأندلس؛ مبغضاً لملك الأمويين وملوكها، منكراً لحقهم في الخلافة الإسلامية، كان شيعياً يتشيع للفاطميين آل بيت رسول الله، ويشيد بدعوتهم، ويذيع محامدهم، ويؤيدهم بروحه وقلبه ولسانه.

ولا شك عندي في أن ابن هانئ ورث هذا الروح عن والده فيما ورثه عنه من ميراث، فقد كان هانئ من قرية من قرى « المهدية » موطن الدعوة الفاطمية وعاصمة دولة الناشئة، ثم رحل عنها إلى الأندلس لظروف قاهرة لم يروها لنا التاريخ، فلا بدع إذا أن يكون هانئ والد الشاعر شيعياً يهفو قلبه وروحه إلى مناصرة دعوة الفاطميين في جهادهم لاسترداد ميراث الرسول الكريم، ووضعه في موضعه، في البيت العلوي الطاهر. ولا بدع أن يغرس ذلك كله في صدر ابنه الشاب قبل أن يتوفاه الله. وإذا فقد عاش ابن هانئ في حياة والده وبعد وفاته شيعياً، يستمع وهو في الأندلس لأحاديث جهاد الدولة الفاطمية الناشئة في المغرب. ويتلقف أنباء مقاومتها لشتى ألوان الضغط السياسي الذي كان محيطاً بها، وأخبار ظفرها وتوفيقها في تأسيس مثابة صالحة حرة، وملاذ آمن مستقل، يلجأ اليه كل مضطهد من آل البيت العلوي، فيجد الأمن والطمأنينة والسلام، في ظل الراية البيضاء المرفوعة على المهدية وما يتبعها من بلاد. والتي تشير إلى معنى الخصومة السياسية للعلم الأسود المرفوع في بغداد، وللراية الخضراء التي تظلل بني أمية في قرطبة والأندلس.

وعلى كل فقد تشيع ابن هانئ ورأى المجتمع الأندلسي في إشبيلية خطره على نظامه الإجتماعي والسياسي. فاضطهده وقاومه، وكاد يفتك به أهل إشبيلية، لولا مكانه من أميرها، وتحدث الناس عن الأمير وكيف يستبيح لنفسه أن يضم إليه أمثال هذا الشاب الثائر، ورأوا أن يتهموا

ابن هانئ بالفلسفة التي كان قد شدا من بعض ألوانها حظاً يسيراً. وعاد فهجره وملّه. ولم يستسغه عقله، وكانوا يريدون أن ينالوا منه تحت ستار هذا الاتهام الجائر ما يريدون وأكثر مما يريدون. لأن الوطن الأندلسي لم يكن يسمح لأحد من رجال الفلسفة أن يعيش فيه سالماً. فإما أن يقتل وإما أن يهاجر وإما أن يتوب.

هجرة الشاعر إلى المغرب :

علم أمير إشبيلية بالأمر، ووصلته أحاديث الناس عنه وعن شاعره الشاب، فأشار على ابن هانئ أن يغيب عن المدينة مدة، حتى ينسى في خلالها أمره، وتسكن فيها ثورة الناس عليه، فامتثل الأمر، وخرج من المدينة خائفاً يترقب.

ترى أين تكون وجهة هذا الشاعر البائس، وإلى أي بلد يسير ؟ والناس إلب عليه، والدهر يتجهم في وجهه، والأحداث تتآمر عليه مع المتآمرين، وهو لا يأوى بين هؤلاء القوم إلى ركن شديد.

فكر الشاعر فلم يجد أمامه إلا غاية واحدة يجب أن يسير إليها، وإلا ناحية واحدة لا مناص من أن يقصدها، ورأى نفسه تحدثه : هيا إلى بلاد المغرب بلاد الفاطميين، ومقر العقيدة التي أوذي في سبيلها لما آمن بها، وإلى المهدية من بلاد المغرب خاصة، فهي بلاد الآباء والأجداد التي تتلاقى فيها ذكريات الماضي الطويل.

وصمم الشاعر على الهجرة، ولم يجد سبيلاً إلى الحياة الآمنة سواها، فهاجر إلى عدوة المغرب وهو في سن السابعة والعشرين أو السادسة والعشرين على ما يقولون.

هاجر إذاً إلى المغرب عام ٣٤٧هـ، أو عام ٣٤٦، وبذلك انتهت

حياته الأولى التي قضاها في الأندلس، وانتهى به المطاف إلى دولة الفاطميين.

لم يكن الشاعر يحمل على كتفيه في هجرته مالاً ولا نشباً، ولكنه كان يحمل في صدره عقيدة قوية، وعاطفة ملتهبة، وكان يحمل معه فنه وشاعريته ويسعى بهما قدماً إلى أبد غايات الطموح ومجد الحياة.

ويصور لنا ابن هانئ هذه الهجرة وذكرياتها وأسبابها وما لاقى خلالها من اضطهاد كاد يودي بحياته، في قصيدة من قصائده في المعز خليفة، قال فيها متحدثاً عن نفسه :

ومستكبر لم يشعر الذل نفسه أبـى بأبكـار المهـاول فـاتك
ولـو علقتـه مـن أميـة أحبـل لجب سنام من بني الشعر تامك
ولمـا التـقت أسيافهـا ورماحهـا شراعا وقد سدت علي المسالك
أجـزت عليهـا عابـراً وتركتهـا كأن المنايا تحت جنبي أرائك
ومـا نقمـوا إلا قديـم تشيعـي فنجى هزبراً شـده المتـدارك

والشاعر في هذه القصيدة قوي العاطفة، متأجج الشعور، ولكن روحه الشعرية لم تخلص بعد من سمات التكلف الفني، ولم يخلص لها بعد الفن المطبوع. ويندفع ابن هانئ في تيار عواطفه، فيحمل على بني أمية الأندلسيين حملة ثائرة ساخطة، ويرميهم بالبخل والجبن وشتى الرذائل، يقول فيما يقول :

ولم تدم في حرب دروع أمية ولكنهـم فيهـا الإمـاء العـوارك
إذا حضروا المداح أخجل مادح وأظلم ديجور من الكفر حالك

إلى آخر ما يقول.

اتصال الشاعر بجوهر قائد المعز :

استقر الشاعر أخيراً في المغرب، أو على الأرجح في المهدية وطن والده الأول، من بين بلاد المغرب كافة، وأخذ ينتهز الفرص السانحة ليذيع شعره، ويظهر شاعريته، فساعدته الظروف على ما يريد.

كان ذلك على ما أرجح عام ٣٤٧هـ بعد انتصار جوهر على خصوم الدولة الفاطمية في سجلماسة وفاس ومكناسة وسواها من بلاد المغرب، وبعد أن قضى على الثائرين ووطد دعائم ملك الفاطميين في أطراف هذه البلاد. ورجع من هذه الأعمال الحربية ظافراً منصوراً.

ونظم ابن هانئ قصيدة ذكر فيها هذا الفتح وأثره، وجوهراً وبطولته وحزمه، ومجده الحربي، وولاءه للخليفة المعز، واصطفاء الخليفة له، ويقول فيها :

وأبيض من سر الخلافة واضح تجـ ـلى فكان الشمس في رونق الضحى
أريك بـه نهـج الخلافـة مهيعـا يبيـن، وأعـلام الخلافـة وضحـا

إلى آخر ما يقول، من قضائه على ثورات الثائرين، وفتن الخارجين على المعز. وذهب الشاعر القائد فأنشد قصيدته وسط جيشه ومعسكره، فسر بها القائد، ثم أمر للشاعر بهدية استقلها ابن هانئ، ولكنه أخذها إجابة لداعي الحاجة الملحة، وأنى تبلغ المائتي درهم من نفس ابن هانئ ما يريد؛ لقد كان يسمع أنباء الجوائز الطائلة التي كان ينفح بها العظماء الشعراء. والتي تقلب حياتهم رأساً على عقب، وتدعهم يعيشون في ظلال الترف والخفض والنعيم، ثم لم يجد ابن هانئ عند جوهر شيئاً مما كان ينشده من آمال كبار، فعلم انه لا يمت إلى أريحية العرب وسخائهم بصلة، وفكر في عظيم آخر يعيش في ظلاله، ويستقر في المغرب في رعايته.

ولكنه مع ذلك لم يقطع صلته بجوهر، ولم يسكت عن الإشادة

والتنويه به في قصائده، وكيف وجوهر بطل العقيدة الفاطمية وموضع ثقة الخليفة، وقائده المظفر، ويده على الأعداء؟

وفي ديوان الشاعر ظل للصلة المستمرة بين الشاعر والقائد، فقصيدته في وداع جوهر وهو سائر لفتح مصر عام ٣٥٨هـ، وقصيدته في فتح مصر وتهنئة المعز بهذا الفتح والثناء على جوهر قائده الفاتح المظفر، فيهما أثر لبقاء هذه الصلات.

وفي الديوان أيضاً قصيدة نظمها ابن هانئ عام ٣٤٨هـ مدح بها المعز ووصف هدية قائده جوهر اليه، بعد تسخيره بلاد الغرب جميعاً، وتوطيد الملك الفاطمي فيها، ومطلعها :

ألا هكذا فليهد من قاد عسكرا   وأورد عن رأي الإمام وأصدرا

وهذه القصيدة أرجح أن الشاعر نظمها أثناء اتصاله الأول بجوهر، فقد يكون جوهر بعد هذا الفتح سعى بجيشه، وفي حاشيته ابن هانئ، لمقابلة المعز، وقدم إليه هديته، فنظم ابن هانئ هذه القصيدة في مدح المعز وقائده، ووصف هدية قائده إليه.

نستطيع من ذلك كله أن نقول إن الشاعر اتصل بجوهر في أواخر عام ٣٤٧، وظل في حاشيته عدة شهور، إلى ما بعد مطلع عام ٣٤٨هـ، ولكن صلات جوهر القليلة، دعته إلى أن يقصد بشعره أحد الأمراء ليعيش في ظلاله، وفعلاً سار الشاعر ميمماً وجهه اميراً عرف بالبذل والسخاء، وبالاغداق على الأدباء والشعراء، فألقى رحاله في فنائه، وعاش أثيراً لديه، مقرباً عنده، وذلك هو أمير « الزاب » و « المسيلة » جعفر ابن علي.

الشاعر في الزاب :

عهد الخليفة المنصور الفاطمي في بدء توليه العرش عام ٣٣٤هـ إلى جعفر بن علي القائد الفاطمي بولاية الزاب والمسيلة، وأنزل معه أخاه يحيى بن علي يساعده في ولايته، وعني جعفر بأمور إقليمية، فبنى القصور والمتنزهات، وأقام له فيه سلطاناً ومجداً، وقصده العلماء والشعراء، وظل في ولاية هذا الإقليم حتى توفي الخليفة المنصور عام ٣٤١هـ، فأقره المعز على ولايته لما جلس على العرش بعد وفاة أبيه.

وسمع ابن هانئ بأمر الأمير وجوده وأريحته، فهرع إليه عام ٣٤٨، يمدحه ويشيد بذكره بقصيدة أرجح أنها القصيدة الخمسون في ديوان الشاعر، التي أفاض فيها في الثناء عليه، والإعجاب به، ووصف جهاده وبطولته، وآدابه السامية النبيلة، ومما يقول فيها :

خلقت شهاباً تضيء الخطوب ... ولست شهاباً يضـيء الظلم

وإنك مـن معشـر طفلهـم ... يتـوج قبـل بلـوغ الحلـم

تشيـع فيكـم لسانـي ومـن ... تشيـع في قولـه لـم يلـم

ولست أبالـي بـأي بـدأت ... بفخري بكم أو بمدحي لكم

فشملـي لشملكـم جامـع ... وشعبـي بشعبكـم ملتئـم

وابن هانئ في هذا البيت يريد أن يؤكد الصلة التي تجمع قومه الأزديين بقوم الأمير، ثم يقول :

حمدت لقاءك حمد الربيـع ... وشمت نـوالك شيـم الديـم

ثم يذكر عسف الزمان به، وتحالف الخطوب عليه، ويصور عفافه وبعد همته، اللذين كانا من أسباب محنته كما يقول، فيقول :

أذم إلـيك اعتـوار الخطـوب ... وصرف الحـوادث فيمـا أذم

وممـا أعـان علـي الزمـان ... عفـاف يـدي وعلـو الهمـم

لساني من العرب الأكرميـن ... وفي أول الدهر ضاع الكرم

وتلقى الأمير الشاعر بالتقدير والعطف، ودعاه إلى الإقامة في كنفه ورعايته، فامتثل ابن هانئ في نشوة من البشر والفرح، وأقام في ظلاله يمدحه ويشيد بذكره، أو يمدح أخاه يحيى، أو ابنه إبراهيم.

وفي ظلال جعفر وأسرته عادت الطمأنينة إلى نفس الشاعر، فقد كفى شر الحاجة، وأمن غائلة الأحداث، وركن إلى ألوان من ترف الحياة ونعيمها وهدوئها وطمأنينتها، وفرغ الشاعر لفنه وشعره، بعد أن كان قلبه نهباً موزعاً لا يفيق من آلام الحياة وخطوبها، لقد كان قبل اتصاله بجعفر يزجي لآماله السحاب، فلا ينجلي إلا عن سراب خادع، وسحاب مبدد :

قد كنت قبل نداك أزجي عارضا ... فأشيم منه الزبرج المنجابا
لم تدنني أرض إليك وإنما ... جئت السماء ففتحت أبوابا

وصارت الزاب عنده جنة النعيم :

إنما الزاب جنة الخلد فيها ... من نداه غضارة التفويف

ولم لا ؟ وقد أخذ جعفر بضبعه، وأنقذه من صولة الخطوب :

صرفت عنان الشعر إلا إليكم ... وفيكم فاني ما استطعت له صرفا
أبا أحمد قد كان في الأرض موئل ... فلم أبغ لي ركناً سواك ولا كهفا
وما الشمس تكسو كل شيء شعاعها ... بأسبغ عندي من نداك ولا أضفى
أخذت بضبعي والخطوب رواغم ... فسمت زماني كله خطة خسفا
أمنت بك الأيام وهي مخوفة ... ولو بيديك الخلد أمنتني الحتفا

ويتحدث الشاعر عن نفسه وصنيع يحيى معه :

وما زلت ترميني الليالي بنبلها ... وأرمي الليالي بالتجلد والصبر
وأنجدني يحيى على كل حادث ... وتوجني تاجاً من العز والفخر
فلا تسألاني عن زماني الذي خلا ... فو العصر إني قبل يحيى لفي خسر
ولما حططت الرحل دون عراضه ... أخذت أمان الدهر من نوب الدهر
فداؤك حتى البدر في غسق الدجى ... منير أو حتى الشمس فضلاً عن البدر

إلى أن يقول :

أأدعو إلهي بالسعادة عندكم وأنتم دراري السعود التي تسري ؟
أأبغي لديه طالبا ما كفيته وأسأله السقيا ودجلة لي تجري ؟
أسرت بما أسديتمومن صنيعة وما خلتكم ترضون للجار بالأسر
فمهلا بني عمي وأعيان معشري وأملاك قومي والخضارم من نجري
فلا ترهقوني بالمزيد فحسبكم وحسبي لديكم ما ترون من الوفر

ويقول فيه :

أطفأت عني زمني بعد ما أوقفت من جمر على حرق
فاليوم بدلت سنا من دجى واعتضت صفو العيش بالرنق
واليوم يرقى أملي صاعداً وماله غيرك من مرقي
وما وفي شكري ببعض الذي كسوتني من مفخر الصدق

وهكذا كانت مدائح ابن هانئ في جعفر وأسرته، وكانت كذلك مراثيه البليغة في أمه وفي حفيده : ابن ابنه إبراهيم بن جعفر بن علي، والتي تبلغ كلها سبعة وعشرين قصيدة، كانت جميعها تفيض عاطفة وقوة وروحاً، وتصدر عن إخلاص ووفاء وشعور بأيادي هذه الأسرة الكريمة عليه، وتقدير بعيد لحدبها به، ومعونتها الصادقة له في الحياة؛ ولعل في هذه الأبيات التي نظمها من قصيدة طويلة في جعفر، ما ينم عن روح ابن هانئ وعواطفه نحو هذه الأسرة الكريمة :

خليلي أين الزاب عنا وجعفر وجنة خلد بنت عنها وكوثر ؟
فقبلي نأى عن جنة الخلد آدم فما راقه في ساعة الأرض منظر
خليلي ما الأيام إلا بجعفر وما الناس إلا جعفر، دام جعفر

لقد كان ابن هانىء قبل اتصاله بجعفر بائساً محروماً، ولا يجد له نصيراً يخفف عنه عبء الحياة، وكان كثير الشكوى من زمنه والأحداث التي كان يصبها عليه؛ فبدل بالشقاء نعيماً، ومحا بر أسرة

جعفر به ورعايتها له آلامه وبؤسه، فابتدأ حياة جديدة فيها أمل ورجاء؛ وطمأنينة وصفاء، ونعمة ورخاء.

وكانت شاعريته في هذه الفترة يقظة قوية مشبوبة، يثيرها في نفسه إلهام الشباب وحوافز الأمل، والعزم على الظهور في هذا المجتمع الجديد، وكثرة أيادي جعفر عليه. لقد كان في نضرة الشباب، ومتعة الحياة، وبهجة الأمل وكان يرى أن جعفر ليس بغريب عنه، ولا بقصي منه. فهو من عنصره ونجاره وأصله القديم، ثم كان مع ذلك يعيش وسط خصومات أدبية، أبطالها شعراء المغرب وأدباؤه الذين أخمل ذكرهم ابن هانئ ونظمه الجيد الممتاز كانت كل هذه البواعث حافزاً له على تجويد فنه، وصقل شعره، والإبداع في ما يسحر به من قريض، فكان يخرج قصائده إخراجاً فنياً خلاباً. فتخرج وهي مستوية الأطراف، جميلة السبك، جزلة اللفظ في عذوبة، يشيع فيها أثر التأنق والتهذيب على أن الشاعر لم يكن مدفوعاً إلى ذلك كله ببواعث مادية صرفة، بل كان يصدر عن عقيدة قوية غلابة. كان جعفر من أشد الذائدين عن العقيدة الفاطمية وسلطانها السياسي، وهي العقيدة التي أخلص لها الشاعر منتهى ما في وسعه من إخلاص. فمدحه وكأنه يمدح العقيدة التي آمن بها، وكافح من أجلها طول الحياة.

ومهما كانت الأسباب فإن إنتاج الشاعر في هذه الفترة القصيرة الحافلة كان بعيداً عن سمات التكلف، مصبوغاً بصبغة الشاعرية المطبوعة، وبدأت تظهر فيه شخصية الشاعر الفنية بوضوح وجلاء، وتظهر فيه كذلك صورة حياته التي خضعت لألوان الحياة الجديدة المترفة في ظل جعفر وأسرته.

وعاش ابن هانئ في الزاب نحو عامين، لم يكن همه فيها إلا حضور مجلس الأمير والاتصال برجال الدولة، والمتعة بنعيم الحياة

وجمالها. وتصوير جوانب هذه الحياة كلها في شعره ومدائحه التي كان ينشدها الأمير وقومه.

ولم يكن ابن هانئ يشعر بأنه غريب في البيئة، ولا كانت أيادي جعفر عليه توقفه مواقف الهوان أو الذلة، ولا كانت قصائده فيه وسيلة للسؤال والاستجداء فحسب، بل كان يرى في صلات النسب بينه وبين جعفر حافزاً له على التنويه به، والإشادة بمآثره، ويرى فيها ما يعزز مكانته لديه، ويرفع مقامه عنده، أليست أسرة جعفر يمانية قحطانية يعربية، وأليست هي من بكر أحلاف قومه الأولين ؟ :

إنا لتجمعنا وهذا الحي من ... بكر أذمة سالف لم تخفر
أحلافنا فكأننا من نسبة ... ولداتنا فكأننا من عنصر

وكانت هذه الصلة البعيدة بين الشاعر والأمير ابن هانئ بروح ملؤها الشعور بالكرامة والعزة في ظل جعفر، وتؤيده بأسباب الحياة والقوة في تلك البيئة، وبين خصومه والحاقدين عليه من الأدباء والشعراء، كالوهراني كاتب الأمير الذي أخمله ابن هانئ، وصور الخصومات الأدبية التي نشأت بينهما في قصيدته التاسعة والعشرين التي هجا فيها الوهراني شر هجاء.

وأصبحت هذه الخصومات وسواها لا تضير الشاعر بشيء، ما دام قوم الأمير هم بنو عمه، وأعيان معشره، وأملاك قومه، والخضارم من نجره كما يقول.

وبعد فكنت أود أن أعرض آثار الشاعر الفنية في هذه الفترة القصيرة الزاهية في حياة الشاعر وفنه، وأحلل في إيجاز تراثه الفني في العهد الذي قضاه مع جعفر وأسرته، وآياته الحسان الرائعة في الإشادة به وبهم، ولكن كثرتها وضيق الكتاب عن أن يتسع لمثل هذا الاطناب يحولان بيني وبين ما أريد، فاذا ما أردنا أن نضع هذا الانتاج الفني

موضعه في تراث الشاعر الأدبي، فإنّ حُكْمَنَا عليه أنه من روائع الآثار الأدبية في حياة ابن هانئ الفنية.

ونحن لا نعلم بعد، هل استقرت حياة الشاعر استقراراً قائماً على أساس الحياة العائلية فتزوج في هذه الفترة التي قضاها في الزاب أم لا ؟

وعلى أي حال فقد سارت قصائد ابن هانئ في جعفر وأسرته، وتحدث بها الناس ورواها الأدباء والرواة، وأنشدت في مجلس المعز وهو في القيروان، فأرسل إلى جعفر يطلب منه ابن هانئ، وامتثل الأمير الأمر، وأعد للخليفة هدية نفيسة أرسلها إليه، وكان فيها ابن هانئ الشاعر . بل كان هو أغلى ما فيها من نفائس.

الشاعر في عاصمة المعز :

وفي عام ٣٥٠هـ وصل الشاعر إلى القيروان عاصمة الخلافة الفاطمية، فسعى إلى الخليفة ومثل بين يديه، وأنشده شعره ومدائحه في الخليفة الخلافة وجلال الدولة وعظمة أيامها، وتصوير عزها الشامخ، ومجدها المكين.

والتاريخ الأدبي والسياسي لا يرشدنا بالتحديد إلى العام الذي اتصل فيه الشاعر بالمعز، ولكن دراسة تراث ابن هانئ الشعري مدائحه للمعز، تهدينا إلى هذه الحقيقة المجهولة في ثنايا تاريخ ابن هانئ الأدبي المجهول.

وكذلك لا ترشدنا المصادر الأدبية على القطع واليقين إلى أول قصيدة أنشدها ابن هانئ في مجلس المعز الفاطمي لأول عهده بالمثول بين يديه، وسأذكر رأيي الذي أرجحه في ذلك.

لابن هانئ في المعز إحدى وعشرون قصيدة من أطول القصائد

الفنية وأبلغها، وتبلغ نحو نصف تراثه الأدبي، وقراءة هذه القصائد قراءة واسعة وتفهمها تفهماً تاريخياً، وتذوقها تذوقاً أدبياً يهدينا إلى كل ما نريد.

من بين قصائد الشاعر في الخليفة أربع قصائد تستوقف نظر الباحث المتمهل وتعطيه الدليل الملموس على رأيه في هذه المشكلات الأدبية.

فأولى هذه القصائد نظمها الشاعر عام ٣٤٨هـ في وصف هدية جوهر للمعز ومطلعها:

ألا هكذا فليهد من قاد عسكرا وأورد عن رأي الإمام وأصدرا

وفيها يشيد بالخليفة وبجوهر ويصف هدية جوهر إليه، وهذه القصيدة قد تدفعنا إلى القول بأن اتصال ابن هانئ بالمعز كان عام ٣٤٨، لا عام ٣٥٠ كما نقول، ورأيي في ذلك أن هذه القصيدة نظمها الشاعر حين كان في حاشية جوهر لما التقى القائد بالخليفة بعد الظفر الحربي الذي ظفر به، فقدم إليه هديته النفيسة التي وصفها ابن هانئ في هذه القصيدة. وهذا رأي وجيه مقبول، فضلاً عن أنه يترك لابن هانئ عامين يقضيهما في الزاب وفي نظم قصائده المأثورة في جعفر بن علي وأسرته.

والقصيدة الثانية ذكر الديوان أنه قيل عنها إنها أول شعر مدح به ابن هانئ الخليفة المعز، وفيها يقول الشاعر:

ملك أناخ على الزمان بكلكل فأذل صعباً في القياد جموحا

ويحذر أعداءه سطوته ويشيد بانتصارات جيوشه فيقول:

ونصرت بالجيش اللهام وإنما أعددته قبل الفتوح فتوحا
يزجيه أروع لو يدافع باسمه علوي أفلاك السماء أزيحا
فكأنما ملك القضاء مقدرا في كل أوب، والحمام متيحا

ويصف الأسرى وبؤسهم، وأسطول المعز وقوته، وتتبع بني أمية لحركاته البحرية، ويذكر مآتمهم الذي تجاوبت به الدنيا، ورزء فقيدهم

الذي فقدوه، ويدعو إلى القضاء على دولتهم في الأندلس فيقول :

وأمية تحفي السؤال وما لمن ... أودى به الطوفان يذكر نوحا ؟
تتجاوب الدنيا عليهم مأتما ... فكأنما صبحتهم تصبيحا
لبسوا معايبهم ورزء فقيدهم ... كاللابسات على الحداد مسوحا
أنفذ قضاء الله في أعدائه ... لتراح من أوتارها وتريحا

إلى أن يقول :

أعليك تختلف المنابر بعدما ... جنحت إليك المشرقان جنوحا ؟
أم فيك تختلج الخلائق مرية ... كلا وقد وضح الصباح وضوحا
صورت من ملكوت ربك صورة ... وأمدها علماً فكنت الروحا

والقصيدة قوية رائعة. ويتجلى من قراءتها أنها نظمت على أثر انتصار حربي لجيوش المعز، ولكن لا ندري في أي عام كان هذا الانتصار، ونتساءل : من هو هذا الفقيد الذي لبست أمية رزءه في الأندلس، وتجاوبت بمأتمه الدنيا ؟ لم يفصح الشاعر بشيء، ولا يبعد عندي أن يكون هو الملك الناصر الذي توفي عام ٣٥٠هـ، وإذا يكون تاريخ القصيدة هو هذا التاريخ، وإذا صح أنها أول ما أنشده ابن هانئ أمام الخليفة. فيكون إذاً بدء اتصاله به هو عام ٣٥٠هـ.

والقصيدة الثالثة هي الكافية التي ذكر فيها هجرته وبواعثها، والتي حللنا جانباً منها في هجرة الشاعر، وفيها يقول :

سقى الكوثر الخلدي دوحة هاشم ... وحيت معز الدين عنا الملائك
وما سار في الأرض العريضة ذكره ... ولكنه في مسلك الشمس سالك
وما كنه هذا النور نور جبينه ... ولكن نور الله فيه مشارك

ويذكر فيها ولاءه للفاطميين وهجرته في سبيل عقيدته الشيعية، ويدعو المعز إلى القضاء على دولة بني أمية في الأندلس، ثم يذكر نفسه وشعره، والخصومات الأدبية بينه وبين الشعراء والتي يصورها في قوله :

أرى شعراء الملك تنحت جانبي | وتنبو عن الليث المخاض الأوارك
تخب إلى ميدان سبقى بطاؤها | وتلك الظنون الكاذبات الأوافك
تسيء قوافيها، وجودك محسن | وتنشد أرنانا ومجدك ضاحك
أبت لي سبيل القوم في الشعر همة | طموح ونفس للدنية فارك
وما سرني تأميل غير خليفة | وأني للأرض العريضة مالك
خمول وإقتار وفي يدك الغنى | فمحيا فإني بين هاتين هالك

والقصيدة ليس فيها أي إشارة تاريخية تدل على تاريخها الأدبي، ولكني أرى أنها من أوائل القصائد التي نظمها ابن هانئ في المعز، بل لا يبعد عندي أن تكون أو لها كلها، لأن ذكر هجرة الشاعر ووصفه لحالته، ودعاء الخليفة إلى العطف عليه والعناية به، وبيان إخلاصه لعقيدته، وأن هذا الإخلاص كان سبب محنته في الأندلس، كل هذا دليل على ما أقول، ويؤيده تصويره لهذه الخلافات الأدبية التي نشبت بينه وبين شعراء الدولة، مما يرشدنا إلى أن القصيدة نظمت قبل أن يدعم مركز الشاعر في بلاط المعز.

أما القصيدة الرابعة فهي نونيته الساحرة. التي نالت إعجاب الخليفة، وكوفئ عليها الشاعر مكافأة طائلة بلغت خمسة عشر ألف دينار. وذكر الديوان أنه قد قيل إنها أول ما أنشده الشاعر بالقيروان من شعر في المعز ومطلعها :

هل من أعقة عالج يبرين | أم منهما بقر الحدوج العين ؟

ويقول فيها :

هذا معد والخلائق كلها | هذا المعز متوجا والدين
هذا ضمير النشأة الأولى التي | بدأ الإله، وسرها المكنون

ويحرض فيها المعز على العبور إلى الأندلس والقضاء على دولة بني أمية فيها. والقصيدة رائعة، قوية في نظمها وفي روحها وفي العقيدة التي تملأ جوانبها بالحياة الفنية المشبوبة : وهي على أي حال من

أوائل القصائد التي نظمها ابن هانئ في المعز، إن لم نجزم بأنها أولها.

ونحن نرى أن القصيدة الأولى نظمت قبل اتصال الشاعر بالمعز بعامين، وأما القصائد الثلاث الباقية فقد نظمت كلها عام ٣٥٠هـ، وهو العام الذي اتصل فيه ابن هانئ بالمعز، وأول قصيدة أنشأها في مجلسه هي الكافية ثم تلتها الحائية ثم النونية؛ وهذا رأيي وإن كان لكل اختيار ما يريد بعد أن بسطنا البحث وفصلنا الكلام فيه.

وعلى أي حال فقد أقام ابن هانئ في فناء الخليفة، واستظل بظله، وعاش في القيروان عاصمة دولته، يروح ويغدو كل يوم إلى الخليفة، ينشر أمامه الثناء المحبر والشعر الساحر، والقوافي البليغة، التي يشيد فيها بالدولة والخليفة، ويدعم حقها في تراث الرسول، ويذود عنها أعداءها من الأمويين والعباسيين، ويشدو بأيامها وانتصاراتها؛ كل هذا والخليفة يزيده عطفاً ورعاية وتمكيناً.

وبذلك ابتدأت صفحة جديدة في حياة الشاعر، فعاش في مجد العرش وظله، وبين سمع الزمان وبصره.

عصر المعز الفاطمي :

لاقى العلويون كثيراً من الاضطهاد في عهد الأمويين والعباسيين، وفر لفيف منهم إلى المغرب، فنشر دعاتهم الدعوة الشيعية في ربوعه، ودعوا الناس إلى بيعة المهدي المنتظر منهم، وأعلن أبو عبدالله الشيعي في آخر القرن الثالث الهجري عام ٢٩٦هـ ابتداء قيام الدولة الفاطمية، وأخرج عبدالله المهدي من الحبس وأقامه على ملك الفاطميين.

والدولة الفاطمية تنتهي في نسبها الى فاطمة الزهراء، وكانت عاصمتها الأولى هي « المهدية » التي تنسب إلى أول الخلفاء الفاطميين المهدي.

حكم المهدي هذه الدولة الجديدة نحو ربع قرن (٢٩٦ــ٣٢٢) هـ، ولما توفي خلفه على العرش ابنه القائم بأمر الله (٣٢٢ــ٣٣٤هـ) ثم خلفه بعد وفاته ابنه المنصور (٣٣٤ــ٣٤١هـ).

وكان ملك الفاطميين في أول أمره يشمل كثيراً من تونس وبعض أقاليم الجزائر وطرابلس، كما يشمل صقلية من جزر البحر الأبيض، ولكن الخلفاء الفاطميين دأبوا على التوسع والفتح، فضموا إلى دولتهم كثيراً من البلاد، ولقب المنصور نفسه بألقاب الخلافة لما رأى ضعف دولة بني العباس، وفي عام ٣٤١هـ توفي المنصور فخلفه على عرشه المعز الدين الله الفاطمي.. ولد المعز بالمهدية عام ٣١٨هـ، وبويع له بولاية العهد في آخر حياة أبيه، ثم سلم عليه بالخلافة في ٧ ذي الحجة عام ٣٤١هـ، ولقب نفسه أمير المؤمنين، وبابتداء حكمه ابتدأ عهد جديد للفاطميين، وأخذوا يتوسعون في بسط نفوذهم السياسي والروحي في شتى الأقطار، على حساب الدولة العباسية في الشرق ودولة بني أمية في الغرب، بالرغم من المقاومة السياسية العنيفة التي كان العباسيون والأمويون يدأبون على إحاطة الدولة الفاطمية بها، وبرغم الجهود الحربية التي قام بها العباسيون والأمويون للحد من نشاط الفاطميين السياسي والحربي والقضاء عليهم كما كانوا يتمنون.

وجه المعز عنايته في أول عهده الى تقوية جيشه وأسطوله فبلغ بهما ما أراد، وبدأ يناوش بأسطوله الأمويين في ثغور الأندلس، والروم في جزر البحر الأبيض، ثم حرك جيوشه بقيادة جوهر وسواه من القواد، فاجتاحت بلاد المغرب كافة ورفعت فوق ربوعها راية الفاطميين البيضاء، ووصلت إلى البحر المحيط ظافرة منصورة عام ٣٥١، وفي عام ٣٥٤ قامت معارك حربية وبحرية هائلة بين جيش المعز وأسطوله وبين جيوش الروم وأساطيلهم البحرية، في صقلية وجنوب إيطاليا، وانتهت هذه المعارك بظفر كبير للمسلمين، وفي عام ٣٥٦هـ مات كافور الأخشيدي وسيف

الدولة الحمداني، وبدأت الدولة الاخشيدية في مصر والحمدانية في الشام تسيران إلى الاضمحلال والفناء، مما مهد السبيل للتوسع الفاطمي صوب الشرق، وفعلاً خرج جيش عظيم من القيروان عام ٣٥٨، بقيادة جوهر لفتح مصر، فبلغ مصر ودخلها في منتصف شعبان سنة ٣٥٨هـ واختط جوهر القاهرة، وبنى الأزهر، وأرسل الجيوش إلى الشام، ودخل المعز القاهرة في منتصف رمضان سنة ٣٦٢هـ، واتخذها عاصمة لملكه الواسع الذي يسير من المحيط الأطلسي إلى الفرات، وبذلك صار المعز أكبر حاكم لأعظم امبراطورية إسلامية عرفها القرن الرابع وظل في مصر حتى توفي عام ٣٦٥هـ، وخلفه على العرش ابنه العزيز.

هذا خلاصة التاريخ السياسي لعصر المعز الفاطمي، الذي كان كله عصر كفاح وجلاد، للفاطميين فيه أروع الذكريات وأمجد الانتصارات، وقد شاهد ابن هانئ كثيراً من هذه الأحداث التاريخية العظيمة، واتصل بالمعز خلالها اتصالاً وثيقاً، ونظم فيها كثيراً من أروع قصائده وأعظم آياته، وتغنى بمجد الدولة، وناضل عنها خصومها السياسيين، فلنتحدث إذاً عن التاريخ الأدبي لابن هانئ في هذه الفترة فهو وحده صورة واضحة لعصر المعز، ولأحداثه التاريخية الحافلة.

ابن هانئ شاعر المعز :

لم يكن ابن هانئ في بلاط المعز شاعر الترف والنعيم الذي يستغرق في ملذاته وشهواته، ولا شاعر الفن الخالص الذي ينظم الفن للفن، دون أن يلقي نظره على الحياة العامة حوله، ودون أن يستمع لضجيجها، ودون أن تحدثه نفسه بأن يكون صورة للحياة التي يعيش فيها وللأحياء الذين يقومون بأداء رسالتهم في الحياة وفي تاريخ الإنسانية عامة.

إنما كان شاعر الحياة بأوسع معانيها. كان شاعر الخليفة، والشاعر السياسي لدولة الخلافة الفاطمية، ينطق بمجدها، ويتحدث عن عظمتها

الروحية والسياسة والحربية، وكان يجد في عظمة المعز وعصره مجالاً فسيحاً ينظم الشعر فيه.

نعم إن قصائده كانت في أول اتصاله ببلاط المعز تدور حول إثبات وجود الشاعر والتمكين لنفسه ولشخصيته في الدولة، وتصوير آلامه والخطوب التي احتملها، وشكر أيادي الخليفة التي تغدق عليه المال والعطاء، ولكنها مع ذلك كله لم تخل من الحديث عن مجد الخلافة والدولة وعاهلها العظيم. وفي انتصارات الفاطميين الحربية والبحرية على الروم عام ٣٥١هـ إلى ٣٥٤هـ، نظم ابن هانئ كثيراً من القصائد الرائعة التي صور فيها هذه الانتصارات الباهرة أبلغ تصوير، ثم كان فتح مصر عام ٣٥٨ فألهم الشاعر بآيات ساحرة من القريض، ونظم ابن هانئ بعد ذلك قصائد هي صورة صادقة لما تلا ذلك من أحداث حتى وفاته عام ٣٦٢هـ.

وأصبح ابن هانئ في هذه الحقبة، أي من عام ٣٥٠هـ إلى عام ٣٦٢هـ، شاعر الخليفة، بما كان ينظمه في مدحه من آيات الشعر الخالد، وشاعر الدولة الذي وقف نفسه وفنه وشاعريته، على الذياد عنها، والاشادة بمجدها وأيامها وبطولة جيشها، وانتصارات أسطولها الباهرة، واحتل في دولة المعز مكاناً لم يحتله سواه من الشعراء، وصار حديث الناس في المحافل العامة والخاصة، كما صار شعره أنشودة في كل فم، وأغنية في كل لسان، وحفل به الشيعة الفاطميون، وأولوه عنايتهم وإعجابهم البالغ، وكان لقصائده في المعز وأهل بيته العلوي منزلة خاصة في الأدب والتاريخ، لأنها سجلت أهم مظاهر الانتقال في حياة الدولة الفاطمية، وصورت الكثير من عقائد الفاطميين، وتقديسهم للخلافة وعاهلها، فوق مكانتها الأدبية الممتازة، وما امتازت به من الروعة والقوة ولدد الخصومة، وقوة العقيدة وحرارة الايمان واشتعال العاطفة، فوق طموح الشاعر واعتداده بفنه وشخصيته فيها، فضلاً عن

أنها تمثل الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والعقلية والدينية والأدبية في عصر المعز.

وبعد، فقد كان ابن هانئ في هذه الفترة العظيمة التي قضاها في بلاط المعز شاعر الخليفة، والشاعر السياسي، وشاعر العقيدة الفاطمية بمبادئها الروحية وآرائها السياسية ومعتقداتها الدينية، وصارت شخصيته في هذا العهد أظهر شخصية بين الأدباء والشعراء وبين رجال الدولة والسياسة، وأغدق عليه المعز المال إغداقاً، وحسبك أن نونيته وحدها قد كافأه المعز عليها بخمسة عشر ألف دينار، ولننتقل بعد ذلك إلى مرحلة جديدة من التحليل الأدبي لبعض قصائد الشاعر في هذه الفترة الحافلة.

لابن هانئ كثير من القصائد التي نظمها في المعز وتسمى « المعزيات »، و « معزيات » ابن هانئ هي قصائده التي أنشدها المعز، والتي بينا مكانتها في الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع، وهي ثروة أدبية ضخمة، ومجد أدبي كبير لابن هانئ وفنه.

ومن هذه القصائد همزيته التي هي أول قصيدة في ديوان الشاعر، مدح بها المعز هنأه بشهر رمضان، وقد بدأها بغزل ظهر في مطلعه بمظهر البداوة التقليدي في الغزل فصور الشاعر عزة قوم حبيبته، وغلوهم في الغيرة عليها، وأشار إلى ذكريات التلاقي ومآسي الفراق، وإلى بعض مظاهر الجمال في خلقها، ثم خلص من ذلك إلى نفسه وإلى مدح الخليفة ووصف عقيدة الفاطميين فيه.

ثم وصف أسطوله وقوته، وسطوته على الأعداء، ويقول في هذه القصيدة :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ... ولعلة ما كانت الأشياء
من شعلة القبس التي عرضت على ... موسى وقد حارت به الظلماء
من معدن التقديس وهو سلالة ... من جوهر الملكوت وهو ضياء

من حيث يقتبس النهار لمبصر　　وتشق عن مكنونها الأنباء
ليست سماء الله ما ترونها　　لكن أرضاً تحتويه سماء
نزلت ملائكة السماء بنصره　　وأطاعه الإصباح والإمساء

ويستمر في الإشادة به، مدفوعاً بعقيدته الفاطمية، مسايراً لإيمانه الاسماعيلي، الذي يرى أن الأمام، أو قل الخليفة، سبب وجود المخلوقات، وأنه من أكملها جسداً وروحاً، وأنه متصف بكل صفات النبي، صلوات الله عليه، وهو معصوم عصمة الأنبياء، وأنه مظهر نور الله، ويصح اتصافه بصفات الله ويشرق نورها عليه وفيه، وأن معرفته وطاعته واجبة على جميع الناس، وأنه من معدن الرسالة التي خلقت قبل الخلق، وانتقل خلال القرون حتى ظهرت في مظهرها العظيم في شخصية محمد صلوات الله عليه، إلى غير ذلك من مظاهر تقديس الشيعيين لآل البيت ولأئمتهم العلويين، هذا التقديس الذي ارتفع إلى مستواه الروحي العظيم. والقصيدة فياضة بروح اليقين والعقيدة. ومن الجدير بالذكر أن شعر ابن هانئ في المعز خاصة هو السجل الناطق بعقيدة الفاطميين، وبآرائهم في الخلافة وتراثها، وشخصية الخليفة ونفوذه الروحي والديني، فتراه يقول في هذه القصيدة :

هذا الشفيع لأمة يأتي بها　　وجدوده لجدودها شفعاء
هذا أمين الله بين عباده　　وبلاده إن عدت الأمناء
هذا الذي عطفت عليه مكة　　وشعابها والركن والبطحاء
هذا الأغر الأزهر المتألق　　المتدفق المتبلج الوضاء
فعليه من سيما النبي دلالة　　وعليه من نور الإله بهاء

ويقول في المعز من قصيدة أخرى :

هذا ضمير النشأة الأولى التي　　بدأ الإله وسرها المكنون
من أجل هذا قدر المقدور في　　أم الكتاب وكون التكوين
وبذا تلقى آدم من ربه　　عفواً وفاء ليونس اليقطين

ويقول :

هذا الذي ترجى النجاة بحبه   وبه يحط الإصر والأوزار
هذا الذي تجدي شفاعته غداً   حقاً وتخمد أن تراه النار
من آل أحمد، كل فخر لم يكن   ينمى اليهم ليس فيه فخار

ويقول :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد   وكأنما أنصارك الأنصار
أنت الذي كانت تبشرنا به   في كتبها الأحبار والأخبار
شرفت بك الآفاق انقسمت بك   الأرزاق والآجال والأعمار

ويقول فيه :

من يشهد القرآن فيه بفضله   وتصدق التوراة والإنجيل
فافخر فمن إنشائك الفردوس إن   عدت ومن إحسانك التنزيل
وأرى الورى لغواً وأنت حقيقة   ما يستوي المعلوم والمجهول

إلى غير ذلك مما تراه واضحاً في كل قصيدة من معزياته التي صور فيها عقيدته الفاطمية أبلغ تصوير، وأظهر مبادئها بكل وضوح وجلاء، وقد كانت أبياته هذه وما شابهها مجالاً كبيراً لخصوم الفاطميين، الذين غضوا من شعر ابن هانئ وأزروا به ورموه بالكفر والبهتان.

وقد مكث الشاعر نحو أربع سنوات ينظم الشعر في المعز، يضمنه عواطفه نحوه ونحو دولته، وآماله الواسعة بملك الفاطميين العالم الإسلامي، وقصائده في هذه الفترة خالية من ذكر المعارك الحربية والانتصارت الظافرة؛ لأنه لم تقع فيها معارك ولا أحداث تاريخية كبيرة، ومن بين قصائده هذه قصيدة مدح بها المعز وهنأه بعيد الفطر، ووصف موكبه إلى المصلي، وجلالة هذا الموكب، والمظلة التي كانت تظلله، والخيل التي امتطاها، إلى آخر ما ألم به الشاعر في هذه القصيدة من معاني وأغراض، ومطلعها :

قمن في مأتم على العشاق ولبسن الحداد في الأحداق
ومثحن الفراق رقة شكوا هن حتى عشقت يوم الفراق
ومع الجيرة الذين غدوا دمع طليق ومهجة في وثاق
حاربتهم نوائب الدهر حتى آذنوا بالفراق قبل التلاقي

ويقول فيها في المعز :
قد جلا الفطر منه عن نبوي أبيض الوجه أبيض الأخلاق

والقصيدة صادرة عن ذوق مترف يناسب حياة الشاعر المترفة في ظلال الخليفة بعد أن ألقى الأعباء عن كاهله، ووطدت مكانته في الدولة، وهي تصور عهد الاستقرار السياسي الذي انتهت إليه دولة المعز، بعد توطيد دعائمها في المغرب، وبعد انتصاراتها العظيمة على الروم في صقلية والبحر الأبيض، أي عام ٣٥٤هـ.

ثم يدخل عام ٣٥٨هـ، فتبتدئ مرحلة جديدة في حياة الفاطميين، وكيانهم السياسي، ويسير جوهر بجيش لجب لفتح مصر؛ فيودعه ابن هانئ متمنياً له التوفيق في أغراضه الحربية والسياسية الكبيرة، فإذا ما عاد من تشييع جوهر وجيشه العظيم دخل على المعز ينشده آية من آياته، ينشده قصيدته التي مطلعها :

سقتني بما مجت شفاه الأراقم وعاتبني فيها شفار الصوارم

بدأها بالغزل التقليدي، ثم خلص منه إلى أناشيده في المعز فيقول :
فشيعت جيش النصر تشييع مزمع وودعته توديع غير مصارم

ثم يذكر الجيش وينوه بقائده تنويهاً بالغاً.

وبعد قليل يصل إلى المعز نبأ فتح مصر على يد قائده جوهر فيصور ابن هانئ الفتح وأنباءه ونتائجه السياسية تصويراً باهراً في قصيدة بالغة نهاية الروعة والسحر والبلاغة، وهي المثل الأول لقوة العقيدة في نفس

الشاعر، ولأثر هذه العقيدة في فنه الشعري الموهوب، ومطلعها :

يقول بنو العباس : هل فتحت مصر ؟ فقل لبني العباس : قد قضي الأمر

وقيل إن الشاعر بدأها بدعوة المعز إلى فتح بغداد :

تجهز إلى بغداد قد فتحت مصر وأنجز صرف الدهر ما وعد الدهر
تقول بنو العباس هل بلغ المدى فقل لبني العباس قد قضي الأمر

وهو يدل على طموح الفاطميين السياسي أبعد غايات الطموح، ويسترسل ابن هانئ في قصيدته استرسالاً جميلاً، فيصور الفتح وأثره ومداه وما ترتب عليه من نتائج ويقرر حق الفاطميين في تراث الرسول، ويذود عنهم خصومهم السياسيين، ويصف الجيش الفاتح، ودخوله الإسكندرية، ورسول القاهرة الى جوهر، ثم سيره إليها، وقضاءه على الدولة الإخشيدية، ويدعو الشاعر العالم الإسلامي إلى أن يستظل بلواء الفاطميين، وأن يدخل في نطاقهم السياسي وإلا فالويل لمن يقف في طريق السيل المنهمر، ويتهكم ببني العباس إلى أن يقول :

ألا تلكم الأرض العريضة أصبحت وما لبني العباس في عرضها فتر
فقد دالت الدنيا لآل محمد وقد جررت أذيالها الدولة البكر

ويشيد بالمعز ويده على العلويين :

من انتاشهم في كل شرق ومغرب فبدل أمنا ذلك الخوف والذعر
فكل إمام يجيء كأنما على خده الشعرى وفي وجهه البدر

ويبشر بهذا الفتح العالم الإسلامي، لا سيما قلبه الخافق، البيت المحرم، الذي يراه عما قريب سيكون في قبضة المعز وسلطانه، إلى أن يقول :

حبيب إلى بطحاء مكة موسم تحيي « معدا » فيه مكة والحجر

ويصور آثار الفتح، ويشيد بالخليفة، ويهنئه به، في حرارة وقوة إيمان ويصف الأمن والعدل اللذين سادا مصر على يد جوهر، وينوه بجوهر وأعماله ومجده وولائه إلى أن يقول :

رضينا لكم يا أهل مصر بدولة   أطاع لكم في ظلها الأمن والوفر
لكم أسوة فينا قديما فلم يكن   بأحوالنا عنكم خفاء ولا ستر

إلى أن يقول :
ألا إنما الأيام أيامك التي   لك الشطر من نعمائها ولي الشطر

والقصيدة من أروع شعر ابن هانئ، ومعجزة من معجزات فنه الخالد.

ولما وطد الفاطميون مكانتهم في مصر عزموا على التوغل في الفتح لأخذ الحجاز والشام والعراق، ويصور ابن هانئ ذلك في قصيدة له، أشار فيها إلى اندفاع الفتح الفاطمي، وسيره في طريقه دون هوادة وبشر الشرق بالمستقبل المرتقب على يد الفاطميين، وحفز عزيمة المعز لفتح العراق والسير إليها، وأخذ الحجاز من أيدي العباسيين، ويقول فيها :
فتربصوا فالله منجز وعده   قد آن للظلماء أن تتكشفا
هذا المعز ابن النبي المصطفى   سيذب عن قبر النبي المصطفى
وكأنني بلواء نصرك خافقاً   قد حام بين المروتين ورفرفا

والقصيدة طويلة جميلة، وتاريخها الأدبي يمكننا أن نحدد له عام ٣٥٩هـ.

وفي عام ٣٦٠هـ قضى المعز على ابن الخرز الثائر في المغرب؛ والذي نقض عهد الطاعة للخلافة، وعاث في الأرض فساداً نحو عامين، ولما قتل جلس المعز يستقبل نهانئ رجال دولته ثلاثة أيام، وكان من بين التهانئ قصيد ابن هانئ التي مطلعها :
كذأبك ابن نبي الله لم يزل   قتل الملوك ونقل الملك والدول

ذكر فيها مصرع الثائر، وصور الاستقرار السياسي للدولة في المغرب بعد القضاء على ثورته، وأشاد بالمعز ولي عهده، إلى أن يقول :
ليعقد التاج هذا اليوم مفتخرا   إن كان توج يوم سائر المثل
فيه الربيعان : من فصل الربيع ومن   وقائع النصر تشفي من جوى الغلل

والقصيدة طويلة، تقارب المائة مع جودة وسحر، وهي كسابقاتها دعاية قوية للدولة ومبادئها.

وفي عام ٣٦١هـ انتصرت جيوش المعز على القرامطة في الشام، وبلغ هذا النصر المعز، فنظم ابن هانئ فيه قصيدته :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد   وكأنما أنصارك الأنصار

وهي قصيدة قوية مشرقة الديباجة وصف فيها الشاعر جيش المعز وانتصاره في « قرافس » بالشام على القرامطة، ووصف المعركة والخيل التي اقتحمتها، والأبطال الذين كان لهم شرف النصر فيها، وأشاد بالمعز إشادة ساحرة، ونافح عن حق الدولة، وذاد عنها أعداءها من العباسيين، وهي على أي حال من عيون الشعر، وتحتل مكانها الممتاز في فن ابن هانئ، وقد نقم كثير من الناس على مطلعها، ولكن الشاعر كان كما تمليه عقيدته عليه، وفي آخرها يقول للمعز : إن مصر صارت محسودة منذ أن صرت قطينها :

ها إن مصر غداة صرت قطينها   أحرى لتحسدها بك الأقطار

ولكن كيف ذلك مع أن ابن هانئ قتل والمعز سائر في طريقه إليها عام ٣٦٢هـ ولما يبلغها بعد ؟ قد يكون الشاعر أراد غداة صرت مليكها أو حاكمها مثلاً، وليس هذا ببعيد، بل هو أقرب من أن نذهب إلى أن البيت منتحل على الشاعر وعلى الشعر، أو إلى أن القصيدة نظمت والمعز سائر في الطريق.

بقيت من « معزيات » ابن هانئ قصيدة طويلة جداً، تبلغ مائتي بيت، وهي أطول قصائد الشاعر، وقد قيل إنه نظمها وبعث بها إلى المعز بالقاهرة وهو مقيم بالمغرب، وأنها آخر قصائده.. ومطلعها :

أصاخت فقالت : وقع أجرد شيظم

وقد نقد ابن رشيق هذا المطلع في عمدته[1]، والقصيدة يبدؤها الشاعر بالغزل ثم يخلص إلى المعز ومدحه، ووصف جيشه وسيادته وبطولته ومحتده العريق، إلى أن يقول :

ألا إنما الأقدار طوع بنانه ... فحاربه تحرب أو فسالمه تسلم
وما التمع التاج المفصل نظمه ... على ملك منه أجل وأعظم
ولا عجب أن كنت بالبطحاء خير متو ... ج فجدك بالبطحاء خير معمم
واشهد أن الدين أنت مناره ... وعروته الوثقى التي لم تفصم
قصاراك ملك الأرض لا ما يرونه ... من الحظ فيها والنصيب المقسم

ويستمر في تفاؤله لدولة المعز بسيادة العالم الإسلامي، ويصور حالة الشرق وضعفه، واستبداد بني بويه بأمر الخلافة العباسية، إلى أن يقول :

سوام رتاع بين جهل وحيرة ... وملك مضاع بين ترك وديلم

ويهدد بني أمية بانتقام الفاطميين، ويطلب من الخليفة أن يحسم داءهم، ويستمر في تهكمه بهم، وفي الإشادة بآل البيت، إلى أن يقول :

لئن كان لي عن ودكم متأخر ... فما لي عن التوحيد من متقدم
ولولا قطين في قصى من النوى ... لما كان لي في الزاب من متلوم

يقول : لولا أهلي بالزاب لما كان لي دائماً مستقر سوى مستقركم..

وعندي على بعد المزار ونأيه ... قصائد تترى كالجمان المنظم
إذا أشأمت كانت لبانة معرق ... وإن عرقت كانت لبانة مشئم
تطاول عن أقدار قوم جلالة ... وتصغر عن قدر الأمام المعظم

ثم يقول :

ولما تلقتك المواسم انفا ... تربصت حتى جئت فردا بموسم
ليعلم أهل الشرق والغرب أنني ... بنفسي لا بالوفد كان تقدمي

---

(١) العمدة لابن رشيق ٨١/١.

والقصيدة قوية جميلة مبدعة وأستبعد أنها أرسلت للمعز في مصر، لأن المعز وصل الاسكندرية في شعبان، والقاهرة في رمضان عام ٦٢٣، والشاعر كان مصرعه في رجب من هذه السنة، فإما أن يكون ابن هانئ أرسلها بعد فراقه المعز وقبل أن يصل المعز مصر، وإما أن يكون قد أرسلها إليها والمعز في برقة يرتب أمور الدولة قبل رحيله إلى القاهرة، وقد دخل المعز برقة في شوال عام ٥٦١ هـ. ولم يرحل عنها إلا بعد أربعة أشهر أو يزيد، واعتذر الشاعر للمعز في القصيدة عن عدم مصاحبته له في رحلته إلى مصر بأن أهله تركهم في الزاب، ولولا ذلك لما كان له في الزاب أمل ولا حاجة، وذلك غير بعيد، ولا يبعد أيضاً أن يكون الشاعر نظمها وهو مسافر الى الزاب لزيارة أهله وأصدقائه، وأرسلها إلى المعز في عاصمته بالقيروان قبل أن يرحل الى مصر، وذلك أيضاً غير بعيد.

وأخيراً فهذا أهم معزيات ابن هانئ الساحرة، التي نظمها في الإشادة بالمعز ودولته وفي الدفاع عن حق الفاطميين في الخلافة، ومناضلة أعدائهم من الأمويين والعباسيين وسواهم من الثائرين والروم، وهي قصائد تحتل في الأدب العربي مكانها الرفيع.

شاعرية ابن هانئ وشعره :

١ ـــ كان لبيئة الأندلس المترفة، وحضارتها الزاهية في عهد الناصر، وللمنافسة السياسية بين بغداد وقرطبة والمهدية، كان لذلك أثر في ازدهار الأدب والشعر في الأندلس الوطن الأول للشاعر، ثم كان لتنوع مظاهر الحياة والطبيعة في الأندلس أثر في تلوين الشعر بلون خاص، شاع فيه الوصف، ودقة التصوير، وتنقل الخيال، وسلاسة الأسلوب، والتأنق في الأداء، وأوحت هذه الحياة الشاعرة إلى الأندلسيين روح الشعر وإلهام القريض فنظموه فناً يتحدث عن البيئة ومشاهدها، والعواطف

وأسرارها، والمجتمع وحياته، والشعراء وحياتهم الخاصة التي كانوا يحيونها، والآمال واللذات والمشاعر التي كانت تجيش بها نفوسهم، وتختلج بها صدورهم. وأصبح هذا الشعر يمثل جانبين واضحين في الشعر الأندلسي : أحدهما طبيعة البادية التي كانت ما تزال نفوس العرب في الأندلس تحن إليها، وتؤمن بها، وتسير على نهجها في التفكير والمعرفة والأخلاق؛ والثاني طبيعة الحضارة التي كانوا يعيشون فيها، والترف الذي يملأ حياتهم، والجمال الذي كان يتيم قلوبهم ويسحر أبصارهم في كل واد وبقعة من بقاع الأندلس الغارقة في الشعر والسحر والجمال.

ويمثل هذا الاتجاه الفني في الشعر الأندلسي قبل ابن هانئ بقليل، ابن عبد ربه أديب الأندلس وشاعرها ومؤلفها، والمتوفي عام ٣٢٨هـ في عهد الناصر، أي بعد ثمانية أعوام من ميلاد ابن هانئ. وقد حفل « العقد الفريد » لابن عبد ربه بشتى المقطوعات والقصائد الشعرية، التي نظمها، والتي صور فيها ألوان الجمال في بيئة الأندلس الساحرة، والتي صيغت في أسلوب عذب جميل، يكاد يسيل رقة وجمالاً وخصباً.

وفي هذا الوسط الأدبي نشأ ابن هانئ، واستمد ثقافته الأدبية، ونظم القريض، واتصل بالحياة في إشبيلية وفي قصر أميرها، فهل كان شعره صورة لهذه البيئة الاجتماعية والأدبية التي نشأ فيها وعاش في ظلالها ؟

لا يستطيع الباحث الإجابة على هذا السؤال، لأن شعر الشاعر في الفترة التي قضاها في وطنه حتى هجرته منه إلى بلاد المغرب وهو في سن السابعة والعشرين، قد ضاع كله ولم يبق منه أثر قليل أو كثير.

ومع هذا فنستطيع أن نقيس فن ابن هانئ، قبل هجرته بفنه الذي نظمه بعد هجرته مباشرة، ونستطيع أن نقول على ضوء هذا القياس : إن الفن الأدبي للشاعر في الأندلس لم يكن يصور بيئته، ولا يجاري

فن أمثاله من الشعراء الأندلسيين ولا يساير روح الترف الأدبي والحضارة الفنية في الأندلسي وطن الشاعر، فما السر في ذلك وما السبب فيه ؟

لعل مرجع ذلك إلى أن شخصية الشاعر الفنية لم تكن ظهرت بعد في إنتاجه الفني، إنما كان مقلداً لسواه من الشعراء، لم يقلد المحدثين منهم، الذي يجاري أدبهم وفنهم روح الحياة والحضارة في القرن الرابع الهجري، وإنما قلد الشعراء الجاهليين الذي عكف على حفظ أشعارهم، وتأثر بها في إنتاجه ونزعاته في فهم الفن؛ وفي نظم القريض، طول هذه الفترة.

٢ ــ وهاجر الشاعر إلى المغرب فقضى في ربوعه خمسة عشر عاماً، كل ثروته الشعرية هي من إنتاجه الأدبي في هذه الفرة الصغيرة في حياة الشاعر، وليس من المعقول أن يكون ابن هانئ قد تأثر في شعره وشاعريته بشيء ما في حياته بالمغرب، نعم، لم يتأثر بأي مؤثر أدبي فيه؛ وإنما تأثر بأشياء أخرى لا تمت إلى طبيعة الفن بصلة ما، تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية في المغرب، وظهر هذا الأثر في شعره واضحاً جلياً، أما فنه وروحه الشعري واتجاهه في نظم القريض فلم يتغير بأي حال، ذلك أن بيئة المغرب لم تكن الى ذلك الحين بيئة أدب وفن، يقومان على اتجاهات أدبية مستمدة من عوامل البيئة وأثرها وإنما كانت بيئة كفاح وجلاد بين شتى القوى السياسية في العالم الإسلامي إبان ذاك. وكان الأدب والفن فيها يسيران على نهج الأدب والفن في قرطبة وبغداد؛ ولقد وفد الشاعر على هذه البيئة وهو تام الأداة، موفور الملكات، ناضج الاستعداد، فشدا بالشعر في المغرب كما كان يشدو به في الأندلس فناً وبياناً وأسلوباً وخيالاً ومعاني ونزعات، اللهم إلا أن الشاعر قد بدأت شخصيته الفنية تأخذ مكانها الأدبي الواضح في إنتاجه وشعره، وأخذت سمات التكلف الفني تتلاشى من قصائده بتلاشي روح التقليد الأدبي من نفسه، وبعد قليل من هجرة الشاعر

الى المغرب كانت شخصيته الأدبية قد استكملت عناصر استقلالها الفني، فظهر ذلك واضحاً ملموساً في شعره وقصائده، فليس إذاً بنا حاجة إلى البحث عن الحياة الأدبية في المغرب ومبلغ أثرها في نفس ابن هانئ، وإنما سنبحث عن مدى أثر ابن هانئ فيها. فذلك هو الملائم لاتجاه البحث في تراث ابن هانئ ونزعاته الأدبية.

إن شخصية الشاعر الفنية لم تتأثر بالحياة الأدبية في الأندلس، لأنه كان مشغولاً عن بيئته بروح التقليد المتأصلة في ثقافته الأدبية في شبابه ولم تتأثر كذلك بالحياة الأدبية في المغرب، لأنه كان قد ترك عصر التأثر الأدبي في حياته، ولأن هذه البيئة التي هاجر اليها لم تكن لها شخصيتها الأدبية المستقلة التي تمثل مذهباً أدبياً خاصاً.

٣ — ووفد ابن هانئ على المغرب، فوجد في شعراء، اتخذهم أنداداً لا أساتذة. كان من شعرائه علي التونسي الشاعر، الذي قال فيه ابن هانئ لما هجاه شعراء المغرب بعد هجرته : « لا أجيب منهم أحداً إلا أن يهجوني علي التونسي فأجيبه »[1]. وكان منهم عبدالله بن الحسن الجعفري، ومقداد بن الحسن الكتامي وسواهم من الشعراء. فماذا كان موقفه منهم ؟ وماذا كان موقفهم منه ؟

لقد بذ ابن هانئ بفنه جميع هؤلاء الشعراء، فحسدوه ونقموا عليه ثم أخذوا في هجائه والزراية به وبفنه. ولكن ابن هانئ عصف بهؤلاء الشعراء جميعاً. وأخمل مكانتهم، فصاروا بعد قليل من بقائه في المغرب رعاعاً في دولة القريض من حيث صار ابن هانئ أمير الشعر في المغرب كافة، وكان هجاء خصومه الشعراء له لا يزيده إلا إجادة وإبداعاً؛ وفتن الأمراء والخليفة بفنه، ورآه الشاعر مؤلفاً من نظام كواكب :

صنع يؤلف من نظام كواكب ... طلعت لغير كثير والأحوص

---

(١) العمدة لابن رشيق ٧١/١.

ويصور الشاعر اختلاف نزعاته الفنية والنفسية عن نزعات سواه من الشعراء فيقول :

أبت لي سبيل القوم في الشعر همة ... طموح ونفس للدنية فارك

ويقول للمعز :

فإن أك محسوداً على حر مدحكم ... فغير نكير في الزمان الأعاجيب
أفي كل عصر قلت فيه قصيدة ... علي لأهل الجهل لون وتثريب
أبن موضعي فيهم ليفخر غالب ... يبين بسيماه، ويدحر مغلوب
وقد أكثروا فاحكم حكومة فيصل ... ليعرب رب في القريض ومربوب

وقد حكم المعز له فأصبح شاعر الخليفة والدولة. وملك القريض في دولة الفاطميين. وجميع نقاد الأدب يسلمون لابن هانئ زعامة الشعر في المغرب كافة؛ ويقولون إنه لم يبذه أحد من الشعراء في المغرب أو الأندلس، ممن سبقوه أو جاءوا بعده. ويرون أن فنه ارتفع بميزاته الخاصة والعامة عن مستوى الفن والشعراء في المغرب والأندلس، وأنه كان طبقة وحده في البلاغة الأدبية وفي الانتاج الشعري في شتى عصور المغرب الأدبية، وإن كان يرى بعض المحدثين أن ذلك أجحاف بأمثال ابن زيدون.. ورأيي في ذلك أن ابن زيدون كان صورة من صور بيئته الأدبية، أما ابن هانئ، فقد كان وحده بيئة أدبية خاصة، وشخصية فنية مستقلة بعيدة عن شخصية ابن زيدون وغير ابن زيدون، كما كان المتنبي شخصية فنية مستقلة، ولذلك قال النقاد : « ابن هانئ متنبي المغرب، وأبو الطيب متنبي المشرق ».

٤ ــ وقد وضع الشعراء في المغرب والأندلس فن ابن هانئ ــ بعد عصره ــ موضع الإكبار والتقدير، ونهجوا نهجه في مذاهب الشعر ومعانيه وخيالاته وأساليبه، وجعلوه مذهباً أدبياً لهم على مر العصور الأدبية، ونبغ شعراء في الأندلس والمغرب كابن الحداد وابن عائشة وسواهم من الشعراء الذين كانوا تلامذة له في فن الشعر ونظمه، مما

تراه مفصلاً في الذخيرة ونفح الطيب، وذلك مظهر لمكانته الرفيعة في الشعر في بلاد المغرب طول عهده بالحياة الأدبية.

مذهبه الشعري :

١ ــ الاتجاه الفني عند ابن هانئ ينزع إلى روح البداوة، التي تأثر بها فيما قرأ من شعر الجاهليين والإسلاميين، وهو كما يقول في أبي الفرج الشيباني كان ولا شك ممن لا يحتذي حذو المحدثين في اتجاههم الفني فينظم القريض، بل كان يرجع إلى الشعر الجاهلي يأنس به وينزع منزعه ويحاكيه، ويقول من قصيدته في الشيباني، وقوله في ممدوحه صورة لنفس نزعاته الأدبية التي سار عليها، يقول :

من لا يفاخر بالطائي[1] في زمن ... ولا الخزاعي[2] في عصر الخزاعي
ولا الفرزدق أيضا، والفخار له ... ولا جرير ولا الراعي النميري
لكن بعلقمة الفحل الذي زعموا ... في الشعر أو بامرئ القيس المراري

فهو لا يفاخر بالمحدثين كأبي تمام ودعبل، ولا بالإسلاميين كالفرزدق وجرير والراعي، ولكن يجعل فخره في الفن بعلقمة وبامرئ القيس، وإن كان الفتح بن خاقان يذكر في مطمح الأنفس[3] أنه كان يتبع في أغراضه الفرزدق وجرير.

وبعد فشعر الشاعر صورة لهذا الروح، وذلك بالاتجاه والنزعة الفنية، فهو لا يمثل ترف المحدثين ولهوهم وخيالهم الفني وإغراقهم في التصوير، وتهويلهم في التمثيل والخيال، وإنما يمثل روح الجد والإقدام والبداوة

---

(١) هو أبو تمام الشاعر م ٢٣١هـ.
(٢) هو دعبل الشاعر م ٢٤٩هـ.
(٣) ٨٤ المطمح.

والقوة والصدق في التصوير والتعبير. ومذهبته التي مطلعها :
أصاخت فقالت : وقع أجرد شيظم   وشامت فقالت : لمع أبيض مخذم

التي حاكى بها معلقة عنترة في روحها وأسلوبها واتجاهها الفني، هذه المذهبة صدى لهذا الاتجاه. كما أن خلو شعره من آثار الإمعان في المعاني والأخيلة كذلك أثر لهذا المذهب الشعري الذي نزع إليه الشاعر، وكذلك هو في أسلوبه ينهج منهج الجاهليين في قوة الطبع وضخامة الأسلوب وجزالة الألفاظ وإشراق الديباجة، وفي كثرة الأساليب المختارة التي تمثل روح البداوة في التعبير والأداء، ولعل هذا الروح أثر من آثار الوراثة فيه.

٢ ــ ومعاني الشعر عند ابن هانئ قريبة واضحة تشبه معاني الاسلاميين، وإن كان الشاعر يحاول في أحيان كثيرة أن يبرزها بأسلوبه وصنعته في مظهر جديد مبتكر.

وفي شعره ألوان من الخيال الواقعي المجرد. وقد يحيد الشاعر أحياناً عن نهج الفن الواضح، فيمدح ممدوحه بالجمال، كما يقول في جعفر ابن علي :
وسنان من وسن الملاحة طرفه   وجفونه، سكران من خمر الصبا

يقول في أبي الفرج الشيباني وكأنه يغازله :
أهواه والصعدة السمراء تعذلني   والقلب يدلي بعذر فيه عذري

وقد يقبح أحياناً في صوغ معانيه وتصويرها، كما يقول :
وأحمل أيامي على ظهر غارة   وتحملني منها على مركب وعر

ويأخذ عليه كثير من النقاد مبالغاته، وإسرافه في معزياته، وقد سبق أن أبنّا أن هذه المبالغة لا ترجع إلا إلى شيء واحد هو نفس العقيدة الفاطمية التي اتخذها الشاعر مذهباً له في الدين والسياسة والاجتماع.

٣ ــ وأسلوب ابن هانئ له ميزاته الخاصة التي تميزه عن أساليب من سواه من الشعراء.

هو فيه بدوي جزل، يرق حيناً، ويبلغ في الجزالة والقوة والوحشية مبلغاً كبيراً أحياناً أخرى.

وكان في طبع ابن هانئ ميل إلى نوع من الغرابة والتكلف، حتى حسبه بعض النقاد من الشعراء الذين يبهرون بألفاظهم، ومن هؤلاء النقاد المعري وابن رشيق وابن خلكان.

وكثيراً ما ترى الشاعر قد عمد إلى التهويل والتفخيم، أو إلى الصنعة وتكلف أساليب البديع في شعره، فيجيد وتخفى قوة أسلوبه مظاهر التكلف في صناعته الفنية أحياناً، ويشذ عن الجودة طبعه وصناعته في أحيان أخرى.

وظاهرة واضحة في أسلوب ابن هانئ هي كثرة إطنابه وتفصيله، مما كان يؤدي به في بعض الأحيان إلى النزول عن مستواه الشعري، فتراه يكرر كثيراً من الصفات التي لا طائل تحتها والتي لاحظ فيها إلا إظهار مقدرة الشاعر اللغوية. وهذه الظاهرة سبب من أسباب طول نفسه في شعره، الذي امتاز به ابن هانئ، ويشاركه فيه ابن الرومي، إلا أن منشأه عند ابن الرومي المعنى وبسط الحديث فيه، وعند ابن هانئ الأغراض والبواعث الفنية التي نظم فيها وجانب اللفظ الذي كان يؤثره.

وأسلوبه على العموم سليم مطبوع، لا يشذ منه عن سلامة الطبع إلا القليل جداً من أبياته، مثل قوله :

« لو كنت قبل تكون جامع شملنا » مما تلحظ فيه أثر التعقيد، ومثل قوله :

ما كنت أحسب أن أرى بشراً كذا   ليثا ولا درعا يسمى غابا

فكلمة « كذا » هنا نازلة مردودة في حكم الذوق الأدبي.

وهذا القليل النادر من الأبيات التي خان فيها ابن هانئ طبع الشعر واستواء التأليف وقوة النظم، لا يكاد يقاس بشذوذ المتنبي في فنه، ولا بشذوذ غير المتنبي من الشعراء الممتازين.

وجودة ابتداءات القصائد، وحسن انتهاءاته فيها، سمة لابن هانئ في شعره، حتى ضرب المثل بمطلعه :

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر

وقرن بمطلع معلقة امرئ القيس « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » في الجودة والجمال، وابن هانئ فوق ذلك مجيد في اقتباسه من أساليب القرآن الكريم، ومجيد في حسن تخلصه إلى المدح في كثير من قصائده، ويمتاز أسلوبه بقوة البيان، وحسن السبك والتأليف، وقوة الارتباط بين أجزاء البيت الشعري، وتلاحم أجزاء القصيدة في شعره، كما يمتاز بخلوص شعره من سمات التعقيد والغموض معاً، وتشيع في إنتاجه روح الطبع والشاعرية القوية، وفي أسلوبه كثير من الجمال في صوره البيانية في الاستعارة والتشبيه والمطابقة والمقابلة، ويشبه الممدوح بهذه الصور الشعرية المجتمعة فيقول :

كبدر الدجى، كالشمس، كالفجر؛ كالضحى كصرف الردى، كالليث، كالغيث، كالبحر

وفي شعره أساليب مختارة كثيرة جيدة، تساير الطبع وتستدعي الإعجاب.

٤ ــ وموضوعات شعره، وأغراض القصيد عنده، كثيرة متنوعة :

فمن مدح سياسي يشيد فيه الشاعر بالدولة ومبادئها ورجالاتها وأعمالها وأيامها ونفوذها الروحي ومستقبلها الباسم، مما كان يصدر عن عقيدة قوية، وعاطفة ممتلئة إيماناً بمبادئ الفاطميين، ولقد امتاز هذا « الشعر

السياسي » بكثير من المعاني الخصبة، كما امتاز بالقوة وسعة خيال الشاعر فيه. وهو في هذا الجانب الفني يضارع المتنبي.

ومن وصف رائع لجيوش الدولة وأساطيلها، ولأيامها وانتصاراتها، والمعارك العظيمة التي خاضتها، وللخيول التي كانت تقتحمها، وللأبطال المعلمين الذين كانوا يسيرون بالدول من مجد إلى مجد، ويكللون هامتها فخاراً على فخار. نعم لم يكن ابن هانئ وصافة للطبيعة، كما كان ابن المعتز وابن خفاجة، ولم يكن وصافاً للعواطف الإنسانية كما كان المتنبي وأبو العلاء، إنما كان وصافاً مجيدا لحياة النضال السياسي والحربي الذي شغل الدولة والناس في عصره وفي بيئته، أما أوصاف الشاعر التي لا تتصل بهذه الناحية، فهي كلها من الأوصاف القليدية التي لا تمت إلى نفس ابن هانئ بصلة، وهو في كثير منها ناب عن الذوق والإجادة. كما في وصفه لرجل أكول، وكما في وصفه للراح ومجالسها وآلات الغناء التي تكون فيها، فهذه الأوصاف وسواها لا تبلغ شيئاً من وصفه الممتع البالغ حداً كبيراً من الجمال والسحر، عندما يصف الجيوش وآلات القتال والمعارك الحربية الضخمة. والشاعر في هذا يضارع أبا الطيب، فهما في هذه الناحية صنوان. ووصف ابن هانئ مفعم بألوان الخيال وصوره التي كان يستعين بها في تصوير المعنى الذي يريده.

وللشاعر هجاء ولكنه هجاء ضعيف، لأن الهجاء بعيد عن نفسيته النبيلة في الحياة، وكان إذا أراد أن يهجو صور من يهجوه بالنفاق والكيد للدولة ومبادئها كما فعل مع الوهراني كاتب أمير الزاب، فهو هجاء سياسي لا غير، أما الهجاء الفني الذي نراه عند ابن الرومي مثلاً فليس للشاعر فيه نصيب.

ولابن هانئ غزل يبدأ به قصائده، ولكنه في جملته غزل تقليدي متكلف مألوف المعاني والأساليب، يكرر فيه ما سبق إليه من : تصوير

موقف الوداع وهول الجفاء والشكوى والرجاء، والأرق والبكاء، وبؤس المحب في حبه، وذكر طيف الخيال من محبوبته الذي يزوره أحياناً، وتشبيه حبيبته بالمها والظباء والغصون، وذكر ألحاظها وأثر فتكها، وغيرة أهلها عليها، إلى غير ذلك من المعاني المألوفة التي للشاعر فيها حسن الصوغ، ونظمها في أسلوب خلاب وعبارات بليغة، وفي الحق أن حياة ابن هانئ وجهاده فيها وشغله بعقيدته والدفاع عنها كان يحول بينه وبين الإجادة في النسيب، شأنه في ذلك شأن المتنبي، ومع بداوة في غزله التقليدي، فقد يرق حتى يأتي بالجديد الساحر، كما في قصيدته :

امسحوا عن ناظري كحل السهاد　　وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد

أو قصيدته :

قمن في مأتم على العشاق　　ولبسن الحداد في الأحداق

أو قصيدته :

هل من أعقة عالج يبرين　　أم منهما بقر الحدوج العين ؟

أو قصيدته :

أمن أفقها ذاك السنا وتألقه　　يؤرقنا لو أن وجدا يؤرقه

وقد يتفلسف في حبه، فيذكر الشمل المبدد، والسعادة الذاهبة، كما في قصيدته : هل آجل مما أؤمل عاجل ؟.

فليس ابن هانئ من رجال الهوى العذري ولا من شعراء الحسن واللذة المترفين، وإنما هو في منزلة مقلد كغيره من الشعراء المقلدين، الذين قد يجيدون فيه وقد لا يجيدون.

ولابن هانئ ثلاث قصائد جيدة في الرثاء. منها مرثيتان في والدة جعفر بن علي أمير الزاب، ومطلعهما :

صدق الفناء وكذب العمر وجلا العظات وبالغ النذر
ألا كل آت قريب المدى وكل حياة إلى منتهى

والمرثية الثالثة رثى بها طفلاً صغيراً من أحفاد جعفر بن علي، ومطلعها :

وهب الدهر نفيساً فاسترد ربما جاد لئيم فحسد

والمرثيات الثلاثة فيها جودة، وفيها حكمة، وقد حاول بها ابن هانئ أن يصل إلى منزلة المتنبي في حكمته الخالدة، ولكن المتنبي في ذلك، لا يضارعه شاعر من الشعراء.

والحكمة على أي حال في شعر ابن هانئ قليلة متفرقة، وتكثر في مراثيه، وهي حكم إجتماعية قريبة التناول مستمدة من أثر التجارب العامة في الحياة..

وقصارى الحديث أن ابن هانئ أجاد في شعره السياسي، وفي مدحه، وفي وصفه الحربي، وفي رثائه، ووقف متخلفاً في غزله وهجائه، وفي خمرياته، وهو في حكمته لا يصل إلى منزلة حكمة أبي الطيب الخالدة وإن كان يرسم لنا صورة كاملة لفلسفة الحياة العملية التي سبق أن أشرنا إليها فيما مضى من بحوث.

٥ ــ وفي ابن هانئ يقول الفتح بن خاقان م ٥٢٦ هـ في كتابه مطمع الأنفس : له نظم تتمنى الثريا أن تتوج به، وبدائع يتحير فيها ويحار، ويخال لرقتها أنها أسحار، اعتمد فيها التهذيب والتحرير، واتبع في أغراضه الفرزدق وجرير، وتشبيهاته خرق فيها المعتاد »[1].

ويقول فيه المعري م ٤٤٩هـ في رسالة الغفران : « كان من شعراء المغرب المجيدين وكان يغلو في مدح المعز غلواً عظيماً »[2] :

(١) ٨٤ مطمح الأنفس.
(٢) ١٥٤ رسالة الغفران نشر اليازجي.

ويقول ابن خلكان م ٦٨١هـ : ليس في المغرب من هو في طبقته، لا من متقدميهم ولا من متأخريهم بل هو أشعرهم على الإطلاق، وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة »، ثم نوه بنونيته « هل من أعقة عالج يبرين » وأخذ عليه إفراطه في المدح[١]، ويفتخر الشقندي أديب الأندلس به في مناظرة أدبية رواها نفح الطيب[٢].

وأشاد به لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة[٣]، وابن شرف في مقامته : « أعلام الكلام »[٤].

وجعله ابن الأبار هو وابن دراج الشاعر الأندلسي نظيرين للمتنبي وأبي تمام[٥] ونوه الحميدي بشعره، وأخذ عليه قعقعة ألفاظه[٦]، وذلك رأى المعري فيه، وإن حمله ابن خلكان على فرط تعصبه للمتنبي[٧].

وجعله ابن رشيق من الشعراء الذي يبهرون بألفاظهم أكثر مما يبهرون بمعانيهم[٨]. ونوه به الذهبي في تاريخ الإسلام[٩].

ويعجب ابن حجة الحموي في خزانة الأدب[١٠] بقصيدته :

فتقت لكم ريح الجلاد يعنبر وأمدكم فلق الصباح المسفر

---

(١) ٢ : ٥ ابن خلكان.

(٢) ٢ : ١٤٠ النفح

(٣) ٢ : ٢١٢ الاحاطة.

(٤) أعلام الكلام ص ٢٦.

(٥) ١٠٣ تكملة الصلة.

(٦) ٤١ جذوة المقتبس.

(٧) ٢ : ٥ ابن خلكان.

(٨) ١ : ٨٠ العمدة.

(٩) تاريخ الاسلام ص ٨١.

(١٠) راجع باب تجاهل العارف في الخزانة.

ويراه ياقوت أشعر المغاربة ويجعله في المغرب نظير المتنبي في المشرق[1] .

وذكره ابن أبي الحديد في نهج البلاغة، والعاملي في الكشكول والمقري في نفح الطيب[2]، وكثير من مؤرخي الأدب في العصر الحديث.

وترجم فان كريمر شعره إلى الألمانية، ورأى فيه قوة بيان وكثرة تمثيلات وجودة ألفاظ مما يعتبر من خصائص وأوصاف شعره؛ وذكره أيضاً هامر، وهوارت، وسواهما من المستشرقين.

وقد عني بشرح ديوانه شرحاً لغوياً واسعاً الدكتور زاهد علي الهندي، وطبع هذا الشرح في مطبعة المعارف عام ١٣٥٢هـ في نحو تسعمائة صفحة، قدمها بمقدمة في حياته وتاريخه[3].

هذا هو كل ما كتب عن ابن هانئ في الأدب العربي على مر القرون.

---

(١) ٧ : ١٢٦ وما بعدها معجم الأدباء.

(٢) ٤٤٣ــ٤٥٠ : نفح الطيب.

(٣) ومن ديوان ابن هانئ نسخة خطية في مجلد بقلم نسخ في ١١٧ ورقة في مكتبة الأزهر (رقم ٥٠٠ أباظة ــ ٧٠٩٦)، راجع فهرس المكتبة الأزهرية صـ ٩٢ جـ ٥.

مختارات من شعر ابن هانئ الأندلسي

قال في الحكم :

إنَّا ـــ وفي آمال أنفسنا طول، وفي أعمارنا قصر
لنرى بأعيننا مصارعنا لو كانت الألباب تعتبر
مما دهانا أن حاضرنا أجفاننا والغائب الفكر
وإذا تدبرنا جوارحنا فأكلهنّ العين والنظر
لو كان للألباب ممتحن ما عد منها السمع والبصر
أي الحياة ألذ عيشتها من بعد علمي أنني بشر ؟
خرست لعمر الله ألسننا لما تكلم فوقنا القدر
هل ينفعني عز ذي يمن وحجولها، واليمن والغرر
ومقالي المحمود شارده ولساني الصمصامة الذكر
ها إنها كأس بشمت بها لا ملجأ منها ولا وزر
أفتترك الأيام تفعل ما شاءت ولا تسطو فتنصر ؟
هلا بأيدينا أسنتنا في حين نقذفها فتشتجر ؟
فانبذ وشيجا وارم ذا شطب لا البيض نافعة ولا السمر
دنيا تجمعنا،وأنفسنا شذر على أحكامها مذر
لو لم تربنا ناب حادثها انا نراها كيف تأتمر
ما الدهر إلا ما نحاذره هفواته وهناته الكبر

وفيها يقول :

أقسمت لا يبقى صباح غد — متبلـج وأحـم معتكـر
تفنى النجوم الزهر طالعة — والنيران : الشمس والقمر
ولئن تبدت من مطالعها — منظومة فلسوف تنتثر
ولئن سرى الفلك المدار بها — فلسوف يسلمها وتنفطر

وفيها يقول :

وإذا صحبت العيش أوله — صفو، فهين بعده الكدر
وإذا انتهيت إلى مدى أمل — دركا، فيوم واحد عمر
ولخير عيش أنت لابسه — عيش جنى ثمراته الكبر
ولكل حلبة سابق أمد — ولكل نهلة وارد صدر
وجدود تعمير المعمر أن — يسمو صعوداً ثم ينحدر
والسيف يبلى وهو صاعقة — وتنال منه الهام والقصر
والمرء كالظل المديد ضحى — والفيء يحسره فينحسر

ثم يقول في ختامها :

غرض ترامى في الخطوب، فذا — قوس، وذا سهم، وذا وتر
فجزعت، حتى ليس بي جزع — وحذرت حتى ليس بي حذر

٢ ــ وقال في النسيب :

امسحوا عن ناظري كحل السهاد — وانفضوا عن مضجعي شوك القتاد
أو خذوا مني ما أعطيتم — لا أحب الجسم مسلوب الفؤاد
هل تجيرون محباً من هوى — أو تفكون أسيراً من صفاد ؟
أسلوا عنكم من هجركم — قلما يسلو عن الماء الصوادي
إنما كانت خطوب قبضت — فعدتنا عنكم احدى العوادي
فعلى الأيام من بعدكم — ما على الظلماء من لبس الحداد
لا مزار منكم يدنو سوى — أن أرى أعلام هضب أو نجاد

ومنها :

قـل تنويـل خيـال منكـم يطبي بين جفون وسهـاد
لم يزدنا القرب إلا هجرة فرضينـا بالتنائـي والبعـاد
وإذا شـاء زمـان رابنـا برقيب أو حسود أو معاد

٣ ــ وقال يصف أكول :

يا ليت شعري، إذا أومى إلى فمه أُحلقـه لهـوات أم ميادين ؟
كأنها ــ وخبيث الزاد يضرمها ــ جهنم، قذفت فيها الشياطين
تبارك الله ما أمضى أسنته كأنما كل فلك منه طاحون
كأن بيت سلاح فيه مختزن مما أعدته للرسل الفراعين
أين الأسنة أم أين الصوارم أم أين الخناجر أم أين السكاكين
كأنما الحمل المشوي في يده ذو النون في الماء لما عضه النون
لف الجداء بأيديها وأرجلها كأنما افترستهن السراحين
وغادر البط من مثنى وواحدة كأنما اختطفتهنَّ الشواهين
يخفض الرز من قرن الى قدم وللبلاعيم تطريب وتلحين
كأنما كل ركن من طبائعه نار، وفي كل عضو منه كانون
كأنما في الحشا من خمل معدته قرنفل وجواريش وكمون
قوموا بنا فلقد ريعت خواطرنا وجاذبتنا أعنتها البراذين
نصحتكم، فخذوا من شدقه وزرا أولا، فأنتم سويق فيه مطحون

٤ ــ وقال في وصف الخيل :

وصواهل، لا الهضب يوم مغارها هضب، ولا البيد الحزون حزون
عرفت بساعة سبقها، لا أنها علقت بها يوم الرهان عيون
وأجل علم البرق فيها أنها مرت بجانحتيه وهي ظنون

٥ ــ وقال يمدح المعز :

تقول بنو العباس: «هل فتحت مصر» فقل لبني لعباس: «قد قضي الأمر»
وقد جاوز الإسكندرية جوهر تطالعه البشرى، ويقدمه النصر

ومنها :

إمام رأيت الدين مرتبطاً بـه ... فطاعتـه فـوز، وعصياتـه خســر

أرى مدحـه كالمـدح لله إنـه ... قنوت وتسبيح يحط بـه الـوزر

وفيها يقول :

وما ضر مصرا حين ألقت قيادها ... إليك، أمد النيل أم غاله جزر ؟

غدا جوهر فيها غمامة رحمة ... يقي جانبيها كل جانبة تعرو

كأني به قد سار في القوم سيرة ... تود لها بغداد لو أنها مصر

ستحسدها فيها المشارق، انه ... سواء إذا ما حل في الأرض والقطر

ابن زيدون الشاعر

٣٩٤ ــ ١٥ رجب ٤٦٣ هـ: ١٠٠٣ ــ أبريل ١٠٧١ م

ــ ١ ــ

هو أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون المخزومي القرطبي[١]، ولد بقرطبة ونشأ بها، وكان أبوه من وجوه الفقهاء وكبار القضاة، وكانت قرطبة في ذلك الوقت تزخر بالعلم والأدب، فدرس على أبيه وعلى علماء قرطبة وأدبائها الأدب، وحفظ كثيراً من الشعر والأخبار والسير والأمثال والحكم ومسائل اللغة ومباحثها، وأخذ يعالج فنون الأدب حتى برع فيها، فتم فضله، وذاع صيته، وارتفعت مكانته. واتصل بابن جهور أحد ملوك الطوائف، فاتخذه كاتباً ومشيراً، ثم أخذ يترقى في دولة ابن جهور حتى قلده منصب الوزارة واعتمد عليه في السفارات بينه وبين ملوك الأندلس فلقب بذي الوزارتين، وصار يعمل على تحسين الصلات بينهم وبينه بذكائه ودهائه، إلى أن دبت عقارب السعاية بينهما، فنقم عليه ابن جهور وسجنه، فكتب إليه رسالة فريدة

(١) راجع : ابن زيدون للأستاذ حسن جاد، وابن زيدون للدكتور شوقي ضيف، وابن زيدون للأستاذ علي عبد العظيم، وديوان ابن زيدون ــ نشر كامل كيلاني.

يستمطر بها عفوه، فلم يلن له قلبه، ففر من سجنه ولجأ الى المعتضد ابن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٤٨هـ، فاستخلصه لنفسه، وعول في أموره عليه، ثم وزر لابنه المعتمد، وقضى في إشبيلية بقية عمره. وقد ابتلى ابن زيدون وهو في قرطبة بحب ولادة بنت المستكفي أحد خلفاء بني أمية، وكانت مشهورة بالجمال والأدب، شاعرة سافرة؛ تساجل الشعراء، وتجادل العلماء، وكانت دارها نادياً من أندية قرطبة، يغشاها الأمراء والوزراء والأدباء والقادة، ومن هؤلاء ابن زيدون، وكانت فيه خفة روح وحسن دعابة وبراعة أدب، فسبق المتنافسين إلى قلب ولادة فاحتله، وبادلته هي هذا الحب، فأذكى هذا الفوز نار الحسد في قلوب منافسيه ومزاحميه. فسعوا في إفساد ذات بينهما، واشتهر منهم الوزير ابن عبدوس فتزلف إلى ولادة في ساعة من ساعات مللها من ابن زيدون، وظفر برضاها ثم عاد الحب إلى مجراه الأول فرجعت إليه، فكتب ابن زيدون إلى ابن عبدوس رسالة هزلية على لسان ولادة أشبعه فيها تقريعاً وسخرية، ضمنها كثيراً من الملح في الأدب والتاريخ.

ولابن زيدون طريقة في الكتابة متميزة جعلته في صدر الكتاب، وقد سبق ذكرها في الجزء الثالث، حين ذكرنا نثره والأدباء وقوامها :

١ ـــ تضمين كتابة الأمثال والحكم والأشعار مع التآلف والتناسق.

٢ ـــ الإشارة الى الحوادث التاريخية وأسماء الرجال المشهورين من الحكماء والأدباء والعلماء خلال كتابته.

٣ ـــ استخدام الصناعة اللفظية في كتابته محاكاة لابن العميد زعيم هذه الطريقة في الشرق.

— ٢ —

أما شعر ابن زيدون فيتميز بما يلي :

١ — شعره أنيق الوشي رقيق النسج قليل التكلف ينزع عن قوس الملكة السليمة، مشرق الديباجة، معسول الألفاظ متجاوب العبارة، خلعت عليه الملاحة أثوابها، وأعارته البراعة أبرادها، فجاء رشيقاً طلياً، وأنيقاً بهياً، يخلب العقول ويعجز الفحول، قد عرى من الغرابة والحوشية، وارتدى مطارف الإبانة السنية.

٢ — معانيه سنية دانية القطوف قريبة المورد لا يكد الذهن في فهمها، ولا يعتاص على العقل أمرها؛ لأنها معان منبعثة من أعماق الوجدان، قبض بها أوتار المشاعر الملتهبة والأحاسيس الفياضة، وإذا أجلت في رياض شعره نفحك عبير شاعريته، وفتن فؤادك جمال عبقريته، تقرأ في شعره أجود ما خصت به الطبيعة الأندلسيين من وصف وخيال وتصوير دقيق وعرض أنيق.

٣ — يتجلى في شعر ابن زيدون خفة الروح والوزن الراقص المتجاوب، مع المعاني العاطفية والأفكار الوجدانية، فهو يتلطف باختيار الأوزان العذبة الجرس العالية الموسيقى، مما يجعل لشعره وقع الزلال من ذي الغلة الصادي.

٤ — سهولة قوله وعذوبة أسلوبه ورقة كلماته التي تجيئ مساوقة للطبع متجاوبة مع السليقة. وقد تلاءمت عباراته مع أفكاره ومعانيه، من شكوى وأنين ولوعة واحتراق وبعد وفراق وجفوة وشقاق.

٥ — ومن ثم شبهوا ابن زيدون بالبحتري، كما شبهوا ابن هانئ بالمتنبي فقالوا : بحتري الغرب، كما قالوا متنبي المغرب، ومرد ذلك إلى تلك المنازع المشتركة بينهما من رقة الأسلوب واختيار الأوزان القصيرة الراقصة وصدق العاطفة والتزاوج بين المعاني والعبارات.

ولم يكن شعر ابن زيدون ضرباً من التقليد والمحاكاة، بل كان من نمو ملكة الشعر في نفسه، ومن رغبته في التعبير عن كل ما يشعر به، وعما له صلة بحياته الخاصة. ولم تلبث الحوادث التي نزلت به، والأيام التي قضاها في السجن أن هاجت من نفسه، وولدت فيها تلك المعاني التي ذكرها. فكان شعره صحيفة من حياته النفسية، وصورة لما كان يجول بها من آلام وأحزان وحب وغرام. وكثيراً ما تقرأ شعره فترى فكره المضطرب، ونفسه الوثابة الحائرة، وتكاد تلمس كبره وخيلاءه وسخطه على أعدائه، وتجلده وصبره وهو يشكو ويئن من بلواه. كما في قصيدته التي يقول فيها :

ما على ظني باس يجرح الدهر وياسو
ربما أشرف بالمر ء على الآمال يأس

وكثيراً ما كان يفخر بفضله، ويربأ بنفسه عن أن يكون ألعوبة في يد الحوادث، ويرى أن سبب تعسه حقد أعدائه عليه، لما اتصف به من فضل وعلم كثير من شعره في هذا المعنى، كقوله :

لا يهنى الشامت المرتاح خاطره أني معنى[1] الأماني ضائع الخطر[2]
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر ؟
إن طال في السجن إيداعي فلا عجب قد يودع الجفن حد الصارم[3] الذكر
قد كنت أحسبني والنجم في قرن[4] ففيم أصبحت منحطاً إلى العفر؟[5]

ويمدح فيمزج مدحه بالاستعطاف والعتب، وكثير من قصائده في استعطاف ابن جهور وهو في السجن صورة من صور البؤس الذي

---

(١) متعب بأمانيه.
(٢) الخطر قدر الرجل ومنزلته.
(٣) الصارم : القاطع. وسيف ذكر : ذو ماء وبريق.
(٤) أي في منزلة واحدة.
(٥) التراب.

فتق من لسانه، وأثار في نفسه هذه العاصفة الشعرية المظلمة، التي هبت عليه فملأته هماً وغماً، إذ يقول وكأنك تسمع أنينه :

ألم يأن أن يبكي الغمام على مثلي ... ويطلب ثاري البرق منصلت النصل
وهلا أقامت أنجم الليل مأتما ... لتندب في الآفاق ما ضاع من نبلي
ولو أنصفتني وهي أشكال همتي ... لألقت بأيدي الذل لما رأت ذلي
ولو أنني أسطيع أن أرضي العدا ... شريت ببعض الحلم حظاً من الجهل

أما غزله فكثير، وكله يدل على سعة خياله وإخلاصه في حبه، وبث عواطفه وما يجول في نفسه، وأكثر معانيه مبتكر كقوله :

يا ليت شعري وعندي ... في الحب ما ليس عندك
هل طال ليلك بعدي ... كطول ليلي بعدك
سلني حياتي أهبها ... فلست أملك ردك
الدهر عبدي لما ... أصبحت في الحب عبدك

وقوله :

متى أبثك ما بي ... يا راحتي وعذابي ؟
متى ينوب لساني ... في شرحه عن عتابي
الشمس أنت توارت ... عن ناظري بالحجاب
ما البدر شف سناه ... على رقيق السحاب
إلا كوجهك لما ... أضاء تحت النقاب

— ٣ —

وديوان ابن زيدون ضخم الحجم، متناول لجميع أغراض الشعر من مدح ورثاء، وهجاء واستعطاف، ووصف وغزل، والغزل فيه قد ظفر بنصيب كبير، حتى لم يخل مطلع قصيدة منه، وقد يطول نفس الشاعر فيه، حتى يكاد يستغرق نصف القصيدة، وقد تكون القصيدة في

الاستعطاف، وهو إلى البكاء وندب الحظ أقرب منه الى السرور واللهو اللذين يبعثان الغزل، ويعيدان ذكرى الوصال، فيستهلها بالغزل ويطيل فيه على عادته، هذا إلى غزل مستقل لم يقله تابعاً لغرض آخر، وذلك كثير في شعره. وأشهر مثل له قصيدته النونية.

ونستخلص من ذلك، غلبة هذا النوع من الشعر عليه، وكثرة دواعيه عنده، فهذه شارك فيها أبو الوليد بن زيدون، أبا عبادة البحتري، إذ أن البحتري ــ كما تعلم ــ مكثر من الغزل، يصدر به أغلب قصائده.

وخاصية أخرى يشتركان فيها. وهي أن كليهما أغرم بمحبوبة، فذكرها في شعره وأطال ترداد اسمها في قوافيه، فابن زيدون أغرم بولادة التي ملكت عليه مشاعره، وكان صدها عنه وحرمانه من مجلسها، إحدى نكباته التي أطال منها الشكوى، وأكثر فيها الأنين، كما أغرم أبو عبادة بعلوة حبيبته بالشام. وليس يهمنا أن يكون حب البحتري صادقاً أو متصنعاً، وإنما يعنينا، أن يصدر الشاعر عن صورة ماثلة يرى بها ضروب الجمال، وأفانين الفتنة، فيحسن تصوير ذلك، فأما أن يكون خياله جامحاً شارداً غير صادر عن حقيقة، فذلك جدير أن يكون فيه صورة للغرام الجاد : وما مثل الشاعرين في ذلك الا كمثل المصورين، يصور أحدهما من خياله فيكون حائداً في كل ما يأتي، وقد يخلط من الألوان ما لا يتناسب فيه، ويصور الآخر من جمال ملموس له ظل في الوجود : فيحاكي في صورته الطبيعة ويعكس ظلها، وما أعظم الفرق بين الطبع والتكلف[1].

وجهة أخرى قد توافى عليها الشاعران، وهي أنهما اشتركا في خفة الروح المناسبة للغزل فكانا يتلطفان باختيار الأوزان المرقصة لقصرها، كما في قول أبي الوليد :

---

(١) راجع الجزء الثالث من الأدب العربي وتاريخه ــ محمود مصطفى.

أنـي أضيـع عهـدك ... أم كيف أخلف وعدك
وقـد رأتك الأمانـي ... رضـا فلـم تتعـدك
يا ليت مالك عندي ... من الهوى لي عندك
فطـال ليـلك بعـدي ... كطول ليلـي بعـدك
سلنـي حياتـي أهبهـا ... فـلست أمـلك ردك
الدهـر عبـدي لمـا ... أصبحت في الحب عبدك

ومن قول أبي عبادة في مثل هذا :

عذيـري مـن تثنيـه ... إذا أدبـر أو أقبـل
ومـن ورد بخديـه ... إذا جمشتـه يخجـل

ومما اتفقا كذلك فيه، أن سهولة قولهما « وعذوبة لفظهما، قد وافقتا مقام الغزل، فجاء شعرهما مساوقاً للسليقة، متمشياً مع الطبع، ولم تحل قساوة اللفظ وخشونته بينهما وبين ما يريدان، من إظهار اللوعة وذل الغرام والاحتراق بنار الجفوة.

— ٤ —

ومن مدح ابن زيدون لبني جهور، قوله في أبي الوليد، وهو نظم سري اللفظ، سني المعنى، دل في جملته على أنفة القائل واعترافه بالجميل، في عزة لم يطأطئ معها رأسه، ولم يتدل ذلك التدلي، الذي يكون عند أكثر الشعراء، قال :

يا بني جهـور الدنيـا بكـم ... حليت أيامها بعـد العطـل
إنمـا دولتكـم واسطـة ... أهدت الحسن إلى عقد الدول
نحن من نعمائكم في زهرة ... جددت عهد الربيع المقتبل[1]

(١) اقتبل المرء أمره : استأنفه، والربيع المقتبل (بصيغة اسم المفعول) : المستأنف أي المنتظر.

طاب كانون لنا أثناءها ... فكأن الشمس حلت بالحمل
زهرت أخلاقكم فابتسمت ... كابتسام الورد عن لؤلوء طل
أيها البحر الذي مهما تفض ... بالندى يمناه فالبحر وشل
من لنا فيك بعيب واحد ... تحذر العين إذا الفضل كمل[1]
شرف تغنى عن المدح به ... مثل ما يغنى عن الكحل الكحل
أنا غرس في ثرى العلياء لو ... أبطأت سقياك عنه لذبل
لي ذكر بالذي أسديته ... نابه ود حسود لو خمل
فليمت بالداء من حال فتى ... أدبته سير الناس الأول
فوعى الحكمة عن قائلهم : ... « ألزم الصحة يلزمك العمل »
أقبلت نعماك تهدي نفسها ... لم أرع حظي منها بالحيل
فقبلت اليد من بطن يد ... ظهرها الدهر محل للقبل
كلنا بلغ ما أمله ... فابلغ الغاية من كل أمل
وإذا ما رامك الدهر ففت ... وإذا رمت الأماني فنل

وقال يستعطف ابن جهور :

أبا الحزم ! إني في عتابك مائل ... إلى جانب تأوي اليه العلا سهل
حمائم شكوى صبحتك هوادلا ... تناديك من آداب أفناني الهدل[2]
جواد إذا استن الجياد إلى مدى ... تمطر فاستولى على أمد الخصل[3]
ثوى صافنا في مربط الهون يشتكي ... بتصهاله ما ناله من أذى الشكل[4]

---

(١) المعنى أن العين تخشى على المرء إذا كمل، فنحن نطلب فيك عيباً لنأمن عليك العين.

(٢) هوادل : جمع هادلة أي حمامة ذات هديل. هدل : جمع أهدل أي غصن متدل، يشبه شكاويه إليه بحمائم تهدل على أغصان شجرة متهدلة.

(٣) استن الجواد : أسرع. تمطرت الخيل جاءت يسبق بعضها بعضاً. يقال : أحرز خصله وأصاب خصله أي غلب، وأصل الخصل أن يقع السهم بلزق القرطاس.

(٤) الصافن من الجياد : الذي يقوم على ثلاث قوائم، وطرف حافر الرابعة وهو علامة العتق. الشكل : شديد قوائم الدابة. وفي معنى البيت يقول أبو الطيب.

وإن تكن محكمات الشكل تمنعني ... ظهور جري فلي فيهن تصهال

أفي العدل أن وافتك تترى رسائلي ... فلم تتركن وضعا لها في يدي عدل
أعدلك للجلي وآمل أن أرى ... بنعماك موسوماً وما أنا بالغفل
وما ذاك وعد النفس لي منك بالمنى ... كاني به قد شمت بارقة المحل
لئن زعم الواشون ما ليس مزعما ... تعذر في نصري وتعذر في خذلي[1]
وأصدى إلى اسعافك السائغ الجني ... وأضحى إلى انصرافك السابغ الظل[2]
ولو أنني واقعت عمداً خطيئة ... لما كان بدعاً من سجاياك أن تملي
فلم أستتر حرب الفجار ولم أطع ... « مسيلمة » إذ قال إني من الرسل[3]
ومثلي قد تهفو به نشوة الصبا ... ومثلك قد يعفو ومالك من مثل
وإني لتنهاني نهاي عن التي ... أشار بها الواشي ويعقلني عقلي

ويقول :

بيني وبينك ما لو شئت لم يضع ... سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع
يا بائعاً حظه مني ولو بذلت ... لي الحياة بحظي منه لم أبع
يكفيك أنك لو حملت قلبي ما ... لا تستطيع قلوب الناس يستطع
ته أحتمل واستطل أصبر وعزأهن ... وول أقبل وقل أسمع ومر أطع

وقد أبدع في الغزل حيث يقول :

---

(١) عذر كقدم : لم يثبت له عذر، والمعنى تقصر فلا يكون لك عذر تبديه، وأعذر من الأضداد بمعنى ثبت له عذر أو قصر، والمراد هنا هو الثاني.

(٢) يقول : هل يكون جزائي أن أعطش، ولك إسعاف سائغ وأبرز للشمس، أو أتعرض للضرر ولك ظل سابغ وارف ؟

(٣) الفجار : أربعة أيام كانت بين كنانة وهوازن. وإنما سميت فجاراً لأن العرب فجروا فيها فأحلوا القتال في الأشهر الحرم. وأشهر أيام الفجار الرابع، وكان سببه قتل البراض الكناني لعروة الرحال لما فضله كسرى عليه وأسند إليه إجارة عير اللطيمة، وهي تجارة من القطف والطيب كان يبعث بها كسرى إلى بلاد العرب ويستبدل بها حاصلات تلك البلاد. وقد حضر النبي حرب يوم الفجار الرابع وكانت سنه أربع عشرة سنة، وقال فيها : « كنت أنبل على عمومتي يوم الفجار ورميت فيه بأسهم، وما أحب أني لم أكن فعلت ».

انـي ذكـرتك بالزهـراء مشتاقـا	والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا[1]
وللنسيـم اعتـلال فـي أصائلـه	كأنما رق لي فاعتـل اشفاقـا[2]
والروض عن مائه الفضي مبتسم	كما حللت عن اللبات أطواقا[3]
يوم كأيام لذات لنـا انصـرمت	بتنا لها حين نام الدهـر سراقـا
نلهو بما يستميل العين من زهر	جال الندى فيه حتى مال اعناقا
كل يهيـج لنـا ذكـرى تشوقنـا	إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا
لو كان وفي المنى في جمعنا بكم	لكان مـن أكـرم الأيـام اخلاقـا
لا سكَّن الله قلباً عنَّ ذكركـم	فلم يطر بجناح الشـوق خفافـا

ويقول : يصف موقف الوداع لولادة، وما في صدره من ألم، على رضاء بالفراق حين ودع، ولم يتبع :

ودع الصبـــر مـــحب ودعك	ذائـع مـن سـره مـا استـودعك
يقرع السن على أن لـم يكـن	زاد في تلك الخطا اذ شيعك
يـا أخـا البـدر سنـاء وسنـى	حفـظ الله زمانـا أطلـعك[4]
ان يطـل بعـدك ليلـي فلكـم	بت أشكـو قصر الليـل مـعك

وانظر إليه، وقد تلاعب باللفظ، وأتى بالقياس المحال ليرضي محبوبه، فجعل نفسه مذنباً وهو مجنى عليه، وطالب الجاني بالصفح، مجاهر باتهامه. وذلك في قوله :

يـا قمـرا مطلعـه المغـرب	قد ضاق بن في حبك المذهب
ألزمتني الـذنب الـذي جئتـه	صدقت فاصفح أيها المذنب
وإن من أغرب ما مـر بـي	أن عذابـي فيـك مستعـذب

(١) الرجل الطلق الوجه : الضاحك المشرق، واليوم الطلق الذي ليس بحار ولا بارد، والمعنيان صالحان هنا.

(٢) اعتل النسيم : هدأ ولم يشتد. الأصائل أصيل وهو الوقت قرب الغروب.

(٣) اللبة : موضع القلادة من العنق.

(٤) السناء : الشرف والرفعة، والسنى : الضوء.

أما قصيدته الحاوية لمعاني حبه، المسجلة لشتى آلامه، الممثلة لآماله في الحب وأحلامه، التي هي في شعر الأندلس كله نجم يتألق، وعلم يخفق، فهي قوله يخاطب ولادة، ومطلعها :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ويقول في آخرها :

أولي وفاء وإن لم تبذلي صلة ... فالذكر يقنعنا والطيف يكفينا
وفي الجواب « متاع » لو شفعت به ... بيض الأيادي التي ما زلت تولينا[1]
عليك مني سلام الله ما بقيت ... صبابة منك نخفيها وتخفينا[2]

ومن مختارات شعره قوله :

كما تشاء فقل لي لست منتقلا ... لا تخش مني نسيانا ولا بدلا
وكيف ينساك من لم يدر بعدك ما ... طعم الحياة ولا بالبعد عنك سلا
أتلفتني كلفاً، أبليتني أسفاً ... قطعتني شغفاً أورثتني علــلا
إن كنت خنت وأضمرت السلو فلا ... بلغت يا أملي من قربك الأملا
والله لا علقت نفسي بغيركم ... ولا اتخذت سواكم منكم بدلا

وقوله في بعض مجالس الأنس :

يأيها المـلك الجليــ ... ـل بكل ألسننا جلالك

---

(١) هذه رواية الديوان، الذي نشره الأستاذان : عبد الرحمن خليفة وكامل كيلاني. أما رواية قلائد العقيان فهي « قناع » ولا معنى لها، إذ يكون أصلها قناعة فحذفت التاء، ولكن ذلك غير مألوف، لذلك نرجح الرواية الأولى.

(٢) نخفيها وتخفينا : الفعل الأول رباعي أو ثلاثي بمعنى ستر، والثاني ثلاثي بمعنى أظهر، والمعنى إننا نحاول كتم ما عندنا من عشق وصبابة، ولكنهما يدلان علينا، بما ينتابنا من اضطراب وسقم ولوعة، فنحن نخفي الحب وهو يعلن أمرنا للناس.. ويكون أقرب إلى الفهم، وأجرى على طريقة الشعراء في القول، أن يكون رباعيين بمعنى يستر، والمراد من إخفاء الصبابة لهم أنها تحيل عليهم الهزال والسقم حتى لا تبين أشخاصهم !! وقد تناول الشعراء هذا المعنى كثيراً، فقال المتنبي :

كفى بجسمي نحولا أنني رجل ... لولا مخاطبتي إياك لم ترني

انظـر إلــى محتلنــا قد زان ساحته احتلالك
نهر وروض نحن بيـ ـنهما تفيأنا ظـلالك

وقوله :

أدرها فقد حسن المجلس وقد آن أن تترع الأكؤس
ولا بأس إن كان ولى الربيع إذا لم تجد فقده الأنفس
فـان خــلال أبـي عامـر بها يحضر الورد والنرجس

وقوله :

جازيتني عن تمادي الوصل هجرانا وعن تمادي الأسى والشوق سلوانا
بالله هل كان قتلي في الهوى خطأً أم جئته عامداً ظلماً وعدوانا
ما صح ودي إلا اعتل ودك لي ولا أطعتك الا زدت عصيانا
يا ألين الناس أعطافاً وأفتنهم لحظاً وأعطر أنفاساً وأردانا
حسنت خلقاً فأحسن لا تسؤ خلقاً ما خير ذي الحسن إن لم يول إحسانا

وقوله :

ولما التقينا للوداع غدية وقد خفقت في ساحة القصر رايات
وقرنت الجرد العتاق وصفقت طبول ولاحت للفراق علامات
بكينا دماً حتى كأن عيوننا لجري الدموع الحمر فيها جراحات
وكنا نرجي الأوب بعد ثلاثة فكيف وقد كانت عليها زيادات

وقوله :

وضح الحق المبين ونفى الشك اليقين
ورأى الأعداء ما غـ ـرتهم منه الظنون
أملوا ما ليس يمنى ورجوا ما لا يكون
وتمنوا أن يخود الـ ـعهد مولى لا يخون
فاذا الغيب سليم واذا الحب مصون

وقوله :

يا ظبية لطفت منى منازلها — فالقلب منهن والأحداق والكبد
حبي لك الناس طرا يشهدون به — وانت شاهدة إن يثنهم حسد
لم يعزب الوصل فيما بيننا ابداً — لو كنت واجدة مثل الذي أجد

وقوله :

ألا ليت شعري هل أصادف خلوة — لديك فأشكو بعض ما أنا واجد
رعى الله يوماً فيه أشكو صبابتي — وأجفان عيني بالدموع شواهد

وقوله :

يا غزالا أصارني — موثقاً في يد المحن
إنني مذ هجرتني — لم أذق لذة الوسن
ليت حظي إشارة — منك أو لحظة عنن
شافعي يا معذبي — في الهوى وجهك الحسن
كنت خلواً من الهوى — فأنا اليوم مرتهن
كان سري مكتما — وهو الآن قد علن
ليس لي عنك مذهب — فكما شئت لي فكن

وقوله :

خنت عهدي ولم أخن — بعت ودي بلا ثمن
قائلاً هل مزايد — رابحاً ؟ ثم من يزن ؟
عدتي كنت للزما — ن فقد حلت والزمن
أرخص البيع كيف شئـ — ـت وذرني لتندمن
سوف تبلى بغيرنا — جرب الناس وامتحن

وقوله :

وليل أدمنا فيه شرب مدامة — إلى أن بدا للصبح في الليل تأثير
وجاءت نجوم الصبح تضرب في الدجا — فولت نجوم الليل والليل مقهور

فحزنا من اللذات أطيب طيبها ولم يعرنا هم ولا عاق تكدير
خلا أنه لو طال دامت مسرتي ولكن ليالي الوصل فيهن تقصير

وقوله :

كم ذا أريد ولا أراد؟ يا سوء ما لقي الفؤاد
أصفي الوداد مدللا لم يصف لي منه الوداد
يقضي علي دلاله في كل حين أو يكاد
كيف السلو عن الذي مثواه من قلبي السواد ؟

محنة ابن زيدون كما يصورها في شعره

ـ ١ ـ

ألف عام أو يزيد...

مضت على ميلاد الشاعر الخالد، وابن قرطبة العظيم، أبو الوليد أحمد ابن زيدون...

ويا لها من ذكرى، ويا له من تاريخ، كل صفحاته مشرقة بالطموح والأمل، وبالحرمان والألم، وبالمجد والعبقرية.

شاعر حاربته الأيام، وجللت صفحات حياته وشعره أقسى المحن والآلام وعاش يطوي سنى حياته عاماً بعد عام، في محن وعداوات وغربة عن الوطن[1].

وكائن رامت الأيـا　　م ترويعي فلم ارتع
اذا صابتني الجلى　　تجلت عن فتى أروع
على ما فات لا يأسى　　ومما ناب لا يجزع

وقد ظلت المحن تلاحق الشاعر طيلة حياته يوماً بعد يوم، وعاماً أثر عام وكان لهذه المحن القاسيات أثرها الكبير في حياة الشاعر وفنه.

---

(١) الديوان ص ٧١، ٧٢ تحقيق سيد كيلاني ـ طبع مصطفى الحلبي بالقاهرة.

أما في حياته : فهذا واضح كل الوضوح مما سنذكر نبأه بعد قليل ويقول الشاعر فيه :

وهو الدهر ليس ينفك ينجو بالمصاب العظيم نحو العظيم

وأما في فنه :

فلقد انطقته بأروع الشعر في الحنين والأنين، والهمته خوالد القصائد العذرية الرومانسية الجميلة في الحب والغزل وأوحت اليه بأدب وجداني عميق عبر فيه الشاعر عن نفسه وذاته ومشاعره وعواطفه أبلغ تعبير، وكذلك انطقته بروائع القصائد في المدح والاعتذار والشكوى، وجعلته أرق الناس ديباجة واعذبهم صياغة وأجملهم أسلوباً، بل جعلت منه أعظم شاعر قديم انجبته الأندلس كما يراه غومس وجب وفيليب[1] حتى، عد أكبر شعراء العصر الكلاسيكي الأندلسي الثاني وتميز شعره بنزعة انسانية عالية كما يرى ليفي برفنسال[2]، وصار ممثلاً لأنقى أسلوب عربي في الأندلس ومن الممكن موازنته بالمتنبي والبحتري كما يقول نيكل.

— ٢ —

لقد عاش ابن قرطبة النبيل وشاعرها الكبير طفولة مترفة في حياة والديه الرؤومين: أبيه الجليل، فقيه قرطبة وعالمها، عبدالله بن أحمد ابن غالب بن زيدون المخزومي الذي وصفه المؤرخون بالنباهة والجلالة والمعرفة باللغة والآداب[3] وامه الحنون السيدة التقية الجليلة، ابنة

---

(١) ٦٦٤/٢ تاريخ العرب المطول لحتي.

(٢) ١٥ سلسلة محاضرات في تاريخ الأندلس.

(٣) ٢٥٤ الصلة لابن بشكوال (ـ ٥٧٨هـ) طبع مدريد ١٨٨٢، ٤٤٥/٢ التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (ـ ٦٥٩هـ) طبع مدريد ١٨٨٧.

القاضي ابي بكر محمد بن ابراهيم بن سعيد القيسي (٣٥٥ــ٤٣٢هـ)، والتي رضع منها أفاويق الحنان وابتسم له في ظلها وجه الزمان.

ولكن القدر لم يترك له هذا الصفاء، ولا تلك السعادة، فمات الأب الحاني وابنه الطفل في الحادية عشرة من عمره عام ٤٠٥هـ.

وكان لذلك اليتم المبكر اثره العميق في حياة الشاعر، كما كان أحد الأسباب في فسلفة الألم الذي نجده ماثلاً في شعره.

انه أول محنة امتحن به الشاعر في أول حياته... وعاش في كفالة جده لأمه القاضي أبي بكر القيسي بتزود من مختلف ألوان الثقافة بزاد واسع من المعارف والعلوم والآداب، على يد هذا الجد الجليل أبي بكر (٣٥٥ــ٤٣٢هـ) وعلى يد استاذه أبي بكر مسلم بن أحمد النحوي الأديب القرطبي المشهور (٣٧٦ــ٤٣٣هـ).

ومرت الأيام وابن زيدون الشاب يصعد نجمه ويتألق حظه، وترتفع في دوائر الثقافة والأدب والشعر منزلته يوماً بعد يوم.

وفي الأزمات السياسية العنيفة التي مرت بقرطبة، وانتهت بانتهاء الخلافة الأموية في الأندلس وبقيام عصر ملوك الطوائف فيها، عام ٤٢٢هـ نجد ابن زيدون يشارك في الأحداث، وتقوم في قرطبة الدولة الجهورية، ويصبح الشاعر أحد أركانها يؤازره في ذلك كرم محتده، وشرف مولده، وجلال مواهبه، وحدة ذكائه، وسعة ثقافته، وبلاغة أدبه وسحر شعره وقوة شاعريته.. وأصبح احد وزراء أبي الحزم بن جهور (٤٢٢ــ٤٣٥هـ)، والصديق الحميم لولي عهده أبي الوليد بن حزم، وصار الملك القرطبي أبو الحزم يدنيه منه، ويقربه اليه ويخصه بوده، ويمزجه بنفسه، وكتب الشاعر فيه قصائد بليغة ذائعة، وظلت صلة الشاعر بمليكه على قوتها ووثاقتها عدة أعوام.

- ٣ -

وفي هذه الأثناء بدأت صلته بولادة بنت الخليفة المستكفي (٣٩٠ــ٤٨٤هـ) ونظم ابن زيدون في قصة حبه أروع القصائد، وكانت ولادة فتاة مغامرة لها أهداف سياسية بعيدة خفيت على كل الباحثين، انها لم تكن تنشد الحب، بل كانت تنشد تدبير بعض المؤامرات من اجل بعث الخلافة الأموية من جديد، ووجدت في الوزير ابن زيدون عوناً لها على تحقيق مآربها السياسية في مساعدة الأمويين على اعادة عرش الخلافة الأموية الذي هوى، ولابن زيدون كذلك مآرب سياسية بعيدة وقد تمتع بلقب الوزير دون أن يسند اليه عمل، ودون أن ينال ما كان يتمناه من أمل، حتى لقد مدح الملك القرطبي أبا الحزم فقال :

مقامي في جواركم الذليل	وحدي في رجائكم الكليل
نصيب من ولايتكم كثير	وحظ من عنايتكم قليل
اتحيا أنفس الآمال فيكم	ولي اثناءها أمل قتيل
واعجب حادث نظري لديكم	الى غلل[1] النجاح وبي غليل
وقدحي في ودادكمو معلى	وباعي في اعتمادكمو طويل
أأيأس من مساعفة الليالي	وانت الى نهايتها سبيل[2]

مما يدل على أن صلته بمليكه بدأ الوهن يتطرق إليها، ولابن زيدون كذلك صلات بالبيت الأموي، وله في تاريخ الخلافة الأموية في الأندلس كتاب[3] ثم كان هواه هو ولادة الأميرة الأموية الشاعرة الساحرة :

(١) الغلل : السيل الضعيف.
(٢) الديوان ص ١٧ و ١٨ تحقيق محمد سيد كيلاني ــ ونشر مطبعة مصطفى الحلبي.
(٣) سماه التبيين (١٢٣/٢ نفح الطيب، طبع ليدن ١٨٥٥ــ١٨٦١) ــ ويذكر بروكلمان أن في المتحف البريطاني نسخة منه برقم ١٠٧٤ وان في مكتبة بودليانا باكسفورد نسخة أخرى برقم ١٣١٨ (راجع الملحق الأول لكتاب بروكلمان في تاريخ الآداب العربية) ــ ولكن الدكتور علي عبد العظيم يقرر أن الموجود بالمتحف البريطاني=

ربيب ملك كأن الله أنشأه   مسكا، وقدر انشاء الورى طينا
كانت له الشمس ظئرا في أكلته   بل ما تجلى لها الا أحايينا
كانما أثبتت في صحن وجنته   زهر الكواكب تعويذا وتزيينا[1]

ويقص ابن زيدون قصة حبه لولادة، من بدئها لختامها فيقول[2] :

لما اتصلت اتصال الخلب بالكبد   ثم امتزجت امتزاج الروح بالجسد
ساء الوشاة مكاني فيك واتقدت   في صدر كل عدو جمرة الحسد
فليسخط الناس لا أهدى الرضا لهمو   ولا يضع لك عهد آخر الأبد

ويقول[3] :

والله ما ساءني اني خفيت ضنى   بل ساءني أن سِرِّي بالضنى عَلَنُ
لو كان أمري في كتم الهوى بيدي   ما كان يعلم ما في قلبي البدن

ويقول[4] :

ما كان حبك الا فتنة قدرت   هل يستطيع الفتى أن يدفع القدرا

وكان ذلك الحب محنة ثانية امتحن بها الشاعر امتحاناً شديداً حتى صار يرسل شعره العذري في الشكوى والأنين والحنين، وكتب رسالته الهزلية المأثورة حول ذلك بل صار موضع اشفاق المشفقين، ونتبع الرواة والشعراء وكل طبقات مجتمع قرطبة الأدبي يقول ابن زيدون في ولادة فيما يقول[5] :

= بهذا الرقم هو رسالتا ابن زيدون وشرح الصفدي على الرسالة الجدية وكذلك الأمر في مكتبة بودليانا راجع ص ٤٣١ و٤٣٢ من كتاب « ابن زيدون لعلي عبد العظيم » ــ طبعة عام ١٩٥٥ ونشر مكتبة الانجلو المصرية.

(١) ١٦٧ الديوان ــ ط الحلبي.

(٢) ١٧٥ الديوان ــ الخلب بكسر الخاء لحيمة رقيقة لاصقة بالكبد.

(٣) ص ١٨١ الديوان.

(٤) ١٩٣ الديوان.

(٥) ١٧٥ الديوان.

متى ابثك ما بي يا راحتي وعذابي
متى ينوب لساني في شرحه عن كتابي
ما البدر شف سناه على رقيق السحاب
الا كوجهك لما اضاء تحت النقاب

ولكن الوزير ابن عبدوس (٤٧٢هـ) وهو المنافس اللدود لابن زيدون استغل فرصة اغفال الملك القرطبي ابي الحزم لشاعره ووزيره، فأخذ يشي به عنده، ويكشف له عن ميول الشاعر السياسية نحو البيت الأموي، فوضع ابن زيدون تحت المراقبة، وأخذت ولادة تواري اهدافها السياسية، وتظهر الحب لابن عَبدوس لتكون في حمايته، وفي مأمن من انتقام الجهوريين ولتظهر للوزير ابن حزم بعدها عن السياسة ومؤامراتها، وساء ذلك الشاعر، واشتعلت عواطفه، واضطربت مشاعره، وكان أول الأمر يشك في أن يكون لولادة هوى في أبي عامر ابن عبدوس :

قالوا : أبو عامر اضحى يلم بها قلت : الفراشة قد تدنو من النار[1]

وبعد قليل يعتقل ابن زيدون، ويزج به في السجن، بتهمة التآمر على اعادة الخلافة الأموية، وكان ذلك بعد عشر سنوات من قيام حكم الجهوريين في قرطبة بزعامة أبي الحزم بن جهور، وكان اعتقاله في أوائل المحرم من عام ٤٣٢هـ حيث ظل فيه حتى شعبان من عام ٤٣٣هـ.

— ٤ —

وكان اعتقال الشاعر وحبه محنة ثالثة من المحن التي نكب بها في حياته بل كان أقسى محنة نزلت به على نفسه. وفي السجن عومل ابن زيدون معاملة سيئة ونكل به تنكيلاً شديداً، ولم يجد أمامه عزاء

(١) ٢٢٠ الديوان.

الا في الشعر ينظمه آهات حزينة، وعبرات تصف آلامه وشقاءه وأنينه وحنينه، ويكتب به الى اصدقائه يتحدث فيه، عن محنته، كتب من السجن لصديقه ابي حفص بن برد يقول[1] :

ما على ظني باس   يجرح الدهر وياسو
ربما أشرف بالمر   ء على الآمال ياس
ولقد ينجيك اغفا   ل ويرديك احتراس
وكذا الدهر اذا ما   عز ناس ذل ناس
نلبس الدنيا ولكن   متعة ذاك اللباس
انا حيران وللامـ   ـر وضوح والتباس
ما ترى في معشر حا   لوا عن العهد وخاسوا
ورأوني سامريا   يتقى منه المساس
أذؤب هامت بلحمي   فانتهاش وانتهاس
كلهم يسأل عن حا   لي وللذئب اعتساس
ان قسا الدهر فللما   ء من الصخر انبجاس
ولئن امسيت محبو   سا فللغيث احتباس
فتأمل كيف يغشى   مقلة المجد النعاس
ويفت المسك في التر   ب فيوطا ويداس

ويتذكر وهو في السجن أيام حياته، فيقول من موشحة[2] :

خليلي ان أجزع فقد وضح العذر
وان استطع صبرا فمن شيمتي الصبر
وان يك رزءا ما أصاب به الدهر
ففي يومنا أمر وفي غده خمر
رمتني الليالي عن قسي النوائب

(١) ص ٦٥ الديوان.

(٢) راجعها باكملها في الديوان ص ٢٠٠، وهي طويلة.

فما اخطأتني مرسلات المصائب
اقضي نهاري بالأماني الكواذب
وآوي الى ليل بطيء الكواكب
أقرطبة الغراء هل فيك مطمع ؟
وهل كبد حرى لبينك تنقع ؟
وهل للياليك الحميدة مرجع ؟
اذا الحسن مرأى فيك واللهو مسمع

ثم يقول منها :

أاخواننا للواردين مصادر
ولا أول الا سيتلوه آخر
واني لأعقاب الزمان لناظر
فقد يستقيل الجد والجد عاثر
ظعنت وكان الحر يجفى فيظعن
وأصبحت اسلو بالأسى حين احزن
وقر على اليأس الفؤاد الموطن
وان بلادا هنت فيها لأهون

ويرسل وهو في السجن الى أبي الحزم مدائح رائعة واعتذاريات، رفيعة، تصور همومه وأحزانه وآلامه النفسية العميقة... كتب اليه يقول[1] :

ألم يأن ان يبكي الغمام على مثلي ويطلب ثأري البرق منصلت النصل
وهلاّ أقامت أنجم الليل مأتما لتندب في الآفاق ما ضاع من نثلي[2]

(١) ص ١٢ الديوان.
(٢) نثل الكنانة : استخرج نبلها فنثرها، وفي الذخيرة ص ٣٠١ « نبلي » بضم النون.

أخص لفهمي[1] بالقلى وكأنما ... يبيت لذي الفهم الزمان على ذحلِ
وأجفى على نظمي لكل قلادة ... مفصلة السمطين بالمنطق الفصل
ولو انني اسطيع كي ارضي العدا ... شريت ببعض الحلم حظا من الجهل

ثم يناجي والدته المكلومة من أجل وحيدها المرزأ فيقول من القصيدة نفسها :

أمقتولة الأجفان ما لك والها ... ألم تُرِكِ الأيام نجما هوى قبلي ؟
أقلي بكاء لست أول حرة ... طوت بالأسى كشحا على مضض الثكل
وفي أم موسى عبرة ان رمت به ... الى أليم في التابوت فاعتبري واسلي
ولله فينا علم غيب وحسبنا ... به عند جور الدهر من حكم عدل

ثم يأخذ في مدح الملك والاعتذار اليه والاستشفاع لديه وتبرئة ساحته عنده فيقول :

ولو انني واقعت عمداً خطيئة ... لما كان بدعا من سجاياك ان تملي
فلم استثر حرب الفجار ولم اطع ... مسيلمة اذ قال اني من الرسل
ومثلي قد تهفو به نشوة الصبا ... ومثلك من يعفو، وما لك من مثل
واني لتنهاني نهاي عن التي ... أشاد بها الواشي ويعقلني عقلي
وما كنت بالمهدي الى السؤدد الخنا ... ولا بالمسيء القول في الحسن الفعل

وفي القصيدة نفسها يقول الشاعر :

أفي العدل ان وافتك تترى رسائلي ... فلم تترك وضعاً لها في يدي عدل
أعدك للجلي وآمل أن أرى ... بنعماك موسوما وما أنا بالغفل

والقصيدة جميلة تقف مع روائع النابغة في الاعتذار في منزلة واحدة :

وكتب الشاعر من السجن الى ولي العهد أبي الوليد بن جهور يستعطفه ويطلب شفاعته فيه، وساعده الحظ واصدقاؤه ومنهم ولي العهد على

---

(١) أي ذكائي. والذحل : الحقد أو الثأر أو العداوة.

الهرب من السجن فخرج من المدينة ــ قرطبة خائفاً يترقب، وكتب الى صديقه أبي بكر مسلم بن أحمد قصيدة بعد فراره من السجن يصور فيها أحداث حياته فيقول :

آأحبابنا ألوت بحادث عهدنا ... حوادث لا عقد عليها ولا شرط
لعمركمو أن الزمان الذي قضى ... بشت جميع الشمل منا لمشتط
ألا هل أتى الفتيان أن فتاهم ... فريسة من يعدو ونهزة من يسطو
عليك أبا بكر بكرت بهمة ... لها الخطر العالي وان نالها حط
أبي، بعد ما هيل التراب على أبي ... ورهطي، فذا، حين لم يبق لي رهط
لك النعمة الخضراء تندى ظلالها ... علي ولا جحد لديَّ ولا غمط
هرمت وما للشيب وخط بمفرقي ... ولكن لشيب الهم في كيدي وخط
مئون من الأيام خمس قطعتها ... أسيراً، وان لم يبد شد ولا قمط

ثم يقول :

فررت فان قالوا : الفرار ارابة ... فقد فر موسى حين هم به القبط

ويحرضه علي الشفاعة له عند ابي الحزم فيقول :

فما لك لا تختصني بشفاعة ... يلوح على دهري لميسمها عَلْطُ
فان يسعف المولي فنعمي هنيئة ... تنفس عن نفس الظ لها ضغط
وأن يأب الا قبض مبسوط فضله ... ففي يد مولى فوقه القبض والبسط

وبذلك انتهى فصل طويل من محنة ابن زيدون هذه المحنة التي يصورها فيقول :

نار بغي سرى الى جنة الأمن ... لظاها، فاصبحت كالصريم

وما أكثر ما يذكر الشاعر كلمة (الأمن) في شعره تنويهاً بضرورته لحياة الانسان، هذا الأمن الذي شعر بخسارة فقده له وهو في الحبس، يقول ابن زيدون فيما يقول منوهاً بنعمة الأمن والأمان :

بحيث مقيل الأمن ضاف ظلاله ... وفي منهل العيش العذوبة والبرد

ويقول في المعتضد بعد ذلك :

لقد جدت حتى ما بنفس خصاصة وامنت حتى ما بقلب تخوف

ويقول في المعتمد :

لبسنا لديه الأمن تندى ظلاله وزهرة عيش مثلما اينع الزهر
وعادت لنا عادات دنيا كأنها بها وسن او هز اعطافها سكر

— ٥ —

حط الشاعر رحاله بعد فراره من سجن أبي الحزم في اشبيلية، يلتمس الأمن في ظلال بني عباد، وأخذ يرسل آهاته الحارة الى بني جهور في قرطبة وكانوا قد وضعوا اهله وقرابته تحت المراقبة، يقول الشاعر فيما يقول :

بني جهور احرقتم بجفائكم فؤادي فما بال المدائح تعبق
تظنونني كالعنبر الورد انما تفوح لكم انفاسه حسن يحرق

أخذ الشاعر يحيا مغترباً في ظلال دولة بني عباد، ولازم الاغتراب الشاعر طيلة حياته، فكان محنة أخرى أشد من أثر محنة الحبس في نفسه، فلم تزل الأيام (تدنيه وتبعده، وتسوءه وتسعده، وتقذف به الى كل نازح) كما يقول ابن خاقان[1].

ويبدو أن اصدقاء الشاعر استطاعوا ان يظفروا بعهد امان لابن زيدون ان عاد الى قرطبة ليحيا فيها سيرته الأولى، وهي وطنه الحبيب وفيها امه الحنون، وأحبابه الأعزاء على نفسه، وعاد الشاعر في آخر أيام أبي الحزم، قبل وفاته بنحو سبعة أشهر، ليقيم فيها من جديد، وليطفئ

(١) ٧٤ قلائد العقيان للفتح بن خاقان.

غلة اشواقه الى معاهدها وملاعب صباه وحبه وشبابه فيها، ونظم نونيته الرائعة[1] التي تحدث فيها عن هواه العذري لمحبوبته ولادة.

اضحى التنائي بديلا من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ومدح ابن زيدون أبا الحزم بقصائد عديدة، اعلاناً منه لوفائه لاميره وتعلقه بوطنه ومات أبو الحزم فرثاه الشاعر، ووضع كل آماله لدى أبي الوليد :

أبا الحزم قد ذابت عليك من الأسى   قلوب مناها الصبر لو ساعد الصبر

دع الدهر يفجع بالذخائر أهلـه   فما لنفيس مذ طواك الردى قدر

ثم يقول في القصيدة نفسها يعلق كل آماله بالملك الجديد :

لك الخير اني واثق بك شاكر   لمثنى أياديك التي كفرها الكفر

فصدق ظنونـا لـي وفـي فانـني   لأهل اليد البيضاء منك ولا فخر

ويمدح أبا الوليد في مبالغة شديدة وهو يهنئه بالولاية، فيقول في قصيدة أخرى[3] :

فرح الرياسة اذ ملكت عنانها   فرح العروس بصحة الأملاك

من قال انك لست أوحد في النهى   والصالحات فـدان بالاشـراك

ويطالبه بولاية أو منصب كبير فيقول :

قلدني الرأي الجميل فانه   حسبي ليومي زينة وعراك

وعلت منزلة الشاعر عند أبي الوليد، وقدمه الملك وأسنى خطته، ونوه به، وجعله في الذي اصطنعهم لدولته، وجلله الكرامة كما يقول

---

(١) ١٦٥ــ١٦٩ الديوان.

(٢) ٣٦ــ٣٨ الديوان.

(٣) ٤١ــ٤٤ الديوان.

ابن حيان معاصره[1] :

ولكن الشاعر كان يريد أن يكون مكانه بجوار أبي الوليد في ذلك حتى جفاه، وهانت مكانته لديه، وخرج الشاعر من قرطبة مرة أخرى يجوب البلاد، ويسير بين عواصم ملوك الطوائف، فمن بلنسية الى بطليوس، الى طرطوشة، وفي كل مكان يحل به يرسل الشكاة والآهات، فيقول وهو في بطليوس :

يا دمع صبت ما شئت أن تصوبا
ويـا فـؤادي آن ان تذوبـا
اذ الرزايـا اصبـحت ضروبـا
لم ار لي، فـي أهلهـا، ضريبـا
قد مـلأ الشـوق الحشـا ندوبـا
في الغرب اذ رحت بـه غريبـا
عليـل دهـر سامنـي تعذيبـا
ادنـى الضنـى اذ أبعـد الطبيبـا

ولكنه عاد بعد قليل الى قرطبة بعد أن وصله صك أمان من الملك الجهوري أبي الوليد، فعاش فيها بعيداً عن الأضواء، ولم تلبث قرطبة ان شهدت عام ٤٤٠هـ ثورة عارمة هواها أموي، والقائمون بها هم بنو ذكوان، وكانوا من قبل اصدقاء للشاعر وكاد يزج بابن زيدون في هذه المؤامرة، ولكنه أسرع في اعلان ولائه للملك ونقمته على المتآمرين وبراءته منهم :

ان الألى كنت من قبل افتضاحهم مثل الشجا في لهاهم ليس ينتزع
لم أحظ اذ هم عدى باد نفاقهم الا كما كنت احظى اذ هم شيع

(١) راجع الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٩١ ـــ أصدرته جامعة فؤاد (القاهرة) ـــ ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩ـــ١٩٤٢ (٢) ص ٢٠٨ الديوان.

أودعت نعماك منهم شر مفترس لن يكرم الغرس حتى تكرم البقع
لا تستجز وضع قدري بعد رفعكه فالله لا يرفع القدر الذي تضع[1]

ولكن أبا الوليد انصرف عن ابن زيدون وجفاه، فعاد الشاعر الى الهجرة والاغتراب من جديد، حيث رحل الى بطليوس عام ٤٤١هـ ومر به العيد وهو وفي اغترابه فقال[2] يحن الى قرطبة ومعاهدها:

خليلي لا فطر يسر ولا أضحى فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى

ويقول :

الا هل الى الزهراء أوبة نازح تقضـي تنائيهـا مدامـع نزحـا

وبعد قليل وفي العام نفسه ٤٤١هـ حط رحاله من جديد في اشبيلية ونزل ببلاط مليكها المعتضد بن عباد (٤٣٣هـ ٤٦١هـ) ومدح المعتضد بقصائد بليغة ومما جاء في احدى هذه المدائح يلوح به الى الملك الجهوري من بعيد[3] :

الا هـل جـاء مـن فـارقت أنـي بساحـات المنى رفـل البـراح ؟
واني مـن ظـلالك فـي زمـان ندى الأصـال رقـراق الضواحي

ورفعه المعتضد الى منصب ذي الوزارتين، وجعله سفيره الى ملوك الطوائف وصار امير الشعر والشعراء في أشبيلية التي كانت تعج بالشعراء. وفي هذه العاصمة الجميلة وفي ظلال المعتضد عاش الشاعر نحو العشرين عاماً، ومع مناصبه وجلالة محله من بني عباد، فقد ظل يذكر قرطبة واحبابه فيها، فنراه يقول :

هل تذكرون غريبا عـاده شجـن من ذكركم وجفا أجفانه الوسن
يخفي لواعجه والشوق يفضحـه فقد تساوى لديـه السـر والعلـن

---

(١) ٥٥ـ٥٧ الديوان.
(٢) ٢٠٥ الديوان.
(٣) ١٠٣ـ١٠٦ الديوان.

يا ويلتاه أيبقى في جوانحه فؤاده وهو بالاطلال مرتهن
وأرق العين والظلماء عاكفة ورقاء قد شفها اذ شفني حزن
فبت أشكو وتشكو فوق ايكتها وبات يهفو ارتياحاً بيننا الغصن
يا هل أجالس أقواما أحبهمو كنا وكانوا على عهد فقد ظعنوا
أو تحفظون عهوداً لا أضيعها ان الكرام بحفظ العهد تمتحن
ان كان عاد كموعيد فرب فتى بالشوق قد عاده من ذكركم حزن
وافردته الليالي من أحبته فبات ينشدها مما جنى الزمن
« بم التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن »

... وهي لوعة غريب، وآهة حبيب الى حبيب...

ويموت المعتضد عام ٤٦١هـ، ويقوم بالملك بعده المعتمد (٤٦١ــ٤٨٤هـ)، ويقر الملك الجديد الشاعر على ما كان عليه في عهد أبيه، ويزيد في تكرمته[1].

ويعيش ابن زيدون محنته الأخيرة، محنته بالواشين والحاسدين والحاقدين وما كان أشدها من محنة على نفسه، وكم كانت في حياة الشاعر من محن قاسيات، فمن تنكر الأصدقاء الى تهجم الأعداء، وتهجم الوشاة، وكما يقول ابن زيدون :

كان الوشاة وقد منيت بافكهم اسباط يعقوب وكنت الذيبا

وكما يقول :

أذؤب هامت بلحمي فانتهاش وانتهاس

فمن خصومة ابن عبدوس، الى عداوة شاعر اشبيلية علي بن غالب ابن حصن، الى خصومة كاتب المعتضد أبي محمد عبدالله بن يوسف ابن عبد البر الى حسد وزير المعتمد ابن عمار ــ ٥٨٠ هـ، وحقد قائد جيشه في فتح قرطبة ابن مرتين... وسواهم.

---

(١) ٩٧ اعتاب الكتاب لابن الابار (٦٥٩هـ) مخطوط ٧٧٨ تاريخ تيمور.

وفي مطلع ملك المعتمد هاج حساد الشاعر وكتبوا قصيدة بعثوا بها الى الملك يغرونه فيها بابن زيدون، ليصلوا الى مآربهم من ابعاده عن الحياة السياسية في اشبيلية، وفيها يقولون :

أيها الملك العلي الأعظم اقطع وريدي كل باغ ينئم[1]
واحسم بسيفك داء كل منافق يبدي الجميل وضد ذلك يكتم
واذكر صنيع أبيك أول أمره في كل متهم فانك تعلم
لم يبق منهم من توهم شره فصفت له الدنيا ولذ المطعم
فعلام تنكل عن صنيع مثله ولأنت امضى في الخطوب واشهم
لا تتركن للناس موضع تهمة واحزم فمثلك في العظائم احزم

ولكن المعتمد رمى بالقصيدة عرض الحائط، وهو يردد :

كذبت مناكم صرحوا أو جمجموا الدين امتن والسجية أكرم
خنتم ورمتم ان أخون وانما حاولتمو ان يستخف يلملم[2]

وعلم الشاعر بما حدث فمثل بين يدي الملك يشكره على هذا الموقف النبيل بقصيدة طويلة جاء فيها :

لي منك فليذب الحسود تلظيا لطف المكانة والمحل الأكرم
وشفوف حظ ليس يفتأ يجتلي غض الشباب وكل حظ يهرم

وفي شعبان من عام ٤٦٢هـ يفتح جيش المعتمد قرطبة ويضمها الى اشبيلية بفضل تدبير ابن زيدون، فنال من الملك تقديراً وحمداً، وعاد الشاعر الى وطنه يقبل ثراه، ويبثه هواه. ولكن السياسة الزمته ان يعود الى اشبيلية في مهمة سياسية، وأقام فيها عدة شهور مسه فيها الوصب، وأضناه التعب وأعياه المرض، وأخيراً مات الشاعر الغريب في أشبيلية بعيداً عن مسقط رأسه، وهوى نفسه قرطبة الجميلة، وكان ذلك في صدر رجب

(١) أي يهمس.
(٢) أسم جبل.

من عام ٤٦٣هـ الثالث من ابريل عام ١٠٧١م، وسكت الصوت الذي كان يهز الجماهير، وخبا النجم الذي كان يضيء الدياجير، ومات فتى الأدب، وعمدة الظرف، والشاعر البديع الوصف والرصف، أبو الوليد أحمد ابن زيدون، ذو الأبوة النبيهة بقرطبة، والوسامة والدراية، وحلاوة المنظوم والمنثور، وقوة العارضة والافتنان في المعرفة كما يقول معاصره ابن حيان[1].

وحمل جثمان الشاعر العظيم فدفن فيها بين بكاء الشعب واجلاله واكبار الوطن واعظامه، وسجلت صفحات التاريخ اسم الشاعر في هالة من النور والمجد والخلود ومرت المحن، وغربة الشاعر عن الوطن، وبقيت الذكرى الخالدة، ذكرى عبقرية شاعر، عاش محنته وغربته، مرفوع الرأس، أبي النفس، كريم الخلق، ممتد الذكر في كل أفق، الشاعر الذي كان يغني للدنيا آلامه، ويشدو بالشعر احلامه فيقول :

فان يجدب من الدنيا جناب طالما امرع
فما أن غاض لي صبر ولا ان فاض لي مدمع

والذي طالما شكا دهره الى الناس :

من عذيري من ريب دهر خؤون كل يوم اراع منه بغدر

والذي قاسى في حياته ما لو قاست مثله الجبال لانهد شاهقها :

ما لي وللايام لج مع الصبا عدوانها فكسا العذار مشيبا
لألم بي ما لو ألم بشاهق لانهال جانبه فصار كثيبا

واذا كانت غربة الشاعر ومحنته قدراً قدر عليه، حتى لا يجد في حياته الأمن والطمأنينة الا بعيداً عن وطنه قرطبة، فقد قدر له كذلك بعد حياته الا يجد المحتفين بعبقريته وبشاعريته، الا بعيداً عن قرطبة، حيث عاصمة الملك العربي المسلم الحسن الثاني، تحتفل بالذكرى الألفية،

(١) الذخيرة قسم ١ ج ١ ص ٢٩١.

لميلاد شاعر عظيم، وهب العربية اسمى كنوزها، ومنح الأدب أجل ذخائره، وتوج الشعر بارفع قلائده وأبلغ خوالده واجمل أوابده.

فسلام عليه في الخالدين، وسلام عليه في الأولين، وسلام عليه في الآخرين.

ابن خفاجة الأندلسي[1]

٤٥٠ ــ ٥٣٣هـ

أسرته :

لما فتحت الأندلس عام ٩٢هـ واستقر بها المسلمون أقبلت القبائل العربية على الهجرة إليها أفراداً وجماعات، وكان ممن هاجر الى الأندلس جماعة من القيسيين والعامريين والعقيليين والخفاجيين، ومنهم : محمد بن عبد الملك العبسي[2] وكان يعيش في القرن الخامس الهجري، ومحمد بن غريب العبسي وكان يعيش في القرن السادس[3]، وأبو بكر محمد بن عمر العقيلي المتوفي عام ٥٣٠هـ[4]، ويقول ابن حزم :

---

(١) راجع : له ترجمة طويلة في قلائد العقيان للفتح بن خاقان الأندلسي (٢٤١ــ٢٥٣)، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان صـ ٢٣ و ٢٤ جـ ١، ١٩٠ــ٢٠١ بلاغة العرب في الأندلس.

وقد ولد ابن خفاجة بجزيرة شقر من أعمال بلنسية عام ٤٥٠هـ وتوفي سنة ٥٣٣هـ، وهو كما يقول المقري، أديب الأندلس وشاعرها، وأوحد الناس في وصف الأنهار والأزهار والرياض والحياض والرياحين والبساتين، ويلقب بصنوبري الأندلس (٣٧٨ : ٥ وما بعدها نفح الطيب ــ نشر فريد رفاعي).

(٢) ١٢٣ التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار م ٥٦٩هـ.

(٣) ٢٣٢ التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار.

(٤) ١٢١ المعجم لابن الأبار، ١٦٦ التكملة لابن الأبار.

وخفاجة بطن ضخم منهم النحوي محمد بن معارك المعروف بالعقيلي بقرطبة[1].

ورأيت نصاً آخر عثرت عليه في المكتبة الأندلسية يؤيد نسبة ابن خفاجة الأندلسي الى بني خفاجة، قال صاحب بغية الملتمس ما نصه : ابراهيم بن الفتح بن عبدالله بن خفاجة، أبو اسحاق الخفاجي، شاعر مشهور متقدم، مبرز، حسن الشعر جداً، خبيث الهجاء، وشعره كثير مجموع، وكانت له همة رفيعة[2] وتوفي سنة ٥٣٣ لأربع بقين من شوال[3]، وله ترجمة في المعجم لابن الأبار[4].

حياته وشاعريته :

ابن خفاجة علم من أعلام الشعراء العرب، المجددين، وهو بحق شاعر الأندلس ووصافها، وابن طبيعتها الساحرة.

ولد أبو إسحق إبراهيم بن الفتح بن خفاجة سنة ٤٥٠هـ ببلدة شقر وتوفي بها سنة ٥٣٣هـ، فعاش زمن ملوك الطوائف وإبان دولة المرابطين. وهذه العصور أزهى عصور الأندلس : فيها قامت دولة الأدب والشعر، وغصت مجالس الأمراء بالشعراء. فكانت بيوتهم أسواقاً للعلماء، وأندية للأدباء، وكانت الحياة إذ ذاك حياة ترف ورخاء. وتبع هذا الترف الميل الى اللهو والمجون وأنواع السرور، وتغلبت هذه الحال على عقول الأدباء والشعراء، فكان الشعر ضرباً من التفكه، وملهاة للأمراء، وزينة

---

(١) ١٧٤ أنساب العرب لابن حزم.

(٢) ٢٠٢ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي.

(٣) ٢٠٣ المرجع نفسه.

(٤) ٥٩ــ٦١ المعجم لابن الأبار من أجزاء المكتبة الأندلسية. وفي هامش الترجمة أنه توفي عصر يوم الأحد السادس والعشرين من شوال سنة ٥٣٣هـ.

العقول، وحلية العلماء. وكان الترف وبهاء الطبيعة يولدان في النفس حب الجمال، وسعة الخيال، وقد كان لابن خفاجة حظ في مناجاة الطبيعة وجمالها، لأن بلدته التي عاش فيها ومات بها كانت من أجمل البلاد وأحسنها بهاء.

ولقد انقطع ابن خفاجة للنظر في جمال الطبيعة، فكان كثير التأمل في المشاهدات، وكانت نظراته تقود عقله، وترسم له طرق التفكير وأنواع الخيال. فكانت كل معلوماته وآرائه من طريق النظر والتأمل في جمال الألوان وتناسق الأشياء، فأصبح عقله أشبه بخزانة منظورات. وقد حملته دقة النظر على دقة التعبير. وكان لا يحب إلا الجمال، ولم يميز من الأشياء التي يراها إلا ما يتفق مع صفاته النفسية. فكان دائماً فرحاً مسروراً، لا تكاد تجده يصف منظراً محزناً، أو شيئاً قبيحاً، أو يصف نفساً منقبضة أو يتكلم عن بؤس الأيام وأهوال حوادثها؛ فشعره صورة لحياته النفسية المملوءة بالسرور والإعجاب بالجمال. وكانت نفسه مطمئنة هادئة، ميالة الى اللهو والمجون، فكان شعره أيضاً به هذا الاطمئنان النفسي والهدوء الفكري، والمجانة الخلقية، فلا ترى في كلامه شيئاً يدل على الشك أو الحيرة، أو الخروج من العالم الخيال إلى عالم الحقيقة، أو ما يدل على تفكيره في الحياة وأهوالها، والناس وأخلاقهم والوجود وما فيه من خير وشر ليتوصل بذلك إلى ذكر حكمة أو عبرة، أو رأي يدل على كد فهمه. ولا تكاد تجد له صورة صحيحة تدل على نفسه وشعوره الخفي، سوى ميله للجمال وحب الطبيعة. وليس ذلك لأنه يشعر بشيء، أو لأن نفسه خالية مما يعلق بالنفوس عادة كالحب والبغض، والهم والحزن وغيرها من أهوال الحياة وحوادثها. ولكنه لم يكن يعنى ذلك، لأن هذا يدعو الى الهموم والأكدار، ولم يكن هو يميل إلى ذلك، لأنه كان يريد أن يعيش في نوع من الأحلام اللذيذة. لذلك كان أثر هذه الحياة عظيماً في نفسه،

فولدت فيها كثيراً من المعاني الشعرية، واندفع إلى تصويرها وإلى التعبير عنها بما فطر عليه من دقة الإدراك، شأن جميع الشعراء المفتنين، الذين تتسرب نفوسهم في خفايا الجمال وأسراره. فكان الجمال مثار شعره ومبعث خياله وافتتانه، يتتبع روائعه. فإذا امتلأت به نفسه، أخذ في وصفها ورسمها. وكان يتتبع مظاهر جمال الطبيعة، ويخرج إلى البساتين ليسمع خرير الماء، ولينعم بمشاهدة جريانه، ويصف ذلك في شعره، ويجاري الشعراء أحياناً في أوصافهم.

ويشمل شعر ابن خفاجة على المدح، والعتاب والرثاء والشكوى والوصف والمداعبات. ولكن أجود شعره في الوصف فإن الخيال هو كل شيء في شعره ولكنه خيال يدعو الى حب الجمال ورقة الشعور، ويهذب الذوق، ويملأ القلب بهجة وسروراً، لأن ابن خفاجة مصور ماهر، ووصاف مبدع للمشاهدات، وأكثر معانيه مأخوذة من مشاهداته. وقد امتلأت نفسه بذلك حتى في المدح والرثاء. فنجده اذا مدح يصف الثناء بأنه ثناء رطب، وأن الصباح ضحك فكشف عن ثناياه البيض، وأن ممدوحه وضاح المحيا، وأنك حين تنظر الى بهائه :

تشيم[1] بصفحتيه بروق بشر ... تعيد بشاشة الروض الجديد

ويقول :

وقد ضحك الصباح بمجتلاه ... وراء الليل عن ثغر شنيب[2]
أشيم به سنا برق يمان ... يحفزني إلى المرعى الخصيب

فإذا تحدث عن أيامه الماضية فتح صفحات تلك الأيام وأخذ يستملي عنها ذكرياته، ويتغنى بها وبأوصافها، كما قال يذكر أيام شبابه. وقد نيف على الستين :

---

(١) شام البرق نظر إليه.
(٢) أي ذي أسنان بيض.

فأذكرنا ليلة باللوى وعهداً لعصر الصبا أطربا
وماء بوادي الغضى سلسلا ومرتبعاً بالحمى معشبا
وما كان أعطر تلك الصبا وأندى معاطف تلك الربا
وأطيب ذاك الجنى روضة ورشفة ذاك اللمي[1] مشربا

فإذا رثى لا يغيب عنه الوصف حتى في موقف البكاء، لأنه يمزج بكاءه بوصفه الجميل، وبما في نفسه من المعاني التي ملكت منه كل شيء، فيقول :

في كل ناد منك روض ثناء وبكل خد فيك جدول ماء
ولكل شخص هزة الغصن الندي غب البكاء[2] ورنة المكاء[3]

وهو في ذلك الوصف يشبه الدموع السائلة على الخدود بجداول الماء، ويشبه اضطراب أجسام الباكين وانسكاب دموعهم بهزة الغصن الذي غمرته السماء بالماء، ويشبه أنينهم وإجهاشهم بالبكاء بصوت قيرة تصفر وتنوح.

وإذا أقسم أقسم بالتفات الروض عن زرقة النهر، وإشراق جيد الغصن في حلية الزهر، ويقول وهو سائر في جوف الليل :

وخضت ظلال الليل يسود فحمه ودست عرين[4] الليث ينظر عن جمر

أو يقول : « والصبح يمسح عن جبين نهار ».

ويذكر المعاني المستملحة، فيشبه أوراق الشجر بالعذارى، والنضارة بالضحك، واهتزاز الغصون في مهب الريح بمغازلة النسيم لها، وأن الريح يلثم خدها الخجل. وهو القائل هذه الأبيات الشهيرة يصف نهراً :

---

(١) اللمى : سمرة في باطن.
(٢) غب البكاء بعد البكاء.
(٣) طائر أبيض اللون له صفير حسن.
(٤) العرين : بيت الأسد.

لله نهر سال في بطحاء | أشهى وروداً من لمى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه | والزهر يكنفه مجر سماء[1]
وقد رق حتى ظن قرصا مفرغا | من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها | هدب يحف بمقلة زرقاء
والريح تعبث بالغصون وقد جرى | ذهب الأصيل على لجين الماء

ويصف السرى في ظلمة الليل الحالك المنبعثة في كل ركن من أركان الفضاء، وما يوحيه هذا المنظر من خوف ورهبة، وما يلاقيه السائر من حيوان مفترس، فيخيل إلى القارئ أنه في جوف الفلاة يلفه الليل بمخاطره، أو كأنه أمام لوح مصور يرى فيه تلك المعاني مصورة بالألوان البديعة، إذ يقول :

ومفازة[2] لا نجم في ظلمائها | يسري لا فلك بها دوار
تتلهب الشعرى[3] بها وكأنها | في كف زنجي الدجا دينار
قد لفني فيها الظلام وطاف بي | ذئب يلم مع الدجى زوار
والليل يقصر خطوه ولربما | طالت ليالي الركب وهي قصار
قد شاب من طرف المجرة مفرق | فيه ومن خط الهلال عذار

أو يقول :

وليل كما مد الغراب جناحه | وسال على وجه السجل مداد
كأني وأحشاء الفلا تجنني | سريرة حب والظلام فؤاد

وأسلوب ابن خفاجة يتجمع فيه قوة الخيال وسعته، وحضور الذهن، وسلاسة العبارة، وسهولتها، مع ميله أحياناً إلى الألفاظ الغريبة، وإلى المعاني الخفية، وإلى شيء من التكلف والتعمل في ذكر أنواع البديع.

---

(١) المجرة : منطقة في السماء ذات نجوم كثيرة لا يميزها البصر فترى بقعة بيضاء.
(٢) المفازة : الفلاة لا ماء فيها.
(٣) كوكب يظهر في شدة الحر.

بل قد يتغلب عليه ذلك، فتمتلئ بذلك عباراته، وأكثر وصفه في الليل وسواده، والصباح وبياضه، والرياض والبساتين، والأزهار والأشجار وغصونها، والمياه وجريانها، ولونها الفضي وأشعة الشمس عليها، والنسيم وسريانه، وغير ذلك من مثل هذه المعاني. وقد خالف أكثر الشعراء في نظم القصيدة من حيث البدء بالغزل والنسيب. إذ أكثر قصائده مبدوء بالوصف، ولولا استسلامه إلى الصناعة لعد من الشعراء المفطورين. ولكنه بإمعانه في تتبع أنواع البديع والبيان صار كثير التكلف في معانيه وألفاظه، حتى لا تكاد تجد شيئاً من كلامه إلا استعارة أو مجازاً أو تشبيهاً. وقد يدعو ذلك أحياناً الى استغلاق المعنى على القارئ ولكن شعره في جملته يعتبر معجماً لألفاظ مختارة، وعبارات جميلة، وتشبيهات بديعة، ومعرضاً يجد فيه القارئ خير أنواع المجاز، وكل ما يمكن من ضروب الصناعة اللفظية المختارة.. ومعانيه تشبه أسلوبه لأنها لا تعدو أن تكون تشبيهات أو استعارات.

يقول الفتح بن خاقان عنه في كتابه « قلائد العقيان »: تصرف في فنون الإبداع كيف شاء. فجاء نظامه أرق من النسيم العليل، وآنق من الروض البليل، يكاد يمتزج بالروح وترتاح إليه النفس، ملك أعنة المحاسن، وناهج طريقها، العارف بترصيعها وتنميقها، الناظم لعقودها، الراقم لبرودها، المجيد لارهافها، العالم بجلائها وزفافها.. تصرف في فنون الإبداع كيف شاء، وأبلغ دلوه من الإجادة الرشاء.. فشعشع القول وروقه، ومد في ميدان الإعجاز طلقه !. فجاء نظاماً أرق من النسيم العليل، وآنق من الروض البليل !. إن شبب فغمزات الجفون، وإن وصف فناهيك من غرض انفرد بمضماره، وإن مدح فلا مدح الأعشى للمحلق، ولا حسان لاهل جلق ! وإن تصرف في فنون الأوصاف، فهو فيها كفارس خصاف.

وذكره القاضي ابن خلكان فقال : « ذكره ابن بسام في الذخيرة وأثنى

عليه. وذكره المقري في نفح الطيب فقال فيه : أديب الأندلس وشاعرها، أبو أسحق بن خفاجة، وشهرته تغني عن الاطناب فيه. مغرى بوصف الأنهار، والأزهار ! وأهل الأندلس يسمونه « الجنان »، وأورد له نثراً كالدر المنثور ».

وذكره مؤلفو كتاب « المجمل في تاريخ الأب العربي » فقالوا عنه : « من أشهر وصاف الطبيعة. تكثر في كلماته الاستعارات، وتزاحم المعاني، وقلما تكسب بالشعر » — ومن شعره :

سقيا لها من بطاح أنس ودوح حسن بها مطل
فما ترى غير وجه شمس أطل فيه عذار ظل

وقال عنه صاحب كتاب « المنهل في تاريخ الأدب العربي » جزء ثان : « كان أبي النفس، لا يتعرض للتكسب بأدبه. برز في وصف الطبيعة أيما تبريز. وبلغ في الرثاء والغزل الغاية. ومن جيد شعره :

ومائسة تزدهي وقد خلع الحيا عليها حلى حمرا وأردية خضرا
يذوب لها ريق الغمائم فضة ويجمد في أعطافها ذهبا نضرا

وقراءة شعره تحتاج إلى التأمل، لأن الرجل عميق الفكر : يمتاز بوصف الطبيعة. وبأنه ممن انطقوا الجماد بالحكمة والموعظة والعبرة، وبأنه جميل التخيلات بديعها. وبأنه بارع في الرثاء، والمدح. مع نفوره من الاستجداء والتكسب. ويمتاز في النثر بأنه يجيد « الإخوانيات من الرسائل »، وكتب الأستاذ عبد الرحمن جبر عدة مقالات في مجلة الرسالة السنة الأولى، عنوانها : « الطبيعة في شعر ابن خفاجة ».

ألوان من حياته :

نشأ الشاعر في زمن تبلبلت فيه الأفكار في الأندلس، وتعددت فيه الدول وكثرت العداوة والحروب بين ملوكها العرب حيناً، وبينهم وبين

الأسبان حيناً آخر. فانثلت عروش وتقلبت دول، وضاعت بهذا السبب من أيدي ملوك العرب، بلاد إثر بلاد !

وقد مدح[1] الشاعر أمراء ووزراء. فلم يتعرض في مدحه، لنصح أو زجر أو تحذير !. حتى قصيدته التي قالها في استرداد بلنسية من العدو لم يتعرض فيها لشيء مما أشرنا إليه. وهي التي يقول فيها :

الآن سح غمام النصر فانهملا ... وقام صغوُ عمود الدين فاعتدلا
ولاح للسعد نجم قد خوى فهوى ... وكر للنصر عصر قد مضى فجلا
وبات يطلع نقع الجيش معتكرا ... بحيث يطلع وجه الفتح مقتبلا
من عسكر رجفت أرض العدو به ... حتى كأن به من وطئه وهلا
ما بين ريح طراد سميت فرسا ... جوراً وليث شرى يدعونه بطلا
من أدهم أخضر الجلباب تحسبه ... قد استعار رداء الليل واشتملا
وأشهب ناصع القرطاس مؤتلق ... كأنما خاض ماء الصبح فاغتسلا
ترى به ماء نصل السيف منسكبا ... يجري، وجاحم نار البأس مشتعلا
فكم هنالك من ضرغامة سفرت ... سمر العوالي إلى أحشائه رسلا
قد كر في لأمة حصداء تحسبها ... بحراً يلاطم من أعطافه جبلا
وللقنا أعين قد حدقت حنقا ... وللظبأ ألسن قد انصحت جدلا
فزاحم النقع حتى شق بردته ... وناطح الموت حتى خر منجدلا

وكأنما كان ابن خفاجة متفرغاً لوصف طبيعة الأندلس دون ماعدا ذلك، وكأنه كان يسير على قول : أبي بكر محمد بن عيسى راثيا بني عباد ـــ بعد أن دالت دولتهم، وعظمت نكبتهم ـــ :

لكل شيء من الأشياء ميقات ... وللمنى من مناياهن غايات
والدهر في صبغة الحرباء منغمس ... ألوان حالاته فيها استحالات

(١) بنو خفاجة صـ ١٤ جـ ٦ من كلمة للأستاذ محمد رضوان.

ونحن من لعب الشطرنج في يده   وربما قمرت بالبيدق الشاة
فانفض يديك من الدنيا وساكنها   فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

فضلاً عن ضياع أكثر شعره. وروى القاضي خلكان في ترجمته قال : قال ابن خفاجة :

« خرجت يوماً بشاطبه إلى باب السمارين، ابتغاء الفرجة على خرير ذلك الماء بتلك الساقية، في سنة ٤٨٠هـ، وإذا بالفقيه أبي عمران ابن أبي تليد رحمه الله قد سبقني إلى ذلك. فألفيته جالساً على دكان كانت هناك، مبنية لهذا الشأن، فسلمت عليه، وجلست إليه، مستأنساً به، فجرى أثناء ما تناشدناه ذكر قول ابن رشيق :

يا من يمر ولا تمر   به القلوب من الفرق
بعمامة من خيره   أو خده منها استرق
فكأنه وكأنها   قمر تعمم بالشفق
فإذا بدا وإذا انثنى   وإذا شدا وإذا نطق
شغل الخواطر والجوا   نح والمسامع والحدق

فقلت : وقد أعجب بها جداً، وأثنى عليها كثيراً. أحسن ما في القطعة، سياق الأعداد، وإلا فأنت تراه قد استرسل فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير والبيت الذي قبله، فينزل بإزاء كل واحدة منها ما يلائمها.

وهل ينزل بازاء قوله : وإذا نطق، قوله : شغل الحدق، وكأنه نازعني القول في هذا غاية الجهد، فقلت بديها :

ومهفهف طاوي الحشا   خنث المعاطف والنظر
ملأ العيون بصورة   تليت محاسنها سور
فاذا رنا وإذا مشى   وإذا شدا وإذا سفر
فضح الغزالة والغما   مة والحمامة والقمر

وكان شديد الحب لوطنه، وتعلقه به وحنينه إليه يدلنا عليه قوله :

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد الا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار
لاتختشوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا فليس يدخل بعد الجنة النار

ولهذه الأبيات حكاية طريفة، تروى ترويحاً للنفس، ومثلاً على الإحسان في الجواب، وهي : حكى أن الخليل قدم رسولاً، إلى سلطان المغرب، فأنشد بحضرة السلطان أبيات ابن خفاجة هذه، فقال السلطان : كذب هذا الشاعر يشير الى قوله : جنة الخلد وأنه لو خير لاختارها ــ فقال الخليل : يا مولانا، بل صدق الشاعر، لأنها موطن جهاد، والرسول ﷺ يقول : الجنة تحت ظلال السيوف. فاستحسن السلطان قوله، ورفع عن الشاعر لومه، وأجزل صلته ».

ونظر في المرآة فبدت له أول شعرة بيضاء في شعر عذاره، فشمله شعور غريب وهو مزيج بين الأسف على ذهاب الشباب والحزن على الحرمان من عطف الحسان، فصور ذلك تصوير مصور ماهر فقال :

أرقت على الصبا لطلوع نجم أسميه مسامحة مشيبا
كفاني رزء نفسي أن تبدي وأعظم منه رزءاً أن يغيبا
ولولا أن يشق على الغواني للاقيت الفتاة به خضيبا
فلم أعدم هناك به شفيعاً إلى أمل ولم أبرح حبيبا

واستمر في تعداد بواعث شعوره، حتى جعل ذلك نذير دنو أجله، إلى أن قال :

فأحسن من حمام الشيب عندي غراب شبيبة ألف النعيما
يطيب بنفسه عند الغواني فيغني عن فتيت المسك طيبا

نماذج من شعره :

قال ابن خفاجة في مدح القائد أبي الطاهر تميم ابن أمير المؤمنين :

ولا كف إلا للأمير كريمة تبسم فيها النصل عن مبسم النصر

وهب بها يمضي فيفرى كأنما ... شهاب بها ينقض أو قدر يجرى
تلوذ المنى منه بأصيد أمجد ... صقيل فرند الحمد والمجد والبشر
عليه يمين أن تفيض يمينه ... وألا يغض السيف ضغنا على وتر
يعب عباب البحر في السلم والوغى ... ببذل اليد الغراء والفتكة البكر
له راية لو زاحم الدهر تحتها ... لعدت به دهم الليالي من الشقر
وعزم يذل الطود هذا ونجدة ... تهز قدود السمر في الحلل الحمر
ووجه وضيء شف عنه لثامه ... كما شف رقراق الغمام عن البدر
إذا كتمته بالمفاضة درعه ... تراءى هلال منه يطلع من بحر
سرى بين نوار لزرق أسنة ... حداد وأوراق لراياته خضر

وقال في الوزير الحسن بن رحيم :

وصرخت : يا لبني رحيم صرخة ... فالتفت الأنجاد حولي عسكرا
من كل طلق الوجه شاه جواده ... زهوا بعزة ربه فتبخترا
طلق المحيا واليدين كأنه ... قمر تطلع في غمام أمطرا
لبس الرداء من الثناء مطرزا ... فوق القميص من الحياة مصفرا

ومن شعره قوله في وصف متنزه :

ومجر ذيل غمامة قد نمقت ... وشي الربيع به يد الأنوار
القيت أرحلنا هناك بقية ... مضروبة من سرحة غناء
وقسمت طرف العين بين رباوة ... مخضرة وقرارة زرقاء
وشربتها عذراء تحسب أنها ... معصورة من وجنتي عذراء

ومن شعره في الزهد قوله :

ألا قصر كل بقاء ذهب ... وعمران كل حياة خراب
ولا خطة غير إحدى اثنتين ... فإما نعيم وإما عذاب
فرحماك يا من عليه الحساب ... وزلفاك يا من إليه المآب

وقوله في وصف الفرس :

ومطهم شرف الأديم كأنما ... ألفت معاطفه النجيع خضابا

طرب إذا غنى العجاج ممزق ثوب العجاجة جيئة وذهابا
قدحت يد الهيجاء منه بارقا متلهبا يزجي القتام سحابا
ورمى الحفاظ به شياطين العدا فانقض في ليل الغبار شهابا
بسام ثغر الحلي تحسب أنه كأس أثار بها المزاج حبابا

وقوله يصف ظلمة الليل ومخافة الشكوى فيه :

ومفازة لا نجم في ظلمائها يسري ولا فلك بها دوار
تتلهب الشعرى بها وكأنها في كف زنجي الدجا زوار
والليل يقصر خطوه ولربما طالت ليالي الركب وهي قصار

وقوله في صفة قوس : آلة رمي النبل :

عوجاء تعطف ثم ترسل تارة فكأنما هي حية تنساب
وإذا انحنت والسهم منها خارج فهي الهلال انقض منه شهاب

والقوس عند جذبها لرمي السهم، تكون نصف دائرة، فشبهها عند ذلك بالحبة عند انطوائها، والهلال قبل استكمال استدارته، فانظر كيف أحسن التشبيه بالحية عن الانطواء، والهلال قبل الاستكمال، ثم كيف أحسن تشبيه النبل عند خروجه من القوس حال انطوائها بالشهاب انقض من الهلال.

وقوله في وصف سفينة :

وجارية ركبت بها ظلاما يطير من الرياح بها جناح
إذا الماء اطمأن فرق خصرا علا من موجه ردف رداح
وقد فغر الحمام هناك فاه وأتلع جيده الأجل المتاح
فما أدرى أموج أم قلوب وأنفاس تصعد أم رياح

فمن ذا الذي يقرأ هذه الأبيات ولا يقشعر بدنه من هول الموقف، بل من هذا الذي لا يخيل إليه أنه راكب في بحر لجي، عظم اضطرابه، وتلاطمت أمواجه، في ليل اشتدَّ ظلامه، وتراكم غمامه، فحبس عن

العيون مسالك الأمان، فبدا شبح الموت فاستسلم العقلاء، لفصل القضاء، إما بالنجاة أو الفناء.

وقوله يصف معركة حربية :

ركض الجياد إلى الجلاد صباحا — واستشعروا النصر العزيز سلاحا
واستقبلوا أفق السماء بجحفل — نشر القتام على السماك جناحا
قد ماس في أرجائه شجر القنا — وجرى به ماء الحديد فساحا
مطر الأعاجم منه عارض سطوة — برق الحديد بجانبيه فلاحا
حتى إذا قضم المهند نبوة — واندق صدر السمهري فطاحا
زحمت مناكبه الأعادي زحمة — بسطتهم فوق البطاح بطاحا
فحمت حريم المسلمين مصارع — تركت حريم المشركين مباحا

إلى أن قال :

وأقام فوقهم العجاجة كلة — وأدار بينهم الردى أقداحا
فانجاب ليل الخطب عن أفق الهدى — وتطلع الفتح المبين صباحا

وقوله يصف شجرة على نهر :

وسرحة خاض منها ظلها نهرا — أوفت عليه ولم تنقص ولم تزد
كما تدانيت من ثغر لمرتشف — ثم انثنيت ولم تصدر ولم ترد
كأن افنانها طيبا حمى ملك — أعطى وأعطى فلم يوعد ولم يعد

وهذا تصوير آخر لسيل جارف، دهم البيوت، فاجتاح بعضها وهدم بعضها، فبدت بدو الوفود استقبلت ملكاً، بعضها راكع وبعضها ساجد ! وذلك قوله :

وأهوت تخر هناك البنى — كما تتلقى الملوك الوفود
وبانت كأن عليها صلاة — فبعض ركوع وبعض سجود

فمن ذا الذي يقرأ هذا ولا يتصور سيلاً عظيماً دهم الديار فجعلها خاوية على عروشها، بين زائل لم يبق سوى آثاره، ومنهدم امتزج عاليه

بأسفله : ومن الرثاء في شعره قوله في الوزير أبي محمد بن ربيعة :

شراب الأماني لو علمت سراب وعقبى الليالي لو فهمت عتاب
إذا ارتجعت ايدي الليالي هباتها فغاية هاتيك الهبات ذهاب
وهل مهجة الإنسان إلا طريدة تحوم عليها للحمام عقاب
يخب بها في كل يوم وليلة مطايا إلى دار البلى وركاب
وكيف يفيض الدمع أو يبرد الحشا وقد باد أقران وفات شباب
فما ناب عن خل الصبا خل شيبة ولا عاض عن شرخ الشباب خضاب

ويسير بك في طريق سرد هذه الحكم الغالية إلى أن يقول :

فيا لهم من ركب صحب تتابعوا فرادى وهم ملد الغصون شباب
دعا بهم داعي الردى فكأنما تبارت بهم خيل هناك عراب
فهاهم وسلم الدهر حرب كأنما جثا بينهم طعن لهم وضراب
هجود ولا غير التراب حشية لجنب ولا غير القبور قباب

ولا يزال يأخذك بهذا الكلم الحق إلى أن يقول في المتوفى :

فيا عجباً للدهر كيف سطا به وقد كان يرجى تارة ويهاب
وكيف استلانت صولة الموت عوده فلم ينب عنه للمنية ناب
ولو ان غير الله كان أصابه لجاشت نفوس لا تقاد صعاب

وتستمر مأخوذاً بروعة ما تسمع حتى تصل إلى قوله :

تولى حميد الذكر لم يأت وصمة فتبقى ولم تدنس عليه ثياب
أغر طليق الصفحتين كأنما وراء تراب القبر منه شهاب
ألا إن جسما يستحيل لتربة وإن حياة تنتهي لخراب
فلا سعي إلا أن يكون لآجل ولا ذكر إلا أن يكون ثواب

فهل رأيت سهولة لفظ، وسمو معنى، وجمال تعبير، واشراق وضوح، في موسيقية وتوقيع — حتى في أوقات تضارب موجات الحزن، وتلاطم بحار الآلام، أحسن وأجود من هذا.

وهذا هو رثاؤه للوزير أبي محمد عبدالله بن ربيعة، وتأمل كيف غلب عليه حب الطبيعة فأبى الا أن يمزجها برثائه مزجاً غريباً، كامتزاج دموع الحزن بالفرح فجمع بين جمال الطبيعة، ولوعة الفراق. فلم يترك شيئاً من الروض ولا الجدول ولا الغصن ولا الطير المغرد ولا مطلع الأنوار، ولا الأنواء، ولا معهد الشبيبة ولا الرسم الدائر، ولا السماء ولا الأرض ولا القمر ولا الظلماء ولا الآرام، ولا الفرقدين ولا الجوزاء، إلا ذكره، وذلك حيث يقول:

في كل ناد منك روض ثناء ... وبكل خد فيك جدول ماء
ولكل شخص هزة الغصن الندي ... غب البكاء ورنة المكاء
يا مطلع الأنوار إن بمقلتي ... أسفاً عليك كمنشأ الأنواء
وكفى أسا ألا سفير بيننا ... يمشي وأن لا موعد للقاء
فيم التجمل في زمان بزني ... ثوب الشباب وحلية النبلاء
فعريت الا من قناع كآبة ... وعطلت الا من حلى بكاء
فاذا مررت بمعهد لشبيبة ... أو رسم دار للصديق خلاء
جالت بطرقي للصبابة عبرة ... كالغيم رق فحال دون سماء
ورفعت كفي بين طرف خاشع ... تندى مآقيه وبين دعاء
وبسطت في الغبراء خدي ذلة ... أستنزل الرحمى من الخضراء
متململاً ألماً لمصرع سيد ... قد كان سابق حلبة النجباء
لا والذي أعلقت من تقديسه ... كفي بحبلي عصمة ورجاء
وخررت بين يديه أعلم أنه ... ذخري ليومي شدة ورخاء
لا هزني أمل وقد حل الردى ... بأبي محمد المحل النائي
في حيث يذكر ورد ذاك المجتلى ... وفرند تلك العزة الغراء
وكفى اكتئابا أن تعيث يد البلى ... في محو تلك الصورة الحسناء
فلطالما كنا نريح بظله ... فنريح منه بسرحة غناء
فتقت على حكم البشاشة نورها ... وتنفست في أوجه الجلساء
تتفرج الغماء عنه وكأنه ... قمر يمزق شملة الظلماء

قاسمت فيه الرزء أكرم صاحب   فمضى ينوء بأثقل الأعباء
يهفو كما هفت الأراكة لوعة   ويرن طوراً رنة الورقاء
عجباً لها وقدت بصدري جمرة   وتفجرت في وجنة عن ماء
ولئن تراءى الفرقدان بنا معا   فكفاك شهرة سؤدد وعلاء
فلطالما كنا نروق المجتلى   حسنا ونملأ ناظر العلياء
يزهى بنا صدر الندي كأننا   نسقى هناك قلادة الجوزاء

أما الغزل في شعره فكثير، ومنه يخاطب محبوبة له :

يا رب ليل بته   وكأنه من وصف شعرك
تنهل مزنة دمعتي   فيه وينذي نور ذكرك
أنسيت فيه وقد بكيت   عقيق خدك در ثغرك
وشرقت فيك بعبرة   قد وردتها نار هجرك
فكأنما ينفض عن   حبب لها رمان صدرك
ولرب ليل قد صدعـ   ـت ظلامه بجبين بدرك
ولهوت فيه بدرة   مكنونة في حق خدرك
تندى شقائق وجنتيـ   ـك به وتنفح ريح نشرك
وقد استدار بصفحتي   سوسان جيدك طل درك
حيث الحبابة دمعة   تجري بوجنة كأس خمرك
وتهز منك فتنثني   بقضيب قدك ريح سكرك
وتعب من رجراج رد   فك موجة في شط خصرك

وقد تناول ابن خفاجة في شعره الأغراض التي كانت تدور في محيط الناس، وعرض إلى ما عرض له شعراء عصره، ولكن الميدان الذي جال فيه، فنال قصب السبق وغدا فارس الحلبة لا يشق له فيه غبار ولا يزاحم في مضمار، هو ميدان الوصف الذي انقاد له زمامه ودانته شوارده وأوابده، وهو ينزع عن قوس الطبيعة في سائر أغراضه الشعرية، فاذا مدح يصف الثناء بأنه رطب وأن الصباح ضحك فكشف

عن ثنايا البيض وأن ممدوحه وضاح المحيا، وإذا رثى لا ينسى الوصف حتى في موقف البكاء فيقول :

في كل ناد منك روض ثناء   وبكل حد فيك جدول ماء

وهو في أسلوبه كثير التصنع، لغرامه بالصور البيانية من تشبيه واستعارة وكناية وألوان بديعية، فقد كان مولعاً بذلك حتى جاء أكثر شعره يختال في مطارف التشبيه والمجاز، وربما جره الإمعان في هذا إلى غموض المعنى واستغلاق الفكرة، وكان يعني باصطفاء الألفاظ الجزلة والعبارات الفحلة والتركيب الرصين، ويتفيأ المعنى العميق البعيد الغور ويجنح إلى المبالغة في أكثر صوره الشعرية.

وقد فتن ابن خفاجة بحب الطبيعة وكان لمشاهدها أثر عظيم في نفسه، فوصفها وأبدع في الوصف وعرض صوراً رائعة حافلة بالمثاني الأنيقة والأفكار الرشيقة، بل إننا نراه يغوص إلى الأعماق ويستخرج درر المعاني ولآلئها، ويبتكر من الأوصاف ما يعد به شاعر الطبيعة غير منازع ووصاف معالمها غير مدافع.

تجاوب مع الطبيعة في رقتها وجمالها، فجاء أسلوبه عذباً رائعاً واختار الألفاظ الناعمة الملمس والأساليب السهلة الرشيقة والعبارات المشرقة الأنيقة، وعزف عن الغريب عزوفاً تاماً، فلسنا نجد في قصيدته كلمة يكدى لها الذهن ويستغلق معناها على الفهم.

وهو كثير التصنيع في أسلوبه يتبع ألوان البيان من تشبيه واستعارة حتى لا يكاد يخلو بيت من شعره من هذه الصور البيانية الرائعة التي تسترعي الأنظار وتستلفت الخواطر بأناقتها وجمالها، فليس لديه سوى الشريف من التشبيهات والطريف من الاستعارات.

نثر ابن خفاجة :

لابن خفاجة قطع نثرية سلك فيها مسلك الشعر من حيث الوصف والخيال، وسار في أسلوبه على نحو أسلوب ابن العميد والهمذاني، من حيث اتباع السجع والتعمل، والقصد إلى ذكر أنواع البيان والبديع، وكأن نثره شعر منثور.

يقول وهو من الكتابة المنمقة المملوءة بالألفاظ المختارة والتشبيهات الكبيرة : « ذهبت في لمة من الأخوان، نستبق إلى الراحة ركضا، ونطوي للتفرج أرضاً، فلا ندفع إلا إلى غدير نمير، قد استدارت منه في كل قرارة سماء سحائبها غماء، وانساب في كل تلعة حباب، جلده حباب، فترددنا بتلك الأباطح نتهادى تهادي أغصانها، ونتضاحك تضاحك الأقحوان. وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم، تراسل مشى، على بساط وشي، فإذا مر بغدير نسجه درعاً، وأحكمه صنعاً، وإن عثر بجدول شطب منه نصلاً؛ وأخلصه صقلاً، فلا ترى إلا بطاحاً مملوءة سلاحاً، كأنما انهزمت هناك كتائب، فالقت بما لبسته من درع مصقول، وسيف مسلول، فاحتللنا قبة خضراء ممدودة أشطان الأغصان، سندسية رواق الأوراق. وما زلنا نلتحف منها ببرد ظل ظليل، ونشمل عليه برداء نسيم عليل، ونجيل النظر في نهر صقيل، صافي لجين الماء، كأنه مجرة سماء، مؤتلق جوهر الحباب، كأنه من ثغور الأحباب. وقد حضرنا مسمع يجري مع النفوس لطافة، فهو يعلم غرضها وهواها ويغني لها مقترحها ومناها، فصيح لسان النقر.

ومن ذلك قوله لمن كانت بينه وبينه مقاطعة : « أطال الله بقاء سيدي، النبيهة أوصافه، النزيهة عن الاستثناء، المرفوعة إمارته، الكريمة بالابتداء ما انحذفت ياء يرى للجزم، واعتلت واو يغزو بموضع الضم. كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال. وعهد كريم، هو الفعل، لم يدخله اعتلال، والله يجعل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة.

ويعصم هذا بعد من الحروف الجازمة. وإنما استنهض طولك إلى تجديد عهدك بمطالعة الف الوصل، وتعدية فعل الفصل، وعدولك عن باب الف القطع، الى باب الوصل والجمع. حتى تسقط لدرج الكلام بيننا هاء السكت..

ابن سهل الأندلسي

٦٠٩ــ٦٤٩هـ

هو إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الأشبيلي الشاعر المشهور، ولد سنة ٦٠٩هـ، وتوفي غريقاً مع حاكم مدينة سبتة سنة ٦٤٩هـ. وكان يهودياً ثم أسلم، سكن آباؤه الأندلس منذ زمن بعيد؛ ثم صاروا من ذوي الجاه والشأن، وقد اتصل ابن سهل ببعض الأمراء فكان كاتباً لصاحب سبتة، وتعلم اللغة والأدب على أشهر علماء زمانه، ومنهم أبو علي الشلوبين ــ ولد بإشبيلية سنة ٥٦٢هـ وتوفي بها سنة ٦٤٥هـ وهو من أكبر علماء النحو واللغة ــ ثم أخذ في معالجة الشعر حتى برع فيه، فسموه شاعر إشبيلية ووشاحها، وبعد أن أسلم مدح الرسول بقصيدة من أشهر قصائدة : وقد عاش ابن سهل في أواخر أيام العرب في الأندلس، أيام بني هود والمرابطين والدولة آخذة في الزوال؛ ولكن العلوم والأدب والترف قد دب في كل ناحية من نواحيها العقلية والاجتماعية وتمكنت الأهواء من النفوس. وهذه البيئة أصلح ما تكون لشاعر مثل ابن سهل؛ لأنه كان كأكثر شعراء زمانه ماجناً امتلأت نفسه بمعاني الغزل.

وأغلب الأغراض في شعر ابن سهل الغزل والرثاء والمدح والوصف وله أبيات في التهاني وأبيات في الزهد؛ ولكن أكثر شعره في الغزل.

ولقد حام حول كل ما قيل في ذلك، ولم يدع صغيرة ولا كبيرة مما خطر بنفسه وأملاه عليه خياله؛ أو مما عرف في شعر غيره وجادت به أخيلة الشعراء في ذلك إلا ذكره في شعره، وكساه لفظاً من عنده، ونظمه في كلامه حتى لقد يجد العاشق في شعره كل معنى يدب في نفسه، أو شعور يحسه، أو صورة لمن يحبه.

أما معانيه فأكثرها مأخوذة من كلام غيره. وهي أجمع للأوصاف الظاهرة منها للمعاني النفسية؛ كتشبيه حبيبه بالغزال، أو بالغصن النضير، وعيونه بالسيوف، واحمرار خدوده بالجمر. وقوله : إن الحب علمه السهد، وجعله يألف السقام، كما قال :

أهواه حتى العين تألف سهدها فيه وتطرب بالسقام جوارحي

ويقول :

وعذب بالي نعم الله باله وأسهدني لا ذاق طعم التسهد

ويرق في كلامه فيخيل إليك أنه يتكلم بقلبه، وأن ملاقاة حبيبه هي كل أمنية له، ويلتمس له ذنباً كي يجد وسيلة لعتابه. فيقول :

تدنيك زور الأماني مني وتنأى طلابا
كأنني حين أبغي رضاك أبغي الشبابا
حتى إذا كان ذنب فتحت للعذر بابا
ظمئت منك لوعد فكان وردي الشرابا
لا خاب سؤلك أما سؤلي لديك فخابا

ولقد يمعن في الخيال فتغلبه الألوان ببهائها، وتملأ نفسه المناظر الجميلة كقوله في وصف الأصيل :

انظر إلى لون الأصيل كأنه لا شك لون مودع لفراق
والشمس تنظر نحوه مصفرة قد خمشت[1] خدا من الإشفاق

(١) خمش الوجه : خدشه ولطمه.

لاقت بحمرتها الخليج فألفا خجل الصبا ومدامع العشاق
سقطت أوان غروبها محمرة كالخمر خرت من أنامل ساق

ومن بكائه في شعره قوله :

أبيت أهتف بالشكوى وأشرب من دمعي وأنسق ريا ذكرك العطر
حتى أخيل أني شارب ثمل بين الرياض وبين الكأس والوتر

ومن معانيه وأخيلته قوله :

بخده لفؤادي نسبة عجب كلاهما أبدا يدمي من النظر

أما أسلوبه فيكاد يكون من السهل الممتنع، ولا يؤخذ عليه إلا بعض عبارات، ذهب فيها مذهب التكلف في الاستعارة وصورها، محاكياً بذلك بعض كبار الشعراء كقوله في الرثاء :

لئن سود الأفاق يوم حمامه لقد بيضت صحف الحساب فضائله

وهكذا تجده يمزج السهولة بالتصنع. ولكنه بعد كل هذا شاعر مفطور على سلاسة الأسلوب ورقة الألفاظ، كما تجد ذلك في موشحته الشهيرة التي تعتبر من أجمل الموشحات. وربما أغرب من الخيال،، كما شبه ابتسام حبيبه له وهو يبكي بالروض المنور تمطره السماء، وكأن القطر بكاء في مأتم، وكأن الروض في جماله عرس جمع أنواع السرور إذ يقول في موشحته :

كلما أشكوه وجدي بسما كالربا بالعارض المنبجس
إذ يقيم القطر فيها مأتما وهي من بهجتها في عرس

ابن حزم الشاعر :

قد سبق أن تحدثنا عن ابن حزم الفيلسوف المتكلم، ولا يعرف الأدباء عنه أنه كان شاعراً مجيداً، قال عنه التميمي المراكشي أبو محمد محيي الدين عبد الواحد بن علي في كتابه تاريخ الأندلس المسمى «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» :

سكن ابن حزم هو وأبوه قرطبة، وكان أبوه من وزراء المنصور محمد ابن أبي عامر ومن وزراء ابنه المظفر بعده، وكان هو المدبر لدولتهما، وكان ابنه أبو محمد الفقيه وزيراً لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ابن الناصر الملقب بالمستظهر بالله أخي المهتدي، ثم إنه نبذ الوزارة واطرحها اختياراً وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسنن فنال من ذلك ما لم ينل احد قبله بالأندلس وكان على مذهب الإمام الشافعي أقام على ذلك زمناً ثم انتقل إلى القول بالظاهر وأفرط في ذلك حتى أربى على أبي سليمان داود الظاهري وغيره من أهل الظاهر، وله مصنفات كثيرة جليلة القدر شريفة المقصد في أصول الفقه وفروعه على مهيعه الذي يسلكه ومذهبه الذي يتقلده، ومذهب داود بن علي بن خلف الأصبهاني الظاهري ومن قال بقوله من أهل الظاهر ونفاة القياس والتعليل ومبلغ تصانيفه في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المخالفين نحو من اربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة، ولا يقاربه في ذلك إلا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري فانه أكثر أهل الاسلام تصنيفاً، فقد ذكر أبو محمد عبدالله بن محمد بن جعفر الفرغاني في كتابه المعروف بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ أبي جعفر الطبري الكبير أن قوماً من تلاميذ أبي جعفر لخصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفي في سنة ٣١٠هـ وهو ابن ست وثمانين سنة ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار لكل يوم أربع عشر ورقة وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بفضل الله.

ولأبي محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة، فمن شعره :

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا فجائعه تبقى ولذاته تفنى
إذا أمكنت فيه مسرة ساعة تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
إلى تبعات في المعاد وموقف نود لديه أننا لم نكن كنا
حصلنا على هم وإثم وحسرة وفات الذي كنا نقربه عينا
حنين لما ولى وشغل بما أتى وغم لما يرجى فعيشك لا يهنا
كأن الذي كنا نسر بكونه اذا حققته النفس لفظ بلا معنى

وله من قصيدة طويلة :

أنا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عيبي أن مطلعي الغرب
ولو أنني من جانب الشرق طالع لجد على ما ضاع من ذكري النهب
ولي نحو أكناف العراق صبابة ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فان ينزل الرحمن رحلي بينهم فحينئذ يبدو التأسف والكرب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر وأطلب ما عنه تجيء به الكتب
هنالك يدري أن للبعد قصة وأن كساد العلم آفته القرب

ومنها في الاعتذار عن مدحه لنفسه :

ولكن لي في يوسف خير أسوة وليس على من بالنبي إئتس ذنب
يقول وقال الحق والصدق إنني حفيظ عليهم ما على صادق عتب

ومن المختار له قوله :

لا يشمتن حاسدي إن نكبة عرضت فالدهر ليس على حالين يترك
ذو الفضل كالتبر طورا تحت ميقعة وتارة في ذرى تاج على ملك

ومن ذلك قوله :

لئن أصبحت مرتحلا بشخصي فروحي عندكم أبداً مقيم
ولكن للعيان لطيف معنى له سأل المعاينة الكليم

ومن أجود ما أحفظ له بيتان قالهما في رجل نمام :

أنم في المرآة في كل ما درى وأقطع بين الناس من قضب الهند
كـأن المنايـا والزمـان تعلمـا تحيله في القطع بين ذوي الود

وقد ولد الأربعاء بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٤ وتوفي في شعبان سنة ٤٥٦، وحسبه أنه أشهر علماء الأندلس وأكثرهم ذكراً في مجلس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء، وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبداده بعلم الظاهر، ولم يشتهر به قبله أحد.

ابن عبدون الشاعر :

كان من ملوك الطوائف[1] ابن الأفطس الملقب بالمظفر، وكان له ابن اسمه عمر يكنى أبا محمد لقب بالمتوكل على الله كان يملك بطليوس وأعمالها ويابره وشنترين والاشبونة، وكان المظفر هذا أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ونوادر الأخبار وعيون التاريخ، انتخب مما اجتمع له من ذلك كتاباً كبيراً ترجمه باسمه على نحو الاختيارات وعيون الأخبار لابن قتيبة، وجاء هذا الكتاب في نحو من عشرة أجزاء ضخمة، وكان للمتوكل قدم راسخة في صناعة المنطق والنثر مع شجاعة مفرطة وفروسية تامة وكان لا يغب الغزو ولا يشغله عنه شيء، واتصلت مملكته الى أن قتله المرابطون أصحاب يوسف بن تاشفين وقتلوا ولديه : الفضل والعباس صبراً، ضربوا أعناقهم في غرة سنة ٤٨٥هـ وكانت أيام بني المظفر بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم، وكانوا ملجأً لأهل الآداب، خلدت فيهم قصائد شادت بمآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم، وفيهم يقول الوزير الكاتب

(١) راجع ٤١ المعجب للمراكشي.

ذو الوزارتين أبو محمد عبد المجيد بن عبدون من أهل مدينة يابرة قصيدته الغراء، لا بل عقيلته العذراء، التي أزرت على الشعر، وزادت على السحر، وفعلت في الألباب فعل الخمر، فجلت عن أن تسامى وأنفقت من أن تضاهي فقل لها النظير، وكثر اليها المشير، وتساوى في تفضيلها وتقديمها بأقل وجرير، فلله هي من عقيلة خدر قربت بسهولتها حتى أطمعت، وبعدت حتى عزت فامتنعت، وهي مشهورة لصحة مبانيها، ورشاقة ألفاظها وجودة معانيها. وسلك فيها أبو محمد رحمه الله طريقة لم يسبق اليها، وورد شرعة لم يزاحم عليها فلذلك قل مثلها لا بل عدم، وعز نظيرها فما توهم ولا علم، وهي :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة ... والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه ... يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالي أقال الله عثرتنا ... من الليالي وخانتها يد الغير
نسر بالشيء لكن كي نغربه ... كالايم ثار إلى الجاني من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
هوت بدارا وفلت غرب قاتله ... وكان غضباً على الأملاك ذا أثر
واسترجعت من بني ساسان ما وهبت ... ولم تدع لبني يونان من أثر
وألحفت أختها طسما وعاد على ... عاد وجرهم منها ناقض المرر
وما أقالت ذوي الهيآت من يمن ... ولا أجارت ذوي الغايات من مضر
بني المظفر والأيام لا نزلت ... مراحل والورى منها على سفر
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت ... بمثله ليلة في غابر العمر
من للأسرة أو للأعنة أو ... من للأسنة يهديها الى الثغر
من للظبى وعوالي الحظ قد عقدت ... أطراف ألسنها بالعي والحصر
وطوقت بالمنايا السود بيضهم ... فاعجب بذاك وما منها سوى الذكر

من لليراعة أو مـن للبراعة أو | من للسماحة أو للنفع والضـرر
أو دفـع كارثـة أو ردع رادفـة | أو قمع حادثة تعيي على القدر
ويب السماح وويب الباس لو سلما | وحسرة الدين والدنيا على عمر
سقت ثرى الفضل والعباس هامية | تعزى اليهم سماحا لا إلى المطر
ثلاثة كذوات الدهر منـذ نـأوا | عنى مضى الدهر لم يربع ولم يحر
ومر من كل شـيء فيـه أطيبـه | حتـى التمتـع بالآصـال والبكـر
أين الجلال الذي غضت مهابته | قلوبنـا وعيـون الأنجـم الزهـر
أين الإباء الذي أرسـوا قواعـده | على دعائم من عز ومـن ظفـر
أين الوفاء الذي أصفـه شرائعـه | فلم يرد أحد منها على كدر
كانوا رواسي أرض الله منذ مضوا | عنه استطارت بمن فيها ولم تقر
كانوا مصابيحها فمذ خبوا عثرت | هذي الخليقة يا ألله في سـدر
كانوا شجى الدهر فاستهوتهم خدع | منه بأحلام عاد في خطى الحضر
ويل أمه من طلوب الثأر مدركه | منهم بأسد شراة في الوغى صبر
من لي ولا من بهم ان أظلمت نـوب | ولم يكن ليلها يفضي إلى سحر
من لي ولا من بهم ان عطلت سنـن | وأخفـيت ألسـن الآثـار والسيـر
من لي ولا من بهم ان طبقت محن | ولم يكن وردها يدعو إلى صدر
على الفضائل إلا الصبر بعدهم | سـلام مرتـقـب للأجـر منتظـر
يرجو عسى وله في أختها أمل | والدهر ذو عقب شتى وذو غير
قرطت آذان من فيهـا بفاضحـة | على الحسان حصى الياقوت والدرر
مطاعة الأمر فـي البـاب قاضيـة | على المسامع ما لم يقض من وطر

وكان ابن عبدون يكتب للمتوكل على الله ونمت حاله معه، وهو أحد كتاب المغرب، وممن جمع منهم فضيلة الكتابة والشعر على أنه مقل من النظم لم يثبت له منه إلا يسير النسبة إلى غزارة آدابه ونباهة قدره، وحكى عن نفسه رحمه الله أنه كان بين يدي مؤدبه وسنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة، فعن للمؤدب أن قال (الشعر خطة خسف)

وجعل يردد هذا القول؛ قال الوزير ابن عبدون فكتبت في لوحي مجيزاً له : لكل طالب عرف، ثم خطر لي بيت ثان وهو :

للشيخ عيبة عيب ... وللفتى ظرف ظرف

قال: فنظر إلي المؤدب وقال: يا عبد المجيد ما الذي تكتب فأريته اللوح. فلما رآه طمني وعرك أذني وقال لا تشغل بهذا، وكتب البيتين عنده، ومن غزارة حفظ ابن عبدون ما حدث الوزير أبو بكر محمد ابن عبد الملك ابن زهر قال: بينما أنا قاعد في دهليز دارنا وعندي رجل ناسخ أمرته أن يكتب لي كتاب الأغاني فجاء الناسخ بالكراريس التي كتبها فقلت له : أين الأصل لأقابل معك به ؟ قال : ما أتيت به معي فبينا أنا معه في ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بذ الهيئة عليه ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها، فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية، فسلم وقعد وقال لي : يا بني استأذن لي على الوزير أبي مروان، فقلت له، هو نائم هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف، حملني على ذلك نزوة الصبى وما رأيت من خشونة هيئة الرجل، ثم سكت عني ساعة وقال ما هذا الكتاب الذي بأيديكما ؟ فقلت له ما سؤالك عنه ؟ فقال أحب أن أعرف اسمه فاني كنت أعرف أسماء الكتب، فقلت هو كتاب الأغاني فقال إلى أين بلغ الكاتب منه ؟ قلت بلغ موضع كذا وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على ما قاله فقال : وما لكاتبك لا يكتب ؟ قلت طلب منه الأصل الذي يكتب منه لأعارض به هذه الأوراق فقال لم أجئ به معي فقال: يا بني خذ ريشتك وعارض قلت بماذا وأين الأصل قال : كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صباي قال : فتبسمت من قوله فلما رأى تبسمي قال يا بني أمسك علي. قال : فأمسكت عليه وجعل يقرأ فوالله ان أخطأ واواً ولا فاء قرأ هكذا نحواً من كراستين ثم أخذت له في وسط السفر وآخره فرأيت حفظه في ذلك كله سواء، فاشتد عجبي وقمت مسرعاً حتى

دخلت على أبي فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل. فقام كما هو من فوره، وكان ملتفاً برداء ليس عليه قميص، وخرج حاسر الرأس حافي القدمين لا يرفق على نفسه وأنا بين يديه، وهو يوسعني لوماً حتى ترامى على الرجل وعانقه وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول : يا مولاي اعذرني فوالله ما أعلمني هذا الخلف إلا الساعة وجعل يسبني والرجل يخفض عليه ويقول : ما عرفني وأبي يقول هبه ما عرفك فما عذره في حسن الأدب، ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثا طويلاً، ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافياً حتى بلغ الباب وأمر بدابته التي يركبها فأسرجت وحلف عليه ليركبنها ثم لا ترجع إليه أبداً. فلما انفصل قلت لأبي : من هذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم قال لي اسكت ويحك هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها في علم الآداب هذا محمد عبد المجيد بن عبدون، أيسر محفوظاته كتاب الأغاني وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته.

أبو بكر بن زهر الشاعر :

أديب الأندلس وشاعرها وعالمها، روى له شعر كثير، منه :

لاح المشيب على رأسي فقلت له الشيب والعيب لا والله ما اجتمعا
يا ساقي الكاس لا تعدل إلي بها فقد هجرت الحميا والحميم معا

ومن شعره :

إني نظرت إلى المرآة إذ جليت فانكرت مقلتاي كلما رأتا
رأيت فيها شيخاً لست أعرفه وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى

وله شعر كثير أجاد في أكثره. وأما الموشحات خاصة فهو الامام المقدم فيها، وطريقته هي الغاية القصوى التي يجري كل من بعده اليها، وهو آخر المجيدين في صناعتها.

بنو عباد في إشبيلية ونهضة الشعر في دولتهم

١ ــ عاشت إشبيلية في عهد ملوك الطوائف تحت حكم بني عباد، وأول من تولاها منهم بعد بني جهور هو أبو القاسم محمد بن اسماعيل ابن عباد اللخمي وقد أجمع أهل أشبيلية على اختياره لما يعلمونه من حصافة عقله وعلو همته وحسن تدبيره، يقول المراكشي في كتابه « المعجب[1] » : تهيب أبو القاسم الاستبداد، وخاف عاقبة الانفراد، وأبى ذلك (أي الإمارة) إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجالاً سماهم لهم، يكونون له أعوانا ووزراء. وشركاء لا يقطع أمراً دونهم ولا يحدث حدثاً إلا بمشورتهم[2]، ومنهم: الوزير أبو بكر محمد ابن الحسن الزبيدي، ومحمد بن بريم الألهاني، وأبو الأصبغ عيسى ابن حجاج الحضرمي، وأبو محمد عبدالله بن علي الهوازني وسواهم، ففعلوا ذلك، وأجابوه إلى ما أراد؛ وظل يدبر الأمور إلى أن مات سنة ٤٣٩هـ.

٢ ــ فتولى بعده ابنه أبو عمر وعباد بن محمد بن اسماعيل بن عباد المعتضد بالله، فسار على نهج أبيه في إيثار الاصلاح، وحسن التدبير، وبسط العدل، ثم استبد بالأمور وحده، وكان شهماً صارماً حديد القلب شجاع النفس بعيد الهمة ذا دهاء وواتته مع هذا المقادير فلم يزل يعمل في قطع هؤلاء الوزراء واحداً واحداً فمنهم من قتله صبراً، ومنهم من نفاه عن البلاد ومنهم من أماته خمولاً وفقراً، الى أن تم له ما اراده من الاستبداد بالأمر ولقب بالمعتضد بالله.

ولم يزل المعتضد يدوخ المماليك وتدين له الملوك من جميع أقطار الأندلس، وبلغ من قسوته أن قتل ابنه وولي عهده « اسماعيل » صبراً، وظل كذلك حتى توفي عام ٤٦٤هـ.

---

(١) المعجب ص ٤٩.

(٢) هذه هي مجالس الوزراء في الدول العريقة في الديمقراطية.

٣ ــ وقام بالأمر بعده على إشبيلية ونواحيها ابنه أبو القاسم محمد ابن عباد بن اسماعيل بن عباد الملقب بالمعتمد على الله.

حكم المعتمد :

وكان المعتمد هذا يشبه بهارون الواثق بالله من ملوك بني العباس: ذكاء نفس وغزارة أدب، وكان شعره كأنه الحلل المنشرة، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس، وكان مقتصراً من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم اليه وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية ما لا يحصى كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة الى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة، وفي الجملة فلا أعلم خصلة تحمد في رجل إلا وقد وهبه الله منها أوفر قسم وضرب له فيها بأوفى سهم، واذا عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها إلى أيامه فالمعتمد هذا أحدها بل أكبرها.

ولي أمر اشبيلية بعد أبيه وله سبع وثلاثون سنة واتفقت له المحنة الكبرى بخلعه وإخراجه عن ملكه في شهر رجب الكائن في سنة ٤٨٤ فكانت مدة ولايته الى أن خلع وأسر عشرين سنة كانت له في أضعافها مآثر أعيا على غيره جمعها في مائة سنة وأكثر منها.

وكانت له همة في تخليد الثناء وابقاء الحمد وكان من جملة شعرائه شاعر من أهل مدينة مرسية اسمه عبد الجليل بن وهبون كان حسن الشعر لطيف المأخذ حسن التوصل الى دقيق المعاني، أنشد يوماً بين يدي المعتمد بعض الحاضرين بيتين لعبد الجليل بن وهبون قالهما قديماً قبل وصوله إلى المعتمد وهما :

قل الوفاء فما تلقاه في أحد ... ولا يمر لمخلوق على بال
وصار عندهم عنقاء مغربة ... أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال

فأعجب المعتمد بهما وقال : لمن هذان البيتان ؟ فقالوا : هما لعبد الجليل ابن وهبون. فقال المعتمد عند ذاك : هذا والله اللؤم البحت، رجل من خدامنا والمنقطعين الينا يقول : أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال، وهل يتحدث أحد عنا بأسوأ من هذه الأحدوثة وأمر له بألف مثقال، فلما دخل عليه يشكره، قال له : يا أبا محمد، هل عاد الخبر عيانا ؟ قال : اي والله يا مولاي، ودعا له بطول البقاء، فلما هم بالانصراف قال له : يا عبد الجليل الآن حدث بها لا عنها.

ولابن عباد شعر كثير برز في أكثره وأجاد. ومنه قوله :

علل فؤادك قد ابل عليل ... واغنم حياتك فالبقاء قليل
لو أن عمرك الف عام كامل ... ما كان حقا أن يقال طويل
أكذا يقود بك الأسى نحو الردى ... والعود عود والشمول شمول
لا يستبيك الهم نفسك عنوة ... والكأس سيف في يديك صقيل
بالعقل تزدحم الهموم على الحشا ... فالعقل عندي أن تزول عقول

ومن شعره قوله في مملوك له صغير كان يتصرف بين يديه أهداه له صاحب طليطلة وكان اسم المملوك (سيفا) :

سموه سيفا وفيه عينيه سيفان ... هذا لقتلي مسلول وهذان
أما كفت قتلة بالسيف واحدة ... حتى أتيح من الأجفان ثنتان
أسرته وثناني غنج مقلته ... أسيره فكلانا آسر عاني
يا سيف أمسك بمعروف أسير هوى ... لا يبتغي منك تسريحا باحسان

ومن شعره الرشيق الخفيف الروح الذي حكى الماء سلاسة والصخر ملاسة قوله في هذا المملوك :

تم له الحسن بالعذار ... واقترن الليل بالنهار
اخضر في أبيض تبدي ... ذلك آسى وذا بهاري
فقد حوى مجلسي تماما ... ان كان من ريقه عقاري

وبينا هو يوماً في قبة له يكتب شيئاً أو يطالع وعنده بعض كرائمه،

دخلت عليه الشمس من بعض الكوى الكائنة فيها فقامت جارية دونه تستره من الشمس فقال :

قامت لتحجب ضوء الشمس قامتها   عن ناظري حجبت عن ناظر الغير
علما لعمرك منها أنها قمر   هل تكسف الشمس إلا صورة القمر

وكانت جارية من كرائمه قائمة على رأسه تسقيه والكأس في يدها إذ لمع البرق فارتاعت فقال :

ريعت من البرق وفي كفها   برق من القهوة لماع ؟
عجبت منها وهي شمس الضحى   كيف من الأنوار ترتاع

وله مقاطع حسان كان يرتجلها في مجالس أنسه، وله شعر قاله في أيام محنته.

وزراء المعتمد :

كان المعتمد لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً حسن الأدوات، فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله :

١ ـــ فمن جملة وزرائه الوزير الأجل ذو الرياستين أبو الوليد أحمد ابن عبدالله بن أحمد بن زيدون ذو الأدب البارع والشعر الرائع أحد شعراء الأندلس المجيدين وفحولها المبرزين كان إذا نسب أنساك كثيراً، وإذا مدح أزرى بزهير وإذا فخر أناف على امرئ القيس. ومن جملة مقاطعه التي تشهد له بجودة الطبع واتقان الصنعة قوله :

بيني وبينك ما لو شئت لم يضع   سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع
يا بائعاً حظه مني ولو بذلت   لي الحياة بحظي منه لم أبع
يكفيك أنك إن حملت قلبي ما   لا تستطيع قلوب الناس يستطع
ته أحتمل واستطل أصبر وعزأهن   وول أقبل وقل أسمع ومر أطع

وهو القائل يخاطب بني جهور، وكان قد وزر لهم قبل وزارته للمعتمد،

لأن أصله من مدينة قرطبة فنالته منهم محنة، فخرج عن قرطبة إلى اشبيلية وافداً على المعتمد فعلت رتبته عنده، فكان يبلغه عن بني جهور ما يسوؤه في نفسه وقرابته بقرطبة، فقال يخاطبهم :

بني جهور أحرقتمو بجفائكم   فؤادي فما بال المدائح تعبق
تعدونني كالعنبر الورد إنما   تفوح لكم أنفاسه حين يحرق

ومن نسيبه الذي يختلط بالروح رقة ويمتزج بأجزاء الهواء لطافة : قصيدته التي قالها يتشوق ابنة المهدي : ولادة، وهي بقرطبة وهو باشبيلية :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا   شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا   يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت   سودا وكانت بكم بيضا ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا   ومورد اللهو صاف من تصافينا

٢ ــ ومن وزراء ابن عباد كذلك الوزير أبو بكر محمد بن عمار، ذو النفس العصامية والآداب الرفيعة، كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبي القاسم محمد بن هانئ الأندلسي، وربما كان أحلى منزعاً منه في كثير من شعره، وله ديوان يدور بين أيدي أهل الأندلس، ولا نرى شاعراً أندلسياً عاصره إلا وكان مقدماً له مؤثراً لشعره، وربما تعالى بعضهم فشبهه بأبي الطيب وهيهات، فمن قصائده المشهورة التي أجاد فيها ما أراد : قصيدته التي كتب بها من سرقسطة حين فرق المعتضد بالله بينه وبين المعتمد لأنه شغله عن كثير من أمره فنفاه وهي :

علي وإلا ما بكاء الغمائم   وفي وإلا ما نواح الحمائم
وعني أثار الرعد صرخة طالب   لثار وهز البرق صفحة صارم
وما لبست زهر النجوم حدادها   لغيري ولا قامت له في مآتم

وفي هذه القصيدة يقول يمدح المعتضد بالله :

أبى أن يراه الله إلا مقلدا   خميلة سيف أو حمالة غارم

ومن جيد نسيبه قوله في قصيدة يمدح بها المعتضد بالله :

لا تطلبوا في الحب عزا إنما عبدانه في حكمه أحراره
قالوا أضر بك الهوى فأجبتهم يا حبذاه وحبذا أضراره
قلبي هو اختار السقام لجسمه زياً فخلوه وما يختاره
عيرتموني بالنحول وإنما شرف المهند أن ترق شفاره
ووشيتم لفراق من آلفته ولربما حجب الهلال سراره
أحسبتم السلوان هب نسيمه أو أن ذاك النوم عاد غراره
إن كان أعيا القلب من حرب الجوى خذلته من دمعي إذا أنصاره
من قد قلبي إذ تثنى قده وأقام عذري إذ أطل عذاره
أم من طوى الصبح المنير نقابه وأحاط بالليل البهيم خماره
غصن ولكن النفوس رياضه رشأ ولكن القلوب عراره
سخرت ببدر التم غرته كما أزرت على آفاته أزراره
ما زال ليل الوصل من فتكاته تسري إلي بعرفه أسحاره
حتى سقاني الدهر كأس فراقه فسكرت سكراً لا يفيق خماره
ووقفت في مثل المحصب موقفا للبين من حب القلوب جماره
حيران أعمى الطرف وهو سماؤه وأذاب فيه القلب وهو قراره
ولئن يذبه وهو مثواه فكم قد أحرقت عود الثقائب ناره
إن يهنه أني أضعت لحبه قلبي وذاعت عنده أسراره
فليهن قلبي ان شكاه وشاحه لسواره فاقتص منه سواره
فوحسنه لقد انتدبت لوصفه بالنجل لولا أن حمصا داره
بلد رمتني بالمنى أغصانه وتفجرت لي بالندى أنهاره

ولابن عمار مع المعتمد أخبار عني يجمعها أهل الأندلس. وابن عمار هو محمد بن عمار... ويكنى أبا بكر، أصله من شلب، من قرية من أعمالها يقال لها شنبوس، وكان مولده ومولد آبائه بها كان خامل البيت ليس له ولا لاسلافه في الرياسة في قديم الدهر ولا حديثه

حظ ولا ذكر منهم بها أحد، ورد مدينة شلب طفلاً فنشأ بها وتعلم الأدب على جماعة منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم، ثم رحل إلى قرطبة فتأدب بها ومهر في صناعة الشعر فكان قصاراه التكسب به فلم يزل يجول في الأندلس مسترفداً، لا يخص بمدحه الملوك دون غيرهم، بل لا يبالي ممن أخذ ولا من استعطف من ملك أو سوقة وله في ذلك خبر ظريف، وذلك أنه ورد في بعض سفراته شلب لا يملك إلا دابة لا يجد علفها، فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق، فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيراً ووجه بها إليه، فرآها ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز. ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به الحظ وانتهى أمره أن ولاه المعتمد على الله مدينة شلب وأعمالها، وأول ما أفضى الأمر إليه فدخلها ابن عمار في مو كب ضخم وجملة عبيد وحشم، وأظهر نخوة لم يظهرها المعتمد على الله حين وليها أيام أبيه المعتضد بالله، فكان أول شيء سأل عنه صاحبه صاحب الشعير، فقال ما صنع فلان أهو حي قالوا نعم، فأرسل إليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله قل له : لو ملأتها براً لملأناها تبرا، ولم يزل ابن عمار على الحال التي ذكرناها من التقلب في بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف إلى أن ورد على المعتضد بالله أبي عمر فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى   والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره   لما استرد الليل منا العنبرا

وفيها يقول يمدح المعتضد :

قداح زند المجد لا ينفك من   نار الوغى إلا إلى نار القرى
يختار أن يهب الخريدة كاعبا   والطرف أجرد والحسام مجوهرا

وفي هذه القصيدة يقول في وصف وقعة أوقعها المعتضد بالبربر :

شقيت بسيفك أمة لم تعتقد   إلا اليهود وإن تسموا بربراً

أثمرت رمحك من رؤوس كماتهم لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وخضبت سيفك من دماء نحورهم لما عهدت الحسن يلبس أحمرا

من أبيات هذه القصيدة :

السيف أفصح من زياد خطبة في الحرب ان كانت يمينك منبرا

ولما أنشد هذه القصيدة استحسنها وأمر له بمال وثياب ومركب، وأمر أن تكتب في ديوان الشعراء، فكان ذلك، ثم تعلق بالمعتمد على الله وهو إذ ذاك شاب لم تزل حاله معه تزيد، وأسباب خدمته له تقوى وتتأكد إلى أن صار ابن عمار الصق بالمعتمد في كل شيء، وأدنى إليه من حبل وريده، كان المعتمد لا يستغني عنه ساعة من ليل ولا نهار، ثم اتفق أن ولى المعتمد على الله شلب من قبل أبيه فاستوزر ابن عمار هذا في تلك الولاية وسلم إليه جميع أموره، فغلب عليه ابن عمار، فرأس المعتضد التفريق بينهما ونفى ابن عمار عن بلاده، فلم يزل ابن عمار مغترباً في أقاصي بلاد الأندلس إلى ان توفي المعتضد بالله، فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه، وله معه أيام كونهما بشلب أخبار طريفة، وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه على ما كانت العادة جارية به، الا أنه في تلك الليلة زاد في التحفي به والبرله على المعتاد، فلما جاء وقت النوم اقسم المعتمد عليه لتضعن رأسك معي على وساد واحد، فكان ذلك. قال ابن عمار فهتف بي هاتف في النوم يقول : لا تغتر أيها المسكين انه سيقتلك لو بعد حين، قال : انتبهت من نومي فزعاً وتعوذت ثم عدت فهتف بي الهاتف على حالته الأولى، فانتبهت ثم عدت فسمعته ثالثة فتجردت من أثوابي والتففت في بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مسخفياً به وقد أزمعت على أني إذا أصبحت خرجت مستخفياً حتى آتي البحر فاركبه واقصد بلاد العدوة فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت، فانتبه المعتمد فافتقدني فلم يجدني فأمر بطلبي فطلبت له في نواحي القصر، وخرج هو بنفسه

يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه، فكان هو الذي وقع علي، وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح فوقف بازاء الحصير الذي كنت فيه فكانت مني حركة فأحس بي وقال ما هذا الذي يتحرك في هذا الحصير، ثم أمر به فنفض فخرجت عرياناً، ليس علي إلا السراويل، فلما رآني فاضت عيناه دموعاً، وقال : يا أبا بكر ما الذي حملك على هذا، فلم أر بداً من أن صدقته فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها فضحك، وقال : يا أبا بكر أضغاث أحلام هذه آثار الخمار ثم قال لي : وكيف أقتلك ؟ أرأيت أحداً يقتل نفسه، وهل أنت عندي إلا كنفسي، فشكر له ابن عمار ودعا له بطول البقاء وتناسى الأمر فنسيه ومرت على ذلك الأيام والليالي.

ولما أفضى الأمر إلى المعتمد سأله ابن عمار ولاية شلب وهي كانت بلده ومنشأه كما تقدم، فأجابه المعتمد الى ذلك، وولاه اياها أنبه ولاية، وجعل إليه جميع أمورها وخارجها وداخلها، فاستمرت ولاية ابن عمار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد اليه وضعف عن احتمال الصبر عنه، فاستدعاه وعزله عنها واستوزره، فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد، ولم يزل المعتمد يعده لكل أمر جليل ويؤهله لكل رتبة عالية، وكان ابن عمار مع هذا لا يناط به أمر الا اضطلع به، واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الروم اذ ذكر عنده ابن عمار قال هو رجل الجزيرة، وكان ابن عمار هو الذي رده عن قصد إشبيلية وقرطبة وأعمالهما، وذلك أن خرج من جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طامعاً فيها فخافه الناس وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعباً منه، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه فتولى ابن عمار رده بألطف حيلة وأيسر تدبير، وذلك أنه أقام سفرة شطرنج في غاية الاتقان والابداع لم يكن عند ملك مثلها جعل صورها من الآبنوس والعود الرطب والصندل وجلاها بالذهب وجعل أرضها في

غاية الأتقان، فخرج من عند المعتمد رسولاً إلى ملك الروم فلقيه في أول بلاد المسلمين، فأعظم الملك قدومه وبالغ في اكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد الى خبائه والمسارعة في حوائجه،، فاظهر ابن عمار تلك السفرة فرآها بعض خواص الملك فنقل خبرها إليه، وكان الملك مولعاً بالشطرنج، فلما لقي ابن عمار سأله كيف أنت في الشطرنج ؟ وكان ابن عمار فيه طبقة عالية بمكانة منه فقال له : بلغني ان عندك سفرة في غاية الاتقان، قال ابن عمار نعم، فقال : كيف السبيل إلى رؤيتها ؟ فقال ابن عمار لترجمانه : قل له أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها، فإن غلبتني فهي لك، وإن غلبتك فلي حكمي، فقال له الملك : هلم لننظر إليها، فأمر ابن عمار من جاء بها فلما وضعت بين يدي الملك تعجب وقال : ما ظننت أن اتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد. ثم قال لابن عمار : كيف قلت، فأعاد عليه الكلام الأول، فقال له الملك لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدري ما هو ولعله شيء لا يمكنني، فقال ابن عمار لا ألعب إلا على هذا الوجه، وأمر بالسفرة فطويت، وكشف ابن عمار سر ما أراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة الملك وجعل لهم أموالاً عظيمة على أن يؤازروه على أمره ففعلوا، فتعلقت نفس الملك بالسفرة وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار، فهونوا عليه وقالوا له : ان غلبته كانت عندك سفرة ليس عند ملك مثلها، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم، وقبحوا عنده إظهار الملك بالعجز عن شيء يطلب منه، وقالوا له : ان طلب ابن عمار مالاً يمكن فنحن لك نرده عن ذلك، ولم يزالوا به حتى أجاب، وأرسل إلى ابن عمار فجاء ومعه السفرة فقال له : قد قبلت ما رسمته فقال له ابن عمار فاجعل بيني وبينك شهوداً سماهم له، فأمر الملك بهم فحضروا وأخذا يلعبان، وكان ابن عمار طبقة بالأندلس لا يقوم له أحد فيها، فغلب الملك غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين. فلما حقت الغلبة قال له ابن عمار : هل صح أن لي حكمي قال نعم، فمال هو ؟ قال : أن ترجع

من هنا إلى بلادك؛ فاسود وجه الملك وقام وقعد وقال لخواصه قد كنت أخاف من هذا حتى هونتموه علي، وهم بالنكث والتمادي لوجهه فقبحوا ذلك عليه، وقالوا : كيف يجمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى في وقتك، فلم يزالوا به حتى سكن وقال لا أرجع حتى آخذ أتاوة عامين خلاف هذه السنة، فقال ابن عمار هذا كله لك وجاءه بما أراد فرجع، وكف الله بأسه؛ ودفعه بحوله وحسن دفاعه عن المسلمين ورجع ابن عمار إلى إشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به.

وأخيراً تغيرت نفس المعتمد من ابن عمار فقبض عليه أعوانه، ودخلوا به قرطبة؛ ووافق ذلك كون المعتمد بها، فدخلها ابن عمار أشنع دخول وأسوأه على بغل بين عدلي تبن وقيوده ظاهرة للناس، وقد كان المعتمد أمر باخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا اليه على تلك الحال، وقد كان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم، فالسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام، وغيرهم لا يصل إلا الى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه، ومنهم من ينظر إليه على بعد لا يستطيع الوصول إليه.

ودحل ابن عمار قرطبة ــ بعد العزة القعساء والملك الشامخ والرياسة الفارغة ــ ذليلاً خائفاً فقيراً لا يملك إلا ثوبه الذي عليه، واخبر بعض الموكلين به ما اتفق لهم من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال : لما قربنا من قرطبة بحيث يرانا الناس خرج فارس من البلد يركض يقصدنا، فلما رآه ابن عمار وكان معتماً ازال العمامة عن رأسه فجاء الفارس حتى وصل الينا فنظر الى ابن عمار ودخل معنا في الصف فمشى، فسألناه فيم جاء فقال : الذي جئت فيه صنعه هذا الرجل قبل أن أصل إليه فعلمنا أنه ارسل ليزيل عمامته، فادخل على المعتمد على الله يرسف في قيوده، فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه وابن عمار في ذلك

كله مطرق لا ينبس، إلى أن انقضى كلام المعتمد، فكان من جواب ابن عمار ان قال : ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا أبقاه الله، ولو أنكرته لشهدت علي به الجمادات فضلاً عمن ينطق، ولكني عثرت فأقل، وزللت فاصفح، فقال المعتمد هيهات أنها عثرة لا تقال، وأمر به فاحدر في النهر الى إشبيلية فدخل به إشبيلية على الحال التي دخل عليها قرطبة وجعل في غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر المبارك، فطال سجنه هناك، وكتبت عنه في هذا السجن قصائد لو توسل بها الى الدهر لنزع من جواره، أو إلى الفلك لكف عن دواره، فكانت رقى لم تنجح، ودعوات لم تسمع، ونمائم لم تنفع، فمنها قوله :

سجاياك ان عفيت أندى وأسجح ... وعذرك ان عاقبت أجلى وأوضح
وان كان بين الخطتين مقامة ... فانت الى الأدنى من الله تجنح
حنانيك في أخذي برأيك لا تطع ... عداي ولو أثنوا عليك وأفصحوا
فان رجائي ان عندك غير ما ... يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمة ... يكران في ليل الخطايا فيصبح
وهبني وقد أعقبت أعمال مفسد ... أما تفسد الأعمال ثمت تصلح
أقلني بما بيني وبينك من رضى ... له نحو روح الله باب مفتح
وعف على آثار جرم سلكتها ... بهبة رحمى منك تمحو وتمصح
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم ... فكل اناء بالذي فيه يرشح
سيأتيك في أمري حديث وقد أتى ... بزور بني عبد العزيز موشح
وما ذاك الا ما علمت فانني ... اذا ثبت لا أنفك آسو وأجرح
كأني بهم لا در لله درهم ... أشاروا تجاهي بالشمات وصرحوا
وقالوا سيجزيه فلان بفعله ... فقلت وقد يعفو فلان ويصفح
ألا أن بطشاً للمؤيد يرتجى ... ولكن حلماً للمؤيد يرجح
وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا ... سوى أن ذنبي واضح متصحح
نعم لي ذنب غير أن لحلمه ... صفاة يزل الذنب عنها فيسفح
عليه سلام كيف دار به الهوى ... إلي فيدنو أو علي فينزح

ويهنئه ان مت السلو فانني　　أموت ولي شوق إليه مبرح
وبي ضلوعي من هواه تميمة　　ستنفع لو أن الحمام يجلح

ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه كان بحضرته رجل من البغداديين فجعل يزري على البيت « وبي ضلوعي » ويقول ما أراد بهذا المعنى فكان من جواب المعتمد رحمه الله ان قال أما لئن سلبه الله المروءة والوفاء لما أعدمه الفطنة والذكاء انما نظر الى بيت الهذلي من طرف خفي وهو :

واذا المنية أنشبت أظفارها　　ألفيت كل تميمة لا تنفع

ولم يزل ابن عمار بسجن المعتمد إلى أن قتله صبراً في شهور سنة ٤٧٩.

من تاريخ المعتمد : ظل المعتمد والدهر يوازره ويعاضده، إلى أن انتظم له في ملكه من بلاد الأندلس ما لم ينتظم لملك قبله من المتغلبين، ودخلت في طاعته مدن من مدائنها أعيت الملوك وأعجزتهم، وامتدت مملكته إلى أن بلغ مدينة مرسية، وبينها وبين اشبيلية نحو من اثنتي عشرة مرحلة وفي خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة، وكان تغلبه على قرطبة واخراجه ابن عكاشة منها يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة ٤٧١، ثم رجع إلى اشبيلية واستخلف عليها ولده عباداً ولقبه بالمأمون، وهو أكبر ولد له في حياة أبيه المعتضد وسماه عباداً، فكان المعتضد يضمه إليه، ويقول يا عباد يا ليت شعري من المقتول بقرطبة أنا أو أنت ؟ فكان المقتول بها عباد هذا في حياة أبيه المعتمد.

وفي سنة ٤٧٩ جاز المعتمد على الله البحر قاصداً مدينة مراكش الى يوسف بن تاشفين مستنصراً به على الروم، فلقيه يوسف أحسن لقاء وأنزله أكرم نزل، وسأله عن حاجته، فذكر أنه يريد غزو الروم وأنه يريد امداد أمير المسلمين إياه بخيل ورجل ليستعين بهم في حربه فأسرع أمير المسلمين المذكور الى إجابته إلى ما دعاه إليه وقال له :

أنا أول منتدب لنصرة هذا الدين ولا يتولى هذا الأمر أحد الا أنا بنفسي، فرجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً باسعاف أمير المسلمين اياه في طلبه ولم يدر أن تدميره في تدبيره، وسل سيفاً يحسبه له، ولم يدر أنه عليه فكان كما قال أبو فراس:

إذا كان غير الله للمرء عدة أتته الرزايا من وجوه الفوائد
كما جرت الحنفاء حتف حذيفة وكان يراها عدة للشدائد

فأخذ أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين في أهبة العبور إلى جزيرة الأندلس وذلك في شهر جمادى الأولى من عام ٤٧٩هـ فاستنفر من قدر على استنفاره من القواد وأعيان الجند ووجوه قبائل البربر، فاجتمع له نحو من سبعة آلاف فارس وعدد كثير، فعبر البحر بعسكر ضخم وكان عبوره من مدينة سبتة، فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضرا، وتلقاه المعتمد في وجوه أهل دولته وأظهر من بره واكرامه فوق ما كان يظنه أمير المسلمين، وقدم إليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية ما لم يظنه يوسف عند ملك، فكان هذا أول ما ألفته إلى ملك جزيرة الأندلس. ثم فصل عن الخضراء بجيوشه قاصداً اشبيلية دار ملك المعتمد ليستريح فيها أياماً حتى تزول عنه وعثاء السفر، ثم يقصد قصده ولكنه عاد وقال إنما جئت ناوياً جهاد العدو فحيث ما كان العدو توجهت وجهته، وكان ملك الاسبان محاصراً لحصن من حصون المسلمين يعرف بحصن الليط، فلما بلغه عبور البربر أقلع عن الحصن راجعاً إلى بلاده مستنفراً عساكره ليلقى بهم البربر، وتوجه يوسف إلى شرقي الأندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر، والاصلاح بين المعتمد على الله وبين رجل كان تغلب على مرسية يقال له ابن رشيق، فأصلح بينهما يوسف أمير المسلمين على أن يخرج له ابن رشيق عن مرسية ويعوضه المعتمد على ذلك مالاً جعله له، ويوليه في جهة اشبيلية أضخم ولاية، فأجابه ابن رشيق الى ذلك، وتسلم المعتمد مرسية وأعمالها،

ولقي يوسف أمير المسلمين ملوك الأندلس الذين كان عليهم طريقه كصاحب غرناطة والمعتصم ابن صمادح صاحب المرية وابن عبد العزيز أبو بكر صاحب بلنسية، ثم إن يوسف استعرض جنده على حصن الرقة فرأى منهم ما يسره، فقال للمعتمد على الله : هلم ما جئنا له من الجهاد وقصد العدو وجعل يظهر التأفف من الاقامة بجزيرة الأندلس ويتشوق إلى مراكش ويصغر قدر الأندلس، ويقول في أكثر أوقاته : كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيماً قبل أن نراها فلما رأيناها وقعت دون الوصف، وهو في ذلك كله يظهر الدهاء، فخرج المعتمد بين يديه قاصداً مدينة طليطلة واجتمع للمعتمد أيضاً جيش ضخم من أقطار الأندلس وانتدب الناس للجهاد من سائر الجهات، وأمد ملوك الجزيرة يوسف والمعتمد بما قدرا عليه من خيل ورجال، وسلاح فتكامل عدد المسلمين من المتطوعين والمحاربين زهاء عشرين ألفاً والتقوهم بأول بلاد الروم وكان ملك الاسبان لم يدع في أقاصي مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه وجاء بجيش ضخم يرهب به ملك البربر. فأما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحد إلا يؤدي إليه الأتاوة، وهم كانوا أحقر من عينه وأقل من أن يحتفل لهم، ولما تراءى الجمعان من المسلمين والنصارى رأى يوسف وأصحابه أمراً عظيماً هالهم من كثرة عدد وجودة سلاح وخيل وظهور قوة، فقال للمعتمد : ما كنت أظن هذا الملك يبلغ هذا الحد، وجمع يوسف أصحابه وندب لهم من يعظهم ويذكرهم، فظهر منهم صدق النية والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة ما سر به يوسف والمسلمون، وكانت المعركة يوم الخميس الثاني عشر من شهر رمضان ٤٨٠هـ.

فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ولا امارة عندهم للقتال وبنى يوسف بن تاشفين الأمر على أن الملوك لا تغدر، فخرج هو وأصحابه في ثياب الزينة للصلاة، فأما المعتمد فإنه أخذ بالحزم

فركب هو وأصحابه شاكي السلاح وقال لأمير المسليمن : صل في أصحابك فهذا يوم ما تطيب نفسي فيه وها أنا من ورائكم وما أظن العدو إلا قد أضمر الفتك بالمسلمين، فأخذ يوسف وأصحابه في الصلاة. فلما عقدوا الركعة الأولى ثارت في وجوههم الخيل من جهة النصارى، وحمل العدو في أصحابه يظن أنه قد انتهزوا الفرصة وإذا المعتمد وأصحابه من وراء الناس فاغنى ذلك اليوم غناء لم يشهد لأحد من قبله، وأخذ المرابطون سلاحهم فاستووا على متون الخيل واختلط الفريقان فاظهر يوسف بن تاشفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء والثبات ما لم يكن يحسبه المعتمد، وهزم الله الأعداء واتبعهم المسلمون يقتلونهم في كل وجه، ونجا ملك الاسبان في تسعة من أصحابه، فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالأندلس وتسمى هذه الوقعة عندهم وقعة الزلاقة، وكان لقاء المسلمين عدوهم في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان سنة ٤٨٠، ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين فسر بهم أهل الأندلس، وأظهروا التيمن بأمير المسلمين والتبرك به، وكثر الدعاء له في المساجد وعلى المنابر، وانتشر له من الثناء بجزيرة الأندلس ما زاده طمعاً فيها.

وكان ممن اختص بأمير المسلمين من ملوك الجزيرة وحظي عنده واشتد تقريب أمير المسلمين له : أبو يحيى بن معن بن صمادح المعتصم صاحب المرية، وكان المعتصم هذا قديم الحسد للمعتمد كثير النفاسة عليه، لم يكن من ملوك الجزيرة من يناوئه غيره، وربما كانت بينهما في بعض الأوقات مراسلات قبيحة وكان المعتصم يعيبه في مجالسه وينال منه ويمنع المعتمد من فعل مثل ذلك مروءته ونزاهة نفسه وطهارة سريرته وشدة ملوكيته، وقد كان المعتصم قبل عبور أمير المسلمين بيسير توجه إلى شرقي الأندلس يتطوف على مملكته ويطالع أحوال أعماله ورعيته، فلما دانى أول بلاد المعتصم خرج إليه في وجوه

أصحابه وتلقاه لقاء نبيلاً وعزم عليه ليدخلن بلاده فأبى المعتمد ذلك، ثم اتفقا بعد طول مراودة على أن يجتمعا في أول حدود بلاد المعتصم وآخر حدود بلا المعتمد، فكان ذلك واصطلحا في الظاهر، واحتفل المعتصم في إكرامه وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر الملوكية المعدة لمجالس الأنس. ما ظنه مكمداً للمعتمد مثيراً لغمه، وقد أعاذ الله المعتمد من ذلك وصان خلقه الكريم عنه، وعصمه بفضله منه، ثم افترقا بعد أن أقام المعتمد عنده في ضيافته ثلاثة أسابيع ورجع المعتمد إلى بلاده، وبعد ذلك عبر إلى مراكش ولم يزل ما بينه وبين المعتصم معموراً الى أن عبر أمير المسلمين كما ذكرنا، فلقيه المعتصم بهدايا فاخرة وتحف جليلة وتلطف في خدمته حتى قربه أمير المسلمين أشد تقريب لثناء المعتمد عليه ووصفه اياه عنده بكل فضل ولم يكن المعتصم بعيداً من أكثر ما وصفه به، ولما اشتد تمكن المعتصم من أمير المسلمين بدا له ان يسعى في تغيير قلبه على المعتمد وافساد ما بينهما؛ وعبر أمير المسلمين إلى العدوة وقد وغر صدره، وتغيرت نفسه.

هذا مع طمعه في الجزيرة وتشوقه إلى ملكها وظهرت للمعتمد قبل عبوره أشياء عرف بها أنه غير عليه ورجع أمير المسلمين إلى مراكش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد، حتى قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : كنت أظن أني قد ملكت شيئاً فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي، فكيف الحيلة في تحصيلها، فاتفق رأيه ورأي اصحابه على أن يرسلوا الى المعتمد يستأذنونه في رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس ومجاهدة العدو ببعض الحصون المصاقبة للروم إلى أن يموتوا، ففعلوا وكتبوا إلى المعتمد بذلك فاذن لهم بعد أن وافقه على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحب الثغور، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة وبلادها فاذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو اظهار لمملكتهم وجدوا في كل بلد لهم أعواناً، وقد كانت قلوب أهل الأندلس كما

ذكرنا قد اشربت حب يوسف واصحابه فجهز يوسف من خيار اصحابه رجالاً انتخبهم وأمر عليهم اجلاً من قرابته يسمى بلجين واسر إليه ما أراد، فجاز بلجين المذكور وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة. فقال له أبن تأمرني بالاقامة فوجه معه المعتمد من اصحابه من ينزله ببعض الحصون التي اختارها لهم فنزل حيث انزلوه هو واصحابه واقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد.

ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعوة أمير المسلمين انتشر ذلك في الأندلس وزحف القوم الذي قدمنا ذكرهم الكائنون في الحصون إلى قرطبة فحاصروها وفيها عباد بن المعتمد الملقب بالمأمون، وهو من أكبر ولده فدخلوا البلد وقتلوا عباد هذا بعد أن أبلى عذراً واظهر في الدفاع عن نفسه جلداً وصبراً، وذل في اول صفر سنة ٤٨٤، وظهرت المحنة في إشبيلية.

وفي ذلك يقول المعتمد بعد أن نزل بالعدوة أسيراً :

قالوا الخضوع سياسة	فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضوع	على فمي السم النقيع
ان تستلب عني الدنى	ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه	لم تسلم القلب الضلوع
لم استلب شرف الطبا	ع، أيسلب الشرف الرفيع ؟
قد رمت يوم نزالهم	ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميـ	ـص عن الجثى شيء دفوع
وبذلت نفسي كي تسيل	إذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن	بهواي ذلي والخشوع
ما سرت قط إلى القتال	وكان من أملي الرجوه

ولم يزل أعوان ملك البربر يعبثون، حتى نهبوا قصور المعتمد، وقتلوا أسرته، وقبضوا على المعتمد ونفوه إلى مراكش، ولما نزل المعتمد

من العدوة بطنجة أقام بها أياماً ولقيه بها الحصري الشاعر، فجرى معه على عادته فرفع اليه أشعاراً قديمة، قد كان مدحه بها وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدها عند وصوله إليه، ولم يكن عند المعتمد في ذلك اليوم مما زود به فيما بلغني أكثر من ستة وثلاثين مثقالاً، فطبع عليها، وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها، ولما اتصل بزعانفة الشعراء، وملحفي الناس ما صنع المعتمد رحمه الله مع الحصري، تعرضوا له بكل طريق، وقصدوه من كل فج عميق. فقال في ذلك :

شعراء طنجة كلهم والمغرب ... ذهبوا من الأغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسير وإنه ... بسؤالهم حق فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزة محمية ... طي الحشا ساواهم في المطلب
قد كان ان سئل الندى يجزل وان ... نادى الصريخ ببابه اركب يركب

وله كذلك :

قبح الدهر فماذا صنعا ... كلما أعطى نفيساً نزعا
قد هوى ظلما بمن عادته ... أن ينادي كل من يهوى لعا
من إذا الغيث همى منهمرا ... أخجلتها كفه فانقطعا
من غمام الجود، من راحته ... عصفت ريح به فانتعشا
من إذا قيل الخناصم وان ... نطق العافون همساً سمعا
قل لمن يطمع في نائله ... قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك إلا دعوة ... جبر الله العفاة الضيعا

وأقام المعتمد بطنجة أياماً، ثم انتقل الى مدينة مكناسة فأقام بها أشهراً إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة أغمات فأقاموا بها إلى ان توفي المعتمد رحمه الله ودفن بها، وقبره معروف هناك، وكانت وفاته سنة ٤٨٧هـ، وقيل سنة ٤٨٨هـ وسنُّه يوم توفي إحدى وخمسون سنة، ومما رثي به المعتمد على الله مقطوعة من شعر ابن اللبانة أولها :

لكل شيء من الأشياء ميقات ... وللمنى من مناياهن غايات

والدهر في صبغة الحرباء منغمس ألوان حالاته فيها استحالات
ونحن من لعب الشطرنج في يده وربما قمرت بالبيذق الشاة
فانفض يديك من الدنيا وساكنها فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها الأرضي قد كتمت سريرة العالم العلوي أغمات
طوت مظلتها لا بل مذلتها من لم تزل فوقه للعز رايات
من كان بين الندى والبأس أنصله هندية وعطاياه هنيدات
أنكرت الالتواء للقيود به وكيف تنكر في الروضات حيات
وقلت هن ذؤابات فلم عكست من رأسه نحو رجليه الذؤابات
رأوه ليثاً فخافوا منه عادية عذرتهم فلعدوى الليث عادات

ولهذا الشاعر قصيدة يرثيه بها وهي جيدة، وأولها :

تبكي السماء بدمع رائح غادي على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التي هدت قواعدها وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
والرابيات عليها اليانعات ذوت أنوارها فغدت في خفض أوهاد
عريسة دخلتها النائبات على أساود لهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تغمرها فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
تلك الرماح رماح الحظ ثقفها خطب الزمان ثقافاً غير معتاد
والبيض بيض الظبا فلت مضاربها أيدي الردى وثنتها دون أغماد
لما دنا الوقت لم تخلف له عدة وكل شيء لميقات وميعاد
كم من دراري سعد قد هوت ووهت هناك من درر للمجد أفراد
نور ونور فهذا بعد نعمته ذوى وذاك خبا من بعد إيقاد
يا ضيف اقفر بيت المكرمات فخذ في ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
ويا مؤمل واديهم ليسكنهم خف القطين وجف الزرع بالوادي
ضلت سبيل الندى بابن السبيل فسر لغير قصد فما يهديك من هادي

وفيها يقول :

نسيت إلا غداة النهر كونهم في المنشئات كأموات بألحاد

والناس قد ملئوا العبرين واعتبروا … من لؤلؤ طافيات فوق ازباد
حط القناع فلم تستر مخدرة … ومزقت أوجه تمزيق أبراد
تفرقوا جيرة من بعد ما نشئوا … أهلاً بأهل وأولاداً بأولاد
حان الوداع فضجت كل صارخة … وصارخ من مفداة ومن فادي
سارت سفائنهم والنوح يتبعها … كأنها إبل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمع وكم حملت … تلك القطائع من قطعات أكباد
من لي بكم يا بني ماء السماء إذا … ماء السماء أبى سقيا حشا الصادي

وابن اللبانة هو أبو بكر محمد بن عيسى من أهل مدينة دانية، وهي على ساحل البحر الرومي، كان يملكها مجاهد العامري وابنه علي الموفق على ما تقدم، ولابن اللبانة أخ اسمه عبد العزيز، وكانا شاعرين إلا أن عبد العزيز لم يرض الشعر صناعة ولا اتخذه مكسباً، وإنما كان من جملة التجار، وأما أبو بكر فرضيه بضاعة وتخيره مكسباً وأكثر منه وقصد به الملوك، فأخذ جوائزهم ونال أسنى الرتب عندهم، وشعره نبيل المأخذ وهو فيه حسن المهيع، جمع بين سهولة الألفاظ ورشاقتها، وجودة المعاني ولطافتها، وكان منقطعاً إلى المعتمد معدوداً في جملة شعرائه، لم يفد عليه إلا آخر مدته فلهذا قل شعره الذي يمدحه به، وكان مع سهولة الشعر عليه وإكثاره منه قليل المعرفة بعلله لم يجد الخوض في علومه وانما كان يعتمد في أكثره على جودة طبعه وقوة قريحته، يدل على ذلك قوله في قصيدة له :

من كان ينفق من سواد كتابه … فانا الذي من نور قلبي أنفق

ولما خلع المعتمد على الله واخرج من إشبيلية لم يزل أبو بكر هذا يتقلب في البلاد إلى أن لحق بجزيرة ميرقة وبها مبشر العامري الملقب بالناصر، فحظي عنده وعلت حاله معه، وله فيه قصائد أجاد فيها ما شاء :

فمنها قصيدة ركب فيها طريقة غريبة، وذلك أن جعلها من أولها

إلى آخرها صدر كل بيت فيها غزل وعجزه مدح، وأول القصيدة :

وضحت وقد فضحت ضياء المنير ... فكأنما التحفت ببشر مبشر
وتبسمت عن جوهر فحسبته ... ما قلدته محامدي من جوهر
وتكلمت فكأن طيب حديثها ... متعت منه بطيب مسك أذفر
هزت بنغمة لفظها نفسي كما ... هزت بذكراه أعالي المنبر
أذنبت واستغفرتها فجرت على ... عاداته في المذنب المستغفر
جادت علي بوصلها فكأنه ... جدوى يديه على المقل المقتر
سمعت بتعنيقي فقلت صنيعة ... سمحت علاه بها فلم تتعذر
نهد كقسوة قلبه في معرك ... وحشا كلين طباعه في محضر
ومعاطف تحت الذوائب خلتها ... تحت الخوافق ماله من سمهري
حسنت أمامي في خمار مثل ما ... حسن الكمي أمامه في مغفر
وتوحشت فكأنه في جوشن ... قد قام عنبره مقام العثير
غمرت ببعض قسيه من حاجب ... ورنت ببعض سهامه من محجر
اومت بمفصول اللحاظ فخلته ... يومي بمصقول الصحيفة مشهر
وضعت حشاياها فويق ارائك ... وضع السروج، على الجياد الضمر
من رامة او رومة لا علم لي ... أأتت عن النعمان أم عن قيسر
بنت الملوك فقل لكسرى فارس ... تعزى وإلا فقل لتبع حمير
عاديت فيها غر قومي فاعتدوا ... لا أرضهم أرضي ولا هم معشري
وكذلك الدنيا عهدنا أهلها ... يتعاقرون على الثريد الأعفر
طافت علي بجمرة من خمرة ... فرأيت مريخاً براحة مشترى
فكأن أنملها سيوف مبشر ... وقد اكتست علق النجيع الأحمر
ملك ازرة برده ضمت علي ... باس الوصي وعزمة الأسكندر

ومن نسيبه قوله يتغزل ويمدح مبشراً هذا :

هلا ثناك علي قلب مشفق ... فترى فراشاً في فراش يحرق
قد صرت كالرمق الذي لا يرتجى ... ورجعت كالنفس الذي لا يلحق

وغرقت في دمعي عليك وغمني — طرفي فهل سبب به أتعلق
هل خدعة بتحية مخفية — في جنب موعدك الذي لا يصدق
أنت المنية والمنى فيك استوى — ظل الغمامة والهجير المحرق
لك قد ذابلة الوشيح ولونها — لكن سنانك أكحل لا أزرق
ويقال إنك ايكة حتى إذا — غنيت قيل هو الحمام الأورق
يا من رشقت إلى السلو فردني — سبقت جفونك كل سهم يرشق
لو في يدي سحر وعندي أخذه — لجعلت قلبك بعض حين يعشق
لتذوق ما قد ذقت من ألم الجوى — وترق لي مما تراه وتشفق
جسدي من الأعداء فيك لأنه — لا يستبين لطرف طيف يرمق
لم يدر طيفك موضعي من مضجعي — فعذرته في أنه لا يطرق
جفت عليك مدامعي ومنابعي — فالدمع ينشع والصبابة تورق
وكأن أعلام الأمير مبشر — نشرت على قلبي فاصبح يخفق

وله فيها إحسان كثير، وله من قصيدة يتغزل:

فؤادي معنى الحسان معنت — وكل موقى في التصابي موقت
ولي نفس يخفى ويخفت رقة — ولكن جسمي منه أخفى وأخفت
وبي ميت الأعضاء حي دلاله — غرامي به حي وصبري ميت
جعلت فؤادي جفن صارم جفنه — فياجر ما يصلى به حين يصلت
أذل له في هجره وهو ينتمي — وأسكن بالشكوى له وهو يسكت
وما أنبت حبل منه كان في يدي — لريحان ريعان الشبيبة منبت

ومن جيد ما له من قصيدة يمدح بها مبشراً ناصر الدولة أولها:

رق الربيع ورق طبع هوائه — فانظر نضارة أرضه وسمائه
واجعل قرين الورد فيه سلافة — يحكي مشعشعها مصعد مائه
لولا ذبول الورد قلت بأنه — خد الحبيب عليه صبغ حيائه
هيهات أين الورد من خد الذي — لا يستحيل عليك عهد وفائه
الورد ليس صفاته كصفاته — والطير ليس غناؤها كغنائه

يتنفس الاصباح والريحان من ... حركات معطفه وحسن روائه
ويجول في الأرواح روح ما سرت ... رياه من تلقائه بلقائه
صوف الهوى جسمي شبيه خياله ... من فرط خفته وفرط خفائه

ومن أحسن ما يستجاد له بيتان يصف بهما خالاً، وهما :

بدا على خده خال يزينه ... فزادني شغفا فيه الى شغف
كأن حبة قلبي عند رؤيته ... طارت فقال لها في الخد منه قف

ولابن اللبانة هذا احسان كثير.

وبلغ من حال المعتمد على الله أغمات أن آثر حظياته وأكرم بناته أُلجئت الى ان تستدعي غزلاً من الناس تسد بأجرته بعض حالها وتصلح به ما ظهر من اختلالها:

فقد نظرت اليه عيون نحس ... مضت منه بمعدوم النضير
نحوس كن في عقبى سعود ... كذاك تدور أقدار القدير
وكم أحظى رضاه من حظي ... وكم شهرت علاه من شهير
زمان تنافست في الحظ منه ... ملوك قد تجور على الدهور
بحيث يطير بالأبطال ذعر ... ويلفى ثم أرجح من ثبير

وقد امتنع ابن اللبانة من قبول هدايا المعتمد، وكتب مجيباً له عن شعره :

أنا أدرى بفضلك منك اني ... لبست الظل منه في الحرور
غني النفس أنت وإن ألحت ... على كفيك حالات الفقير
تصرف في الندى حيل المعالي ... فتسمح من قليل بالكثير
أحدث منك من نبع غريب ... تفتح عن جنى زهر نضير
وأعجب منك أنك في ظلام ... وترفع للعفاة منار نور
رويدك سوف توسعني سروراً ... إذا عاد ارتقاؤك للسرير
وسوف تحلني رتب المعالي ... غداة تحل في تلك القصور

تزيد على ابن مروان عطاء بها وأنيف ثم على جرير
تأهب أن تعود إلى طلوع فليس الخسف ملتزم البدور

فراجعه المعتمد بهذه الأبيات :

رد بري بغيا علي وبرا وجفا فاستحق لوماً وشكرا

ومن شعر المعتمد في أسره :

دعا لي بالبقاء وكيف يهوى أسير أن يطول به البقاء
أليس الموت أروح من حياة يطول على الشقي بها الشقاء
فمن يك من هواه لقاء حب فان هواي من حتفي اللقاء
أأرغب أن أعيش أرى بناتي عواري قد أضر بها الحفاء
خوادم بنت من قد كان أعلى مراتبه إذا أبدوا النداء
وطرد الناس بين يدي ممري وكفهم اذا غص الفناء
وركض عن يمين أو شمال لنظم الجيش إن رفع اللواء
يعنيه أمام أو وراء اذا اختل الامام أو الوراء
ولكن الدعاء اذا دعاه ضمير خالص نفع الدعاء
جزيت أبا العلاء جزاء بر نوى براً وصاحبك العلاء
سيسلي النفس عن ما فات عمي بأن الكل يدركه الفناء

وورد عليه اغمات أبو بكر بن اللبانة ملتزماً عهد الوفاء، قاضياً ما يجب عليه من شكر النعمى، فسر المعتمد بوروده فلما أزمع ابن اللبانة على السفر استنفد المعتمد وسعه ووجه اليه بعشرين مثقالاً وثوبين وكتب اليه معها :

اليك النذر من كف الأسير فان تقبل تكن عين الشكور
تقبل ما يذوب له حياء وان عذرته حالات الفقير
ولا تعجب لخطب غض منه أليس الخسف ملتزم البدور
ورج لجبره عقبى نداه فكم جبرت يداه من كسير
وكم أعلت علاه من حضيض وكم حطت ظباه من أمير

وكم من منبر حنت اليه أعالي مرتقاه ومن سرير
زمان تزاحفت عن جانبيه جياد الخيل بالموت المبير

وكتب إليه كذلك :

وإذا ما طويت في البعض حمدا عاد لومي في البعض سرا وجهرا
يا أبا بكر الغريب وفاء لا عدمناك في المغارب ذخراً
أي نفع يجدي احتياط شفيق مت ضرا فكيف أرهب ضراً

فأجابه ابن اللبانة :

أيها الماجد السميدع عذرا صرفتى البر انما كان برا
حاش لله ان أجيع كريما يتشكى فقراً وكم سد فقرا
لا أزيد الخفاء فيه شقوقا غدر الدهر بي لئن رمت غدرا
ليت لي قوة أو آوى لركن فترى للوفاء مني سرا
أنت علمتني السيادة حتى ناهضت همتي الكواكب قدراً
ربحت صفقة أزيل برودا عن أديمي بها والبس فخراً
وكفاني كلامك الرطب نيلا كيف ألقى درا واطلب تبراً
لم تمت إنما المكارم ماتت لا سقى الله بعدك الأرض قطراً

ومما قاله المعتمد من الشعر عند موته وأمر أن يكتب على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقاً ظفرت باشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى إذا اتصلت بالخصب ان أجدبوا بالري للصادي
بالطاعن الضارب الرامي إذا قتلوا بالموت أحمر بالضرغامة العادي
بالدهر في نقم بالبحر في نعم بالبدر في ظلم بالصدر في النادي
نعم هو الحق حاباني به قدر من السماء فوافاني لميعاد
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه ان الجبال تهادى فوق أعواد
كفاك فارفق بما استودعت من كرم رواك كل قطوب البرق رعاد
يبكي أخاه الذي غيبت وابله تحت الصفيح بدمع رائح غادي

حتى يجودك دمع الطل منهمراً من أعين الزهر لم تبخل باسعاد
ولا تـزل صلـوات الله دائمـة على دفينك لا تحصى بتعـداد

وكان للمعتمد على الله ولد يلقب بفخر الدولة رشحه للملك من بعده وجعله ولي عهده، ولقبه بالمؤيد بنصر الله فعاقته الفتنة عن مراده. وحالت الأقدار بينه وبين إصداره وايراده، فما برح بفخر الدولة تغير الأيام بعد الفتنة الى أن أسلم نفسه في السوق، وتعلم من الصنائع صنعة، فمر به محمد بن اللبانة شاعر أبيه فقال في ذلك :

أذكى القلوب أسى أبكى العيون دما خطب وجدناك فيه يشبه العدما
أفراد عقد المنى منا قد انتثرت وعقد عروتنا الوثقى قد انفصما
شكاتنا فيك يا فجر الهدى عظـمت والرزء يعظم فيمن قدره عظمـا
طوقت من نائبات الدهر محنقة ضاقت عليك وكم طوقتنا نعما
وعاد كونك في دكـان قارعـة من بعد ما كان في قصر حكى إرمـا
صرفت من آلة الصـواع أنملـة لم تدر الا الندى والسيف والقلما
يـد عهـدتك للتقبيـل تبسطهـا فتستقـل الثريـا أن تكـون فمـا
يا صائغا كانت العليا تصاغ له حليا، وكان عليه الحلي منتظما
للنفخ في الصور هول ما حكاه سوى هول رأيناك فيـه تنفـخ الفحمـا
وددت اذ نظرت عيني اليك به لو ان عيني تشكو قبل ذاك عما
ما حطك الدهر لما حط من شـرف ولا تحيف من أخلاقك الكرما
لح في العلى كوكبا ان لم تلح قمـرا وقم بها ربوة ان لم تقم علما
واصبر له ايمـا أحمـدت عاقبـة من يلزم الصبر يحمد غب مالزما
والله لو أنصفتك الشهب لانكسفت ولو وفى لك دمع المزن لانسجما
بكى حديثك حتى الدرحين غدا يحكيك رهطاً وألفاظاً ومبتسما
وروضة الحسن من أزهارها عريت حزناً عليك لأن أشبتهـا شيمـا
بعد النعيم ذوي الريحان حين رأى ريحانك الغض يذوي بعدما نعما
لم يرحم الدهر فضلاً أنت حالمه من ليس يرحم ذاك الفضل لا رحما
شقيقك الصبح إن أضحى بشارقه وانت في ظلمة فالصبح قد ظلما

الأدباء في عصر بني عباد

وقد نبغ في الأدب كثيرون في عصر بني عباد وخاصة في عهد المعتمد، ومنهم :

أبو القاسم ابن الجد المعروف بالأحدب أحد رجال البلاغة، وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة، وأبو عبدالله بن أبي الخصال، وأخوه أبو مروان، وأبو محمد عبد المجيد بن عبدون، وجماعة يكثر ذكرهم، وكان من أنبههم وأكبرهم مكانة أبو عبدالله محمد بن أبي الخصال وحق له ذلك اذ هو آخر الكتاب، وأحد من انتهى اليه علم الآداب، وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى، ومن رسائله رسالة كتبها الى صديقه ابي الحسن علي بن بسام صاحب كتاب الذخيرة : وصل من السيد المسترق والمالك المستحق، وصل الله انعامه لديه، كما قصر الفضل عليه : كتابه البليغ، واستدراجه المريغ، فلولا ان يصلد زند اقتراحه، ويرقد طرف افتتاحه، وتتقبض يد انبساطه، وتغبن صفقة اغتباطه، للزمت معه مركز قدري، وصنت سريرة صدري، لكنه بنفثات سحره يسمع الصم ويستنزل العصم، ويقتاد الصعب فيصحب ويستدر الصخور فتحلب، ولما فجأني ابتداؤه، وقرع سمعي نداؤه، فرغت الى الفكر، وخفق القلب بين الأمن والحذر، فطاردت من الفقر أوابد الفقر، وشوارد عفر، تغبر في وجه سائقها ولا يتوجه اللحاق لوجيهها ولاحقها، فعلمت انها الاهابة والمهابة. والاصابة والاسترابة، حتى أيأستني الخواطر، وأخلفتني المواطر، الا زيرجا يعقب جواداً، وبهرجا لا يحتمل انتقادا، وأنى لمثلي والقريحة مزجاة، والبضاعة مرجاة، ببراعة الخطاب، وبراعة الكتاب، ولولا دروس معالم البيان، واستيلاء العفاء على هذا الشأن لما فاز لمثلي فيه قدح، ولا تحصل لي في شوقه ربح، لكنه جوخال، ومضمار جهال، وهي حكمة الله في الخلق وقسمته للرزق، وانا اعزك الله أرباً بقدر

الذخيرة عن هذه النتف الأخيرة، وأرى انها قد بلغت مداها، واستوفت حلاها، وانا اخشى القدح في اختيارك والاخلال بمختارك. وعلى ذلك فوالله ما من عادتي ان انبت ما أكتب في رسم ينقل، ولا في وضع المراتب عندنا مخاطب يحتفز له ويحتفل، وانما هو عفو فكر، ويسير ذكر، وعذراً أعزك الله فاني خططت ما خططته والنوم مغازل والقر منازل والريح تلعب بالسراج، وتصول عليه صولة الحجاج، فطوراً تسدده سنانا، وتارة تحركه لسانا، وآونة تطويه حبابة واخرى تنشره ذؤابة وتقيمه إبرة لهب وتعطفه برة ذهب، او حمة عقرب وتقوسه حاجب فتاة ذات غمزات وتسلطه على سليطه وتزيله عن خليطه وتخلعه نجماً وتمده رجماً وتسل روحه من ذبالة وتعده إلى حاله وربما نصبته اذن جواد ومسخته حدق جراد ومشقته حروف برق، فلاحظ منه للعين، ولا هداية في الطرس لليدين، والليل زنجي الأديم تبري النجوم، قد حللنا ساحه وأغرقتنا أمواجه، فلا مجال للحظ ولا تعارف الا بلفظ لو نظرت فيه الزرقاء لاكتحلت أو خضبت به الشيبة لما نصلت والكلب قد صافح خيشومه ذنبه وأنكر البيت وطنبه والتوى التواء الحباب، واستدار استدارة الحباب، وجلده الجليد وصعد أنفاسه الصعيد فحماه مباح ولا هرير ولا نباح والنار كالرحيق أو كالصديق كلاهما عنقاء مغرب، أو نجم مغرب، استوى الفصل، ولك في الاغضاء الفضل.

وكان لأبي عبدالله محمد بن أبي الخصال ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء أهل الأندلس قد جعلوه مثالاً يحتذونه ونصبوه اماماً يقتفونه، وكان أبو عبدالله وأخوه كاتبين لأمير المسلمين يوسف إلى أن آخر أمير بالمسلمين أبا مروان عن الكتابة لموجدة كانت منه عليه سببها أنه أمره وأخاه عبدالله ان يكتب عنه الى جند بلنسية حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم العدو هزيمة قبيحة وقتل منه مقتلة عظيمة، فكتب أبو عبدالله رسالته المشهورة في ذلك، وهي رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة

أن يحفظوها، أحسن فيها ما شاء، وكتب أبو مروان رسالة في ذلك الغرض أنحى فيها على المرابطين وأغلظ لهم في القول أكثر من الحاجة؛ فمن فصولها قوله : أي بني اللئيمة واعيار الهزيمة، إلام يزيفكم الناقد ويردكم الفارس الواحد، فليت لكم بارتباط الخيول ضأنا لها حالب قاعد، لقد آن أن نوسعكم عقاباً وألا تلوثوا على وجه نقابا، وان نعيدكم الى صحرائكم ونطهر الجزيرة من رحضائكم « الخ ».

فاحنق ذلك أمير المسلمين وأخره عن كتابته وقال لأبي عبدالله أخيه : كنا في شك من بغض أبي مروان المرابطين والآن قد صح عندنا فلما رأى ذلك أبو عبدالله استعفاه فأعفاه ورجع إلى قرطبة بعدما مات أخوه أبو مروان بمراكش وأقام هو بقرطبة الى أن استشهد في داره في أول الفتنة الكائنة على المرابطين :

الوزير ابن غالب :

قال الوزير الكاتب الشاعر أبو عبدالله محمد بن غالب البلنسي المعروف بالرصافي وكان مستوطناً مدينة مالقة؛ يمدح عبد المؤمن ابن علي:

لو جئت نار الهدى من جانب الطور ... قبست ما شئت من علم ومن نور
من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها ... ليلاً لسار ولم تشبب لمقمور
فيضية القدح من نور النبوة أو ... نور الهداية تجلو ظلمة النور
ما زال يقضمها التقوى بموقدها ... صوام هاجرة قوام ديجور
حتى أضاءت من الايمان عن قبس ... قد كان تحت رماد الكفر مكفور
نور طوى الله زند الكون منه على ... سقط إلى زمن المهدي مذخور
وآية كآيات الشمس بين يدي ... غزو على الملك القيسي منذور
يا دار دار أمير المؤمنين بسفـ ... ـح الطود طود الهدى بوركت في الدور

ذات العمادين من عز ومملكة ... على الأساسين من قدس وتطهير
ما كان يأتيك بالواني الكرامة عن ... قصر على مجمع البحرين مقصور
مواطئ من نبي طال ما وصلت ... فيها الخطى بين تسبيح وتكبير
حيث استقلت به نعلاه بوركتا ... فطيب كل موطوء ومعبور
وحيث قامت قناة الدين ترفل في ... لواء نصر على البرين منشور
في كف منشمر البردين ذي ورع ... على التقى وصفاء النفس مفطور
يلقاك في حال غيب من سريرته ... بعالم القدس مشهود ومحضور
تسنم الفلك من سخط المرار وقد ... نودين يا خير أفلاك العلا سيري
فسرن يحملن أمر الله من ملك ... بالله مستنصر في الله منصور
يومي له بسجود كل تحركة ... منها ويوليه حمداً كل تصرير
لما تسابقن في بحر الزقاق به ... تركن شطيه في شك وتحيير
أهز من موجه أثناء مسرور ... أم خاض من لجه أحشاء مذعور
كأنه سالك منه على وشل ... في الأرض من مهج الأسياف مقطور
من السيوف التي ذابت لسطوته ... وقد رمى نار هيجاها بتسعير
ذو المنشئات الجواري في أجرتها ... شكل الغدائر في سدل وتضفير
أعدى المياه وأنفاس الرياح لها ... ما في سجاياه من لين وتعطير
من كل عذراء حبلى في ترائبها ... ردعان : من عنبر ورد وكافور
نخالها بين أيد من مجاذفها ... يغرقن في مثل ماء الورد من جور
وربما خاضت التيار طائرة ... بمثل أجنحة الفتخ الكواسير
كأنما عبرت تختال عائمة ... في زاخر من يدي يمناه معصور
حتى رمت جبل الفتحين من كثب ... بساطع من سناه غير مبهور
لله ما جبل الفتحين من جبل ... معظم القدر في الأجيال مذكور
من شامخ الأنف في سحنائه طلس ... له من الغيم جيب غير مزرور
معبراً بذراه عن ذرى ملك ... مستمطر الكف والأكناف ممطور
تمسي النجوم على اكليل مفرقه ... في الجو حائمة مثل الدنانير
وربما مسحته من ذوائبها ... بكل فضل على فوديه مجرور

محنك حلب الأيام أشطرها … وساقها سوق حادي العير للعير
مقيد الخطو جوال الخواطر في … عجيب أمريه من ماض ومنظور
قد واصل الصمت والإطراق مفتكرا … بادي السكينة مغفر الأسارير
كأنه مكمد مما تعبده … خوف الوعيدين من دك وتسيير
أخلق به وجبال الأرض راجفة … ان يطمئن غدا من كل محذور
كفاه فضلاً ان انتابت مواطئه … نعلا مليك كريم السعي مشكور
مستنشئاً بهما ريح الشفاعة من … ثرى إمام بأقصى الغرب مقبور
ما أنفك آمل أمر منه بين يدي … يوم القيامة محتوم ومقدور
حتى تصدى من الدنيا على رمق … يستنجز الوعد قبل النفخ في الصور
مستقبل الجانب الغربي مرتقبا … كأنه باهت في جو اسمير
لبارق من حسام سله قدرا … بالغرب من أفق البيض المشاهير
إذا تألق قيسياً أهاب به … إلى شفى من مضاع الدين موتور
ملك أتى عظما فوق الزمان فما … يمر فيه بشيء غير محقور
ما عن في الدين والدنيا له أرب … إلا تأتى له من غير تعذير
ولا رمى من أمانيه إلى غرض … إلا هدى سهمه نجح المقادير
حتى كأن له في كل آونة … سلطان رق على الدنيا وتسخير
مميز الجيش ملتفاً مواكب … من كل مثلول عرش الملك مقهور
من الأولى خضعوا قسراً له وعنوا … لأمره بين منهي ومأمور
من بعد ما عاندوا أمراً فما تركوا … إذ أمكن العفو ميسوراً لمعسور
بقية الحرب فاتوها وما بهم … في الضرب والطعن سيماء لتقصير
لا ينكر القوم مما في أكفهم … بيض مفاليل أو سمر مكاسير
إذا صدعت بأمر الله مجتهدا … ضربت وحدك أعناق الجماهير
لا يذهلن لتقليل أخو سبب … من الأمور ولا يركن لتكثير
فالبحر قد عاد من ضرب العصا يبسا … والأرض قد غرقت من فور تنور
وإنما هو سيف الله قلده … أقوى الهداة يداً في دفع محذور
فان يكن بيد المهدي قائمه … فموضع الحد منه حد مشهور

والشمس ان ذكرت موسى فما نسيت فتـاه يوشـع قمـاع الجبابيـر

وكان الرصافي يوم أنشد هذه القصيدة لم تكمل له عشرون سنة وهو من مجيدي شعراء عصره لاسيما في المقاطيع، كالخمسة الأبيات فما دونها، ومن شعره، يصف نهر اشبيلية الأعظم :

ومهول الشطين تحسب أنـه متسايـل مـن درة لصفائـه
فاءت عليه مع الهجيرة سرحة صدئت لفيأتها صفيحة مائـه
فتراه أزرق في غلالة سمرة كالدارع استلقى بظل لوائـه

واجتمع مع اخوان له في بعض الأمسيات الجميلة في بستان لهم فقال :

ما مثل موضعك ابن رزق موضع روض يـرق وجـدول يتدفـع
فكأنما هـو مـن محاجـر غـادة فالحسن ينبت فـي ثـراه وينبع
وعشيـة لـبست رداء شحوبهـا والجـو بالغيـم الدقيـق مقنـع
بلـغت لنـا أمـد السـرور تألفـا والليـل نحـو فراقنـا يتطلـع
فابلل بها رمق الغبوق فقد أتى من دون قرص الشمس ما يتوقع
سقطت فلم يملك نديمك ردها فوددت يا موسى لو انك يوشع

وله يصف عشية :

محل ابن رزق جر فيه ذيولـه من المزق ساق يحسن الجر والسقيا
ذكرت عشيا فيك لا ذمّ عهـده وإن نحن لم نمتع ببهجته لقيا
ولم يعتلق بي منك عند افتراقنـا سوى عبق من مسك قينتك اللميا
وكنت أراني في الكرى وكأنني أناول كالدينار من ذهـل الدنيـا
فلما انطوى ذاك الأصيل وحسنه على ساعة من أنسنا صحت الرؤيا

وله يصف صوانا :

وذي حنين يكاد شوقا يختلس الأنفس اختلاسا
لما غدا للرياض جارا قال له المحل لامساسا

يبتسم الروض حين يبكي بأدمع ما رأين باسا
من كل جفن يسل سيفا صار له غمده رئاسا

وله وقد رأى صبيا يتباكى ويجعل من ريقه على عينيه يحكي بذلك الدموع :

عذيري من جذلان يبدي كآبة وأضلعه مما يحاوله صفر
أميلد مياس إذا قاده الصبى إلى ملح الإدلال أيده السحر
يبل مآقي زهرتيه بريقه ويحكي البكا عمدا كما ابتسم الزهر
ويوهم أن الدمع بل جفونه وهل عصرت يوما من النرجس الحمر

وقال يصف نائماً قد تصبب العرق على خده :

ومهفهف كالغصن إلا أنه سلب التثني النوم عن أثنائه
أضحى ينام وقد تحبب خده عرقا فقلت الورد رش بمائه

ابن طفيل الشاعر

وألف ابن طفيل في الطبيعيات والإلهيات وغير ذلك، فمن رسائله الطبيعيات رسالة سماها رسالة حي بن يقظان، غرضه فيها بيان مبدأ النوع الإنساني على مذهبهم وهي رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة في ذلك الفن، ومن تصانيفه الإلهيات رسالة في النفس. وكان قد صرف عنايته في آخر عمره إلى العلم الالهي ونبذ ما سواه، وكان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشريعة معظماً لأمر النبوات ظاهراً وباطناً، هذا مع اتساع العلوم الاسلامية، وكان يأخذ العطاء مع عدة أصناف من الخدمة من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة الأجناد إلى غير هؤلاء من الطوائف. وكان يقول : لو نفق عندهم علم الموسيقا لانفقته عندهم، وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له، بلغني أنه كان يقيم في القصر عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر، وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر في ذاته وأدواته، وأنشد ابنه يحيى بمدينة مراكش سنة ٦٠٣ هـ. من شعر أبيه:

ألمت وقد نام المشيح وهوّمـــا ... وأسرت إلى وادي العقيق من الحما
وجرت على ترب المحصب ذيلها ... فما زال ذاك الترب نهبا مقسما
تناولـه أيـدي التجـار لطيمـة ... ويحملـه الـداري أيـان يممـا
ولمـا رأت ألا ظـلام يجنهـا ... وأن سراهـا فيـه لـن يتكتمـا
نضت عذبات الريط عن حر وجهها ... فأبدت محيا يدهش المتوسما
فكـان تجليهـا حجـاب جمالهـا ... كشمس الضحى يعشى بها الطرف كلما
ولما التقينا بعـد طـول تهاجـر ... وقد كاد حبل الود أن يتصرما
جلت عن ثناياها وأومض بارق ... فلم أدر من شق الدجنة منهما
وساعدني جفن الغمام على البكا ... فلـم أدر أينـا كـان أسجمـا
فقالت وقد رق الحديث وأبصرت ... قـرآن أحـوال أذعـن المكتّمـا
نشدتك لا يذهب بك الشوق مذهبا ... يهون صعبا أو يـرخص مأثمـا
فأمسكت لا مستغنيا عن نوالها ... ولكن رأيت الصبر أوفى وأكرما

ومن شعره في الزهد :

يا باكيا فرقة الأحباب عن شحط ... هلاّ بكيت فراق الروح للبـدن
نور تردد فـي طيـن إلـى أجـل ... فانحاز علوا وخلى الطين للكفن
يا شد ما افترقا من بعدما اعتلقا ... أظنها هدنة كـانت على دخـن
إن لم يكن في رضى الله اجتماعهما ... فيا لها صفقة تمت على غبـن

وانشدني بعض الكتاب له :

ما كل من شم نال رائحة ... للناس فـي ذا تبايـن عـجب
قوم لهم فكرة تجـول بهـم ... بين المعاني، أولئك النـجب
وفرقة في القشور قد وقفوا ... وليس يدرون لب ما طلبـوا
لا غايـة تنجلـي لناظرهـم ... منه، ولا ينقضي لهـم أوب
لا يتعـدى امـرؤ جبلتـه ... قد قسمت في الطبيعة الرتب

ولم يزل أبو بكر هذا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار، وينبه عليهم، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم، وهو الذي نبه على ابن

الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، فمن حينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم، قال ابن رشد :

لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجدته هو وأبو بكر ابن طفيل ليس معهما غيرهما فأخذ أبو بكر يثني علي ويذكر بيتي وسلفي ويضم بفضله الى ذلك أشياء لا يبلغها قدري. فكان أول ما فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي أن قال لي : ما رأيهم في السماء — يعني الفلاسفة — أقديمة هي أم حادثة ؟ فأدركني الحياء والخوف فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالي بعلم الفلسفة. ولم أكن أدري ما قرر معه ابن طفيل، ففهم أمير المؤمنين مني الروع والحياء، فالتفت إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التي سألني عنها، ويذكر ما قاله ارسطو طاليس وأفلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له، ولم يزل يبسطني حتى تكلمت فعرف ما عندي من ذلك، فلما انصرفت أمر لي بمال وخلعة سنية ومركب، وقال ابن رشد :

« استدعاني أبو بكر بن طفيل يوماً فقال لي : سمعت اليوم أمير المؤمنين يتشكى من قلق عبارة أرسطو طاليس أو عبارة المترجمين عنه ويذكر غموض أغراضه ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها ويقرب من أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لقرب مأخذها على الناس، فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل، وإني لأرجو أن تفي به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نزوعك إلى الصناعة، وما يمنعني من ذلك إلا ما تعلمه من كبر سني واشتغالي بالخدمة وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي منه، قال أبو الوليد ابن رشد : فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكيم أرسطو طاليس في جزء واحد في نحو من مائة وخمسين ورقة ».



الباب الثالث

النثر الأندلسي

تمهيد

النثر الأدبي في الأندلس

النثر الفني من مظاهر الحضارة والرقي العقلي، وأثر من آثار العناية باللغة، يقصد فيه إلى جودة العبارة وسلاسة الأسلوب، حتى يجد القارئ من اللذة مثلما يجد من يستمع إلى الشعر الجيد، فهو من مظاهر الجمال، وقد اقتصر في القرن الأول من دخول العرب الأندلس على ما تقتضيه الأحوال من الخطب والرسائل الإدارية والسياسية، لضبط أمور الدولة وإشعال الحماسة في أرواح الجند؛ لأن ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية لم يكن قد استقر واتسع، فلم يساعد على نمو ملكة الكتابة الفنية في الموضوعات الخيالية والاجتماعية، فكانت الكتابة عربية في موضوعاتها وعباراتها الجزلة، خالية من الصنعة والتكلف.

ثم اتسع المجال للنثر الفني، فشمل الموضوعات المعروفة لدي المشارقة؛ وابتكر الأندلسيون ما لم يكن شائعاً هناك، فشملت رسائلهم مدح الخليفة والتهنئة، والشوق والعتاب، والوصف : كوصف المحافل والمجالس والرياض والأزهار، والأنهار، والكواكب، والتعازي، والحكايات، والقصص، والمناظرات الخيالية بين بلدان الأندلس، أو بين السيف والقلم، وكتبوا في التوسل إلى الله وإلى الرسول، والتصوف والزهد والتقوى.

أنواع النثر الأندلسي :

للنثر الفني الأندلسي أنواع كثيرة أهمها :

١ ــ نثر الدواوين : وهو ما يصدر عن الملوك والأمراء في تصريف شئون الدولة وأعمالها، أو يصدر عن الكاتب بإرشادهم وتوجيههم، وكانوا إذا علت لديهم مرتبة الكاتب وناب عن الأمير أو الخليفة لقب بالحاجب وهو أشرف الألقاب في الدولة، وكان اسم الوزير يطلق على كل من يجالس الملوك ويختص بهم، أما الذي ينوب عن الملك في سياسة الدولة فكان يلقب « بذي الوزارتين » ويكون غالباً من أهل الأدب.

٢ ــ نثر الرسائل الخلقي والاجتماعية. ويتناول البحث في شئون الناس وأحوالهم، وما يجب أن يكونوا عليه من خلق فاضل وعدل، ومحبة وسلام.

٣ ــ نثر الرسائل الأدبية : وهو ما يصدر من الكتاب والأدباء، متناولاً أغراض الشعر من مدح وعتاب وتهنئة ورثاء ووصف ونحوها، ومصوراً عواطف الناس وأهواءهم في حياتهم الخاصة والعامة.

٤ ــ النثر الخيالي : ويقصد به الترفيه عن النفس بما يلذ قراءته من القصص الموضوعة، وهو ما نسميه الآن النثر الروائي. وهو أنواع : فمنه ما يتناول شرح الحقائق في أسلوب قصصي خيالي، كرسالة ابن شهيد المسماة بالتوابع والزوابع، تناول فيها جمهرة من الأدباء، فعرض صوراً من شعرهم ونقدها، ومنه ما يتناول الأمور الخيالية كالمناظرة بين السيف والقلم، والمناظرة بين بلدان الأندلس، ومنه ما يتناول الموضوعات العامة الاجتماعية والفلسفية على شكل قصصي.

٥ ــ النثر العلمي : وإن كان الأدباء لا يعدونه من النثر الفني، ولكن الأندلسيين لما أبدعوا في التفنن في أساليبه، ونمقوا عباراته، صح

أن يعد عندهم من النثر الفني، وكتب : قلائد العقيان، ومطمح الأنفس، ونفح الطيب تؤيد ذلك.

أسلوب النثر :

كان الأندلسيون يقتفون أثر المشارقة في أساليب الكتابة، لأنهم رأوهم أئمتهم في صناعة الكلام، وكان النثر أول عهد العرب بالأندلس سهلاً جزلاً لا تكلف فيه، ولا أثر للصناعة اللفظية إلا ما يجيء منها عفواً. ولما ظهر ابن العميد وحلبته في الشرق، أخذ عنهم الأندلسيون طريقتهم في الكتابة فغلب على نثرهم الصناعة اللفظية، والتزم فيه السجع، حتى أصبح من خواص النثر الأندلسي، وملأوه بالتشبيهات والاستعارة والكناية وأشياء من المحسنات البديعية.

ولقد امتازت الكتابة الأندلسية بمميزات اقتضتها طبيعة البلاد وأحوال أهلها، وما حل بدولها أخيراً. منها :

١ ــ كثرة الوصف لمشاهد الكون مما قد يخرج الكاتب عن الغرض الذي يكتب فيه.

٢ ــ غلبة الخيال الشعري على معانيهم.

٣ ــ كثرة المناظرات والمحاورات الخيالية بين السيف والقلم والربيع والخريف والمدن والأنهار والأزهار[1].

٤ ــ التزام الأطناب في الرسائل السلطانية.

٥ ــ قلة الغلو والمبالغة في تعظيم الملوك والأمراء، كما كان المشارقة يفعلون.

٦ ــ وقد ظل النثر الأندلسي محافظاً على عربيته وفصاحته، لم تفسده العجمة إلى جلاء المسلمين عنها.

---

(١) كما في رسالة ابن برد الأصغر في تفضيل الورد (راجع ١٥٠ــ١٦١ من كتاب بلاغة العرب في الأندلس).

الفصل الأول

صور من النثر الأندلسي

— ١ —

أ ـــ وصف عبد الرحمن الداخل فراره من بطش العباسيين فقال : « إنني لجالس يوماً في ظلمة بيت تواريت فيه، لرمد كان بي، وابني سليمان، بكر ولدي، يلعب قدامي، وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها، إذ دخل الصبي من باب البيت فازعاً باكياً، فأهوى إلى حجري فجعلت أدفعه لما كان بي، ويأبى إلا التعلق وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجت لأنظر، فإذا بالروع قد نزل بالقرية، ونظرت فإذا بالرايات السود منحطة، وأخ لي حدث السن كان معي يشتد هارباً، ويقول لي : « النجاء يا أخي ! فهذه رايات المسودة » فضربت بيدي الى دنانير تناولتها، ونجوت بنفسي، والصبي أخي معي، وأعلمت أخواتي بمتوجهي ومكان مقتصدي، وأمرتهن أن يلحقنني ومولاي بدر معهن، وخرجت فكمنت في موضع ناء عن القرية، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار، فلم تجد أثراً، ومضيت، ولحقني بدر، فأتيت رجلاً من معارفي بشط الفرات، فأمرته أن يبتاع لي دواب وما

يصلح لسفري، فدل على عبد سوء له، فما راعنا إلا جلبة الخيل تحفزنا، فاشتددنا في الهرب، وسبقناها الى الفرات، فرمينا فيه بأنفسنا، والخيل تنادينا من الشط : « ارجعا ! لا بأس عليكما »، فسبحت حاثاً لنفسي وكنت أحسن السبح، وسبح الغلام أخي، فلما قطعنا نصف الفرات، قصر أخي ودهش، فالتفت إليه لأقوي من قلبه، وإذا هو قد أصغى إليهم، وهم يخدعونه عن نفسه، فناديته « تقتل يا أخي ! إلي إلي ! » وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشي الغرق، فاستعجل الانقلاب نحوهم، وقطعت أنا الفرات، وبعضهم قد هم بالتجرد للسباحة في أثري، فاستكفه أصحابه عن ذلك، فتركوني، ثم قدموا الصبي، أخي، الذي صار إليهم بالأمان، فضربوا عنقه، ومضوا برأسه، وأنا أنظر إليه، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتملت فيه ثكلا ملأني مخافة، ومضيت إلى وجهي أحسب أني طائر، وأنا ساع على قدمي، فلجأت إلى غيضة أشبة، فتواريت فيها حتى انقطع الطلب، ثم خرجت هارباً أروم المغرب، حتى وصلت إلى افريقية.

ب ــ وروي أن الداخل كان في بعض مجالسه، فمثل بين يديه رجل من جند قنسرين يستجديه، فقال له : « يا ابن الخلائق الراشدين، والسادة الأكرمين إليك فررت، وبك عذت من زمن ظلوم، ودهر غشوم، قلل المال، وكثر العيال، وشعث الحال، فصير إلى نداك المآل، وأنت ولي الحمد والمجد، والمرجو للرفد ».

فأجابه عبد الرحمن مسرعاً :

« قد سمعنا مقالتك، وقضينا حاجتك، وأمرنا بعونك على دهرك، على كرهنا لسوء مقالك، فلا تعودن ولا سواك لمثله، من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة والإلحاح في الطلبة، وإذا ألم بك خطب، أو حز بك أمر، فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك، كيما تستر عليك

خلتك، وتكف شمات العدو عنك بعد رفعك لها إلى مالكك مالكنا عز وجهه ــ باخلاص الدعاء، وصدق النية ».

قالوا : « وأمر له بجائزة حسنة، وخرج الناس يعجبون من منطقه، وبراعة أدبه. وكف فيما بعد ذوو الحاجات عن مقابلته بها شفاها في مجلسه ».

جـ ــ وحدث بعض موالي عبد الرحمن الخاصين به، أنه دخل عليه، اثر قتله ابن أخيه بن الوليد[1] وهو مطرق شديد الغم، فرفع رأسه اليه وقال :

« ما عجبي إلا من هؤلاء القوم سعينا فيما يضجعهم في مهاد الأمن والنعمة، وخاطرنا فيه بحياتنا، حتى إذا بلغنا منه مطلوبنا، ويسر الله أسبابه، أقبلوا علينا أمام السيوف، ولما أويناهم وشاركناهم فيما أفردنا الله به حتى أمنوا ودرت عليه أخلاف النعم، هزوا أعطافهم، وشمخوا بآنافهم، وسموا إلى العظمى؛ فنازعونا فيما منحنا الله، فخذلهم بكفرهم النعم، إذ أطلعنا على عوراتهم، فعاجلناهم قبل أن يعاجلونا، وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا في البريء منهم، وساء أيضاً ظنه فينا، وصار يتوقع من تغييرنا عليه، ما نتوقع نحن منه، وإن أشد ما علي في ذلك أخي؛ والد هذا المخذول، كيف تطيب لي نفسي بمجاورته، بعد قتل ولده، وقطع رحمه، أم كيف يجتمع بصري مع بصره؛ اخرج إليه الساعة

(١) كان الداخل بعد أن استتب ملكه بالأندلس، شديد الارتياح إلى وفود أقاربه من بني مروان، ليشاهدوا ما أنعم الله عليه فتوافدوا عليه، وكان منهم اليزيدي، وعبيدالله بن ابان بن معاوية وهو ابن أخي الداخل، وكانا تحت تدبير يبرمانه في طلب الأمر، فوشى بهما أحد موالي الثاني، ومما قاله بعد قتلهما : « أعظم ما أنعم الله به علي، بعد تمكني من هذا الأمر، القدرة على إيواء من يصل إلي من أقاربي، والتوسع في الإحسان إليه، وكبري في أعينهم وأسمائهم ونفوسهم، بما منحني الله من هذا السلطان الذي لا منة علي فيه لأحد غيره ».

فاعتذر إليه، وخذ خمسة آلاف دينار وادفعها إليه واعزم عليه في الخروج عني من هذه الجزيرة، إلى حيث شاء من بر العدوة[1] ».

د ــ وللداخل الخليفة حين اشتد الكرب بين يديه، يوم حربه مع الفهري :

« هذا اليوم هو أساس ما يبنى عليه، إما ذل الدهر، وإما عز الدهر، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون، تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون.

هـ ــ وله خطبة حين عرض عليه إمارة الأندلس وفد من السكان أتي معه قائلاً :

« أجمع المسلمون الصادقون على انتخابك أمير الجزيرة، فيسعك أن تبني فيها ملكاً مشيد الأركان، موطد الدعائم، على أساس أقوى من الجبال، معتمداً على عزائمهم القوية، وطاعتهم الصادقة، لا ريب أن ستجد مقاومة وبعض خطر، ولكنك لست وحدك بل بجانبك فتيان أشداء من أبناء من فتحوا الغرب، وشعوب ترغب فيك وتدعوك إليها، ونحن جميعاً نهب إلى الوغى، لنبذل الأرواح في سبيل ارتقائك إلى عرش الإمارة التي تلقى مقاليدها اليك، وتحفظ بنيانها من أن يثلم ».

فسكت عبد الرحمن هينهة يتوقع منه أن يتمم خطابه، لكنه شعر

---

(١) قال « فلما وصلت إلى أخيه، وجدته أشبه بالأموات منه بالأحياء، فآنسته وعرفته ودفعت له المال، وأبلغته الكلام، فتأوه وقال : « ان المشؤوم لا يكون بليغاً في الشؤم حتى يكون على نفسه وعلى سواه، وهذا الولد العاق الذي سعى في حتفه، قد سرى ما سعى فيه إلى رجل طلب العافية وقنع بكسر بيت في كنف من يحمل عنه معسرة الزمان وكله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا مرد لما حكم فيه به وقضاه في الحركة إلى بر العدوة »؛ قال : فلما رجعت إلى الأمير، فأعلته بقول قال : « إنه نطق بالحق، ولكن لا يخدعني القول عما في نفسه، والله لو قدر أن يشرب دمي ما عف عنه لحظة، فالحمد لله الذي أظهرنا عليهم بما نويناه فيهم، وأذلهم بما نووه فينا ».

ان الوفد ينتظر إجابته فخطبهم بقوله : أيها السراة الأمجاد ! إجابة لرغائبكم، وسعياً وراء أمانيكم في إصلاح شؤون مسلمي أسبانيا، أذهب معكم، باذلاً النفس، في سبيل الدفاع عن هذه الغاية الحميدة، فإذا صدقت عزائمكم ودامت طاعتكم وفتح الله لنا باب الفوز، رأيتم مني أخاً صدقاً يقاسمكم الشقاء والهناء ويعلم الله أني لا أخشى الشدائد ولا أهوال الحروب، ولا أرهب الموت الأحمر فقد عركني الدهر وعركته، وكثيراً ما ركبت متون الأخطار على حداثة سني، وإذا كان ما يدعونني اليه هو رغبة مسلمي الأندلس الأشراف، فأنا ألبي نداءهم وأقبل أن أكون أميرهم، وحامي ذمارهم إن شاء الله ».

و ــ وكتب إلى بدر مولاه :

« وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك، وسوء خطلك، وما فيها من إساءة أدبك ولئيم معتقدك، والعجب مني أنك ما أردت أن تبني لنفسك عندنا مقاماً، بل أتيت بما يهدم كل مقام مشيد. فما تمن به ــ مما قد أضجر الأسماع تكراره، وقدحت النفوس إعادته، استخرنا الله من أجله. على أن أمرنا استئصال مالك، وزدنا في هجرك وإبعادك، وهضنا جناح أعوانك، فعلّ ذلك يقمع منك ويردعك، حتى يبلغ بك ما نريد ــ إن شاء الله ــ فنحن أولى بتأديبك من كل أحد، إذ شرك مكتوب في مثالبنا؛ وخيرك معدود في مناقبنا.

ز ــ وبعث إليه بدر برسالته فكتب يجيبه :

« إن لك من الذنوب المترادفة، ما لو سلب معه روحك؛ لكان بعض ما استوجبته، ولا سبيل الى رد مالك؛ فإن تركك بمعزل، في بلهنية الرفاهية وسعة ذات اليد، والتخلي من شغل السلطان، أشبه بالنعمة منه بالنقمة، فاياًس من ذلك، فإن اليأس مريح ».

ح ــ وكتب اليه بدر يستعطفه، فكان جوابه عليه أن أمر بنفيه

عن قرطبة إلى أقصى الثغر، وكتب له في ظهر رقعته :

« لتعلم أنك لم تزل بمقتك، حتى ثقلت على العين طلعتك، وزدت إلى أن ثقل على السمع كلامك، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا بإقصائك الى أقصى الثغر، فبالله إلا ما أقصرت، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق بك معي الدنيا. ورأيتك تشكو بفلان، وتتألم من فلان وما تقولوه عليك، وما لك عدو أكبر من لسانك، فما طاح بك غيره، فاقطعه قبل أن يقطعك ».

— ٢ —

أ ـــ واعتذر عبدالله بن محمد (٢٧٥ـــ٣٠٠هـ) يوماً الى بعض مواليه فقال له عبدالله :

« إن مخائل الأمور لتدل على خلاف قولك، وتنبئ عن باطل تنصلك، ولو أقررت بذنبك، واستغفرت لجرمك، لكان أجمل بك وأسدل لستر العفو عليك ».

فقال : « قد اشتمل الذنب علي، وحاق الخطأ بي، وإنما أنا بشر، وما يقوم لي عذر ! ».

فأجابه عبدالله : « مهلاً عليك ! رويداً بك ! تقدمت لك خدمة، وتأخرت لك توبة، وما للذنب بينهما مدخل، وقد وسعك الغفران ».

ب ـــ وكتب إلى بعض عماله :

« أما بعد، فلو كان نظرك فيما خصصناك به، واهتبالك به، على حسب متواترك بالكتب، واشتغالك بذلك على مهم أمرك، لكنت من أحسن رجالنا غناء، وأتمهم نظراً، وأفضلهم حزماً، فأقلل من الكتاب

فيما لا وجه له، ولا نفع فيه، واصرف همتك، وفكرتك، وعنايتك، إلى ما يبدو فيه اكتفاؤك، ويظهر فيه غناؤك ــ إن شاء الله ! ».

ــ ٣ ــ

أ ــ ولما توفي السلطان أبو عبدالله محمد بن يوسف أول ملوك بني الأحمر في منتصف جمادى الثاني من عام أحد وسبعين وستمائة دفن بالمقبرة الجامعة العتيقة بسنام السبيكة ، وكتب على قبره منقوشاً في الرخام :

« هذا قبر السلطان الأعلى. عز الإسلام، جمال الأنام، فخر الليالي والأيام، غياث الأمة، غيث الرحمة. قطب الملة، نور الشريعة، حامي السنة سيف الحق. كافل الخلق، أسد الهيجاء، حمام الأعداء، قوام الأمور، ضابط الثغور، كاسر الجيوش، قامع الطغاة، قاهر الكفرة والبغاة، أمير المؤمنين، علم المعتدين، قدوة المتقين، عصمة الدين، شرف الملوك والسلاطين، الغالب بالله، المجاهد في سبيل الله، أبي عبدالله محمد ابن يوسف بن نصر الأنصاري، رفعه الله الى أعلى عليين، وألحقه بالذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء والصالحين، ولد رضي الله عنه وآتاه رحمة من لدنه عام أحد وتسعين وخمسمائة. وكانت وفاته يوم الجمعة بعد صلاة العصر التاسع والعشرين لشهر جمادى الآخرة عام أحد وسبعين وستمائة . فسبحان من لا يفنى سلطانه، ولا يبيد ملكه ولا ينقضي زمانه، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم :

هذا محل العلى والمجد والكرم ... قبر الإمام الهمام الطاهر العلم
لله ما ضم هذا اللحد من شرف ... جم ومن شيم علوية الهمم
فالبأس والجود ما تحوي صفائحه ... لا بأس عنترة ولا ندى هرم
مغني الكرامة والرضوان يعمره ... فخر الملوك الكريم الذات والشيم

مقامه في كلا يومي ندى ووغى كالغيث في المحل أو كالليث في الأجم
مآثـر تلـيت آثارهـا سـوراً تقر بالحق فيها جملة الأمم
كأنه لم يسر في جحفل لجب تضيق عنه بلاد العرب والعجم
ولم يغاد العدى منه ببادرة يفتر منها الهدى عن ثغر مبتسم
ولم يجهز لهم خيلاً مضمرة لا تشرب الماء إلا من قليب دم
ولم يقم حكم عدل في مسايسة تأوي رعيته منه إلى حرم
من كان يجهل ما أولاه من نعم وما حماه لدين الله من حرم
فتلك آثاره في كل مكرمة أبدى وأوضح من نار على علم
لا زال تهمى على قبر تضمنه سحائب الرحمة الوكافة الديم »

ب ــ وكتب على قبر السلطان نصر أحد ملوك بني الأحمر (٧١١ــ٧١٣هـ).

هذا قبر السلطان الفاضل، الإمام العادل، علم الأتقياء، أحد الملوك الصلحاء، المخبت[1] الأواه، المجاهد في سبيل الله، الرضي الأروع، الأخشى لله الأخشع، المراقب لله في السر والإعلان، المعمور الجنان بذكره واللسان السالك ــ في سياسة الخلق وإقامة الحق ــ منهج التقوى والرضوان، كافل الأمة بالكرامة والحنان، الفاتح لها ــ بفضل سيرته وصدق سريرته ونور بصيرته، أبواب اليمن والأمان، والمنيب الأواب، العامل بكل ما يجده نوراً مبيناً يوم الحساب، ذي الآثار السنية، والأعمال الطاهرة العلية، القائم في جهاد الكفار بماضي العزم وخالص النية، مقيم قسطاس العدل منير منهج العلم والفضل، حامي الذمار، وناصر دين المصطفى المختار، المقتدي بأجداده الأنصار، المتوسل بما أسلفوه من أعمار البر والجهاد ورعاية البلاد والعباد إلى الملك الغفار، أمير المسلمين وظهير المؤمنين وقامع المعتدين، المنصور بفضل الله أبي عبدالله ابن

(١) المطيع.

أمير المسلمين السلطان الأعلى، إمام الهدى، غمام الندى، محيي السنة، ومعز الملة المجاهد في سبيل الله، الناصر لدين الله أبي عبدالله ابن أمير المسلمين الغالب بالله أبي عبدالله بن يوسف بن نصر، كرم الله مثواه، ونعمه برضاه.

ولد رضي الله عنه يوم الأربعاء الثالث لشعبان المكرم من عام خمسة وخمسين وستمائة، وتوفي قدس الله روحه وبرد ضريحه ضحوة يوم الاثنين الثالث لشوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة، رفعه الله إلى أعلى منازل أوليائه الأبرار، وألحقه بأئمة الحق الذين لهم عقبى الدار. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً ».

جـ ــ وكتب في الجانب الآخر هذا الشعر :

رضى الملك الأعلى يروح ويغتدى ... على قبر مولانا الإمام المؤيد
مقر العلى والملك والبأس والندى ... فقدس من مغنى كريم ومشهد
ومثوى الهدى والفضل والعدل والتقى ... فبورك في مثوى زكي وملحد
فيا عجباً طود الوقار جلالة ... ثوى تحت أطباق الصفيح المنضد
وواسطة العقد الكريم الذي له ... مآثر مجد بين مثنى وموحد
محمد الأرضي سليل محمد ... إمام الهدى نجل الإمام محمد
فيا نخبة الأملاك غير منازع ... ويا علم الأعلام غير مفند
بكتك بلاد كنت تحمي ثغورها ... بعزم أصيل أو برأي مسدد
وكم معلم للدين أوضحت رسمه ... بنى لك في الفردوس أرفع مصعد
كأنك ما سست البلاد وأهلها ... بسيرة ميمون النقيبة مهتد
كأنك ما قدت الجيوش إلى العدى ... فصيرتهم نهب القنا المتقصد[1]
وفتحت من أقطارهم كل مبهم ... افتحت بها باب النعيم المخلد

---

(١) في نسخة الاسكوريال : « رهن القنا المتقصد ».

كأنك ما أنفقت عمرك في الرضا بتجديد غزو أو بتشييد مسجد
وإنصاف مظلوم وتأمين خائف وإصراخ مذعور واسعاف مجتد
كأنك ما أحييت للحق سنة تجادل عنها بالحسام المهند
فإن تجهل الدنيا عليك وأهلها فذاك ثواب الله يلقاك في غد
تعوضت ذخراً من مقام خلافة مقام منيب خاشع متعبد
وكل الورى من كان أو هو كائن صريع الردى إن لم يجز فكأن قد
فلا زال جاراً للرسول محمد بدار نعيم في رضا الله سرمد
وهذي القوافي قد وفيت بنظمها فيا ليت شعري هل تصيخ لمنشد

— ٤ —

أ — ومن الرسالة الجدية لابن زيدون[1] وهي التي كتبها لأبي الحزم بن جهور أمير قرطبة وهو في سجنه يستعطفه :

« يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتمادي عليه، واعتدادي به، ومن أبقاه الله تعالى ماضي حد العزم، واري زند الأمل، ثابت عهد النعمة. إن سلبتني — أعزك الله — لباس إنعامك، وعطلتني من حلي إيناسك، وأظمأتني إلى برود[2] إسعافك، ونفضت بي كف حياطتك ؟ وغضضت عني طرف حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصم ثنائي عليك، وأحس الجماد باستحمادي إليك، فلا غرو قد يغص[3] بالماء شاربه، ويقتل الدواء المستشفي به، ويؤتى

(١) هو ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبدالله بن زيدون القرطبي، وزير آل جهور بقرطبة ثم آل عباد بأشبيلية، وصاحب الرسالتين : الجدية والهزلية، توفي سنة ٤٦٣هـ.
(٢) البرود : الماء البارد، أي إسعافك الذي هو كالماء البارد في ارووائه للغليل.
(٣) يغص : يشرق.

الحذر من مأمه، وتكون منية المتمني في أمنيته، والحين[1] قد يسبق جهد الحريص:

كل المصائب قد تمر على الفتى   وتهون غير شماتة الحساد

وإني لأتجلد، وأرى الشامتين أني لريب الدهر لا أتضعضع، فأقول: هل أنا إلا يد أدماها سوارها، وجبين عض به إكليله، ومشرفي[2] ألصقه بالأرض صاقله، وسمهري[3] عرضه على النار مثقفه، وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول:

فقسا ليزدجروا، ومن يك حازماً   فليقس أحياناً على من يرحم؟

هذا العتب محمود عواقبه، وهذه النبوة[4] غمرة ثم تنجلي، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع[5] ولن يريبني من سيدي أن أبطأ سيبه[6]، أو تأخر غير ضنين غناؤه، فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها، وأثقل السحائب مشياً أحفلها، وأنفع الحياة ما صادف جدباً، وألذ الشراب ما أصاب غليلاً، ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب. له الحمد على اهتباله[7] ولا عتب عليه في إغفاله:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحدا   فأفعاله اللائي سررن ألوف

وأعود فأقول: ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك، والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك؟ والتطاول الذي لم يستغرقه تطولك[8]،

---

(١) الحين: الهلاك.

(٢) المشرفي: السيف ينسب إلى مشارف الشام.

(٣) السمهري: الرمح ينسب إلى سمهر وهو صانع للرماح وزوجه ردينة كانت تعمل معه السلاح وإليهما تنسب الرماح.

(٤) النبوة: الجفوة.

(٥) تقشع: تنكشف وتزول.

(٦) السبب: العطاء.

(٧) الاهتبال: الاغتنام، أي اغتنام معروفه.

(٨) التطول: التكرم.

والتحامل الذي لم يف به احتمالك؟ ولا أخلو من أن أكون بريئاً، فأين العدل؟ أو مسيئاً، فأين الفضل؟

إلا يكن ذنب فعدلك واسع او كان لي ذنب ففضلك أوسع

وهل لبس الصباح إلا برداً طرزته بفضائلك[1]؟ وتقلدت الجوزاء إلا عقداً فصلته بمآثرك؟ واستملى الربيع إلا ثناء ملأته بمحاسنك؟ وبث المسك إلا حديثاً أذعته في محامدك؟ ما يوم حليمة[2] بسر! وإن كنت لم اكسك سليباً، ولا حليتك عطلاً، ولا وسمتك غفلاً، بل وجدت آجراً وجصاً فبنيت ومكان القول ذا سعة فقلت.

ب ــ وقال الفتح بن خاقان في كتابه قلائد العقيان في ترجمة أبي الفضل بن حسداي[3]:

ولما أعرس المستعين بالله ببنت الوزير الأجل أبي بكر بن عبد العزيز احتفل أبوه المؤتمن بالله في ذلك احتفالاً شهره، وأبدع فيه إبداعاً راق من حضره وبهره، فإنه أحضر فيه من الآلات المبتدعة، والأدوات المخترعة، ما بهر الألباب، وقطع دون معرفتها الأسباب، واستدعى إليه جميع أعيان الأندلس من دان وقاص، ومطيع وعاص، فأتوه مسرعين، ولبوه متبرعين وكان مدير تلك الإراغة[4] ومدبرها، ومنشئ مخاطباتها ومحبرها، الوزير الكاتب أبو الفضل، وصدرت عنه في ذلك الوقت كتب ظهر إعجازها، وبهر اقتضابها وإيجازها، فمن

---

(١) يبالغ في أن بياض الصبح مستعار من مشهور ثنائه عليه، وكذلك العبارات الآتية.

(٢) هذا مثل يضرب للأمر المتعالم المشهور، وحليمة هذه، هي بنت الحارث بن أبي شمر الغساني وجه أبوها جيشاً إلى المنذر بن ماء السماء فضمختهم بالطيب جميعاً، فقيل: ما يوم.. الخ.

(٣) ابن حسداي: كان وزيراً للمؤتمن والمستعين من ملوك الطوائف، وكان يهودياً وأسلم، وله كتابة لينة موجزة تظهر عليها مسحة الفلسفة.

(٤) الإراغة: الإرادة والطلب والدعوة.

ذلك : ما خاطب به صاحب المظالم أبا عبد الرحمن بن طاهر : « محلك أعزك في طي الجوانح ثابت وإن نزحت الدار، وعيانك في أحناء الضلوع باد وإن شط المزار، فالنفس فائزة منك بتمثيل الخاطر بأوفر الحظ، والعين نازعة إلى أن تمتع من لقائك بظفر اللحظ، فلا عائدة أسبغ برداً، ولا موهبة أسوغ ورداً، من تفضلك باللحوق إلى مأنس يتم بمشاهدتك التئامه، ويتصل بمحاضراتك انتظامه، ولك فضل الإجمال، بالإمتاع عن ذلك بأعظم الآمال، وأنا (أعزك الله) على شرف سؤددك حاكم، وعلى مشرع سنائك حائم. وحسبي ما تتحققه من نزاعي وتشوقي، وتتيقنه من تطلعي وتتوقي. وقد تمكن الارتياح باستحكام الثقة، واعترض الاقتراح، بارتقاب الصلة. وأنت وصل الله سعدك بسماحة شيمتك، وبارع كرمك، تنشئ للمؤانسة عهداً، وتوري بالمكارمة زنداً، وتقتضي بالمشاركة شكراً حافلاً وحمداً. لا زلت مهنأ بالسعود المقتبلة، ومسوغاً اجتلاء غرر الأماني المتهللة بمنه ».

جـ ــ وهذا فصل للأديب أبي عامر بن عقال[1] :

كتب به عن الأمير إبراهيم يصف اجتياز أمير المسلمين البحر سنة خمس عشرة وخمسمائة : في الساعة الثانية من يوم الجمعة، كان جوازه (أيده الله تعالى) من مرسى جزيرة طريف على بحر ساكن قد ذل بعد استصعابه، وسهل بعد أن رأى الشامخ من هضابه، وصار حيه ميتاً، وهدره صمتاً، وجباله لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وضعف تعاطيه، وعقد السلم بين موجه وشاطيه، فعبر آمناً من سطوته، متملكاً لصهواته، على جواد يقطع الجروف لمحا، ويكاد يسبق الريخ سبحا، لم يحمل لجاماً ولا سرجاً، ولا عهد غير اللجة الخضراء مرجاً؛ عنانه في

(١) كان أديباً شاعراً كاتباً من كتاب بني قاسم من ملوك الطوائف، ولما ملك المرابطون الأندلس وأزالوا ملك الطوائف اتصل بالأمير ابراهيم بن يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين، فكان كاتب إنشائه.

رجله[1]، وهدب العين يحكي بعض شكله، فلله دره من جواد، له جسم وليس له فؤاد، يخرق الهواء ولا يرهبه، ويركب الماء ولا يشربه.

ـ ٥ ـ

صور من النثر العلمي :

أ ـ باب ما يهمز فيكون له معنى، فإذا لم يهمز كان له معنى آخر ـ من كتاب « المخصص[2] » :

يقال : قد روأت في الأمر، وقد رويت رأسي بالدهن. وقد تملأت من الطعام والشراب، وقد تمليت العيش : إذا عشت ملياً أي طويلاً، وتقول : قد تخطأت له في هذه المسألة، وقد تخطيت القدم، لأنه من الخطوة، وقد قرأت القرآن وما قرأت الناقة سلاقط، أي لم تلق ولداً، أراد أنها لم تحمل، وقد قريت الضيف وقد سوأت عليه ما صنع، إذا قلت له : أسأت، وقد سويت الشيء. والعرب تقول : إن أصبت فصوبني، وإن أخطأت فخطئني، وإن أسأت فسوئ علي. وقد خبأ الشيء يخبؤه خبئاً، وقد خبت النار خبوا : إذا ذهب لهبها، وقد برأت من المرض أبرأ برءاً، وقد بريت القلم، وقد بارأت شريكي ـ إذا فارقته ـ وقد بارأ الرجل امرأته، وباريت فلاناً إذا كنت تفعل ما يفعل، وفلان يباري الريح سخاء.

---

(١) رجل السفينة : سكانها (دفتها) أي لأن له مجاديف متراصة متقاربة من الجانبين كأنها الأهداب.

(٢) صاحبه أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي الضرير المعروف بابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨هـ من ٦٠ سنة.

ب ــ افتتاح كتاب :

قال الشيخ الفقيه الإمام العالم المؤرخ ذو الوزارتين الكاتب البارع الأديب : لسان الدين أبو عبدالله محمد بن الخطيب السلطاني رحمه الله (٧١٣ــ٧٧٦ــ) في مقدمة كتابه اللمحة البدرية في الدولة النصرية :

الحمد لله الذي جعل الأزمنة كالأفلاك، ودول الأملاك كأنجم الأحلاك، تطلعها من المشارق نيرة، وتلعب بها مستقيمة أو متحيرة، ثم تذهب بها غائرة متغيرة[١]. السابق عجل، وطبع الوجود مرتجل، والحي من الموت وجل، والدهر لا معتذر ولا خجل؛ بينما ترى الدست عظيم الزحام، والموكب شديد الالتحام؛ والوزعة تشير، والأبواب يقرعها البشير، والسرور قد شمل الأهل والعشير؛ والأطراف يلثمها الأشراف، والطاعة يشهرها الاعتراف، والأموال يحوطها العدل أو يبيحها الإسراف؛ والرايات تعقد، والأعطيات تنقد؛ إذ رأيت الأبواب مهجورة، والدسوت لا مؤملة ولا مزورة؛ والحركات قد سكنت، وأيدي الإدالة قد تمكنت. فكأن لم يسمر سامر، ولا نهى ناه ولا أمر آمر. ما أشبه الليلة بالبارحة، والغادية بالرائحة « إنما مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح ».. فالويل لمن يترك حسنة تنفعه، أو ذكراً جميلاً يرفعه. فلقد عاش عيش البهيمة النهيمة، وأضاع جواهر عمره الرفيعة القيمة، في السبل غير المستقيمة، وبذر أمانته سبحانه في المساخط[٢] العقيمة. وطوبى لمن عرف المصير، وغافص الزمان القصير[٣]، في اكتساب محمدة تبقى بعده شهاباً، وتخليد منقبة تفيده ثناء وثواباً، فالذكر الجميل كلما تخلد استدعى الرحمة وطلبها؛ واستدنى المغفرة واستجلبها، فلمثله فليعمل العاملون، وغايته فليأمل

(١) الغائرة : المترددة. وفي النسخة المراكشية : غائرة.

(٢) في نسخة الاسكوريال : المساقط.

(٣) غافصه : أخذه على غرة.

الآملون، « والدار الآخرة خير لو كانوا يعلمون ».. والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي شرح حقارة الدنيا على الله وبين، وحدد[1] البلاغ منها وعين، وخفض الكلمة ولين، وحسن الدار الآخرة، وزين، وخفض[2] أمر هذه الدار الغرور وهين. وقال ــ صلاة الله وسلامه عليه ــ : « أكثروا من ذكر هادم اللذات » كيلا تتشبث بها يد؛ « ولتنظر نفس ما قدمت لغد ».

والرضا عن آله الذين جازوا على جسرها الممدود ومروا. ولقوا الله وهم لم يغتروا، فكانوا إذا عهدوا بروا، وإذا سمعوا اللغو فروا، وإذا تليت عليهم آيات الله خروا. وكانوا عن حدود تقواه لا يبرحون؛ وبسوى مواهبه الباقية لا يفرحون. « أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون ».

أما بعد فان في تاريخ الدول عبرة لأولي النهى، وذكرى لمن غفل عن الله وسها؛ لتحول الأحوال، وتصير الرسوم إلى الزوال، وتلاعب زعازع الأهوال، بالنفوس والأموال، إلى امتاع المجالسة، وإنحاف المؤانسة، عند الملابسة، لاسيما التاريخ الذي لم يهتد لضمه لديوان، لقلة عيان، أو تأخر زمان، فالنفوس إليه متطلعة، وباجتلاء أنبائه[3] متولعة.

ولذلك ما جليت في هذا الكتاب ذكر (ملوك النصرية) على نسق، وأطلعت منهم في ليل الخبر بدور غسق. إذ كنت جهينة أخبارهم، وقطب مدارهم، وزمام دارهم. فذكرت نبذاً من أخبار وطنهم الذي سكنوه، وأفقهم الذي حسنوه بسيرهم الحميدة وزينوه. ومن دال به

---

(١) في نسخة الأسكوريال : « وحد ».

(٢) كذا في النسختين؛ وفي هامش المراكشية بخط أحدث : « وحقر ».

(٣) في المراكشية : أغراضه.

قبلهم من أمير، أو ذي حسب شهير. ثم تعاقبهم بحسب الزمان، وسعة الامكان، ومن اختص بهم من قاض، وكانت ووزير، أو كان على عهدهم من ملك كبير، أو حادث يليق بتخليد أو تسطير.. وسميته بـ « اللمحة البدرية، في الدولة النصرية »، فان كانت الإجادة فهو القصد، أو كانت الأخرى بذل الجهد، وحصلت البراءة من التقصير ولله الحمد. وها أنا أبتدي، وبالله أهتدي، وعفوه يتغمد ما خطته يدي.

ج — ومن كلام أبي عمرو وأحمد بن محمد ابن عبد ربه القرطبي، صاحب « العقد الفريد » المتوفى سنة ٣٢٨هـ في مقدمة كتاب الأجوبة، من كتابه العقد :

هي أصعب الكلام كله مركباً، وأعزه[١] مطلباً، وأغمضه مذهباً، وأضيقه مسلكاً، أن صاحبه يعجل مناجاة الفكرة، واستعمال القريحة[٢] يروم في بديهته نقض ما أبرم القائل في رويته، فهو كمن أخذت عليه الفجاج، وسدت عليه المخارج، وقد اعترض[٣] الأسنة، واستهدف[٤] للمرامي، لا يدري ما يقرع به فيتأهب له، وما يفجؤه من خصمه فيقرعه بمثله، ولا سيما إذا كان القائل قد أخذ بمجامع الكلام، فقاده بزمامه بعد أن روى فيه واحتفل[٥]، وجمع خواطره واجتهد، وترك الرأي يغب[٦] حتى يختمر، فقد كرهوا الرأي الفطير[٧]، كما كرهوا

(١) هي من عز : بمعنى قوي بعد ذلة، أو بمعنى صار نادراً.
(٢) القريحة : الطبع، وهي في الأصل : أول ما يستنبط من ماء البئر، وأول كل شيء.
(٣) وقف في طريقها.
(٤) صير نفسه هدفاً.
(٥) اجتهد وبالغ.
(٦) أي يمكث، من قولهم غب عندنا أي بات، ومنه : « رويد الشعر يغب ». أي لا تعجل بالشعر، ودعه حتى تأتي عليه أيام، فتنظر كيف عاقبته، أيحمد أم يذم.
(٧) الذي لم يصدر عن روية.

الجواب الدبري[١]، فلا يزال في نسج الكلام واستئناسه[٢] حتى إذا اطمأن شارده، وسكن نافره، صك به خصمه جملة واحدة، ثم قيل له : أجب ولا تخطئ، وأسرع ولا تبطئ ! فتراه بجواب من غير أناة ولا استعداد، يطبق المفاصل، وينفذ المقاتل[٣]، كما يرمي الجندل بالجندل، ويقرح الحديد بالحديد، فيحل به عراه، وينقض مرائره[٤] ويكون جوابه على أكثر كلامه كسحابة لبدت عجاجة، فلا شيء أعضل من الجواب الحاضر، ولا أعز من الخصم الألد الذي يقرع صاحبه، ويصرع منازعه، كمثل النار في الحطب الجزل.

د ــ وكتب الفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٢٩ في ترجمة الوزير الكاتب أبي المغيرة بن حزم : « وبنو حزم فتية علم وأدب. وثنية مجد وحسب، وأبو المغيرة هذا في الكتابة أوحد، لا ينعت ولا يحد، وهو فارس المضمار، حامي ذلك الذمار، وبطل الرعيل[٥]، وأسد ذلك الغيل. بسق في المعجزات، وسبق في المعضلات الموجزات، إذا كتب وشى المهارق[٦] ودبج، وركب في بحر البلاغة الثبج[٧]. وكان هو وأبو عامر بن شهيد خليلي صفاء، وحليفي وفاء، لا ينفصلان في رواح

---

(١) الدبري : رأى يسنح أخيراً عند فوت الحاجة، ولعله نسبة الى الدبرة (بالتحريك)، وهو اسم من الإدبار، بمعنى الهزيمة في القتال.

(٢) استأنس : فعل لازم بمعنى ذهب توحشه. والذي يليق بسياق الكلام هنا التأنيس والإيناس وهو إذهاب الوحشة، فلعل الكلمة محرفة عما ذكرنا.

(٣) أي يجعل السهام تنفذ منها؛ مبالغة في الاصابة، فهي لم تصب فحسب؛ بل مرت فيها وجاوزتها.

(٤) المرائر : جمع مريرة وهي الحبل الشديد الفتل.

(٥) الرعيل : اسم كل قطعة متقدمة من خيل وجراد وطير ورجال ونجوم وإبل وغير ذلك.

(٦) وشى الثوب وشيا وشية : حسنه، ووشاه نمنمه ونقشه وحسنه ــ والمهارق جمع مهرق : الصحيفة البيضاء يكتب فيها فارسي معرب، ودبج : نقش.

(٧) ثبج كل شيء : معظمه ووسطه وأعلاه، وجمعه أثباج وثبوج.

ولا مقيل، ولا يفترقان كمالك وعقيل. فكانا بطريقة رافعي الوية الصيوة، وعامري أندية السلوة. إلى أن أخذ أبو عامر في حبالة الردى وعلق، وغدا رهنه فيما قد غلق[1]. فانفرد أبو المغيرة بذلك الميدان، واسترد ممن سبقه ما فاته منذ زمان، فلم يذكر له مع أبي عامر حسنة ولا سرت له فقرة مستحسنة، لتعذر ذلك وامتناعه، بشفوف[2] أبي عامر وامتداد باعه. وأما شعر أبي المغيرة فمرتبط بنثره، ومختلط بزهره، وقد أثبت له منها فنوناً، تجن بها الأفهام جنوناً. فمن ذلك قوله :

ظعنت، وفي أحداجها من شكلها   يمين فضحن بحسنهن العينا
ما أنصفت في جنب توضح إذ قرت   ضعف الوداد بلابلا وشجونا
أضحى الغرام قطين ربع فؤاده   إذا لم يجد بالرمقتين قطينا

هـ ــ ومن كتابة ابن بسام في الذخيرة : « وأما ولادة التي ذكرها ابن زيدون في شعره، فإنها بنت محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله الناصري، وكانت في نساء زمانها واحدة أوانها، حضور شاهد، وغزارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشو[3] أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء على حلاوة عشرتها.. إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها،

---

(١) قال سيبويه : غلق الرهن في يد المرتهن « كفرح » يغلق غلقاً وغلوقاً فهو غلق : استحقه المرتهن، وذلك إذا لم يفتك في الوقت المشروط.

(٢) الشفوف : الفضل والزيادة، من شف عليه يشف شفوفاً.

(٣) عشا يعشو : إذا أتى ناراً للضيافة، وعشا لي النار عشواً وعشوا واعتشاها واعتشى بها، كله بمعنى : رآها ليلاً على بعد فقصدها مستضيئاً قال الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره   تجد خير نار عندها خير موقد

أي متى تأته لا تتبين ناره من ضعف بصرك.

تخلط ذلك بعلو نصاب[1]، وكرم أنساب وطهارة أثواب. على أنها ــ سمح الله لها وتغمد زللها ــ طرحت التحصيل[2]، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، لقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها. كتبت ــ زعموا ــ على أحد[3] عاتقي ثوبها :

أنا ــ والله ــ أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وكتبت على الآخر :

أمكن عاشقي من لثم خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها

هكذا وجدت هذا الخبر، وأبرأ إلى الله من عهدة ناقليه، وإلى الأدب من غلط النقل إن كان وقع فيه.

وذكر بعد ذلك : أن أباها بويع يوم قتل عبد الرحمن المستظهر يوم السبت لثلاث خلون من ذي العقدة سنة أربع عشرة وأبعمائة، فتسمى بالمستكفي بالله، وكان واهناً متخلفاً ضعيفاً، وكانت دولته تسعة عشر شهراً صعاباً، نكدات سوداً، مشوهات مشئومات. ولولادة في مداعبة ابن زيدون، وكان له غلام اسمه علي :

ما لابن زيدون على فضله يغتابني ظلما، ولا ذنب لي
ينظر لي شزرا إذا جئته كأنما جئت لأخصي علي !!!

و ــ ومن رسالة أبي بكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل المتوفى سنة ٥٧١هـ، وهي الرسالة المعروفة بالحكمة المشرقية، أو « حي بن يقظان »، التي جمع فيها بين الفلسفة والشريعة :

« ثم تأمل في جميع أصناف الحيوان : كيف أعطى كل شيء خلقه، ثم هداه لاستعماله؛ فلولا أنه هداه لاستعمال تلك الأعضاء التي خلقت

---

(١) النصاب والمنصب كمجلس، أي الأصل والمرجع.
(٢) التحصيل : تمييز ما يحصل.
(٣) العاتق ما بين المنكب.

له في وجوه المنافع المقصودة به لما انتفع بها الحيوان، وكانت كلا عليه، فعلم بذلك أنه أكرم الكرماء، وأرحم الرحماء ».

ز — ومن رسالة لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفيلسوف صاحب كتاب « الفصل ! في الملل والأهواء والنحل » وهي رسالة رد بها على رسالة رجل يدعى أحمد بن الربيب القيرواني، وقد أثبت هذا في رسالته تقصير أهل الأندلس في تخليد علمائهم، ومآثر فضائلهم، وسير ملوكهم، فلما وقف ابن حزم على هذه الرسالة كتب رسالة طويلة، منها : « فأما مآثر بلدنا فقد ألف في ذلك أحمد بن محمد الرازي التاريخي كتباً جمة منها كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس : مراسيها وأمهات مدنها وأجنادها الستة، وضواحي كل بلد منها، وما فيه ليس في غيره، وهو كتاب مريح مليح ».

ومنها في وصف أهل قرطبة : « فكان أهلها من التمكن في علوم القراءات والروايات والاطلاع على كثير من الفقه، والبصر بالنحو والشعر واللغة والجبر والطب والحساب والنجوم؛ بما كان رحب الفناء واسع العطن متفاني الأقطار فسيح المجال ». ومنها في ذكر مواد العلوم : « وأما الطب فكتب الوزير يحيى بن اسحاق مشهورة، وهي كتب حسان رفيعة، وكتب محمد بن الحسن المذحجي أستاذنا رحمه الله تعالى وهو المعروف بابن الكناني، وهي كتب رفيعة حسان، وكتب التصريف لأبي القاسم خلف بن عياش الزهراوي ».

ومنها : « ومن الأخبار تواريخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي في أخبار ملوك الأندلس، وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم. وذلك كثير جداً، وكتاب له في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها.

ح — وترجم لسان الدين بن الخطيب لابن خلدون، « الإحاطة في أخبار غرناطة » فقال : عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن ابن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، من ذرية عثمان أخي كريب

المذكور في نبهاء ثوار الأندلس وينسب سلفهم إلى وائل بن حجر، وحاله عند القدوم على رسول الله ﷺ معروفة. انتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نباهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك، فاستقر بتونس منهم ثاني المحمدين : محمد بن الحسن، وتناسلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة، وتصرف جد المترجم، به في القيادة.. وأما المترجم به فهو رجل فاضل، حسن الخلق، جم الفضائل، باهر الخصال، رفيع القدر طاهر الحياء أصيل المجد وقور المجلس، خاصي الزي عالي الهمة، عزوف عن الضيم، صعب المقادة، قوي الجأش، طامح لفتن الرياسة، خاطب للحظ، متقدم في فنون عقلية ونقلية، متعدد المزايا، سديد البحث، كثير الحفظ، صحيح التصور، بارع الحظ، مغري بالتجلة، جواد حسن العشرة، مبذول المشاركة، مقيم لرسم التعين، عاكف على رعي خلال الإصالة، مفخر من مفاخر التخوم المغربية.

ط ــ وهذه مقامة بلسان الدين بن الخطيب (٧١٣ــ٧٧٦هـ) وصف بها بلاد الأندلس والعدوة، ومنها :

قلت فمدينة سبتة ؟ قال : تلك العروس المجلى، وثنية الصباح الأجلى تبرجت تبرج العقيلة، ونظرت وجهها في البحر في المرآة الصقيلة، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة، وإذا قامت بيض أسوارها وكان جبل بنيوشن شمامة أزهارها، والمنارة منار أنوارها، كيف لا ترغب النفوس في جوارها، وتهيم الخواطر بين أنجادها وأغوارها؛ إلى المينا الفلكية، والمراقي الفلكية الذكية الزكية، غير المنزورة ولا المبكية، ذات الوقود الجزل المعد للأزل والقصور المقصورة على الجد والهزل، والوجوه الزهر السحن المضمون بها عن المحن، دار الناشبة والحامية المضرمة للحرب الناشبة، والأسطول المرهوب المحذور الألهوب، والسلام المكتوب المحسوب، والأثر المعروف المنسوب.. كرسي الأمراء، والأشراف، والوسيطة لخامس أقاليم البسيطة؛ فلاحظ لها في الانحراف.

بصرة علوم اللسان، وصنعاء الحلل الحسان، وثمرة امتثال قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ الأمينة على الاختزان، القويمة المكيال والميزان، محشر أنواع الحيتان، ومحط قوافل العصير، والحرير، والكتان، وكفاها السكنى ببنيوشن في فصول الأزمان، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان، والدفن المرحوم غير المزحوم، وخزانة كتب العلوم، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم. إلا أنها فاغرة أفواه الجنوب، للغيث المصبوب، عرضة للرياح ذات الهبوب، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب، ثغر تنبو فيه المضاجع الجنوب وناهيك بحسنة تعد من الذنوب، فأحوال أهلها رقيقة وتكلفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أو عقيقة، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة، وأنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة، فهم يمصون البلالة مص المحاجم، ويجعلون الخبز في الولائم بعدد الجماجم وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير الهاجم، وراعي الجديب بالمطر الساحم، فلا يفضلون على مدينتهم مدينة، الشك عندي في مكة والمدينة.

ي — ومن رسالة التوابع والزوابع[1] لأبي أحمد بن أبي مروان بن شهيد حفيد ذي الوزارتين أحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير الناصر. وقد توفي سنة ٤٢٦هـ :

« وكنت أحن إلى الآداب، وأصبو إلى تأليف الكلام، فابتعت الدواوين وجلست إلى الأسانيد، فنبض في عرق الفهم، ودر لي شريان العلم. وقليل الالتماح[2] من النظر يؤيدني، ويسير المطالعة في الكتب يفيدني، إذ صادف شن العلم مني طبقة، ولم أكن كالثلج تقتبس منه ناراً، ولا كالحمار يحمل أسفاراً، فدعنت ثغرة العلم دراكاً، وأعلقت أرجل طيره أشراكاً، فانثالت لي العجائب، وانهالت لي الرغائب ؟ وكان لي

(١) الزوبعة : الشيطان أو رئيس الجن.

(٢) النظر الخفيف.

أوائل صبوتي هوى اشتد له كلفي، ثم لحقني بعض ملل في أثناء ذلك الميل، فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملال، فجزعت، وأخذت في رثائه فقلت :

تولى الحمام بظبـي الحـذور وفاز الردى بالغزال الغريـر[1]

إلى أن انتهيت إلى الاعتذار من الملل الذي كان فقلت :

وكنت مللتك لا عـن قلـى ولا عن فساد ثوى في الضمير

فارتج على القول فإذا أنا بفارس بباب المسجد على فرس أدهم كأنما بقل[2] وجهه، قد اتكأ على رمحه وصاح بي : أعجزا يا فتى الأنس ؟ فقلت : لا وأبيك للكلام أحيان، وهذا شأن الإنسان. فقال : قل بعده :

كمثـل مـلال الفتـى للنعيـم إذا دام فيه، وحـال السـرور

فأثبت إجازته وقلت : بأبي من أنت ؟ قال زهير بن نمير من أشجع الجن. تصورت لك رغبة في اصطفائك، قلت : أهلاً بك أيها الوجه الوضاح. صادفت قلباً إليك مقلوباً وهوى نحوك مجنوناً وتحادثنا وتذاكرت معه أخبار الخطباء والشعراء ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع الخ.

— ٦ —

أ ــ وكتب ابن برد الأصغر في الاستزارة. ويقال إن ابن برد هذا أول من وضع المحاورات بين الورد وغيره من الأزهار :

« اليوم، يوم بكت أمطاره، وضحكت أزهاره، وتقنعت شمسه، وتعطر

---

(١) المخدوع.

(٢) نبت.

نسيمه. وعندنا بلبل أزج، وساق غنج[1]، وسلافتنا[2] سلافة أخدان، وسلافة دنان. قد تشاركنا في الطباع واشتركنا في إثارة السرور. فاخرق إلينا سرادق الدجى، تجد مرأى لا يحسن إلا لك، ولا يتم إلا بك، الزيارة بالليل أخفى، وبالزائر والمزور أحفى[3].

ب ـــ ومن النثر قول ابن خفاجة من رسالة يصف فيها متنزهاً :

ولما أكب الغمام إكباباً، لم أجند منه إغباباً، واتصل المطر اتصالاً، لم ألف منه انفصالاً، أذن الله تعالى للصحو أن يطلع صفحته، وينشر صحيفته، فقشعت الريح السحاب، كما طوى السجل للكتاب[4]، وطفقت السماء تخلع جلبالها، والشمس تميط نقابها، وطلعة الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلت وقد تحلت، ذهبت في لمة[5] من الإخوان، نستبق[6] إلى الراحة ركضاً، ونطوي للتفرج أرضاً، فلا أندفع إلا إلى غير نمير، قد استدارت منه في كل قرارة ماء[7] سحابة عماء[8]،

---

(١) الزجج : دقة في الحاجبين وطول، وحاجب أزج ومزجج، والغنج في الجارية : تكسر وتدلل : وقيل ملاحة العينين، وقد غنجت المرأة كفرح، فهي مغناج وغنجة، أما الغنج بفتح النون : فهو الرجل ولا معنى له هنا.

(٢) سلاف الخمر وسلافتها : أول ما يعصر منعا، أو هو ما سال من غير عصر ولا مرت، وهو أخلصها وأفضلها.

(٣) حفى بالرجل حفاوة وحفاوة وحفاية وتحفى به واحتفى : بالغ في إكرامه.

(٤) السجل : الطومار وهو ما يكتب فيه، ومعنى طيه للكتاب : أنه يطوي على ما فيه من كتابة، فاللام للتعليل، أي يطوى بسبب أنه صار مكتوباً، أو الكتاب بمعنى المكتوب، أي أن السجل يطوي ما كتب فيه ويضمره، فلا يذيعه أحد إلا بالقراءة.. والمعنى أن السحاب اختفى كما يختفي المكتوب.

(٥) اللمة « بالضم » : الصاحب والأصحاب في السفر، والمؤنس للواحد والجمع.

(٦) نتسابق.

(٧) القرارة : ما اطمأن من الأرض.

(٨) يقال جارية ونخلة عماء، أي طويلة.

وانساب في تعلته حباب[1]. فترددنا بتلك الأباطح نتهادى تهادي أغصانها، ونتضاحك تضاحك أقحوانها، وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم، ترسل[2] مشى، على بساط وشى، فإذا مر بغدير نسجه درعاً، وأحكمه صنعاً، وإن عثر بجدول شطب[3] منه نصلاً، وأخلصه صقلاً، فلا ترى إلا بطاحاً مملوءة سلاحاً، كأنما انهزمت هناك كتائب، فألقت بما لبسته من درع مصقول، وسيف مسلول.

جـ ـــ وكتب أبو اسحاق بن خفاجة إلى بعض اخوانه، وكانت بينهما جفوة :

أطال الله بقاء سيدي، النبيهة أوصافه، النزيهة عن الاستثناء، المرفوعة إمارته الكريمة بالابتداء، ما انحذفت ياء يسرى للجزم، واعتلت واو يغزو لموضع الضم. كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلحقها انتقال، وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال، والله يجعل هاتيك من الأحوال الثابتة اللازمة، ويعصم هذا من الحروف الجازمة.

---

(١) الحباب « بالضم والكسر » : الحية، والمراد أن الماء تلوى في جريانه، فكان كالحية.

(٢) الترسل : التؤدة والرفق.

(٣) الشطل : السيف، والشطب القطع. والمعنى في شطب السيف : تصوير الحديدة على مثاله، والمعنى في كون النسيم يجعل الجدول سيفاً، أنه يمر بصفحته، فيحدث فيه طرائق لامعة، كأنها صفحات السيوف.

الفصل الثاني

الكتابة الفنية الأندلسية

نبغ في الأندلس كثير من الكتاب البلغاء، الذين كان من بينهم : أحمد بن عبد ربه القرطبي صاحب « العقد الفريد » المتوفى عام ٣٢٨هـ، وأبو عامر أحمد بن أبي مروان بن شهيد المتوفى عام ٤٢٦ هـ، صاحب الزوابع والتوابع، وهو حفيد ذي الوزارتين أحمد بن رشيد، وزير الناصر. وكذلك : ابن زيدون ولسان الدين بن الخطيب، وابن بسام، والفتح ابن خاقان، وأبو المطرف بن عميرة، وسواهم.

وصف الكتابة الفنية

— ١ —

أ — لم يكن للكتابة الفنية مجال واسع مدة حكم الأمراء الأولين في الأندلس، لأن الحالة السياسية والاجتماعية لم تكن استقرت بعد، فلم يكن هناك ما يساعد على نمو الكتابة في الموضوعات الاجتماعية أو الخيالية أو الفنية. فاقتصرت في القرن الأول من دخول العرب في الأندلس على ما تقتضيه الحال من الرسائل السياسية والإدارية، لبث الحماسة

في نفوس الجند، وضبط أمور البلاد، مما كان يلقيه الولاة، ويكتبه الأمراء أو الخلفاء للعمال وغيرهم. وكان كل ذلك تمليه الرغبة في تأييد الملك، ويسوده الروح العربي الذي كان يسيطر على العقول في دمشق مدة الأمويين. فكانت الكتابة إذ ذاك عربية في موضوعاتها، وفي أساليبها، وعباراتها الجزلة الرصينة، خالية من الصنعة والتكلف.

فمن ذلك ما كتبه بدر مولى عبد الرحمن الداخل إلى سيده وقد هجره :

« أما كان جزائي — في قطع البحر، وجوب القفر، والإقدام على تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى — غير الهجر الذي أهانني في عيون أكفائي، وأشمت بي أعدائي، وأضعف أمري ونهيي عند من يلوذ بي، وبتر مطامع من كان يكرمني ويخدمني على الطمع والرجاء، وأظن أن أعداءنا بني العباس لو حصلت بأيديهم مابلغوا بي أكثر من هذا، فإنا لله وإنا إليه راجعون ».

فلما وقف عبد الرحمن على رقعته اشتد غضبه ووقع عليها : « وقفت على رقعتك المنبئة عن جهلك، وسوء خطابك، ودناءة أدبك، ولئيم معتقدك. مما قد أضجر الأسماع تكراره، وقدحت في النفوس إعادته، مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستئصال مالك، وزدنا في هجرك وإبعادك وهضنا جناح إذلالك. فلعل ذلك يقمع منك، ويردعك، حتى نبلغ منك ما نريد إن شاء الله تعالى، فنحن أولى بتأديبك عن كل أحد، إذ شرك مكتوب في مثالبنا، وخيرك معدود في مناقبنا ».

ومن نثر عبد الرحمن الداخل قوله في كتاب أملاه على كاتبه إلى رجل اسمه سليمان بن الأعرابي : « أما بعد فدعني من معاريض المعاذير، والتعسف عن جادة الطريق، لتمدن يداً إلى الطاعة، أو لألقين بنانها على رضف المعصية نكالاً بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد ».

٢ ــ ولما جاء عهد الخلفاء وملوك الطوائف نهضت فنية فذة، وسلكت مسلكاً جديداً في أغراضها ومعانيها وأسلوبها :

فأما أغراضها : فقد اتسعت إلى أحد أنها تناولت أغراض المشارقة، وقد علمنا أنها تعددت هناك بتعدد أعمال الدواوين، وبما زاد على الرسائل الإخوانية من استعمالها في الهجاء والمفاخرة وما إلى ذلك، بل إن الأغراض هنا زادت على تلك في أكثر ما نجد من مناظرة ومفاخرة، وجد هزل وخيال شعري متسع الأنحاء.

وأما معانيها : فقد ظهر فيها الخيال الفسيح من آثار ذلك الجمال الأقليمي البديع الذي ينبت الخيال ثم يغذيه فينميه، وإنا نراه متجلياً في كل شيء، حتى في بيان الحقائق العميقة، يقربونها من العقول، في تصوير ممتع رائق، كما في رسالة حي بن يقظان لابـن الطفي. وكان لزهدهم في علوم الفلسفة اثر في كون كتابتهم فطرية ساذجة بعيدة عن التعمق. ولكنها كانت تظهر في ثوب مهذب تهذيباً عربياً خالصاً من تلك الشوائب.

وأما الأسلوب : فحدث ولا حرج، عن ألفاظ كأنها نسمات الأشجار عذوبة ورقة، في أساليب لا يشبهها إلا قائلوها في خفة أرواحهم وفصفاء أذواقهم. قد اشتملت على تشبيهات واستعارات حالفها التوفيق. لا تشعر فيها بشيء من النبو مهما فتشت ورددت. لأنها وحي الصفاء المنزل من السماء. وهيهات أن يعيبه إسفاف، أو يزري به تقصير ــ ولقد كانوا يؤثرون السجع القصير لجمال وقعه. إلا أنهم تفانوا فيه تفانياً كلياً حتى تعدوا الأدب إلى الكتب العلمية والتاريخية. ومع ذلك فهو في الجملة يحف به القبول لسلامة طبعهم. وصفاء ذهنهم. ولم تكن لهم تكلفات المشارقة في التهالك على سائر أنواع البديع كالتورية والجناس، بل يتركون ذلك لعفو الخاطر.

ولكثرة المحفوظ عندهم وعنايتهم بجمع العلوم الإسلامية ظهرت في كتاباتهم عدة اقتباسات من الكتاب الكريم والسنة النبوية، إلى عدة تضمينات من الشعر العربي والأمثال، وقد بالغ بعضهم في هذا النوع، ولعل ابن زيدون فارس هذه الحلبة، ففي رسالتيه الجدية والهزلية العجب العجاب، مما أطال بعض الألسنة بأنه لم يفعل في ذلك أكثر من جمع شتات أمثال وحكم. وكذلك كثرت الإشارة إلى الحوادث التاريخية والأيام العربية، وغلا بعضهم فيه غلواً شديداً. ومن محاسن كتاب هذين العصرين : عدم الحفل بقيود البدء والختام، ولا ألقاب التعظيم التي كان يخصصها المشارقة تقليداً للفرس، فكان لكل من الخليفة والسلطان والعالم والقاضي والخطيب وغير هؤلاء لقب خاص به، ما أنزل به من سلطان، ولا جاء في لسان العرب الأوائل، كما أنهم لم يحفلوا بأنواع الدعاء وتنويعها، ولا صيغ التعظيم وتفخيمها، وإنما كانوا أقرب شيء إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وعني أدباء الأندلس بمحاكاة أدباء الشرق واتباع طرقهم أولاً، ثم دب الترف في النفوس والعقول كما دب في الاجتماع، وتمشى هناك نوع جديد من التفكير، وظهرت آثار الثقافة العلمية والفنية، وتهذبت الأفكار، ونضجت العقول، بما نقل من علوم وفنون، وانتشرت مظاهر الحضارة في المجالس والمجامع. فامتلأت نفوس الكتاب بشتى الموضوعات التي وسعت من أخيلتهم، وهذبت من إدراكهم، وأكسبتهم صبغة فنية، وبما كان من أبهة الملك، ووصف المباني الضخمة والقصور الفخمة، ومظاهر الترف ومجالس الخلفاء والأمراء. فكان ذلك من العوامل الجديدة في نمو ملكة الكتابة، فنشأ عن ذلك : النثر الإنشائي الفني، واشتمل على كل مظاهر الحياة العلمية والاجتماعية، فكتب الكتاب رسائل في المراسلات والأوصاف والسياسة، والمناظرات الخيالية، والمناقشات العلمية، والقصص الاجتماعية والخيالية، ورسائل الاستعطاف والهجاء المملوءة بالحكم والأمثال، والرسائل الفكاهية، وكتبوا على ألسنة

البلدان والحيوان؛ وكتبوا في الدعوات والإرشاد والتوسل إلى الله، وفي شعائر الحج، كما كتبوا في الزهد والتصوف، وكما كتبوا في المجون، فبرعوا في النثر، كما برعوا في أساليب النظم.

وممن كتب في الاستعطاف والهجاء أبو الوليد بن زيدون، وممن كتب في القصص والفكاهات أبو عامر بن شهيد. وممن كتب في المناظرات بين السيف والقلم ابن برد الأصغر، كما كتب أبو بحر صفوان بن إدريس في المناظرة بين بلدان الأندلس، وكتب ابن طفيل في القصص الفلسفية، وممن أطال في الرسائل واشتهر فيها لسان الدين ابن الخطيب. فكان النثر أكبر مظاهر الأدب العربي كالشعر سواء بسواء، بل فاق الشعر من حيث تجدد الموضوعات وتطورها، التي كان من أشهرها القصص الخيالية.

وكما كتبوا في الموضوعات الخيالية كتبوا في الزهد والتقوى والتصوف والتوسل إلى الله وإلى الرسل. كل ذلك بعبارات منمقة، واحياناً متكلفة يسودها الخيال. لذلك كانت كل كتاباتهم بأنواع المجاز من استعارة وتشبيه، مما لا تكاد تخلو جملة منه؛ حتى كانت هذه الصناعة اللفظية لديهم أول ما يقصدون إليه من أغراض الكتابة الفنية، ويوجهون إليه هممهم. وكان السجع أظهر ضروب الصناعة النثرية في كلامهم. وقد كان هذا الأسلوب الفني في جملته أرق الأساليب وأجملها في تلك الأيام، حين كانت بلاد المشرق تفخر بكتابة ابن العميد والهمذاني، والخوارزمي والحريري ومن جاراهم. وبقيت الكتابة الفنية سائرة على هذا المنهج الفني على ما كان فيها من التفاوت قوة وضعفاً على حسب تداول الدول التي انتابت حكم هذه البلاد. ومن ذلك رسالة ابن زيدون الجدية المعروفة.

ولما ذاع أمر الصناعة في المشرق زمن ابن العميد والبديع ومن على طريقتهما، وانتشر السجع والتعمل في الكتابة، وكان الأندلسيون

يحاكون أهل المشرق في كل شيء؛ ذاعت الصناعة في الكتابة، وامتلأت بأنواع البديع وطغى السجع على كل أنواعها، من رسائل وقصص جدية وهزلية، وكتب علمية وأدبية وتاريخية، وبالغ في ذلك أهل الأندلس وأمعنوا في ضروب الخيال، وجاء بكل غريب في ذلك. فكان في نثرهم الكلام المسجوع، الذي يكون من السهل الممتنع، مع دقة في اللفظ وجزالة في المعنى؛ ومزج الحقيقة بالخيال، كما في أسلوب الذخيرة لابن بسام حيث يقول في ترجمة ابن شهيد :

« كان أبو عامر شيخ قرطبة وفتاها، ومبدأ الغاية القصوى ومنتهاها. ينبوع آياتها، ومادة حياتها، ومبنى أسمائها ومسمياتها. نادرة الفلك الدوار، وأعجوبة الليل والنهار، إن هزل فسجع الحمام، أو جد فزئير الأسد الضرغام، نظم كما انتسق الدر على النحور، ونثر كما خلط المسك والكافور ».

وكانوا أحياناً يتكلفون في كتاباتهم وكأنها شعر مصنوع، لا تسيغه النفس ولا يتحمله الذوق، كما في بعض رسائل لسان الدين بن الخطيب. وقد يلتزم بعضهم السجع المتكلف، وكأنه مفطور على ذلك. فيمزجه بأساليبه العلمية وكتاباته التاريخية، كما في كتب الفتح بن خاقان.

٣ ــ ولقد بقيت الكتابة في الأندلس فتية ناهضة عربية قوية إلى آخر ملك العرب، على حين شاخت في المشرق، وقد استمسكت فيها بكثير من فضائلها ومع ما أصابها هناك من انحلال وتفكك، ظلت عربية بريئة نقية، على حين هاجمتها العجمة في مقرها الأصلي، ومنشئها الأول، ترى تلك الظواهر حين توازن بين كتاب من القرن السابع أو الثامن ــ مثلاً ــ من أهل الأندلس، ونظرائهم من أهل المشرق، فإنك ترى للأولين قولاً سائغاً، وأدباً رائعاً، وقوة تعبير، وقدرة على التصوير، على حين ترى كتابة الآخرين ــ حتى فحولهم المعدودين ــ متهافتة، ساقطة لا تكاد تنهض بمعنى، ولا تقوى على أداء.

والسر في ذلك أن العرب باللأندلس نزحوا إليها، ولغتهم تامة السليقة بريئة الملكة، ثم كانوا بها جمهرة غالبة، وعنصراً شائعاً، ولملوكهم الغلبة، وعز السلطان، وهم في الجزيرة في أمن من الطارئين الذين كان يطغى سيلهم بالمشرق على عربه، فوقاهم الله شر هذا الاختلاط الذي جنى على غيرهم. ولا ننسى أن نوع ثقافتهم كان عربياً خالصاً. ومع ذلك فلم تكن على ما كانت عليه في سابق عهدها : لغلبة السجع عليها، وكثرة الإطناب المبعد عن الجادة في فهم المقصود ولا سيما في رسائل الشكوى والاستشفاع التي كانت ترسل إلى النبي ﷺ والصالحين للاستنجاد بهم على العدو الجبار، وظهرت الألقاب والرتب، واستعملت عبارات الاجلال والتعظيم، ولا سيما في عهدي بني هود وبني الأحمر، إلى أن استولى العدو على البلاد.

— ٢ —

وتمتاز الكتابة الأندلسية على العموم بعدة خصائص :

منها غلبة الخيال الشعري وبروزه في كتابتهم. وذلك من آثار البيئة وجمال البقعة واستفاضة النعيم، وإن بقعة يقول فيها ابن خفاجة عفا الله عنه :

لله دركهم يا أهل أندلس	ماء وظل وأشجار وانهار
ما جنة الخلد إلا في ديار كمو	ولو تخيرت هذا كنت أختار
لا تختشوا بعدها أن تدخلوا سقراً	فليس تدخل بعد الجنة النار

لجديرة أن توصف بأنها مباءة الخيال، ومسرح الجمال.. وكذلك كثرة القصص والحكايات والمناظرات بين أصناف الجماد. وأنواع الحيوان. ومن ذلك المناظرة بين بلاد الأندلس، التي خاطب بها أديب الأندلس أبو بحر صفوان بن إدريس، الأمير عبد الرحمن ابن السلطان

يوسف بن عبد المؤمن بن علي[1]، ومقامة الديك، والتوابع والزوابع لابن شهيد. ورسالة حي بن يقظان لابن طفيل، إلى غير ذلك. كما تمتاز بالإكثار من اقتباس الأمثال والحكم والآيات القرآنية والآثار النبوية ونثر الأبيات الشعرية. كما في رسالتي ابن زيدون : الجدية والهزلية، وبالبراعة في أساليب المجون والدعابة، فكانت لهم النوادر البديعة، والنكات المستظرفة، ومن أشهر الرسائل في ذلك : الرسالة الهزلية لابن زيدون. وبالتورية بمصطلحات العلوم، ولا سيما علوم العربية، لأنها كانت أساس ثقافتهم.

وكثرت الكتابة في الزهد والإرشاد والتوسل إلى الرسول ﷺ، وفي شعائر الحج.

وشاع الإطناب في كتاباتهم. وقد يكون هذا الإطناب مقبولاً، وقد يكون ممجوجاً مملوكاً كما في أكثر كتابات لسان الدين بن الخطيب والفتح بن خاقان. واتسمت الكتابة كذلك بغلبة السجع حتى في الكتابة الفنية والعلمية، من تاريخية وغيرها، ومن تراجم العلماء والأدباء ومن كتب جدية وهزلية، ومن أشهر ذلك : كتب الفتح بن خاقان، كقلائد العقيان، وكتب لسان الدين بن الخطيب، كالإحاطة في أخبار غرناطة. كما ظهر عليها كثرة الوصف في كتاباتهم. فوصفوا المباني الفخمة من كنائس ومساجد وقصور وآثار وما فيها من صور وتماثيل. ووصفوا الأشياء الجميلة التي غنموها أو عملوها بأيديهم. ووصفوا محافل الملوك والأمراء وأبهة الملك. ووصفوا الرياض والغياض ومجالس الشراب إلى غير ذلك. كما وصفوا نفوس الكبراء والقواد والعلماء ومجالس العلم والأدب.

على أن الكتابة في الأندلس لم تقتصر على كتابة الدواوين والرسائل :

---

(١) ١/٨٠ نفح الطيب.

قصيرة كانت أو طويلة، مسجعة أو مرسلة، في العشق والغرام أو في الذم واللوم أو في المدح والاستعطاف الخ. بل شملت كل شيء في الاجتماع هناك وكانت مظهراً لتلك المدنية؛ والحالة السياسية العقلية والعلمية.

ـ ٣ ـ

وكانت الكتابة الأندلسية كما يقول المقري على ضربين :

أعلاهما كاتب الرسائل، وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس، وأشرف أسمائه الكاتب، وبهذه السمة يخصه من يعظمه في رسالة. وأهل الأندلس كثيروا الانتقاد على صاحب هذه السمة، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة. فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه. من تسلط الألسن في المحافل والطعن عليه وعلى صاحبه.

والكاتب الآخر كاتب الزمام. وهكذا يعرفون كاتب الجهبذة. ولا يكون بالأندلس وبر العدوة نصرانياً ولا يهودياً البتة. إذ هذا الشغل نبيه، يحتاج إلى صاحبه عظماء الناس ووجوههم. وصاحب الأشغال الخراجية في الأندلس أعظم من الوزير وأكثر اتباعاً وأصحاباً وأجدى منفعة، فإليه تميل الأعناق، ونحوه تمد الأكف، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظار؛ ومع هذا إن تأثلت حالته، وأغتر بكثر البناء والاكتساب، نكب وصودر وهذا راجع إلى تقلب الأحوال، وتبدل السلطان.

صورتان من الكتابة الأندلسية

ـ ١ ـ

بيان إلى الشعب ـ بلقب الخليفة الناصر عام ٣١٦هـ :

أما بعد، فإنا أحق من استوفى حقه، وأجدر من استكمل حظه، ولبس من كرامة امة الله ما ألبسته ـ للذي فضلنا به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسر على أيدينا دركه، وسهل لدولتنا مرامه ـ وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا، وعلو أمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعان من انحرافهم إلينا، واستبشارهم بدولتنا، والحمد لله ولي الأنعام ـ بما أنعم به وأهل الفضل، بما تفضل علينا فيه.

وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنا، وورودها علينا بذلك. إذ كل مدعو بهذا الاسم منتحل له، ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحقه.

وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك، حق أضعناه، واسم ثابت اسقطناه، فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر مخاطبتك لنا عليه، إن شاء الله، والله المستعان.

— ٢ —

ومن رسالة للوزير أبي يحيى محمد بن عاصم[1] في وصف فتنة سياسية قامت ثم أخمدت؛ وكان الوزير أبو يحيى شاعراً مفلقاً وكاتباً مشرقاً، وكان يباري أساطين البلاغة وأرباب البيان، ويتمثل طريقهم، وهو في هذه الرسالة يسلك نهج ابن الخطيب ويترسم خطاه، ويحاول أن يبلغ مداه.

قال بعد حمد الله :

أما بعد فإن الله على كل شيء قدير، وإنه على عباده لخبير بصير، وهو لمن أهل نيته وأخلص طويته، نعم المولى ونعم النصير، بيده الرفع والخفض والبسط والقبض، والرشد والغي، والنشر والطي، والمنح والمنع، والضر والنفع، والبطء والعجل، والرزق والأجل، والمسرة والمساءة، والإحسان والإساءة، والإدراك والفوت، والحياة والموت، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وهو الفاعل على الحقيقة، وتعالى عما يقول الآفكون، وهو الكفيل بأن يظهر دينه على الدين كله، ولو كره المشركون، وإن في أحوال الوقت الداهية لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وعبرة لمن يفهم قوله تعالى : « إن الله يفعل ما يشاء، وإن الله يحكم ما يريد »، بينما الدسوت عامرة والولاة

(١) هو الإمام العلامة الوزير الرئيس الكاتب الجليل البليغ الخطيب الشاعر المفلق الناثر الموفق أبو يحيى محمد بن عاصم القيسي الأندلسي الغرناطي قاضي الجماعة بها، كان رحمه الله من أكابر فقهائها وعلمائها ورؤسائها والمؤلفين فيها، ومن تآليفه شرح تحفة والده وذكر فيه أنه ولي القضاء سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة هـ ومنها : كتاب « جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى »، وكتاب : « الروض الأريض في تراجم ذوي السيوف والأقلام والقريض، وقد ولع بمصافاة البلغاء ومعارضة الفصحاء، وقد وصفه ابن فرج السبتي أحد أدباء الأندلس بأنه الأستاذ المعلم، الصدر، المفتي، رئيس الكتاب ومعدن السماحة، ومنبع الأدب.

آمرة والفئة مجموعة، والدعوة مسموعة والإمرة مطاعة، إلى أن قال : والسعيد من اتعظ بغيره ولا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً جعلنا الله تعالى فيمن قضى عمره بخيره. وبينما الفرقة حاصلة والقطيعة فاصلة، والمضرة واصلة، والحبل في انبتات، والوطن في شتات، والخلاف يمنع رعي النبات، والقلوب شتى من قوم أشتات، والطاغية يتمطى لقصم الوطن وقضمه، ويلحظ لحظ الخائف على هضمه، والأخذ بكظمه، ويتوقع الحسرة أن يـأذن الله بجمع شمله ونظمه، على رغم الشيطان ورغمه، إذا القلوب قد ائتلفت، والنفوس المتنافرة قد اجتمعت بعدما اختلفت، والأفئدة بالألفة قد اقتربت إلى الله تعالى وازدلفت، والمتضرعة إلى الله تعالى قد ابتهلت، في إصلاح الحالة التي سلفت، فألقت الحرب أوزارها، فأدنت الفرقة النافرة من مزارها، وجلت الألفة الدينية أنوارها، وأوضحت العصمة الشرعية آثارها ورفعت الوحشة الناشبة أظفارها وأعذارها، وأرضت الخلافة الفلانية أنصارها، وغضت الفئة المتعرضة أبصارها، وأصلح الله تعالى أسرارها، فجمعت الأوطان بالطاعة، والتزمت الدين بأقصى الاستطاعة، وتسابقت إلى لزوم السنة والجماعة، وألقت إلى الإمامة الفلانية يد التسليم والضراعة، فتقلبت فيئاتهم، وأخمدت جيئاتهم، وأسعدت آمالهم، وارتضيت أعمالهم، وكملت مطالبهم، وتممت مآربهم، وقضيت حاجاتهم واستمعت مناجاتهم، وألسنتهم بالدعاء قد انطلقت، ووجهتهم في الخلوص قد صدقت، وقلوبهم على جمع الجلمة قد اتفقت، وأكفهم بهذه الإمامة الفلانية قد اعتلقت، وكانت الإدالة في الوقت على عدو الدين قد ظهرت وبرقت، إلى أن قال : وكفت القدرة القاهرة، والعزة الباهرة، من عدوان الطاغية وغوائل الداهية، باعزاز دين الله الموعود بظهوره على الدين كله فواتح وأوائل، ومعلوم بالضرورة أن الله تعالى لطيف بعباده حسبما شهد بذلك برهان الوجود، ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ دليل على ما سوغ من الكرم والجود.

كتاب أندلسيون
احمد بن شهيد
٣٨٢ــ٤٢٦هـ

كاتب من كبار الكتاب في آخر عهد الدولة الأموية في الأندلس، وهو أبو عامر بن أبي مروان عبد الملك.. الشهير بابن شهيد، شاعر ظريف وكاتب مبتكر من كتاب الأندلس وأدبائها. ولد سنة ٣٨٢ هجرية، ومات بقرطبة سنة٤٢٦هـ، ولقد عاش ابن شهيد في ظلال بني عامر، وتربى في نعمهم، وكانت أيامهم من أحسن أيام الرخاء، أفاض ملوكها عليه المال الكثير لمكانته لديهم ومكانة أسرته؛ فقد كان أبوه متصلاً بالمنصور بن عامر، فنشأ ابن شهيد على مثال الملوك: كريماً، متلافاً، وكان ظريفاً خفيف الروح، مرح المجلس، به ميل إلى النكتة والدعابة، محباً للهزل والمجون، خليعاً كأهل عصره الأدباء، سريع البديهة، حاضر الذهن سديد الرأي، عارفاً بفنون الأدب، كاتباً بارعاً، يغلب الظرف على أخلاقه، فرحاً مسروراً كأكثر شعراء زمانه وأدبائه الذين كانوا يترددون على مجالس الخلفاء والأمراء، لذلك كان محباً للحياة ونعيمها، كما يظهر ذلك من نظمه ونثره.

ولابن شهيد شعر رشيق في المدح والوصف والتشبيه، وقصائد طويلة كثيرة المعاني، تدل على سعة خياله، وأكثر شعره خال من أثر التفكير،

لا يكاد يجد القارئ فيه صبغة جدية؛ لأنه كان هازلاً أكثر منه رجل جد، وأكثر شعره في الوصف والغزل.

أما أسلوبه، فتغلب عليه سلاسة العبارة، ليس به كثير من الغموض والخفاء؛ يجذب القارئ بأخليته ومعانيه المستظرفة، ولامتزاج هذه المعاني بنفس الشاعر كان يعبر بلا تكلف. هذا إلى سهولة الموضوعات، وما تقتضيه من رقة ودعابة، لأنها موضوعات لهو. وأكثر لهوه ظريف مقبول، لا تكاد تجد فيه فحشاً أو هجراً.

ونثره ممتاز في موضوعاته وأساليبه ومعانيه؛ فلقد كتب موضوعات شائقة طريفة، نادرة في النثر العربي، ككتاباته القصصية الخيالية، التي يصفها أدباء العرب بالكتابة الهزلية، فقالوا عنه : « إنه في تنسيق الهزل والنادرة الحارة أقدر منه على غير ذلك ». ويبدو من هذه الموضوعات أنه ولع بقراءة القصص، واطلع على ما كتبه أهل الشرق في ذلك، وجارى بعضهم في أساليبه، كما في رسالته « التوابع والزوابع »، وكرسالته في الحلواء وغيرها مما كتبه على ألسنة الحيوان.

وهذه الرسائل وإن لم تكن بدعة في نوعها، أو فريدة في أسلوبها، تدل على ميل خاص للكتابة القصصية، وبراعة في التصرف في المعاني وأساليب التعبير وسعة الخيال واطلاع واسع على كتب الأدب وآراء الأدباء. وما كان معروفاً لديهم في النقد الأدبي، على الرغم مما قالوه عنه من أنه كان لا يقرأ كثيراً. ورسالته : « التوابع والزوابع[1] » أطول رسائل ابن شهيد وهي أشبه برسالة الغفران لأبي العلاء المعري[2].

---

(١) الزوبعة الشيطان أو رئيس الجن. وقد سمى رسالته : التوابع والزوابع؛ لأن فيها لكل شاعر شيطاناً.

(٢) ألفت رسالة الغفران عام ٤٢٤هـ، إذ يقول المعري فيها : « ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب في سنة ٤٢٤هـ اسمه فلان بن فلان (٨٤ جـ ٢ رسالة الغفران ــ نشر كامل كيلاني).

ويبدو أن ابن شهيد اطلع على رسالة أبي العلاء وعمل على محاكاتها. أما موضوعها، فقد تخيل فيه أن له شيطاناً ككل الشعراء، اتصل به وعرفه وسار به الى العالم الآخر، وأركبه فرساً، وطاف به على الشعراء الأقدمين وهم في حياتهم الآخرة، فصار ينشدهم من شعره وينشدونه أشعارهم. وقد تخيل لكل شاعر شيطاناً وجهة ينزل بها، ومنزلاً يقيم به. فوصف هذه المنازل وصفاً شعرياً دقيقاً ووصف مجالس هؤلاء الشعراء وأتى في أثناء وصفهم ومقابلاتهم على كثير من نقد شعرهم نقداً بيانياً مبنياً على ما يعطيه اللفظ والعبارة من جمال وبلاغة؛ على حسب ما هو معروف في أساليب النقد الأدبي عند العرب. ووازن بين أشعارهم، وذكر في أثناء ذلك كثيراً من شعره الرقيق، وشيئاً من أشعار هؤلاء الشعراء. فكانت هذه الرسالة قصة أدبية خيالية.

وأسلوب الرسالة مسجوع، به كثير من محاكاة ما شاع من أسلوب المقامات، وكثير من العبارات المتكلفة الغامضة، والإشارة إلى بعض الأسماء والمسائل الأدبية، مما يحتاج إلى شرح وبيان... ولكن هذا الأسلوب يمتاز عن غيره بأنه أسلوب قصصي من الأساليب النادرة في الكتابة العربية. وقد برع ابن شهيد في هذا النوع.

ومن نماذج نثره في هذه الرسالة قوله: «كان لي أوائل صبوتي هوى اشتد له كلفي، ثم لحقني بعض ملل في أثناء ذلك الميل. فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملال، فجزعت وأخذت في رثائه فقلت:

تولى الحمام[1] بظبي الخدور وفاز الردى بالغزال الغرير[2]

إلى أن انتهيت إلى الاعتذار من الملل الذي كان، فقلت:

وكنت مللتك لا عن قلى[3] ولا عن فساد ثوى[4] في الضمير

---

(١) الموت. (٣) القلى البغض.
(٢) المخدوع أو الطائش. (٤) أقام واستقر.

فارتج[1] علي القول. فإذا أنا بفارس بباب المجلس على فرس أدهم[2] كأنما بقل وجهه[3]، قد اتكأ على رمحه وصاح بي : أعجزاً يا فتى الإنس ؟ فقلت : لا وأبيك. للكلام أحيان؛ وهذا شأن الإنسان. فقال قل بعده :

كمثل ملال الفتى للنعيم   إذا دام فيه وحال السرور

فأثبت إجازته[4]. وقلت : بأبي من أنت ؟ فقال زهير بن نمير، من أشجع الجن. تصورت رغبة في اصطفائك. قلت : أهلاً بك أيها الوجه الوضاح، صادفت قلباً إليك مقلوباً[5]، وهوى نحوك محبوباً. وتحادثنا، وتذاكرت معه أخبار الخطباء والشعراء، ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع. وقلت له : هل حيلة في لقاء من نفق منهم ؟ قال : حتى استأذن شيخنا، وطار عني، ثم انصرف، وقد أذن له : فقال : جل على متن[6] الأدهم، فسرنا عليه، وسار بنا كالطير يجتاب[7] الجو فالجو، ويقطع الدو[8] فالدو. حتى لمحت أرضاً لا كأرضنا. وشارفت جواً لا كجونا ».. إلى أن قابل صاحب امرئ القيس، وجرت بينهما مطارحة شعرية، ثم قال لي زهير : من تريد بعده ؟ قلت صاحب أبي نواس، قال هو بدير حنا[9]... وسرنا حتى انتهينا إلى أصل دير حنا،

---

(١) أغلق.

(٢) أسود.

(٣) يريد نبت عذاره.

(٤) كتبت ما قاله.

(٥) يريد منصرفاً إليك.

(٦) المتن : الظهر.

(٧) يقطع.

(٨) الفلاة.

(٩) كان بظاهر الكوفة بيوت صغار تسكنها الرهبان بالقرب منها ديران يقال لأحدهما دير عبد وللآخر دير حنا وهو موضع كثير البساتين والرياض.

فضرب زهير الأدهم. فسار بنا في قنته[1]، ففتح سمعي قرع النواقيس، فقلت : فصحت[2] عن منزل أبي نواس ورب الكعبة... وسرنا نجتاب أدياراً وكنائس وحانات، إلى دير عظيم تعبق روائحه وتصوك نوافحه[3]. فوقف زهير ببابه وصاح : سلام عل أهل دير حنا. فقلت : وصرنا بذات الأكيراح[4] ؟ قال نعم. وأرقلت[5] نحونا الرهابين، مشدودة الزنانير[6]، وقد قبضت على العكاكيز، مبيضة الحواجب واللحى. مكثرين للتسبيح، عليهم هدى المسيح. فقالوا : أهلاً بك يا زهير أبي عامر من زائر وصاحب. ما بغيتك ؟ قال حسن الدنان[7] قالوا : إنه لفي شرك الخمرة، منذ أيام، وما نراكما منتفعين به. فقال : وعليّ ذلك ؟ ونزلنا وقاد بنا إلى بيت اصطفت دنانه[8] وعكفت غزلانه، وفي دير حنا شيخ طويل الوجه والسبلة[9] قد افترش أضغاث[10] زهر، واتكأ على زق[11] من خمر... فصاح به زهير : حياك الله أبا الإحسان. فجاوب جواباً لا يعقل لغلبة الخمر عليه. فقال لي زهير اقرع أذنيه بإحدى خمرياتك، فإنه ربما تنبه لبعض ذلك فصحت أنشد :

---

(١) القنة أعلى الجبل.

(٢) يريد أن ما به يفصح ويدل على منزل أبي نواس.

(٣) صاك به الزعفران صوكاً لصق به. والمراد هنا تفوح وتنتشر. والنوافح من نفح الطيب انتشرت رائحته.

(٤) هي بيوت تسكنها الرهبان بها ديرا عبد وحنا.

(٥) أسرعت.

(٦) الزنانير جمع زنار بضم الزاي وهو ما يشد على الوسط.

(٧) يريد أبا نواس.

جمع دن وهو وعاء الخمر.

(٨) الشارب.

(٩) جمع ضغث قبضة حشيش يختلط فيه الرطب باليابس. ومنها أضغاث أحلام؛ وهي

(١٠) الأحلام المختلطة الملتبسة.

(١١) الزق : وعاء من جلد يستعمل لحمل الماء والخمر.

ولرب حان قد أدرت بديره خمر الصبا مزجت بصفو خموره
والى علي طرفه وبكفه فأمال من رأسي لعبٍّ كبيره
وترنم الناقوس عند صلاتهم ففتحت من عيني لرجع هديره

فصاح من حبائل نشوته، وقال أأشجعي ؟ قلت : أنا ذلك. فاستدعى ماء قراحاً، فشرب منه وغسل وجهه...

ابن زيدون ونثره الفني
٣٩٤ـ٤٦٣هـ

ابن زيدون هو الكاتب ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبدالله المشهور بابن زيدون المخزومي الأندلسي.

ولد عام ٣٥٤، ونشأ في مدينة قرطبة[١]، حيث كان أبوه من أعيان فقهائها، وتأدب على كبار أئمتها وقال الشعر وأجاده، وحفظ من مشهور شعر القدماء والمحدثين ما جرى مجرى الأمثال، ومن أخبار العرب وأيامها وأمثالها وحكمها شيئاً كثيراً، ولما نبه شأنه بين شعراء قرطبة وكتابها وأدبائها، اتصل بأبي الوليد بن جهور أحد ملوك الطوائف، فحظي عنده، ومدحه بالقصائد الطنانة، وصدرت عنه في دولته الرسائل البديعة حتى أصبح لسان دولته الناطق؛ وحسامها المسلول. فحسده أعداؤه وأفسدوا ما بينه وبين مليكه، وأحس منه ابن جهور دالة عليه ظنها ممالأة لأعدائه فاعتقله، ومكث في مجلسه مدة استشفع فيها إليه بقصائد أبدعها ورسائل استنفد فيها جهده، فما ألانت له قلباً، ولا ثنت له عطفاً، فأعمل الحيلة على فراره من سجنه وخلص إلى المعتضد بن عباد ملك

---

(١) مدينة عظيمة على نهر الوادي الكبير بالأندلس، وكانت قاعدة الدولة الأموية وآل جهور من ملوك الطوائف بعدهم.

إشبيلية[1]، إذ كان أشد ملوك الطوائف رغبة فيه، وتولى الوزارة له، وظل على حاله كذلك في عهد المعتمد بن المعتضد، حتى مات بإشبيلية عام ٤٦٣هـ.

وقد كانت ثقافة ابن زيدون ثقافة أدبية؛ فقد شب على القراءة والدرس، وحفظ كثيراً من مسائل الأدب، وكان متقد الذاكرة فامتلأت نفسه بالمعاني التى قرأها، وأسماء الناس الذين عرفهم في قراءته وكثير من الأمثال والحكم والأبيات التي جرت مجرى الأمثال. ثم كانت زعامة الأدب في المشرق، وقد ظهر ابن العميد ومن على طريقته في الكتابة، وكان أسلوبهم طريفاً، فتسرب إلى بلاد الأندلس، فأعجب ابن زيدون بهذا الأسلوب الأنيق كغيره من الكتاب الذي بالغوا في اتباع طريقة الصناعة اللفظية والشعر المنثور، ولكنه لم يعبأ بالسجع كثيراً لأنه لم يكن كغيره مدفوعاً إلى الكتابة بحب التأنق، بل دفعته إليها الحوادث. وقد تولى الكتابة لابن جهور وابن عباد، فكان من كتاب الدواوين، واشتهر في الكتابة الفنية الأدبية برسالتيه الجدية والهزلية : كتب الأولى وهو في السجن يستعطف فيها ابن جهور. وكتب الثانية عن لسان ولادة بنت المستكفي (المتوفاة عام ٤٨٠هـ) للوزير ابن عبدوس تهجوه وتقطع صلتها به؛ فاشتهر في عالم الكتابة بهاتين الرسالتين. وقد تكون هاتان الرسالتان من الرسالات النادرة، في الأدب العربي. وأظهر ميزاتهما أمران :

١ ــ ما تدلان عليه من نفس كاتبها وأخلاقه وشيمه.

٢ ــ كثرة ما فيهما من مقتبسات في الحكم والأمثال؛ والأشعار وحوادث التاريخ وأسماء الرجال المشهورين، من الحكماء والأدباء والعلماء. كل ذلك جاء مبثوثاً في أثناء كلامه.

---

(١) مدينة عظيمة على نهر الوادي الكبير أيضاً بالغرب الجنوبي من الأندلس ولا تزال إلى الآن من أعمر مدنها.

وكتابة ابن زيدون كثيراً ما يحليها بأبيات منثورة، وتلميحات إلى حوادث مشهورة، وأمثال وحكم في فقار غير مسجوعة غالباً، سالكاً فيها طريق التهويل والمبالغة في فروضه وأقيسته وتشبيهاته. وجرى على ذلك في رسالتيه : الهزلية والجدية.

وقد شرحهما الأدباء، وعنوا بتفصيل ما فيهما من الأخبار والأشعار والحكم وتراجم الشعراء، وأشهر تلك الشروح شرح ابن نباتة للهزلية والصفدي للجدية. ولولا جمع هاتين الرسالتين لكثير من فنون اللغة والأدب والتاريخ ما نسخت شهرته بالكتابة عند المتأخرين شهرته بالشعر عند المتقدمين. فقد كان يلقب عندهم ببحتري المغرب، ولا يقدح ذلك في بلاغته، وفصاحة عبارته، فمقام الرجل في سعة اطلاعه وسرعة خاطره أشهر من أن ينوه به، فقد قيل : إنه دفن بنتاً له، ووقف ليشكر الناس لتشييع جنازتها، فما أعاد في ذلك الوقت عبارة قالها أحد السائرة وأسماء الرجال والحوادث؛ فكما دل في رسالته الهزلية على أنه عارف بأساليب الهجاء، سباق في هذا الميدان أيضاً. فقد أقذع في ذم ابن عبدوس إقذاعاً شديداً، وكأنه جمع كل ما يمكن أن يقال في الذم والتهكم وأفرغه على ابن عبدوس في أسلوب جميل خلاب يدل على تمكنه من التصرف في أساليب الكلام، إذ على الرغم مما في هذه الرسالة من الطول وكثرة الاقتباس لأسماء الرجال والأمثال، والحوادث والأبيات الشعرية، والإطناب في كثير من المعاني، لا يكاد يشعر القارئ لها بشيء من الملل والابتذال، على أنها لا تخلو من العيوب، فقد سرد أسماء أكثر من خمسين رجلاً، وأكثر من عبارات الذم مما يحسب ثرثرة ولغواً. وجاء بعبارات تدل على غلظة طبعه وشدة حقده للانتقام، وعلى قدرته على التهكم والافتنان في أساليبه.

ورسالته الجدية جمع فيها كل ما يمكن أن يقال في الاستعطاف والمدح بعبارات ممزوجة بالأمثال والحكم. وأول شيء يسترعي النظر

في أسلوبها أن ألفائها وجملها تكاد تكون كلها مقتبسة من كلام غير الكاتب، من آثار أدبية وأمثال سائرة وأبيات من الشعر. وهذا إن لن يشهد له بقوة الابتكار دليل على قدرته في تأليف الكلام ونظمه، وبراعته في صناعة الكتابة واطلاعه الواسع. وقد جمع في هذه الرسالة بين التناسق في المعاني والألفاظ والتأليف والجمع. فبينما تجده يرق في الاستعطاف إلى أن يستصغر نفسه، ويجمع من المعاني والألفاظ ما يناسب ذلك، تجده أنسل من هذا الموقف إلى الفخر بنفسه والإشادة بشيمه. فهي رسالة بديعة في نظمها وأسلوبها، كثيرة الفائدة لما اشتلمت عليه من الأشعار والأمثال والحكم والحوادث وأسماء الرجال، جامعة لكثير من المعاني كالمدح والاعتذار، والاستعطاف والفخر والامتنان وذم الزمان، ولوم الأعداء والحقد عليهم والصبر والتجلد. كل ذلك بعبارات أكثرها بليغ سائغ، يدل على طول باع الكاتب في الأدب واللغة والتاريخ. ولكنها ليست على طريقة واحدة من التزام السجع أو الترسل؛ ثم إن كثرة الاقتباس بمناسبة وبغير مناسبة ربما يهوش على القارئ ويصرفه عن الغرض من كتابتها، ويحمله على التفكير في البخث عن معاني الأمثال ومعرفة الرجال والحوادث التى أشار إليها الكاتب.

وأما رسالته الهزلية التي كتبها لابن عبدوس على لسان ولادة يتهكم به ويذمه، فهي من هذا النوع أيضاً، من حيث الأسلوب، كذكر الأمثال. وفي هذه الرسالة شبه من رسالة التربيع والتدوير، التي كتبها الجاحظ إلى أحمد بن عبد الوهاب، وذلك مما يرجح أن ابن زيدون قلده في لاذع تهكمها، والإكثار من ذكر أعلام عرفوا في التاريخ بصفات، ضرب بهم المثل فيها، ولكن بين الرسالتين فرقاً ظاهراً، فإن الجاحظ لم يسف في الهجاء ولم يمض به، بل كان قوله كله تهكماً، يضحك من المكتوب إليه، وليس فيه من الشدة ما يحملك على رحمته، والحنق

على الكاتب لشناعة حملته، وهذا من فضل الجاحظ، وبعكس ذلك كان ابن زيدون في هذه الرسالة الهزلية.

ومن الرسالة الجدية لابن زيدون :

هذا العتب محمود عواقبه[1]، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلي[2]، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع، ولن يريبني من سيدي أن أبطأ سيبه[3] أو تأخر غير ضنين غناؤه[4]، فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها، وأثقل السحائب مشياً أحفلها، وأنفع الحيا ما صادف جدباً، والذ الشراب ما أصاب غليلاً، ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب[5] له الحمد على اهتباله، ولا عتب عليه في اغتفاله[6].

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللاتي سررن ألوف[7]

وأعود فأقول، ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك ؟ والجهل الذي

---

(١) من قول المتنبي :

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

(٢) النبوة : إخطاء الضريبة، الغمرة : الشدة، تنجلي : تنكشف، وفي المثل : غمرات ثم ينجلين.

(٣) تقشع : أصلها تتقشع، فخفف بحذف التاء الأولى، وتقشعت السحابة : أقلعت، والجملة مثل نقله الميداني.

(٤) ضنين : بخيل. غناء : نفع.

(٥) مع اليوم غد، أصله من المثل العربي : إن مع اليوم غدا، هو بمعنى المثل : إن غدا لناظره قريب، ولكل أجل كتاب : اقتباس من القرآن. والأجل : مدة الشيء. والمعنى لكل أجل أجله الله تعالى كتاب أثبته فيه، أو هو من المقلوب، والمعنى لكل كتاب أجل ينزل فيه.

(٦) الضمير في له الحمد لابن جهور المستعطف، الاهتبال : انتهاز الفرصة والتعجيل بالأمر، الاغتفال : ترك الشيء على تذكر له، والمعنى أنه يمدح الأمير على ما عجل له من خير، ولا يعتب عليه فيما أخر.

(٧) البيت من قول المتنبي.

لم يأت من ورائه حلمك ؟ والتطاول الذي لم يستغرقه تطولك[1] ؟ والتحالم الذي لم يف به احتمالك ؟ ولا أخلو من أن أكون بريئاً فأين العدل ؟ أو مسيئاً فأين الفضل ؟

إلا يكن ذنب فعدلك واسع   أو كان لي ذنب ففضلك أوسع
فهبني مسيئاً كالذي قلت طالباً   قصاصاً فأين الأخذ يا عز بالفضل

حنانيك ! قد بلغ السيل الزبي، ونالني ما حسبي به وكفى، وما أراني إلا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت، وقال لي نوح أركب معنا فقلت سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، وأمرت ببناء صرح لعلي أطلع إلى إله موسى، وعكفت على العجل، واعتدبت في السبت، وتعاطيت فعقرت وشربت من النهر الذي ابتلى به جيوش طالوت، وقدت الفيل لأبرهة[2] وعاهدت قريشاً على ما في الصحيفة[3]، وتأولت في بيعة العقبة[4]، واستنفرت إلى العير ببدر[5]، وانخذلت بثلث

---

(١) التطاول : التعدي، والتطول : التفضل، والتطاول من الطول بالضم ضد العرض، والتطول : الطول بالفتح أي الفضل.

(٢) هو ابن الصباح ملك اليمن، من قبل أصحمة النجاشي، وقد قصد إلى الكعبة بجيش تتقدمه الفيلة، فأرسل الله عليه طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل.

(٣) لما رأت قريش قوة النبي، بهجرة المسلمين إلى الحبشة، وإسلام حمزة وعمر، وفشو الإسلام في القبائل : أرادوا قتله، وقدموا لأبي طالب عمه عمارة بن الوليد أعز فتى فيهم، ليأخذه بدل ابن أخيه، فأبى، وجمع بني هاشم وبني عبد المطلب. ودخلوا شعباً احتموا به، فكتبت قريش صحيفة، تعاقدت فيها على مقاطعتهم حتى يسلموا رسول الله، فمكثوا ثلاث سنين، لا يصل إليهم شيء إلا سراً، وسلط الله الأرضة على الصحيفة، فأكلت ما فيها من ظلم، ولم تبق فيها إلا اسم الله.

(٤) بيعات العقبة ثلاث، ولم يرد أن أحداً من المبايعين في إحداها تأول، ونقض البيعة، فيؤول كلام ابن زيدون على فرض حصول ذلك.

(٥) الذي نفر إلى قريش ليخبرها بأمر العير هو ضمضم بن عمرو الغفاري، بعثه بذلك أبو سفيان.

الناس يوم أحد[1] وتخلفت عن صلاة العصر في بني قريظة[2]، وجئت بالإفك على عائشة الصديقية، وأنفت من إمارة أسامة[3]، وزعمت أن خلافة أبي بكر كانت فلتة[4]، ورويت رمحي من كتيبة خالد[5]، ومزقت الأديم الذي باركت يد الله عليه[6]، وضحيت بأشمط، عنوان السجود به[7]، وبذلت لقطام[8]:

---

(١) المنخذل يوم أحد، هو عبدالله بن أبي بن سلول.

(٢) أي خالفت النبي في فعله، جاءه أنه عليه الصلاة والسلام، لما رجع من غزوة الخندق، ووضع المسلمون السلاح، جاءه جبريل ظهراً، وقال له « وضعت السلاح وما وضعته الملائكة بعد، إن الله يأمرك بالمسير إلى بني قريظة » فأمر رسول الله مؤذناً ينادي في المسلمين: من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة !.

(٣) هو أسامة بن زيد، مولى رسول الله وحبه، وقد أمره رسول الله على بعث إلى الشام، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس، وأوعب مع أسامة المهاجرون الأولون.

(٤) هذه كلمة عمر بن الخطاب، وقد قالها في معرض الحمد لله على حصولها، بعد تدبير أصحاب السقيفة، وقد عيب ابن زيدون بإيراده هذه العبارة، لأنه ساقها مساق الذم، وهي ليست كذلك أصلاً، وسنورد عليك في ترجمة ابن زيدون، جملة ما نقدت به رسالتاه.

(٥) إشارة إلى قول أبي شجرة السلمي:

ورويت رمحي من كتيبة خالد   وإني لأرجو بعدها أن أعمرا

وكان أبو شجرة هذا من فتاك العرب، فعل ذلك مع جيش خالد في حرب أهل الردة، ثم أسلم.

(٦) يريد بالأديم الممزق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قتله أبو لؤلؤة مولى المغيرة بن شعبة، وهذا الاستعمال، من قول بعض من رثى عمر:

جزى الله خيراً من إمام وباركت   يد الله في ذاك الأديم الممزق

(٧) يريد قتل عثمان، والأشمط: الذي في شعره بياض وسواد، والاستعمال من قول حسان رضي الله عنهما:

ضحو بأشمط عنوان السجود به   يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا

(٨) يشير إلى مقتل علي رضي الله عنه، وقد قتله الشقي عبد الرحمن بن ملجم وقطام=

ثلاثــة آلاف وعبــد وقينــة ... وضرب علي بالحسام المسمم

وكتبت إلى عمرو بن سعد، أن جعجع بالحسين[1]، وتمثلت عندما بلغني من وقعة الحرة[2]:

ليت أشياخي ببـدر شهـدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسل

ورجمت الكعبة، وصلبت العائذ[3]، على الثنية، لكان فيما جرى على ما يحتمل أن يكون نكالاً ويدعى ولو على المجاز عقاباً.

ومن الرسالة الهزلية التي كتبها على لسان ولادة إلى الوزير ابن عبدوس، وكان هذا أرسل إليها امرأة تستميلها إليه:

« كلامك تمتمة[4]، وحديثك غمغمة[5]، وبيانك فهفهة[6] وضحكك قهقهة[7]، ومشيك هرولة[8]، وغناك مسألة[9]، ودينك زندقة[10] وعلمك

= هذه خطيبته. التي اشترطت عليه في زواجها، أن يمهرها بثلاثة آلاف عبد وقينة وبقتل علي، فأجابها بالبيت المذكور، وبعده:

فلا مهر أغلى من علي وإن علا ... ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

(١) يشير إلى مقتل الحسين، وكان عبدالله بن زياد كتب إلى عمرو بن سعد بن أبي وقاص « أن جعجع الحسين » وذلك لما أبطأ عمرو عن قتاله وجعجع به: ضيق عليه.

(٢) يشير إلى ما فعله يزيد في وقعة المدينة عند حرة واقم، بقيادة مسلم بن عقبة الذي سمى مسرفاً، لشدة سرفه في سفك الدماء؛ وقد تمثل يزيد بالبيت المذكور وهو من قول عبدالله بن الزبعري: في وقعة بدر.

(٣) رجم الكعبة كان من فعل الحجاج؛ لما حاصر بها عبدالله بن الزبير، وقتله وصلبه، ورمى الكعبة بالمنجنيق، وسمى عبدالله « عائذاً » لأنه عاذ بالبيت الحرام؛ واستجار به.

(٤) التردد في التاء

(٥) أن يسمع الصوت ولا يبين تقطيع الحروف.

(٦) العي في النطق.

(٧) الضحك الشديد يستدلون به على ضعف العقل.

(٨) بين المشي والعدو.

(٩) كدية.

(١٠) إلحاد.

مخرقة[1] :

مساو لو قسمن على الغواني　　لما أمهـرن إلا بالطـلاق[2]

حتـى أن باقـلاً[3] موصـف بالبلاغـة إذا قـرن بك. وهبنقـة[4] مستوجب لاسم العقل إذا أضيف إليك. وطويسا[5] مأثور عنه يمن الطالع إذا قيس عليك. فوجودك عدم[6]. والاغتباط بك ندم. والخيبة منك ظفر والجنة معك سقر. كيف رأيت لؤمك لكرمي وفاء. وضعتك لشرفي كفاء[7] ؟! وأني جهلت أن الأشياء إنما تنجذب إلى أشكالها. والطير إنما تقع على آلافها !! وهلا علمت أن الشرق والغرب لا يجتمعان. وشعرت أن المؤمن والكافر لا يتقاربان وقلت : الخبيث والطيب لا يستويان[8] وتمثلت :

---

(١) من الخرق بالضم وهو جهل والحمق يقال خرق الرجل يخرق فهو أخرق والأنثى خرقاء.

(٢) البيت لأبي تمام.

(٣) مضرب المثل في العي.

(٤) مضرب المثل في الخبل وضعف العقل، رووا أنه وضع عقداً من الودع في عنقه لئلا يضيع، وأن أخاه راقبه حتى نام فأخذ العقد ووضعه في عنقه، فلما تنبه قال لأخيه « أنت أنا، فأينا يا ترى من هو أنا ؟! » وكان يلقب ذا الودعات وهو جاهلي.

(٥) هو المغني الماجن المعروف وكان يسكن المدينة، وهو أول من غنى بها على الدف بالعربية، ويضرب به المثل في الشؤم، لأنه ولد يوم مات النبي ﷺ، وفطم يوم مات أبو بكر، وختن يوم قتل عمر، وتزوج يوم قتل عثمان وكانت أمه تمشي بالنميمة بين الأنصار، وله قصص فيها أدب رائع.

(٦) إشارة إلى قول المتنبي :

يا من يعز علينا أن نفارقهم　　وجداننا كل شيء بعدكم عدم

(٧) وفاء وكفاء مصدرا وافى وكافأ، وكأنما أخذا من الأثر الشريف، اللهم إني أحمدك حمداً يوافي نعمك، ويكافيء مزيدك.

(٨) إشارة إلى قول علي كرم الله وجهه : الدنيا والآخرة كالمشرق والمغرب كلما ازددت من إحداهما قرباً، ازددت من الأخرى بعداً، ومن قول الرسول ﷺ : المؤمن أطيب من عمله، والكافر أخبث من عمله.

أيهـا المنكـح الثريـا سهيــلا   عمرك الله ! كيف يلتقيان ؟[1]

وذكرت أني علق لا يباع ممن زاد[2] وطائر لا يصيده من أراد. وغرض لا يصيبه إلا من أجاد ! ما أحسبك إلا كنت قد تهيأت للتهنئة.

ولولا أن جرخ العجماء جبار[3] للقيت من الكـواعب مـا لاقـى يسار[4] فما هم إلا ببعض ما به هممت، ولا تعرض إلا لأيسر ماله تعـرضت[5]، أيـن ادعـاؤك روايـة الأشعـار، وتعاطيـك حفـظ السيـر

---

(١) قال في اللسان : قال الجوهري : معنى لعمر الله، وعمر الله : أحلف ببقاء الله ودوامه، قال : وإذا قلت عمرك الله فكأنك قلت بتعميرك الله. أي بإقرارك له بالبقاء وقول ابن أربيعة.

أيها المنكح الثريا سهيلا   عمرك لله ! كيف يلتقيان ؟

يريد سألت الله أن يطيل عمرك لأنه لم يرد القسم بذلك.

(٢) العلق : النفيس، وهو إشارة إلى قول الحريث بن قحطان التميمي — وكانت له فرس اسمها سكاب. أراد بعض ملوك اليمن أخذها مه فهرب بها.

أبيت اللعن ! إن سكاب علق   نفيس، لا تعار ولا تبـاع
مفـــداة مكرمـــة علينـــا   تجاع لها العيال ولا تجـاع
فلا تطمع — أبيت اللعن — فيها   ومنعكهـا بشـيء يستطـاع

(٣) هدر، وفي الحديث المعدن جبار والبئر جبار، والعجماء جبار. ومعناه أن تنفلت البهيمة العجماء فتصيب في انفلاتها إنساناً أو شيئاً فجرحها هدر، وكذلك البئر العارية يسقط فيها إنسان فيهلك فدمه هدر، والمعدن إذا انهار على حافره فقتله فدمه هدر.

(٤) اسم عبد أسود دميم كان النساء يولعن به لقبحه ويحسبهم لغفلته معجبات به، نظرت إليه مولاته يوماً فضحكت فظنها تغازله. فقال لصاحب له أسود « قد والله — عشقتني مولاتي فؤزورنها الليلة » فقال له صاحبه : يا يسار اشرب لبن العشار — النوق — وكل لحم الحوار، وإياك وبنات الأحرار » فقال له : « والله ما رأتني حرة إلا عشقتني » فلما أمسى قال لصاحبه : « احفظ علي إبلي حتى أنصرف وأعود إليك، وذهب فدخل علي مولاته يراودها عن نفسها فقالت له : مكان فإن للحرائر طيباً أشمك إياه »، فقال لها : هاتيه فأتته بطيب وموسى قاطعة وأجلسته على الطيب وأنحت بالموسى على هنيه فقطعته، فخرج يعدو حتى أتى صاحبه ودمه يسيل، فذهبت حادثته مثلاً.

(٥) أي لأنك أقل مني ويسار خير منك.

والأخبار ؟ أما ثاب إليك قول الشاعر :

بنو دارم أكفاؤهم آل مسمع ... وتنكح في أكفائها الحبطات[1]

وهلا عشيت ولم تغتر[2] !؟ وما أشك في أنك تكون وافد البراجم[3] أو ترجع بصحيفة الملتمس[4]، أو أفعل بك ما فعله عقيل بن علفة[5] الجهني؛ إذ جاءه خاطباً. فدهن أسته بزيت وأدناه من قرية النمل. ومتى كثر تلاقينا، واتصل ترائينا، فيدعوني إليك ما دعا ابنة

---

(١) البيت للفرزدق، يقوله لرجل من الحبطات بكسر الباء وفتحها، وهم بنو الحرث بن عمرو بن تميم، ويجمعهم البيت مع بني دارم، وإنما نقص قدر الحبطات عنهم لقول الشاعر فيهم :

رأيت الخمر من شر المطايا ... كما الحبطات شر بني تميم

وإنما سموا الحبطات لأن أباهم الحرث كان في سفر فأكل أكلاً انتفخ منه ومات، وآل مسمع بيت بكر بن وائل في الإسلام.

(٢) مثل يقال : عش إبلك ولا تغتر، وعشيت الرجل يساوي أطعمته العشاء، قال :

بات يعشيها بعضب باتر ... يقصد في أسواقها وجائر

وعشاء تعشية وأعشاه كعشاه، وفي المثل : سقط العشاء به على سرحان، يضرب للرجل يطلب الأمر التافه فيقع في الهلكة، وأصله أن دابة طلبت العشاء فهجمت على أسد.

(٣) البراجم خمسة من أولاد حنظلة التميمي، زعموا أنه كان لعمرو بن هند وتر عند تميم، فحلف ليحرقن مائة منهم فأحرق تسعة وتسعين، وبينما هو يلتمس تمام المائة إذ مر به رجل من البراجم يسمى عامراً قادماً من سفر، فاشتم رائحة القتار، فظن أن الملك أتخذ طعاماً، فعدل اليه. فقيل له من أنت ؟ قال من البراجم فقالوا : إن الشقي وافد البراجم، ثم ألقي في النار، ومن هنا عيرت تميم بحب الطعام.

(٤) صحيفة المتلمس وقصته وطرفة مع عمرو بن هند مشهورة.

(٥) علفة كسكرة والد عقيل المري الشاعر، كانت تصهر اليه ملوك بني أمية وهو القائل لعبد الملك بن مروان : جنبتي هجناء أبنائك.

الخس إلى عبدها، من طول السواد وقرب الوساد[1] ! وهل فقدت الأراقم فأنكح في جنب[2] !؟ أو عضلني همام بن مرة فأقول : « زوج من عود، خير من قعود ».

ومن نثر ابن زيدون الذي سار فيه على نهجه في الرسالتين ما أرسل به إلى أحد أصدقائه، وهو مختف بقرطبة بعد فراره من سجن ابن جهور، قال :

« وبلغني أنك أحد اللائمين لي » ومن أمثالهم « ويل للشجي من الخلي[3] » « وهان على الأملس ما لاقى الدبر[4] » وعلمت أن العاجز من لا يستبد. فالمرء يعجز لا محالة، ولم استجز أن أكون ثالث الأذلين : العير والوتد، وتذكرت أن الفرار من الظلم، والهرب مما لا يطاق، من سنن المرسلين، وقد قال الله تعالى على لسان موسى: ﴿ **ففرت منكم**

---

(١) امرأة جاهلية، والوساد : المخدة، والسواد بكسر السين مشددة، مصدر ساودها سوادك ومساودة، أي سارها مسارة وسراراً فأدنى سواده من سوادها : أي شخصه من شخصها. قيل لابنة الخس ــ وقد زنت بعبدها ــ لم زنيت وأنت سيدة قومك ؟ فقالت « قرب الوساد، وطول السواد ». ويضرب مثلاً للأمر يلقي صاحبه فيما يكره.

(٢) الأراقم حي من تغلب، وجنب حي من اليمن. وهو إشارة الى قول المهلهل

أعزز على تغلب بما لقيت	أخت بني الأكرمين من جشم
أنكحها فقدها الأراقم في جنـ	ـب، وكان الحباء من أدم
لو بأبانين جاء يخطبها	ضرج ما أنف خاطب بدم

وذلك لما طالت حرب البسوس هرب، ونزل في طريقه على حي من اليمن، فخطبوا إليه ابنته وأجبروه على تزويجها، وساقوا المهر جلوداً.

(٣) الشجي كفرح : المشغول، وقد شدد في الشعر ويجوز التشديد في المثل أيضاً للمقابلة بالخلي. الخلي كغنى : الفارغ، والذي قال هذا المثل، أكثم بن صيفي لما عاد له ابنه بخبر رسول الله ﷺ، فجمع قومه ورغبهم في الإسلام فقال له مالك بن نويرة : قد خرف شيخكم ! فقال له أكثم « ويل للشجي من الخلي ».

(٤) الأملس : البريء من القروح. الدبر كفرح : من به قرحة الدبرة بالتحريك : يضرب هذا المثل في سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه وكذلك المثل قبله.

لما خفتكم﴾ فنظرت في مفارقة الوطن، فقديماً ضاع الفاضل في وطنه، وكسد العلق في معدنه، كمال قال:

أضيع في معشري وكم بلد   يكون عود الكباء من حطبه[1]

فاستخرت الله في إنفاذ العزم، وأنا الآن حيث أمنت بعض الأمن، إلا أن الغي لم يرتفع، ومادة البغي لم تنقطع».

ومن نثره الذي ترك فيه طريقته في رسالتيه:

«لقد كان من محاسن الشيم، وشروط المروءة والكرم، أن يهب لي ما أنكر لما عرف، ويغفر ما سخط لما رضي، ويدفع بالتي هي أحسن، ويؤثر الذي هو أجمل وأرفق، ويتوقف عندما نص[2] له من سعاية، وزف إليه من وشاية، فإن كان باطلاً ألقاه، وفضح المتقرب به وأقصاه، وإن كان حقاً صبر صبر الحليم، وأغضى إغضاء الكريم، وقبل إنابة المعتب، واقتصد في مؤاخذة المذنب، فقدم التوقيف قبل التثقيف، والتأنيب قبل التأديب، فإن الرفق بالجاني عتاب. والحر يلحى، والعصا للعبد[3]».

ولا نكون مبعدين إذا قلنا ما قاله ابن نباتة في الحكم على نثر ابن زيدون، قال:

«أما نثره، فإنه أكثر فيه من استعمال أمثال العرب، وحل أشعار المتقدمين والمتأخرين، إلى أن قيل: إن رسائله أشبه بالمنظوم منها بالمنثور، وعلى ذلك فقد دل على اطلاع معجب، واستحضار معجز».

---

(١) الكباء ككساء: عود البخور.

(٢) نص الرجل الحديث: رفعه.

(٣) العتاب: التأنيب على الذنب. لحاه يلحوه: شتمه.

عبد الملك بن أبي الخصال

المتوفى عام ٥٣٩هـ

عبد الملك بن أبي الخصال الغافقي كاتب من كتاب الأندلس البلغاء وأدبائها الكبار. سكن قرطبة، ثم اتصل بولاة لمتونة بمراكش وفارس، وكان كاتباً لهم. وقد اشتهر برسائله التي كانت من نماذج الكتابة في ذلك الوقت، توفي في سنة ٣٥٩هـ.

كتب إلى بعض أصدقائه : « الحذر أعزك الله يؤتى من الثقة، والحبيب يؤذى من المقة[١]. وقد كنت أرضى من ودك وهو الصحيح بلمحة، واقتنع من ثنائك وهو المسك بنفحة. فما زلت تعرضني للامتحان، وتطالبني بالبرهان وتأخذني بالبيان، وأنا بنفسي أعلم، وعلى مقداري أحوط وأحزم، والمعيدي يسمع به لا أن يرى[٢] ».

وكتب إلى وزير وقد خلع من وزارته : « مثلك ــ ثبت الله فؤادك، وخفف عن كاهل المكارم ما أوهى بك وآدك[٣] ــ يلقى دهره غير

---

(١) المقة : المحبة.

(٢) يشير إلى المثل المشهور : « تسمع بالمعيدي خير ما أن تراه ».

(٣) آداه الأمر أوداً وأوودا : بلغ منه المجهود. والأوادي : الدواهي.

مكترث، وينازله بصبر غير منتكث[1]، ويبسم عند قطوبه، ويفل[2] شباة خطوبه، فما هي إلا غمرة[3] ثم تنجلي، وخطرة يليها من الصنع الجميل ما يلي. لا جرم أن الحر حيث كان حر، وأن الدر برغم من جهله در. وهل كنت إلا حساماً انتضاه[4] قدر أمضاه، وساعد ارتضاه، فإن أغمده فقد قضى ما عليه، وإن جرده فذلك فذاك إليه ».

---

(١) منقوض.

(٢) فل السيف : ثلمه. وفل القوم : هزمهم، يريد أنه يتغلب على الخطوب.

(٣) الغمرة: الشدة.

(٤) انتضى السيف : استله من غمده.

لسان الدين بن الخطيب
٧١٣ـ٧٧٦هـ

ـ ١ ـ

هو ذو الوزارتين، محمد بن عبدالله بن سعيد بن عبدالله بن سعيد ابن علي بن أحمد السلماني. ولد بلوشة على عشرة فراسخ من غرناطة في ٢٥ رجب عام ٧١٣، وينسب بيته إلى سلمان، وهو حي من مراد من عرب اليمن، انتقل إلى الشام ثم هاجر إلى الأندلس فسكن قرطبة أولاً ثم طليطلة ثم لوشة.. وأخيراً استقر في غرناطة[1].

ولا يعلم بالضبط الوقت الذي هاجرت فيه هذه الأسرة من اليمن إلى الشام، ثم من الشام إلى الأندلس، لكن الظاهر أن الهجرتين كانتا تبعاً للهجرتين الكبيرتين : الهجرة إلى الشام في مدة حكم الأمويين أيام كانت دمشق حاضرة للعرب والإسلام، وحيث كان فيها لليمنيين خاصة مقام محمود ومنزلة كبرى عند ملوكها. والهجرة إلى الأندلس بعد أن فتحها العرب وأشاعوا في البلاد حديث رغدها فأسرع الناس إليها من كل حدب، وخاصة من الشام، بدليل تسميتهم بعض بقاع

---

(١) راجع نفح الطيب (٣ : ٣) نقلاً عن ترجمة للسان الدين بقلمه في آخر الاحاطة.

الأندلس بأسماء البقاع الشامية. ومهما كان فقد كان بيت لسان الدين بيت شرف وعلم وسيادة ونفوذ، وكان يعرف ببيت الوزير، حتى نشأ سعيد الجد الأعلى للسان الدين، وكان من أهل العلم والدين، بلوشة، وهو أول من استوطنها منهم، وكان خطيباً بها؛ فعرف هذا البيت منذ ذلك اليوم ببيت الخطيب.

وكان جده سعيد الأدنى على خلال حميدة : من خط، وتلاوة، وفقه، وحساب، وأدب، توفي عام ٦٨٣؛ وأبوه عبدالله من انتقل إلى غرناطة وخدم ملوك بني الأحمر واستعمل على مخازن الطعام، وكان من العلماء بالأدب والطب : قرأ على أبي الحسن البلوطي وأبي جعفر ابن الوزير وغيرهما وأجاز طائفة من أهل المشرق، وتوفي بطريف شهيداً عام ٧٤١.

وكان لوراثاته أثر كبير في انصراف لسان الدين إلى العلم والأدب، وتبريزه فيهما.

— ٢ —

وكان لمحمد كذلك ــ من محيطه المنزلي والاجتماعي، ومن تراث أسرته وانصرافهم للعلم وعناية أهل زمانه به، مع كثرة العلماء حوله وسهولة التحصيل؛ ــ أكبر عون على بلوغه تلك المنزلة الرفيعة التي نالها بعد.

وكان أول من قرأ عليه القرآن أبو عبدالله بن عبد المولي العواد، فأتقنه كتابة وحفظاً وتجويداً؛ وقرأه أيضاً على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيجاطي، وأخذ عنه العربية، وهو أول من انتفع به؛ وقرأ على الخطيب أبي القاسم، ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الإمام أبي عبدالله

الفخار الالبيري شيخ النحويين لعهده؛ وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبدالله بن بكر، وتأدب بالرئيس أبي الحسن بن الجياب، وهو سلفه في الوزارة، وروى عن كثير من الأعيان، وأخذ الطب وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا بن يحيى بن هذيل، ولازمه وألف فيه في هذين العلمين..

— ٣ —

وقد خلف لسان الدين مؤلفات جمة. وآثاراً قيمة في التاريخ والأدب وعلوم الشرع والطب، من أهمها :

الإحاطة في أخبار غرناطة.
الإماطة عن وجه الإحاطة فيما أمكن من تاريخ غرناطة.
اللمحة البدرية في الدولة النصرية.
طرفة العصر في دولة بني نصر.
رقم الحلل في نظم الدول.
الكتيبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة.
أعلام الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام.
بستان الدول (أتم منه ٣٠ سفراً).
نفاضة الجراب في علالة الاغتراب.
خطرة الصيف، رحلة الشتاء والصيف.
مفاضلة مالقة وسلا.
معيار الأخبار.
التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى.
الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم (التاج) من الجواهر.
ريحانة الكتاب (عدة مجلدات).

السحر والشعر.
جيش التوشيح.
الصيب والجهام، وهو ديوان شعره.
النثر في غرض السلطانيات.
عائد الصلة.
النفاية بعد الكفاية.
المختصر في الطريقة الفقهية.
الألفية في أصول الفقه، وله أراجيز أخرى في العلوم.
روضة التعريف في التصوف.
اليوسفي في علم الطب.
المسائل الطبية.
عمل من طب لمن حب.

— ٤ —

ولم يكد لسان الدين يكمل دور الطلب حتى سطع نجمه متلألئاً في سماء الشعر والنثر، وبلغ في المديح مبلغاً جعل أعناق الأمراء تتطاول إليه؛ لكنه لم يلتفت إلى أحد منهم، وعكف على مدح السلطان أبي الحجاج « سابع ملوك بني نصر المعروفين ببني الأحمر » حتى امتلأ حوضه — كما يقول ابن خلدون — بنظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه. فذاعت في الدولة مدائحه، وانتشرت في الآفاق رسائله. فرقاه السلطان إلى خدمته، وأثبته في ديوان الكتابة ببابه مرءوساً بأستاذه أبي الحسن ابن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية، وكاتب السلطان بغرناطة... واستقل ابن الجياب برياسة الكتابة من يومئذ إلى أن هلك بالطاعون الجارف عام ٧٤٩.

وخلا الجو للسان الدين بن الخطيب بموت أبي الحسن، فولاه السلطان رياسة الكتابة ببابه، وثناها بالوزارة ولقبه بها؛ فاستقل بذلك، وصدرت عنه غرائب من الترسل في مكاتبة جيرانهم من ملوك العدوة، وقربه السلطان وبلغ به من المخالطة إلى حيث لم يلغ بأحد من قبله، حتى سفر عنه إلى السلطان أبي عنان ملك بني مرين بالعدوة... فجلى من أغراض سفارته، وبقي أثيراً عن السلطان حتى توفي سنة ٧٥٥، فتولى من بغده ابنه محمد، فكان له ابن الخطيب كما كان لأبيه من حيث الوزارة؛ ولكنه اتخذ للكتابة غيره، وجعله رديفاً له، فأدار دفة الأمور معاً، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة. ثم أرسل ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي عنان ليمدهم على عدوهم الطاغية ملك إسبانيا، فقام بهذه المهمة على أحسن ما يرام.

ودامت هذه الحال خمس سنين. ثم بدأ دور أفول نجم لسان الدين بسقوط سلطانه، وتضييق المتغلب عليه في محبسه وهو يرسل الرقى إلى ولاة الأمور من قصائد منمقة ورسائل بليغة؛ فلا تلين لهم قناة ولا ترقق لهم قلباً، حتى سعى له أحد أصدقائه عند ملك المغرب فشفع فيه. وفي أواخر اللمحة البدرية قصيدة له في مدح ملك المغرب والإشارة إلى هذا الدور من حياة لسان الدين.

ويقول لسان الدين يحدثنا عن نفسه بأسلوبه البديع المسجوع، واصفاً حياته عند ملك المغرب، حيث يقول في (الإحاطة) :

« وصلت الشفاعة في مكتتبه بخط ملك المغرب، وجعل خلاصي شرطاً في العقدة ومسالمة الدولة، فانتقلت صحبة سلطاني المكفور الحق إلى المغرب. وبالغ ملكه في برى : منزلاً رحباً، وعيشاً خفضاً، وأقطاعاً جمة، وجراية ما وراءها مرمى. وجعلني بمجلسه صدراً، ثم أسعف قصدي في تهيؤ الخلوة بمدينة سلا، منوه الصكوك مهناً القرار، متفقداً باللها والخلع، مخول العقار، موفور الحاشية مخلي بيني وبين إصلاح

معادي؛ إلى أن رد الله على السلطان أمير المؤمنين أبي عبدالله بن الحجاج ملكه ».

عاد لسان الدين إلى الأندلس وحظي عند ملكه، فولاه الوزارة وأعاده إلى منزلته، فهنأ عيشه هناك إلا ما كان من بعض وجهاء البلاد ممن ساءهم نفود لسان الدين، فراحوا يكيدون له عند الملك الذي سخط عليهم ونكبهم، فخلا الجو لابن الخطيب ورفعه الملك إلى أسمى منزلة وخلط بنيه بندمائه وأهل خلوته، وأفرده بتدبير المملكة فأصبح بيده الحل والعقد، وانصرفت إليه الوجوه وعلقت عليه الآمال، وغصت به بطانة السلطان وحاشيته فتوافقوا على السعاية به. وقد أصم السلطان أذنه عن قبولها، ولكن الخبر نما إلى ابن الخطيب فعزم على الرحيل.

— ٥ —

برم ابن الخطيب بدسائس القوم فاستأذن سلطانه في تفقد الثغور الغربية، فسار إليها في لمة من فرسانه وانحدر منها إلى المغرب حيث وجد فيه كل إكرام، ثم قدم على ملكه عبد العزيز عام ٧٧٣ في تلمسان فاهتزت له الدولة، واستقبل استقبالاً باهراً، وأحل من الدولة في أسمى محل. وأخرج السلطان لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مدين إلى الأندلس في طلب أهله وولده، وقدم بهم على أحسن حال... ثم وشوا به إلى السلطان، وأحصوا خطيآته، واتهموه بالزندقة، وكان من أكبر العاملين على ذلك ملك الأندلس، لكن عبد العزيز أبت عليه عربيته ووفاؤه أن يخفر جواره، فزاد في إكرامه وإكرام ولده حتى أتته منيته.

فقد لسان الدين بموت عبد العزيز أكبر رجل قادر على حمايته،

فأصبح غرضاً للمصائب والبلايا التي يسعى ليوقعه بها أعداؤه الكثيرون.

ووقعت الحرب بين ملك الأندلس وأحد المتغلبين على المغرب، فظفر فيها الأول واشترط على خصمه تسلم ابن الخطيب، فقبض عليه عدوه الألد سليمان بن داود وحبسه، ثم حاكموه على كلمات من الزندقة وجدت في كتبه، ورغماً عن دفاعه عن نفسه وظهور براءته أرسل إليه سليمان في محبسه بعض حاشيته من السفلة فقتلوه خنقاً، ثم أخرجوه لليوم الثاني وأضرموا حوله النار حتى احترق شعره واسودت بشرته، ثم وضع في حفرته.

— ٦ —

ويقول عنه ابن خلدون في تاريخه : نشأ لسان الدين بغرناطة، وقرأ وتأدب على مشيختها؛ واختص بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هذيل، وأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرز في الطب وانتحل الأدب، وأخذ عن أشياخه، وكثر نظمه ونثره؛ ونبغ في الشعر والترسل بحيث لا يجارى فيهما، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بني الأحمر لعصره، وملأ الدنيا بمدائحه، وانتشرت في الآفاق، فرقاه السلطان إلى خدمته، وأثبته في ديوان الكتاب ببابه، مرءوساً بأبي الحسن بن الجياب شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية، وكاتب السلطان بغرناطة، فاستبد ابن الخطيب برياسة الكتاب، مثناة بالوزارة ولقبه بها، فاستقل بذلك، وصدرت عنه غرائب من الترسل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العدوة... إلى آخر ما ذكره ابن خلدون من حياته ونشأته الأدبية.

وقد ساعد ابن الخطيب اطلاعه الواسع في اللغة العربية وفنونها على أن يكون كاتباً من كبار الكتاب، فألف في كثير من أنواع العلوم والآداب، وكتب كثيراً من الرسائل السياسية والإخوانية والسلطانية، وكتب في التاريخ والأدب والاستعطاف والوصف وغيرها، ورسائله طافحة بمعلوماته في الأدب والتاريخ والعلوم.

ويفترق أسلوبه العلمي عن أسلوبه الأدبي : فهو في أسلوبه العلمي لا يلتزم طريقة السجع، بل يسرد العبارات سرداً، وأحياناً يغلب عليه السجع والمحسنات البديعية، وتغلب عليه الصبغة الأدبية في كتبه العلمية، فهو من أكبر الكتاب، وأوسعهم علماً وأكثرهم تأليفاً.

وكانت عنايته في كتابته الأدبية وفي خصائص أسلوبه موجهة إلى الصناعة اللفظية. إذ كان يعنى باللفظ عناية عظيمة ويقصد إلى التنميق وتعمل السجع، وله عناية خاصة بألفاظ المدح والثناء، وعبارات التبجيل والتعظيم. ولقد يطيل في ذلك إطالة تدعو إلى الملل، وتدل على التكلف؛ وأسلوبه على نحو أسلوب ابن العميد من حيث تعمل السجع وزاد عليه ميله إلى الإطناب؛ فكثيراً ما كانت معانيه قليلة وألفاظه وجمله كثيرة. فكانت الإجادة في الكتابة عنده في الإحاطة والإطناب.

ولسان الدين بن الخطيب له في الأدب منزلة عالية، ومكانة مرموقة، ومقام معروف، وله في الشعر والنثر إجادة، وأكثر نثره في السياسة وما يتصل بها، وفي الرسائل السلطانية والإخوانية، وتراجم الوزراء والعلماء والأدباء، ممن اتصل منه بسبب : كأساتذته وتلاميذه ومعاصريه، وأكثر شعره في الملوك والسلاطين، ومقدمات السفارات، والاستنجاد ورثاء العظماء من السلاطين وغيرهم، وله مدائح نبوية.

ومنزلة ابن الخطيب ترجع إلى أنه كاتب من أكبر الكتاب، وأوسعهم

علماً، وأكثرهم تأليفاً؛ فقد ترك من المؤلفات في أنواع العلوم والآداب ما يناهز الستين مؤلفاً. عقد لها المقري الباب السادس من النفح؛ ناقلاً تعريف المؤلف بها عن (الإحاطة)، وله كثير من الرسائل السياسية والإخوانية والسلطانية وغيرها؛ وكلها تدل على اطلاع واسع، وفكر خصيب.

ويمتاز أسلوبه في الكتابة بالسجع والإطالة، والعناية بالصناعة اللفظية والقصد إلى التنميق واستخدام المحسنات البديعية، وقد يترك السجع في كتاباته العلمية أحياناً، وقد تتغلب عليه النزعة الأدبية، فيسجع فيها كما يسجع في غيرها.

وللنقاد آراء كثيرة في نثر ابن الخطيب. يقول عنه الأمير الأديب أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر : « هو شاعر الدنيا، وعلم المفرد والثنيا، وكانت الأرض إلى يوم العرض.. آخر من تقدم في الماضي، وسيف مقوله ليس بالكهام إذ هو الماضي. وإلا فانظر كلام الكتاب الأول في العصبة. كيف كان فيهم بالإفادة صاحب القصبة للبراعة باليراعة، وبه أسكت صائلهم. وما حمدت بكرهم وأصائلهم. للجزالة المشربة بالحلاوة، الممكنة من مفاصل الطلاوة، وهو نفيس العدوتين، ورئيس الدولتين، بالاطلاع على العلوم « هو شاعر مفلق، وخطيب مصقع. وكاتب مترسل بليغ. لولا ما في إنشائه من الإكثار الذي لا يكاد يخلو من عثار، والاطناب الذي يقضي إلى الاجتناب والإسهاب الذي يقد الإهاب ويورث الالتهاب.. !

وببواعث المنافسات السياسية عرض ابن خلدون بذمه، فقال في مقدمته : « والمحمود في المخاطبات السلطانية وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسجيع إلا في الأقل وحيث ترسله الملكة أرسالاً من غير تكلف له.. واما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فمذموم. وما حمل عليه أهل العصر إلا

استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال. فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة، وانفساح خطوه، وولعوا بهذا السجع يلفقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود، ومقتضى الحال فيه، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالأسجاع والألقاب البديعية؛ ويغفلون عما سوى ذلك وأكثر من أخذ بهذا الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم، كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد. حتى إنهم ليخلون بالاعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجنيس أو في مطابقة. لا يجتمعان معها. فيرجحون ذلك الصنف من التجنيس ويدعون الإعراب ويفسدون بنية الكلمة، عساها تصادف التجنيس.

وقال المقري فيه : « أما نثره فهو البحر الزخار بل الدر الذي به الافتخار.. ».

وحدث هو عن نثره قال : « وأما النثر فبحر زاخر، ومدى طوله مستأخر، وإنك لم يفخر عليك كفاخر ».

— ٨ —

صور من نثره :

قال لسان الدين في الحض على الجهاد :

« أيها الناس رحمكم الله تعالى. إخوانكم المسلمون بالأندلس، قد دهم العدو — قصمه الله تعالى — ساحتهم، ورام الكفر — خذله الله تعالى — استباحتهم. وزحفت أحزاب الطواغيت اليهم، ومد الصليب ذراعيه عليهم وأيديكم بعزة الله تعالى أقوى، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى، وهو دينكم فانصروه، وجواركم الغريب فلا تخفروه، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه، الجهاد الجهاد، فقد تعين، الجار الجار،

فقد قرر الشرع حقه وبين، الله الله في الاسلام. الله الله في أمة محمد عليه الصلاة والسلام، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله. الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله. قد استغاث بكم الدين فأغيثوه. قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه. أعينوا إخوانكم بما أمكن من الاعانة أعانكم الله تعالى عند الشدائد، جددوا عوائد الخير يصل الله تعالى لكم جميل العوائد، صلوا رحم الكلمة، وأسسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة. كتاب الله بين أيديكم، والستة الآيات تناديكم، وسنة رسول الله ﷺ قائمة فيكم، والله سبحانه يقول فيه : يا أيها الذي آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم، ومما صح عنه قوله : من أغبرت قدماه في سبيل الله حرمها الله على النار، لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم، من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا، أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الاسلام قبل أن يموت. احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عباده. جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده :

ماذا يكون جوابكم لنبيكم — وطريق هذا العذر غير ممهد ؟
إن قال : لم فرطتمو في أمتي — وتركتموهم للعدو المعتدي ؟
تالله لو أن العقوبة لم تخف — لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

اللهم اعطف علينا قلوب العباد، اللهم بث لنا الحمية في البلاد، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد. اللهم أنصرنا على أعدائك، بأحبابك وأوليائك يا خير الناصرين، اللهم افرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

ومما كتبه لسان الدين إلى علي بن بدر الدين الطوسي :

سيدي الذي هو فصل جنسه، ومزية يومه على أمسه. فإن افتخر الدين من أبيك ببدره، افتخر منك بشمسه. رحلت عن المنشأ

والقرارة[1]، ومحل الصبوة[2] والغرارة[3] فلم تتعلق نفسي، بذخيرة، ولا عهد جيرة خيرة، كتعلقها بتلك الذات التي لطفت لطافة الراح. واشتملت بالمجد الصراح. شفقة أن يصيبها معرة. والله تعالى يقيها، ويحفظها ويبقيها. إذ الفضائل في الأزمان الرذلة غوائل. والضد عن ضده منحرف بالطبع مائل فلما تعرفت خلاص سيدي في ذلك الوطن، وإلقاءه وراء الفرضة بالعطن[4]، لم تبق لي تعلة[5] ولا أحرضتني[6] له علة، ولا أتى جمع من قلة. فكتبت أهنىء نفسي الثانية بعد هناء نفسي الأولى، واعترف للزمان باليد الطولى[7]، الحمد لله الذي جمع الشمل بعد شتاته، وأحيا الأنس بعد مماته. سبحانه لا مبدل لكلماته. وإياه أسأل أن يجعل العصمة حظ سيدي ونصيبه، فلا يستطيع حادث أن يصيبه.. وأما حالي فكما علمتم: ملازم كن[8] ومهبط تجربة وسن، أزجى[9] الأيام، وأروم بعد التفرقة الالتئام. خالي اليد، مليء القلب والخلد[10] بفضل الواحد الصمد، عامل على الرحلة الحجازية التي أختارها لكم ولنفسي، وأصل في التماس الإعانة عليها يومي بأمسي.

وقال لسان الدين بن الخطيب في ترجمة بعض مشايخه:

---

(١) يريد المكان الذي نشأ واستقر به.
(٢) نشوة الشباب.
(٣) يريد بالغرارة اللهو واللعب.
(٤) يريد موطنه.
(٥) التعلة: ما يتعلل به.
(٦) أحرضه الحزن أو المرض: أفسد بدنه.
(٧) يريد بنعمته العظيمة.
(٨) السكن: البيت.
(٩) أزجاه وزجاه: ساقه ودفعه برفق.
(١٠) الخلد: البال والقلب.

صدر[1] الصدور الجلة[2]، وعلم أعلام هذه الملة، وشيخ الكتابة وبانيها وهاصر أفنان[3] البدائع وجانيها. اعتمدته الرياسة فناء بها[4] على حبل ذراعه واستعانت به السياسة فدارت أفلاكها على قطب من شباة يراعه[5]، فتفيأ[6] للعناية ظلاً ظليلاً، وتعاقبت الدول فلم تر به بديلاً.. لا تمر مذاكرة في فن، إلا وله فيه التبريز، ولا تعرض جواهر الكلام عل محاك الأفهام إلا وكلامه الإبريز[7]. حتى أصبح الدهر راوياً لإحسانه، وناطقاً بلسانه. وغرب ذكره وشرق، وأشأم وأعرق، وتجاوز البحر الأخضر والخليج الأزرق[8].

إلى نفس هذبت الآداب شمائلها، وجادت الرياضة خمائلها[9]، ومراقبة لربه، واستنشاق لروح الله من مهبه، ودين لا يعجم عوده[10]، ولا تخلف وعوده. وكل ما ظهر علينا معشر بنيه من شارة تجلى بها العين، أو إشارة كما سبك اللجين[11]، فهي اليه منسوبة، وفي حسناته محسوبة، فإنما هي أنفس راضها[12] بآدابه وأعلها بأهدابه، وهذب طباعها، كالشمس تلقي على النجوم شعاعها، والصور الجميلة تترك في الأجسام الصقيلة انطباعها. وما عسى أن أقول في إمام الأئمة،

---

(١) الصدر : مقدم كل شيء يريد أنه أول المقدمين.

(٢) يقال قوم جلة أي سادة.

(٣) هصر الغصن : عطفه وجذبه، والأفنان مفرده فنن : وهو الغصن المستقيم.

(٤) نهض بها.

(٥) الشباة : حد كل شيء. والمراد باليراع القلم.

(٦) استظل وتتبع ظلال الشجر.

(٧) الذهب الخالص.

(٨) يريد أن ذكره طبق الآفاق.

(٩) جمع خميلة : وهي الشجر الكثيف الملتف.

(١٠) عجم العود : عضه ليعلم صلابته من رخاوته. يريد أنه شديد الإيمان.

(١١) الفضة.

(١٢) ذللها.

ونور الدياجي[1] المدلهمة، والمثل السائر في بعد الصيت وعلو الهمة.

وقال من مقامة له تسمى مقامة البلدان يصف مدينة مكناسة.

« مكناسة مدينة أصيلة، وشعب للمحاسن وفضيلة، فضلها الله تعالى ورعاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها. فجنابها مريع وخيرها سريع، اعتدل فيها الزمان وفاقت الفواكه فواكهها ولا سيما الرمان، وحفظ أقواتها الاختزان ولطفت فيها الأواني والكيزان. ودنا من الحضرة جوارها فكثر قصادها من الوزراء وزوارها. وبها المدارس والفقهاء، ولقصبتها الأبهة والمقاصير والأبهاء... »

وهذه رسالة للسان الدين بن الخطيب وجهها إلى السيد الشريف عبدالله ابن نفيس، قال :

جزيت يا ابن رسول الله أفضل ما   جزى الإله شريف البيت يوم جزى
إن أعجز الشكر مني منة ضعفت   عن بعض حقك شكر الله ما عجزا

سيدي، أبقى الله شرفك تشهد به الطباع، إذا بعدت المعاهد المقدسة والرباع، وتعترف به الأبصار والأسماع، وإن جحدت عارضها الإجماع... بأي لسان أثني ؟ أم أي الأفنان أهصر وأجني، أم أي المقاصد الكريمة أعني ؟ أمطيت جوادك المبارك، وأسكنت دارك، وأوسعت مطلبي اصطبارك، وهضمت حقك، وبوأت جوارك، ووصلت للغرباء إيثارك، أشهد بأنك الكريم ابن الكريم، لا أقف في تعدادها عند جد، إلى غير جد، فإن أعان الدهر على مجازاة، وإن ترفع كرمك عن موازاة فحاجة نفسي قضيت، وأحكام آمالي أمضيت، وعلى كل حال؛ فالثناء ذائع، والحمد شائع، واللسان والحمد لله طائع، والله مشتر ما أنت بائع، وقد وجهت من يحاول لسيده ثمن ما اكتسبه مجده وسفر عنه

(١) الدياجي : الظلمات.

حمده، والعقيدة بعد التراضي وكمال التقاضي، وحميد الصبر وسعة التغاضي، وكونه الخصم والقاضي، إنه هبة سوغها إنعامه، وأكلة هناها بطعامه، نسأل الله تعالى أن يعلي ذكره، ويتولى شكره وينمي ماله، ويرفع قدره، والولد جاره الغريب الذي برز إلى مقارعة الأيام عن خبرة قاصرة وتجربة غير منجدة على الدهر وناصرة، قد جعلته وديعة في كرم جواره، ووضعته في حجر إيثاره، فإن زاغ فيده العليا في تبصيره، ومؤاخذته بتقصيره، ومن نبه مثله نام، ومن استنام إليه بمهمة أكرم بمن إليه استنام، وإن تشوف سيدي لحال محبه، فمطلق للدنيا من عقال، ورافض أثقال، ومؤمل اعتياض، بخدمة الله تعالى وانتقال.

— ٩ —

وللسان الدين شعر لا يبلغ منزلة نثره وكتاباته، فقد كان كاتباً أبلغ منه شاعراً، وشعره كثير، وله موشحات أعلى في البلاغة طبقة من سائر أشعاره.

ومن صور شعره هذه القصيدة التي يرثي بها أحد ملوك بني الأحمر :

يا قبر جاد ثراك صوب غمام	يهمي عليك برحمة وسلام
بوركت لحداً فيه أي وديعة	ملك كريم من نجار كرام
ما شئت من حلم ومن خلق رضي	وزكاء أعراق ومجد سام
فاسعد بنصر رابع الأملاك من	أبناء نصر ناصري الإسلام
من خزرج الفخر الذين مقامهم	في نصر خير الخلق خير مقام
يا أيها المولى المؤسس بيته	في معدن الأحساب والأحلام
ما للمنية والشباب مساعد	قد أقصدتك بصائبات سهام
عجلت على ذاك الجمال فغادرت	ربع المحاسن طامس الأعلام
فمحا الردى من حسن وجهك آية	محو النهار لسدفة الإظلام

ما كنت إلا بدر تم باهراً أخنى الخسوف عليك عند تمام
فعلى ضريح أبي الجيوش تحية كالمسك عرفاً عند فض ختام
وتغمدتـه رحمـة الله التـي ترضيه من عدن بـدار مقـام

ومن شعره هذه القصيدة التي أنشدها لسلطان المغرب عام ٧٦٣هـ :

تألق نجدي ـــ، فأذكرني نجدا وهاج بي الشوق المبرح والوجدا
وميض رأى برد الغمامة مغفلا فمد يداً بالتبر أعلمت البردا
تبسم في بحرية قد تهجمت فما بذلت وصلا، ولا ضربت وعدا
وراود منها فاركا قد تنعمت فأهوى لها نصلاً، وهددها رعدا
وأغرى بها كف الغلاب فأصبحت ذلولاً ولم تسطع لإمرته ردا
إذا أنت شافهت الديار بطيبة وجئت بها القبر المقدس واللحدا
وآنست نوراً من جناب محمد يجلي القلوب الغلف والأعين الرمدا
فنب عن بعيد الدار في ذلك الحما وأذر به دمعاً، وعفر به خدا
وقل : يا رسول الله عبد تقاصرت خطاه، وأضحى من أحبته فردا
ولم يستطع من بعد ما بعد المدى سوى لوعة تعتاد أو مدحة تهدى
تداركه يا غوث العباد برحمة فجودك ما أجدى، وكفك ما أندى
أجار بك الله العباد من الردى وبوأهم ظلاً من الأمن ممتدا
حمى دينك الدنيا وأقطعك الرضا وتوجك العليا، وألبسك الحمدا
وطهر منك القلب لما استخصه فجلله نوراً وأوسعه رشدا
دعاه فما ولى، هداه فما غوى سقاه فما يظمأ، جلاه فما يصدى
تقدمت مختاراً تأخرت مبعثاً فقد شملت علياؤك القبل والبعدا
وعلة هذا الكون أنت، وكل ما أعاد، فأنت القصد منه وما أبدا
وهل هو إلا مظهر أنت سره ليمتاز في الخلق المكب من الأهدى
ففـي عالـم ذاتك تجتلـي ملامح نور لاح للطور فانهدا
وفي عالم الحس اغتديت مبوأ لتشفي من استشفى، وتهدي من استهدى
فما كنت لولا أن ثبت هداية من الله مثل الخلق رسماً ولا حدا

فماذا عسى يثني عليك مقصر ... ولم يأل فيك الذكر مدحاً ولا حمدا
بماذا عسى يجزيك هاو على شفا ... من الغار قد اوردته بعدها الخلدا
عليك صلاة الله يا كاشف العمى ... ومذهب ليل الروع وهو قد أربدا

وقال يخاطب السلطان أبا عنان، وقد مزج الغزل فيها بالحكم :

أبدى لداعي الفوز وجه منيب ... وأفاق من عذل ومن تأنيب
كلف الجنان إذا جرى ذكر الحما ... والبان حن له حنين النيب
والنفس لا تنفك تكلف بالهوى ... والشيب يلحظها بعين رقيب
رحل الصبا فطرحت في أعقابه ... ما كان من غزل ومن تشبيب
أترى التغزل بعد أن ظعن الصبا ... شأني الغداة أو النسيب نسيبي
أنى لمثلي بالهوى من بعد ما ... للوخط في الفودين أي دبيب ؟
لبس البياض، وحل ذروة منبر ... مني، ووالى الوعظ فعل خطيب
قد كان يسترني ظلام شبيبتي ... والآن يفضحني صباح مشيبي
وإذا الجديدان استجدا أبليا ... من لبسة الأعمار كل قشيب
سلني عن الدهر الخئون وأهله ... تسل المهلب عن حروب شبيب
متقلب الحالات، فاخبر تقله ... مهما أعدت يداً إلى تقليب
فكل الأمور إذا اعترتك لربها ... ما ضاق لف الرب عن مربوب
قد يخبأ المحبوب في مكروهها ... من يخبأ المكروه في المحبوب
واصبر على مضض الليالي إنها ... لحوامل سيلدن كل عجيب
واقنع بحظ لم تنله بحيلة ... ما كل رام سهمه بمصيب
يقع الحريص على الردى ولكم غدا ... رام انتقال بلملم وعسيب
من رام نيل الشيء قبل أوانه ... رام انتقال يلملم وعسيب
فإذا جعلت الصبر مفزع معضل ... عاجلت علته بطب مجيب
بخليفة الله الذي في كفه ... غيث يروض ساح كل جديب
المنتقي من طينة المجد الذي ... ما كان يوماً صرفه بمشوب
يرمي الصعاب بصعبه فيقودها ... ذللاً على حسب الهوى المرغوب

ويرى الحقائق من وراء حجابها   لا فرق بين شهادة ومغيب
من آل عبد الحق حيث توشحت   شعب العلا وربت بأي كثيب

ومن أبلغ ما صدر عن لسان الدين رحمه الله تعالى وأبدعه كما يقول المقري في « نفح الطيب[1] »، لاميته المشهورة، التي خاطب بها سلطانه حين عاد من المغرب إلى الأندلس، وأعاد الله تعالى عليه ملكه، الذي كان خلع منه، ويقال إن السلطان أمر بكتابة هذه القصيدة على قصوره بالحمراء، إعجاباً بها وإنها إلى الآن لم تزل مكتوبة بتلك القصور التي استولى عليها الاسبان، وأول هذه القصيدة :

الحق يعلو، والأباطل تسفل   والله عن أحكامه لا يسأل

قال لسان الدين رحمه الله تعالى : نظمتها للسلطان أسعده الله تعالى، وأنا بمدينة سلا، لما انفصل طالباً حقه بالأندلس، وكان صنع الله تعالى براعة استهلالها، ووجهت بها إليه إلى رندة قبل الفتح، ثم لما قدمت أنشدتها بعد الفتح. وفاء بنذري؛ وسميتها : « المنح الغريب، في الفتح القريب »، قال منها :

وإذا استحالت حالة وتبدلت   فالله عز وجل لا يتبدل
واليسر بعد العسر موعود به   والصبر بالفرج القريب موكل
والمستعد لما يؤمل ظافر   وكفاك شاهد : قيدوا وتوكلوا
أمحمد والحمد منك سجية   بجليلها دون الورى تتجمل
أما سعودك فهو دون منازع   عقد بأحكام القضاء مسجل
تاب الزمان إليك مما قد جنى   والله يأمر بالمتاب ويقبل
إن كان ماض من زمانك قد مضى   بإساءة، قد سرك المستقبل
هذا بذاك فشفع الجاني الذي   أرضاك فيما قد جناه الأول
والله قد ولاك أمر عباده   لما ارتضاك ولاية لا تعزل
وإذا تغمدك الإله بنصره   وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل؟

---

(١) ١٧٤ : ٤ نفح الطيب.

صحبتهم غرر الجياد كأنما ... سد الثنية عارض متهلل
من كل منجرد أغر محجل ... يرمي الجلاد به أغر محجل
زجل الجناح إذا أجد لغاية ... وإذا تغنى للصهيل فبلبل
جيد كما التفت الظليم وفوقه ... أذن ممشقة وطرف أكحل
فكأنما هو صورة في هيكل ... من لطفه، وكأنما هو هيكل

وللسان الدين هذه الموشحة التي عارض بها موشحة ابن سهل :

جادك الغيث، إذا الغيث همي ... يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلما ... في الكرى، أو خلسة المختلس
إذ يقود الدهر أشتات المنى ... ينقل الخطو على ما ترسم
زمراً بين فرادى وثنا ... مثلما يدعو الوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا ... فثغور الزهر منه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما ... كيف يروي مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوباً معلما ... يزدهي منه بأبهى ملبس
في ليال كتمت سر الهوى ... بالدجى لولا شموس الغرر
مال نجم الكأس فيها وهوى ... مستقيم السير، سعد الأثر
وطر ما فيه من عيب سوى ... أنه مر كلمح البصر....
حين لذ الأنس شيئاً، أو كما ... هجم الصبح هجوم الحرس
غارت الشهب بنا، أو ربما ... أثرت فينا عيون النرجس
أي شيء لامرئ قد خلصا ... فيكون الروض قد مكن فيه
تنهب الأزهار منه الفرصا ... أمنت من مكره ما تتقيه
فإذا الماء تناجى والحصى ... وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيوراً برماً ... يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآس لبيباً فهما ... يسرق السمع بأذني فرسي
يا أهيل الحي من وادي الغضى ... وبقلبي سكن أنتم به
ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا ... لا أبالي شرقه من غربه

فأعيدوا عهد أنس قد مضى … تعتقوا عانيكم من كربه
واتقوا الله، وأحيوا مغرما … يتلاشى نفساً في نفس
حبس القلب عليكم كرما … أفترضون عفاء الحبس ؟
وبقلبي منكم مقترب … بأحاديث المنى، وهو بعيد
قمر أطلع منه المغرب … شقوة المغري به وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب … في هواه بين وعد ووعيد
ساحر المقلة معسول اللمى … جال في النفس مجال النفس
سدد السهم وسمى ورمى … ففؤادي نهبة المفترس
إن يكن جار، وخاب الأمل … وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول … ليس في الحب لمحبوب ذنوب
أمره معتمل ممتثل … في ضلوع قد براها وقلوب
حكم اللحظ بها فاحتكما … لم يراقب في ضعاف الأنفس
منصف المظلوم ممن ظلما … ومجازي البر منها والمسي
ما لقلبي كلما هبت صبا … عاده عيد من الشوق جديد
كان في اللوح له مكتتبا … قوله : إن عذابي لشديد
جلب الهم له والوصبا … فهو للأشجان في جهد جهيد
لاعج في أضلعي قد أضرما … فهو نار في هشيم اليبس
لم يدع في مهجتي إلا ذما … كبقاء الصبح بعد الغلس
سلمي يا نفس في حكم القضا … واعمري الوقت برجعى ومتاب
دعك من ذكرى زمان قد مضى … بين عتبي قد تفضت وعتاب
واصرفي القول إلى المولى الرضا … ملهم التوفيق في أم الكتاب
الكريم المنتهي والمنتمي … أسد السرج، وبدر المجلس
ينزل النصر عليه مثلما … ينزل الوحي بروح القدس
مصطفى الله، سمي المصطفى … الغني بالله عن كل أحد
من إذا ما عقد العهد وفى … حيث بيت النصر مرفوع العمد
حيث بيت النصر محمي الحما … وجنى الفضل زكي المغرس

والهوى ظل ظليل خيما   والندى هب إلى المغترس
هاكها يا سبط أنصار العلا   والذي إن عثر الدهر أقال
غادة ألبسها الحسن ملا   تبهر العين جلاء وصقال

وبعث ملك غرناطة الوزير ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي عنان، لينالوا العون منه على عدوهم الطاغية، على عاداتهم مع سلفه، فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه، تقدم الوفد الذي معه من وزراء الأندلس وفقهائها، واستأذنه في إنشاد شعر قدمه بين يدي نجواه، فأذن له، وأنشد وهو قائم :

خليفة الله، ساعد القدر   علاك، ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته   ما ليس يسطيع دفعه البشر
وجهك في النائبات بدر دجى   لنا، وفي المحل كفك المطر
والناس طراً بأرض اندلس   لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن   في غير علياك ما له وطر
ومن به ـ مذ وصلت حبلهم ـ   ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وقد أهمتهم بأنفسهم   فأرسلوني إليك وانتظروا

فاهتز السلطان لهذه الأبيات، وأذن له في الجلوس، وقال له قبل أن يجلس : ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم، ثم أثقل كاهلهم بالاحسان، وردهم بجميع ما طلبوه.

وعلى الجملة فيعد ابن الخطيب من كبار شعراء الأندلس، كما يحسب من الكتاب والأدباء. وقد طرق في شعره جميع الأغراض المعروفة. وله كثير من القصائد في التوسل والشكوى إلى الله ورسوله. وقد جرى في شعره مجرى القدماء في ذكر المعاني البدوية وبدء قصائده بها. والصبغة الغالبة على شعره هي صبغة العلماء والفقهاء الذي يميلون إلى ذكر الحقائق صريحة جافة؛ فليس ابن الخطيب ممن يعتمدون في شعرهم على الخيال أو الافتتان في القول. ومع هذا فله أحياناً شعر

رقيق في الغزل والوصف، الغالب عليه مسحة الصناعة. كما في موشحته.

وأسلوبه في شعره جزل متين، ولكن به كثيراً من الألفاظ والعبارات الجافة، مما كانت تقتضيه المعاني والموضوعات التي يعالجها في شعره.

الفصل الثالث

الخطابة في الأندلس

نبغ في الأندلس خطباء كثيرون منهم : عبد الرحمن الداخل، وأبو عثمان عبدالله، ومنذر بن سعيد البلوطي، وابن أبي الخصال المتوفى عام ٥٣٩هـ، وسهل بن مالك من أهل القرن السادس، وأحمد بن الحسن الزيات المتوفى عام ٧٢٨هـ، وابن أبي زندقة الطرطوشي المتوفى بالاسكندرية عام ٥٢٠هـ. وقد جمع في القرن السابع كثيراً من الخطب الأندلسية في مجموعة واحدة أبو الربيع الحافظ الكلاعي.

صور من الخطابة الأندلسية

خطبة طارق بن زياد[1] :

بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وذكر فضل الجهاد، ورغب في الشهادة قال :

---

(١) عن رواية نفح الطيب ومن رواية ابن خلكان في ترجمة موسى بن نصير.

أيها الناس! أين المفر[1]؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم[2]، وليس لكم والله إلا الصدق[3] والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة، أضيع من الأيتام في مأدبة[4] اللئام[5].

وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأسلحته وأقواته موفورة[6]، وأنتم لا وزر[7] لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهب ريحكم[8]، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة[9] عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة[10] هذا

---

(١) يجوز أن تكون بكسر الفاء اسم مكان، كذا قرئ قوله تعالى «أين المفر»، وقيل إن اسم الموضع بالفتح وعليه الجمهور.

(٢) ذكروا أن السفن التي نقلت العرب من سبتة إلى الجزيرة كانت أربعاً، وأنها ظلت ذاهبة آئبة تنقل الجنود حتى تم حصولهم جميعاً ببر الأندلس، وأنها كانت ليليان، وليست للعرب؛ فاتخذ طارق من انصرافها وانحصارهم في الجزيرة بين العدوين: البحر والقوط، سبباً لحملهم على الاستبسال.

(٣) الصدق هنا الصبر في الشدة.

(٤) رواية ابن خلكان مآدب، وهي جمع مأدبة، والمأدبة بفتح الدال وضمها، وكذلك الأدبة كحجرة: طعام صنع لدعوة، أو عرس، والفعل أدب كضرب كآدب.

(٥) اللئام: جمع لئيم، وهو ضد الكريم.

(٦) شيء وافر وموفور ومستوفر (اسم مفعول) بمعنى كثير ووفر كندم ووعد صار كثيراً ووفره كثره.

(٧) الوزر: بالتحريك الجبل المنيع، وكل معقل، والملجأ، ويطلق على السلاح لأنه يعصم أصحابه، والوزير من الوزر بالكسر، وهو الحمل الثقيل لأنه يحمل ثقل الأمر ويعين الملك برأيه، أو من الوزر (بالتحريك) لأن الملجأ إليه في التدبير.

(٨) من معاني الريح: الغلبة والقوة والدولة، وكل هذه المعاني صالحة هنا، والريح تذكر وتؤنث، لذلك وردت رواية ابن خلكان: «ذهبت ريحكم».

(٩) يقال جرؤ ككرم بمعنى شجع فهو جريء، والمصدر جرأة كجرعة، وجرة كثبة، وجراءة ككراهية، وجرائية ككراهية.

(١٠) المناجزة: المقاتلة كالتناجز، ونجز كفرح ونصر: انقضى وفنى، ونجز (كنصر) الحاجة قضاها كأنجزها، وأنت على نجز من حاجتك: أي على شرف من قضائها،

الطاغية[1]، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة[2]،وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمراً أنا عن بنجوة[3]، ولا حملتكم على خطة ــ أرخص متاع فيها النفوس ــ أربأ عنها بنفسي[4]؛ واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأرفه[5] الألذ طويلاً. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فيما حظكم فيه أوفر من حظي[6]، وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان، من بنات الرومان، الرافلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان[7]، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك، أمير المؤمنين، من الأبطال عزباناً[8]، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً[9]، ثقة منه

وقولهم المحاجزة قبل المناجزة : أي المسالمة قبل التعجيل بالقتال، يضرب في حزم من عجل الفرار، قبل قتال من لا قبل له به، ولمن يطلب الصلح بعد القتال. والمعنى : قد فات أوان ذلك. كما يقال : الصيف ضيعت اللبن.

(١) الطاغية : ملك النصارى كأن العرب فرضوا الظلم لازمة هؤلاء الملوك، فألزموهم هذا الوصف، ثم غلبت عليه الاسمية، وفي رواية ابن خلكان : « هذه الطاغية » وهي خطأ.

(٢) رواية ابن خلكان : « المحصنة ». (٣) النجوة : المكان المرتفع.

(٤) في الأصل بدل أربأ عنها بنفس : أبدأ بنفسي، والكلام عليه لا يتصل، ربأ : كمنع ارتفع.

(٥) رفه عيش الرجل : ككرم، لان، فالرجل رفيه ورافه ورفهان ومترفه : مستريح متنعم، ورفه الرجل كمنع رفها بالفتح والكسر ورفوها، لان عيشه.

(٦) في رواية النفح : « فما حظكم فيه بأوفى من حظي » والمعنى لا يستقيم لأنه يريد أن يقول لهم إن حظكم من الفتح أعظم من حظي، فأنا وال قابل للنقلة، أما أنتم فقد صارت لكم البلاد ولأعقابكم، لذلك تؤثر رواية ابن خلكان.

(٧) العقيان : الذهب.

(٨) العزب: بالتحريك كالمعزابة، والعزيب من لا أهل له غير المتزوج، وعزباناً جمع عزيب، كشجيع وشجعان، وعزب كجذع وجذعان، أو عازب كصاحب وصحبان، أو أعزب ــ على القول بوروده ــ فيكون كأعمى وعميان.

(٩) الصهر : بالكسر القرابة، وزوج بنت الرجل أو أخته. والختن : بالتحريك : الصهر، أو ما كان من قبل المرأة كالأب والأخ.

بارتياحكم للطعان، وإسماحكم[1] بمجالدة[2] الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون مغنمها خالصاً لكم[3] من دونه، ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين.

واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق، فقاتله إن شاء الله تعالى. فإن هلكت بعده فقد كفيتم أمره، ولم يعوزكم[4] بطل عاقل تسندون أموركم إليه. وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكشفوا الهم[5] من فتح الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون.

---

(١) في نفخ الطيب وابن خلكان : « استماحكم » وليس في كتب اللغة افتعل من هذه المادة، فلا بد أن تكون محرفة عن : إسماحكم، يقال سمح كمنع وأسمح بمعنى جاد وكرم أما سمح ككرم، فمعناها : صار من أهل السماحة، والوصف منه سمح ككتف ويخفف.

(٢) المجالدة من جالدوهم بالسيوف : أي ضاربوهم بها، وتجالدوا واجتلدوا : تضاربوا بها.

(٣) هذه رواية ابن خلكان، ورواية نفح الطيب بإثبات التاء: (خالصة) وتخريجها على جعل يكون تامة بمعنى يحصل، وتكون خالصة حالاً من الهاء في مغنمها.

(٤) رواية ابن خلكان : « ولن يعوزكم »، وهي كما تعرف أبلغ وأدخل في النفي من رواية النفح.

(٥) في رواية النفح : « واكتفوا الهم » وفي رواية ابن خلكان : « واكتفوا المهم » وأرى أن الروايتين غير صالحتين لأن صيغة اكتفى لم ترد إلا لازمة تقول اكتفيت بكذا بمعنى قنعت به واستغنيت، ولكن المعنى المراد هنا هو معنى رد ومنع، وكانت تؤديه كلمة كفى كما في قولنا : كفاك الله السوء، وكان يصح أن نجعل الكلمة في الخطبة محرفة عن هذا الفعل، فيكون الأصل اكفوا المهم، أي ردوه وامنعوه، ويكون المفعول الأول للفعل محذوفاً، والأصل اكفوا أنفسكم المهم، ولكني أستحسن أن يكون التحريف عن اكشفوا كما أثبتناه في نص الخطبة، ويكون المعنى : أزيحوا الهم عن أنفسكم بقتل هذا الطاغية.

ولهذه الخطبة نص في كتاب الإمامة والسياسة، ولكنه بعيد عن النصين اللذين رجعنا إليهما.

ويقول باحث معاصر[1]:

« تحيط الرواية الإسلامية ظفر طارق في سل شريش بطائفة من التفاصيل الشائقة، فتقول لنا أولاً إن طارقاً خطب جنده قبل الموقعة، وألقى فيهم خطبته الشهيرة التي ما زال يحفظها الطلاب كنموذج من نماذج النثر المختار والتي يفتتحها بقوله: « أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ». ثم يحث فيها جنده على القتال والاستشهاد في سبيل الله، ويرغبهم في ثمار النصر، ويحذرهم من عواقب التخاذل والتفرق. وتنوه الرواية الإسلامية بما كان لهذا الخطاب من أثر قوي في إذكاء همم المسلمين وشجاعتهم، ودفعهم إلى طريق النصر؛ على أنه يسوغ لنا أن نرتاب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق، فإن معظم المؤرخين المسلمين، ولا سيما المتقدمين منهم لا يشير إليها، ولم يذكرها ابن عبد الحكم ولا البلاذري، وهما أقدم رواة الفتوحات الإسلامية، ولم تشر إليها المصادر الأندلسية المتقدمة، ولم يشر إليها ابن الأثير وابن خلدون، ونقلها المقري عن مؤلف لم يذكر اسمه، وهي على العموم أكثر ظهوراً في كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين. ليس بعيداً أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة، فنحن نعرف أن كثيراً من قادة الغزوات الإسلامية الأولى كانوا يخطبون جندهم في الميدان، ولكن في لغة هذه الخطبة وروعة أسلوبها وعبارتها ما يحمل على الشك في نسبتها إلى طارق، وهو بربري لم يكن عريقاً في الإسلام والعروبة، والظاهر أنها من إنشاء بعض المتأخرين صاغها على لسان طارق مع مراعاة ظروف المكان والزمان ».

ومهما كان، فهذه الخطبة تعد من الأدب الأندلسي تجوزاً، لأن

---

(١) مجلة الثقافة ١٢ــ١ــ١٩٤٣

طارقاً لم يكن بعد قد عاش في الأندلس، أو تأثر ببيئتها، وإنما كان لأول مرة يضع قدميه على أرضها، فهي من الأدب العربي عامة لا الأندلسي خاصة، أو هي صورة للخطابة في المشرق وحده.

خطب للداخل :

١ ـــ يروى أن عبد الرحمن الداخل كان ببعض مجالسه، فمثل بين يديه رجل من جند قنسرين يستجديه قائلاً له : يا ابن الخلائف الراشدين، والسادة الأكرمين، إليك فررت، وبك عذت، من زمن ظلوم، ودهر غشوم، قل المال، وكثر العيال، وشعث الحال، فصير إلى نداك المآل، وأنت ولي الحمد والمجد، المرجو للرفد... فأجابه عبد الرحمن على الفور :

قد سمعنا مقالتك، وقضينا حاجتك، وأمرنا بعونك على دهرك، على كرهنا لسوء مقالك. فلا تعودن ـــ ولا سواك ـــ لمثله من إراقة ماء وجهك، بتصريح المسألة، والإلحاح في الطلبة، وإذا ألم بك خطب، أو حزبك أمر، فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك، كيما تستر عليك خلتك، وتكف شمات العدو عنك، بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا، عز وجهه بإخلاص الدعاء، وصدق النية.

٢ ـــ وحدث بعض مواليه الخاصين به، قال : دخلت عليه على إثر قتله ابن أخيه المغيرة بن الوليد، وهو مطرق شديد الغم، فرفع رأسه إلي، وقال :

« ما عجبي إلا من هؤلاء القوم ؟ سعينا فيما يضجعهم في مهاد الأمن والنعمة وخاطرنا فيه بحياتنا، حتى إذا بلغنا منه مطلوبنا، ويسر الله أسبابه، أقبلوا علينا أمام السيوف، ولما أويناهم، وشاركناهم فيما أفردنا الله به، حتى أمنوا، ودرت عليهم أخلاف النعم، هزوا أعطافهم، وشمخوا بآنافهم، وسموا إلى العظمى، فنازعونا فيما منحنا الله، فخذلهم بكفرهم النعم، إذ أطلعنا على عوراتهم، فعالجناهم قبل أن يعاجلونا،

وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا بالبريء منهم، وأساء أيضاً ظنه فينا، وصار يتوقع من تغييرنا عليه ما نتوقع نحن منه، وإن أشد ما علي في ذلك أخي، والد هذا المخذول، كيف تطيب لي نفس بمجاورته بعد أن قتل ولده، وقطع رحمه، أم كيف يجتمع بصري مع بصره، اخرج إليه الساعة، فاعتذر إليه، وخذ خمسة آلاف دينار فادفعها إليه، واعزم عليه في الخروج عني، من هذه الجزيرة إلى حيث شاء من بر العدوة.

٣ ــ وحكوا عنه أنه لما فتح سرقسطة، وتم له ما أمله من الفوز على أعدائه أقبل بعض خواصه يهنئونه، فجرى بينهم أحد من لا يؤبه له من الجند، فهنأه بصوت عال، فقال له الأمير : والله لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ علي فيه النعمة من هو فوقي، فأوجب على ذلك أن أنعم فيه على من هو دوني، لاصلينك ما تعرضت له من سوء النكال. من تكون حتى تقبل مهنئاً رافعاً صوتك غير متلجلج، ولا متهيب لمكان الإمارة، ولا عارف بقيمتها، حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك ؟! وإن جهلك ليحملك على العود لمثلها، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة. فقال الجندي : ولعل فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي، فتشفع لي حتى أتيت بمثل هذه الزلة، لا أعدمنيها الله. فتهلل وجه الأمير، وقال : ليس هذا باعتذار جاهل، ثم قال : نبهونا على أنفسكم، إذا لم تجدوا من ينبهنا عليها... ورفع مرتبته، وزاد في عطائه.

خطبة المنذر بن سعيد :

قالو[1] : رحل الناصر[2] لدين الله من قصر الزهراء[3] إلى قصر

---

(١) نفح الطيب صـ ١٧٢ جـ ١.

(٢) هو عبد الرحمن الناصر لدين الله ثامن ملوك الأندلس، وأول من تلقب بالخلافة منهم، وكانت أيامه أيام جهاد، وكان عادلاً محسناً محباً للعلم، شغوفاً، بالعمارة، توفي سنة ٣٥٠هـ. =

قرطبة[1] لدخول وفود الروم عليه، وقعد لهم في بهو المجلس الزاهر قعوداً حسناً نبيلاً، وقعد عن يمينه ولي العهد من بنيه، وقعد عن يساره منذر بن سعيد، وحضر الوزراء على مراتبهم يميناً وشمالاً، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي وغيرهم، وقد بسط صحن الدار أجمع بعتاق البسط، وكرائم الدرانك[2]، وظللت أبواب الدار وحناياها بغالي الديباج ورفيع الستور.

فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ودفعوا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية العظمى، وهو في رق[3] مصبوغ بلون سماوي، مكتوب بالذهب بالخط الإغريقي، وداخل الكتاب مدرجة[4] مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقي أيضاً، فيها وصف هديته التى أرسل بها وعددها، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على وجه منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الملك وصورة ولده.

وكان الكتاب بداخل درج[5] فضة منقوش، عليه غطاء ذهب، فيه صورة الملك من الزجاج الملون البديع، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج.

ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال أحب أن يقوم الخطباء

=(٣) هي المدينة التي بناها الناصر.

(١) قرطبة : حاضرة الخلافة بالأندلس، وكانت أخت بغداد عزاً وعلواً وحضارة، وفيها المسجد الجامع الذي بناه عبد الرحمن الأموي سنة ٧٩٢م، وهو الآن الكنيسة الكتدرائية.

(٢) الدرانك : الطنافس.

(٣) الرق : ما يكتب فيه، وهو جلد رقيق.

(٤) أدرجت الكتاب طويته.

(٥) أصل الدرج: السفيط الصغير تضع فيه المرأة متاعها وطيبها.

والشعراء بين يديه ليذكروا جلالة مقعده، وعظيم سلطانه، ويصفوا ما تهيأ من توطيد الخلافة في دولته.

وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه ولي عهده بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء، فأمر الحكم الفقيه محمد بن عبد البر الكيساني بالتأهب لذلك، وإعداد خطبة بليغة يقوم بها بين يدي الخليفة، وكان يدعي من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره. وحضر المجلس السلطاني، فلما قام يحاول التكلم بما رأى هاله وبهره هول المقام وأبهة الخلافة، فلم يهتد إلى لفظة، بل غشي عليه وسقط إلى الأرض.

فقيل لأبي علي القالي ــ وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق وأمير الكلام، وبحر اللغة ــ قم فارقع هذا الوهي، فقام فحمد الله وأثنى عليه، ثم انقطع القول بالقالي، فوقف ساكتاً مفكراً في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه؛ فلما رأى ذلك منذر[1] بن سعيد، قام، فوصل افتتاح أبي علي لأول خطبته بكلام عجيب، ونادى من الإحسان في ذلك المقام كل مجيب، يسحه سحا كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة، وبدأ من المكان الذي انتهى اليه أبو علي فقال[2] :

« أما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه ــ فإن لكل حادثة مقاماً، ولكل مقام مقالاً، وليس بعد الحق إلا الضلال. وإني قد قمت في مقام كريم، بين يدي ملك عظيم، فاصغوا إلي ــ معشر الملأ ــ بأسماعكم، وأتقنوا عني بأفئدتكم، إن من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت، وإن الجليل تعالى في سمائه، وتقدس بصفاته وأسمائه،

---

(١) كان إماماً فقيهاً خطيباً شاعراً فصيحاً، ولي القضاء بقرطبة أيام عبد الرحمن (٢٦٥ــ٣٥٥هـ).

(٢) الخطبة في نفح الطيب ١٧٢ــ١٧٣ــ١ طبع المطبعة الأزهرية.

أمر كليمه موسى صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم، وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، وإني أذكركم بأيام الله عندكم وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين، التي لمت شعثكم، وأمنت سربكم، ورفعت قوتكم، بعد أن كنتم قليلاً فكثركم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم، ولاه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم في مثل حدقة البعير، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير. فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد كنف العافية، بعد استيطلان البلاء، أنشدكم بالله معاشر الملأ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ؟ والسبل مخوفة فأمنها ؟ والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمرها ؟ وثغور المسلمين مهتضمة فحماها ونصرها ؟

فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته، حتى أذهب الله عنكم غيظكم وشفى صدوركم، وصرتم يداً على عدوكم بعد أن كان بأسكم بينكم، فأنشدكم الله، ألم تكن خلافته قفل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها ؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ؟ ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد، حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد، واعتزال النسوان، وهجر الأوطان، ورفض الدعة، وهي محبوبة، وترك الركون إلى الراحة، وهي مطلوبة، بطوية صحيحة، وعزيمة واجبة، وسلطان قاهر وجد ظاهر، وسيف منصور تحت عدل مشهور، متحملاً للنصب، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها ولم يبق لها غارب إلا جبه، ولا نجم لأهلها قرن إلا جذه، فأصبحتم بنعمة الله إخواناً، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً، حتى تواترت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأقصين

والأدنين مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق، وبلد سحيق، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلاً ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية، تدل على أمور باطنة خافية، دليلها قائم، وجفنها غير نائم، ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات. ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم** ﴾ الآية. وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب. ولكل نبأ مستقر. ولكل أجل كتاب. وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب. ولكل نبأ مستقر. ولكل أجل كتاب. فاحمدوا الله ــ أيها الناس ــ على آلائه. واسألوه المزيد من نعمائه. فقد أصبحتم بين خلافة أمير المؤمنين ــ أيده الله بالعصمة والسداد؛ وألهمه خالص التوفيق إلى سبيل الرشاد ــ أحسن الناس حالاً. وأنعمهم بالاً، وأعزهم قراراً. وأمنعهم داراً وأكثفهم جمعاً. وأجملهم صنعاً. لا تهاجون ولا تذادون. وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون. فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم. والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم ﷺ؛ فإن من نزع يداً من الطاعة، وسعى في تفريق الجماعة، ومرق من الدين، فقد خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين. وقد علمتم أن في التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها حفظ الأموال، وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدهماء. وأن بقوام الطاعة تقام الحدود، وتوفى العهود، وبها وصلت الأرحام، ووضحت الأحكام. وبها سد الله الخلل، وأمن السبل، ووطأ الأكناف، ورفع الاختلاف. وبها طاب لكم القرار، واطمأنت بكم الدار، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به. فإنه ــ تبارك وتعالى ــ يقول : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم** ﴾ الآية. وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصنوف الملحدين الساعين في شق عصاكم وتفريق ملاكم. الآخذين مخاذلة دينكم، وهتك حريمكم، وتوهين دعوة نبيكم صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين. أقول قولي هذا وأختتم بالحمد

لله رب العالمين، مستغفراً الله الغفور الرحيم، فهو خير الغافرين ».

قال ابن سعيد : فصلب العلج، وغلب على قلبه. وقال : هذا كبير القوم، أو ليس القوم، وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه وثبات جنانه وبلاغة لسانه، وكان الناصر أشدهم تعجباً منه، وأقبل على ابنه الحكم ولم يكن يثبت معرفته، فسأله عنه فقال له : هذا منذر بن سعيد البلوطي، فقال : والله لقد أحسن ما شاء، ولئن أخرني بعد لأرفعن من ذكره، فضع يدك يا حكم عليه واسخلصه، وذكرني بشأنه فما للصنيعة مذهب عنه، ثم ولاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء، ثم توفي محمد بن عيسى القاضي فولاه قضاء الجماعة بقرطبة وأقره على الصلاة بالزهراء. ومن شعره في هذه الواقعة قوله :

مقالي كحد السيف وسط المحافل ... فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكي ترتمي جمراته ... كبارق رعد عند رعش الأنامل
فما دحضت رجلي، ولا زل مقولي ... ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازل
لخير إمام كان أو هو كائن ... لمقتبل أو في العصور الأوائل
ترى الناس أفواجاً يؤمون بابه ... وكلهمو ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فنائه ... مخافة بأس، أو رجاء لنائل
فعش سالماً. أقصى حياة، مؤملا ... فأنت رجاء الكل حاف وناعل
ستملكها ما بين شرق ومغرب ... إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

وقال الناصر لابنه الحكم بعد أن سأله عن منذر بن سعيد : لقد أحسن ما شاء، فلئن كان حبر خطبته هذه وأعدها مخافة أن يدور ما دار. فيتلافى الوهى. فإنه لبديع من قدرته واحتياطه. ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته فإنه لأعجب وأغرب، ولما فرغ منذر من خطبته أنشد :

هذا المقام الذي ما عابه فند ... لكن قائله أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريبا كنت مطرفا ... لكنني منهم فاغتالني النكد

ويروى بدل هذا الشطر : ولا دهاني لهم بغي ولا حسد.

لولا الخلافة ـــ أبقى الله حرمتها ـــ ما كنت أرضى بأرض ما بها أحد

خطبة لابن الفخار :

ولما تألب بنو حسون على القاضي أبي محمد عبدالله الوحيدي قاضي مالقة انبرى للدفاع عنه العالم الأصولي أبو عبدالله بن الفخار، فقصد إلى حضرة الإمامة (مراكش) وقام في مجلس أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وقد غص بأربابه فقال : « إنه لمقام كريم نبدأ فيه بحمد الله على الدنو منه، ونصلي على خيرة أنبيائه، محمد الهادي إلى الصراط المستقيم، وعلى آله وصحابته نجوم الليل البهيم؛ أما بعد، فإنا نحمد الله الذي اصطفاك للمؤمنين أميراً، وجعلك للدين الحنيفي نصيراً وظهيراً، ونفزع إليك مما دهمنا في حماك، ونبث إليك ما لحقنا من الضيم ونحن تحت ظل علاك، ويأبى الله أن يدهم من احتمى بأمير المسلمين، ويصاب بضيم من أدرع بحصنه الحصين، شكوى قمت بها بين يديك، في حق أمرك الذي عضده مؤيده، لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنقده، وإن قاضيك ابن الوحيدي الذي قدمته في مالقة للأحكام، ورضيت بعدله فيمن بها من الخاصة والعوام، لم يزل يدل على حسن اختيارك بحسن سيرته، ويرضي الله تعالى ويرضي الناس بظاهره وسريرته، ما علمنا عليه من سوء، ولا درينا له موقف خزي، ولم يزل جارياً على ما يرضي الله تعالى ويرضيك ويرضينا، إلى أن تعرضت بنو حسون للطعن في أحكامه، والهد من أعلامه، ولم يعلموا أن اهتضام المقدم راجع على المقدم، بل جمحوا في لجاجهم، فعموا وصموا، وفعلوا وأمضوا ما به هموا، وإلى السحب يرفع الكف من قد جف عنه مسيل عين أو نهر ». فملأ سمعه بلاغة أعقبت نصره، ونصر صاحبه ! ».

خطبة مأثورة لابن تومرت :

يروي أن ابن تومرت قبل موته بأيام يسيرة استدعى هؤلاء المسمين بالجماعة من المصامدة، فلما حضروا بين يديه قام وكان متكئاً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على محمد نبيه ﷺ، ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، ويذكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم والعزيمة في أمرهم، وأن أحدهم كان لا تأخذه في الله لومة لائم، وذكر من حد عمر رضي الله عنه ابنه في الخمر وتصميمه على الحق في أشباه لهذه الفصول، ثم قال: فانقرضت هذه العصابة نضر الله وجوهها وشكر لها سعيها وجزاها خيراً عن أمة نبيها، وحبطت الناس فتنة تركت الحليم حيراناً والعالم متجاهلاً مداهناً، فلم ينتفع العلماء بعلمهم بل قصدوا به الملوك واجتلبوا به الدنيا وأمالوا وجوه الناس إليهم في أشباه لهذا القول إلى هلم جرا، ثم إن الله سبحانه وله الحمد من عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده، وقيض لكم من ألفاكم ضلالاً لا تهتدون، وعمياً لا تبصرون، ولا تعرفون معروفاً ولا تنكرون منكراً، قد فشت فيكم البدع واستهوتكم الأباطيل وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات أنزه لساني عن النطق بها، وأربأ بلفظي عن ذكرها، فهداكم الله به بعد الضلالة، وبصركم بعد العمى، وجمعكم بعد الفرقة، وأعزكم بعد الذلة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيورثكم أرضهم وديارهم، ذلك بما كسبته أيديهم، وأضمرته قلوبهم، وما ربك بظلام العبيد، فجددوا لله سبحانه خالص نياتكم، وأروه من الشكر قولاً وفعلاً ما يزكي به سعيكم ويتقبل أعمالكم وينشر أمركم، واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء، وكونوا يداً واحدة على عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم وكثر أتباعكم، وأظهر الله الحق على أيديكم، وإلا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصغار واحتقرتكم العامة فتخطفتكم الخاصة، وعليكم في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة واللين بالعنف، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر

هذه الأمة إلا على الذي صلح عليه أمر أولها، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم وجعلناه أميراً عليكم، هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه، واختبرنا سريرته وعلانيته فرأيناه في ذلك كله ثبتاً في دينه متبصراً في أمره، وإني لأرجو أن لا يخلف الظن فيه، وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه؛ فإن بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب أمره ففي الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير والأمر أمر الله، الله يقلده من شاء من عباده، فبايع القوم عبد المؤمن، ودعا لهم ابن تومرت ومسح وجوههم وصدورهم، وتوفي ابن تومرت بعد عهده بيسير، واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن.

خصائص الخطابة الأندلسية

كثرت الدواعي للخطابة في الأندلس منذ دخلها العرب فاتحين : فالعروبة والموهبة وفصاحة اللسان والذكاء وكثرة الحفظ والحرية التي كانوا يعيشون فيها، وحاجتهم إلى الخطابة في تحميس الجند والحض على الجهاد حين الفتح، ثم في النضال والمباهاة والفخر والانتصار حين اشتدت العصبية في عهد الولاة، ثم في أمور الاجتماع والسياسة في عصر الأمويين، ثم في المحاضرة والمناظرة وما إليها في عصر الطوائف، ثم في الدعوة إلى قتال الإسبانيين والمسيحيين الذين كانوا يعملون على طرد العرب من الأندلس في عصر بني الأحمر. كل ذلك ضاعف الحاجة إلى الخطابة، ونهضتها، وازدهارها، وقوتها، ونوع في أغراضها وموضوعاتها، فشملت أغراضاً شتى من شئون الحياة؛ فكان منها الخطابة السياسية التي تلقى في تفصيل خطة يسير عليها الخليفة أو الأمير، أو تحريض على قتال وتنفير من فرار؛ وكان منها الخطابة الاجتماعية، التي تقال في مختلف المناسبات العامة، والمحافل الجامعة، كخطب الاستقبال والتهنئة والاستشفاع والاعتذار، وتأييد الفضائل الخلقية، ونشر المبادئ السامية؛ وكان منها الخطب الدينية، التي تحث على التمسك بأهداب الدين، والتحلي بتعاليمه، واتباع أوامره واجتناب نواهيه، والتي يكثر ورودها في المناسبات الدينية كالجمع والأعياد والمواسم؛

وكان منها « الوصايا » التي ترتبط مع الخطب بأقوى رابطة، وتشابهها في أكثر الأمور. ثم ذاعت بعد ذلك المحاورات والمحاضرات والمناظرات وهي من فنون الخطابة وألوانها، وشملت كذلك الانتصار لرأي، أو لإنسان، أو لمذهب، أو لعصبية، كما شملت الدفاع عن النفس بالبليغ من الكلام.

ولقد كان للخطابة في الأندلس منزلة كبيرة، واحترام شديد، وكانت ترفع صاحبها إلى أعلى المناصب وأسمى المراتب، ولذلك كان لقب الخطيب من ألقاب التشريف والتعظيم، وأضيف القضاء إلى الخطابة. فنبه شأنها، وعظم أمرها، وزادت الحفاوة بها.

وكانت الخطابة زمن الولاة الفاتحين، سهلة التراكيب قليلة الاستعارة، بعيدة عن الصنعة والابتذال والتكلف؛ فأما معانيها فكانت واضحة بعيدة عن تعمق الفلاسفة والخيال الشعري، وكان الغرض فيها يدور حول أغراض الدين، من الحض على الجهاد والصبر على منازلة الخطوب وملاقاة الحوادث بصدر رحب، وجنان مطمئن. وكان من أغراضها : التناصر بالعصبية لما حدثت الفتنة بين اليمنيين والمضريين آخر ذلك العهد.

وفي دولة بني أمية وملوك الطوائف دخلها الوشي والصنعة، حتى غلب عليها السجع، على أنه قليل التكلف، وغلبت عليها الاستعارة الرقيقة، وكثر فيها الاقتباس، وما إليه من مظاهر الكتابة. ولم يكن في معانيها تعمق ولا صعوبة، لأنهم كانوا إلى أدب العرب أقرب منهم إلى علم الفلسفة والمنطق. فأما الأغراض : فقد اتسعت حين كثرت العلوم، وعني الناس بدرسها، والمناظرة فيها، وزخرت بحور الحضارة، وكثرت مناحيها، فلا بدع إذا تعددت أغراض الخطابة فقيلت في كل ما كان في المشرق من الدين والسياسة ومواقف المناظرة ومدارس العلم، ولم تفارقها الدعوة

إلى العصبية، فقد بقي الخلاف بين أهل تلك البلاد في كل عهد وكل جيل.

وأما في زمن المرابطين والموحدين: فقد ساءت حالها، وضعف شأنها، فدخلتها العبارات الممقوتة الضعيفة والتكلف المبتذل، من سجع غث واستعارة باردة مع الاستغناء عنها بالكتابة في بعض الأمر والاقتصار بها على ما يتصل بالدين من الجمعة والإملاك وما إلى ذلك، واستعيض عنها بالمنشورات والأوامر والمراسيم.

لذلك كانت الخطابة عندهم شائعة[1]، دوت بها ميادين قتالهم، واهتزت منابر محافلهم، ومجالس ملوكهم، وسفرت بها سفراؤهم، في إعلان حرب، أو عرض مهادنة أو صلح، وقد عرفوا لها قيمها، فقدموها على الشعر في الحفل الجامع، والمقام المشهود، فقد تقدم الناصر إلى ابنه الحكم في إعداد الخطباء والشعراء، ليوم ملاقاة رسول ملك القسطنطينية، وأن يقدم الخطباء على الشعراء في الكلام، لذلك كان للخطابة شأن عند هؤلاء القوم، وبلغ من اهتمامهم بها أن تلقب علماؤهم بالخطيب، كما تلقبوا بالفقيه.

وكان للخطابة مظهر آخر غير الحرب والصلح، وهو الوعظ الذي حرص عليه ملوكهم، لإصلاح شؤون رعيتهم، وكان عندهم بمنزلة سامية، كما كان عند أسلافهم من ملوك بني أمية بالمشرق، يحتفلون به ويكلونه إلى أعاظم قضاتهم، وكبار علمائهم. ولم يكن وعظهم فاتراً ضيق المجال، موزعاً على المناسبات التي تمر في أيام العام، من حج وفطر وأضحى، بل كان منبر المسجد مجتلى الحوادث العظام، من استبشار بنصر، أو حث على جهاد، أو ردع عن منكر حدث، وبدعة ظهرت، بل لقد أدت الخطابة ما تؤديه اليوم الصحافة الجريئة المطلقة من كل

---

(١) ٣/٥٢ الأدب العربي وتاريخه ـــ محمود مصطفى.

قيد، فإن منذر بن سعيد، قاضي قضاة عبد الرحمن الناصر، وإمام الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة، لما رأى انهماك الخليفة في العناية بالزهراء، وزخرفة قصورها، حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد، خطب الناس في هذا المعنى، وعمد إلى تذكير الخليفة، ووعظه وتقريعه، على ما فرط في جنب الله، فابتدأ خطبته بقوله تعالى: ﴿ **أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم**[1] ﴾ ووصل ذلك بكلام جزل، وقول فصل، جاش به صدره، وقذف به على لسانه بحره، وأفضى في ذلك إلى ذم المشيد والاستغراق في زخرفته، والسرف في الإنفاق عليه، فجرى في ذلك طلقا[2] وتلا قوله تعالى : ﴿ **أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ؟ أم من أسس بنيانه على شفا جرف**[3] **هار فانهار به في نار جهنم ؟! والله لا يهدي القوم الظالمين. لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم، والله عليم حكيم** ﴾ وأتى بما شاكل المعني من التخويف بالموت، والتحذير منه، والدعاء إلى الله عز وجل في الزهد من هذه الدنيا، والحض على اعتزالها، حتى بكى الناس، وخشعوا وضجوا وتضرعوا، فعلم الخليفة أنه المقصود، فاستخذى، وبكى، وندم على ما كان منه، واستعاذ بالله من سخطه، إلا أنه وجد على المنذر، وشكا ذلك إلى

---

(١) الريع : المكان المرتفع أو الطريق أو المنعرج منه في الجبل. الآية هنا : برج الحمام، أو أي بناء مرتفع. المصانع : مآخذ الماء، أو القصور المشيدة، أو الحصون. النعم (بالتحريك ويسكن) : الإبل والشاه، أو خاص، بالإبل والجمع أنعام، وجمع الجمع أناعيم. شيد البناء : رفعه، وكذلك شاده في بعض كلام العرب.

(٢) جرى طلقاً (بسكون اللام): غير مقيد. أما جري الفرس طلقاً أو طلقين (بالتحريك) فمعناه شوطاً أو شوطين.

(٣) الجرف : بضمتين ويسكن ما جرفه السيل من الوادي، وهار من هار البناء : أن هدمه فهار فهو هائر، وهار مقلوب هائر.

ابنه الحكم، فقال له الحكم : وما يمنعك من عزله ؟ فزجره ، وانتهره، وقال : بل يصلي بالناس حياته وحياتنا.

ومن أذيع الخطب الأندلسية شهرة خطبة منذر بن سعيد البلوطي[1] أمام وفد الروم، وقد ذكرناها آنفاً.

---

(١) كان كما يقول ياقوت في معجم الأدباء : كان نحوياً فاضلاً وخطيباً مصقعاً، وشاعراً بليغاً، ولد سنة خمس وستين ومائتين، ورحل فلقي جماعة من العلماء والأدباء، وجلب في رحلته كتاب : الأشراف في اختلاف العلماء رواية عن مؤلفه ابن المنذر النيسابوري، وكتاب العين للخليل رواية أبي العباس ولاد، واتصل بعبد الرحمن الناصر فحظي عنده؛ ولما توفي الناصر وولى ابنه الحكم أقره على القضاء، واستعفى غير مرة فما أعفاه، وكان وقوراً صليباً في الحكم مقداماً في إقامة العدل والحق، وإزهاق الجور والباطل، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر له كتب في السنة والورع، والرد على أهل الأهواء والبدع، ومن مصنفاته المتداولة : أحكام القرآن، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وله رسائل وخطب مجموعة وأشعار متفرقة مطبوعة. وتوفي منذ ابن سعيد سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

وكان كما يذكر الفتح بن خاقان في « مطمح الأنفس » : آية حركة في سكون، وبركة لم تكن معدة ولا تكون، وآية سفاهة في تحلم، وجهامة ورع في طي تبسم إذ جد تجرد، وإذا هزل نزل، وفي كلتا الحالتين لم ينزل للورع عن مرقب، ولا اكتسب إثماً ولا احتقب.. وناهيك من عدل أظهر، ومن فضل اشتهر، ومن جور قبض، ومن حق رفع، ومن باطل خفض، وكان مهيباً طيباً صارماً غير جبان ولا عاجز، ولا مراقب لأحد من خلق الله في استخراج حق ودفع ظلم. وكان كذلك شاعراً، ومن شعره يخاطب الغافل عن طاعة الله :

كم تصابى، وقد علاك المشيب ... وتعامى عمدا وأنت اللبيب ؟
كيف تلهو، وقد أتاك نذير ... إن يوم الحمام منك قريب ؟
يا سفيها قد حان منه رحيل ... بعد ذاك الرحيل يوم عصيب
إن للموت سكرة، فارتقبها ... لا يداويك — إن أتتك — طبيب!
بأمور المعاد أنت عليم ... فاعملن جاهداً لها يا رتيب
وتذكر يوماً تحاسب فيه ... إن من يذكر فسوف ينيب !
ليس من ساعة من الدهر إلا ... للمنايا عليك فيها رقيب

=

ويغض بعض الباحثين من شأن هذه الخطبة، ويجعلونها قريبة من الخطب الدينية.

ولمنذر خطبة أخرى مأثورة، يروى أنه أصاب الأندلس في عهد الناصر لدين الله أمير المؤمنين قحط شديد، فرأى القاضي الفقيه، الخطيب الواعظ الزاهد، منذر بن سعيد البلوطي، أن يفزع الناس إلى ربهم طلباً للرحمة والسقيا، وأن يصلوا صلاة الاستسقاء، فدعاهم إلى أن يخرجوا حفاة عراة أذلة إلى العراء، يبالغون في الرجاء، ويلحون في الدعاء، ويسألون الله من رحمته وفضله؛ وتأهب البلوطي لذلك فصام بين يديه ثلاثة أيام تنفلاً وتطهيراً وإنابة واستجداء ورهبة، واجتمع خلق كثير من الأندلسيين بالمصلى الجامع في قرطبة، واعتلى الخليفة سطح قصره ليشارك الناس في الدعاء إلى الله تعالى، ووقف البلوطي الخطيب بين هذه الجموع المتراصة وقد شخصوا إليه بأبصارهم، فقال :

« أيها الناس ! سلام عليك، كتب ربكم على نفسه الرحمة، أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم. أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغني الحميد، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز.. فما أتم الخطبة حتى ظهر الغيث.

=ويقول في الزهد :

ثلاث وستون قد حزتها ... فماذا تؤمل، أو تنتظر ؟!
وحل عليك نذير المشيب ... فما ترعوي، بل وما تزدجر !
تمر لياليك مراً حثيثاً ... وأنت على ما أرى مستمر !
فلو كنت تعقل ما ينقضي ... من العمر ما اعتضت خيراً بشر
فما لك لا تستعد إذن ... لدار المقام، ودار المقر ؟
أترغب عن مفاجأة المنو ... ن، وتعلم أن ليس منها وزر ؟
فإما إلى جنة أزلفت ... وإما إلى سقر تستعر ؟!

ولما انتشر العلم في بلاد الأندلس، وتعلق الناس بأهدابه، وأقبلوا على المناقشات والمناظرات في مجلس الخلفاء وغيرها مدة بني أمية وزمن ملوك الطوائف تعددت أغراض الخطابة، وتغيرت أساليبها، وتطرقت إليها الصناعة، وامتلأت بالسجع على أثر انتشار ذلك في الكتابة النثرية. وبقيت على هذه الحال إلى قيام ملوك البربر. ثم انطفأت شعلة الحماسة في النفوس، وخمدت قوة التفكير على أثر تعصب البرابرة وجهلهم. فانحطت منزلة الخطابة واقتصر فيها على الوعظ في المساجد...

وقد كان هناك جماعة من مشهوري الخطباء مثل: الوليد بن عبد الرحمن بـن غانم من خطباء محمد بن عبد الرحمن الأموي، وعبدالله الفخار زمن المرابطين، وغيرهم من الأمراء.

ولكن شأن الخطابة لم يصل إلى ما كان عليه في بلاد المشرق، ولم يعرف من خطباء الأندلس مثل : زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف، أو الخليفة المنصور، ممن كان يحسب كلامهم من الكلام الجيد المنثور البليغ.

أعلام أندلسية

— ١ —

أحمد ابن عبد ربه الأندلسي
٢٤٦ـ ٣٢٨هـ

حياته وأدبه :

أديب الأندلس وشاعرها أبو عمرو شهاب الدين أحمد بن محمد ابن عبد ربه. ينتهي نسبه إلى سالم مولى هشام بن عبد الرحمن الداخل.

كانت ولادته في العاشر من رمضان سنة ٢٤٦هـ. ونشأ بمدينة قرطبة حاضرة الأندلس في عهد بني مروان العصر الذهبي لتلك البلاد، وكان في شبابه لاهياً ولوعاً بالغناء. ولكن ذلك لم يمنعه الدرس والتحصيل، فقد درس علوم العربية وروى الشعر، وحفظ أيام العرب وأخبارها ونوادرها، ونظر في اللغة والنحو. فنبغ في جميع ذلك، على أن درس علوم الدين كما كان الشأن في علماء الأندلس وأدبائها، فهم لم يكونوا يقتصرون على باب واحد من العلم. ولكن امتاز في علوم الشريعة حتى عد فقيه الأندلس في زمانه، إلى جانب امتيازه الأدبي الذي قل أن يشارك فيه، مما خلده له كتابه العظيم : « العقد الفريد ».

وقد قال الشعر في حداثته يغذي به عاطفة اللهو التي حدثتك في شأنها. وقد برع في نظمه لأشعار الصبا واللهو ما بين قصائد ومقطعات في رقة وإمتاع كان يحمل المتنبي ــ على اعتداده وكبره ــ أن يقول في وصفه : « مليح الأندلس »، ولكن أحمد أقلع في كبره عن ذلك وعارضه بزهديات سماها الممحصات، تفاؤلاً بأن الله سبحانه يمحص بها ذنوبه.

وله في مديح بني مروان الكثير، لقد عاصر أربعة منهم ومدحهم جميعاً. وقد بقي بقرطبة رئيساً سيداً حتى أصيب بالفالج. ثم مات بعد أن رزح تحت أعبائه عدة سنين، وقد خلف ديوان شعر مفقود، وكتاب اللباب، والكتاب الخالد الذي رفع رأس الأندلس : « العقد الفريد ».

وهذا الكتاب مشهور متداول، ولولا ما خلفه عبث النساخ والمطابع لم يكن كتاب من كتب الأدب أحق منه بالاطلاع وكثرة الرد والنظر، ومهما يكن فإنه مصدر من أهم مصادر كتب الأدب قل أن تجد له نظيراً في ترتيبه وتبويبه وحسن تخير ما فيه من درر الأدب وروائعه ــ يرجع إليه الأديب واللغوي والنحوي، والعروضي، والمؤرخ والقصاص، والجاد والهازل.

فالكتاب موسوعة أدبية لا تكاد تغادر شيئاً مما يهم الباحث في الأدب وفي لغة العرب[1]. وإن تعجب فإن مؤلفه أندلسي يدون أدب الشرق بما لا يقل عن أفذاذ المشرق إن لم يزد عليهم ــ جمع فيه أخبار المشرق وكتابه وأدبائه ليتحف بها أهل وطنه، إلا أن اشتهاره

---

(١) وقد دل البحث على أن كثيراً مما اجتمع في هذا الكتاب قد عصفت الأيام بمصادره الأولى وبقي العقد خلفاً منها، لا غناء عنه ولا كفاء له. فها هي ذي مشاورة المهدي لأهل بيته مثلاً وخطب الوفود وغير ذلك لا تجدها في كتاب قبل ذلك.

وجزالة فائدته، جعلاه مرجع أهل المشرق، حتى عدوه من أركان الأدب عندهم، فأقبلوا على دراسته بشغف، وهو يعد في عصرنا أستاذ الكثير من أدبائه هو ومقدمة ابن خلدون.. وفي الكتاب بعض مآخذ على نقله لبعض أخبار المشرق، وعدوه أنه أديب راوية يستطرف ويتخير، وليس من موضوعه التحريات العلمية، ولا التمحيصات المنطقية، فهي غير مهمة الأديب، ولا سيما بين السابقين.

وكان ابن عبد ربه من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس، وكتابه « العقد الفريد » من الكتب الممتعة، حوى من كل شيء، وجزأه إلى خمسة وعشرين كتاباً كل منها جزآن فهو خمسون جزءاً، وقد سمى كل كتاب منها باسم جوهرة من الجواهر، وذكر فيه أخباراً عديدة عن تاريخ العرب السياسي والأدبي وكثيراً من الشعر والحكايات والنوادر وغير ذلك، ونذكر هنا عنوان كل كتاب :

الكتاب الأول : اللؤلؤة، في السلطان
الكتاب الثاني : الفريدة، في الحروب.
الكتاب الثالث : الزبرجدة، في الأجواد والأصفاد.
الكتاب الرابع : الجمانة، في الوفود.
الكتاب الخامس : المرجانة في مخاطبة الملوك.
الكتاب السادس : الياقوتة، في العلم والأدب.
الكتاب السابع : الجوهرة، في الأمثال.
الكتاب الثامن : الزمردة، في المواعظ والزهد.
الكتاب التاسع : الدرة، في التعازي والمراثي.
الكتاب العاشر : اليتيمة، في النسب وفضل العرب.
الكتاب الحادي عشر : العسجدة، في أعلام الأعراب.
الكتاب الثاني عشر : المجنبة، في الأجوبة.
الكتاب الثالث عشر : الواسطة، في الخطب.

الكتاب الرابع عشر : المجنبة الثانية، في التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة.

الكتاب الخامس عشر : العسجدة الثانية، في الخلفاء وتاريخهم وأيامهم.

الكتاب السادس عشر : اليتيمة الثانية في أخبار زياد والحجاج والبرامكة والطالبين.

الكتاب السابع عشر : الدرة الثانية، في أيام العرب ووقائعها.

الكتاب الثامن عشر : الزمردة الثانية، في فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه.

الكتاب التاسع عشر : الجوهرة الثانية، في أعاريض الشعر وعلل القوافي.

الكتاب العشرون : الياقوتة الثانية، في الألحان واختلاف الناس فيها.

الكتاب الحادي والعشرون : المرجانة الثانية، في النساء وصفاتهم.

الكتاب الثاني والعشرون : الجمانة الثانية، في المتنبئين والممرورين والبخلاء والطفيليين.

الكتاب الثالث والعشرون : الزبرجدة الثانية، في طباع الانسان وسائر الحيوان وتفاضل البلدان.

الكتاب الرابع والعشرون : الفريدة الثانية، في الهيئات واللباس والطعام والشراب.

الكتاب الخامس والعشرون : اللؤلؤة الثانية، في الهيئات واللباس والتحف والفكاهات والملح.

ويقول ابن عبد ربه في مقدمة كتابه : « وبعد فإن أهل كل طبقة وجهابذة كل أمة قد تكلموا في الأدب، وتفلسفوا في العلوم على كل لسان ومع كل زمان، وإن كل متكلم منهم قد استفرغ غايته وبذل مجهوده في اختصار معاني المتقدمين واختيار جواهر ألفاظ السالفين،

وأكثروا في ذلك حتى احتاج المختصر منها إلى اختصار والمتخير إلى اختيار، ثم رأيت آخر كل طبقة وواضعي كل حكمة ومؤلفي كل أدب أعذب ألفاظاً وأسهل بنية وأحكم مذهباً وأوضح طريقة من الأول، لأنه ناقض متعقب، والأول باد متقدم، فلينظر الناظر إلى الأوضاع المحكمة والكتب المترجمة بعين إنصاف ثم يجعل عقله حكماً عادلاً قاطعاً، فعند ذلك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع طيبة المنبت زكية التربة يانعة الثمرة، فمن أخذ بنصيبه منها كان على إرث من النبوة ومنهاج من الحكمة، لا يستوحش صاحبه ولا يضل من تمسك به.. وقد ألفت هذا الكتاب وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب، وإنما لي فيه تأليف الاختيار، وحسن الاختصار وفرش لدور كل كتاب وما سواه فمأخوذة من أفواه العلماء ومأثور عن الحكماء والأدباء.

وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متفوقة في فنون الأخبار ولا جامعة لجمل الآثار فجعلت هذا كافياً جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها وتوافقها في مذاهبها، وقرنت بها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته وبلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمنثور، وسميته كتاب العقد الفريد، لما فيه من مختلف جواهر الكلام، مع دقة المسلك وحسن النظام، وجزأته على خمسة وعشرين كتاباً، كل كتاب منها جزآن، فتلك خمسون جزءاً في خمسة وعشرين كتاباً، قد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد، فأولها كتاب اللؤلؤة في السلطان، ثم كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها، ثم كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد، ثم كتاب الجمانة في الوفود، ثم كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك ثم كتاب الياقوتة في

العلم والأدب، ثم كتاب الجوهرة في الأمثال ثم كتاب الزمردة في المواعظ والزهد، ثم كتاب الدرة في التعازي والمراثي، ثم كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب ثم كتاب العسجدة في كلام الإعراب، ثم كتاب المجنبة في الأجوبة ثم كتاب الواسطة في الخطب، ثم كتاب المجنبة الثانية في التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة، ثم كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتواريخهم وأيامهم ثم كتاب اليتيمة الثانية في أخبار زياد والحجاج والطالبين والبرامكة، ثم كتاب الدرة الثانية في أيام العرب ووقائعهم، ثم كتاب الزمردة الثانية في فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه، ثم الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر وعلل القوافي ثم كتاب الياقوتة الثانية في الألحان واختلاف الناس فيه، ثم كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهم، ثم كتاب الجمانة الثانية في المتنبئين والموسومين والبخلاء والطفيليين، ثم كتاب الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان، ثم كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب، ثم كتاب اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح.

منزلته في الأدب الأندلسي :

يقول عنه ياقوت في معجم الأدباء : « كان لأبي عمرو بالعلم جلالة، وبالأدب رياسة وشهرة، مع ديانة وصيانة، واتفقت له أيام وولايات للعلم فيها نفاق؛ فساد بعد الخمول، وأثرى بعد الفقر، وأشير إليه بالتفضيل، إلا أنه غلب عليه الشعر.

وأكثر شعر ابن عبد ربه وأجمله في الوصف والغزل، وهو يجمع بين جزالة المشرقيين وعذوبة الأندلسيين، ويكبر شعره وأدبه أدباء المشارقة، يروي ابن الخطيب أن الوليد الأندلسي لما حج عرج في منصرفه على مصر، فلقي بها أبا الطيب المتنبي في جامع عمرو، فأفاضا في الحديث، ثم قال المتنبي : ألا تنشدني لمليح الأندلس ؟ يريد صاحبنا

ابن عبد ربه، فأنشده الوليد شيئاً من شعره، فاستجاده واستعاده، ثم قال : « يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبواً ».

ولابن عبد ربه فضيلة السبق إلى اختراع الموشحات، هو ومقدم ابن معافر، وله طبع في الشعر القصصي، الذي كان من أروع ما نظم فيه بالعربية أرجوزته في تاريخ الخليفة الناصر الأموي (٣٠٠ــ٣٥٠هـ)، وإن كانت تخلو من خيال القصص وعذوبة الملحمة وفن التصوير، وقد ذكرها ابن عبد ربه في الجزء الثاني من كتابه « العقد الفريد »، وله أشعار سماها « المحمصات »، وهي في الزهد والتوبة، وقد نقض فيها كل قطعة قالها في الغزل واللهو بقطعة من بحرها ورويها في الزهد والتوبة والموعظة، وكان ابن عبد ربه شاعراً مكثراً، وشاهد الحميدي من ديوانه عشرين جزءاً ونيفاً من جملة ما جمع للحكم ابن عبد الرحمن الناصر وأكثرها بخطه، وفي كتابه « العقد » كثير من نماذج شعره، ويقول في مقدمة هذا الكتاب : « وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها، وتوافقها في مذاهبها، وقرنت منها غرائب من شعري، ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته، وبلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمنثور ».. وكتابه العقد صورة لأدب المشرق، وليس فيه عن الأندلس وأدبها شيء، ولما سمع الصاحب بن عباد بهذا الكتاب وطالعه قال : « هذه بضاعتنا ردت إلينا، ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، فإذا به مشتمل على أخبار بلادنا ».

وفي ابن عبد ربه يقول الثعالبي في كتابه « اليتيمة » : « ابن عبد ربه أحد محاسن الأندلس علماً وأدباً ونبلاً، وشعره في غاية الجزالة والحلاوة، وعليه رونق البلاغة والطلاوة ».

وقد ترجم لابن عبد ربه كثيرون منهم : ابن خلكان في الجزء الأول من كتابه « وفيات الأعيان »، وياقوت الحموي في الجزء الثاني

من كتابه « معجم الأدباء »، والضبي في كتابه « بغية الملتمس » — ص ١٣٧ — والثعالبي في الجزء الأول من يتيمة الدهر، ولقي كتابه العقد الفريد عناية العلماء والأدباء في كل جيل.

ألوان من أدبه :

١ — من نثر ابن عبد ربه ما ذكره عن كتابه ونهجه فيه، فقال : « ألفت هذا الكتاب، وتخيرت جواهره من متخير جواهر الآداب، ومحصول جوامع البيان، فكان جوهر الجواهر، ولب اللباب، وإنما لي فيه الاختيار، ومأثور عن الحكماء والأدباء، واختيار الكلام أصعب من تأليفه.. وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة، فوجدتها غير متفوقة في فنون الأخبار، ولا جامعة لجمل الآثار، فجعلت هذا الكتاب كافياً جامعاً لأكثر المعاني التي تجرى على أفواه العامة، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر، تجانس الأخبار في معانيها وتوافقها في مذاهبها وقرنت بها غرائب من شعري ».

٢ — ومن شعره قوله :

اشرب على المنظر الأنيق ... وامزج بريق الحبيب ريقي
واحلل وشاح الكعاب رفقا ... خوفا على خصرها الرقيق
وقل لمن لام في التصابي ... خل قليلاً عن الطريق

وله في الغزل :

بذمام الهوى أمت إليه ... وبحكم العقار أقضي عليه
بأبي من زها علي بوجه ... كاد يدمي لما نظرت إليه
كلما علني من الراح صرفا ... علني بالرضاب من شفتيه
ناول الكأس واستحال بلحظ ... فسقتني عيناه قبل يديه

ومن شعره أيضاً قوله :

ودعتني بزورة واعتناق ... ثم نادت: متى يكون التلاقي؟
وبدت لي فأشرق الصبح منها ... بين تلك الجيوب والأطواق
يا سقيم الجفون من غير سقم ... بين عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أفظع يوم ... ليتني مت قبل يوم الفراق

وقال في وصف رمح وسيف :

بكل رديني كأن سنانه ... شهاب بدا في ظلمة الليل ساطع
تقاصرت الآجال في طول متنه ... وعادت به الآمال وهي فجائع
وذي شطب تقضي المنايا لحكمه ... وليس لما تقضي المنية دافع
يسلل أرواح الكماة انسلاله ... ويرتاع منه الموت والموت رائع

وقال في الغزل :

يا لؤلؤا يسبي العقول أنيقا ... ورشا بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... درا يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه ... أبصرت وجهك في سناه غريقا
يا من تقطع خصره من رقة ... ما بال قلبك لا يكون رقيقا

وآخر شعر نظمه قوله :

بليت وأبلتني الليالي بكرها ... وصرفان للأيام معتوران
ومالي لا أبلى لسبعين حجة ... وعشر أتت من بعدها سنتان
ولست أبالي من تباريح علتي ... إذا كان عقلي باقياً ولساني

وتوفي ابن عبد ربه بالفالج عام ٣٢٨هـ، عن ٨٢ عاماً ودفن في قرطبة.

وقد ترجم الثعالبي في الجزء الأول من العقد لأحمد بن عبد ربه الأندلسي، ولأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، ولسعيد بن أحمد ابن عبد ربه الأندلسي ولعباس بن فرناس، ولمحمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي النحوي اللغوي ولابن دراج الأندلسي[1] :

(١) يقول فيه الثعالبي : كان بالأندلس كالمتنبي بالشام، وهو أحد الفحول وكان يجيد ما ينظم ــ ٢/٩٠ اليتيمة.

ـ ٢ ـ

التجيبي القرطبي :

هو الشيخ أبو عبدالله محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبي القرطبي، (٤٥٨ـ٥٢٩هـ)، الشهير بابن الحاج، قاضي الجماعة بقرطبة. روى عن أبي جعفر أحمد بن زرق الفقيه، وتفقه عنده، وقيد الغريب واللغة والأدب عن أبي مروان عبد الملك بن سراج، وسمع عن أبي عبدالله محمد بن فرج الفقيه، وعن أبي علي الغساني وغيرهم. وكان من جلة الفقهاء، وكبار العلماء، معدوداً في المحدثين والأدباء، بصيراً بالفتيا، رأساً في الشورى، وكانت الفتيا في وقته تدور عليه، لمعرفته وثقته وديانته، وكان معتنياً بالحديث والآثار، جامعاً لها، مقيداً لما أشكل من معانيها، ضابطاً لأسماء رجالها ورواتها، ذاكراً للغريب والأنساب، واللغة والإعراب، ولعالمها بمعاني الأشعار، والسير والأخبار. قال ابن بشكوال : قيد العلم عمره كله، وعني به عناية كاملة ما أعلم أحداً في وقته عني كعنايته، قرأت عليه وسمعت، وأجازني بخطه؛ وكان له مجلس بالجامع بقرطبة، يسمع الناس فيه، وتقلد القضاء بقرطبة مرتين، وكان في ذاته ليناً صابراً، طاهراً حليماً، متواضعاً، لم يحفظ له جور في قضية، ولا ميل بهوى، ولا إصغاء إلى عناية، وكان كثير الخضوع والذكر لله تعالى، ولم يزل آخر عمره يتولى القضاء بقرطبة، إلى أن قتل ظلماً بالمسجد الجامع بقرطبة، يوم الجمعة وهو ساجد، لأربع بقين من صفر، من سنة تسع وعشرين وخمسمائة. وكتابه في نوازل الأحكام من الدلائل على تقدمه في المعارف وبراعته.

أبو بكر بن العربي :

هو القاضي الشهير الحافظ الإمام أبو بكر محمد بن عبدالله بن عبدالله بن أحمد بن العربي المعافري الإشبيلي، (٤٦٨ — ٥٤٣ هـ)، رحل إلى المشرق مع أبيه يوم الأحد، مستهل شهر ربيع الأول، سنة خمس وثمانين وأربعمائة، فدخل الشام، ولقي بها أبا بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، وتفقه عنده، ورحل إلى الحجاز في موسم سنة تسع وثمانين، ودخل بغداد مرتين، وصحب أبا بكر الشاشي، وأبا حامد الطوسي الغزالي، وغيرهما من العلماء والأدباء، فأخذ عنهم، ثم صدر عن بغداد، ولقي بمصر والإسكندرية جماعة، ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وتسعين، وقدم إلى إشبيلية بعلم كثير، لم يدخل به أحد قبله، ممن كان له رحلة إلى المشرق، ولذا نقل عنه أنه قال : كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به أنا والقاضي أبو الوليد الباجي، ولم يرحل غيري وغير الباجي، وأما غيرنا فقد تعب.

وكان من أهل التفنن في العلوم، متقدماً في المعارف كلها، متكلماً في أنواعها، حريصاً على نشرها. واستقضى بمدينة إشبيلية، فقام بما قلد أحمد قيام، وكان من أهل الصرامة في الحق، والشدة والقوة على الظالمين، والرفق بالمساكين، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثه.

وتوفي رحمه الله بالعدوة، ودفن بمدينة فاس في ربيع الآخر، سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

ومن بديع نظمه، رحمه الله :

أتتنـــي تؤنبنـــي بالبكـــا   فأهـــلا بهـــا وبتأنيبهـــا
تقول وفي نفسها حسرة   أتبكـي بعيـن تراني بهـا
فقلت إذا استحسنت غيركم   أمـرت جفوني بتعذيبهـا

وقد وصفه ابن خاقان في « المطمح » فقال : علم الأعلام، الطاهر الأثواب الباهر الألباب، الذي أنسى ذكاء إياس[1]، وترك التقليد للقياس، وأنتج الفرع من الأصل؛ وغدا في يد الإسلام أمضى من النصل، سقى الله به الأندلس، بعد ما أجدبت من المعارف، ومد عليها منه الظل الوارف، فكساها رونق نبله، وسقاها ريق وبله، وكان أبوه أبو محمد بإشبيلية بدراً في فلكها، وصدراً في مجلس ملكها، واصطفاه معتمد بني عباد، اصطفاه المأمون لابن أبي داود، ولاه الولايات الشريفة، وبوأه المراتب المنيفة، فلما أقفرت حمص[2] من ملكهم وخلت، وألقتهم منها وتخلت، رحل به إلى المشرق، وحل فيه محل الخائف الفرق، فجال في أكنافه، وأجال قداح الرجاء في استقبال العز واستئنافه، فلم يسترد ذاهباً، ولم يجد كمعتمده باذلاً واهباً، فعاد إلى الرواية والسماع، وما استفاد من إجالة تلك الأطماع، وأبو بكر إذ ذاك في ثرى الذكاء قضيب ما دوح، وفي روض الشباب زهر ما صوح، فألزمه مجالس العلم رائحاً وغادياً، ولازمه سائقاً إليها وحادياً، حتى استقرت به مجالسه، واطردت له مقايسه، فجد في طلبه، واستجد به أبوه منخرق أربه، ثم أدركه حمامه، ووارته (هناك) رجامه، وبقي أبو بكر منفرداً، وللطلب متجرداً، حتى أصبح في العلم وحيداً، ولم تجد عنه الرياسة محيداً، فكر إلى الأندلس، فحلها والنفوس إليه متطلعة، ولأنبائه متسمعة، فناهيك من حظوة لقى، ومن عزة سقى، ومن رفعة سما إليها ورقى، وحسبك من مفاخر قلدها، ومن محاسن (أنس) أثبتها فيها وخلدها. وقد أثبت من بديع نظمه ما يهز أعطافاً، وترده الأوهام نطافاً، فمن

---

(١) هو إياس بن معاوية قاضي البصرة لعمر بن عبد العزيز، المعروف بالزكانة والفقه. وتوفي عام ١٢٩هـ.

(٢) المراد بها : إشبيلية من مدن الأندلس. سكن بها أهل حمص الشام عند الفتح، فسموها بها.

ذلك قوله يتشوق إلى بغداد، ويخاطب أهل الوداد :

أمنك سرى الليل يخدع بالفجر خيال حبيب قد حوى قصب الفخر
جلا ظلم الظلماء مشرق نوره ولم يخبط الظلماء بالأنجم الزهر
ولم يرض بالأرض البسيطة مسحبا فسار على الجوزا إلى فلك يجرى
وحث مطايا قد مطاها بعزه فأوطأها قسراً على قنة النسر
فصارت ثقالاً بالجلالة فوقها وسارت عجالاً تتقي ألم الزجر
وجرت على ذيل المجرة ذيلها فمن ثم يبدو ما هناك لمن يسري
ومرت على الجرباء توضع فوقها فآثار ما مرت به كلف البدر
وسافت أريج الخلد من جنة العلى فدع عنك رملا بالأنيعم يستذري
فما حذرت قيساً ولا خيل عامر ولا أضمرت خوفاً لقاء بني ضمر
سقى الله مصراً والعراق وأهلها وبغداد والشامين منهمل القطر

ومن تآليف الإمام أبي بكر بن العربي المذكور : كتاب « القبس، في شرح موطأ مالك بن أنس »، وكتاب « ترتيب المسالك، في شرح موطأ مالك »، وكتاب « أنوار الفجر » (في تسعين سفراً)، وكتاب « أحكام القرآن » وكتاب « مراقي الزلف »، وكتاب « الخلافيات »، وكتاب « نواهي الدواهي »، وكتاب « سراج المريدين »، وكتاب « المشكلين » : مشكل القرآن والسنة، وكتاب « الناسخ والمنسوخ في القرآن »، وكتاب « قانون التأويل » وكتاب « النيرين، في الصحيحين » وكتاب « سراج المهتدين » وكتاب « الأمد الأقصى، بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا » وكتاب في الكلام على « مشكل حديث السبحات والحجاب »، وكتاب « العقد الأكبر، للقلب الأصغر »، و « تبيين الصحيح، في تعيين الذبيح »، و « تفصيل التفضيل ».

البطليوسي :

من أعلام الأندلس ابن السيد البطليوسي وهو الفقيه الحافظ، الإمام، أبو محمد : هو عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسي، وشلب بيضته، ومنها كانت حركة أبيه ونهضته؛ وفيها كان قرارهم، ومنها نم آسهم وعرارهم؛ ونسب إلى بطليوس، لمولده بها؛ ومن حيث كان فقد طبق الأرض علما، وملأها ذكاء وفهماً. قال فيه الفتح بن خاقان « في المطمح » : لو أن للأيام ألسناً ناطقة، وأوصافاً متناسقة؛ تردد فنون بيانها، كالطير ترجع على أفنانها ما جرت إلى إنصافه، ولا درت بعض أوصافه؛ ولو أني أمددت ببيان سحبان وأيدت تأييد لسان حسان، وأعارني ابن صوحان[1] الفصاحة، وعلمني خالد بن صفوان[2] إيضاحه، لما أعربت عن مقداره الرفيع، ولا أغربت بما أنحوه له من التعظيم والترفيع؛ فكيف بلسان (قد) فل غراره، وبنان قد ذوى زنده وعراره؛ وخاطر قد ارتمى في لجج الأخطار، ووخز بأطراف القنا الخطار؛ فما تذل له عصي إحسانه، ولا تحل النوائب عقدة من لسانه، فحسبي أن أقتصر من وصفه على لمحه، وأعطر من عرفه بنفحه، فأقول : إنه ضارب قداح العلوم ومجيلها، وغرة أيامنا البهيمة وتحجيلها، لو أدركه قيس لما قضى للحلم وتراً ولا شفعاً، ولو عاصره ابن العاص لما ادعى ضراً ولا نفعاً، حلب الدهر أشطره، وتلا حروفه وأسطره، وخدم الرياسات، وعلم طرق السياسات، ونفق وكسد، ووقف وتوسد، وهو اليوم شيخ المعارف وإمامها، ومن في يديه مقودها وزمامها، لديه تنشد

---

(١) يريد صعصعة بن صوحان من أصحاب علي بن أبي طالب، وكان من أخطب الناس. (انظر المعارف لابن قتيبة).

(٢) خالد بن صفون بن عبدالله بن الأهتم المنقري التميمي البصري كان لسنا بيناً خطيباً، عاش إلى قيام دولة بني العباس. (أنظر المعارف).

ضوال الأعراب، وتوجد شوارد اللغات والإعراب، إلى مقطع دمث، ومنزع في النفاسة غير منتكث، وندى خرق به العوائد، وأورق عوده في يد الرائد، وعفاف كف، حتى عن الطيف، وحكى المحرمين بالخيف، ولقد نزلت منه بالتقي الطاهر، ولقيت منه ما لقي عوف بن محلم من ابن طاهر[1]، ورأيت نار مكارمه تتألق، وبت كأنما على النار الندى والمحلق، وله تحقق بالعلوم الحديثة والقديمة، وتصرف في طرقها المستقيمة، ما خرج بمعرفتها عن مضمار شرع، ولا نكب عن أصل للسنة ولا فرع. وتواليفه في الشروحات وغيرها صنوف، وهي اليوم في آذان الأيام شنوف. فمنها « المقتبس، في شرح موطأ بن أنس ». و « الاقتضاب، في شرح أدب الكتاب ». وكتاب « التنبيه على السبب الموجب لاختلاف العلماء، في اعتقاداتهم وآرائهم، وسائر أغراضهم وأنحائهم »، وغير ذلك مما يشتمل عليه هذا الموضوع ويخفيه، ويوقف على تفسيره فيه. وقد أثبت من محاسنه التي تدور جريالاً، ما ينشي ويسكر، ويحمده الوسمي المبكر.

فمن ذلك أنه حضر مع القادر بالله بن ذي النون بمجلس الناعورة بطليطلة في المنية المتناهية البهاء والإشراق، والمباهية لزوراء العراق؛ التي ينفح شذاها العطر، ويكاد من الغضارة يمطر، والقادر بالله رحمه الله قد التحف الوقار وارتداه، وحكم العقار في جوده ونداه؛ والمجلس يشرق كالشمس في الحمل، ومن حواه يبتهج كالنفس عند منال الأمل؛ والزهر العبق، وعلى ماء النهر مصطبح ومغتبق؛ والدولاب يئن كناقة إثر حوار، أو كثكلى من حر الأوار؛ والجو قد عنبرته أنواؤه، والروض قد بللته أنداؤه؛ والأسد قد فغرت أفواهها، ومجت أمواهها؛ فقال — يصف الحال :

---

(١) يشير إلى منزلة عوف بن محلم الشيباني عند عبدالله بن طاهر بن الحسين والي خراسان للمأمون، وكان من المختصين به، المقربين إليه.

يا منظراً إن رمقت بهجته ... أذكرني حسن جنة الخلد
تربه مسك وجو عنبرة ... وغيم ند وطش ماورد
والماء كاللازورد قد نظمت ... فيه اللآلي فواغر الأسد
كأنما جائل الحباب به ... يلعب في حافتيه بالنرد
تراه يزهى إذا يحيل به الـ ... ـقادر زهو الكعاب بالعقد
تخاله إن بدا به قمرا ... تما بدا في مطالع السعد
كأنما ألبست حدائقه ... ما حاز من شيمة ومن مجد
كأنما جادها فروضها ... بوابل من يمينه رغد
لا زال في عزة مضاعفة ... ميمم الرفد واري الزند

وله يصف فرساً، وهو مما أبدع في التمثيل له والتشبيه، ونبه خاطره فيه احسن تنبيه، وخلع عليه شيات لاحق والوجيه، وعمه بالمحاسن وتوج، ونسبه إلى الخطار وأعوج[1] :

وأقب من آل الوجيه ولاحق ... قيد العيون وغاية المتمثل
ملك النواظر والقلوب بحسنه ... فمتى ترق العين فيه تسهل
ذو منخر رحب وزور ضيق ... وسماوة خصب وأرض ممحل
قصرت له تسع وطالت أربع ... وصفت ثلاث منه للمتأمل
وتراه أحياناً لعزة نفسه ... يرنو ــ بلا قبل ــ بعين الأقبل
وكأنما سال الظلام بمتنه ... وبدا الصباح بوجهه المتهلل
وكأن راكبه على ظهر الصبا ... من سرعة أو فوق ظهر الشمأل

ودعي ليلة إلى مجلس قد احتشد فيه الأنس والطرب، وقرع السرور نبعه بالغرب؛ ولاحت نجوم أكواسه، وفاح نسيم رنده وآسه؛ وأبدت صدور أباريقه أسرارها، وضمت عليه المجالس أزرارها؛ والراح يديرها أهيف وأوطف، والأماني تجنى وتقطف، فقال :

---

(١) لاحق، والوجيه، والخطار، وأعوج : أفراس مشهورة عند العرب بالعتق والكرم.

يا رب ليل قد هتكت حجابه بمدامـة وقـادة كالكـوكب
يسعى بها أحوى الجفون كأنها من خده ورضاب فيه الأشنب
بدران : بدر قد أمنت غروبه يسعى ببدر جانح للمغرب
فإذا نعمت برشف بدر غارب فانعم برشفة طالع لم يغرب
حتى ترى زهر النجوم كأنها حول المجرة ربرب في مشرب
والليـل منحفـز يطيـر غرابـه والصبح يطرده بـاز أشـهب

وقال يمدح بعض الأعيان، وهي قصيدة اشتملت على البلاغة :

أمـا إنـه لـولا الدمـوع الهوامـع لما بان مني ما تجن الأضالـع
وكم هتكت ستر الهوى أعين المها وهاجت لي الشوق الديار البلاقع
خليلي ما لـي كلمـا لاح بـارق تلظى الحشا وارفض مني المدامع
هل الأفق في جنبي بالبرق لامع أم المزن في جفني بالودق هامع
ففي القلب من نار الشجون مصايف وفي الخد من ماء الشئون مرابع
وما هاج هذا الشوق إلا مهفف هو البدر أو بدر الدجى منه طالع
إذا غاب يوماً فالقلوب مغارب وإن لاح يوماً فالجيوب مطالع
يضـرج خديـه الحيـاء كأنمـا بخديه من فتك الجفون وقائـع
رماني عن قوس المحاجر لحظه بسهم غدا من مهجتي وهو وادع
ومـا زلت مـن ألحاظه متوقيـا ولكنـه مـا حـم لا بـد واقـع
يـرق فتـور اللحـظ منـه كأنـه إلى قلبه من قسوة الهجر شافع
كما رق بالآداب طبـع محمـد فحاكت لمى الأحباب منه الطبائع
رخيم حواشي الطرف حلو كأنما سجايـاه أيـام السـرور الرواجـع
أبا بكر استوفيت زهر محاسـن تنافسهـا زهـر النجـوم الطوالـع
قدحت زناداً من ذكائك لم يزل ينيـر فتعشـى البارقـات اللوامـع
وما ذاك عن نيل لديك رجوته فيصدق ظـن أو يكـذب طامـع
ولا أنا ممن يرتضي الشعر خطة فتجذبـه نحـو الملـوك المطامـع
ولكن قلباً بين جنبي قـد غـدا يجاذبنـي فـيك الهـوى وينـازع
طوى لك من محض الوداد كمائنا تبدت لها فوق اللسـان طلائـع

أأزعم[1] في نظم البديع ولم يزل	لك السبق فيه والورى لك تابع
وأي مقال لي وقولك سائر	وأي بديع لي ومنك البدائع

وقال يتغزل، وتصرف فيه تصرف غيلان مي، ووصف كل حواء وحي، وذكر العشق، وارتاد الإبداع، حتى عدا به مصره، فأجاد معانيه :

تأوبه من همه ما تأوبا	فبات على جمر الأسى متقلبا
مرت مزن عينيه غداة تحملوا	عواصف ريح الشوق حتى تصببا
دموع هتكن الستر عن مضمر الجوى	وأبدين من سر الهوى ما تغيبا
خليلي مالي كلما لاح بارق	تذكرت برقا بالعقيق وزينبا
أؤنس بالنائين نوماً مشرداً	وأطمع بالثاوين قلباً معذباً
ومن لي برد الخل إذ جدت النوى	به وبوصل الحبل أن يتقضبا
أفي كل حين أمتري غرب مقلة	أبي الوحد إلا أن تجود فتغربا[2]
إذا عن لي ظبي بوجرة شادن	تذكرت من عنَّى الفؤاد وعذبا
وأرتاح للأرواح من نحو أرضها	وتثني عناني للصبا نفحة الصبا
ولولا التهاب الشوق بين جوانحي	لأمرع خدي بالدموع وأعشبا
ألا قاتل الله الهوى كيف قادني	إلى مصرعي طوعاً وقد كنت معصبا[3]
وما كنت أخشى أن أبيت معذبا	بعذب رضاب من حمى الثغر أشنبا
وخد ألاقي دون شم رياضه	من اللحظ هنديا وللصدع عقربا
أجدك لم تبصر تألق بارق	يجد نشاطاً في ذرى الأفق أهدبا
إذا ما بدا في الجو أحمر ساطعا	حسبت الظلام آبنوسا مذهبا
كأن الرياض الحو غب سمائه	تردين وشي العبقري المخلبا[4]
كأن الشقيق الغض والفجر ساطع	خدود زهاها الحسن أن تتنقبا

(١) يقال زعم يزعم (من باب شرف) : بمعنى ساد ورأس.

(٢) يقال : أغرب الساقي : إذ أكثر الغرب، أي الملء، وأغرب الحوض والإناء : ملأهما.

(٣) المعصب من الإبل : الفحل الذي لا ينقاد.

(٤) المخلب (كمعظم) : الكثير الوشي.

تمتع بريعان الشباب وظله فلا بد يوماً أن يبينا ويذهبا
فما العيش إلا أن تروح وتغتدي محبا براه سقمه أو محببا

وكتب إلى الكاتب أبي الحسن راشد يستدعيه إلى مجلس قد لاحت شموس مدا، وارتاحت نفوس ندامه:

عندي مشكود[1] من الخمر عبق
فيه منى مصطبح ومغتبق
يحكي شذا المسك إذا المسك فتق
كأنه من خلقك الحلو خلق
كأنما كئوسه تحت الغسق
في راحة الساقي نجوم تأتلق
تخالا وهي تلظى كالحرق
أحشاء صب ملئت من الحرق
ترى لدى المزج إذا الماء اندفق
فيها حباباً لاح كالدر النسق
وأنت أنسى والمفدى بالحدق
فاطلع طلوع القمر التم اتسق
في يومنا هذا إذا دجى الغي غسق
وما جداً قد حاز في السبق السبق
لله معنى طابق اسماً لك حق
توافقاً فيك إذا الإسم اتفق

وقال في الزهد وهو غرض قد أكثر القول فيه، وذلك مما يدل على ورعه، وصفاء منهله في التقى ومشرعه:

إلهي إني شاكر لك حامد وإني لساع في رضاك وجاهد

(١) في الأصول: « مسكود » ولا معنى له، ونظنه محرفاً عما أثبتناه. والمشكود: الممنوح.

وإنك مهما زلت النعل بالفتى ... على العائد التواب بالعفو عائد
تباعدت مجداً وادنيت تعطفاً ... وحلما فأنت المدني المتباعد
وما لي على شيء سواك معول ... إذا دهمتني المعضلات الشدائد
أغيرك أدعو لي إلهاً وخالقاً ... وقد أوضح البرهان أنك واحد
وقدماً دعا قوم سواك فلم يقم ... على ذاك برهان ولا لاح شاهد
وبالفلك الدوار قد ضل معشر ... وللنيرات السبع داع وساجد
وللعقل عباد وللنفس شيعة ... وكلهم عن منهج الحق حائد

وقال يمدح الظافر بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن ذي النون :

لعلكم بعد التجنب والهجر ... تديلون من بعد وتشفون من ضر
فإن الذي غادرتم بين أضلعي ... يزيد على مر الزمان ويستشري
ولم تنبكم عني النوى غير أنكم ... رحلتم من الجفن القريح إلى الفكر
ومن عجب أني أسائل عنكم ... ومنزلكم بين الجوانح والصدر
كأن ضياء الصبح في الليل إذ سرى ... بصيرة إيمان سرت في عمى كفر
كأن مها في الأفق ريعت وقد بدا ... لها ذنب السرحان من وضح الفجر
كأن سنى الشمس المنيرة إذ بدا ... كسا ورق الإصباح ذوبا[1] من التبر
وإلا فوجه الظافر الملك انجلى ... فجلى ظلام النقع في الجحفل المجر
عجبت لأيام تداعت خطوبها ... لتلثم من غربي وتقدح في وفري
ولم تدر أني في حمى الظافر الرضا ... أرد العدى عني بصمصامتي عمرو
حللت جنابا منه مد ظلاله ... علي وأعطاني أماناً من الدهر
جناب بكت فيه غمائم جوده ... فأضحكن روض المجد عن زهر الشكر
وكم نلت مذ أصبحت ألثم كفه ... بيمناه من يمن ويسراه من يسر
لدى ملك ما لاح ضوء جبينه ... بجنح الدجى إلا كفى مطلع البدر

وكتب مراجعاً إلى الوزير أبي محمد بن سفيان رحمه الله :

يا سيدي الأعلى، وعمادي الأسنى، ومشربي الأصفى، ومن أدام

---

(١) في م : « ثوبا ».

الله عزته، وحمى من النوائب حوزته؛ وافاني لك كتاب سري الموضع، سني الموقع، أطال على إيجازه، وأطمع بعد إعجازه، وقابلت الرغبة التي ضمنتها فيه، بما تقتضيه جلالة مهديه؛ ولئن تراخى الكتاب، عن حسن في ذلك العتاب؛ فإن المودة لم يقدح فيها من الملل قادح، ولم يسنح لها من الخلل سانح، بل كانت كالبرد طوى على غره، إلى أوان جلائه ونشره؛ وقد علم علام الضمائر، والذي يظن غائباً وهو حاضر، أني أعتقدك القدح المعلى، وأضرب بك المثل الأعلى، وأرى أنك تحجيل واضح في دهمة الزمان، وعلق راجح في كفة الامتحان، وبقية سنخ كريم، ما عهدهم عنا بذميم:

عليهم سلام الله ما ذر شارق ورحمته ما شاء أن يترحما

وما أدعي لك جانباً من السيادة، إلا ولك عليه أعدل الشهادة؛ ولكن قديماً سفل ذو الرجحان، وعاد الكمال على أهله بالنقصان، وكبت الأعالي بارتفاع الأسافل، حتى اقتضى ذلك قول القائل:

فواعجباً كم يدعي الفضل ناقص ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل
وقال المذمر للناتجين متى ذمرت قبلي الأرجل[1]

وقد جاريتك ـ أعزك الله ـ في ميدان من البلاغة أنا فيه كمن كاثر البحر والمطر، وجلب التمر إلى هجر؛ والذي حداني إليه، أنه مربي زمن، ألهى خاطري عنك فيه وسن، فقلت قد كان من العقوق، ترك رعاية الحقوق؛ فلأستمطرن مزن القول، فقد كنت عهدتها تسجم فتغدق، ولأستسقين جابية الشيخ العراقي، فقد كانت تطم فتفهق[2]،

(١) هذا البيت للكميت. والمذمر: الذي يدخل يده في حياء الناقة لينظر أذكر جنينها أم أنثى. يقول: إن التذمير إنما هو في الأعناق لا في الأرجل.

(٢) الجابية: الحوض، والعراقي إذا تمكن من الماء ملأ جابيته لأنه حضري فلا يعرف مواقع الماء ولا محاله. وفي العبارة إشارة إلى قول الأعشى:

نفى الذم عن رهط المحلق جفنة كجابية الشيخ العراقي تفهق

أيام كنت أسحب ذيل الشباب، وأسلك مسلك الكتاب، ويعجبني سلوك سهل الكلام وحزونه، والتصرف بين أبكاره وعونه، أستن استنان الطرف (الجامح، ولا أثني عنان الطرف[1]) الطامح، وأروي هامتي، وأقول بما صبت علي غمامتي، إلى أن تعمم مفرقي بالقتير[2]، وعلتني أبهة الكبير؛ وودعت زمني الزائل، وعادت سهامي بين رث وناصل[3]؛ وعريت أفراس الصبا ورواحله[4]، وسددت علي سوى قصد السبيل معادله[5]؛ فلئن هريق ماء الشباب، واستشن الأديم[6]، وأقشع السحاب، وتجلت الغيوم، فلعل في الأفق ربابه وفي الحوض صبابه، وعسى أن يكون في أخلاف المقالة در يرجع، وفي حقاق البلاغة در يرصع؛ ولأزفنها عذراء، لا ترتضي إلا الأكفا، فليس يبين النجد إلا في مآزق الهيجاء، ولا يحسن العقد إلا في عنق الحسناء؛ ولأجعلن الشعر لها شعاراً، وفقر النثر لها دثاراً.

وقال يخاطب مكة أعزها الله :

أمكة تفديك النفوس الكرائم ... ولا برحت تنهل فيك الغمائم
وكفت أكف السوء عنك وبلغت ... مناها قلوب كي تراك حوائم

---

(١) التكملة عن القلائد.

(٢) القتير : رءوس مسامير حلق الدروع، شبه بها الشيب إذا نقب في سواد الشعر. (اللسان).

(٣) الناصل من السهام : ما لا نصل له.

(٤) يشير إلى بيت زهير بن أبي سلمى :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله ... وعرى أفراس الصبا ورواحله

(٥) معادل الطريق : مذاهبه ومسالكه. وهو من قول زهير :

وأقصرت عما تعلمين وسددت ... على سوى قصد السبيل معادله

(٦) استشن الأديم : يبس وتشنج. وجلد الإنسان : تغضن عند الهرم. وهو من قول أبي حية النميري : هريق شبابي واستشن أديمي.

فإنك بيت الله والحرم الذي ... لعزته ذل الملوك الأعاظم
وقد رفعت منك القواعد بالتقى ... وشادتك أيد برة ومعاصم
وساويت في الفضل المقام كلاكما ... تنال به الزلفى وتحمى المآثم
ومن أين تعدوك الفضائل كلها ... وفيك مقامان : الهدى والمعالم
نبي حوى فضل النبيين واغتدى ... لهم أولاً في فضله وهو خاتم
وفيك يمين الله يلثمها الورى ... كما يلثم اليمنى من الملك لاثم
وفي لإبراهيم إذ وطئ الثرى ... ضحى قدم برهانها متقادم
دعا دعوة فوق الصفا فأجابه ... قطوف من الفج العميق وراسم

فأعجب بدعوى لم تلج مسمعي فتى ... ولم يعها إلا ذكي وعالم
ألهفي لأقدار عدت عنك همتي ... فلم تنتهض مني إليك العزائم
فيا ليت شعري هل أرى فيك داعيا ... إذا ما دعت لله فيك الغمائم
وهل تمحون عني خطايا اقترافها ... خطى فيك لي أو يعملات رواسم
وهل لي من سقيا حجيجك شربة ... ومن زمزم يروي بها النفس حائم
وهل لي في أجر الملبين مقسم ... إذا بذلت للناس فيك المقاسم
وكم زار مغناك المعظم مجرم ... فحطت به عنه الخطايا العظائم
ومن أين لا يضحى مرجيك آمنا ... وقد أمنت فيك المها والحمائم
لئن فاتني منك الذي أنا رائم ... فإن هوى نفسي عليك لدائم
وإن يحمني حامي المقادير مقدماً ... عليك فإني بالفؤاد لقادم
عليك سلام الله ما طاف طائف ... بكعبتك العليا وما قام قائم
إذا نسم لم تهد عني تحية ... إليك فمهديها الرياح النواسم
أعوذ بمن أسناك من شر خلقه ... ونفسي فما منها سوى الله عاصم
وأهدي صلاتي والسلام لأحمد ... لعلي به من كبة النار سالم

ابن الأبار :

ومن أعلام الأندلسيين أبو عبدالله بن الأبار من مشيخة أهل بلنسية، وكان علامة في الحديث ولسان العرب، وبليغاً في الترسيل والشعر، وكتب عن السيد أبي عبدالله بن حفص بن عبد المؤمن ببلنسية، ثم عن ابنه السيد أبي زيد، ثم دخل معه الحرب حين نزع إلى دين النصرانية، ورجع عنه قبل أن يأخد به، ثم كتب عن ابن مردنيش. ولما زحف الطاغية إلى بلنسية ونازلها، بعث زيان بوفد بلنسية وبيعتهم، إلى الأمير أبي زكرياء، وكان فيهم ابن الأبار هذا الحافظ، فحضر السلطان، وأنشد قصيدته على روي السين يستصرخه، فبادر السلطان بإغاثتهم، وشحن الأساطيل بالمدد إليهم، من المال والأقوات والكسا، فوجدهم في عسرة الحصار، إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية، ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس، غبطة بإقبال السلطان عليه، فنزل منه بخير مكان، ورشحه لكتب علامته في صدور رسائله ومكتوباته، فكتبها مدة، ثم إن السلطان أراد صرفها لأبي العباس الغساني، لما كان يحسن كتابتها بالخط المشرقي، وكان آثر عنده من الخط المغربي؛ فسخط ابن الأبار، أنفة من إيثار غيره عليه، وافتات على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه، لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه، وأن يبقى مكان العلامة منه لواضعها. فجاهر بالرد، ووضعها استبداداً وأنفة؛ وعوتب على ذلك، فاستشاط غضباً، ورمى بالقلم، وأنشد متمثلاً :

أطلب العز في لظي وذر الذ　　ل ولو كان في جنان الخلود

فنمي ذلك إلى السلطان، فأمر بلزومه بيته، ثم استعتب السلطان بتأليف رفعه إليه، عد فيه من عوتب من الكتاب وأعتب، وسماه إعتاب الكتاب، واستشفع فيه بابنه المستنصر بالله، فغفر السلطان له، وأقال عثرته، وأعاده إلى الكتابة. ولما هلك الأمير أبو زكرياء رفعه المستنصر إلى حضور

مجلسه، مع الطبقة الذين كانوا يحضرونه من أهل الأندلس (وأهل تونس). وكان في ابن الأبار أنفة وبأو[1] وضيق خلق، وكان يزري على المستنصر في مباحثه، ويستقصر مداركه، فخشن له صدره، مع ما كان يسخط به السلطان، من تفضيل الأندلس وولاتها عليها.

وكانت لابن أبي الحسين فيه سعاية، لحقد قديم، سببه أن ابن الأبار لما قدم في الأسطول من بلنسية، نزل ببنزرت وخاطب ابن أبي الحسين بغرض رسالته، ووصف أباه في عنوان مكتوبه بالمرحوم، ونبه على ذلك فاستضحك، وقال : إن أبا لا تعرف حياته من موته لأب خامل، ونميت إلى ابن أبي الحسين، فأسرها في نفسه، ونصب له، إلى أن حمل السلطان على إشخاصه إلى بجاية، ثم رضي عنه واستقدمه، ورجعه إلى مكانه من المجلس، وعاد هو إلى مساءة السلطان بنزعاته، إلى أن جرى في بعض الأيام ذكر مولد الواثق، وساءل عنه السلطان بعض من حضره فاستبهم، فغدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة وطالعها، فاتهم بتوقع المكروه للدولة والتربص بها، كما كان أعداؤه يشيعون عنه، بما كان ينظر في النجوم، فتقبض عليه، وبعث السلطان إلى داره، فرفعت إليه كتبه أجمع، وألقى في أثنائها ــ فيما زعموا ــ رقعة أبيات أولها :

طغا بتونس خلف　　سموه ظلما خليفه

فاستشاط لها السلطان، وأمر بامتحانه ثم بقتله، فقتل قعصاً بالرماح وسط محرم من سنة ثمان وخمسين، يعني وستمائة. ثم أحرق شلوه، وسيقت مجلدات كتبه، وأوراق سماعه ودواوينه، فأحرقت معه.

وله يستصرح أبا زكريا الحفصي لنجدة الأندلس :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا　　إن السبيل إلى منجاتها درسا

---

(١) البأو : الكبر.

وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة إلمام بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة إجحاف نائبة ... تثني الأمان حذاراً والسرور أسا
تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... ولا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن حلها الإشراك مبتسماً ... جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيرتها العوادي العابثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
فمن دساكر كانت دونها حرما ... ومن كنائس كانت قبلها كنسا
يا للمساجد عادت للعدا بيعا ... وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارساً للمثاني أصبحت درساً
وأربعا نمنمت أيدي الربيع لها ... ما شئت من خلع موشية وكسا
كانت حدائق للأحداق مونقة ... فصوح النضر من أدواحها وكسا
وحال ما حولها من منظر عجب ... يستجلس الركب أو يستركب الجلسا

سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا ... عيث الدبا في مغانيها التي كبسا
وانتز بزتها مما تحيفها ... تحيف الأسد الضاري لما افترسا
فأين عيش جنيناه بها خضراً ... وأين[1] غصن جنيناه بها نعسا
حمى محاسنها طاغ أتيح لها ... ما نام عن هضمها حينا ولا نعسا
ورج أرجاءها لما أحاط بها ... فغادر الشم من أعلامها خنسا
خلا له الجو فامتدت يداه إلى ... إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا
وأكثر الزعم بالتثليث منفردا ... ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
صل حبلها أيها المولي الرحيم فما ... أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا
وأحي ما طمست منها العداة كما ... أحييت من دعوة المهدى مقتبسا

---

(١) في ط : « فأي عيش... وأي ».

أيام سرت لنصر الحق مستبقا — وبت من نور ذاك الهدى مقتبسا
وقمت فيها بأمر الله منتصرا — كالصارم اهتز أو كالمعارض انبجسا
تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم — والصبح ماحية أنواره الغلسا
وتقتضي الملك الجبار مهجته — يوم الوغى جهرة لا ترقب الخلسا
هذي رسائلها تدعوك من كثب — وأنت أفضل مرجو لمن يئسا
وافتك جارية بالنجح راجية — منك الأمير الرضا والسيد الندسا
خاضت خضارة يعليها ويخفضها — عبابه فتعاني اللين والشرسا
وربما سبحت والريح عاتية — كما طلبت بأقصى شده الفرسا
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبي — حفص مقبلة من تربه القدسا
ملك تقلدت الأملاك طاعته — ديناً ودنيا فغشاها الرضا لبسا
من كل عاد على يمناه مستلما — وكل صاد إلى نعماه ملتمسا
مؤيد لو رمى نجماً لأثبته — ولو دعا أفقا لبّى وما احتبسا
تالله إن الذي ترجى السعود له — ما جال في خلد يوماً ولا هجسا
إمارة يحمل المقدار رايتها — ودولة عزها يستصحب القعسا
يبدي النهار بها من ضوئه شنباً — ويطلع الليل من ظلمائه لعسا
ماضي العزيمة والأيام قد نكلت — طلق المحيا ووجه الدهر قد عبسا
كأنه البدر والعلياء هالته — تحف من حوله شهب القنا حرسا
تدبيره وسع الدنيا وما وسعت — وعرف معروفه واسى الورى وأسا
قامت على العدل والإحسان دولته — وأنشرت من وجود الجود ما رمسا
مبارك هديه باد سكينته — ما قام إلا إلى حسنى ولا جلسا
قد نور الله بالتقوى بصيرته — فما يبالي طروق الخطب ملتبسا
برى العصاة وراش الطائعين فقل — في الليث مفترساً والغيث مرتجسا
ولم يغادر على سهل ولا جبل — حيا لقاحاً[1] إذا وفيته بخسا
فرب أصيد لا تلفي به صيداً — ورب أشوس لا تلقي له شوسا

---

(١) حيا لقاحا: لم يدينوا للملوك، ولم يملكوا، ولم يصبهم سباء.

إلى الملائك ينمي والملوك معا ... في نبعة أثمرت للمجد ما غرسا
من ساطع النور صاغ الله جوهره ... وصان صيغته أن تقرب الدنسا
له الشرى والثريا خطتان فلا ... أعز من خطبته ما سما ورسا
حسب الذي باع في الأخطار يركبها ... إليه محياه أن البيع ما وكسا
إن السعيد امرؤ ألقى بحضرته ... عصاه محتزما بالعدل محترسا
فظل يوطن من أرجائها حرما ... وبات يوقد من أضوائها قبسا
بشرى لعبد إلى الباب الكريم حدا ... آماله ومن العذب المعين حسا
كأنما يمتطي واليمن يصحبه ... من البحار طريقاً نحوه يبسا
فاستقبل السعد وضاحاً أسرته ... من صفحة فاض منها النور وانعكسا
(وقبل الجود طفاحا غواربه ... من راحة غاض فيها البحر وانغمسا)
يأيها الملك المنصور أنت لها ... علياء توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الأنباء أنك من ... يحيي بقتل ملوك الصفر أندلسا
طهر بلادك منهم إنهم نجس ... ولا طهارة ما لم نغسل النجسا
وانصر عبيدا بأقصى شرقها شرقت ... عيونهم أدمعا تهمي زكا وخسا(٢)
هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت ... داء وما لم تباشر حسمه انتكسا
فاملأ هنيئاً لك التأييد ساحتها ... جردا سلاهب أو خطية دعسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه ... لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى

ومن بديع نثره رحمه الله رسالته الحافلة، التي كتب بها للمستنصر، وهي الرسالة الغريبة مساقاً، المتلألئة نظماً واتساقاً، التي لم ينسج على منوالها، ولم يأت أحد بمثالها؛ يصف وصول الماء إلى تونس، ويشير في ذلك إلى إشارات عجيبة، تدل على أن قريحته الوقادة لداعي الإجابة مجيبة؛ وهي :

الحمد لله حمداً لا نقلله. هذا الزمان الذي كنا نؤمله، « بلدة طيبة ورب غفور »، ودولة مباركة لمحاسنها سفور إلى أبي حفص آلوا،

---

(١) الزكا. الزوج. الخسا : الفرد.

فهل جالت النجوم حيث جالوا، أو نالت الملوك بعض ما نالوا، ملك يشتمل الإقبال، وعز يقلقل الأجبال، وكرم صريح الانتما، في النماء، وشرف سمت ذوائبه على السماء، إلى عدل وإحسان، هما قوام نوع الإنسان، مع رفق وإسجاح، ضمناً كل فوز ونجاح، فقد آضت الظلماء أنواراً، وفاضت البركات أنجاداً وأغواراً، أليس العام ربيعاً، والعالم جميعاً، والسعود طالعه، والعصور طائعه، مصالح الأعمال تحليها، وعلى منصات الكمال تجليها ؟ فمن ذا أيها المولى يجاريك إلى مدى، أو يباريك في إقدام صادق وندى، وآياتك للأبصار هدى، وحياتك للكفار ردى، بسيرتك عدل الدهر وما جار، ولولا نور غرتك ما أنار، لقد حسنت بك الأوقاف، حتى كأنك في فم الزمن ابتسام أعرقت في المجد والعليا، وعنيت بالدين فعنت لك الدنيا، أي عنيد أو عميد ما ألقى باليد، واتقى في اليوم عاقبة الغد، إصفاقاً على التعوض بصفحك وإسعادك، وإشفاقاً من التعرض لصفاحك وصعادك، تعمر بالحسنات آناءك، وتتبع في القربات آباءك، بانياً كما بنوا، بل زائداً على ما أتوا، وبادياً من حيث انتهوا :

أناس من التوحيد صيغت نفوسهم فزرهم تر التوحيد شخصاً مركبا
ومن ساكبات المزن فيض أكفهم فردهم ترى ماء الغمام وأعذبا

أمجاد أجواد، في الحباء بحار وفي الحبا أطواد، تقيل أبو زكرياء نهج أبي محمد، وأيدا جميعاً بأبي حفص المؤيد :

نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عمودا

أولئك صفوة الأئمة، وحفظة الأذمة، والقائمون دون الأمة، في الحوادث المدلهمة، وهذه الدولة المحمدية، الخالدة بمكانها الدعوة المهدية؛ إليها انتهت المراشد، وعليها التفت المحامد، وبها اعتزت حين اعترضت العناصر والمحاتد، ومن خصائصها انفعال الوجود، ومن مراسمها الإيثار بالموجود، والبدار إلى إغاثة الملهوف وإعانة المنجود، ما برحت للخيرات إيضاعها وخبها، وبالصالحات غرامها وحبها. حتى

لقد فهمت أسرارها، وأودعت أنوارها، وكلفت أو كفلت إفشاءها وإظهارها، يميناً أن يمين الحق به طولى، وللآخرة خير لها من الأولى، بمولانا أيده الله عز مكانها، وخلدت سديدة آثارها، شديدة أركانها، لا جرم أنه الظاهر كالماء الذي جلبه للطهارة، والظاهر ولاء ولواء في مصعد الخلافة ومقعد الإمارة، بالسعادة الأبدية وجده وكلفه، وما همه إلا تجاوز ما أسلفه سلفه، فجر من الأرض ينبوعاً، وجدد للجدوى رسوماً عافية وربوعاً، ساحته الحرم وهو زمزم قصاده وحجابه، وراحته البحر الخضم، غير طعمه وارتجاجه، ما أظهره خلالاً، وأبهره جلالاً، « هكذا هكذا وإلا فلالا » غابت كماة المعارك وشهد، ونامت ولاة الممالك وسهد، فمتى قسطوا أقسط، وإذا غوروا أنبط، ولذلك ما أبطل عمله أعمالهم وأحبط، غلبهم على صفتي الندى والباس، وسلبهم منقبتي حمزة والعباس.

فلا غرو أن من أمن ووقى، ثم لما كسا وأطعم سقى، آية نعمى وفت بالميعاد، وحسنى مثلها يعود للمعاد، وأتت بماء معين قد أصبح غوراً، وملأت ما بين لابتيها جناناً ترف ظلاً وترق نوراً، فيا بشرى لتونس أخصب جديبها، وأحسن وصف الروض والغدير أديبها، وطالما أطلعت صحراء بل بغضاء، فكم للإمارة قبلها من يد بيضاء، غشيت حبر الحبور والسرور، وعوضت برد الظل من وهج الحرور، خمائل وجداول، تزاول منها العين ما تزاول، تلك يضل من أحصاها، وهذه يصل بها حصاها، ويا لقصرها السعيد ! نعمت أدواحه، وهبت على خضر الأغصان وزرق الغدران أرواحه، هذا وإن بات السماح المفاض يسقيه، والجود الفضفاض ينقع فؤاده ويشفيه، وهنيئاً للمسجد الجامع أن رويت جوانحه الصاديه، وجمعت في شرعته السارية والغاديه، فها هو فجره بادي الغرر والأوضاح؛ وصخره منبجس بالزلال القراح، وللجمهور بصفوه المنساب، لهج الغياب بالإياب، وطرب الشيب لذكر

الشباب، أمسوا قد سوغوا مآربهم، وأضحوا قد علم كل أناس مشربهم، فهم يردون على العذب النمير، ويجدون بركة رأي الأمير، مكرمة ذخرها لسلطانة الزمان، وكرامة هنأها به الإيمان، وقضية إن حجبت عن داود فما حجب عنها سليمان :

جمعت للناس بين الري والشبع	فهم بأخصب مصطاف ومرتبع
ولم تدع كرماً إلا أتيت به	تضيف مبتدعاً منها لمبتدع
لما وليت خلعت الخير أجمعه	عليهم فبدوا في أجمل الخلع
لله أيامك استوفت محاسنها	فلا فضيلة للأعياد والجمع
دامت مساعيك والأقدار تسعدها	تولي المساجد إنصافا من البيع

اللهم إن الإيالة الحفصية قد أعليت مظاهرها، ونصرت معاشرها، وقصرت على المصالح الدينية والدنيوية مواردها ومصادرها، ثم اصطفيت من شرف بيتها الصراح، ومعدن سؤددها الوضاح، مولانا الأمير الأجل، المؤيد المبارك، أبا عبدالله، فانتضيته حساماً في يدك قائمه؛ وارتضيته إيماماً لا تلين في ذاتك صرائمه، ولا يلحق شأوه في النيل من عداتك رائمه، يمضي بأساً حين لامضاء للحسام العضب، ويهمي جوداً والسماء في أزر من نجيع الجدب، وينتدب سعياً لكل حسنى أعيت على القريع الندب.

وله يشكو الزمان :

تحيف حالتي حيف الزمان	وصدق اليأس من كذب الأماني
وبرت في أليتها الليالي	بترويعي فإني بالأمان
أما قنعت وقد كلفت بهضمي	وضيمي دون أبناء البيان
أحاول أن أقوم لما يواتي	فتقعدني الخطوب بلا تواني
وأطباق الثرى بالحر أحرى	إذا ألفى الثراء من الهوان
فهل من آخذ بيدي أخيذ	بعين الله شدة ما يعاني

أيامـا أشتكيـه مـن أيامـي عـوار فـي يـد البلـوى عوانـي
ومـا أبغي علـى تلفـي دليـلا كفانـي أننـي حـي كفانـي

وله في معنى التسليم للمقدرو :
ولا تسخط المقدور وارض بما جرى عليك به إن الرضا يفضل السخطا

— ٦ —

محيي الدين بن عربي :

هو محمد بن علي بن محمد الطائي بن عربي الصوفي، من أهل إشبيلية، وأصله من سبتة، يكنى أبا بكر، ويعرف بابن عربي، وبالحاتمي أيضاً.

أخذ عن مشيخة بلده، ومال إلى الأدب، وكتب لبعض الولاة بالأندلس، ثم رحل إلى المشرق حاجاً، فأدى الفريضة، ولم يعد بعدها إلى الأندلس، وسمع الحديث من أبي القاسم الخرستاني وغيره وسمع صحيح مسلم من الشيخ أبي الحسن ابن أبي نصر، في شوال سنة ست وستمائة، وكان يحدث بالإجازة العامة عن أبي طاهر السلفي، ويقول بها، وبرع في علم التصوف، وله في ذلك تواليف كثيرة، منها : « ملاك التأويل، في حقائق التنزيل »، و « كتاب الإسرا، إلى المقام الأسرى »، و « كتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم »، و « كتاب عنقاء مغرب، في صفة ختم الأولياء وشمس المغرب »، وكتاب في فضائل شيخه عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي، والرسالة الملقبة « بمشاهد الأسرار القدسية، ومطالع الأنوار الإلهية »، في كتب أخرى عديدة.

وقدم على المرية من مرسية مستهل شهر رمضان سنة خمس وتسعين وخمسمائة، وبها ألف كتابه الموسوم، بمواقع النجوم.

قال ابن الأبار : وقد لقيه جماعة من العلماء، وأخذوا عنه، وتوفي بعد الأربعين وستمائة.

— ٧ —

ابن القصير :

هو عبد الرحمن بن أحمد بن أحمد بن محمد المعروف بابن القصير الأزدي، من أهل غرناطة، يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن القصير، من بيت شورى وجلالة؛ روى عن أبيه القاضي أبي الحسن أحمد بن أحمد، وعن عمه أبي مروان عبد الملك بن أحمد وعن أبوي الحسن بن دري وابن الباذش، وأبي الوليد بن رشد، وأبي إسحاق إبراهيم بن رشيق الطليطلي، نزيل وادي آش، وأبي بكر بن العربي، وأبي الحسن بن موهب، وأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، وأبي عبدالله بن أبي الخصال، وأبي الحسن يونس بن مغيث، وأبي القاسم بن ورد وأبي بكر بن مسعود الخشني، وأبي القاسم بن بقي، وأبي الفضل عياض ابن موسى وغيرهم وكان فقيهاً مشاورا، رفيع القدر، جليلا بارع الأدب، عارفا بالوثيقة، نقادا لها، صاحب رواية ودراية، تقلب ببلاد الأندلس، وأخذ الناس عنه بمرسية وغيرها، ورحل إلى مدينة فاس، فأخذ الناس عنه بها، ثم رحل إلى إفريقية، وولي قضاء تقيوس، ببلاد الجريد، بمقربة من توزر، ثم ركب البحر قاصداً الحج، فتوفي شهيداً في البحر، قتلته الروم بمرسى تونس، مع جماعة من المسلمين، صبح يوم الأحد، في العشر الوسط من شهر ربيع الآخر، سنة ست وسبعين وخمسمائة.

وله تآليف وخطب ورسائل ومقامات، وجمع مناقب من أدركه من

أهل عصره، واختصر كتاب الحيل لابن خاقان الأصبهاني، وغير ذلك، وألف برنامجاً يضم رواياته.

— ٨ —

القاضي عياض :

قال فيه القاضي أبو عبدالله بن عياض[1] يصف والده القاضي عياضاً (٤٧٦ــ٥٤٤هـ حيث توفي بمراكش) :

نشأ أبي على عفة وصيانة، مرضي الحال، محمود الأقوال والأفعال، موصوفاً بالنبل والفهم والحذق، طالباً للعلم، حريصاً عليه، مجتهداً فيه، معظماً عند الأشياخ من أهل العلم، كثير المجالسة لهم، والاختلاف إليهم، إلى أن برع أهل زمانه، وساد جملة أقرانه، فكان من حفاظ كتاب الله تعالى، مع القراءة الحسنة، والنغمة العذبة، والصوت الجهير، والحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه؛ وكان من أئمة الحديث في وقته، أصولياً متكلماً، فقيهاً، حافظاً للمسائل، عاقداً للشروط، بصيراً، بالأحكام، نحوياً، حجة في الأدب، شاعراً مجيداً، كاتباً بليغاً، خطيباً حافظاً للغة والأخبار والتواريخ، حسن المجلس، نبيل النادرة حلو الدعابة، صبوراً حليماً، جميل العشرة، جواداً سمحاً، كثير الصدقة، دءوباً على العمل، صلباً في الحق، وبلغ في التفنن في العلوم ما هو مشهور.

أخذ عن أشياخ بلدة سبتة، كالقاضي أبي عبدالله بن عيسى، والخطيب أبي القاسم، والفقيه أبي إسحاق الفاسي، وغيرهم. ثم رحل إلى الأندلس وكان خروجه من سبتة يوم الثلاثاء منتصف جمادى الأولى سنة سبع وخمسمائة فوصل إلى قرطبة يوم الثلاثاء مستهل جمادى الآخرة بعدها،

(١) صـ ٧ وما بعدها حـ ٣ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ط مصر ١٩٤٢.

فأخذ بها عن ابن عتاب، وابن حمدين، وابن الحاج، وابن رشد، وأبي الحسين بن سراج، وأبي الحسن بن مغيث، وأبي القاسم بن النحاس، وأبي بحر الأسدي، وأبي القاسم بن بقي، وأبي الوليد هشام بن أحمد ابن العواد، وغيرهم من أعلام قرطبة. ثم خرج إلى مرسية يوم الاثنين لخمس بقين من المحرم، سنة ثمان من التاريخ، فوصل الى مرسية يوم الثلاثاء الثالث من صفر بعده.

ولقي في رحلته هذه جماعة من أعلام الأندلس، وأجازه أبو علي الجياني[1] وشريح وابن شبرين، وغيرهم من أعلام غرب الأندلس، وأجازه أيضاً أبو جعفر بن بشتغير، وابن الأدقر، وأبو زيد بن منتال، وغيره من اعلام شرق الأندلس.

ووصل بلده بعد هذه الرحلة ليلة السبت سابع جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسمائة، وأجلسه أهل بلده للمناظرة في المدونة، وهو ابن اثنين وثلاثين عاماً، وبعد ذلك بيسير أجلس للشورى، ثم ولي القضاء عام خمسة عشر وخمسمائة، لثلاث بقين من صفر، فسار فيها أحسن سيرة، محمود الطريقة، مشكور الحالة، أقام جميع الحدود على ضروبها، واختلاف أنواعها، وبنى الزيادة الغربية في جامع سبتة، التي كمل بها جماله، وبنى في جبل المينا الرابطة المشهورة، إلى غير من الآثار المحمودة، والمساعي المرضية، فعظم جاهه، وبعد صيته.

ثم نقل إلى غرناطة، ووصل إليه الكتاب بذلك في أول يوم من صفر عام أحد وثلاثين وخمسمائة، فنهض إليها، وتقلد خطة قضائها، على المعتاد من شيمته السنية، وأخلاقه المرضية، مشكوراً عند جميع الناس، لكن ابن تاشفين ضاق به ذرعه، وغص بمراقبته، وصد أصحابه عن الباطل، وخدمته عن الظلم، وصرفهم عن الأعمال، فسعى في صرفه

---

(١) هو الحسين بن محمد بن أحمد الغساني المعروف بالجياني توفي سنة ٤٩٨هـ.

عن قضاء غرناطة، فصرف بعد انفصاله عنها زائراً أهله، وترك ابن أخيه الزاهد أبا عبدالله رحمه الله، على الأحكام؛ وذلك في رمضان المعظم، عام اثنين وثلاثين وخمسمائة.

ثم ولي قضا سبتة ثانية، في آخر عام تسعة وثلاثين وخمسمائة، قدمه إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين، فابتهج أهل بلده بذلك، فسار فيهم السيرة التي عهدوا منه، ثم بادر بالمسابقة إلى الدخول في نظام الموحدين، والاعتصام بحبلهم المتين؛ فأقره أمير المؤمنين، على ما كان عليه، وصرف أمور بلده إليه؛ وخاطبه بالتنويه، وحظي عنده وشكر بداره وسبقه. ثم رحل إليه، فاجتمع به بمدينة سلا، عند توجهه إلى محاصرة مراكش، فأوسع له، وأجزل صلته، ولقي منه براً تاماً، وإكراماً عاماً، وانصرف على أحسن حال، الى أن ثارت الفتنة.

وقال الشيخ العلامة أبو زيد عبد الرحمن الغرناطي، المعروف بابن القصير، رحمه الله : لما ورد علينا القاضي عياض غرناطة، خرج الناس للقائه، وبرزوا تبريزاً ما رأيت لأمير مؤمر مثله، وحزرت أعيان البلاد الذين خرجوا إليه ركاباً، نيفاً على مئتي راكب، ومن سواد العامة مالا يحصى كثرة، وخرجت مع أبي في جملة من خرج، فلقينا شخصاً بادي السيادة منبئاً عن اكتساب المعالي والإفادة.

ولما استقر عندنا كان مثل التمرة : كلما ليكت زادت حلاوة، ولفظه عذب في كل ما صرف من الكلام، للنفس إليه توق وله طلاوة، وكان براً بلسانه، جواداً ببنانه، كثير التخشع في صلاته، مواصلاً لصلاته، وقد جمعنا من سيره جملاً في الكتاب الذي جمعنا فيه مناقب من أدركنا، من أعيان عصرنا ونبهائه، وذكرنا له ما يفاخر برونقه وبهائه؛ وكان مع براعته في علوم الشريعة خطيباً، في تحبيره للخطب وفي لفظه، ظاهر الخشوع عند التلاوة وفي لحظه، سريع العبرة، مديماً للتفكر والعبرة، كاتباً إذا نثر، ناظماً إذا شعر.

أمير أديب :

كان من أمراء البيت الأموي في الأندلس الأمير الأديب الشاعر أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر الأموي (٣٥٢ـ٤٠٠هـ)، وكان يلقب «ابن معتز الأندلس» ويعرف بالطليق. كان أديباً شاعراً مكثراً، وأكثر شعره نظمه وهو في السجن، قال أبو محمد بن حزم فيه : «هو في بني أمية كابن المعتز في بني العباس : ملاحة شعر، وحسن تشبيه».

وقد سجن الأمير وهو ابن ست عشرة سنة، لأنه كان فيما ذكر يتعشق جارية كان أبوه قد رباها معه وذكرها له ثم بدا له فاستأثر بها، فاشتدت غيرة الشاعر لذلك، فانتضى سيفاً، وانتهز فرصة من بعض خلوات أبيه معها فقتله، فسجن في أيام المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر، ومكث في السجن ستة عشر عاماً، ثم أطلق سراحه بعد ذلك فلقب «الطليق»، وقد عاش بعد إطلاقه ست عشرة سنة، وتوفي نحو عام ٤٠٠هـ ومن شعره قوله :

غصن يهتز في دعص نقا ... يجتني منه فؤادي حرقا
أطلع الحسن لنا من وجهه ... قمراً ليس يرى ممتحقا
ورنا عن طرف ريم أحور ... لحظه سهم لقلبي فوقا

ومن هذه القطعة :

أصبحت شمساً وفوه مغرباً ... ويد الساقي المحيي مشرقا
فإذا ما غربت في فمه ... تركت في الخد منه شفقا[1]

---

(١) راجع ترجمته في ص ٤٤٧ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي، وهو الجزء الثاني من المكتبة الأندلسية، وتحمل ترجمته رقم ١٣٤٣؛ ونجد بعض=

وعلى أبيات الأمير الأندلسي صبغة من الجمال الفني، والترف في الأسلوب والصنعة، وحب التشبيه، وعذوبة اللفظ، وسلامة التركيب، وكثرة الصور الفنية في شعره، مما يشبه في ذلك ابن المعتز إلى حد كبير، ومما استوجب من غير شك أن يلقبه النقاد « ابن معتز الأندلس »، ومن الطريف أنه أشبه في النشأة والتكوين الأدبي، وفي الترف.

— ١٠ —

ولادة بنت المستكفي :

ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبدالله بن الناصر لدين الله. وكانت واحدة زمانها، المشار إليها في أوانها، حسنة المحاضرة، مشكورة المذاكرة. وكانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف؛ وفيها خلع ابن زيدون عذاره.. وكانت أديبة شاعرة، جزلة القول، حسنة الشعر، وكانت تناضل الشعراء، وتساجل الأدباء، وتفوق البلغاء، وعمرت عمراً طويلاً، ولم تتزوج قط، وماتت لليلتين خلتا من صفر سنة ٤٨٠هـ، وقيل سنة ٤٨٤هـ. وكان أبوها المستكفي قد بايعه أهل قرطبة لما خلعوا المستظهر، وكان جاهلاً ساقطاً، وقد خرجت ابنته « ولادة » على نهاية في الأدب والظرف، حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة لأحرار المصر، وفناؤه ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها.. على أنها وجدت للقول فيها السبيل، لقلة مبالاتها، ومجاهرتها بلذاتها، وهي في المغرب كعلية في المشرق، إلا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق، وكان لها صنعة

= هذه الترجمة في هامش صـ ٣/١٨٦ نفح الطيب للمقري نشر فريد رفاعي بتحقيق أحمد يوسف نجاتي، وراجع كتاب ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان صـ ٣٢٢ — للمؤلف.

في الغناء، وكان مجلسها يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها، لما اقتضاه من مثل ذلك.

وقد قال عنها ابن بشكوال في الصلة : « كانت أديبة شاعرة، جزلة القول، حسنة الشعر، وكانت تناضل الشعراء، وتساجل الأدباء، وتفوق البرعاء، عمرت طويلاً ولم تتزوج قط، وكان مجلسها منتدى لأهل المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهالك الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، وهي على سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب، ولقد تناقل الناس نادرة بدرت منها، دلت على بارع أدبها، وحسن فهمها، وبديع ظرفها فقد مرت بابن عبدوس، وهو جالس بباب داره، وأمامه بركة تتولد من كثرة الأمطار، وربما استمدت مما هنالك من الأقذار، فقالت تخاطبه :

أنت الخصيب وهذه مصر   فتدفقا فكلاكما نهر

فلم يحر الوزير جواباً، وحفظت هذه النادرة، وشغل بها الناس حيناً، والبيت لأبي نواس، في مدح الخصيب والي مصر، فتمثلت به ولادة، ونقلته هذا النقل الحسن، من المدح إلى الهجاء ! وتركت ابن عبدوس لا يحير حرفاً، ولا يرد طرفاً.

ولولادة مكانة عالية بين شعراء الأندلس وشاعراتها، وهي ذات شخصية فذة، جمعت بين عراقة النسب الأموي، والذكاء العربي المفرط، والجمال الساحر، والصبا الأخاذ، هذا إلى لباقة، وظرف في الحديث، وسعة في الاطلاع، وحلاوة في البيان، كل هذا في جو القصور البهيج، وبين الجواري والحواشي.

وتلقبت ولادة بعلية المغرب، نسبة لعلية بنت المهدي، التي نبغت في المشرق وعاشت خمسين عاماً في بغداد (١٦٠ــ٢١٠هـ).

وكانت أديبة بالفطرة، وشاعرة مجلية بين أقرانها ولداتها، وشعرها قوي

السبك، سهل الألفاظ، سلس العبارات، أقرب إلى شعر الرجال منه إلى شعر المرأة، نظمته في الحب والفخر والفكاهة والدعابة والاجتماع.

وما أروع ما تقول ولادة :

أنـا والله أصلـح للمعالــي وأمشي مشيتي وأتيـه تيهـا
أمكن عاشقي من لثم ثغري وأعطي قبلتي مـن يشتهيهـا

وكان ابن زيدون من المعجبين بأدبها وجمالها، والمتوددين لها، وينسب إليها شعر نسب لابن زيدون، وهو :

ودع الصبـر مـحب ودعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطى إذ شيعك
يا أخا البدر ضياء وسنـا حفظ الله زمانـاً أطلـعك
إن يطل بعدك ليلي فلكم بت أشكو قصر الليل معك

وفي هذه الأبيات وحدها من جمال السبك، ورقة الشاعرية وحلاوة اللفظ المعبر عن مضطرم الشوق ولاعج العاطفة، ما يكفي لجعل ولادة شاعرة متفوقة بين كبار شعراء عصرها. وتبرز شاعرية ولادة فياضة بمستعر الحب في هذين البيتين الذي قالتهما لابن زيدون، مبينة عظم الهوى الذي ملأ قلبها وسيطر على كيانها، فانطلقت بصراحة جريئة تقول :

ترقب إذا جـن الظـلام زيارتـي فإنـي رأيت الليـل أكتـم للسـر
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع، وبالنجم لم يسر

ومما يروى عن ذلك : أن عتبة غنت مرة ـــ وهي جارية لولادة ـــ في حضرة ابن زيدون. فسألها الإعادة بغير أمر ولادة وكان قد بدا عليه الإعجاب الشديد. فاضطربت شاعرتنا عند ذلك وامتقع لونها، وسرت في كيانها نفحة نار أحرقتها، ولم تستطع أن تخفي تجهمها وتأثرها، فعاتبت جاريتها ولامتها، ثم مالت إلى ابن زيدون تقول :

لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا لـم تهـو جاريتي ولـم تتخيـر

وتركت غصنا مثمراً بجماله   وجنحت للغصن الذي لم يثمر
ولقد علمت بأنني بدر السما   لكن ولعت لشقوة بالمشتري

ولابن زيدون فيها قصائد تذوب وجداً وحنيناً وهياماً، ومنها قصيدته المشهورة :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا   شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

ويقول فيها مستديماً عهدها :

لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا   إن طال ما غير النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا   منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

وكذلك بقيت ولادة على حبها له ووفائها، فبعثت إليه تقول :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق   سبيل فيشكو كل حب بما لقي ؟
تمر الليالي لا أرى البين ينقضي   ولا الصبر من رق التشوق معتقي
وقد كنت أوقات التزاور في الشتا   أبيت على حجر من الشوق محرق
فكيف وقد أمسيت في حال قطعة   لقد عجل المقدور ما كنت أتقي

وقد عاشت ولادة بعد ذلك محرومة، وبقيت على عهدها لم تتزوج مدى حياتها. ومما يؤسف له أن تكون أشعارها مفقودة، مع ما فقد من مصادر التراث الأندلسي الذي أباده الاسبانيون بعد إجلاء العرب من الأندلس ــ وتوفيت ولادة بقرطبة عام ٤٨٠هـ ــ ١٠٨٧م، وكان والدها قد توفي عام ٤١٤هـ، وتولى الخلافة شهوراً قليلة في العام نفسه.

اديبات من الأندلس

— ١ —

من الأديبات الأندلسيات حفصة الركونية، قال ابن سعيد في الطالع السعيد : كتبت حفصة إلى بعض أصحابها :

أزورك أم تزور ؟ فإن قلبي إلى ما تشتهي أبداً يميل
فثغري مورد عذب زلال وفرع ذؤابتي ظل ظليل
وقد أملت أن تظما وتضحي إذا وافى إليك بي المقيل
فعجل بالجواب، فما جميل إباؤك عن بثينة يا جميل !

وهي تشبه أبيات سلمى بنت القراطيسي من أهل بغداد وكانت مشهورة بالجمال :

عيون مها الصريم فداء عيني وأجياد الظباء فداء جيدي
أزين بالعقود، وإن نحري لأزين للعقود من العقود
ولا أشكو من الأوصاب ثقلاً وتشكو قامتي ثقل النهود

وبلغت أبيتها أمير المؤمنين المقتفي بالله، فقال : اسألوا : هل تصدق صفتها قولها ؟ فقالوا : ما يكون أجمل منها، فقال : اسألوا عن عفافها، فقالوا هي أعف الناس. فأرسل إليها مالاً جزيلاً، وقال تستعين به على صيانة جمالها ورونق بهجتها.

وقال الحجاري في المسهب : إن أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين، أهدى إلى المعتمد جارية مغنية نشأت بالعدوة، وأهل العدوة بالطبع يكرهون أهل الأندلس، وجاء بها إلى إشبيلية، وقد كثر الإرجاف بأن سلطان الملثمين ينتزع بلاد ملوك الطوائف منهم، واشتغل خاطر ابن عباد بالفكر في ذلك، فخرج بها إلى قصر الزهراء، على نهر إشبيلية وقعد على الراح، فخطر بفكرها أن غنت عندما انتشى هذه الأبيات :

حملوا قلوب الأسد بين ضلوعهم ولـووا عمائمهـم على الأقمـار
وتقلـدوا يـوم الوغـى هنديـة أمضى إذا انتضيت من الأقـدار
إن خوفوك لقيت كـل كريهـة أو أمنـوك حلـلت دار قـرار

فوقع في قلبه أنها عرضت بساداتها، فلم يملك غضبه، ورمى بها في النهر فهلكت.

— ٢ —

ومن شاعرات الأندلس، أمة العزيز الشريفة الحسنية، التي تقول :

لحاظكم تجرحنا في الحشا ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح بجرح، فاجعلوا ذا بذا فما الذي أوجب جرح الصدود ؟

— ٣ —

ومنهن حفصة الركونية، وكانت تجمع إلى نصاب الأدب، نصاب الجمال والمال والنسب. وهي القائلة :

ثنائي على تلك الثنايا لأنني أقول على علم وأنطق عن خبر
وأنصفها لا أكذب الله إنني رشفت بها ريقاً أرق من الخمر

وتولع لها السيد أبو سعيد ملك غرناطة، ويغير بسببها على أبي جعفر بن سعيد حتى قتله[1].

— ٤ —

ومنهن اعتماد جارية المعتمد بن عباد وأم أولاده، وتشتهر بالرميكية، وهي التي أغرت المعتمد بابن عمار فقتله، لما هجا ابن عمار المعتمد بقصيدة ذكر فيها الرميكية؛ فقال:

تخيرتها من بنات الهجان   رميكية ما تساوي عقالا
فجاءت بكل قصير العذار   لئيم النجارين: عما وخالا
قصار القدود ولكنهم   أقاموا عليها قروناً طوالا

ويقال إن ابن عباد حقد على ابن عمار قوله[2]:

مما يزهدني في أرض أندلس   أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها   كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وفهم أنه يعنيه، فكان هذا إلى ما سبق سبب قتله، بعد أن استوزره وأحسن إليه.

— ٥ —

ومن غريب ما يحكى عن أمير المؤمنين الناصر أنه أراد الفصد، فقعد بالبهو في المجلس الكبير المشرف بأعلى مدينته بالزهراء، واستدعى الطبيب لذلك، وأخذ الطبيب الآلة وجس يد الناصر، فبينما هو إذ

---

(١) راجع أخبارها في النفح جـ ٢ صـ ٤٣٠ وما بعدها.
(٢) ينسب الأكثرون هذين البيتين إلى ابن رشيق القيرواني.

أطل زرزور، فصعد على إناء ذهب بالمجلس، وأنشد :

أيها الفاصد رفقا بأمير المؤمنينا
إنما تفصد عرقا فيه محيا المسلمينا

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة، فاستظرف الناصر ذلك غاية الاستظراف، وسر به غاية السرور، وسأل عمن اهتدى إلى ذلك وعلم الزرزور، فذكروا له أن السيدة أم ولده وولي عهده الحكم المنتصر بالله صنعت ذلك، وأعدته لذلك الأمر، فوهب لها ما ينيف على ثلاثين ألف دينار.

— ٦ —

ومن شاعرات الأندلس أيضاً غاية المنى، وهي جارية أندلسية متأدبة قدمت إلى المعتصم بن صمادح، فأراد اختبارها، فقال لها. ما اسمك ؟ فقالت : غاية المنى، فقال لها : أجيزي : اسألوا غاية المنى، فقالت :

.... من كسا جسمي الضنا
وأراني مولها سيقول الهوى : أنا

— ٧ —

ومنهن حمدة، ويقال حمدونة بنت زياد المؤدب من وادي آش، وهي خنساء المغرب، وشاعرة الأندلس.

قال المقري : خرجت حمدة مرة للوادي مع صبية، فلما نضت عنها ثيابها وعامت، قالت :

أباح الدمع أسراري بواد له للحسن آثار بوادي
فمن نهر يطوف بكل روض ومن روض يرف بكل وادي

ومن بين الظبـاء مهـاة إنس سبت لبي، وقد ملكت فؤادي
لهـا لحـظ ترقـده لأمـر وذاك الأمـر يمنعنـي رقـادي
إذا سـدلت ذوائبهـا عليهـا رأيت البدر في أفق السـواد
كأن الصبح مات له شقيـق فمن حـزن تسربـل بالحـداد

ودخلت على المظفر بن المنصور بن أبي عامر، وبين يديه ولد له فارتجلت :

أراك الله فيـه مـا تريـد ولا بـرحت معاليـه تزيـد
فقد دلت مخايلـه على ما تؤملـه، وطالعـه السعـود
تشوقت الجياد له، وهز الـ ـحسام هوى، وأشرفت البنود
وكيف يخيب شبل قد نمته إلى العليا ضراغمـة أسـود
فسوف تراه بدراً في سمـاء من العليـا، كواكبـه الجنـود
فأنتم ــ آل عامر ــ خير آل زكا الأبناء منكـم والجـدود
وليدكـم لـدى رأي كشيـخ وشيخكـم لـدى حـرب وليـد

— ٨ —

ومنهن نزهون الغرناطية، قال في المغرب : هي من أهل المائة الخامسة، ذكرها الحجاري في المسهب، ووصفها بخفة الروح والانطباع الزائد، والحلاوة، وحفظ الشعر، والمعرفة بضرب الأمثال، مع جمال فائق، وحسن رائق، ولها مع الوزراء والشعراء، مساجلات فكهة، نروي منها لترويح النفس بعض دعاباتها مع أبي بكر المخزومي الشاعر الأعمى، فمن ذلك أنه قال فيها :

على وجه نزهون من الحسن مسحة وتحت الثياب العار لو كان باديا
قواصـد نزهـون، تـوارك غيرهـا ومن قصد البحر استقل السواقيا

فأجابته :

إن كان ما قلت حقا — من بعض عهد كريم
فصار ذكري ذميماً — يعزى إلى كل لوم
وصرت أقبح شيء — في صورة المخزومي[1]

ودخل بعض الشعراء وهي تقرأ على المخزومي، فقال يخاطبه :

لو كنت تبصر من تجالسه. فأفحم وأطال الفكر، فما وجد شيئاً، فقالت نزهون :

.... — لغدوت أخرس من خلاخله
البدر يطلع من أزرته — والغصن يمرح في غلائله

ولها :

لله در الليالي، ما أحيسنها — وما أحيسن منها ليلة الأحد
لو كنت حاضرنا وقد غفلت — عين الرقيب، فلم تنظر إلى أحد
أبصر شمس الضحى في ساعدي قمر — بل ريم خازمة في ساعدي أسد

(١) راجع ١/٨٩ نفخ الطيب.

الباب الرابع

الأدب العربي في المغرب وجزر البحر
وهو وثيق الصلة بالأندلس

الأدب العربي في المغرب وجزائر البحر

تمهيد :

أ ـــ تنتظم بلاد المغرب البلاد التي بين برقة والمحيط الإتلانتي من شمال إفريقية وهي :

١ ـــ المغرب الأدنى أو إفريقية ـــ بلاد طرابلس وتونس.
٢ ـــ المغرب الأوسط ـــ بلاد الجزائر.
٣ ـــ المغرب الأقصى أو مراكش.

وهذه البلاد يسكنها من قديم الأزمان أمم حامية أطلق عليهم اسم البربر لعجمتهم. وبهذا كان الرومان ثم العرب يسمونهم، ويزعم كثير من نسابيهم أنهم كلهم أو بعضهم من سلائل عربية حميرية ومضرية وليس بصحيح.

ب ـــ وأمم البربر صنوف كثيرة لهم لغات لا تحصى، وهم أهل بدو في معيشتهم لم يخضعوا لأمة من الأمم خضوعاً تاماً لشدة شجاعتهم وعصبيتهم، ولم يلاق المسلمون في تاريخهم للبلاد التي افتتحوها ما لاقوه في هذه البلاد، فقد أسلموا وارتدوا بضع عشرة مرة وغدروا في كل مرة منها بالعرب وفتكوا بهم إلى أن دانوا الإسلام : زمن ولاية موسى بن نصير ثم زمن الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى والأغالبة

بافريقية، ولما أسلموا اتخذوا الاسلام سيفاً بأيديهم ينكرون به على الولاة والملوك، باسم الشيعة مرة والأباضية أخرى والسنية حيناً. ويؤسسون لبعض بيوتاتهم، أو بيوتات الأشراف العلويين، بينهم دولاً بربرية أو عربية في حمايتهم، ولذلك بقيت لغتهم منتشرة إلى الآن بالمغرب، وخاصة البلاد المنيعة منه، غير أن هذه اللغة لم تكن لغة قراءة وكتابة وعلم وأدب، بل كانت اللغة العربية في جميع أطوارهم هي اللغة الرسمية في السياسة والعلم والأدب. وحكم البلاد ولاة العرب زمن الأمويين ثم دولة الأدارسة (١٧٢ــ٢٧٠هـ) مستقلة بالمغرب الأقصى، والأغالبة من قبل العباسيين بافريقية (١٨٤ــ٢٨٩هـ)، ثم دولة الفواطم وولاة بني أمية بالأندلس، ثم دولة البربر من المرابطين فالموحدين فبني مرين بالمغرب الأقصى والأوسط، ومن الصنهاجيين بافريقية. ونشأ من هذه الدول دول صغيرة بافريقية والمغرب الأوسط حتى ولي الأشراف السعديون ثم السجلماسيون بالمغرب الأقصى، واستولى الترك العثمانيون على المغرب الأوسط والأدنى، فمن ذلك ترى أن العصر الأول وهو عصر الولاة لبني أمية في دولتهم والأغالبة من قبل بني العباس، كان للعرب فيه النفوذ الأعلى، فارتقت اللغة وآدابها وعلومها زمن الأغالبة والفواطم وخلفائهم من الصنهاجيين ارتقاء لم يحظ العرب بعده بمثله. وكانت مدينة القيروان هي كعبة علوم الدين واللغة والأدب، ونبغ فيها من العلماء والكتاب والشعراء فريق كادوا يلحقون فحول المشرق خطابة وكتابة وشعراً وعلماً. ثم أدخل الفواطم بمصر كثيراً من العرب الضاربين بشرقي مصر من بني هلال وسليم وجشم ورياح وغيرهم بلاد المغرب، تأديباً للصنهاجيين الخارجين عليهم، فانتشروا في المغرب كله وكانوا بداة جهلة، فخربوا كثيراً من مدنه، ونشروا فيه اللسان العربي البدوي بلا علم ولا أدب مدون.

وبقي العلم والأدب يخمدان تارة وينتعشان أخرى زمن دول البربر حتى استولى الترك ثم الفرنسيون على المغرب الأدنى والأوسط، فاضمحلا

بهما وبقي منهما ذماء بالمغرب الأقصى أخذ الآن يتحول إلى حياة تجديدة متأثراً بالنهضة العامة في مصر والشرق. وكان أكثر الناهضين بالعلم والأدب في هذه الأطوار رجالاً من الأندلسيين أو المشرقيين استوطنوا المغرب وخدموا ملوكه إلا ما كان بافريقية زمن الأغالبة والفواطم وخلفائهم.

جـ ــ أما جزائر البحر فنقصد بها صقلية وعدداً من الجزائر الواقعة في البحر الأبيض المتوسط حكمها المسلمون مدة طويلة، ونشروا فيها العلم. والإمام أبو حفص عمر بن شعيب القرطبي الأندلسي القائد الزاهد هو فاتح (جزيرة كريت). والإمام القائد اسد بن الفرات الفقيه العابد هو فاتح (جزيرة صقلية).

وقد أنجبت صقلية كثيراً من العلماء والأدباء والشعراء منهم : أبو القاسم علي بن جعفر السعدي الصقلي المعروف بابن القطاع (٤٣٣ــ٥١٥هـ)، وله كتاب أبنية الأسماء، وكتاب الدرة الخطيرة في المختار من شعر شعراء الجزيرة ــ صقلية ــ وقد ولد بالجزيرة، ورحل عنها إلى مصر عام ٥٠٠هـ لما أشرف الافرنج على تملكها... ومنهم أبو عبدالله محمد بن أبي محمد بن ظفر الصقلي حجة الدين، وقد ولد بصقلية وسكن آخر الوقت في حماة وتوفي بها سنة ٥٦٥هـ، ومنهم أبو بكر محمد بن سابق الصقلي المتوفى بمصر سنة ٤٩٣هـ وأبو عبدالله محمد بن عيسى بن عبد المسغم الصقلي وكان كاتباً شاعراً مهندساً منجماً.

ومن أدبائها : ابن حمديس، وكان قد دخل الأندلس سنة ٤٧١هـ ومدح المعتمد وتوفي سنة ٥٢٧هـ بجزيرة ميورقة وقيل ببجاية.

ومن الأدباء : كذلك أبو العرب مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي، ولد سنة ٤٢٣هـ وخرج عنها لما تغلب عليها الروم سنة ٤٦٤هـ قاصداً المعتمد بن عباد.

د ـ وأهم منطقة في بلاد المغرب العربية كلها تونس، التي انبعثت منها شتى النهضات الدينية والعلمية والأدبية في مختلف العصور، ولا ضير في أن نتحدث عن تاريخ تونس بشيء من التفصيل، ففي الحديث عنها إيضاح لحال الأدب فيها خاصة وفي خلال المغرب عامة :

١ ـ لما استولى العرب على مصر سنة ١٧هـ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب اتجهوا بفتوحاتهم نحو الشمال، فانتزعوا برقة وطرابلس من يد الروم، ثم حولوا أنظارهم إلى بلاد المغرب، وغزوا إفريقية لأول مرة سنة ٢٧هـ، ثم رجعوا إليها سنة ٤٥هـ، ولكنهم لم يستقروا بها ولم يتركوا وراءهم أثراً يذكر. فكانت هاتان الحملتان تمهيداً للفتح النهائي الذي تم على يد عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ، وقد رأى عقبة أن أحوال إفريقية لا يمكن أن تستقر للعرب إلا إذا أنشأوا لهم مركزاً قاراً بها ومعسكراً يخرجون منه لفتح بقية المغرب، فصرف عنايته لبناء مدينة القيروان[١]، ومنذ اليوم الذي أصبح فيه للعرب عاصمة في إفريقية اهتموا بفتح بلاد المغرب فتحاً نهائياً، وصاروا يعتبرون إفريقية ولاية مستقلة الشخصية بعد أن كانت تابعة لمصر.

وقد وقف كل من الروم والبربر في وجه استيلاء العرب على إفريقية وبقية المغرب وتحالفوا لمقاومة العرب. ولكن عقبة عرف كيف يقضي على هذه المقاومة في بادئ الأمر، واستطاعت جيوشه أن تستولي على البلاد إلى أن وصلت حتى المحيط الأطلسي. غير أن جيوشه انهزمت في طريق رجوعها من المغرب الأقصى أمام جيوش البربر التي كان يقودها « كسيلة » فخرجت إفريقية من يد العرب للمرة الأولى بعد أن احتل البربر القيروان وأقاموا دولة بربرية في جنوب إفريقية، بينما كان الروم محتفظين بشمالها، ومتحصنين في قرطاجنة وبقية المراكز المحصنة، أن غير انهزام الجيوش العربية لم يمح أثر العرب في إفريقية

(١) توفي عقبة عام ٦٢هـ ـ ٩٢جـ ١ حسن المحاضرة.

إذ بقي الكثير منهم مقيماً بالقيروان تحت حكم كسيلة، وكانت تناصرهم قبائل بربر الجنوب الذين دخلوا الإسلام منذ الغزوة الأولى، وفي عهد عبد الملك بن مروان توجه العرب إلى القضاء على دولة الروم ودولة البربر، وكسر شوكة قبائل بربر الشمال المعتصمين في الجبال. فاستطاع زهير بن قيس البلوي القضاء على المقاومة البربرية سنة ٦٤هـ. وجاء بعده حسان بن النعمان إلى افريقية سنة ٧٦هـ، وكانت مهمته القضاء على مقاومة الروم، فتمكن من الاستيلاء على حصونهم وطردهم من عاصمتهم قرطاجنة، ولكن افريقية خرجت من يد العرب مرة ثانية، إذ انتظمت مقاومة البربر بزعامة امرأة منهم تلقب « بالكاهنة » بينما جاءات مساعدات الروم من بيزنطية نفسها. وعاد حسان إلى افريقية سنة ٨١هـ، وبقضائه على جيوش الكاهنة قضى على آخر مقاومة قام بها أهل البلاد، ثم اتجهت عنايته إلى الروم فاستولى على قرطاجنة بعد أن حاصرها براً وبحراً. هكذا تم الفتح العربي في إفريقية، وبقي على العرب أن ينظموا شئون ولايتهم الجديدة وأن يستقروا فيها، وأن يفتحوا بقية المغرب حتى يتم لهم أمر البلاد كلها.

وكانت إدارة البلاد موكلة إلي الوالي الذي يعين من قبل الخليفة. واتخذ العرب مدينة القيروان مركزاً إدارياً، وأنشأوا بها الدواوين المختلفة، وعينوا العمال للاشراف على شئون الولاية. وبادر حسان بإنشاء ميناء جديد يحل محل قرطاجنة، فبنى مدينة تونس التي ما لبثت أن أصبحت المنفذ الذي خرج منه العرب لفتح صقلية وإيطاليا.

وكانت المعاملة الحسنة التي كان العرب يعاملون بها البربر مما ساعد على فتح أجزاء المغرب الأخرى، إذ بمجرد ما دخل البربر في الاسلام واعتبروا متساوين في الحقوق والواجبات مع الغزاة العرب، أصبحوا يشاركونهم في الفتوحات ومناصب الادارة وغيرها. وقد أدت هذه السياسة في بلاد إفريقية إلى نهوض البربر وأخذهم بأسباب الحضارة

العربية وتعلقهم بلغة العرب ودينهم، واندماجهم شيئاً فشيئاً في العنصر العربي، فأنشأوا عدة دول وأقاموا حضارة زاهرة مميزة في تاريخ الحضارة الإسلامية.

٢ ـــ وقد كان للخلافات التي حدثت في المشرق أواخر القرن الأول الهجري والتي أدت إلى ظهور « الخوارج » صداها في بلاد المغرب فانتشرت حركة الخوارج بسرعة بين قبائل البربر وحتى في بلاد الأندلس التي كانت في ذلك الحين تابعة لإمارة القيروان. وصارت إفريقية بدورها ميداناً للفتن الداخلية. فلم تستقر فيها دولة قوية إذا استثنينا دولة بني المهلب، التي ظهرت الدولة الأغلبية في أواخر القرن الثاني الهجري.

وكان لدعاية الخوارج أثر عظيم في انتشار الاسلام واللغة العربية بين القبائل البربرية. وفي هذا العهد أيضاً وجه الخليفة عمر بن عبد العزيز عنايته إلى نشر الإسلام في المغرب. فأرسل جماعة من مشاهير التابعين لتنظيم هذه المهمة، وبناء صرح المغرب الاسلامي، فأسسوا المساجد في سائر أنحاء البلاد لنشر مبادئ الدين الاسلامي، وأنشأوا الكتاتيب لتعليم اللغة العربية. ويرجع تاريخ بناء جامع الزيتونة إلى هذا العهد (سنة ١١٤هـ). وبالرغم من الفتن والاضطرابات فقد بدأت تظهر في إفريقية بوادر ازدهار الحضارة العربية، وشرعت إفريقية في ظل الإسلام تأخذ طريقها إلى الحياة السياسية والعقلية الخاصة بها، إلى أن تكونت فيها دول قوية لها شخصيتها وحضارتها، وأولى هذه الدول هي الدولة الأغلبية.

٣ ـــ ولم تستقر الأحوال في إفريقية إلا في عهد الخلافة العباسية عندما عين هارون الرشيد سنة ١٨٤هـ ابراهيم بن الأغلب والياً عليها، جاعلاً الامارة وراثية في بيته، وهكذا نشأت في تونس أول دولة عربية قوية مستقلة داخلياً عن الخلافة، وتعاقب أمراؤها على الحكم أكثر من

قرن بلا انقطاع. وقد اتخذ الأغالبة القيروان عاصمة لمملكتهم التي كانت تشمل مقاطعة قسطنطينية (بالجزائر) وطرابلس الغرب وفي ظل الأمن الذي استطاعت الدولة تحقيقه ساد البلاد الرخاء ونمت ثروتها الطبيعية، فانتشرت الزراعة كما كانت في عهد الرومان، وانتظمت وسائل الري في البوادي، وأنشئت المدن، وظهرت فيها الصناعات وبخاصة صناعة نسج الصوف والحرير. وعنيت الدولة بالمناجم فاستخرجت منها المعادن، وقويت الحركة التجارية في الموانئ مع العواصم الأوروبية. وانصرفت الدولة إلى الأعمال العمرانية؛ فجددت مسجد القيروان وأنشأت المساجد في سوسة وصفاقس، وأقامت الأسوار حول المدن والحصون على السواحل، وبنت السدود والأحواض في أنحاء البلاد لجمع مياه الأنهر والأمطار، وأشهر هذه الأحواض « صهريج الأغالبة » في القيروان الذي ما يزال موجوداً حت الآن.

وكانت مدينة القيروان في هذا العصر معقلاً من معاقل الحضارة الاسلامية ومنبعاً من منابع إنتاج الفكر العربي، فانتظم التعليم في الكتاتيب والمساجد والجوامع، وتكونت المكاتب العامة لجميع الكتب الأدبية والعلمية، وأنشئ بالقيروان معهد لدراسة الرياضيات والطب والصيدلة ولترجمة الكتب اللاتينية، وسمي هذا المعهد « بيت الحكمة ». وقد ظهر في ذلك العصر من مشاهير الرجال القاضي أسد بن الفرات (المتوفى سنة ٢١٣هـ) والقاضي سحنون المتوفى (سنة ٢٤٠هـ) من أئمة المذهب المالكي، ومن الأطباء أحمد بن الجزار. واعتنى الأغالبة بالفن المعماري الذي امتاز في عهدهم بطابع خاص. واشتهر بلاط الأغالبة في القيروان بعظمته وأبهته، وكانت لهذه الدولة صلات ودية بالامبراطور شارلمان. واعتنى الملوك الأغالبة إلى جانب هذا بالفتح فبسطوا نفوذهم على البحر الأبيض المتوسط وكانوا ورثة قرطاجنة وروما. وقد احتلوا جزيرة صقلية سنة ٢١٢هـ واستولوا على جنوب إيطاليا سنة ٢٨٩هـ، وهكذا أوصلوا

الثقافة العربية إلى أوربا وصار الأساتذة العرب في صقلية ينشرون العلوم ممهدين السبيل للنهضة الأوربية التي ظهرت فيما بعد في إيطاليا. وبالجملة فإن عصر الأغالبة كان عصر نهضة اقتصادية وعمرانية وفكرية تركت أثراً عميقاً في بلاد إفريقية.

٤ ــ وكان للمذاهب المختلفة الناشئة عن الخلافات الدينية والسياسية القائمة في الشرق العربي أثرها في الدولة التي نشأت في المغرب، وقد كانت هذه البلاد حتى أواسط القرن الثالث الهجري يسودها المذهب المالكي الذي وطد أركانه بها كل من الفقيهين المالكيين أسد بن الفرات وسحنون، ولكن شيئاً فشيئاً بدأ البربر يتصلون برجالات المذاهب الأخرى، ووجدوا في فرقة الخوارج وصلابتها في الدين تلاؤماً مع طبيعتهم، وسرعان ما أقبلوا على اعتناق مذهبها، وما كان القرن الثالث يوفي على نهايته حتى كان مذهب الأباضية ــ وهي فرقة من فرق الخوارج ــ قد انتشر انتشاراً كبيراً في القبائل التي تسكن جنوب المغرب. أما قبائل الشمال : كتامة وصنهاجة وما يتبعهما فقد اعتنقت المذهب الشيعي الذي قام بالدعوة إليه في المشرق عبيد الله المهدي، وأوفد في ذلك الحين الداعي أبا عبدالله ليتولى نشر مذهبه ببلاد المغرب، وكانت دولة الأغالبة قد أشرفت على نهايتها. فنظم أبو عبدالله الدعوة ضدها، كون الجماعات لنشر المذهب الشيعي وخلع طاعة الأغالبة، والعمل على تكوين خلافة شيعية بالمغرب. وعندما رأى عبيدالله المهدي أن الدعوة قد انتشرت بالمغرب، وأن جيوش داعيته قد أصبحت قاب قوسين من النصر، انتقل من دمشق إلى سجلماسة، وظل مختفياً بها إلى أن انتهى الأمر بانهزام جيوش الأغالبة، وفر آخر أمير منهم وهو زيادة الله الأغلبي بعد أن يئس من وصول نجدة العباسيين إليه. فدخل عبيدالله إلى القيروان حيث بويع بها سنة ٢٩٧ ولقب بأمير المؤمنين. وهكذا تكونت بإفريقية خلافة الفاطميين، بينما كانت الخلافة العباسية

ما تزال قائمة ببغداد، والخلافة الأموية بالأندلس. وبعد ذلك أخذ الفاطميون يوطدون أركان دولتهم ببلاد المغرب. فأسسوا عاصمتهم الجديدة سنة ٣٠٨ وأسموها المهدية، واستطاعوا أن يخضعوا لسلطانهم كافة بلاد المغرب بعد أن قضوا على الدولة الأباضية في تيهرت (الجزائر) والصفرية في سجلماسة (المغرب الأقصى) والأدريسية في فاس، وبعد ذلك اتجه الفاطميون بدعوتهم إلى منبعها الأول في الشرق العربي، وأرادوا أن يبسطوا سلطانهم عليه، فوجهوا جيوشهم بقيادة مولاهم جوهر الصقلي الذي ما لبث أن استولى على مصر ودخل عاصمتها الفسطاط، وأسس بجوارها مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ التي أصبحت منذ ذلك الحين حاضرة الخلافة الفاطمية التي امتد نفوذها من الشام إلى أقصى المغرب؛ وعلى الرغم من الثورات التي انتابت تونس في هذا العهد فان الحضارة العربية قد ازدهرت بها من جديد، ونشطت النهضة العلمية وانتشرت المعاهد الثقافية ليس في تونس فقط بل حتى في مدن صقلية التي كانت خاضعة لسلطانهم. وإلى جانب هذا احتفظ الفاطميون بالسيادة العربية على البحر الأبيض المتوسط، فكان أسطولهم يجوب البحار ويشن الغارات على المدن الإفرنجية وعلى جزر اليونان، واستطاعوا أن يضموا إلى خلافتهم كلا من جزيرتي أقريطش (كريت) وسردينيا وقسماً من جزيرة كورسيكا.

٥ ـــ ولما انتقلت عاصمة الخلافة إلى القاهرة أصبح المغرب ولاية تابعة لمصر، يدير شؤونها أمير من أصل بربري اسمه بلكين بن زيري ابن مناذ الصنهاجي. وهكذا تأسست الدولة الصنهاجية، وكانت مرتبطة بالخلافة ارتباطاً صورياً فحسب. واستطاع ملوكها الاحتفاظ بمملكتهم الواسعة التي ورثوها عن الفاطميين. ثم خرج عن طاعتهم المغرب الأوسط، حيث تكونت به دولة بني حماد في فجر القرن الخامس هـ. وبقيت مملكة بني زيري محصورة في إفريقية بعد الفتح الإسلامي،

ويعد عصرها من أمهر عصور الحضارة التونسية. وقد مهد لهم السبيل الأغالبة والفاطميون في نهضتهم بالبلاد من الوجهة الاقتصادية والعمرانية والثقافية. فشارك الصنهاجيون بأوفر قسط في بناء صرح الحضارة العربية، وبلغت تونس في عهدهم الذروة العليا في الرقي والتمدن. فانتشرت الزراعة في أنحاء البلاد بفضل انتشار وسائل الري، وارتفع مستوى الصناعة الوطنية ونشطت التجارة مع الخارج، أما النهضة الأدبية والفكرية فإنها وصلت إلى درجة لم تبلغها تونس من قبل فامتلأ بلاط ملوكها برجال العلم والأدب، وعني أغلبهم بالفن المعماري فأنشأوا القصور الفخمة والمتنزهات الجميلة، وتنافسوا في تشييد المعالم كالجسور والطرقات وصهاريج المياه والحصون والأسوار.

٦ ــ وحوالي سنة ٤٣٥هـ، أظهر الملك المعز بن باديس الصنهاجي انحيازه إلى أهل السنة في القيروان، وأصبح يناصر الخلافة العباسية في بغداد معلناً خروجه عن طاعة الخليفة الفاطمي المستنصر سنة ٤٣٩هـ. فرأى المستنصر أن ينتقم من المعز، وأرسل إلى إفريقية قبائل بني هلال وبني سليم ورباح التي كانت تقيم في الصعيد المصري، فوصلوا إفريقية سنة ٤٤٠هـ، وقد أحدث هذا الزحف العربي العظيم انقلاباً عميقاً في مختلف نواحي الحياة بإفريقية، إذ تم بفضله استعراب البلاد بصورة نهائية، إلا أنه كان من نتائجه أن عمت البلاد الاضطرابات وتمزقت أوصال الدولة الصنهاجية، كما وقع في سائر البلاد التي كان يحكمها العرب شرقاً وغرباً وقتذاك، وبقي بنو زيري محتفظين بالمهدية والمناطق المجاورة لها. وفي تلك الفترة انتزع النورمان من العرب جزيرة صقلية بعد أن كانت تابعة لتونس مدة تقرب من ثلاثة قرون، وصاروا يغزون المهدية بين الحين والآخر حتى استولوا عليها سنة ٥٤٣هـ، كما استولوا على معظم السواحل التونسية، بينما كانت مدن الداخل تخضع لحكم القبائل العربية. وهكذا انقرضت الدولة الصنهاجية في تونس.

٧ ــ وقد استنجد الملك الحسن بن علي الصنهاجي بعبد المؤمن ابن علي مؤسس الدولة الموحدية في المغرب الأقصى لإنقاذ تونس من أيدي الإفرنج، وكان عبد المؤمن في ذلك الحين قد أخضع لسلطانه المغرب الأقصى كما ضم إلى مملكته بلاد الأندلس، فاستجاب عبد المؤمن لاستنجاد الصنهاجيين، وسار إلى إفريقية محتلاً في طريقه المغرب الأوسط، ثم أخذ يحتل بلاد إفريقية، وبعد أن استولى على المناطق الداخلية سار إلى مدن الساحل وطرد منها النورمان. فتم له أمر البلاد سنة ٥٥٥هـ وهكذا تأسست دولة مترامية الأطراف تضم أقطار المغرب العربي الثلاثة، ودامت أكثر من سبعين سنة استطاع فيها الموحدون أن يخمدوا الثورات العديدة التي كانت تقوم ضدهم بين الحين والآخر.

٨ ــ وعمل ملوك بني حفص على إصلاح البلاد من جراء العهد المضطرب الذي مر على إفريقية، وساروا على منوال الموحدين في تنظيم دواوين الدولة واستطاع أبو زكريا مؤسس الدولة وكذلك المستنصر الذي خلفه توطيد دعائم الأمن في تونس وإخماد نار الفتن بين القبائل والقضاء على الثورات التي نشبت في مختلف أنحاء البلاد، وقد اتسعت المملكة الحفصية حتى شملت طرابلس والجزائر ومراكش التي انضم ملوكها بنو مرين إلى الحفصيين وقدموا لهم فروض الولاء، كما بايعهم أمير مكة وأهل الحجاز سنة ٦٥٨هـ. وفي عهد المستنصر أغار لويس التاسع ملك فرنسا على تونس في الحملة الصليبية الثامنة، ونزل الطاعون بجيشيه فأفنى معظمه ولقي الملك لويس نفسه حتفه بتونس سنة ٦٦٩. (١٢٧٠م) ثم شاهدت الخلافة الحفصية عهداً مضطرباً دام حوالي مائة سنة، وكان التنافس بين أمراء البيت الحفصي وتطلعهم إلى الخلافة من جهة، والخلافات القائمة بين القبائل من جهة أخرى باعثاً لكثير من الفتن التي أضعفت سلطة الخلافة المركزية، فخرج عن طاعة الخليفة أطراف المملكة، واستقل بالحكم بنو يملول في توزر وبنو خلف في نفطة، وبنو مكلي في قابس، وبنو ثابت في طرابلس. وقد شجع التدهور

الذي لحق الخلافة الحفصية في ذلك العهد ملوك بني مرين في المغرب الأقصى على الاستيلاء على إفريقية مرتين دون أن يستقر لهم الحكم بها زمناً طويلاً. وفي أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري عادت البلاد إلى وحدتها القديمة ومجدها السالف، وساد فيها الأمن بفضل أعمال الخليفة أبي العباس والخليفة أبي فارس، فتدعمت أركان الدولة من جديد، وامتد نفوذ بني حفص إلى المغرب الأوسط بعد أن سقطت تلمسان في أيديهم ثم إلم المغرب الأقصى والأندلس. وقد عني كل من هذين الخليفتين باقامة الحصون على السواحل لرد الحملات التي ابتدأ يشنها الصليبيون على تونس، بيد أن الخلفاء الذين تولوا بعدهما لم يستطيعوا أن يحافظوا على مكانة الدولة فساروا بالبلاد في الفوضى، وخرج عن سيادتها كثير من الأنحاء حتى لم يبق تابعاً لهم في أواخر القرن التاسع الهجري غير مدينة تونس، وما جاورها من المناطق، واستقلت مدن السواحل بحكم نفسها، وأخذت كل واحدة منها تلعب دوراً هاماً في البحر الأبيض المتوسط.

وفي عهد الدولة الحفصية رأت البلاد عصوراً زاهرة بالرغم مما انتاب البلاد من اضطرابات وضعف سلطة الخلفاء المركزية، وقد عقدت الدولة الحفصية عدة معاهدات لتنظيم الملاحة وتوثيق العلاقات التجارية والسياسية بينها وبين البلاد الأوربية، كبرشلونة وجنوة وبيزة وصقلية والبندقية ومرسيليا واشتهرت بين التجار الأوربيين أسواق تونس والمهدية وقابس وعنابة وأصبحت قبلة تجار البحر الأبيض المتوسط. وأينعت الحياة الأدبية والعلمية في هذا العصر، وكان نزوح العرب من الأندلس وصقلية إلى تونس من العوامل التي كان لها أكبر الأثر في انتشار العلوم والفنون، فظهر أثر الفن الأندلسي فيما أنشىء من المباني : كجامع القصاء بعاصمة تونس وصومعته المشهورة وأسواق المدينة وأبوابها التي ما تزال موجودة الى الآن. كما عمل الملوك الحفصيون على تشجيع

العلم والأدب في البلاد، فأسسوا المدارس لسكنى الطلبة ونظموا التعليم بجامع الزيتونة، ومن مشاهير رجال العصر ابن خلدون وابن عرفة والأطباء من آل الصقلي.

٩ ــ وشهد القرن العاشر الهجري ذلك النزاع الكبير الذي كان قائماً بين الأسبان والأتراك للتحكم في الحبر المتوسط والسيطرة عليه، وقد ابتدأ نفوذ الأسبان يمتد الى سواحل المغرب بعد أن طردوا العرب من الأندلس، بينما ظهر في الحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط بعض القواد الأتراك مثل بابا عروج وأخوه خير الدين الذين كانوا يعملون باسم السلطان العثماني. وهكذا أصبح العثمانيون والاسبان يتسابقون للاستيلاء على سواحل تونس بعد أن عجز أمراء بني حفص على رد هجماتهم. واستطاع أمراء الإفرنج احتلال أهم مركز السواحل التونسية، وسقطت مدينة تونس سنة ٩٥٠هـ، في أيدي الأتراك الذين احتلوها بعد استيلائهم على مدينة الجزائر. ثم انتزعها منهم الأمير الحفصي الحسن وعاد إلى حكمها تحت الحماية الاسبانية سنة ٩٤٢هـ. وفي النهاية استطاع الأتراك طرد الأسبان من مدن السواحل، بفضل الحملات التي شنها عليهم القائد التركي الشهير درغوث بمساعدة القبائل العربية. وبقيت الحرب بين الأسبان والأتراك قائمة مدة طويلة، وبعد أن استرجع الأتراك مدينة تونس سنة ٩٧٧ بقيادة علي باشا أمير الجزائر عاد اليها الحكم الأسباني الحفصي سنة ٩٨٠، ثم غزاها أسطول تركي جاء من الأستانة بقيادة سنان باشا، بينما زحفت اليها قوات أخرى من طرابلس والقيروان سنة ٩٨١هـ. وهكذا أصبحت تونس ولاية تابعة للسلطنة العثمانية وجزءاً من ممتلكاتها في شمال أفريقية الممتدة من الجزائر إلى القطر المصري.

وعمل سنان باشا قبل مغادرته تونس على تنظيم إدارة شؤون البلاد حسب النظام المعمول به في سائر البلاد التركية، وكان يحكم ولاية

تونس نيابة عن السلطان العثماني والٍ يحمل لقب «الباشا» ويساعده ديوان يتألف من ضباط الجيش، وكانت قيادة الجيش بيد «آغا»، وقيادة كل فرقة عسكرية بيد «الداي»، وعين لجباية المال موظف يسمى «الباي»، وقد أخذ نفوذ الديوان يتسع شيئاً فشيئاً إلى أن أدى الأمر بالبلاد إلى قيام ثورة سنة ٩٩٩هـ (١٥٩٠م) كانت نتيجتها اعطاء مقاليد الأمور إلى أحد «الدايات»، ثم أخذ نفوذ الداي يتسع شيئاً فشيئاً، بينما كان يتضاءل نفوذ «الباشا» الممثل الرسمي للدولة العثمانية في تونس، وقد نظمت شؤون هذه الولاية في عهد عثمان داي الذي عمل على تقوية الجيش وإعطاء قيادته إلى «باي»، وسار على منواله يوسف داي الذي تولى الحكم سنة ١٠١٩هـ (١٦١٠م)، فاستتب الأمن في عهدهما ونهضت البلاد من جديد.

ثم ساءت الأحوال في تونس بعد ذلك، لأن الدايات الذي تعاقبوا على الحكم من سنة ١٠٤٧هـ (١٦٣٧م) إلى سنة ١١١٧هـ (١٧٠٥م) لم يستطيعوا أن يحتفظوا لأنفسهم بالنفوذ، وقد تضاءلت سلطتهم أمام سلطة «البايات» التي أخذت تتسع يوماً بعد يوم طول القرن الحادي عشر الهجري. ومن العوامل التي قوت نفوذ البايات ما عمد إليه الباب العالي من إعطائهم لقب «باشا»، وجعل منصب الباي وراثياً وقد امتاز الثلث الأخير من القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثاني عشر بما انتاب البلاد من حروب واضطرابات ناتجة عن التنافس على العرش. فنشبت الفتن الداخلية، وقامت حروب بين إمارة الجزائر وإمارة تونس، فعمت الفوضى، وتمزقت أوصال الدولة وضعفت السلطة المركزية، مما شجع أساطيل الدول الأوربية على ضرب سواحل تونس بالقنابل مرات عديدة، وعلى أثر غزوة قام بها والي الجزائر سادت البلاد اضطرابات شديدة، وتمكن آغا الجيش حسين بن علي من الاستيلاء على الحكم بمساعدة الجيش التركي وموافقة الأهالي سنة ١١١٧هـ (١٧٠٥م).

وهكذا تأسست الدولة الحسينية التي توارثت الحكم في تونس إلى يومنا هذا. فعاد الأمن للبلاد بعد حالة من الاضطرابات دامت أكثر من أربعين سنة. وقضت الدولة الحسينية منذ أوائل عهدها على الثورات التي كان يقوم بها الجيش من حين لآخر لقلب نظام الحكم، وجعلت الولاية وراثية في العائلة الحسينية، واستطاع حسين بن علي مؤسس الدولة الذي دام عهده خمساً وثلاثين سنة إصلاح شؤون البلاد، فانتشر العمران في تونس ونشطت الفلاحة والصناعة والتجارة، وتأسست المنشآت العلمية. ومن بين ملوك البيت الحسيني الذي اشتهروا بأعمالهم ومآثرهم يجب أن نذكر علي باي (١١٤٨هـ ــ ١١٦٩هـ : ١٧٢٦م ــ ١٧٣٥م) الذي استطاع أن يحقق لتونس عشرين سنة من الرخاء والطمأنينة. أما حمودة (١١٩٦هـ ــ ١٢٢٩هـ : ١٧٨٢م ــ ١٨١٤م) فقد اشتهر في التاريخ بتمتين علاقاته مع أوروبا وخاصة مع نابليون سنة ١٨٠٢م، وبحربه مع البندقية التي دامت ثماني سنوات (١٧٨٤ــ١٧٩٢) م.

وقد امتاز الحكم التركي في تونس ــ شأنه في ذلك كشأنه في كل الممالك التي كانت تسيطر عليها الدولة العثمانية ــ بأنه كان يقوم على القوة وعلى الجيش. وكان هم الدولة العثمانية الاستيلاء على أزمة الحكم في ممتلكاتها مستندة في ذلك على الجيش. ولم يكن لها اتجاه معين في سياستها. ولا مبادئ تسير عليها في تنفيذ هذه السياسة، وبقدر ما يستطيع الجيش أن يحافظ على الأمن تزدهر الحياة الاقتصادية، وتنمو التجارة والصناعة والفلاحة والعلوم والفنون. وكان يتحكم في البلاد قوتان عظيمتان هما : الجيش من جهة، ويعتمد عليه الوالي في حفظ الأمن وجباية الأموال، وطائفة « الرياس » من جهة أخرى، وهم الذين يتولون عمليات القرصنة، وهي نوع من العمليات الحربية التي كان يقوم بها الجانبان المتحاربان من الدول الأوروبية والشرقية وقد

رأت تونس تحت الحكم التركي عهوداً زاهرة بالرغم مما انتاب البلاد من اضطرابات بفضل ما بذله بعض الأمراء الصالحين من مجهود جبار للنهوض بالبلاد في سائر نواحي حياتها. وفي أوائل هذا العهد كان نزوح عدد كبير من العرب الذين طردوا من الأندلس سنة ١٠١٦هـ (١٦٠٩م) من العوامل التي نشطت التجارة والفلاحة والصناعة، وقد استوطن عرب الأندلس في سهول بنزرت ومجردة والدخلة، وشيدوا فيها القرى الفلاحية كطبرية ومجاز الباب وتستور والعالية وقلعة الأندلس وقرنبالية وزغوان وسليمان والجديدة وأنشأوا المزارع والبساتين، حتى عادت إلى البلاد رفاهيتها القديمة، وكانت الغنائم التي يغنمها القرصان في البحر الأبيض المتوسط من عوامل إثراء السكان، وقد قوت القرصنة حركة البلاد التجارية وجعلت أسواق المدن مزدهرة. على أن أعمال القرصنة لم تكن حائلاً دون ربط الصلات بين تونس وأوروبا، واستئناف علاقاتها التجارية مع الدول كاسبانيا والدانمارك والولايات المتحدة، فبمجرد أن انتظمت أحوال الدولة، نشطت تجارتها مع مرسيليا وليفورن وبقية المدن الأوروبية، وقد تكونت علاقات رسمية بين تونس وفرنسا سنة ١٥٧٧م وأرسل ملك فرنسا هنري الثالث قنصلاً إلى تونس بعد الحصول على موافقة الدولة العثمانية التي أعطت لفرنسا امتيازات كبيرة في سائر ممتلكاتها. وقد ابتدأت تونس تسير شيئاً فشيئاً نحو شكلها الحاضر، وبخاصة منذ تولي حسن بن علي الحكم وجعله وراثياً في بيته. وكانت الروابط التي تربط الأمراء الحسينيين بالدولة العثمانية تتلاشى على مر الأيام، وضعف سلطان تركيا في تونس حتى كاد يكون عديم الوجود. وهكذا ابتدأت تنمو في تونس قومية تونسية بالمعنى الحديث وظهرت للوجود دولة تونسية اعترفت الدول الأوروبية بكيانها وعقدت معها المعاهدات، والحقيقة أن العنصر التركي الذي نزل بأرض تونس وأقام الحكم فيها قروناً عديدة لم يدخل تغيراً جوهرياً في أحوال البلاد، ولم يعتبر أهل تونس الغزاة الأتراك أجانب عنهم إذ كانوا يحكمون

البلاد نيابة عن السلطان خليفة المسلمين جميعاً على أن العنصر التركي لم يحتفظ بشخصيته بل اندمج بمرور الزمن في العنصر العربي. واستمرت النهضة التونسية التي ابتدأت في عهد الدولة الحفصية. وأخذت طابعها الخاص بلا انقطاع تحت الحكم العثماني، وأخذت تونس تسير بخطى سريعة نحو التطور العصري بعد أن طلع عليها فجر القرن التاسع عشر الميلادي.

وفي أوائل القرن التاسع عشر بدأت تونس تستيقظ متدرجة في طريق النهضة العصرية، وكان يربطها بالدولة العثمانية مجرد روابط روحية، فبادرت بالتحرر من هذه القيود الصورية، واعترفت الدول الأوروبية كفرنسا وانكلترا والنمسا باستقلالها، وعقدت معها المعاهدات والاتفاقات. ثم اتجهت همة أمرائها إلى إدخال الإصلاحات على مرافق البلاد الحيوية، وفي مقدمها إصلاح الحكم بما يتفق والنظام الدستوري السائد في الأمم المتمدنة، وقبل فرض الحماية الفرنسية بنحو أبعين سنة نجد على عرش تونس الباي المصلح الشهير أحمد باشا (١٨٢٧م ــ ١٨٥٥م)، ثم محمد باشا (١٨٥٥ ــ ١٨٦٠) وقد أصدر عام ١٨٥٨ دستوراً لبلاده هو أول دستور في العالم العربي ثم الصادق باي (١٨٦٠ ــ ١٨٨١) وفي عهده فرضت فرنسا حمايتها على تونس في ١٢ مايو ١٨٨١.

الفصل الأول

الحالة الفكرية في بلاد المغرب

تمهيد :

منذ فتح المغرب العربي، وأسست القيروان عام ٥٠هـ، وأنشئ جامع الزيتونة في تونس، والثقافة العربية الإسلامية آخذة في الظهور والوضوح والغلبة، وكانت الصبغة الغالبة على العلماء هي الصبغة الدينية والثقافية الذائعة في المغرب هي ثقافة الشريعة وعلومها، وكان لمذهب مالك السيادة الروحية على هذه البلاد، التي لم ينبغ منها فيلسوف أو عالم كبيرا في ذلك الحين، وكان أنبغ علمائها إنما ينبغ في علوم الدين أو اللغة أو الأدب.

وكان القرن الرابع أول عهد المغرب بالفلسفة ومباحثها، إذ أن الفاطميين قد نقلوها مع دعوتهم، ومزجوا بمسائلهم عقيدتهم، فأخذت الفلسفة تظهر في ربوع المغرب، مكروهة مضطهدة، يحرمها العامة والفقهاء، وقامت دولة المرابطين في المغرب والأندلس، فاضطهد ملوكها كل من يشتغل بها، أو يجمع كتبها، وحرموا جميع فروعها ما عدا الرياضة والميقات والطب.

ثم قامت دولة الموحدين، فمزج ابن تومرت دعوته بمذهب الأشاعرة

من المتكلمين، وخاض هو وخلفاؤه في مسائل من الفلسفة، وجمعوا كتبها، وقدموا رجالها، وبعد انتهاء دولتهم أخذت الفلسفة تنشط حيناً وتخمد حيناً آخر، وكان أظهر من نبغ فيها من المؤرخين والفلاسفة ابن خلدون (٧٣٢ـ٨٠٨هـ)، وسنخص ابن خلدون بعد ذلك بحديث طويل مستفيض، نتحدث عن حياته، ونلم بتراثه الفكري، ومذهبه في التاريخ ونقده، ونعرج على كثير من أمهات المسائل التي ابتكرها ابن خلدون وأشار اليها في مقدمته الخصبة الرائعة.

الحياة العلمية :

١ ــ كان المسلمون في أول أمرهم بالمغرب لا يعنون إلا بعلوم القرآن والحديث والفقه، فأخذوا فقههم عن صاحب مالك بن قاسم المصري، وأولهم أسد بن الفرات مفتي الجماعة بالقيروان زمن الأغالبة، وتليمذه سحنون الذي نقل مدونة الفقه التي رواها ابن قاسم عن مالك، ولخصها ابن أبي زيد القيرواني. وعنهم انتشر مذهب مالك في المغرب إلى وقتنا هذا، إلا في فترات كان يروج فيها فقه الشيعة الأدارسة والفاطميين وفقه الخوارج، وكان من أعظم المؤيدين لمذهب مالك بالمغرب والعاملين على إبادة فقه الشيعة وغيرهم المعز بن باديس عندما خلع طاعة خلفاء مصر من الفاطميين.

أما علم الحديث فانتشر بالمغرب وجزائره بعد الفقه بقليل. وكان لهم فيه حفاظ ثقات، إلا أن بعد الشقة عليهم جعل أكثرهم لا يرحلون في طلبه إلا إذا خرجوا. للحج ولذلك كان عمدتهم كتب الحديث التي صحت عند المشارقة ككتب السنة الستة المشهورة، واشتهر عندهم من بينها صحيح مسلم، وفضلوه على صحيح البخاري وشرحه كثير منهم، ومن أشهر شروحه شرح المازري الصقلي. وتعصب المرابطون للسنة وطاردوا المشتغلين بعلم الكلام والفلسفة أي مطاردة.

أما علم الكلام فلم يكن من دأب المغاربة البحث في الجدليات المستمدة من غير الكتاب والسنة، إلا أن الفواطم أدخلوا معهم في المغرب عقائدهم في الدين ممزوجة بالفلسفة، فاشتغل بها في زمنهم بعض أهل قرية أفريقية وبعض من دخل في طاعتهم في دولة الأدارسة. ولما نقلوا حاضرة ملكهم إلى القاهرة نسخ مذهب الشيعة في المغرب أو كاد، ولكن الاشتغال بعلوم الأوائل لم يضعف إلا قليلاً ريثما ظهر مهدي الموحدين ابن تومرت ناقلاً مذهب الأشاعرة من المتكلمين عن الغزالي، وجعل علم التوحيد غايته من دعوته، وألف كتباً، وجاء خلفاؤه من بني عبد المؤمن فحفلوا به وشجعوا المؤلفين فيه والمشتغلين بعلوم الأوائل.

٢ ــ وكانت عناية المغاربة بعلوم العربية لا تقل كثيراً عن عنايتهم بعلوم الدين، وكان أكثر اعتمادهم فيها على ما نقلوه من كتب البصريين والكوفيين، ولم يكن لهم في النحو رواية عن الاعراب ولا مذهب خاص كما صار للأندلسيين فيه.

ولكن اهتمام المعز بن باديس وأهله أنبت في القيروان نابتة من أئمة النحو والأدب واللغة، كالإمام ابن القزاز محمد بن جعفر صاحب المعجم الكبير المسمى الجامع في اللغة، ويعتبر من أمهات كتبها، رتبه على حروف المعجم سنة ٤١٢، وعليه تخرج ابن رشيق وابن شرف وغيرهما من أدباء القيروان، والعلامة في كل علم والرحالة إلى كل قطر ابن فضال المجاشعي القيرواني، صاحب التصانيف الممتعة في اللغة والأدب والحديث والتفسير، مات ببغداد سنة ٤٧٩، ومن أشهر علماء النحو والقراءة بصقلية علي بن القطاع الصقلي صاحب كتاب الأسماء وكتاب الأفعال وغيرهما من المؤلفات الضخام، توفي بالقاهرة سنة ٥١٤، وعثمان ابن علي السرقسوسي الصقلي المقرئ النحوي اللغوي وغيرهما.

ومن علماء المغاربة الذي برزوا في هذه العلوم، وخاصة الفلك

والجغرافية، الشريف الإدريسي الذي ألف لرجار نرماندي ملك صقلية كتباً في الفلك والجغرافي، ورسم له الأرض في مصور جغرافي اتخذه من الفضة، فكان أصح من رسم بطليموس.

وممن رحل إلى الغرب من الأندلسيين، أبو عبدالله محمد بن أبي الخصال، وأخوه أبو مروان، وأبو محمد بن عبد المجيد بن عبدون، وقد تخرج عليهم من أبناء البلاد كثير مثل : ابن الميمون وابن محشوة. وقد مر بك أن ابن هانئ لما ضاقت به بلاد الأندلس لم يجد ملجأ إلا بلاد المغرب، فنزل على الفاطميين بها، فلاقى منهم الإكرام والحفاوة البالغين. والأثر الواضح لاستفادة هذه البلاد من رحلة العلماء والأدباء إليها، بل أهل الصناعات وأرباب الفنون عامة، إنما كان حين انقضاء مدة العرب بالأندلس وإجلائهم عنها، فإنهم انساحوا في بلاد المغرب، فكان لهم عليهم اليد الطولى في الأدب والعلم والصناعة والزراعة حتى أخملوا أهل البلاد. وقطعوا أرزاقهم. وكان لا يستعمل بلدي ما وجد أندلسي. ويقول ابن خلدون في هذا : « وألقت الأندلس أفلاذ أكبادها من أهل المملكة — يريد المملكة العربية — بالجلاء إلى إفريقية، ولم يلبثوا أن انقرضوا، وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة، لعسر قبول أهل العدوة لها، وصعوبتها عليه، وعوج ألسنتهم، ورسوخهم في العجمة البربرية ».

٣ — ومن أهم مراكز الثقافة في القديم والحديث (جامع الزيتونة)، وهناك اليوم أكثر من ستة ملايين مسلم من سكان شمال أفريقية يتطلعون إلى (جامع الزيتونة) بتونس، ويرون فيه ملجأهم وملاذهم، ويعدونه ركن الإسلام ومعهد الثقافة العربية، وهذا المسجد من أقدم المعاهد الإسلامية الباقية، فهو أقدم عهداً من الجامع الأزهر، إذ بني في العام التاسع والسبعين للهجرة (٦٩٨هـ) في عهد حسان بن النعمان الغساني والي إفريقية، الذي توجه إلى تونس بأمر الخليفة الأموي عبد الملك

ابن مروان لمقاتلة البيزنطيين سنة ٦٩٣ م في جيش عدته أربعون ألف مقاتل، فهزمه البيزنطيون بادئ الأمر، ثم عاد فثبت أمامهم وانتصر عليهم، ودخل قرطاجنة، عاصمة البلاد وحصنها المنيع، سنة ٦٩٥م، ولكنه فقدها، ثم عاد إليها ثانية في العام التالي براً وبحراً فاستولى عليها، وصالحه الرومان على الخراج، غير أنهم ما لبثوا أن ركبوا مراكبهم وهربوا، فتم الأمر لحسان، فأخذ يبذل الجهد ليكون دولة إسلامية قوية في جميع نواحيها. فشيد مدينة تونس، وبنى بها داراً لصناعة السفن، وأنشأ أسطولاً عظيماً جعل ممالك البحر الأبيض تهاب هذه الدولة العربية الناشئة، وتخشى بأس جيوشها. ولم يمض إلا أعوام قلائل حتى دانت البلاد كلها لحسان، واستتب الأمن بها، واستظلت براية الإسلام، فأخذ يوجه عنايته إلى العلم، فاختار نشزاً تظلله أشجار الزيتون، وأمر بتشييد جامع يؤمه المؤمنون للصلاة، ويتلقون فيه أصول دينهم الجديد، فسمي (جامع الزيتونة) نسبة إلى موقعه. وقد بني هذا الجامع على طراز مسجد القيروان، ونقلت أعمدته الرخامية المنتشرة في ساحته من خرائب قرطاجنة، وصنعت أبوابه ومنبره من خشب الصندل. وفي سنة خمسين ومائتين للهجرة شيدت به قبة كقبة مسجد القيروان، مما يدل على أن هذه القبة كانت حينئذ أنموذجاً بارزاً يتبع في بناء القباب. وفي سنة إحدى وثمانين وثلثمائة توج المنصور جامع الزيتونة بقبة ثانية، اشتق أصولها من نظام مسجد القيروان أيضاً، وأسماها قبة باب البهو، وبذلك صارت القبتان في هيئة واحدة، وإن كان بينهما مائة وستون سنة، فعناصرهما واحدة، وعدد ما بهما من الأعمدة والعقود والأقواس والضلوع واحد، وكانت مئذنة (جامع الزيتونة) مساوية لسطحه أول ما بني، فهدمت في أواخر القرن الماضي، وحلت محلها أخرى يربو ارتفاعها إلى الأبعين متراً، وتعتبر آية من آيات فن البناء، فهي تمتاز عن مآذن المساجد في البلاد الإسلامية الأخرى بتربيع ضخم سامق يكاد يفردها به في عمارة المآذن، وأحر

بمن يهتم بذلك الفن أن لا يغفل زيارتها إن حرص على أن لا يفوته أثر خالد في ذلك الباب.

وتعاقبت الدول، وتوالى الملوك والولاة على تونس، فلم تصرفهم مشاكل السياسة وشئون الحرب عن العناية بالآداب والعلوم، لا سيما العلوم الإسلامية واللغوية، ممثلة في (جامع الزيتونة)، الذي ما لبث أن صار بعد خمس وثلاثين سنة من إنشائه معهداً علمياً تدرس فيه الفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والطب، بالأسلوب الذي كان معروفاً في ذلك العهد البعيد، فأقبل عليه الطلاب من كل فج، وتخرج فيه الأدباء والعلماء في كل فن، وارتقى إلى مصاف الجامعات الدينية، حتى لقد نافس — في القرن الثالث الهجري — معاهد قرطبة والقيروان ودمشق وبغداد، وفيه تخرج، المؤرخ الفيلسوف (ابن خلدون) والفقيه المجتهد (ابن عرفة) الذي ما برحت آراؤه وفتاويه مرجعاً في الأقطار الإسلامية، وخاصة في أفريقية الشمالية.

ولما ارتقى العرش التونسي (الباي أحمد باشا الأول) وضع نصب عينيه أن ينهض بهذا المعهد نهضة تتفق ومكانته الدينية والعلمية. فأصدر في ٢٧ رمضان سنة ١٢٥٨ هجرية قانوناً نظم به الدراسة في الجامع الأعظم. وقد كتب هذا القانون بماء الذهب؛ وسمي (المعلقة)، لأنه علق على باب الشفا من أبواب الجامع. ولا يزال معلقاً إلى اليوم ذكرى طيبة لهذا العاهل العظيم، الذي لم يقف به همه عند هذا الحد، بل أعاد تنظيم مكتبة الجامع. وأهداها آلاف المجلدات النفيسة، ومن بينها مخطوط أثري فريد. هو تفسير القرآن بالخط الكوفي، كتب في القرن الثالث الهجري.

ومنذ صدور هذا القانون أخذت الحكومات المتعاقبة تؤلف بين الحين والحين لجاناً لوضع برامج التعليم وتنقيحها، ومن بين هذه اللجان لجنة شكلت في سنة ١٣١٥ هجرية، اقترحت وجوب امتحان الطلبة في

بعض العلوم الحديثة، غير أنها لم تخصص لهذه العلوم دروساً معينة بالجامع، اعتماداً منها على دروس يتلقاها الطلبة خارج المعهد، فنظمت المدرسة الخلدونية دروساً ليلية لهذه العلوم، لأن روح المحافظة الجامدة والطرق التربوية العتيقة المتبعة في الجامع قد ناهضت كل محاولة للنهوض به، ووقفت في سبيل كل اجتهاد في العلوم الدينية، أو تقدم في العلوم الدنيوية.

وكان من أثر التطور العلمي الحديث أن ضيق الدائرة أمام خريجي هذا المعهد، فقصر عملهم على المناصب الشرعية التعليمية، كالإمامة والوعظ والقضاء والتدريس. فسبقهم خريجو المعاهد الأخرى. وتبوءوا دونهم أسمى مناصب الحكومة. فكان لا بد من ترقية هذا المعهد ليتمشى مع روح العصر. وليخرج طبقة من المثقفين يصلحون لتولي مختلف الوظائف. فشكلت لجنة ثانية في سنة ١٣٣٠ هجرية (١٩١٢م) صدر عنها قانون من إحدى وثمانين مادة، أدخلت بمقتضاه اصلاحات كثيرة على نظام التعليم. فصارت بعض العلوم العصرية تدرس إجبارياً داخل المعهد، وأضحت الامتحانات شفوية وتحريرية منظمة. وقد نص في المادة الأولى من هذا القانون على المواد التي تدرس في (الجامع الأعظم) هي : القرآن والقراءات والتجويد والتفسير والحديث ومصطلح الحديث والتوحيد والفقه والأصول والسيرة والنحو والصرف والبلاغة والعروض والإنشاء وأدب اللغة والخط والتاريخ والجغرافيا والحساب والهندسة والرسم والهيئة والمنطق والتصوف. وبعض هذه العلوم يدرس في توسع وإفاضة، فالحديث مثلاً يدرس في الموطأ مع شرح الزرقاني، وصحيح البخاري بشرح القسطلاني، وصحيح مسلم بشرخ الأبي. والتوحيد يدرس في شرح الجرجاني على مواقب عضد الدين الابجي، والكبري للسنوسي، وشرح التفتازاني على العقائد للنسفي، وعلم الأصول يدرس في التوضيح لصدر الشريعة عبيدالله المحبوبي، وشرح الابجي

على المختصر لابن الحاجب، وشرح المحلى على جمع الجوامع للسبكي. والنحو يدرس في المغنى لابن هشام. والتصوف في الإحياء للغزالي. والبلاغة في المفتاح للسكاكي مع شرح الجرجاني. واللغة والأدب في المثل السائر لابن الأثير، والمزهر للسيوطي، وفقه اللغة للثعالبي، وشرح المرزوقي على ديوان الحماسة.

وفي سنة ١٣٤٤ هجرية ظهرت الحاجة إلى إصلاح جديد، فتكونت لجنة أخرى لوضع برنامج حديث يتفق وتطور الفكر ونهضة العلم في هذا العصر، غير أن مقترحاتها اصطدمت مرة أخرى بمعارضة المحافظين من الشيوخ والعلماء، فلم يقدر لها أن تبرز إلى الوجود؛ فقد أبى المحافظون إلا صيانة الأثر القديم، وإبقاءه كما تسلموه من السلف. ولكن جهود المجددين القائمين على إدارة هذا المعهد ــ وعلى رأسهم أحد شيخي الجامع، العالم التونسي الكبير فضيلة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ــ تغلبت على معارضة المعارضين، فاستطاعت أن تعدل المنهاج، وتضيف إلى مواد الدراسة علوم التاريخ والجغرافيا والرياضة والفلك والتربية وعلم النفس والفلسفة، وجعلت تدريسها في الكتب الحديثة.

الفصل الثاني

أعلام من المغرب

كان أغلب ما يسود تآليف[1] المشارقة الإيجاز، لتمكن ملكتهم من التصرف، مثل كتاب ابن الحاجب، في فروعه وفي أصوله، والخونجي في المنطق، وغيرهما، وإن كان الغالب على جل أئمة المشارقة الإطناب، مثل الغزالي والإمام الفخر وغيرهما. وأما أهل الأندلس فالغالب عليهم فقه البلاغة، في حسن رصف الكلام وانتقائه، مثل عبارة القاضي عياض في تأليفه، التي لا تسمح القرائح بالإتيان بمثلها، والنسج على منوالها. وقد انتهت صناعة التأليف في علماء المغرب، على صناعة أهل المشرق، لشيخ شيوخ العلماء في وقته : ابن البناء الأزدي المراكشي[2] في جميع تصانيفه، أوجب ذلك براءة نسبه من البداوة، وملكته في التصرف، التي هي نتيجة تحصيله، ولم يظهر من علماء فاس شيء من التآليف المرتجلة ولا الملخصة إلا ما كان سبيله النسج بها على ما هي عليه فقط، كما في التآليف المدونة المنسوبة للشيخ

---

(١) راجع ص ٢٣ـــ٣ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض.

(٢) هو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدى، أبو العباس المراكشي، المشهور بابن البناء، ولد سنة ٦٥٤هـ، وتوفي ببلده سنة ٧٢١هـ. (عن الديباج لابن فرحون).

(أبي الحسن[1])، وهي التي اعتنى بها طلبته، وبنوها على ما قيدوا عنه من فوائد المجلس، وذلك كله في العشرة الرابعة من المئة الثامنة. ثم تلاهم طلبة الشيخ الجزولي[2]، على الرسالة، وتعددت تلك التقاييد أيضاً، ونسبت للشيخ، وإنما له فيها ما قيد عنه في المجلس. واختلف نظر الشيخين بحسب تعدد السلكات[3]. فقيد كل طالب ما سمع. فلا يقال في هذه تآليف، لكونها منسوخة من أماكن معزوة، والعلة في ذلك كون صناعة التعليم، وملكة التلقي، لم تبلغ فاساً كما هي بمدينة تونس، اتصلت إليهم من الامام المازري[4]، كما تلقاها عن الشيخ اللخمي، عن حذاق القرويين، وانتقلت ملكة هذا التعليم إلى الشيخ ابن عبد السلام[5]، مفتي البلاد الافريقية وأصقاعها، المشهود له برتب التبريز والإمامة، واستقرت تلك الملكة في تلميذه ابن عرفة[6] رحمه الله، وفي الشيخ ابن الامام التلمساني[7]، ونجب طلبه ابن الامام

---

(١) هو علي بن محمد بن عبد الحق الزريلي المعروف بالصغير (بصيغة التصغير) توفي عام ٧١٩هـ (عن الديباج).

(٢) هو أبو زيد عبد الرحمن بن عفان الجزولي، صاحب تقايد الرسالة المشهورة الفقيه الحافظ : توفي سنة ٧٤١هـ (عن الابتهاج لأحمد بابا).

(٣) يراد بالسلكات عند المغاربة : المرات التي يقرئ فيها الشيخ تلاميذه الكتاب، المرة : سلكة.

(٤) هو محمد بن علي بن عمر التميمي المازري الصقلي. توفي (سنة ٥٣٦) عن ثلاث وثمانين سنة.

(٥) هو محمد بن عبد السلام بن يوسف بن كثير قاضي الجماعة بتونس، له تقايد، وشرح مختصر ابن الحاجب شرحاً حسناً، ولد سنة ٦٧٦هـ وتوفي سنة ٧٤٩هـ. (عن الديباج. لابن فرحون).

(٦) هو محمد بن محمد بن عرفة الورغمي : ولد سنة ٧١٦. وتوفي سنة ٨٠٣هـ وله تقييده الكبير في مذهب مالك في نحو عشرة أسفار.

(٧) للامام أبي زيد محمد بن عبدالله التلمساني ابنان، هما أبو زيد عبد الرحمن توفي سنة ٧٤٣، وأبو موسى عيسى، توفي سنة ٧٤٩هـ، وهو المراد هنا.

تلميذه الامام أبو عبدالله الشريف[1]، شارح الجمل، وانتهت طريقته لولده أبي يحيى المفسر العالم. واستقرت أيضاً طريقة ابن الإمام في تلميذه سعيد بن محمد العقباني[2]، وانتهى ذلك إلى ولده أبي الفضل قاسم العقباني[3] : رحمهم الله جميعاً.

قال ابن خلدون، ولمن ذكرنا من أهل المئة الثامنة انتهت طريقة التعليم، وملكة التلقي. يعني بذلك الشريف والعقباني رحمهما الله... لكونهما ألفا التصانيف البعيدة، وزاحما رتبة الاجتهاد من غير منازع.

وكذلك بلغ رتبة التبريز في تحصيل العلم، كل واحد من ولديهما، الفقيه السيد أبو القاسم بن سعيد، والفقيه الأوحد السيد أبو يحيى الشريف[4]، إذ بلغا درجة الأمامية والفتيا. وأما الامام بن عرفة، فانتفع به جماعة، فكان أصحابه كأصحاب سحنون[5]، أئمة في كل بلد. فمنهم أيضاً من بلغ درجة التأليف، ووقع الاتفاق على إمامته، وتقدمه وسمو رتبته، كشيخنا الامام الحافظ المحصل أبي القاسم ابن أحمد البرزلي، مفتي البلاد الافريقية، ومؤلف كتاب الاسئلة الحاوي للنوازل والفتاوى. ومنهم شيخنا الإمام الحافظ المجتهد، صاحب التصانيف المفيدة، أبو عبدالله محمد بن مرزوق، وله « المنزع النبيل، في شرح مختصر خليل » وشرح التهذيب[6]، وغير ذلك من المسائل العلمية.

---

(١) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد الشريف التلمساني. ولد سنة ٧١٠ وتوفي سنة ٧٧١هـ.

(٢) هو سعيد بن محمد بن محمد العقباني التلمساني. ولد سنة ٧٢٠ وتوفي سنة ٨١١هـ.

(٣) هو قاسم بن سعيد بن محمد سنة ٨٥٤هـ. يكنى أبا الفضل وأبا القاسم.

(٤) هو عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الشريف التلمساني. ولد سنة ٧٥٧، وتوفي سنة ٨٢٦هـ.

(٥) هو عبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون، الفقيه المالكي المشهور. ولد سنة ١٦٠ وتوفي سنة ٢٤٠هـ.

(٦) كتاب (التهذيب) لأبي سعيد البراذعي، من علماء القيروان، لخص فيه مختصر المدونة والمختلطة لابن أبي زيد القيرواني، واعتمده المشيخة من أهل إفريقية، وأخذوا به، وتركوا ما سواه. (عن مقدمة ابن خلدون).

وإنما اقتصرت على ذكر هذين الشيخين الامامين، لما لهما من المشيخة على الكثيرين، ولشهرتهما بالتآليف، التي تقوم مقام الشاهد لما قلناه، حتى نبعد عن شبهة التعصب.

وأما من نجب من تلامذة شيخ الشيوخ ابن عرفة، وتمكن من ملكة التعليم فخلق يطول عددهم فمنهم من أدركه ابن خلدون، وأخذ عنه، وأجازنا مروياته، و (منهم) من لم يدركه.

وهنا انتهت ملكة الفقه من علماء القيروان عن المازري، إلى من ذكرنا.

وأما ملكة العلوم النظرية، فهي قاصرة على البلاد المشرقية، ولا عناية لحذاق القرويين والإفريقيين إلا بتحقيق الفقه فقط. ولم يزل الحال كذلك إلى أن رحل الفقيه ابن زيتون[1] إلى المشرق، فلقي تلاميذ الفخر بن الخطيب. ولازمهم زماناً، حتى تمكن من ملكة التعليم. وقدم إلى تونس. فانتفع به أهلها. وانتهت طريقته النظرية إلى تلميذه ابن عبد السلام المذكور. واستقل تلميذه ابن عرفة بعده بتلك الطريقة، وكذلك أبو عيسى موسى ابن الإمام التلمساني المذكور، ولهذا تجد أثر العلوم النظرية بتلمسان.

ولم يشاهد في المئة الثامنة من سلك طريق النظار بفاس، بل (في) جميع هذه الأقطار، لأجل انقطاع ملكة التعليم عنهم، ولم يكن منهم من له عناية بالرحلة، بل قصرت هممهم على طريق تحصيل القرآن ودرس (التهذيب) فقط، نعم أخذوا شيئاً من مبادئ العربية من أهل الأندلس، القادمين عليهم من سبتة وغيرها، باستدعاء ملوك بني مرين، ولهذا لم يتصدر من الفاسيين من يقرئ الكتاب[2] كما هو متداول

(١) هو أبو القاسم القاسم بن أبي بكر الشهير بابن زيتون، الفقيه التونسي ولد سنة ٦٦٦، وتوفي سنة ٧٣٠هـ.

(٢) يريد كتاب سيبويه.

بين أهل الأندلس، مثل ابن أبي الربيع والشلوبين وغيرهما؛ لوجود ملكة النحو في قطر الأندلس، بسبب رحلة علمائهم إلى تلقيه من أربابه بالمشرق، كما ارتحل أعلامهم إلى بغداد في تحصيل الفقه عن الأبهري[1]، وكذا يحيى بن يحيى عن مالك، وغير واحد، وكذلك علوم الحديث وغيره، كرحلة الإمام الحافظ أبي بكر بن العربي.

---

(١) هو أبو بكر محمد بن عبدالله صالح الأبهري، صاحب التصانيف في شرح مذهب مالك والاحتجاج له والرد على من خالفه، سكن بغداد وحدث بها عن جماعة، وتوفي بها سنة ٣٩٥هـ.

ابن حازم القرطاجني

٦٠٨ـ٦٨٤هـ

من أعلام المغرب من الأدباء، وهو الشيخ حازم بن محمد بن محمد بن حسن ابن محمد بن خلف بن حازم الانصاري القرطاجني النحوي، أبو الحسن، شيخ البلاغة والأدب[1]، قال أبو حيان : كان أوحد زمانه في النظم، والنثر، والنحو، واللغة، والعروض، وعلم البيان، روى عن جماعة يقاربون الألف، وروى عنه أبو حيان وابن رشيد وذكره في رحلته، فقال : حبر البلغاء، وبحر الأدباء، ذو اختيارات فائقة، واختراعات رائقة، لا نعلم أحداً ممن لقيناه جمع من علم اللسان ما جمع، ولا أحكم من معاقد علم البيان ما أحكم، منقول ومبتدع، وأما البلاغة فهو بحرها العذب، والمتفرد بحمل رايتها أميراً في الشرق والغرب، وأما حفظ لغات العرب وأشعارها وأخبارها، فهو حماد روايتها، وحمال أوقارها، يجمع إلى ذلك جودة التصنيف، وبراعة الخط، ويضرب بسهم في العقليات، والدراية أغلب عليه من الرواية. صنف : سراج البلغاء في البلاغة وكتاباً في القوافي، وقصيدة في النحو على روي الميم، ذكر منها ابن هشام في المغني أبياتاً في المسألة الزنبورية.

---

(١) صـ ١٧٢ جـ ٣ أزهار الرياض ـــ بغية الوعاة للسيوطي.

وكان مولده سنة ثمان وستمائة، ومات ليلة السبت الرابع والعشرين من رمضان سنة أربع وثمانين وستمائة. ومن شعره.

من قال حسبي من الورى بشر | فحسبي الله حسبي الله
كم آية للإله شاهدة | بأنه لا إله إلا هو

ومن بديع نظمه رحمه الله قصيدة جيمية، عربية المنزع، لها صيت عظيم عند الحذاق من أهل الأدب، والمشهورين من الفضلاء. عارض بها في المعنى رائية ابن عمار[1] الوزير، للمعتمد بن عباد. وفضل غير واحد هذه الجيمية الحازمية، على تلك الرائية العمارية :

أهو المدامة فالنسيم مؤرج | والروض مرقوم البرود مدبج
والأرض قد لبست برود جمالها | فكأنما هي كاعب تتبرج
والنهر مما ارتاح معطفه إلى | لقيا النسيم عبابه متموج
يمشي الأصيل بعسجدي شعاعه | أبدا يوشى صفحه ويدبج
وتروم أيدي الريح تسلب ما اكتسى | فتزيده حسنا بما هي تنسج

(١) مطلع رائية ابن عمار :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى | والنجم قد صرف العنان عن السرى

ابن خلدون
٧٣٢ــ٨٠٨هـ

هو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد، ينتهي نسبه إلى جده الأعلى ابن خلدون، وأسرته من بني وائل، وقيل إنها هاجرت إلى الأندلس في القرن الثالث.

ولد في أول رمضان عام ٧٣٢هـ بتونس، من أسرة أندلسية اشتهرت بالعلم والأدب والرياسة، وكان نزوحها من الأندلس في أواسط القرن السابع الهجري من إشبيلية ونشأ عبد الرحمن في تونس في ظلال دولة الحفصيين ودولة بني مرين بالمغرب وكان منهم السلطان أبو الحسن المريني (٧٣١ــ٧٥٢هـ)، وابنه أبو عنان (٧٥٢ــ٧٥٨هـ)، ثم سالم ابن أبي الحسن المريني (٧٥٨ ــ ٧٦٢ هـ). وأكمل دراسته الأولى على والده، وعلى بعض الأساتذة المشهورين، ولكن الوباء الكبير الذي اجتاح البلاد قضى على أسرته في المغرب، فحزن لذلك حزناً شديداً، واشتغل بالكتابة فدعاه السلطان أبو إسحاق ملك تونس عام ٧٥١هـ ليتولى له كتابة « العلامة[١] »، وقربه إليه ولكن ابن خلدون لم يلبث أن ترك

---

(١) هي التوقيع على المراسيم السلطانية والمخاطبات الرسمية باسم السلطان.

أبا إسحاق واتصل بالسلطان أبي عنان المريني ملك المغرب الأقصى عام ٧٥٥هـ. فتولى له الكتابة والتوقيع حيناً، ثم اتهم بالتآمر على السلطان فسجن ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة السلطان أبي عثمان، ورد إلى وظائفه، ثم تولى كتابة السر والإنشاء وخطة المظالم للسلطان لأبي سالم ابن أبي الحسن المريني، فأظهر كفاية وإخلاصاً، ولاذ بالسلطان أبي سالم في هذه الفترة ملك الأندلس محمد بن الأحمر ووزيره لسان الدين ابن الخطيب، بعد أن اغتصب العرش منه، فاتصلت رابطة الصداقة والأدب بين ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب من ذلك الحين، ثم توفي السلطان أبي سالم سنة ٧٦٢هـ، ولم يلبث ملك الأندلس أن استرد عرشه. فرحل ابن خلدون إلى الأندلس عام ٧٦٤هـ، وأقام في العاصمة غرناطة مشمولاً بعطف ابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب، وأرسله في سفارة رسمية إلى ملك قشتالة باشبيلية، فقام بها خير قيام، بيد أن فتور العلاقة بينه وبين ابن الخطيب كان باعثاً له على الخروج من الأندلس عام ٧٦٦هـ، حيث تولى الحجابة لأمير « بجاية » ولكن عرش هذا الأمير لم يلبت أن اغتصبه مغتصب، فظل ابن خلدون يتنقل من خدمة أمير إلى خدمة أمير، حتى حيكت حوله المؤامرات ففر إلى الأندلس مهاجراً إليها مرة أخرى عام ٧٧٦هـ، ولكن فراره إلى غرناطة وهرب ابن الخطيب منها إلى المغرب الأقصى كان مثاراً لمشكلات سياسية بين ملك بني الأحمر في غرناطة وبني مرين في فاس بالمغرب الأقصى، وقد انتهت الأحداث بقتل ابن الخطيب في فاس وبطرد ابن خلدون من الأندلس.

عاد ابن خلدون إلى المغرب الأقصى، ملتجئاً إلى أحياء شريف بتلمسان، حيث أقام يؤلف كتابه التاريخي الكبير، وهو كتاب « العبر وديوان المبتدأ والخبر »، ثم عاد إلى وطنه تونس عام ٧٨٠هـ، فأتم كتابه ، ورفعه إلى سلطان تونس أبي العباس الحفصي عام ٧٨٣هـ،

وقربه السلطان إليه، ولكن الوشايات عادت تحوك حوله الدسائس من جديد، فعزم على الرحلة إلى المشرق، مستأذناً من السلطان في السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج، فأذن له وركب ابن خلدون سفينة أقلته إلى الاسكنرية فنزل بها وسافر إلى القاهرة، فوصلها عام ٧٨٤هـ، وأخذ ابن خلدون يلقي دروسه في مذهب مالك في الأزهر الشريف، واتصل ببرقوق رأس دولة « المماليك البرجية »، الذي حكم مصر سبعة عشر عاماً (٧٨٤ـ٨٠١هـ) وولاه التدريس في المدرسة القمحية المالكية بجوار جامع عمرو، وتولى قضاء المالكية أيضاً، فأرسل إلى بلاد المغرب يستقدم أسرته، ولكنها غرقت بها السفينة التي كانت فيها، ولم ينج أحد، فعظم حزن ابن خلدون لذلك.

كان وجود ابن خلدون في مصر وولايته لمنصب قضاء المالكية فيها، مثار دسائس وأحقاد بينه وبين علماء عصره الذين يتطلعون لهذا المنصب، واضطراب الأفق حوله، وعزل عن القضاء، فاستأذن من برقوق في الحج فأذن له، وعاد بعد الحج فعينه برقوق أستاذاً في المدرسة الصرغمتشية ـ شمال جامع ابن طولون، ثم عينه شيخاً لخانقاه بيبرس، وانقطع إلى التدريس والتعليم. يوطد الصلات السياسية والعلمية بين مصر والمغرب. حتى أعاده برقوق إلى منصب القضاء وظل فيه إلى أن توفي برقوق عام ٨٠١هـ، وتولى بعده ابنه فرج فعزله عن القضاء.

في هذه الأثناء كان جيش تيمورلنك يغزو الشرق، ويعيث في بلاده فساداً، ودخل الشام، فخرج فرج للقائه، وخرج معه ابن خلدون، ولكن فرج رجع مسرعاً ليقضي على ثورة سياسية قامت في مصر، وأقام الجيش حيث هو، وأقام مع الجيش ابن خلدون، ثم انتصر جيش تيمورلنك، فسار ابن خلدون إلى معسكر الظافرين يفاوض في شروط الصلح، وفي تسليم دمشق بعد أن أنهكها الحصار.. وكما عاد ابن

خلدون إلى مصر أعيد إلى القضاء لثالث مرة، ثم عزل عام ٨٠٤؛ واستمر بين ولاية لقضاء المالكية وعزل منه، حتى تولاه لسادس مرة عام ٨٠٨هـ، فلبث فيه ستة أسابيع توفي بعدها في آخر رمضان عام ٨٠٨هـ، ودفن في مقبرة الصوفية في العباسية خارج باب النصر.

ولابن خلدون كتابه التاريخي العظيم، ومقدمته الرائعة، الخالدة، وقد انقطع عام ٧٧٧ لتأليف تاريخه في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، وأقام سنين يكتب في مقدمته التي أتمها عام ٧٧٩هـ، وفي بعض فصول الكتابة التاريخية، ثم كتب فصولاً أخرى منه في تونس وفي القاهرة، وانتهى أخيراً من الكتاب في القاهرة عام ٧٩٧هـ، وسماه « العبر وديوان المبتدأ والخبر »، وقسمه إلى مقدمة وثلاثة كتب، وأشار في المقدمة إلى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه، ونقد أخطاء المؤرخين وأغاليطهم، أما الكتاب الأول فخاص بالعمران وما يعرض فيه من العواريض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم، وما لذلك من علل وأسباب، والكتاب الثاني في أخبار العرب وأحيائهم ودولهم من بدء التاريخ إلى عصره، مشيراً إلى الدول التي عاصرتهم، وسرد في الثالث أخبار البربر ودولهم وملوكهم وقبائلهم، وهذا القسم الأخير هو أهم أقسام الكتاب[1]، وقد أهدى ابن خلدون نسخة كاملة من الكتاب لسلطان المغرب الأقصى أبي فارس المريني، الذي تولى حكم المغرب ثلاثة أعوام (٧٩٦ـــ٧٩٩هـ)، والكتاب سبعة مجلدات، والمجلد الأول منها في فلسفة التاريخ والاجتماع وهو المشهور بالمقدمة، والستة الباقية في تاريخ العرب والعجم والبربر.

وقد خلدت هذه المقدمة النفيسة ابن خلدون، ورفعته إلى مصاف

---

(١) وهو ما قصده ابن خلدون كما يذكر في المقدمة (ص ٣٢ المقدمة طبعة سنة ١٢٢٠) هـ.

الفلاسفة الملهمين، وبوأته في تاريخ التراث الفكري الإسلامي مكاناً رفيعاً، ويعجب علماء المغرب وفلاسفته بالمقدمة، ويرون أن ابن خلدون بها يعد المبتكر لعلم الاجتماع، وواضع أسس العلوم الاجتماعية والسياسية وفلسفة التاريخ والقانون العام، وقد عرف الغربيون فضل ابن خلدون قبل أن يعرفه الشرقيون، فترجموا المقدمة إلى لغاتهم، وطبعت في القاهرة لأول مرة منذ حوالي تسعين عاماً، وكان لابن خلدون وأسلوبه في المقدمة أثر واضح في أساليب الكتاب والأدباء في مصر منذ ذلك الحين، وفي عام ١٩٣٢ أحيا جماعة من أدباء مصر ذكرى ابن خلدون، فكتبوا المقالات والبحوث والدراسات عنه ونشر الأستاذ محمد عبدالله عنان كتاباً عنه.

ولا شك أن المقدمة أثر لحياة ابن خلدون وثقافته وتجاربه وشخصيته التي هي مثل للمفكر والمؤرخ السياسي والرجل السياسي أيضاً، إذ أن تجاربه وصلاته السياسية بعروش دول المغرب، وتوليه أعظم المناصب فيها، وتقلبه شاباً ورجلاً وكهلاً في الأحداث السياسية، كل هذا خلق منه سياسياً داهية، وهو أيضاً مما عاون الرجل على إخراج مقدمته النفيسة، والمسائل التي عالجها ابن خلدون في المقدمة ذات رقة متناهية، ولم يسبق لأحد من علماء المسلمين أن تناولوها بالتأليف على هذا النمط والأسلوب، وهو ينبه في المقدمة على أن الكلام فيها « مستحدث جديد أدى إليه البحث والتفكير » وأنه « ليس من علم الخطابة المنطقية ولا من علم السياسة المدنية » وأنه « مستقل » ابتكره وابتدعه ابن خلدون دون أن يطلع على تأليف في معناه، وإن كان بعض الأبجديات التي ذكرها في المقدمة قد تجري لأهل العلوم بالعرض في براهين علومهم، مثل ما يذكره الحكماء في إثبات النبوة من أن البشر متفاوتون في وجودهم فيحتاجون فيه إلى الوازع والحاكم. ومثل ما يذكر في أصول الفقه من أن الناس يحتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون

والاجتماع وتبيان العبارات، ومثل ما ورد في حكم الحكماء وكتب الفلاسفة كالكتاب المنسوب لأرسطو في السياسة ورسائل ابن المقفع وسراج الملوك للطرطوشي، فقد حوم فيه وبوبه على أبواب تشابه أبواب المقدمة ولكنه لم يستوف المسائل، بل يبوب الباب للمسألة فيستكثر من الأحاديث والحكم بدون تحقيق، فهو نقل وترغيب أشبه بالمواعظ، وكان حوم على الغرض فلم يدركه.. وابن خلدون يؤكد أن المسائل التي ورد ذكرها في المقدمة قد ألهمه الله إياها إلهاماً، فهو الذي نهج للباحثين فيها السبيل، ووضح لهم الطريق.

ويذكر ابن خلدون في مقدمته التاريخ فيصفه بأنه « خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض له من أحوال وما ينشأ عنه من ملك وما ينتحله البشر من صناعات ومعارف »، ويحدده في موضع آخر بأنه « ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل » فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق والأجيال فهو أساس ثقافة المؤرخ، وإن كان المسعودي وسواه يفرده بالتأليف.

ويشرح ابن خلدون في مقدمته نظريات عديدة، منها أن الانسان مدني بالطبع، أي لا بدله في الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وأن الترف يقضي ـــ عندما يستشري في جسم الأمة ـــ عليها، ويسير بالدولة إلى الهرم والشيخوخة، وأن العسف مضر بالملك مفسد له، وأن الظلم مؤذن بخراب العمران، وأن الهرم إذا حل بالدولة لا يرتفع إلا إذا جدت عوامل أخرى تدعو إلى تجدد الدولة، ويذكر كذلك أن الحضارة غاية العمران مؤذنة بفساده، وأن العواصم تخرب بخراب الدولة، وسوى ذلك من عديد النظريات.

وابن خلدون يشرح ويفسر لنا حقيقة النبوة وكيفية نزول الوحي على الرسل والأنبياء، ويفرق بين ذلك وبين الرؤى والأحلام، وكلامه في ذلك يعد أساس النظرية الحديثة لفرويد، ولابن خلدون رأي في

العرب عجيب، فهو يذهب إلى أنهم لا يتغلبون إلا على البسائط، وإذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الفساد والخراب، وإذا حصل لهم الملك فإنما يحصل لهم بصفة دينية، وهم عنده أبعد الأمم عن سياسة الملك، وهم أبعد الناس عن الصنائع، وأن مبانيهم يسرع اليها الفساد، وحملة العلم في الاسلام عجم، وهذا الرأي الغريب حير الباحثين في تراث ابن خلدون الفكري؛ فعللوه بأسباب مختلفة متناقضة، أما نحن فنعلله بأحد أمرين :

الأول أن ابن خلدون يريد بالعرب البدو في أن مكان كما عبر هو عنهم بهذا أحياناً[1] لاعرب الجزيرة العربية خاصة، وهذا الرأي محتاج الى إثبات السر في ترجيحنا هذا المعنى دون المعنى الآخر للفظة عرب.. والثاني أن ابن خلدون يقصد العرب ويريدهم ويتكلم عنهم، ومن الملحوظ من عبر التاريخ أن العرب في جاهليتهم وحين تحللهم من الدين بعد الإسلام كانت أحوالهم كما يصفها ابن خلدون، فكأنما ابن خلدون يقصد بهذه الفصول ذكر طبيعة العرب حين ضعف الدين في نفوسهم، وكأنه يريد التعميم في أحوالهم، فان العرب حين تمسكهم باسلامهم وشريعتهم، كانوا كما نعرف عدلاً وسياسة وإصلاحاً ونبل حكم، وفي هذا البحث يذكر ابن خلدون أن أهل البادية مغلوبون لأهل الأمصار. أو يذكر ابن خلدون أحوال الموالي والمصطنعين وما يعرض للدول من الحجر على السلطان والاستبداد به ومشاركته في نفوذه وألقابه، وآراء ابن خلدون في الفصل الخامس في المقدمة عن المعاش ووجوهه والكسب والصنائع مباحث قيمة في الاقتصاد السياسي والاجتماعي، وقد اقتبس منها كارل ماركس في كتابه « رأس المال » ومن آراء ابن خلدون في المقدمة :

---

(١) ص ١١٥ المقدمة ط ١٢٢٠هـ.

١ ـــ أن النقد التاريخي هو تطبيق طبائع العمران على التاريخ وحوادثه، فما جاز لنا قبوله من التاريخ قبلناه، وما لا يجوز فيه رفضناه.

٢ ـــ أصول التوحيد هي عقائد متلقاة عن الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها الى العقل ولا تعويل عليه، وهنا يذكر ابن خلدون أن العقل معزول عن الشرع لأن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع نظافتها عن مدارك الأنظار العقلية، فهي فوقها محيطة بها، لاستمدادها من الأنوار الالهية[١]، ويأخذ في ذم الفلسفة وتحللها، ولا شك ان ابن خلدون كان بحاجة إلى تأكيد ذلك لبغض المجتمع الاسلامي في عصره للفلسفة وعلومها وأصحابها وللعنف في البطش بكل ما عرف عنه أنه محب لها، ولا نخال ابن خلدون سوى فيلسوف ملهم، فأفكاره في المقدمة أفكار فلسفية عميقة، وكذلك دراسته للفلسفة وعلومها وتاريخ نشأتها تدل على أنه من أنصارها ومحبيها وعارفي قدرها، ويبدو أنه كان يقصد التمويه على عامة الناس وجمهور العلماء حتى لا يتهم بالإلحاد والكفر، ويعرض نفسه لمحن لا داعي لها، بل ان المقدمة نفسها لون من ألوان الفلسفة في عصرنا الراهن، ولا شك أن ابن خلدون يستحق تقدير المفكرين والتاريخ والانسانية جمعاء. وكان يعاصره من أعلام تونس ومفكريها : أبو عبدالله بن مرزوق من أدباء القرن الثامن الهجري وسواه...

---

(١) راجع ص ٤٦٩ المقدمة.

ابن بطوطة

ـ ١ ـ

عني العرب في القرون الوسطى بالأسفار والرحلات وارتياد المناطق البعيدة واكتشاف مجاهل الطرق. وكانت عنايتهم بهذه الناحية شديدة جداً، بحيث لا تقل عن الهمة التي بذلها رواد العصر الحاضر من الأوروبيين ممن وقفوا حياتهم على الأسفار، ولا سيما إذا راعينا وفرة السبل وتنوع وسائل النقل وقلة ما يتعرض له المسافر اليوم من مصاعب وأخطار. وفي الحقيقة أن تلك العناية وهذه الهمة اللتين لمسنا آثارهما في ثنايا التاريخ ليستا بالأمر الغريب نظراً إلى طبائع العرب وجبلتهم التي أورثتها إياهم البيئة الصحراوية التي نشأوا فيها، فالعربي بحكم فطرته الأصلية ميال إلى التنقل شغوف بالرحلة والتجوال. ولعل من الطريف أن نشير هنا إلى ما ذهب إليه أحد علماء اللغة في اشتقاق كلمة « عرب » فقد ذهب هذا الباحث إلى أنها مأخوذة من كلمة « عبر »، وذلك للدلالة على العبور والتنقل وعدم الاستقرار في مكان خاص.

لقد بدأ نشاط العرب في الرحلات من أوائل القرن العاشر للميلاد ولدينا سجل ضخم بأسماء الرجال الذين تركوا أوطانهم وساحوا في الأرض في حدود المملكة الإسلامية وفيما وراء حدود المملكة الإسلامية،

مما كانوا يطلقون عليه إذ ذاك اسم « مملكة الكفار »، وقد ترك لنا أولئك الرجال أسفاراً قيمة دونوا ما شاهدوه من العجائب والغرائب وما راق لهم من أحوال الأمم وتقاليدها وعاداتها المختلفة. ومن أقدم أولئك الرحالين : أبو دلف واليعقوبي وقدامة والبلخي وابن حوقل وهؤلاء كلهم من رجال القرن العاشر، ويلي هؤلاء طبقة أخرى منهم ياقوت الرومي وأبو عبيد البكري وابن جبير وابن سعيد وابن بطوطة وهذا الأخير من رجال القرن الرابع عشر للميلاد.

لم يكن هذا النشاط الذي بدأ ظهوره في القرن العاشر نتيجة للمصادفة والاتفاق، وإنما هو وليد ظروف سياسية خاصة رافقت حياة العرب في ذلك العصر، فقد كان العالم العربي الإسلامي في تلك الفترة بلغ غايته من التوسع، وامتد حتى شمل أهم أقطار آسيا والساحل الشمالي لأفريقيا وبعض أقسام أوربا، وهذا العالم الواسع مع تباعد أطرافه كان يموج بالأجناس والألوان والعصبيات المختلفة، ولذا كان هم الخلفاء والولاة ومن بيدهم مقاليد الأمور أن يوجدوا رابطة تجمع شمل هذه العناصر المتباعدة وتصل بعضها ببعض بحيث يمكن القضاء ولو على بعض الفروق، وتخفيف حدة تلك العصبيات وتوجيه الناس إلى غاية واحدة، فرأوا في الأسفار خير واسطة لربط تلك الأجزاء وإنشاء صلات بينها، ثم إن الأسفار تمكنهم من دراسة المناطق البعيدة دراسة نافعة تهيء لهم الطريق إلى معالجة المشكلات التي تحدث فيها والتي يتعذر القضاء عليها بدون إلمام بأحوال تلك البلاد. أضف إلى ذلك أن العالم العربي الإسلامي كان يشعر بالرغبة في التقارب بين أجزائه، وكان كل فرد من أفراد المملكة الإسلامية يحن إلى الاتصال بالممالك البعيدة، ويود من صميم القلب لو يعرف ما عليه إخوانه الذين تربطهم وإياه الروابط المتينة، هذا الشعور الجمعي كان من جملة البواعث التي حركت في الناس الرغبة في السفر من حين إلى آخر.

على أن هناك غير واحد من العلماء الذين ساقتهم غريزة حب الاستطلاع، فطافوا في العالم لمجرد الوقوف على أحواله ودراسة شعوبه المختلفة : منهم العلامة المسعودي صاحب كتاب « مروج الذهب » الذي ساح في بلاد فارس والهند والصين، وكان عمره إذ ذاك لم يتجاوز العشرين سنة، ومنهم الفيلسوف الفلكي البيروني الذي توغل في الهند وترك لنا كتابه القيم « تاريخ الهند ».

ويمكن أن يضاف إلى ذلك الرحلات التجارية التي قام بها التجار، وهؤلاء وإن لم يستهدفوا درس البلاد التي وصلوا إليها أنهم أفادوا علمي التاريخ والجغرافيا، بتخطيطهم المدن وذكرهم عدد السكان والحاصلات والطرق التجارية. وهذا ما نلاحظه في رسائل ياقوت صاحب كتاب « معجم الأدباء ».

أما الرحلة لأداء فريضة الحج فهي ديدن المسلمين في جميع العصور، وذلك لأن الرغبة في زيارة الأماكن المقدسة أمنية كل مسلم يرجو الثواب في الآخرة، ولذا كان المسلمون في كل عام يحجون فرادى وجماعات إلى الكعبة وإلى غيرها من الأماكن المقدسة، كالقدس وقبور الأئمة في العراق وغيرها، وهم في طريقهم إليها يزورون البلاد ويتعرفون ما عليه الناس وقد يمكث أحدهم مدة طويلة من الزمن ثم يعود إلى بلاده. والحقيقة أن الشرق الأدنى كان في العصور الوسطى هدفاً لكثير من الزوار الذين كانوا يفدون إليه لا لغرض التبرك بالأماكن المقدسة فحسب، بل لتلقي العلم والتزود من الثقافة مع ذلك. وكان معظم هؤلاء الوافدين من الأندلس ومن شمالي أفريقيا، حتى قال ابن خلدون : « أهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم حتى ليظن الكثير من رحالي أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وأنهم أشد نباهة وأعظم كيساً بفطرتهم الأولى وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس

أهل المغرب؛ ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية ويتشيعون لذلك ويولعون به لما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع، فالذي حدا بالناس إلى الرحلة إلى هذه المناطق يرجع إلى تمكن الناس هنا من لغة القرآن ومن الثقافة الإسلامية والثقافة اليونانية القديمة.

وذلك يوم أخذت الكنيسة الشرقية تطارد العلماء وتعتبر فلسفتهم خطراً يتهدد المسيحية على نحو ما فعله جستنيان بمدارس أثينا، فإن أولئك العلماء الذين وسموهم بالوثنيين والزنادقة والذين اعتبروا كتبهم من نوع الهرطقة والإلحاد، لجأوا إلى الشرق الأدنى وتوطنوا في سوريا والعراق وأسسوا فيها عدداً كثيراً من المدارس. ولما فتح العرب هذه البلاد حافظوا على تلك المدارس وشجعوها، لا سيما أيام المأمون الخليفة العباسي.

— ٢ —

ولد ابن بطوطة في مدينة طنجة عام ٧٠٣هـ ـ١٣٠٤م من أسرة دينية عريقة في الاشتغال بالعلوم الشرعية وينتهي نسبها إلى قبيلة لواتة، إحدى قبائل العرب التي كانت في وقت ما في بلاد برقة بين مصر وطرابلس. أما ثقافته فلم تكن تتجاوز العلوم الدينية والأدب وممارسة بعض الشعر واللغة الفارسية، ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره أي عام ٧٢٥هـ ـ ١٣٢٦م خرج في وفد من الحاج إلى مكة، ومنها قطع طريق البادية إلى العراق، وظل يتنقل في بلاد العرب وفارس وتركيا والهند والصين زهاء ربع قرن، حج خلال هذه المدة أربع مرات، وتزوج كثيراً من النساء. وفي سنة ٧٥٠م ـ ١٣٤٩م، عاد إلى طنجة وكان بلاد المغرب في تلك الفترة تحت سلطان بني مرين الذين كانوا يعطفون على العلماء والشعراء ويجزلون لهم العطاء، فلاذ ابن بطوطة بأبي عنان أمير مراكش وصار من جملة حاشيته وكان يقص في مجالسه

على الناس ما رآه في أسفاره، فطلب إليه الأمير أن يدون رحلته فأملاها على كاتب الأمير الفقيه محمد بن جزي الكلبي، وانتهى من كتابتها سنة ١٣٥٣ وسماها « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وعاش ابن بطوطة في بلاد فاس حتى توفي سنة ٧٧٩هـ — ١٣٧٧م.

يكاد يجمع المؤرخون على أن الدافع الذي حمل ابن بطوطة على القيام بهذه الرحلة هو الحج، وأنه لما وصل إلى مكة والتقى بالحجاج حصلت له فكرة الطواف حول العالم، وهم يستدلون على ذلك بقول: « وكان خروجي من طنجة معتمداً حج بيت الله الحرام » ثم أنه لم يكن متأهباً للسفر الطويل. بيد أنه يلوح لي أن ابن بطوطة لم يكن يوم خروجه من طنجة بعيداً عن فكرة الطواف حول العالم، إن لم تكن هذه الفكرة الهدف الرئيسي الذي كان يرمي إليه أولاً. لا ينكر أن الحج كان في نظره غاية سامية باعتباره مسلماً شديداً بالايمان والثقة بالله، لكن لا مانع من أن يكون هذا الايمان البالغ المتمكن من نفسه بعض ما كان يرومه من تلك الرحلة والدليل على ذلك ما رواه ابن بطوطة نفسه فقد حدث أنه نزل في مصر ضيفاً عند أحد علماء الاسكندرية المسمى « برهان الدين » ثلاثة أيام، فتوسم فيه برهان الدين حب التجول، وأوصاه بأنه إذا ذهب إلى الهند أو السند أو الصين أن يزور أفراداً أسماهم له، ثم ما رواه ابن بطوطة بنفسه أيضاً أنه زار وهو في طريقه إلى القاهرة أحد الأولياء الصالحين الذي كان مقيماً بقرية « قبالة » بلدة « فوه » على النيل. فرأى في منامه وهو عنده أنه زار مكة واليمن والعراق وبلاد الترك والهند. وأما أنه لم يتخذ الأهبة الكافية لهذا السفر الطويل ففي الحقيقة أن ابن بطوطة لم يتأهب حتى بالنسبة إلى الحج، إذ كان جل اعتماده على الهبات والعطايا يوم فارق طنجة. ولعل عدم التأهب هذا يعتبر دليلاً على أنه كان ينوي السفر

الطويل من أول الأمر. إذ يتعذر على مثل ابن بطوطة الذي عرفنا حاله من الفقر والفاقة أن يطوف حول العالم، ويعد ما يكفيه من المال والزاد لمثل هذا السفر الطويل الشاق.

تعتبر رحلة ابن بطوطة من أهم المصادر التاريخية الجغرافية بالنسبة إلى حياة الأمم الشرقية في القرون الوسطى، وهي ليست بأول مشروع من نوعه في هذا الصدد كما نعلم، لقد قام « مركو بولو » الايطالي برحلة في الشرق قبل « ابن بطوطة » بنصف قرن تقريباً ودون مشاهداته إلا أن ابن بطوطة لم يطلع على تلك الرحلة. والذي يميز، رحلة ابن بطوطة هو أنها رسمت لنا صورة واضحة للشعوب التي كانت تتكلم في ذلك الوقت اللغة الفارسية كايران والهند، وذلك راجع إلى تمكن ابن بطوطة من هذه اللغة، في حين أن رحلة « ماركو بولو » تمتاز بناحية أخرى وهي أنها عرفتنا حالة الدول المغولية التي كانت تبسط نفوذها من شواطئ المحيط الهادئ إلى ما وراء نهر الفولغا بشكل أوضح مما ذكره ابن بطوطة. وسبب ذلك راجع إلى معرفة « ماركو بولو » اللغة المغولية، الأمر الذي ساعده مساعدة كلية على فهم حالة أولئك الأقوام. والحقيقة أن هاتين الرحلتين تعتبر إحداهما مكملة للأخرى.

لقد أيد « فريسكو بالدي » الرحالة الايطالي الذي ساح في الشرق بعد ابن بطوطة بأكثر من نصف قرن ما رواه ابن بطوطة في رحلته، ومع هذا يقول « ابن خلدون » : ورد بالمغرب لعهد السلطان « أبي عنان »، رجل من مشيخة طنجة يعرف « بابن بطوط » كان رحل منذ عشرين سنة إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند، وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب، فتناجى الناس بتكذيبه.

ونلاحظ أن ابن بطوطة في رحلته الثانية خرج من طنجة عام ٧٢٥هـ ــ ١٣٢٦م للحج فمر بمصر والشام ومكة ثم العراق واليمن وجدة، ثم الصومال وأريتريا، ثم عاد إلى الحجاز ومنها إلى آسيا الصغرى

والأناضول ثم الهند وسيلان وأطراف من الصين وسيلان، ثم عاد إلى الشام فالقاهرة في عهد السلطان حسن قلاوون ودخل مدينة فاس عام ٧٥٠هـ، ثم ذهب إلى طنجة وقام برحلة إلى الأندلس، ثم عاد منها، وقام برحلة أخرى إلى السودان عام ٧٥٣هـ، وعاد منها إلى سجلماسة عام ٧٥٥هـ.

الفصل الثالث

اللغة العربية في بلاد المغرب

لم تنتشر اللغة العربية إلا بين العرب في المدن الكبرى، التي تنتظم المدارس والجامعات والمساجد وعواصم الملك، أما خارج المدن، فأكثر السكان من البربر، وهؤلاء لم يتعود لسانهم العربية، ولم ينطق بها، ومن ثم كان البربر بعيدين عن اللسان العربي بعداً كبيراً.

يقول باحث[1] :

ولشدة العجمة في لسان البربر : لم تحسن استفادتهم ممن عاشرهم، وقام بتعليمهم من الراحلين إليهم من الأندلس وغيرها، وقد ضرب ابن خلدون المثل بالبربر في قلة استفادة الأعجمي من اللسان العربي، إذا كان معرقاً في العجمة، قال : « وما كان من لغات أهل الأمصار أعرق من العجمة وأبعد عن لسان مضر، قصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية، وحصول ملكتها لتمكن المنافاة حينئذ، واعتبر ذلك في أهل الأمصار، فأهل إفريقية والمغرب لما كانوا أعرق في العجمة وأبعد عن اللسان الأول، كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم ». ولقد

---

(١) ٣/١٧٣ الأدب العربي وتاريخه ــ محمود مصطفى.

نقل ابن الرقيق[1] أن بعض كتاب القيروان كتب إلى صاحب له[2] : « يا أخي ومن لا عدمت فقده قد أعلمني أبو سعيد كلاماً، أنك ذكرت أنك تكون مع الذين تأتي وعاقنا اليوم فلم يتهيأ لنا الخروج. وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين، فقد كذبوا، هذا باطلاً ليس من هذا حرفاً واحداً، وكتابي إليك، وأنا مشتاق إليك إن شاء الله »[3].

وقد مر ما كان من أمر يوسف بن تاشفين لما قدم الأندلس لمعونة المعتمد بن عباد، وجعل الشعراء ينشدونه أشعارهم، قال له ابن عباد : أيعلم أمير المسلمين ما يقول هؤلاء ؟ قال لا أعلم، ولكنهم يطلبون الخير !! وأنه لما عاد يوسف هذا إلى المغرب، كتب إليه المعتمد رسالة ورد فيها البيتان :

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا   شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت   سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

فلما قرئ عليه هذان البيتان قال القارئ : يطلب منا جواري سوداً وبيضاً ؟ فقال له : يا مولانا ! ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً، لأن ليالي السرور بيض، فعاد نهاره ببعده ليلاً، لأن أيام الحزن سود، فقال : والله جيداً !. أكتب له جوابه : إن دموعنا تجري عليه، ورءوسنا توجعنا من بعده !....

وكان أبو العباس الجزاوي أشعر شعراء المغرب الأقصى في وقته. وله يمدح ملكاً :

إذا كان أملاك الزمان أراقما   فإنك فيهم دائم الدهر ثعبان

---

(١) ابن الرقيق شاعر من أهل القيروان كان يتكسب بالكتابة في دواوين الانشاء، وله كتب منها (تاريخ إفريقية) مات سنة ٤٠٠هـ.

(٢) راجع ٢/١٤ نفح الطيب.

(٣) الرسالة غنية بالخطأ والعامية.

وقد نبغ من أهل المغرب أنفسهم : علماء وكتاب وشعراء، سامى بعضهم أمثالهم بالأندلس. ولكنهم قليلون لا يصح أن ينسب فضلهم إلى بيئتهم، وإنما ينسب إلى امتياز ملكاتهم، بما وهبهم الله من خصائص في الإدراك، وإلى ظروف أخرى أحاطت بهم، فابن خلدون منهم، وهو هذا العالم العالمي ذو النظريات التي مرت عليها السنون، وهي باقية تدل على غور إدراكه، وبعد تصوره وصدق تقديره، ولكنك لا تجد من نعده نظيره في فضله، أو من يقع قريباً منه من أهل هذه البلاد في جميع أطوارها.

ومن أدباء أهل المغرب، أبو إسحق ابراهيم التلمساني الأنصاري، الكاتب الشاعر، الرحالة الذي دخل مصر والشام وغيرهما. ومات بسبتة سنة ٦٩٠هـ.

النثر الأدبي

كانت الكتابة وهي أهم ألوان الأدب زمن الولاة مقصورة على الأمراء والعلماء حتى تخرج في الفصاحة الموالي من البربر فشاركوهم فيها، ولما رسخ سلطان الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى ودولة الأغالبة في المغربين الأوسط والأدنى أصبحت الكتابة صناعة اقتدى الكتاب فيها بكتاب الأندلس غرباً وبكتاب المشرق شرقاً ففشا فيها السجع والتأنق في المجاز والاستعارة. وما جاءت الدولة الفاطمية ثم الصنهاجية إلا ولصناعة الكتابة منزلة عند ملوكها ليس وراءها إلا منزلة أمراء الجيوش وأمراء الأساطيل. ومن أشهر كتّاب عصر الصنهاجيين: علي بن أبي الرجال، وابن رشيق، وابن شرف، وابن القزاز. ولما قامت دولة المرابطين جدوا في استدعاء الكثير من أعيان كتاب الأندلس حتى اجتمع في بلادهم

من العدوة الإفريقية ما لم يجتمع مثله لملك من ملوك الطوائف في الأندلس، وأشهرهم : أبو عبدالله محمد بن أبي الخصال، وأخوه أبو مروان وأبو محمد عبد المجيد بن عبدون فنشروا طريقة الأندلسيين في الكتابة وتخرج عليهم كثيرون، ونبغ منهم في دولة الموحدين ابن عياش، وابن محشوة، وابن الميمون، ثم اضمحل أمر الكتابة بالتدريج حتى أصبحت مجرد سجع قليل البلاغة متكلف التقفية.

وقد فصل من رسالة كتب بها أبو الميمون عن المستنصر بالله ابراهيم جد الخلفاء الموحدين إلى بعض نوابه وقد نقض العهد على بعض المهادنين من النصارى قال بعد الديباجة : وقد بلغنا ما كان منكم من اكتساح النصارى والزيادة على ذلك باختطاف الأسارى، ونعوذ بالله من شهوة تغلب عقلاً ونخوة تعقب هوانا وذلاً. وقد أخطأتم في فعلتكم الشنعاء من ثلاثة أوجه :

أحدها أنه خلاف ما أمر الله من الوفاء بالعهد والوقوف مع العقد.

الثاني : عصيان الأمر العزيز وفيه التغرير بالمهج، وترك السعة للحرج.

الثالث : أنكم تثيرون على أنفسكم من شر عدوكم ــ قصمه الله ــ شرراً يستعرض ضراماً يعدم فيه المنتصر، فليتكم إذا تحليتم بالعصيان، ورضيتم الغدر المحرم في سائر الأديان، ثبتم للعدو إذ دهمكم، ولقيتموه بالجانب القوي حين زحمكم. فإذا وافاكم كتابنا هذا بحول الله وقوته فأدوا من أسرتم إلى مأمنه، وردوا ما انتهبتم إلى مسرحه، ولا تمسكوا من الأسارى بشعرة، ولا من الماشية بوبرة، ومن سمعنا عنه بعد وصول هذا الكتاب أنه تعدى هذا الرسم، وخالف هذا الحكم، أنفذنا عليه الواجب وحكمنا فيه المهند الغاضب. فلتسرع من نومة الغفلة إفاقتكم، ولا تتعرضوا من الشر لما تعجز عنه طاقتكم. ونحن متعرفون ما يكون منكم من تأن أو بدار، ومقابلون لكم لما يصدر عنكم من إقرار وإنكار، وهو يرشدكم بمنه.

الفصل الرابع

الشعر العربي

ينتقل الشعر مع العرب أينما نزلوا؛ ولكنه لا يصير صناعة عتيدة يتوافر عليها أناس يكتسبون بها إلا حيثما تكثر جمهرة العرب : بتأثل ملكها وتعدد حواضرها. وكل ذلك لم يكن بالغاً أشده في ممالك البربر أوائل الفتح الإسلامي، حتى إذا توطدت للعلويين الأدارسة دولة بالمغرب الأقصى، وللأغالبة التميميين دولة بافريقية من قبل العباسيين، جلا إلى الدولتين جوال من الأندلس والمشرق فيهم العلماء والأدباء والشعراء والنحاة فغرسوا فضائل العلم والأدب بالمغرب ونشأت فيهم نابتة طلبت العلم من معادنه، ورحلت إلى المشرق فنمت تلك الغراس وأينعت ثمارها زمان الدولتين العبيدية الفاطمية وأخلافها من الصنهاجيين، ثم لما غلبت دولة المرابطين من لمتونة والموحدين من المصامدة وغيرهم استقدموا إلى حواضرهم بالمغرب الكتاب والشعراء من مراكش وفاس وتونس، فكانت منهم في المغرب صورة أندلسية في كل العلوم والآداب والشعر.

ولكن الشعر لم يصل في جملة أطواره بالمغرب إلى الغاية التي سما إليها في الأندلس وإن نبغ فيه في بعض العصور من لا يقل عن

الأندلسيين بلاغة قول، وبداعة تصور، وروعة وصف، كعلي الأيادي والحصري وابن رشيق القيرواني وابن شرف القيرواني وابن حمديس الصقلي وغيرهم، وقد حاكى شعراء المغرب الأندلسيين في التوشيح والزجل، وراج بينهم بعيد اكتساح بدو المشرق من : رياح وجشم وهلال وسليم لإفريقية، ضرب من الشعر العامي في شكل القصائد العربية الفصيحة من الأوزان والتزام قافية واحدة في القصيدة، وربما أتوا بمربعات من نوع الشعر المسمط ولكنهم لا يلتزمون الإعراب، وتسمى هذه القصائد في المغرب بالأصمعيات نسبة إلى الأصمعي الراوية الشهير وأكثر ما تكون من بحر الطويل، ويأتي الشاعر فيها أولاً على ذكر اسمه ثم يتبعه بالنسيب أو بالدخول على الغرض.

ومن شعرائهم، عبد الجبار بن حمديس الصقلي[1]، المشهور بوصف المصانع والحدائق والقصور، وسيمر بك شيء من شعره، وقد توفي سنة ٥٢٧هـ بجزيرة ميورقة. ومنهم ابن شرف القيرواني[2]، الكاتب الشاعر المشهور المعروف بالجودة والطبع، الذي كان قرين ابن رشيق في خدمة المعز بن باديس ومنادمته، وقد رحل إلى الأندلس بعد موت المعز، وتوفي سنة ٤٦٠هـ المرية، ومن شعره، وكان يشوبه بالبديع وخاصة الجناس :

إن تدعك الغربة في معشر قد جبل الطبع على بغضهم
فدارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم

ومنهم ابن رشيق القيرواني، وهو من موالي الأزد، كان أبوه رومياً صائغاً، فتعلم ابنه الأدب، وألف فيه كتابه « العمدة » الذي لم يؤلف مثله في نقد الشعر، وكان من كتاب المعز بن باديس، وقد توفي

---

(١) هو عربي الأصل، يتصل نسبه بالأزد إحدى قبائل كهلان من عرب اليمن.
(٢) هو عربي من قبيلة جذام اليمنية.

بجزيرة صقلية سنة ٤٥٦هـ، ومن شعره :

في الناس من لا يرتجى نفعه   إلا إذ مس باضـــــــــرار
كالعود لا تطمع في طيبه   إن أنت لم تمسسه بالنار

وقوله :

أحب أخي وإن أعرضت عنه   وقل على مسامعه كلامي
ولي في وجهه تقطيب راض   كما قطبت في وجه المدام
ورب تجهم من غير بغض   وضغن كامن تحت ابتسام

ومنهم ابراهيم بن عليّ الحصري القيرواني، صاحب « زهر الآداب » وغيره المتوفى سنة ٤٥٣هـ ومن شعره قوله :

كتمت هواك حتى عيل صبري   وأدنتني مكاتمتي لرمسي
ولم أقدر على إخفاء حال   يجول بها الأسى دون التأسي
وحبك مالك لحظي ولفظي   وإظهاري وإضماري وحسي

ومنهم أيضاً، أبو الحسن علي بن علي عبد الغني الفهري المقري الضرير القيرواني، المعروف بالحصري، ذكر ابن بسام في الذخيرة أنه « بحر براعة، ورأس صناعة، وزعيم جماعة »، وقد طرأ على الأندلس في منتصف المائة الخامسة، وتوفي سنة ٤٨٨هـ بطنجة من بلاد المغرب، وهو رقيق الشعر. أشهر شعره داليته، التي افتتن الشعراء بها، وعارضوها في كل زمن.

ابن رشيق القيرواني
٣٩٠ـ٤٦٣هـ

كان من أدباء القيروان وشعرائها وأحد البلغاء والنقاد، واسمه الحسن ابن رشيق ولد بالمسيلة وقيل ولد بالمهدية، وأبوه مملوك رومي من موالي الأزد، كان صائغاً فعلمه أبوه صنعته وقرأ الأدب وقال الشعر، وتاقت نفسه الى التزيد منه وملاقاة أهل الأدب؛ فرحل الى القيروان عام ٤٠٦هـ، ومدح صاحبها وطارت شهرته بها، ولما هجم العرب على القيروان وخربوها انتقل الى صقلية وأقام في مازر إحدى قراها حتى توفي عام ٤٥٦هـ، وقيل عام ٤٦٣هـ.

وكان بينه وبين عبدالله بن أبي سعيد بن أحمد المعروف بابن شرف القيرواني مناقضات ومهاجاة، وصنف عدة رسائل في الرد عليه منها رسالة سماها ساجور الكلب ورسالة نجح الطلب، ورسالة قطع الأنفاس ورسالة نقض الرسالة الشعوذية والقصيدة الدعية والرسالة المنقوضة ورسالة رفع الأشكال ودفع المحال، وله كتاب أنموذج الشعراء في شعراء القيروان ورسالة قراضة الذهب، والعمدة في معرفة صناعة الشعر ونقده وعيوبه وهو كتاب جيد وغير ذلك.. قال صاحب الوافي : وقد وقفت على هذه المصنفات والرسائل المذكورة جميعها فوجدتها تدل على تبحره في الأدب واطلاعه على كلام الناس ونقله لمواد هذا الفن وتبحره

في النقد، وله كتاب في شذاذ اللغة يذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة في بابها.. ومن شعره :

أحب أخي وان أعرضت عنه ... وقل على مسامعه كلامي
ولي في وجهه تقطيب راض ... كما قطبت في وجه المدام
ورب تقطب من غير بغض ... وبغض كامن تحت ابتسام

ومنه :

اذا ما خففت لعهد الصبا ... أبت ذلك الخمس والأربعونا
وما ثقلت كبراً وطأتي ... ولكن أجر ورائي السنينا

ومنه :

وقائلة ماذا الشحوب وذا الضنا ... فقلت لها قول المشوق المتيم
هواك أتاني وهو ضيف أعزه ... فأطعمته لحمي وأسقيته دمي

ومنه :

ذمت لعينك أعين الغزلان ... قمر أقر لحسنه القمران
ومشت فلا والله ما حقف النقا ... مما أرتك ولا قضيب البان
وثن الملاحة غير أن ديانتي ... تأبى علي عبادة الأوثان

ومنها في المديح :

يا بن الأعزة من أكابر حمير ... وسلالة الأملاك من قحطان
من كل أبلج آمر بلسانه ... يضع السيوف مواضع التيجان

ومن شعره :

في الناس من لا يرتجي نفعه ... إلا اذا مس باضرار
كالعود لا يطمع في طيبه ... الا اذا أحرق بالنار

ومنه :

أقول كالمأسور في ليلة ... ألقت على الآفاق كلكالها

يـا ليلـة الهجـر التـي ليلهـا هذا وليس الحسـن الا لهـا
ما أحسنت جملاً ولا أجملت هذا وليس الحسـن الا لهـا

ومنه :

ومن حسنات الدهر عندي ليلة من العمر لم تترك لأيامها ذنبا
خلونابها ننفي القذى عن عيوننا بلؤلـؤة مملـوة ذهبـاً سكبـا
وملنا لتقبيـل الثغـور ولثمهـا كمثل جنوح الطير يلتقط الحبا

قال الأبيرودي وما هذا بأحسن من قول ابن المعتز :

كـم من عناق لنا ومن قبل مختلسـات حـذار مرتـقب
نقـر العصافيـر وهـي خائفـة مـن النواطيـر يانـع الـرطب

ومقام ابن المعتز غير مقام ابن رشيق لان ابن رشيق ذكر أنه في ليلة أمن وهي عنده من حسنات الدهر فلهذا حسن تشبيه التقبيل مع الأمن بالتقاط الطير الحب لأنه يتوالى دفعة بعد دفعة وأما ابن المعتز فانه كان خائفاً يختلس التقبيل ويسرقه كما يفعل العصفور في نقر الرطب اليانع لأنه يقدم جازعاً خائفاً من الناطور فلا يطمئن فيما يلتمسه، ألا يرى الآخر كيف قال فأحسن :

أقبلـه علـى جزعـي كشرب الطائر الفـزع
رأى مـــاء فواقعــــه وخاف عواقب الطمع

ومن شعر ابن رشيق :

قد أحكـمت منـي التجا رب كل شيء غير جودي
أبـداً أقـول لئـن كسبـ ـت لاقبضن يدي شديـد
حتـى اذا أثـريت عــد ت الى السماحة من جديد
ان المقـام بمثـل حـا لي لا يتـم مـع القعـود
لا بـد لـي مـن رحلـة تدني من الأمـل البعيـد

ومنه :

معتقة يعلو الحباب متونها فتسحبه فيها نثير جمـان
رأت من لجين راحة لمديرها فطافت له من عسجـد ببنـان

ومن أساتذة ابن رشيق في الأدب أبو عبدالله محمد بن جعفر القزاز القيرواني النحوي وغيره من أهل القيروان..

ابن حمديس الصقلي
٤٤٧ــ٥٣٧هـ

ميلاده ونشأته :

هو أبو محمد، عبد الجبار، بن حمديس، الأزدي الصقلي. أحد وصافي الطبيعة والمشاهد البديعة.

ولد في أوسط القرن الخامس الهجري، بجزيرة صقلية، وهي في يد المسلمين العرب، إبان حكم ملوك الطوائف في الأندلس.

ونشأ بصقلية، في أسرة عربية محافظة، تلقى عنها شيئاً من أدب الاسلام، وحفظ طرفاً من الأدب العربي؛ وقرأ القصص والأساطير التي كانت يومئذ حديث الناس، كما طرق أذنه كثير من أخبار المسلمين وشعر العرب ونثرهم، فاستعذب الشعر، وعالج القريض وهو حدث.

ولبيئة صقلية أثرها في شعره وشاعريته، وصقلية ربى نضرة؛ هواؤها بليل، وماؤها موفور، وجناتها مزهرة، وأشجارها مورقة مثمرة، وطيرها غرد، وأهلها مزيج من العرب والرومان والأندلسيين، وكانت تدين بالطاعة لملوك الطوائف، الحاكمين البلاد. كما كان العرب فيها يعيشون بين: الرجاء في الحاكمين، والخوف من الإفرنجة المغيرين.. وكان الترف واللهو والمجون. وألوان من الحضارة ذائعة بينهم، وكثرت فيهم مجالس

الأنس.. وكان حمديس يرقب هذا عن كثب فيضيق صدره، ويتحرق على الاسلام، في عفة تبين في شعره، وتحول بينه وبين الراح وإن شهد مجلسها، وتربية شب عليها تمنعه أن يغامر مع الماجنين، كما أن طيب الهواء، وألوان الزهر وتنوع الثمر، وانتهاج الحاكمين سياسة العسف، كل أولئك شحذ ذهنه، وأرهف فكره فشعر، وهو بعد فتى، ونبغ في الشعر وهو في نضرة الشباب، وكان طبعياً أن تؤثر كل هذه المتباينات في خلقه وذهنه، غير أنه على ما يظهر من شعره لم يدنس ولم يسعف، وعاش على دينه وعفته كريماً نبيلاً.

وفي عهد الشاعر كانت الدولة العربية في صقلية في أخرياتها، قد نهكتها الفرقة وأضعفها الترف، وأمضها ما دبر لها الافرنجة من دواعي الشيخوخة، وأسباب الاضمحلال، مما اختطه « شارل ماتل »، إذا قال لقومه في القرن الثاني الهجري، عن العرب : لا تعارضوهم فإنهم كالسيل، ولكن أمهلوهم، حتى تمتلئ أيديهم، ويتخذوا الشهوات لهم إماماً، وتشبع بطونهم، ويتنافسوا في الرياسة، ويستعين بعضهم على بعض — فحينئذ تتمكنون منهم —.

وكذلك حقت كلمة ربك فلم تمض على ابن حمديس أيام الشباب، حتى استولى النرمانديون على صقلية وطنه، وهو في شرخ الفتوة، فشهد مصرع قومه، وهاجر إلى إشبيلية عام ٤٧١هـ، وقصد إلى سيدها المعتمد ابن عباد من ملوك الطوائف فغفل عنه، ولم يكترث له، فضجر ابن حمديس وهمس (قنطت لخيبتي مع فرط تعبي، وهممت بالنكوص على عقبي)، ولكن الله نفس الكربة، بغلام السلطان، فركب معه إليه، وأدخل على المعتمد، فأجلسه على حشية من فرو، وقال له: افتح الطاقة التي تليك، ففتحها. وإذا كور من زجاج والنار تلوح من بابيه، وواقدة تفتحها تارة، وتسدهما أخرى، ثم أطال سد أحدهما، فحين تأملهما ابن حمديس قال له المعتمد : أجز :

انظرهما في الظلام قد نجما   فقال : كما رنا في الدجنة الأسد
فقال المعتمد : يفتح عينيه ثم يطبقهما   فقال : فعل امرئ في جفونه رمد
فقال المعتمد : فابتزه الدهر نور واحدة   فقال : وهل نجا من صروفه أحد

فاستحسن المعتمد ذلك، وأمر له بجائزة سنية، وألزمه خدمته.

ومن هنا لمع كوكب ابن حمديس بهجرته، واتصاله بالمعتمد، وقد بقي مبجلاً في خدمته، حتى أخذت تبين دولة المرابطين، وأزالت فيما أزالت ملك المعتمد، إذ عزله ونفاه يوسف بن تاشفين، الذي أذل اشبيلية، فتبع ابن حمديس ولي نعمته إلى منفاه، ثم أقام الشاعر بالمهدية قاعدة افريقيا، ورحل إلى سفاقس ثم انتقل إلى ميورقة.

وتصاريف الزمان هذه بابن حمديس، أذاقته الحلو فرق شعره، وأطعمته العلقم فانقبض وتشاءم، وزهد في الدنيا. ولم يأتمنها. ولم يلن لها عوده. على أن هجرته وإن كانت قد نشرت صيته. إلا أنها أقضت مضجعه. فلقد حن إلى صقلية. وملأ شعره حنيناً إلى وطنه الأول.

وبيئة الشاعر والحياة السياسية في عصره أوجدتا منه رجلاً مؤمناً رقيق المشاعر يغلب جده هزله، يتشاءم في افراط، وينقبض نقمة من الناس. وفراراً من شياطين الأنس، لذا سلم منهم وإن خالطهم فلم تمتزج نفسه إلا بالخير، وإن انغمس في الشر، على أن البيئة قد فتقت ذهنه، كما أن السياسة دفعت به إلى المهجر، فاتصل بالمعتمد الذي حبب إليه الحياة.

شعر وشاعريته :

أخلاق الشعراء ومواهبهم تبين جلية في أشعارهم، ومن ثم غلب على شعر ابن حمديس : عفة اللفظ ونبل الفكر، والزهد والورع. فشعره

يبين فيه كل هذا، إلى تصرف في التشبيه العذب، وغوص على درر المعنى، وميل إلى الحكمة.

وبمطالعة شعره يتضح لنا أنه أغرم بزهد أبي العتاهية، فنسج على منواله، كما أعجب بالبحتري، فغنى على قيثارته، وافتتن بالمتنبي فقلده في بعض شعره. كما حاكى ابن المعتز في شيء من أدبه.

ويشتمل شعره على أكثر أنواع الشعر المعروفة : من وصف ومدح وغزل ومجون ورثاء وشكوى ودعابة وعبرة، وغير ذلك. ومن المعاني التي مرت بخاطره كثيراً وأكثر من ذكرها في شعره حنينه إلى وطنه، وذكر أيامه الأولى في جزيرة صقلية. حيث يبكي فيها صباه، وتملي عليه ذكرياته الماضية، كثيراً من الآلام. وأحياناً تذكره ما كان هناك من سرور يمرح في بحبوحته، وكثيراً ما تجده يبكي وطنه لما حل به من المصائب، ويمزج ذلك بذكر الشباب والشكوى من المشيب.

ولسنا ممن يقول إن زهده مصنوع، وأنه كان متهماً فيه، كما اتهم أبو العتاهية في زهده بأنه أحب المخالفة لشعراء عصره ليظهر.

على أن ابن حمديس وإن برع في الزهد إلا أنه كان في الوصف أبرع وعلى الرغم من تفوقه حين كان يشكو الزمان، وخاصة بعد أن كف بصره وأخذ يتبرم بالحياة، إلا أنه كان له الوصف المشرق، حتى ليكاد يصل إلى عينك من لفظه الأنيق صورة ملموسة لما وصف، وان اشتمل لفظه على شيء من الغريب الذي جاء في شعره والذي كان من أسبابه أن اللغة في المغرب لم يسرع بها التغيير مثل ما أسرع بها في المشرق، تجد شاعراً قبله كالشريف الرضي سهل اللفظ، لأن المشارقة لانت لغتهم باختلاطهم بالأعاجم، على حين تجد شعر ابن حمديس ــ الذي تأخر به الزمان عن الرضي نحو نصف قرن ــ أكثر غريباً، وأغمض لفظاً.

وخياله متسع يقظ، يعنى بتمثيل المحسوسات بالمعقولات،

والمعقولات بالمحسوسات، في أسلوب عذب، وبيان ناصع، وتعبير بليغ.

ويعد ابن حمديس من أعلام الشعراء، وقد سبق شعراء العرب إلى « الواقعية » بمعناها العلمي الحديث، فهو يكثر في قصائده من الحديث عما يجول بالنفوس، وما كان يشعر به من آلام الحياة وأحداثها، وما كان يعتريه من حيرة وشك، وسخط على الحياة حيناً، ومن أمل وابتسام وتفاؤل وثقة بها حيناً آخر. كل ذلك مع الجد في التعبير ومع تمثيل حركات نفسه وعقله وأسلوبه، ومع اجتماع قوة الفكر وسعة الخيال في قصائده. فهو شاعر وجداني نفسي مفكر، في طليعة الشعراء المفكرين من العرب.

نماذج من شعره

١ ــ قال ابن حمديس، وهو في المغرب:

تدرعت صبري جنة للنوائب ... فان لم تسالم يا زمان فحارب

عجمت حصاة لا تلين لعاجم ... ورضت شموسا لا تذل لراكب

كأنك لم تقنع لنفسي بغربة ... اذا لم أنقب في بلاد المغارب

فطمت بها عن كل كاس ولذة ... وأنفقت كنز العمر في غير واجب

يبيت رياش العضب في ثني ساعدي ... معاوضة من جيد غيداء كاعب

وما ضاجع الهندي الا مثلما ... مضاربه يوم الوغى في الضرائب

فكنت وقدي في الصبا مثل قده ... عهدت إليه أن منه مكاسبي

فان تك لي في المشرفي مآرب ... فكم من عصا موسى له من مآرب

أتحسبني أنسى وما زلت ذاكرا ... خيانة دهري أو خيانة صاحبي

تغذى بأخلاقي صغيرا ولم تكن ... ضرائبه إلا خلاف ضرائبي

ويا رب نبت تعتريه مرارة ... وقد كان يسقي عذب ماء السحائب

علمت بتجريبي أمورا جهلتها ... وقد تجهل الأشياء قبل التجارب

ومن ظن أمواه الخضارم عذبة ... قضى بخلاف الظن عند المشارب

ومن شعره قوله :

ذكرت صقلية والأسى ... يهيج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابي خلت ... وكان بنو الظرف عمارها
فإن كنت أخرجت من جنة ... فإني أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء ... حسبت دموعي أنهارها

وقوله :

ولو أرضي حرة لأتيتها ... بعزم يعد السير ضربة لازب
لكن أرضي كيف لي بفكاكها ... من الأسر في أيدي العلوج الغواصب
أمثلها في خاطري كل ساعة ... وأمري لها قطر الدموع السواكب
أحن حنين النيب للوطن الذي ... مغاني غوانيه إليه جواذب
ومن يك أبقى قلبه رسم منزل ... تمنى له بالجسم أوبة آئب

ومن قوله في الوعظ :

غرتك دنياك التي ... لها سراب يخدعك
يضرك الحرص بها ... والزهد فيها ينفعك
لا تأمنن منية ... إن عصاها تقرعك
مغربك القبر الذي ... يكون منه مطلعك
وللحساب موقف ... أهواله تروعك
يراك ذو العرش الذي ... ناديته ويسمعك
فثق به ولا يكن ... لغيره تضرعك

وقال يصف البحر :

أراك ركبت في الأهوال بحراً ... عظيما ليس يؤمن من خطوبه
تسير فلكه شرقاً وغرباً ... وتدفع من صباه إلى جنوبه
وأصعب من ركوب البحر عندي ... أمور ألجأتك إلى ركوبه

وقال في الشيب والحنين إلى وطنه (صقلية) :

نفى هم شيبي سرور الشباب ... لقد أظلم الشيب لما أضاء
أتعرف لي عن شبابي سلوا ... ومن يجد الداء يبغي الدواء
أأكسو المشيب سواد الخضاب ... فأجعل للصبح ليلاً غطاء
وكيف أرجي وفاء الخضاب ... إذا لم أجد لشبابي وفاء

إلى أن قال:

وأراك يا بحر لي جنة ... لبست النعيم بها لا الشقاء
إذا أنا حاولت منها صباحا ... إذا منع البحر منها اللقاء
ركبت الهلال به زورقا ... تعرضت من دونها لي مساء
فلو أنني كنت أعطي المنى ... لكنت أعانق فيها ذكاء

وقال يتغزل :

زارت على الخوف من رقيب ... كظبية روعت بذيب
كافورة في بياض لون ... ومسكة في ذكي طيب
كادت تروي غليل صب ... فؤاده منه في لهيب
كان زمان اللقاء منها ... أقصر من جلسة الخطيب

وقال في المروءة والوفاء والتدين :

أذم المروءة والوفاء ولا يكن ... حبل الديانة منك غير متين
والعز أبقى ما تراه لمكرم ... إكرامه لمروءة أو دين

وقال في العصا :

ولي عصا من طريق الذم أحمدها ... بها أقدم في تأخيرها قدمي
كأنني قوس رام وهي ولي وتر ... أرمي عليها رمي الشيب والهرم

وقال في فرس أدهم :

أدهم كالظلام تشرق فيه ... شعرات منيرة للعيون
كالذي يخضب المشيب ويبقى ... شاهدات بهن نفي الظنون

وقال في الترفع عن الهجو :

وما أنا ممن يرتضي الهجو خطة على أن بعض الناس أصبح يهجوني
أسالم من ألقيت قدري كقدره وأعظم من فوقي وأحقر من دوني
ولو شئت يوماً لانتصرت بمقول يجيل على الأغراض حد السكاكين

وقال يرثي جوهرة :

يهـدم دار الحيـاة بانيهـا فـأي حـي مخلـد فيهـا
وان تـردت مـن قبلنا أمـم فهـي نفـوس ردت عواريها
وأوحشتنا من فـراق مؤنسة يميتنـي ذكرهـا ويحييهـا
أذكرهـا والدمـوع تسعفنـي كأننـي للأسـى أجاريهـا
جوهرة كان خاطري صدفاً لهـا أقيهـا بـه وأحميهـا
ونفحة الطيب في ذوائبها وصبغة الكحل في مآقيها
عانقهـا المـوج ثـم فارقهـا عن ضمة فاض روحها فيها

وقال في الشباب :

بكى الناس قبلي فقد الشباب بدمع القلوب فما أنصفوه
وإنـي عليـه لمستـدرك من البث والحزن ما أهملوه
لعمرك مـا الشيب ما بـدا بفوديك إلا الردى أو أبوه

وقال يرثي أباه :

يد الدهر جارحة آسية ودنيـاك مفنيـة فانيـة
وربك وارث أربابهـا ومحيي عظامهم البالية
رأيت الحمام يبيد الأنام ولدغتـه مـا لهـا راقيـة
وأرواحنـا ثمـرات لـه يمـد إليهـا يـداً حانيـة
وعارية في الفتـى روحـه ولا بد مـن ردة العارية
سقـى الله قبـر أبـي فسقيـاه رائحـة غاديـة
وسير عن جسمه روحـه الى الروح والعيشة الراضية

وقال يمدح الأمير أبا الحسن علي بن يحيى ويصف فتحه الأجم :

يمضي لك السيف ما تنويه والقلم ويستقل برضوى همك الجمم
لو شئت أغناك جداً عن محجلة شعار فرسانها الإقدام والهمم

إلى أن قال :

حصن بنته لصون الملك كاهنة وأفرغت فيه من تدبيرها الحكم
كأنه من بروج الجو منفرد فقطرة منه فوق الأرض تغتنم
وأعين الخلق منه كلما نظرت على العجائب بالألحاظ تزدحم
كأنما الحصن من خوف أحاط بهم عليهم وهو المبني منهدم
إن الصوارم في فتح الحصون لها ضرب به تجتلي الأجياد والقمم
إن إن بن يحيى علياً بدر مملكة لصيد آبائه الأجداد والقدر
قد أشرب الله في قلبي محبته فشب في مدحه طبعي وبي هرم
يا واحد الجود والبأس الذي اتفقت بلا اختلاف على تفضيله الأمم
زد زادك الله في صون الهدى نظرا إن الصليب ليشقى منك والصنم

ومن معانيه البديعة في صفة نهر :

ومطرد الأجزاء يصقل متنه صبا أعلنت للعين ما في ضميره
جريح بأطراف الحصى كلما جرى عليها شكا أوجاعه بخريره
كأن جبانا ريع تحت حبابه فأقبل ينقي نفسه في غديره

وله من قصيدة :

وأروي غلل الشوق بما لم يكن في قدرة الماء القراح

ولعله من قول البحتري :

وبي ظمأ لا يمكن الماء دفعه إلى نهلة من ريقها البارد العذب

ومن معانيه النادرة :

زادت على كحل العيون تكحلا وبسم نصل السهم وهو قتول

وقال يواسي المعتمد بن عباد وهو في معقله بعد عزله عن ملكه :

أتيأس من يوم يناقض أمسه وشهب الدراري في البروج تدور

ولما رحلتم بالندى في أكفكم وقلقل رضوى منكم وثبير
رفعت لساني بالقيامة قد دنت فهذي الجبال الراسيات تسير

ولعل بيته الأخير مأخوذ من قول عبدالله بن المعتز :

قد استوى الناس ومات الكمال وقال صرف الدهر : أين الرجال
هذا أبو القاسم في نعشه قوموا انظروا كيف تزول الجبال

وقال يتبرم بالزمان ويشكو الصحب :

أتحسبني أنسى وما زلت ذاكراً خيانة دهري أو خيانة صاحبي
ولما رأيت الناس يرهب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب

ولابن حمديس ديوان شعر، عرف فضله المستشرقون الطليان فطبعوه، وقد أحيوا بطبعه ذكر شاعر ممن أنبتتهم بلادهم، وإن كان شعره في غير لغتهم.

فهرس

الباب الثاني
الشعر الاندلسي

الباب الثالث
النثر الأندلسي

الباب الرابع
الأدب العربي في المغرب وجزر البحر